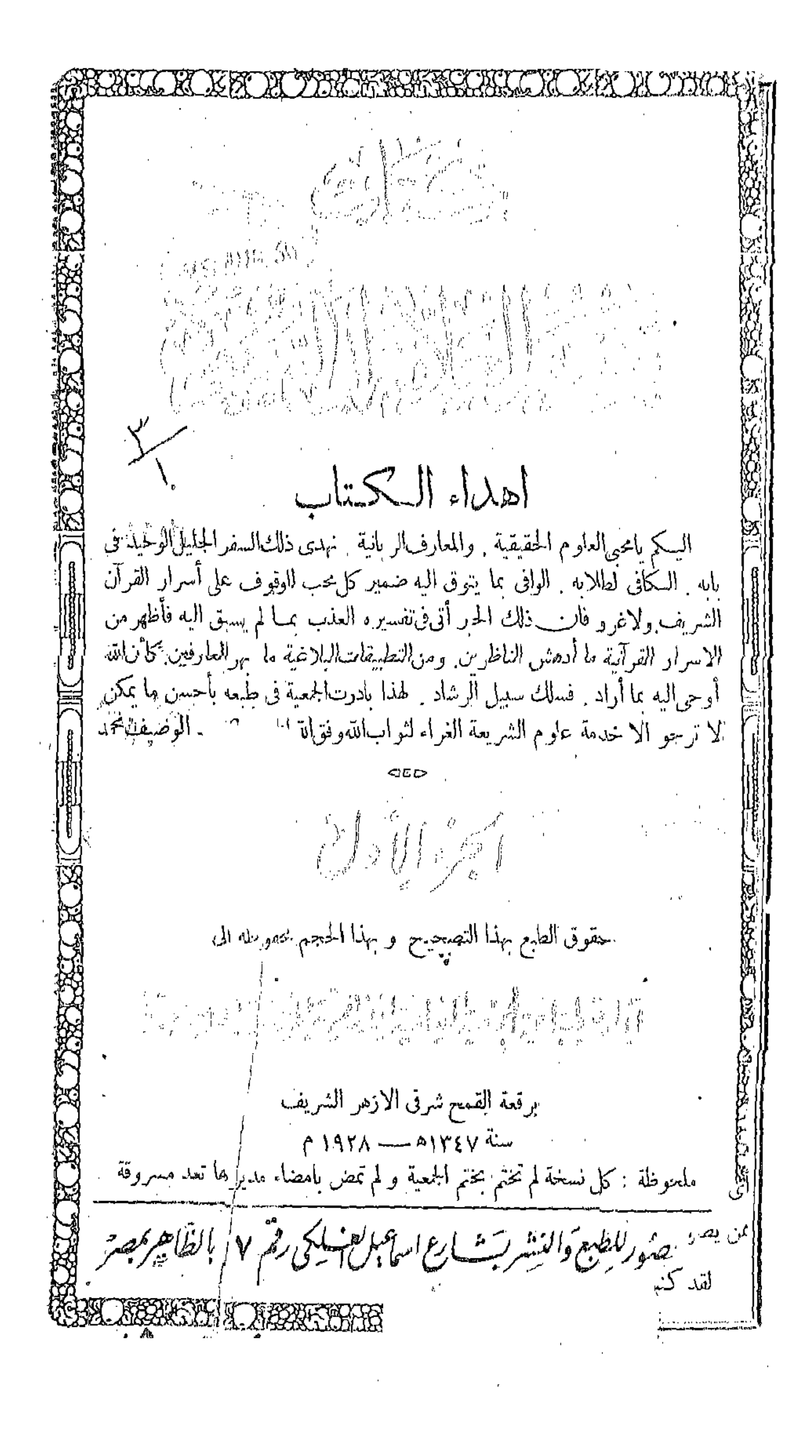


اهداء الكتاب

اليكم يامحبي العلوم الحقيقية . والمعارف الربانية . نهدى ذلك السفر الجليل الوحيد فى بابه . الكافى لطلابه . الوافى بما يتوق اليه ضمير كل محب للوقوف على أسرار القرآن الشريف . ولا غرو فان ذلك الحبر أتى فى تفسيره العذب بما لم يسبق اليه فأظهر من الاسرار القرآنية ما أدهش الناظرين . ومن التطبيقات البلاغية ما بهر العارفين . كأن الله أوحى اليه بما أراد . فسلك سبيل الرشاد . لهذا بادرت الجمعية فى طبعه بأحسن ما يمكن لا ترجو الا خدمة علوم الشريعة الغراء لثواب الله وفوائد [illegible] . الوصيف محمد

الجزء الأول

حقوق الطبع بهذا التصحيح و بهذا الحجم محفوظة الى

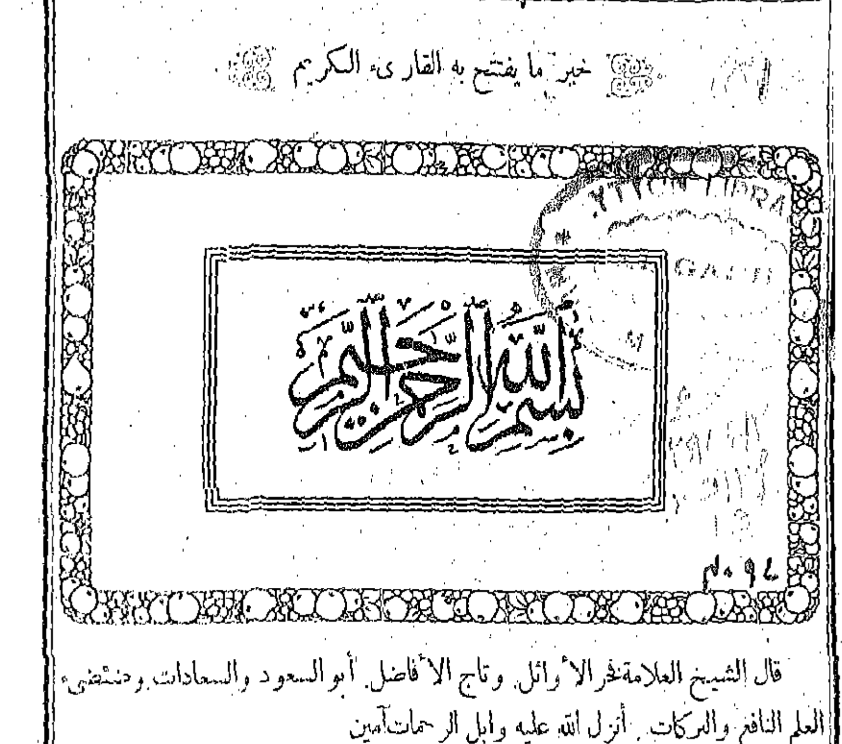
[illegible]

برقعة القمح شرق الازهر الشريف

سنة ١٣٤٧هـ — ١٩٢٨م

[illegible]صور للطبع والنشر بشارع اسماعيل الفلكى رقم ٧ بالظاهر بمصر

خير ما يفتتح به القارىء الكريم



قال الشيخ العلامة فخر الأوائل. وتاج الأفاضل. أبو السعود والسعادات. ومنتضى العلم النافع والبركات. أنزل الله عليه وابل الرحمات آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق. وبين له من شعائر الشرائع كل ما جل ودق. أنزل عليه أظهر بينات وأبهر حجج. قرآنا عربيا غير ذى عوج. مصدقا لما بين يديه من الكتاب ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب. ناطقا بكل أمر رشيد. هاديا الى صراط العزيز الحميد. آمرا بعبادة الصمد المعبود كتابا متشابها مثانى تقشعر منه الجلود. تكاد الرواسى لهيبته تمور. ويذوب منه الحديد ويميع صم الصخور. حقيقا بأن يسير به الجبال. و ييسر به كل صعب محال. معجزا ألجم كل مصقع من مهرة قحطان. و بكت كل مفلق من سحرة البيان. بحيث لو اجتمعت الانس والجن على معارضته ومباراته. لعجزوا عن الاتيان بمثل آية من آياته. نزله عليه على فترة من الرسل ليرشد الامة الى أقوم السبل فهداهم الى الحق وهم فى ضلال مبين. فاضمحل دجى الباطل وسطع نور اليقين. فمن اتبع هداه فقد فاز بمناه وأما من عانده وعصاه واتخذ الهه هواه. فقد هام فى مرامى الردى. وتردى فى مهاوى الزور ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. صلى الله عليه وعلى آله الاخيار. وصحبه الابرار ماناوبت الانواء. وتعاقبت الظلم والاضواء. وعلى من تبعهم باحسان مدى الدهور والا

مابين افق الطلوع والغروب ومابين نقطتى الشمال والجنوب منتظما فى سلك ولاياته الواسعة ومندرجا تحت ظلال راياته الرائعة فأصبحت منابر الربع المسكون مشرفة بذكر اسمه الميمون فياله من ملك استوعب ملكه البر البسيط واستغرق فلكه وجه البحر المحيط فكأنه فضاء ضربت فيه خيامه أو نصبت عليه ألويته وأعلامه مالك ممالك العالم ظل الله الظليل على كافة الامم قاصم القياصرة وقاهر القروم سلطان العرب والعجم والروم سلطان المشرقين وخاقان الخافقين الامام المقتدر بالقدرة الربانية والخليفة المعتز بالعزة السبحانية المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين وحماية المقامين الجليلين المفخمين ناشر القوانين السلطانية عاشر الخواقين العثمانية السلطان ابن السلطان سليمان خان ابن السلطان المظفر المنصور والخاقان الموقر المشهور صاحب المغازى المشهورة فى أقطار الامصار والفتوحات المذكورة فى صحائف الاسفار السلطان سليم خان ابن السلطان السعيد والخاقان المجيد السلطان بايزيد خان لازالت سلسلة سلطنته متسلسلة الى انتهاء سلسلة الزمان وأرواح أسلافه العظام متنزهة فى روضة الرضوان وكنت أتردد فى ذلك بين إقدام واحجام لقصور شانى وعزة المرام أين الحضيض من الذرى شتان بين الثريا والثرى وهيهات اصطياد العنقاء بالشباك واقتياد الجوزاء من بروج الافلاك فمضت عليه الدهور والسنون وتغيرت الاطوار وتبدلت الشئون فابتليت بتدبير مصالح العباد برهة فى قضاء البلاد وأخرى فى قضاء العساكر والاجناد فحال بينى وبين ما كنت اخال تراكم المهمات وتزاحم الاشغال وجموم العوارض والعلائق وهجوم الصوارف والعوائق والتردد الى المغازى والاسفار والتنقل من دار الى دار وكنت فى تضاعيف هاتيك الامور أقدر فى نفسى أن انتهز نهزة من الدهور ويتسنى لى القرار وتطمئن بى الدار وأظفر حينئذ بوقت خال اتبتل فيه الى جناب ذى العظمة والجلال وأوجه اليه وجهى وأسلم له سرى وعلانيتى وأنظر الى كل شئ بعين الشهود واتعرف سر الحق فى كل موجود تلافيا لما قد فات واستعدادا لما هو آت وأتصدى لتحصيل ما عزمت عليه وأتولى لتكميل ما توجهت اليه برفاهة واطمئنان وحضور قلب وفراغ جنان فبينما أنا فى هذا الخيال اذ بدا لى مالم يخطر بالبال تحولت الاحوال والدهر حول فوقعت فى أمر اشق من الاول أمرت بحل مشكلات الانام فيما شجر بينهم من النزاع والخصام فلقيت معضلة طويلة الذيول وصرت كالهارب من المطر الى السيول فبلغ السيل الزبى وغمرنى أى غمر غوارب ماجرى بين زيد وعمرو فأضحيت فى ضيق المجال وسعة الاشغال أشهر ممن يضرب بها الامثال فجعلت أتمثل بقول من قال:

لقد كنت أشكوك الحوادث برهة ... وأستمرض الايام وهى صحائح

الى ان تغشتنى وقيت حوادث تحقق ان السالفات منائح
فلما انصرمت عرا الآمال عن الفوز بفراغ البال . و رأيت أن الفرصة على جناح الفوات . وشمل الاسباب فى شرف الشتات . وقد مسنى الكبر وتضاءلت القوى والقدر . ودنا الأجل من الحلول وأشرفت شمس الحياة على الأفول . عزمت على انشاء ما كنت أنويه . وتوجهت إلى املاء ما ظلت أبتغيه . ناويا أن أسميه عند تمامه بتوفيق الله تعالى وانعامه (ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) فشرعت فيه مع تفاقم المكاره على وتزاحم المشاغل بين يدى . متضرعا إلى رب العظمة والجبروت . خلاق عالم الملك والملكوت . فى أن يعصمنى عن الزيغ والزلل . و يقينى مصارع السوء فى القول والعمل . و يوفقنى لتحصيل ما أرومه وأرجوه . و يهدينى الى تكميله على أحسن الوجوه و يجعله خير عدة وعتاد . أتمتع به يوم المعاد . فيامن توجهت وجوه الذل والابتهال نحو بابه المنيع . و رفعت أيدى الضراعة والسؤال إلى جنابه الرفيع . أفض علينا شوارق أنوار التوفيق وأطلعنا على دقائق أسرار التحقيق . وثبت أقدامنا على مناهج هداك . وأنطقنا بما فيه أمرك و رضاك . ولا تكلنا الى أنفسنا فى لحظة ولا آن . وخذ بناصيتنا الى الخير حيث كان . جئناك على جباه الاستكانة ضارعين . ولأبواب فيضك قارعين . أنت الملاذ فى كل أمر مبهم . وأنت المعاذ فى كل خطب ملم . لارب غيرك . ولاخير إلا خيرك . بيدك مقاليد الامور . لك الخلق والامر . واليك النشور .

﴿ تفسير سورة فاتحة الكتاب ﴾

الفاتحة فى الأصل أول ما من شانه ان يفتح كالكتاب والثوب أطلقت عليه لكونه واسطة فى فتح الكل ثم أطلقت على أول كل شىء فيه تدريج بوجه من الوجوه كالكلام التدريجى حصولا والسطور والاوراق التدريجية قراءة وعدا والتاء للنقل من الوصفية الى الاسمية أو هى مصدر بمعنى الفتح أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر اشعارا بأصالته كأنه نفس الفتح فان تعلقه به بالذات و بالباقى بواسطته لكن لاعلى معنى أنه واسطة فى تعلقه بالباقى ثانية حتى يرد أنه لا يتسنى فى الخاتمة لما أن ختم الشىء عبارة عن بلوغ آخره وذلك انما يتحقق بعد انقطاع الملابسة عن أجزائه الأول بل على معنى أن الفتح المتعلق بالاول فتح له أولا و بالذات وهو بعينه فتح للمجموع بواسطته لكونه جزأ منه و كذا الكلام فى الخاتمة فان بلوغ آخر الشىء يعرض للآخر أولا و بالذات وللكل بواسطته على الوجه الذى حققته والمراد بالاول ما يعم الاضافى فلا حاجة الى الاعتذار بأن اطلاق الفاتحة على السورة الكريمة

بتمامها باعتبار جزئها الأول والمراد بالكتاب هو المجموع الشخصى لا القدر المشترك بينه وبين أجزائه على ما عليه اصطلاح أهل الاصول ولاضير فى اشتهار السورة الكريمة بهذا الاسم فى أوائل عهد النبوة قبل تحصل المجموع بنزول الكل لما أن التسمية من جهة الله عز اسمه أو من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم بالاذن فيكفى فيها تحصله باعتبار تحققه فى علمه عز وجل أو فى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة الى السماء الدنيا وأملاه جبريل على السفرة ثم كان ينزله على النبى صلى الله عليه وسلم نجوماً فى ثلاث وعشرين سنة كما هو المشهور والاضافة بمعنى اللام كما فى جزء الشىء لا بمعنى من كما فى خاتم فضة لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف اليه لا جزئى له ومدار التسمية كونه مبدأ للكتاب على الترتيب المعهود لا فى القراءة فى الصلاة ولا فى التعليم ولا فى النزول كما قيل أما الاول فبين اذ ليس المراد بالكتاب القدر المشترك الصادق على مايقرأ فى الصلاة حتى تعتبر فى التسمية مبدئيتها له وأما الاخيران فلأن اعتبار المبدئية من حيث التعليم أو من حيث النزول يستدعى مراعاة الترتيب فى بقية أجزاء الكتاب من تينك الحيثيتين ولا ريب فى أن الترتيب التعليمى والترتيب النزولى ليسا على نسق الترتيب المعهود وتسمى أم القرآن لكونها أصلا ومنشأ له إما لمبدئيتها له و إما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله عز وجل والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والاحكام العملية التى هى سلوك الصراط المستقيم والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الاشقياء والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب وتسمى أم الكتاب أيضاً كما يسمى بها اللوح المحفوظ لكونه أصلا لكل الكائنات والآيات الواضحة الدالة على معانيها لكونها بينة تحمل عليها المتشابهات ومناط التسمية ما ذكر فى أم القرآن لاما أورده الامام البخارى فى صحيحه من أنه يبدأ بقراءتها فى الصلاة فانه مما لا تعلق له بالتسمية كما أشار اليه وتسمى سورة الكنز لقوله عليه السلام انها أنزلت من كنز تحت العرش أو لما ذكر فى أم القرآن كما أنه الوجه فى تسميتها الاساس والكافية والوافية وتسمى سورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسئلة لاشتمالها عليها وسورة الصلاة لوجوب قراءتها فيها وسورة الشفاء والشافية لقوله عليه السلام هى شفاء من كل داء والسبع المثانى لانها سبع آيات تثنى فى الصلاة أو لتكرر نزولها على ما روى أنها نزلت مرة بمكة حين فرضت الصلاة وبالمدينة أخرى حين حولت القبلة وقد صح أنها مكية لقوله تعالى ولقد آتيناك سبعاً من المثانى وهو مكى بالنص

بسم الله الرحمن الرحيم

اختلفت الأئمة فى شأن التسمية فى أوائل السور الكريمة فقيل أنها ليست من القرآن أصلا وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه ومذهب مالك والمشهور من مذهب قدماء الحنفية وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها. وقيل انها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل و التبرك بها وهو الصحيح من مذهب الحنفية. وقيل هى آية تامة من كل سورة صدرت بها وهو قول ابن عباس وقد نسب الى ابن عمر أيضاً رضى الله عنهم وعليه يحمل اطلاق عبارة ابن الجوزى فى زاد المسير حيث قال روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنها أنزلت مع كل سورة وهو أيضاً مذهب سعيد بن جبير والزهرى وعطاء وعبد الله بن المبارك وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وهو القول الجديد للشافعى رحمه الله ولذلك يجهر بها عنده فلا عبرة بما نقل عن الجصاص من أن هذا القول من الشافعى لم يسبقه اليه أحد. وقيل إنها آية من الفاتحة مع كونها قرآنا فى سائر السور أيضاً من غير تعرض لكونها جزأ منها أولا ولا لكونها آية تامة أولا وهو أحد قولى الشافعى على ما ذكره القرطبى ونقل عن الخطابى أنه قول ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم. وقيل انها آية تامة فى الفاتحة و بعض فى البواقى وقيل بعض آية فى الفاتحة وآية تامة فى البواقى. وقيل إنها بعض آية فى الكل وقيل إنها آيات من القرآن متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزأ منها وهذا القول غير معزى فى الكتب الى أحد وهناك قول آخر ذكره بعض المتأخرين ولم ينسبه الى أحد وهو إنها آية تامة فى الفاتحة وليست بقرآن فى سائر السور ولولا اعتبار كونها آية تامة لكان ذلك أحد محملى تردد الشافعى فانه قد نقل عنه أنها بعض آية فى الفاتحة وأما فى غيرها فقوله فيها متردد. فقيل بين أن يكون قرآنا أولا. وقيل بين أن يكون آية تامة أولا. قال الامام الغزالى والصحيح من الشافعى هو التردد الثانى. وعن أحمد بن حنبل فى كونها آية كاملة وفى كونها من الفاتحة روايتان ذكرهما ابن الجوزى ونقل أنه مع مالك وغيره ممن يقول أنها ليست من القرآن هـــذا. والمشهور من هـذه الاقاويل هى الثلاث الاول. والاتفاق على اثباتها فى المصاحف مع الاجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله عز وجل. يقضى بنفى القول الاول وثبوت القدر المشترك بين الاخيرين من غير دلالة على خصوصية أحدهما فان كونها جزأ من القرآن لا يستدعى كونها جزأ من كل سورة منه كما لا يستدعى كونها آية منفردة منه وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن من تركها

فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى وما روى عن أبى هريرة من أنه عليه السلام قال فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم وما روى عن أم سلمة من أنه عليه السلام قرأ سورة الفاتحة وعد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية وان دل كل واحد منها على نفى القول الثانى فليس شئ منها نصاً فى اثبات القول الثالث أما الأول فلانه لا يدل الا على كونها آيات من كتاب الله تعالى متعددة بعدد السور المصدرة بها لا على ما هو المطلوب من كونها آية تامة من كل واحدة منها الا أن يلجأ إلى أن يقال أن كونها آيات متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزأ منها قول لم يقل به أحد وأما الثانى فساكت عن التعرض لحالها فى بقية السور وأما الثالث فناطق بخلافه مع مشاركته للثانى فى السكوت المذكور والباء فيها متعلقة بمضمر ينبىء عنه الفعل المصدر بها كما أنها كذلك فى تسمية المسافر عند الحلول والارتحال وتسمية كل فاعل عند مباشرة الافعال ومعناها الاستعانة أو الملابسة تبركا أى باسم الله أقرأ أو أتلو وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد الى التخصيص كما فى اياك نعبد وتقدير أبدأ لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية مخل بما هو المقصود أعنى شمول البركة للكل وادعاء ان فيه امتثالا بالحديث الشريف من جهة اللفظ والمعنى معاً وفى تقدير أقرأ من جهة المعنى فقط ليس بشىء فان مدار الامتثال هو البدء بالتسمية لا تقدير فعله اذ لم يقل فى الحديث الكريم كل أمر ذى بال لم يقل فيه أو لم يضمر فيه أبدأ وهذا إلى آخر السورة الكريمة مقول على ألسنة العباد تلقينا لهم وارشاداً الى كيفية التبرك باسمه تعالى وهداية إلى منهاج الحمد وسؤال الفضل ولذلك سميت السورة الكريمة بما ذكر من تعليم المسئلة وانما كسرت ومن حق الحروف المفردة أن تفتح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر كما كسرت لام الامر ولام الاضافة داخلة على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء والاسم عند البصريين من الاسماء المحذوفة الاعجاز المبنية الأوائل على السكون قد أدخلت عليها عند الابتداء همزة لأن من دأبهم البدء بالمتحرك والوقف على الساكن ويشهد له تصريفهم على أسماء وسمى وسميت وسمى كهدى لغة فيه قال

والله أسماك سمى مباركا آثرك الله به ايثاركا

والقلب بعيد غير مطرد واشتقاقه من السمو لأنه رفع للمسمى وتنويه له وعند الكوفيين من السمة وأصله وسم حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل اعلالها ورد عليه بأن الهمزة لم تعهد داخلة على ما حذف صدره فى كلامهم ومن لغاتهم سم وسم قال

باسم الذى فى كل سورة اسمه ✲ وانما لم يقل بالله للفرق بين اليمين والتيمن أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة ههنا فانها تكون تارة بذاته تعالى وحقيقتها طلب المعونة على ايقاع الفعل واحداثه أى افاضة القدرة المفسرة عند الاصوليين من أصحابنا بما يتمكن به العبد من أداء ما لزمه المنقسمة الى ممكنة وميسرة وهى المطلوبة بإياك نستعين وتارة أخرى باسمه عز وعلا وحقيقتها طلب المعونة فى كون الفعل معتداً به شرعا فانه ما لم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم ولما كانت كل واحدة من الاستعانتين واقعة وجب تعيين المراد بذكر الاسم والا فالمتبادر من قولنا بالله عند الاطلاق لا سيما عند الوصف بالرحمن الرحيم هى الاستعانة الاولى ان قيل فليحمل الباء على التبرك وليستغن عن ذكر الاسم لما أن التبرك لا يكون الا به قلنا ذاك فرع كون المراد بالله هو الاسم وهل التشاجر الا فيه فلا بد من ذكر الاسم لينقطع احتمال ارادة المسمى ويتعين حمل الباء على الاستعانة الثانية أو التبرك وانما لم يكتب الالف لكثرة الاستعمال قالوا وطولت الباء عوضاً عنها ✲ والله أصله الاله فحذفت همزته على غير قياس كما ينبىء عنه وجوب الادغام وتعويض الالف واللام عنها حيث لزماه وجردا عن معنى التعريف ولذلك قيل يا ألله بالقطع فان المحذوف القياسى فى حكم الثابت فلا يحتاج الى التدارك بما ذكر من الادغام والتعويض وقيل على قياس تخفيف الهمزة فيكون الادغام والتعويض من خواص الاسم الجليل ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسماه عما سواه بما لا يوجد فيه من نعوت الكمال والاله فى الاصل اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو باطل أى مع قطع النظر عن وصف الحقية والبطلان لا مع اعتبار أحدهما لا بعينه ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم والصعق . وأما الله بحذف الهمزة فعلم مختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره أصلا واشتقاقه من الالاهة والالوهة والالوهية بمعنى العبادة حسبما نص عليه الجوهرى على أنه اسم منها بمعنى المألوه كالكتاب بمعنى المكتوب لا على أنه صفة منها بدليل أنه يوصف ولا يوصف به حيث يقال اله واحد ولا يقال شىء اله كما يقال كتاب مرقوم ولا يقال شىء كتاب والفرق بينهما أن الموضوع له فى الصفة هو الذات المبهمة باعتبار اتصافها بمعنى معين وقيامه بها فمدلولها مركب من ذات مبهمة لم يلاحظ معها خصوصية أصلا ومن معنى معين قائم بها على أن ملاك الامر تلك الخصوصية فبأى ذات يقوم ذلك المعنى يصح اطلاق الصفة عليها كما فى الافعال ولذلك تعمل عملها كاسمى الفاعل والمفعول . والموضوع له فى الاسم المذكور هو الذات المعينة والمعنى الخاص فمدلوله مركب من ذينك المعنيين من غير رجحان للمعنى على الذات كما

فى الصفة ولذلك لم يعمل عملها وقيل اشتقاقه من أله بمعنى تحير لانه سبحانه يحار فى شأنه العقول والافهام وأما أله كعبد وزنا ومعنى فمشتق من الاله المشتق من أله بالكسر وكذا تأله واستأله اشتقاق استنوق واستحجر من الناقة والحجر وقيل من أله الى فلان أي سكن اليه لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الارواح الى معرفته وقيل من أله اذا فزع من أمر نزل به وآلهه غيره اذا أجاره اذ العائذ به تعالى يفزع اليه وهو يجيره حقيقة أو فى زعمه وقيل أصله لاه على أنه مصدر من لاه يليه بمعنى احتجب وارتفع أطلق على الفاعل مبالغة وقيل هو اسم علم للذات الجليل ابتداء وعليه مدار أمر التوحيد فى قولنا لا إله إلا الله . ولا يخفى أن اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن اطلاقه على غيره أصلا كاف فى ذلك ولا يقدح فيه كون ذلك الاختصاص بطريق الغلبة بعد أن كان اسم جنس فى الأصل وقيل هو وصف فى الاصل لكنه لما غلب عليه بحيث لا يطلق على غيره أصلا صار كالعلم ويرده امتناع الوصف به . واعلم أن المراد بالمنكر فى كلمة التوحيد هو المعبود بالحق فمعناها لا فرد من أفراد المعبود بالحق الا ذلك المعبود بالحق وقيل أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الالف الثانية وادخال الالف واللام عليه وتفخيم لامه اذا لم ينكسر ما قبله سنة وقيل مطلقا وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ولا ينعقد به صريح اليمين وقد جاء لضرورة الشعر فى قوله

ألا لا بارك الله فى سهيل اذا ما الله بارك فى الرجال

(والرحمن الرحيم) صفتان مبنيتان من رحم بعد جعله لازما بمنزلة الغرائز بنقله الى رحم بالضم كما هو المشهور وقد قيل ان الرحيم ليس بصفة مشبهة بل هى صيغة مبالغة نص عليه سيبويه فى قولهم هو رحيم فلانا والرحمة فى اللغة رقة القلب والانعطاف ومنه الرحم لانعطافها على مافيها والمراد ههنا التفضل والاحسان أو ارادتهما بطريق اطلاق اسم السبب بالنسبة الينا على مسببه البعيد أو القريب فان أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التى هى أفعال دون المبادئ التى هى انفعالات . والاول من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى وانما امتنع صرفه الحاقا له بالاغلب فى بابه من غير نظر الى الاختصاص العارض فانه كما حظر وجود فعلى حظر وجود فعلانة فاعتباره يوجب اجتماع الصرف وعدمه فلزم الرجوع الى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص بان تقاس الى نظائرها من باب فعل يفعل فاذا كانت كلها ممنوعة من الصرف لتحقق وجود فعلى فيها علم ان هذه الكلمة أيضا فى أصلها مما تحقق فيها وجود فعلى فتمنع من الصرف وفيه من المبالغة ما ليس فى الرحيم ولذلك قيل يارحمن الدنيا والاخرة ورحيم الدنيا وتقديمه مع كون القياس تاخيره

رعاية لأسلوب الترقى الى الاعلى كما فى قولهم فلان عالم نحرير وشجاع باسل وجواد فياض لانه باختصاصه به عز وجل صار حقيقا بأن يكون قرينا للاسم الجليل الخاص به تعالى ولان ما يدل على جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحق بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها وافراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة ﴿ الحمد لله ﴾ الحمد هو النعت بالجميل على الجميل اختياريا كان أو مبدأ له على وجه يشعر ذلك بتوجيهه الى المنعوت وبهذه الحيثية يمتاز عن المدح فانه خال عنها يرشدك الى ذلك ماترى بينهما من الاختلاف فى كيفية التعلق بالمفعول فى قولك حمدته ومدحته فان تعلق الثانى بمفعوله على منهاج تعلق عامة الافعال بمفعولاتها وأما الاول فتعلقه بمفعوله منبئ عن معنى الانهاء كما فى قولك كلمته فانه معرب عما يفيده لام التبليغ فى قولك قلت له ونظايره شكرته وعبدته وخدمته فان تعلق كل منها منبيء عن المعنى المذكور وتحقيقه ان مفعول كل فعل فى الحقيقة هو الحدث الصادر عن فاعله ولا يتصور فى كيفية تعلق الفعل به أى فعل كان اختلاف أصلا وأما المفعول به الذى هو محله وموقعه فلما كان تعلقه به ووقوعه عليه على أنحاء مختلفة حسبما يقتضيه خصوصيات الافعال بحسب معانيها المختلفة فان بعضها يقتضى ان يلابسه ملابسة تامة مؤثرة فيه كعامة الافعال وبعضها يستدعى ان يلابسه أدنى ملابسة إما بالانتهاء اليه كالاعانة مثلا أو بالابتداء منه كالاستعانة مثلا اعتبر فى كل نحو من أنحاء تعلقه به كيفية لائقة بذلك النحو مغايرة لما اعتبر فى النحوين الاخيرين فنظم القسم الاول من التعلق فى سلك التعلق بالمفعول الحقيقى مراعاة لقوة الملابسة وجعل كل واحد من القسمين الاخيرين من قبيل التعلق بواسطة الجار المناسب فان قولك اعنته مشعر بانتهاء الاعانة اليه وقولك استعنته بابتدائها منه وقد يكون لفعل واحد مفعولان يتعلق بأحدهما على الكيفية الاولى وبالآخر على الثانية أو الثالثة كما فى قولك حدثنى الحديث وسألنى المال فان التحديث مع كونه فعلا واحدا قد تعلق بك على الكيفية الثانية وبالحديث على الاولى وكذا السؤال فانه فعل واحد وقد تعلق بك على الكيفية الثالثة وبالمال على الاولى ولا ريب فى ان اختلاف هذه الكيفيات الثلاث وتباينها واختصاص كل من المفاعيل المذكورة بما نسب اليه منها مما لا يتصور فيه تردد ولا نكير وان كان لا يتضح حق الاتضاح الا عند الترجمة والتفسير وان مدار ذلك الاختلاف ليس الا اختلاف الفعل أو اختلاف المفعول واذ لا اختلاف فى مفعول الحمد والمدح تعين ان اختلافهما فى كيفية التعلق لاختلافهما فى المعنى قطعا هذا وقد قيل المدح مطلق عن قيد الاختيار يقال مدحت زيدا على حسنه ورشاقة قده وأيا ما كان فليس بينهما ترادف بل اخوة من جهة الاشتقاق الكبير وتناسب تام فى المعنى

كالنصر والتأييد فانهما متناسبان معنى من غير ترادف لما ترى بينهما من الاختلاف في كيفية التعلق بالمفعول وانما مرادف النصر الاعانة ومرادف التأييد التقوية فتدبر ثم ان ماذكر من التفسير هو المشهور من معنى الحمد واللائق بالارادة في مقام التعظيم وأما ماذكر في كتب اللغة من معنى الرضا مطلقا كما في قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وفي قولهم لهذا الامر عاقبة حميدة وفي قول الاطباء بحران محمود مما لا يختص بالفاعل فضلا عن الاختيار فبمعزل عن استحقاق الارادة ههنا استقلالا أو استتباعا بحمل الحمد على ما يعم المعنيين اذ ليس في اثباته له عز وجل فائدة يعتد بها وأما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء وآداب الجوارح وعقد القلب على وصف المنعم بنعت الكمال كما قال من قال

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

فاذن هو أعم منهما من جهة وأخص من أخرى ونقيضه الكفران ولما كان الحمد من بين شعب الشكر أدخل في اشاعة النعمة والاعتداد بشأنها وأدل على مكانها لما في عمل القلب من الخفاء وفي أعمال الجوارح من الاحتمال جعل الحمد رأس الشكر وملاكا لامر في قوله عليه السلام (الحمد رأس الشكر ماشكر الله عبد لم يحمده) وارتفاعه بالابتداء وخبره الظرف وأصله النصب كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرة التي لا تكاد تستعمل معها نحو شكرا وعجبا كانه قيل نحمد الله حمدا بنون الحكاية ليوافق ما في قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين لاتحاد الفاعل في الكل وأما ما قيل من أنه بيان لحمدهم له تعالى كانه قيل كيف تحمدون فقيل اياك نعبد فمع انه لا حاجة اليه مما لا صحة له في نفسه فان السؤال المقدر لابد أن يكون بحيث يقتضيه انتظام الكلام وينساق اليه الاذهان والافهام ولا ريب في أن الحامد بعد ما ساق حمده تعالى على تلك الكيفية اللائقة لا يخطر ببال أحد أن يسأل عن كيفيته. على ان ماقدر من السؤال غير مطابق للجواب فانه مسوق لتعيين المعبود لا لبيان العبادة حتى يتوهم كونه بيانا لكيفية حمدهم والاعتذار بأن المعنى نخصك بالعبادة وبه يتبين كيفية الحمد تعكيس للأمر وتمحل لتوفيق المنزل المقرر بالموهوم المقدر وبعد اللتيا والتي ان فرض السؤال من جهته عز وجل فاتت نكتة الالتفات التي أجمع عليها السلف والخلف وان فرض من جهة الغير يختل النظام لابتناء الجواب على خطابه تعالى وبهذا يتضح فساد ماقيل انه استئناف جوابا لسؤال يقتضيه اجراء تلك الصفات العظام على الموصوف بها فكانه قيل ما شأنكم معه وكيف توجهكم اليه فأجيب بحصر العبادة والاستعانة. فيه فان تناسى

جانب السائل بالكلية و بناء الجواب على خطابه عز وعلا مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله والحق الذى لا محيد عنه انه استئناف صدر عن الحامد بمحض ملاحظة اتصافه تعالى بما ذكر من النعوت الجليلة الموجبة للاقبال الكلى عليه من غير أن يتوسط هناك شيء آخر كما ستحيط به خبرا. وايثار الرفع على النصب الذى هو الاصل للايذان بأن ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لاثبات مثبت وان ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيده قراءة النصب وهو السر فى كون تحية الخليل للملائكة عليهم التحية والسلام أحسن من تحيتهم له فى قوله تعالى قالوا سلاما قال سلام وتعريفه للجنس ومعناه الاشارة الى الحقيقة من حيث هى حاضرة فى ذهن السامع والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى المستدعى لتخصيص جميع أفرادها به سبحانه على الطريق البرهانى لكن لا بناء على أن أفعال العباد مخلوقة له تعالى فتكون الافراد الواقعة بمقابلة ما صدر عنهم من الافعال الجميلة راجعة اليه تعالى بل بناء على تنزيل تلك الافراد ودواعيها فى المقام الخطابى منزلة العدم كيفا وكما وقد قيل للاستغراق الحاصل بالقصد الى الحقيقة من حيث تحققها فى ضمن جميع افرادها حسبما يقتضيه المقام وقرىء الحمد لله بكسر الدال اتباعا لها باللام وبضم اللام اتباعا لها بالدال بناء على تنزيل الكلمتين لكثرة استعمالها مقترنتين منزلة كلمة واحدة مثل المغيرة ومنحدر الجبل (رب العالمين) بالجر على انه صفة لله فان اضافته حقيقية مفيدة للتعريف على كل حال ضرورة تعين ارادة الاستمرار وقرىء منصوبا على المدح أو بما دل عليه الجملة السابقة كأنه قيل نحمد الله رب العالمين ولا مساغ لنصبه بالحمد لقلة أعمال المصدر المحلى باللام وللزوم الفصل بين العامل والمعمول بالخبر والرب فى الاصل مصدر بمعنى التربية وهى تبليغ الشيء الى كماله شيأ فشيأ وصف به الفاعل مبالغة كالعدل وقيل صفة مشبهة من ربه يربه مثل نمه ينمه بعد جعله لازما لنقله الى فعل بالضم كما هو المشهور سمى به المالك لانه يحفظ ما يملكه و يربيه ولا يطلق على غيره تعالى الا مقيدا كرب الدار و رب الدابة ومنه قوله تعالى فيسقى ربه خمرا وقوله تعالى ارجع الى ربك وما فى الصحيحين من انه عليه السلام قال (لا يقل أحدكم أطعم ربك وضىء ربك ولا يقل أحدكم ربى وليقل سيدى ومولاى) فقد قيل ان النهى فيه للتنزيه وأما الارباب فحيث لم يمكن اطلاقه على الله سبحانه جاز فى اطلاقه الاطلاق والتقييد كما فى قوله تعالى أأرباب متفرقون خير الاية والعالم اسم لما يعلم به كالخاتم والقالب غلب فيما يعلم به الصانع تعالى من المصنوعات أى فى القدر المشترك بين أجناسها و بين مجموعها فانه كما يطلق على كل جنس جنس منها فى قولهم عالم الاجسام فى المعنى

وعالم العناصر وعالم النبات وعالم الحيوان الى غير ذلك يطلق على المجموع أيضا كما فى
قولنا العالم بجميع أجزائه محدث وقيل هو اسم لاولى العلم من الملائكة والثقلين
وتناوله لما سواهم بطريق الاستتباع وقيل أريد به الناس فقط فان كل واحد منهم من
حيث اشتماله على نظائر ما فى العالم الكبير من الجواهر والاعراض يعلم بها الصانع كما
يعلم بما فيه عالم على حياله ولذلك أمر بالنظر فى الانفس كالنظر فى الآفاق فقيل وفى
أنفسكم أفلا تبصرون والاول هو الاحق الأظهر وايثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته
تعالى لجميع الاجناس والتعريف لاستغراق أفراد كل منها باسرها اذ لو أفرد لربما توهم
أن المقصود بالتعريف هو الحقيقة من حيث هى أو استغراق أفراد جنس واحد على
الوجه الذى أشير اليه فى تعريف الحمد وحيث صح ذلك بمساعدة التعريف نزل العالم
وان لم ينطلق على آحاد مدلوله منزلة الجمع حتى قيل انه جمع لا واحد له من لفظه فكما
ان الجمع المعرف يستغرق آحاد مفرده وان لم يصدق عليها كما فى مثل قوله تعالى والله
يحب المحسنين أى كل محسن كذلك العالم يشمل افراد الجنس المسمى به وان لم ينطلق
عليها كأنها آحاد مفرده التقديرى ومن قضية هذا التنزيل تنزيل جمعه منزلة جمع الجمع
فكما أن الاقاويل يتناول كل واحد من آحاد الاقوال يتناول لفظ العالمين كل واحد
من آحاد الاجناس التى لا تكاد تحصى روى عن وهب بن منبه انه قال لله تعالى ثمانية
عشر ألف عالم والدنيا عالم منها وانما جمع بالواو والنون مع اختصاص ذلك بصفات
العقلاء وما فى حكمها من الاعلام لدلالته على معنى العلم مع اعتبار تغليب العقلاء على
غيرهم واعلم ان عدم انطلاق اسم العالم على كل واحد من تلك الاحاد ليس الا باعتبار
الغلبة والاصطلاح وأما باعتبار الاصل فلاريب فى صحة الاطلاق قطعا لتحقق المصداق
حتما فانه كما يستدل على الله سبحانه بمجموع ماسواه وبكل جنس من أجناسه يستدل
عليه تعالى بكل جزء من أجزاء ذلك المجموع وبكل فرد من أفراد تلك الأجناس
لتحقق الحاجة الى المؤثر الواجب لذاته فى الكل فان كل ماظهر فى المظاهر مما عز
وهان وحضر فى هذه المحاضر كائنا ما كان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح
و[illegible] عالم التوحيد وأما شمول ربوبيته عز وجل للكل فما لاحاجة الى بيانه اذ لاشيء مما
جهة ق به نطاق الامكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات
جهة ال[illegible]جانيات والجسمانيات الا وهو فى حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية
استئناف [illegible]احدا لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار الا فى مطمورة العدم
قيل ما شأنه [illegible]ار لكن يفيض عليه من الجناب الاقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان

يمضى وكل آن يمر و ينقضى من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وصفاته وكمالاته مالايحيط به فلك التعبير ولا يعلمه الا العليم الخبير . ضرورة انه كما لايستحق شيء من الممكنات بذاته الوجود ابتداء لايستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدأ الاول عز وعلا فكما لا يتصور وجوده ابتداء مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الاصلى لايتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء لما ان الدوام من خصائص الوجود الواجبى وظاهر أن مايتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التىهى علله وشرائطه وان كانت متناهية الوجود تناهى مادخل تحت الوجود لكن الامور العدمية التى لها دخل فى وجوده وهى المعبر عنها بارتفاع الموانع ليست كذلك اذ لااستحالة فى ان يكون لشيء واحد موانع غير متناهية يتوقف وجوده أو بقاؤه على ارتفاعها أى بقائها على العدم مع امكان وجودها فى نفسها فابقاء تلك الموانع التى لاتتناهى على العدم تربية لذلك الشيء من وجوه غير متناهية و بالجملة فآثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات فى كل آن من آنات الوجود غير متناهية فسبحانه سبحانه ما أعظم سلطانه لاتلاحظهالعيون بانظارها. ولا تطالعهالعقول بافكارها. شأنهلايضاهىواحسانه لايتناهى. ونحن فى معرفته حائرونوفى اقامة مراسم شكره قاصرون.نسألك اللهم الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لا نحصى ثناء عليك لا اله الا أنت نستغفرك ونتوب اليك (الرحمن الرحيم) صفتان لله فان أريدبمافهما من الرحمة ما يختص بالعقلاء من العالمين أو ما يفيض على الكل بعد الخروج الى طور الوجود من النعم فوجه تأخيرهما عن وصف الربوبية ظاهر وان أريد مايعم الكل فى الاطوار كلها حسبما فى قوله تعالى و رحمتى وسعت كل شيء فوجه الترتيب ان التربية لا تقتضى المقارنة للرحمة فايرادهما فى عقبها للايذان بأنه تعالى متفضل فيها فاعل بقضية رحمته السابقة من غير وجوب عليه وبانها واقعة على أحسن ما يكون والاقتصار على نعته تعالى بهما فىالتسمية لما انهالانسب بحال المتبرك المستعين باسمه الجليل والاوفق لمقاصده (مالك يوم الدين) صفة رابعة له تعالى وتأخيرها عنالصفات الاول مما لاحاجة الى بيان وجهه وقرأ أهل الحرمين المحترمين ملك من الملك الذى هوعبارة عن السلطان القاهر والاستيلاء الباهر والغلبة التامة والقدرة على التصرف الكلى فى أمورالعامة بالامر والنهى وهو الانسب بمقام الاضافة الى يوم الدين كما فى قوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقرىء ملك بالتخفيف وملك بلفظ الماضىومالكبالنصب على المدح أوالحال و بالرفع منوناً ومضافا

على أنه خبر مبتدأ محذوف وملك مضافا بالرفع والنصب واليوم فى العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان وفى الشرع عما بين طلوع الفجر الثانى وغروب الشمس والمراد ههنا مطلق الوقت والدين الجزاء خيرا كان أو شرا ومنه الثانى فى المثل السائر كما تدين تدان والاول فى بيت الحماسة

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وأما الاول فى الاول والثانى فى الثانى فليس بجزاء حقيقة وانما سمى به مشاكلة أو تسمية للشىء باسم مسببه كما سميت ارادة القيام والقراءة باسمهما فى قوله عز اسمه اذا قمتم الى الصلاة وقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ولعله هو السر فى بناء المفاعلة من الافعال التى تقوم أسبابها بمفعولاتها نحو عاقبت اللص ونظائره فان قيام السرقة التى هى سبب العقوبة باللص نزل منزلة قيام المسبب به وهى العقوبة فصار كأنها قامت بالجانبين وصدرت عنهما فبنيت صيغة المفاعلة الدالة على المشاركة بين الاثنين واضافة اليوم اليه لادنى ملابسة كاضافة سائر الظروف الزمانية الى ما وقع فيها من الحوادث كيوم الاحزاب وعام الفتح وتخصيصه من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والجمع والحساب لكونه أدخل فى الترغيب والترهيب فان ماذكر من القيامة وغيرها من مبادى الجزاء ومقدماته واضافة مالك الى اليوم اضافة اسم الفاعل الى الظرف على نهج الاتساع المبنى على اجرائه مجرى المفعول به مع بقاء المعنى على حاله كقولهم ياسارق الليلة أهل الدار أى مالك أمور العالمين كلها فى يوم الدين وخلو اضافته عن افادة التعريف المسوغ لوقوعه صفة للمعرفة انما هو اذا أريد به الحال أو الاستقبال وأما عند ارادة الاستمرار الثبوتى كما هو اللائق بالمقام فلا ريب فى كونها اضافة حقيقية كاضافة الصفة المشبهة الى غير مفعولها فى قراءة ملك يوم الدين ويوم الدين وان لم يكن مستمرا فى جميع الأزمنة إلا أنه لتحقق وقوعه وبقائه أبدا أجرى مجرى المتحقق المستمر ويجوز أن يراد به الماضى بهذا الاعتبار كما يشهد به القراءة على صيغة الماضى وما ذكر من اجراء الظرف مجرى المفعول به انما هو من حيث المعنى لا من حيث الاعراب حتى يلزم كون الاضافة لفظية ألا يرى انك تقول فى مالك عبده أمس أنه مضاف الى المفعول به على معنى أنه كذلك معنى لا أنه منصوب محلا وتخصيصه بالاضافة اما لتعظيمه وتهويله أو لبيان تفرده تعالى باجراء الأمر فيه وانقطاع العلائق المجازية بين الملاك والاملاك حينئذ بالكلية واجراء هاتيك الصفات الجليلة عليه سبحانه تعليل لما سبق من اختصاص الحمد به تعالى المستلزم لاختصاص استحقاقه به تعالى وتمهيد لما لحق من اقتصار العبادة

والاستعانة عليه فان كل واحدة منها مفصحة عن وجوب ثبوت كل واحد منها له تعالى وامتناع ثبوتها لما سواه. أما الاولى والرابعة فظاهر لأنهما متعرضتان صراحة لكونه تعالى ربا مالكا وما سواه مربوباً مملوكا له تعالى. وأما الثانية والثالثة فلان اتصافه تعالى بهما ليس الا بالنسبة الى ما سواه من العالمين وذلك يستدعى أن يكون الكل منعما عليهم فظهر أن كل واحدة من تلك الصفات كما دلت على وجوب ثبوت الأمور المذكورة له تعالى دلت على امتناع ثبوتها لما عداه على الاطلاق وهو المعنى بالاختصاص (إياك نعبد وإياك نستعين) التفات من الغيبة إلى الخطاب وتلوين للنظم من باب الى باب جار على نهج البلاغة فى افتنان الكلام ومسالك البراعة حسبما يقتضى المقام لما أن التنقل من أسلوب الى أسلوب أدخل فى استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب والغيبة الى كل واحد من الآخرين كما فى قوله عز وجل (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا) الاية وقوله تعالى (حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) الى غير ذلك من الالتفاتات الواردة فى التنزيل لاسرار تقتضيها ومزايا تستدعيها ومما استأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة الدالة على أن تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى لما أجرى عليه من النعوت الجليلة التى أوجبت له تعالى أكمل تميز وأتم ظهور بحيث تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور فاستدعى استعمال صيغة الخطاب والايذان بأن حق التالى بعد ما تأمل فيما سلف من تفرده تعالى بذاته الاقدس المستوجب المعبودية وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميزة له عن جميع أفراد العالمين وافتقار الكل اليه فى الذات والوجود ابتداء وبقاء على التفصيل الذى مرت اليه الاشارة أن يترقى من رتبة البرهان الى طبقة العيان وينتقل من عالم الغيبة الى عالم الشهود ويلاحظ نفسه فى حظائر القدس حاضرا فى محاضر الانس كأنه واقف لدى مولاه ماثل بين يديه وهو يدعو بالخضوع والاخبات ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلا يامن هذه شئون ذاته وصفاته نخصك بالعبادة والاستعانة فان كل ما سواك كائناً ما كان بمعزل من استحقاق الوجود فضلا عن استحقاق أن يعبد أو يستعان ولعل هذا هو السر فى اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة فى كل ركعة من الصلاة التى هى مناجاة العبد لمولاه ومظنة للتبتل اليه بالكلية (وايا) ضمير متصل منصوب وما يلحقه من الكاف والياء والهاء حروف زيدت لتعيين الخطاب والتكلم والغيبة لا محل لها من الاعراب كالتاء فى أنت والكاف فى أرأيتك وما ادعاه الخليل من الاضافة محتجاً عليه بما حكاه عن بعض العرب اذا بلغ الرجل الستين فاياه

وايا الشواب فمما لا يعول عليه وقيل هى الضمائر وايا دعامة لها لتصيرها منفصلة وقيل الضمير هو المجموع وقرىء اياك بالتخفيف و بفتح الهمزة والتشديد وهياك بقلب الهمزة هاء والعبادة أقصى غاية التذلل والخضوع ومنه طريق معبد أى مذلل والعبودية أدنى منها وقيل العبادة فعل ما يرضى به الله والعبودية الرضا بما فعل الله تعالى والاستعانة طلب المعونة على الوجه الذى مر بيانه وتقديم المفعول فيهما لما ذكر من القصر والتخصيص كما فى قوله تعالى واياى فارهبون مع ما فيه من التعظيم والاهتمام به قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه نعبدك ولا نعبد غيرك وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة ولابراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب وتقديم العبادة لما أنها من مقتضيات مدلول الاسم الجليل وان ساعده الصفات المجراة عليه أيضا وأما الاستعانة فمن الاحكام المبنية على الصفات المذكورة ولان العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المستعين ولان العبادة واجبة حتما والاستعانة تابعة للمستعان فيه فى الوجوب وعدمه وقيل لأن تقديم الوسيلة على المسئول ادعى الى الاجابة والقبول هذا على تقدير كون اطلاق الاستعانة على المفعول فيه ليتناول كل مستعان فيه كما قالوا وقد قيل أنه لما ان المسئول هو المعونة فى العبادة والتوفيق لاقامة مراسمها على ما ينبغى وهو اللائق بشأن التنزيل والمناسب لحال الحامد فان استعانته مسبوقة بملاحظة فعل من أفعاله ليستعينه تعالى فى ايقاعه ومن البين أنه عند استغراقه فى ملاحظة شئونه تعالى واشتغاله باداء ما توجبه تلك الملاحظة من الحمد والثناء لا يكاد يخطر بباله من أفعاله وأحواله الا الاقبال الكلى عليه والتوجه التام اليه ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى أولا وباستدعاء الهداية إلى ما يوصل اليه آخرا فكيف يتصور أن يشتغل فيما بينهما بما لا يعنيه من أمور دنياه أو بما يعمها وغيرها كأنه قيل واياك نستعين فى ذلك فانا غير قادرين على أداء حقوقه من غير اعانة منك فوجه الترتيب حينئذ واضح وفيه من الاشعار بعلو رتبة عبادته تعالى وعزة منالها وبكونها عند العابد أشرف المباغى والمقاصد وبكونها من مواهبه تعالى لا من أعمال نفسه ومن الملاءمة لما يعقبه من الدعاء مالا يخفى وقيل الواو للحال أى اياك نعبد مستعينين بك وايثار صيغة المتكلم مع الغير فى الفعلين للايذان بقصور نفسه وعدم لياقته بالوقوف فى مواقف الكبرياء منفردا وعرض العبادة واستدعاء المعونة والهداية مستقلا وان ذلك انما يتصور من عصابة هو من جملتهم وجماعة هو من زمرتهم كما هو ديدن الملوك أو للاشعار باشتراك سائر الموحدين له فى الحال العارضة له بناء على تعاضد الادلة الملجئة الى ذلك وقرىء نستعين بكسر

النون على لغة بنى تميم (اهدنا الصراط المستقيم) افراد لمعظم افراد المعونة المسئولة بالذكر وتعيين لما هو الاهم أو بيان لها كأنه قيل كيف أعينكم فقيل اهدنا والهداية دلالة بلطف على مايوصل الى البغية ولذلك اختصت بالخير وقوله تعالى (فاهدوهم الى صراط الجحيم) وارد على نهج التهكم والاصل تعديته بالى واللام كما فى قوله تعالى (قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق) فعومل معاملة اختار فى قوله تعالى (واختار موسى قومه) وعليه قوله تعالى (لنهدينهم سبلنا) وهداية الله تعالى مع تنوعها الى أنواع لاتكاد تحصر منحصرة فى أجناس مترتبة. منها أنفسية كافاضة القوى الطبيعية والحيوانية التى بها يصدر عن المرء أفاعيله الطبيعية والحيوانية والقوى المدركة والمشاعر الظاهرة والباطنة التى بها يتمكن من اقامة مصالحه المعاشية والمعادية ومنها آفاقية فأما تكوينية معربة عن الحق بلسان الحال وهى نصب الادلة المودعة فى كل فرد من أفراد العالم حسبما لوح به فيماسلف. وأما تنزيلية مفصحة عن تفاصيل الاحكام النظرية والعملية بلسان المقال بارسال الرسل وانزال الكتب المنطوية على فنون الهدايات التى من جملتها الارشاد الى مسلك الاستدلال بتلك الادلة التكوينية الآفاقية والانفسية والتنبيه على مكانها كما أشير إليه مجملا فى قوله تعالى (وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وفى قوله عز وعلا (ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون) ومنها الهداية الخاصة وهى كشف الأسرار على قلب المهدى بالوحى أو الالهام ولكل مرتبة من هذه المراتب صاحب ينتحيها وطالب يستدعيها والمطلوب إما زيادتها كما فى قوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وأما الثبات عليها كما روى عن على وأبى رضى الله عنهما اهدنا ثبتنا. ولفظ الهداية على الوجه الأخير مجاز قطعا وأما على الاول فان اعتبر مفهوم الزيادة داخلا فى المعنى المستعمل فيه كان مجازا أيضا وان اعتبر خارجا عنه مدلولا عليه بالقرائن كان حقيقة لأن الهداية الزائدة هداية كما ان العبادة الزائدة عبادة فلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز وقرىء أرشدنا والصراط الجادة أصله السين قلبت صادا لمكان الطاء كمصيطر فى مسيطر من سرط الشىء اذا ابتلعه سميت به لانها تسترط السابلة اذا سلكوها كما سميت لقما لانها تلتقمهم وقد تشم الصاد صوت الزاء تحريا للقرب من المبدل منه وقد قرىء بهن جميعا وفصحاهن اخلاص الصاد وهى لغة قريش وهى الثابتة فى الامام وجمعه صرط ككتاب وكتب وهو كالطريق والسبيل فى التذكير والتأنيث والمستقيم المستوى والمراد به طريق الحق وهى الملة الحنيفية السمحة المتوسطة بين الافراط والتفريط (صراط الذين أنعمت

عليهم) بدل من الاول بدل الكل وهو فى حكم تكرير العامل من حيث انه المقصود بالنسبة وفائدته التأكيد و التنصيص على أن طريق الذين أنعم الله عليهم و هم المسلمون هو العلم فى الاستقامة و المشهود له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم الا اليه و اطلاق الانعام لقصد الشمول فان نعمة الاسلام عنوان النعم كلها فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها وقيل المراد بهم الانبياء عليهم السلام و لعل الاظهر أنهم المذكورون فى قوله عز قائلا (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين) بشهادة ما قبله من قوله تعالى (و لهديناهم صراطا مستقيما) وقيل هم أصحاب موسى و عيسى عليهما السلام قبل النسخ و التحريف وقرئ صراط من أنعمت عليهم و الانعام ايصال النعمة و هى فى الاصل الحالة التى يستلذها الانسان من النعمة و هى اللين ثم أطلقت على ما تستلذه النفس من طيبات الدنيا . ونعم الله تعالى مع استحالة احصائها ينحصر أصولها فى دنيوى وأخروى و الاول قسمان وهبى وكسبى و الوهبى أيضا قسمان روحانى كنفخ الروح فيه وامداده بالعقل و ما يتبعه من القوى المدركة فانها مع كونها من قبيل الهدايات نعم جليلة فى أنفسها وجسمانى كتخليق البدن و القوى الحالة فيه و الهيئات العارضة له من الصحة وسلامة الاعضاء و الكسبى تخلية النفس عن الرذائل و تحليتها بالاخلاق السنية و الملكات البهية و تزيين البدن بالهيئات المطبوعة و الحلى المرضية و حصول الجاه و المال . و الثانى مغفرة ما فرط منه و الرضا عنه و تبوئته فى أعلى عليين مع المقربين و المطلوب هو القسم الاخير و ما هو ذريعة إلى نيله من القسم الاول اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم و رحمتك الواسعة (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) صفة للموصول على أنه عبارة عن احدى الطوائف المذكورة المشهورة بالانعام عليهم و باستقامة المسلك و من ضرورة هذه الشهرة شهرتهم بالمغايرة لما أضيف اليه كلمة غير من المتصفين بضدى الوصفين المذكورين أعنى مطلق المغضوب عليهم و الضالين فاكتسبت بذلك تعرفا مصححا لوقوعها صفة للمعرفة كما فى قولك عليك بالحركة غير السكون وصفوا بذلك تكملة لما قبله و ايذانا بأن السلامة مما ابتلى به أولئك نعمة جليلة فى نفسها أى الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التى هى نعمة الايمان و نعمة السلامة من الغضب و الضلال وقيل المراد بالموصول طائفة من المؤمنين لا بأعيانهم فيكون بمعنى النكرة كذى اللام اذا أريد به الجنس فى ضمن بعض الافراد لا بعينه وهو المسمى بالمعهود الذهنى و بالمغضوب عليهم و الضالين اليهود والنصارى كما ورد فى مسند أحمد و الترمذى فيبقى لفظ غير على ابهامه نكرة مثل موصوفه. وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة مخل ببدلية ما أضيف اليه

مما قبله فان مداره كون صراط المؤمنين علما فى الاستقامة مشهودا له بالاستواء على الوجه الذى تحققته فيما سلف و من البين ان ذلك من حيث اضافته و انتسابه الى كلهم لا الى بعض مبهم منهم و بهذا تبين ان لا سبيل الى جعل غير المغضوب عليهم بدلا من الموصول لما عرفت من أن شأن البدل أن يفيد متبوعه مزيدا تأكيد و تقرير و فضل ايضاح وتفسير و لا ريب فى أن قصارى أمر ما نحن فيه أن يكتسب مما أضيف اليه نوع تعرف مصحح لوقوعه صفة للموصول وأما استحقاق أن يكون مقصودا بالنسبة مفيدا لما ذكر من الفوائد فكلا وقرىء بالنصب على الحال والعامل أنعمت أو على المدح أو على الاستثناء أن فسر النعمة بما يعم القبيلين والغضب هيجان النفس لارادة الانتقام وعند اسناده الى الله سبحانه يراد به غايته بطريق اطلاق اسم السبب بالنسبة الينا على مسببه القريب ان أريد به ارادة الانتقام وعلى مسببه البعيد ان أريد به نفس الانتقام و يجوز حمل الكلام على التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة وارادة الانتقام منهم لمعاصيهم بما ينتزع من حال الملك اذا غضب على الذين عصوه وأراد أن ينتقم منهم و يعاقبهم (وعليهم) مرتفع بالمغضوب قائم مقام فاعله والعدول عن اسناد الغضب اليه تعالى كالانعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية فى نسبة النعم والخيرات اليه عز وجل دون اضدادها كما فى قوله تعالى (الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى و يسقين واذا مرضت فهو يشفين) وقوله تعالى (وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الارض أم أراد بهم ربهم رشدا) ولا مزيدة لتأكيد ما أفاده (غير) من معنى النفى كأنه قيل لا المغضوب عليهم ولا الضالين ولذلك جاز أنا زيدا غير ضارب جواز أنا زيدا لا ضارب وان امتنع أنا زيدا مثل ضارب. والضلال هو العدول عن الصراط السوى وقرىء وغير الضالين وقرىء ولا الضألين بالهمزة على لغة من جد فى الهرب عن التقاء الساكنين (آمين) اسم فعل هو استجب وعن ابن عباس رضى الله عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آمين فقال افعل بنى على الفتح كاين لالتقاء الساكنين وفيه لغتان مد ألفه و قصرها قال:

و يرحم الله عبدا قال آمينا وقال أمين فزاد الله ما بيننا بعدا عن النبى صلى الله عليه وسلم لقننى جبريل آمين عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب وقال أنه كالختم على الكتاب وليست من القرآن وفاقا و لكن يسن ختم السورة الكريمة بها والمشهور عن أبى حنيفة رحمه الله أن المصلى يأتى بها مخافتة وعنه أنه لا يأتى بها الامام لانه الداعى وعن الحسن رحمه الله مثله و روى الاخفاء عبد الله بن مغفل وأنس بن مالك

عن النبي عليه الصلاة والسلام وعند الشافعي رحمه الله يجهر بهالما روى وائل بن حجر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي بن كعب ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والانجيل والقرآن مثلها قلت بلى يا رسول الله قال فاتحة الكتاب انها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته. وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة

﴿ سورة البقرة مدنية وهي مائتان وسبع وثمانون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الم) الالفاظ التي يعبر بها عن حروف المعجم التي من جملتها المقطعات المرقومة في فواتح السور الكريمة أسماء لها لاندراجها تحت حد الاسم ويشهد به مايعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الاسم وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية وما وقع في عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة. وأما ماروى عن ابن مسعود رضي الله عنه من أنه عليه السلام قال من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف وفي رواية الترمذي والدارمي لاأقول الم حرف ذلك الكتاب حرف ولكن الالف حرف واللام حرف والميم حرف والذال حرف والكاف حرف فلا تعلق له بما نحن فيه قطعا. فان اطلاق الحرف على مايقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة. وانما الحرف عند الاوائل مايتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة وربما يطلق على الكلمة أيضا تجوزا فأريد بالحديث الشريف دفع توهم التجوز وزيادة تعيين ارادة المعنى الحقيقي ليتبين بذلك ان الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف كما يلوح به ذكر كتاب الله دون كلام الله أو القرآن وليس هذا من تسمية الشيء باسم مدلوله في شيء كما قيل كيف لا والمحكوم عليه بالحرفية واستتباع الحسنة انما هي المسميات البسيطة الواقعة في كتاب الله عز وجل سواء عبر عنها باسمائها أو بانفسها كما في قولك السين مهملة والشين معجمة مثلثة وغير ذلك مما لايصدق المحمول الاعلى ذات الموضوع لاأسمائها المؤلفة كما اذا قلت الالف

مؤلف من ثلاثة أحرف فكما ان الحسنات فى قراءة قوله تعالى (ذلك الكتاب) بمقابلة حروفه البسيطة وموافقة لعددها كذلك فى قراءة قوله تعالى (الم) بمقابلة حروفه الثلاثة المكتوبة وموافقة لعددها لا بمقابلة أسمائها الملفوظة والالفات الموافقة فى العدد اذ الحكم بأن كلا منها حرف واحد مستلزم للحكم بانه مستتبع حسنة واحدة فالعبرة فى ذلك بالمعبر عنه دون المعبر به. ولعل السر فيه ان استتباع الحسنة منوط بافادة المعنى المراد بالكلمات القرآنية فكما ان سائر الكلمات الشريفة لا تفيد معانيها الا بتلفظ حروفها بانفسها كذلك الفواتح المكتوبة لا تفيد المعانى المقصودة بها الا بالتعبير عنها بأسمائها فجعل ذلك تلفظا بالمسميات كالقسم الاول من غير فرق بينهما ألا يرى الى مافى الرواية الاخيرة من قوله عليه السلام والذال حرف والكاف حرف كيف عبر عن طرفى ذلك باسميهما مع كونهما ملفوظين بانفسهما ولقد روعيت فى هذه التسمية نكتة رائعة حيث جعل كل مسمى لكونه من قبيل الالفاظ صدرا لاسمه ليكون هو المفهوم منه أثر ذى أثير خلا أن الالف حيث تعذر الابتداء بها استعيرت مكانها الهمزة. وهى معربة اذ لا مناسبة بينها وبين مبنى الاصل لكنها مالم تلها العوامل ساكنة الاعجاز على الوقف كأسماء الاعداد وغيرها حين خلت عن العوامل ولذلك قيل صاد وقاف مجموعا فيهما بين الساكنين ولم يعامل معاملة أين وكيف وهؤلاء وان وليها عامل مسها الاعراب. وقصر ما آخره ألف عند التهجى لابتغاء الخفة لا لأن وزانه وزان لا. تقصر تارة فتكون حرفا وتمد أخرى فيكون اسما لها كما فى قول حسان رضى الله عنه:

ما قال لا قط إلا فى تشهده لولا التشهد لم تسمع له لاء

هذا وقد تكلموا فى شأن هذه الفواتح الكريمة وما أريد بها. فقيل أنها من العلوم المستورة والاسرار المحجوبة روى عن الصديق رضى الله عنه أنه قال فى كل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور. وعن على رضى الله عنه أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال عجزت العلماء عن ادراكها. وسئل الشعبى عنها فقال سر الله عز وجل فلا تطلبوه. وقيل أنها أسماء الله تعالى وقيل كل حرف منها اشارة الى اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته تعالى وقيل أنها صفات الافعال الالف آلاؤه واللام لطفه والميم مجده وملكه قاله محمد بن كعب القرظى وقيل أنها من قبيل الحساب. وقيل الالف من الله واللام من جبريل والميم من محمد أى أنزل الله الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام وقيل هى أقسام من الله تعالى بهذه الحروف المعجمة لشرفها من حيث أنها أصول اللغات ومبادىء كتبه

المنزلة ومبانى أسمائه الكريمة وقيل اشارة الى انتهاء كلام وابتداء كلام آخر وقيل وقيل ولكن الذى عليه التعويل اما كونها أسماء للسور المصدرة بها وعليه اجماع الاكثر واليه ذهب الخليل وسيبويه قالوا سميت بها ايذانا بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الالفاظ فيكون فيه ايماء الى الاعجاز والتحدى على سبيل الايقاظ فلولا أنه اوحى من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته .و يقرب منه ما قاله الكلبي والسدى وقتادة من أنها أسماء للقرآن والتسمية بثلاثة أسماء فصاعدا أنما تستنكر فى لغة العرب اذا ركبت وجعلت اسما واحدا كما فى حضر موت فاما اذا كانت منثورة فلا استنكار فيها والمسمى هو المجموع لا الفاتحة فقط حتى يلزم اتحاد الاسم والمسمى غاية الامر دخول الاسم فى المسمى ولامحذور فيه كما لامحذور فى عكسه حسبما تحققته آنفا وانما كتبت فى المصاحف صور المسميات دون صور الاسماء لانه أدل على كيفية التلفظ بها وهى أن يكون على نهج التهجى دون التركيب ولأن فيه سلامة من التطويل لاسيما فى الفواتح الخماسية على ان خط المصحف مما لايناقش فيه بمخالفة القياس .وأما كونها مسرودة على نمط التعديد واليه جنح أهل التحقيق قالوا انما وردت هكذا ليكون ايقاظا لمن تحدى بالقرآن وتنبيهالهم على انه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم فلولا انه خارج عن طوق البشر نازل من عند خلاق القوى والقدر لما تضاءلت قوتهم ولا تساقطت قدرتهم وهم فرسان حلبة الحوار وأمراء الكلام فى نادى الفخار دون الاتيان بما يدانيه فضلا عن المعارضة بما يساويه مع تظاهرهم فى المضادة والمضارة وتهالكهم على المعازة والمعارة أو ليكون مطلع مايتلى عليهم مستقلا بضرب من الغرابة انموذجا لما فى الباقى من فنون الاعجاز فان النطق بأنفس الحروف فى تضاعيف الكلام وان كان على طرف الثمام يتناوله الخواص والعوام من الاعراب والاعجام لكن التلفظ باسمائها انما يتأتى ممن درس وخط واما ممن لم يحم حول ذلك قط .فأعز من بيض الانوق .وأبعد من مناط العيوق .لاسيما اذا كان على نمط عجيب واسلوب غريب منبىء عن سر سرى مبنى على نهج عبقرى بحيث تحار فى فهمه أرباب العقول و يعجز عن ادراكه ألباب الفحول كيف لا وقد وردت تلك الفواتح فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم مشتملة على نصفها تقريبا بحيث ينطوى على انصاف أصنافها تحقيقا أو تقريبا فما يتضح عند الفحص والتنقير حسبما فصله بعض أفاضل أئمة التفسير فسبحان من دقت حكمته من ان يطالعها الانظار وجلت قدرته عن أن ينالها أيدى الافكار وايراد بعضها فرادى و بعضها ثنائية الى الخماسية جرى على عادة الافتنان مع مراعاة أبنية الكلم وتفريقها على

السور دون ايرادكلها مرة لذلك ولما فى التكرير والاعادة من زيادة افادة .وتخصيص
كل منها بسورتها مما لاسبيل الى المطالبة بوجهه .وعد بعضها آية دون بعض مبنى على التوقيف
البحت اما الم فآية حيثما وقعت وقيل فى آل عمران ليست بآية والمص آية والمر لم تعد
آية والر ليست بآية فى شيء من سورها الخمس وطسم آية فى سورتيها وطه ويس آيتان وطس
ليست بآية وحم آية فى سورها كلها وكهيعص اية وحم عسق آيتان وص وق ون لم تعد
واحدة منها اية هذا على رأى الكوفيين وقد قيل ان جميع الفواتح آيات عندهم فى السور
كلها بلا فرق بينها .وأما من عداهم فلم يعدوا شيئا منها آية ثم انها على تقدير كونها مسرودة
على نمط التعديد لاتشم رائحة الاعراب ويوقف عليها وقف التمام وعلى تقدير كونها
أسماء للسور أو للقرآن كان لها حظ منه .اما الرفع على الابتداء أو على الخبرية .وأما
النصب بفعل مضمر كاذكر أو بتقدير فعل القسم على طريقة الله لافعلن. واما الجر
بتقدير حرفه حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه النظام ولا وقف فيما عدا الرفع على الخبرية
والتلفظ بالكل على وجه الحكاية ساكنة الاعجاز الا ان ما كانت منها مفردة مثل ص
وق ون يتأتى فيها الاعراب اللفظى أيضا وقد قرئت بالنصب على أضمار فعل أى اذكر
أو اقرأ صاد وقاف ونون .وانما لم تنون لامتناع الصرف وكذا ما كانت منها موازنة
لمفرد نحو حم ويس وطس الموازنة لقابيل وهابيل حيث أجاز سيبويه فيها مثل ذلك
قال فى باب أسماء السور من كتابه وقد قرأ بعضهم ياسين والقرآن وقاف والقرآن فكأنه
جعله اسما أعجميا ثم قال اذكر ياسين انتهى وحكى السيرافى أيضا عن بعضهم قراءة
ياسين ويجوز أن يكون ذلك فى الكل تحريكا لالتقاء الساكنين .ولا مساغ للنصب
باضمار فعل القسم لأن مابعدها من القرآن والقلم محلوف بهما وقد استكرهوا
الجمع بين قسمين على مقسم عليه واحد قبل انقضاء الاول وهو السر فى جعل ما عدا
الواو الاولى فى قوله تعالى (والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وماخلق الذكر والانثى) عاطفة
ولا مجال للعطف ههنا للمخالفة بين الاول والثانى فى الاعراب نعم يجوز ذلك بجعل الاول
مجرورا باضمار الباء القسمية مفتوحا لكونه غير منصرف .وقرىء ص وق بالكسر على
التحريك لالتقاء الساكنين ويجوز فى طاسين ميم أن تفتح نونها وتجعل من قبيل دارا
بجرد ذكره سيبويه فى كتابه .وأما ما عدا ذلك من الفواتح فليس فيها الا الحكاية وسيجىء
تفاصيل سائر أحكام كل منها مشروحة فى مواقعها باذن الله عز سلطانه .أما هذه الفاتحة
فان جعلت اسما للسورة أو للقرآن فمحلها الرفع اما على انه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير
هذا الم أى مسمى به وانما صحت الاشارة الى القرآن بعضا أو كلا مع عدم سبق ذكره لانه

باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا ما اشترى فلان وأما على أنه مبتدأ أى المسمى به والاول هو الاظهر لان ما يجعل عنوان الموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا علم بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها وادعاء شهرتها يأباه التردد فى ان المسمى هى السورة أو كل القرآن (ذلك) ذا اسم اشارة واللام عماد جيء به للدلالة على بعد المشار اليه والكاف للخطاب والمشار اليه هو المسمى فانه منزل منزلة المشاهد بالحس البصرى وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو شأنه وكونه فى الغاية القاصية من الفضل والشرف اثر تنويهه بذكر اسمه وما قيل من انه باعتبار التقضى أو باعتبار الوصول من المرسل الى المرسل اليه فى حكم المتباعد وان كان مصححا لايراده لكنه بمعزل من ترجيحه على ايراد ما وضع للاشارة الى القريب وتذكيره على تقدير كون المسمى هى السورة لان المشار اليه هو المسمى بالاسم المذكور من حيث هو مسمى به لا من حيث هو مسمى بالسورة ولئن رعى اعتبار الحيثية الثانية فى الاولى بناء على ان التسمية لتمييز السور بعضها من بعض فذلك لتذكير مابعده وهو على الوجه الاول مبتدأ على حدة وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان وقوله عز وعلا (الكتاب) اما خبر له أو صفة أما اذا كان خبرا له فالجملة على الوجه الاول مستأنفة مؤكدة لما أفاده الجملة الاولى من نباهة شأن المسمى لا محل لها من الاعراب وعلى الوجه الثانى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدا الاول واسم الاشارة مغن عن الضمير الرابط .والكتاب اما مصدر سمى به المفعول مبالغة كالخلق والتصوير للمخلوق والمصور واما فعال بنى للمفعول كاللباس من الكتب الذى هو ضم الحروف بعضها الى بعض وأصله الجمع والضم فى الامور البادية للحس البصرى ومنه الكتيبة للعسكر كما ان أصل القراءة الجمع والضم فى الاشياء الخافية عليه واطلاق الكتاب على المنظوم عبارة لما ان مآله الكتابة والمراد به على تقدير كون المسمى هى السورة جميع القرآن الكريم وان لم يتم نزوله عند نزول السورة اما باعتبار تحققه فى علم الله عز وجل أو باعتبار ثبوته فى اللوح أو باعتبار نزوله جملة الى السماء الدنيا حسبما ذكر فى فاتحة الكتاب واللام للعهد والمعنى ان هذه السورة هو الكتاب أى العمدة القصوى منه كأنه فى احراز الفضل كل الكتاب المعهود الغنى عن الوصف بالكمال لاشتهاره به فيما بين الكتب على طريقة قوله عليه السلام الحج عرفة .وعلى تقدير كون المسمى كل القرآن فالمراد بالكتاب الجنس واللام للحقيقة والمعنى ان ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لغاية تفوقه على بقية الافراد فى حيازة كمالات الجنس كأن ماعداه من الكتب

السماوية خارج منه بالنسبة اليه كما يقال هو الرجل أى الكامل فى الرجولية الجامع لما يكون فى الرجال من مراضى الخصال وعليه قول من قال :

((هم القوم كل القوم ياأم خالد)) فالمدح كما ترى من جهة حصر كمال الجنس فى فرد من أفراده وفى الصورة الاولى من جهة حصر كمال الكل فى الجزء ولا مساغ هناك لحمل الكتاب على الجنس لما ان فرده المعهود هو مجموع القرآن المقابل لسائر أفراده من الكتب السماوية لابعضه الذى ينطلق عليه اسم الكتاب باعتبار كونه جزأ لهذا الفرد لاباعتبار كونه جزئيا للجنس على حياله ولان حصر الكمال فى السورة مشعر بنقصان سائر السور وان لم يكن الحصر بالنسبة اليها لتحقق المغايرة بينهما هذا على تقدير كون الكتاب خبرا لذلك وأما اذا كان صفة له فذلك الكتاب على تقدير كون آلم خبرمبتدا محذوف أما خبر ثان أو بدل من الخبر الاول أو مبتدأ مستقل خبره ما بعده وعلى تقدير كونه مبتدأ اما خبر له أو مبتدأ ثان خبره مابعده والجملة خبر للمبتدأ الاول والمشار اليه على كلا التقديرين هو المسمى سواء كان هى السورة أو القرآن ومعنى البعد ماذكر من الاشعار بعلو شأنه والمعنى ذلك الكتاب العجيب الشأن البالغ أقصى مراتب الكمال وقيل المشار اليه هو الكتاب الموعود فمعنى البعد حينئذ ظاهر خلا أنه ان كان المسمى هى السورة ينبغى ان يراد بالوعد مافى قوله تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا كما قيل وان كان هو القرآن فهو مافى التوراة والانجيل هذا على تقدير كون آلم اسما للسورة أو للقرآن وأما على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد فذلك مبتدأ والكتاب أما خبر أو صفته والخبر مابعده على نحو ما سلف أو يقدر مبتدأ أى المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب وقرئ الم تنزيل الكتاب وقوله تعالى (لا ريب فيه) أما فى محل الرفع على أنه خبر لذلك الكتاب على الصور الثلاث المذكورة أو على أنه خبر ثان لالم أو لذلك على تقدير كون الكتاب خبره أو للمبتدأ المقدر آخرا على رأى من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى (فاذا هى حية تسعى) وأما فى محل النصب على الحالية من ذلك أو من الكتاب والعامل معنى الاشارة وأما جملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب مؤكدة لما قبلها وكلمة لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق عاملة عمل ان بحملها عليها لكونها نقيضا لها ولازمة للاسم لزومها واسمها مبنى على الفتح لكونه مفردا نكرة لا مضافا ولا شبيها به وأما ماذكره الزجاج من أنه معرب وانما حذف التنوين للتخفيف فمما لا تعويل عليه وسبب بنائه تضمنه لمعنى من الاستغراقية لا انه مركب معها تركيب خمسة عشر كما توهم وخبرها محذوف أى لا ريب

موجود أو نحوه كما فى قوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله. والظرف صفة لاسمها ومعناه نفى الكون المطلق وسلبه عن الريب المفروض فى الكتاب أو الخبر هو الظرف ومعناه سلب الكون فيه عن الريب المطلق وقد جعل الخبر المحذوف ظرفا وجعل المذكور خبرا لما بعده. وقرىء لا ريب فيه على ان لا بمعنى ليس. والفرق بينه وبين الاول ان ذلك موجب للاستغراق وهذا مجوز له. والريب فى الاصل مصدر رابنى اذا حصل فيك الريبة وحقيقتها قلق النفس واضطرابها ثم استعمل فى معنى الشك مطلقا أو مع تهمة لانه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة وفى الحديث دع ما يريبك الى مالا يريبك. ومعنى نفيه عن الكتاب أنه فى علو الشأن وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة ان يرتاب فى حقيقته وكونه وحياً منزلا من عند الله تعالى لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلا ألا يرى كيف جوز ذلك فى قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا الخ فانه فى قوة ان يقال وان كان لكم ريب فيما نزلنا أو ان ارتبتم فيما نزلنا الخ الا انه خولف فى الاسلوب حيث فرض كونهم فى الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه مع نوع اشعار بان ذلك من جهتهم لا من جهته العالية ولم يقصد هنا ذلك الاشعار كما لم يقصد الاشعار بثبوت الريب فى سائر الكتب ليقتضى المقام تقديم الظرف كما فى قوله تعالى لا فيها غول (هدى) مصدر من هداه كالسرى والبكى وهو الدلالة بلطف على ما يوصل الى البغية أى ما من شأنه ذلك وقيل هى الدلالة الموصلة اليها بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته فى قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) وقوله تعالى (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ولا شك فى ان عدم الوصول معتبر فى مفهوم الضلال فيعتبر الوصول فى مفهوم مقابله ومن ضرورة اعتباره فيه اعتباره فى مفهوم الهدى المتعدى اذ لا فرق بينهما الا من حيث التأثير والتأثر ومحصله ان الهدى المتعدى هو التوجيه الموصل لان اللازم هو التوجه الموصل بدليل ان مقابله الذى هو الضلال توجه غير موصل قطعا وهذا كما ترى مبنى على أمرين اعتبار الوصول وجوبا فى مفهوم اللازم واعتبار وجود اللازم وجوبا فى مفهوم المتعدى وكلا الامرين بمعزل من الثبوت. اما الاول فلان مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصول وعدمه على الاطلاق بل هما معتبران فى مفهوميهما على وجه مخصوص به ليتحقق التقابل بينهما وتوضيحه أن الهدى لابد فيه من اعتبار توجه عن علم الى ما من شأنه الايصال الى البغية كما ان الضلال لابد فيه من اعتبار الجور عن القصد الى ما ليس من شأنه الايصال قطعا وهذه المرتبة من الاعتبار مسلمة بين الفريقين ومحققة للتقابل بينهما وانما النزاع فى ان امكان الوصول الى البغية هل هو كاف فى تحصل مفهوم

الهدى أو لابد فيه من خروج الوصول من القوة الى الفعل كما ان عدم الوصول بالفعل معتبر فى مفهوم الضلال قطعاً . اذا تقرر هذا فنقول ان أريد باعتبار الوصول بالفعل فى مفهوم الهدى اعتباره مقارنا له فى الوجود زمانا حسب اعتبار عدمه فى مفهوم مقابله فذلك بين البطلان لان الوصول غاية للتوجه المذكور فينتهى به قطعا لاستحالة التوجه الى تحصيل الحاصل وما يبقى بعد ذلك فهو أما توجه الى الثبات عليه وأما توجه الى زيادته ولان التوجه الى المقصد تدريجى والوصول اليه دفعى فيستحيل اجتماعهما فى الوجود ضرورة . وأما عدم الوصول فحيث كان أمرا مستمرا مثل مايقتضيه من الضلال وجب مقارنته له فى جميع أزمنة وجوده اذ لو فارقه فى آن من آنات تلك الازمنة لقارنه فى ذلك الآن مقابله الذى هو الوصول فما فرضناه ضلالا لايكون ضلالا وان أريد اعتباره من حيث انه غاية له واجبة الترتيب عليه لزم أن يكون التوجه المقارن لغاية الجد فى السلوك الى مامن شأنه الوصول عند تخلفه عنه لمانع خارجى كاخترام المنية مثلا من غير تقصير ولاجور من قبل المتوجه ولا خلل من جهة المسلك ضلالا اذ لا واسطة بينهما مع أنه لاجور فيه عن القصد أصلا فبطل اعتبار وجوب الوصول فى مفهوم اللازم قطعا وتبين منه عدم اعتباره فى مفهوم المتعدى حتما . وأما اعتبار وجود اللازم فيه وجوبا وهو الامر الثانى فبيانه مبنى على تمهيد أصل وهو أن فعل الفاعل حقيقة هو الذى يصدر عنه و يتم من قبله لكن لما لم يكن له فى تحققه فى نفسه بد من تعلقه بمفعوله اعتبر ذلك فى مدلول اسمه قطعا ثم لما كان له باعتبار كيفية صدوره عن فاعله وكيفية تعلقه بمفعوله وغير ذلك آثار شتى مترتبة عليه متمايزة فى أنفسها مستقلة بأحكام مقتضية لافرادها باسماء خاصة وعرض له بالقياس الى كل أثر من تلك الآثار اضافة خاصة متمازة عما عداها من الاضافات العارضة له بالقياس الى سائرها وكانت تلك الآثار تابعة له فى التحقق غير منفكة عنه أصلا اذلا مؤثر لها سوى فاعله عدت من متمماته واعتبرت الاضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالاعتماد المتعلق بالجسم مثلا وضع له باعتبار الاضافة العارضة له من انكسار ذلك الجسم الذى هو أثر خاص لذلك الاعتماد اسم الكسر و باعتبار الاضافة العارضة له من انقطاعه الذى هو أثر آخر له اسم القطع الى غير ذلك من الاضافات العارضة له بالقياس الى آثاره اللازمة له وهذا أمر مطرد فى آثاره الطبيعية . وأما الآثار التى له مدخل فى وجودها فى الجملة من غير ايجاب لها تترتب عليه تارة وتفارقه أخرى بحسب وجود أسبابها الموجبة لها وعدمها كالآثار الاختيارية الصادرة عن مؤثراتها بواسطة كونه داعيا اليها فحيث كانت

تلك الآثار مستقلة فى أنفسها مستندة الى مؤثراتها غير لازمة له لزوم الآثار الطبيعية التابعة له لم تعد من متمماته ولم تعتبر الاضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالاضافة العارضة للامر بحسب امتثال المأمور والاضافة العارضة للدعوة بحسب اجابة المدعو فان الامتثال والاجابة وان عدا من آثار الامر والدعوة باعتبار ترتبهما عليهما غالبا لكنهما حيث كانا ناشئين عن اختيار بين للمأمور والمدعو مستقلين فى أنفسهما غير لازمين للامر والدعوة لم يعدا من متمماتهما ولم يعتبر الاضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة فى مدلول اسم الامر والدعوة بل جعل عبارة عن نفس الطلب المتعلق بالمأمور والمدعو سواء وجد الامتثال والاجابة أولا اذا تمهد هذا فنقول كما أن الامتثال والاجابة فعلان مستقلان فى أنفسهما صادران عن المدعو والمأمور باختيارهما غير لازمين للامر والدعوة لزوم الآثار الطبيعية التابعة للافعال الموجبة لها وان كانا مترتبين عليهما فى الجملة كذلك هدى المهدى أى توجهه الى ماذكر من الملك فعل مستقل له صادر عنه باختياره غير لازم للهداية أعنى التوجيه اليه لزوم ماذكر من الآثار الطبيعية وان كان مترتبا عليها فى الجملة فلما لم يعدا من متممات الامر والدعوة لم يعتبر الاضافة العارضة لها بحسبهما داخلة فى مدلولها علم أنه لم يعد الهدى اللازم من متممات الهداية ولم يعتبر الاضافة العارضة لها بحسبهما داخلة فى مدلولها ان قيل ليس الهدى بالنسبة الى الهداية كالامتثال والاجابة بالقياس الى أصليهما فان تعلق الامر والدعوة بالمأمور والمدعو لايقتضى الا اتصافهما بكونهما مأمورا ومدعوا وليس من ضرورته اتصافهما بكونهما مأمورا ومدعوا وليس من ضرورته اتصافهما بالامتثال والاجابة اذ لاتلازم بينهما وبين الاولين أصلا بخلاف الهدى بالنسبة الى الهداية فان تعلقها بالمهدى يقتضى اتصافه به لان تعلق الفعل المتعدى المبنى للفاعل بمفعوله يدل على اتصافه بمصدره المأخوذ من المبنى للمفعول قطعا وهو مستلزم لاتصافه بمصدر الفعل اللازم وهل هو الا اعتبار وجود اللازم فى مدلول المتعدى حتما قلنا كما أن تعلق الامر والدعوة بالمأمور والمدعو لايستدعى الا اتصافهما بما ذكر من غير تعرض للامتثال والاجابة ايجابا وسلبا كذلك تعلق الهداية التى هى عبارة عن الدلالة المذكورة بالمهدى لايستدعى الا اتصافه بالمدلولية التى هى عبارة عن المصدر المأخوذ من المبنى للمفعول من غير تعرض لقبول تلك الدلالة كما هو معنى الهدى اللازم ولا لعدم قبوله بل الهداية عين الدعوة الى طريق الحق والاهتداء عين الاجابة فكيف يؤخذ فى مدلولها واستلزام الاتصاف بمصدر الفعل المتعدى للمفعول للاتصاف بمصدر الفعل اللازم مطلقا انما هو فى الافعال الطبيعية كالمكسورية والانكسار

والمقطوعية والانقطاع وأما الافعال الاختيارية فليست كذلك كما تحققته فيما سلف (ان قيل) التعلم من قبيل الافعال الاختيارية مع أنه معتبر فى مدلول التعليم قطعا فليكن الهدى مع الهداية كذلك قلنا ليس ذلك لكونه فعلا اختياريا على الاطلاق ولا لكون التعليم عبارة عن تحصيل العلم للتعلم كما قيل فان المعلم ليس بمستقل فى ذلك ففى اسناده اليه ضرب تجوز بل لان كلا منهما مفتقر فى تحققه وتحصله الى الآخر فان التعليم عبارة عن القاء المبادى العلمية على المتعلم وسوقها الى ذهنه شيئا فشيئا على ترتيب يقتضيه الحال بحيث لايساق اليه بعض منها الا بعد تلقيه لبعض آخر فكل منهما متمم للآخر معتبر فى مدلوله وأما الهدى الذى هو عبارة عن التوجه المذكور ففعل اختيارى يستقل به فاعله لادخل للهداية فيه سوى كونها داعية الى ايجاده باختياره فلم يكن من متماتها ولا معتبرا فى مدلولها (ان قيل) التعليم نوع من أنواع الهداية والتعلم نوع من أنواع الاهتداء فيكون اعتباره فى مدلول التعليم اعتبارا للهدى فى مدلول الهداية قلنا اطلاق الهداية على التعليم انما هو عند وضوح المسلك واستبداد المتعلم بسلوكه من غير دخل للتعليم فيه سوى كونه داعيا اليه وقد عرفت جلية الامر على ذلك التقدير (ان قيل) أليس تخلف الهدى عن الهداية كتخلف التعلم عن التعليم حيث لم يكن ذلك تعليما فى الحقيقة فليكن الهداية أيضا كذلك وليحمل تسمية مالا يستتبع الهدى بها على التجوز قلنا شتان بين التخلفين فان تخلف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه كما ان تخلف الانكسار عن الضرب الضعيف لذلك وأما تخلف الهدى عن الهداية فليس لشائبة قصور من جهتها بل انما هو لفقد سببه الموجب له من جهة المهدى بعد تكامل ما يتم من قبل الهادى وبهذا التحرير اتضح طريق الهداية وتبين انها عبارة عن مطلق الدلالة على ما من شأنه الايصال الى البغية بتعريف معالمه وتبيين مسالكه من غير أن يشترط فى مدلولها الوصول ولا القبول وأن الدلالة المقارنة لها أو لاحدهما والمفارقة عنهما كل ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها افراد حقيقية لها وأن ما فى قوله تعالى (انك لاتهدى من أحببت) وقوله (ولوشاء لهداكم) ونحو ذلك مما اعتبر فيه الوصول من قبيل المجاز وانكشف ان الدلالات التكوينية المنصوبة فى الانفس والآفاق والبيانات التشريعية الواردة فى الكتب السماوية على الاطلاق بالنسبة الى كافة البرية برها وفاجرها هدايات حقيقية فائضة من عند الله سبحانه والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله (للمتقين) أى المتصفين بالتقوى حالا أو مآلا وتخصيص الهدى بهم لما انهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره وان كان ذلك شاملا لكل ناظر من مؤمن وكافر وبذلك الاعتبار قال الله هدى للناس والمتقى اسم فاعل

من باب الافتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة . والتقوى فى عرف الشرع عبارة عن كمال التوقى عما يضره فى الآخرة قال عليه السلام جماع التقوى فى قوله تعالى . ان الله يأمر بالعدل والاحسان . الآية . وعن عمر بن عبد العزيز أنه ترك ماحرم الله وأداء مافرض الله . وعن شهر بن حوشب المتقى من يترك مالابأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس . وعن أبى يزيد أن التقوى هو التورع عن كل مافيه شبهة . وعن محمد بن حنيف أنه مجانبة كل مايبعدك عن الله تعالى . وعن سهل المتقى من تبرأ عن حوله وقدرته . وقيل التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك . وعن ميمون بن مهران لا يكون الرجل تقيا حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر . وعن أبى تراب بين يدى التقوى خمس عقبات لا يناله من يجاوزهن . ايثار الشدة على النعمة . وايثار الضعف على القوة . وايثار الذل على العزة . وايثار الجهد على الراحة . وايثار الموت على الحياة . وعن بعض الحكماء انه لا يبلغ الرجل سنام التقوى الا أن يكون بحيث لو جعل ما فى قلبه فى طبق فطيف به فى السوق لم يستحى ممن ينظر اليه . وقيل التقوى ان تزين سرك للحق كما تزين علانيتك للخلق . والتحقيق ان للتقوى ثلاث مراتب . الاولى التوقى عن العذاب المخلد بالتبرؤ عن الكفر وعليه قوله تعالى . وألزمهم كلمة التقوى . والثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف بالتقوى فى الشرع وهو المعنى بقوله تعالى . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا . والثالثة أن يتنزه عن كل مايشغل سره عن الحق عز وجل ويتبتل اليه بكليته وهو التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته . ولهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الالهية المبنية على الحكم الأبية . أقصاها ما انتهى اليه هممِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية وما عاقهم التعلق بعالم الاشباح عن العروج الى معالم الارواح ولم يصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق فى شئون الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية . وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين . فان أريد بكونه هدى للمتقين ارشاده اياهم الى تحصيل المرتبة الأولى ونيلها فالمراد بهم المشارفون للتقوى مجاز الاستحالة تحصيل الحاصل . وايثاره على العبارة المعربة عن ذلك للايجاز . وتصدير السورة الكريمة بذكر أوليائه تعالى وتفخيم شأنهم . وان أريد به ارشاده الى تحصيل احدى المرتبتين الاخيرتين فان عنى بالمتقين أصحاب الطبقة الاولى تعينت الحقيقة وان عنى بهم أصحاب احدى الطبقتين الأخيرتين تعين المجاز لان الوصول

اليهما انما يتحقق بهدايته المترقبة وكذا الحال فيما بين المرتبة الثانية والثالثة فانه ان أريد بالهدى الارشاد الى تحصيل المرتبة الثالثة فان عنى بالمتقين أصحاب المرتبة الثانية تعينت الحقيقة وان عنى بهم أصحاب المرتبة الثالثة تعين المجاز ولفظ الهداية حقيقة فى جميع الصور. وأما ان أريد بكونه هدى لهم تثبيتهم على ماهم عليه أو ارشادهم الى الزيادة فيه على ان يكون مفهومها داخلا فى المعنى المستعمل فيه فهو مجاز لا محالة. ولفظ المتقين حقيقة على كل حال. واللام متعلقة بهدى أو بمحذوف وقع صفة له أو حالا منه. ومحل هدى الرفع على انه خبر لمبتدا محذوف أى هو هدى أو خبر مع لا ريب فيه لذلك الكتاب أو مبتدأ خبره الظرف المقدم كما أشير اليه أو النصب على الحالية من ذلك أو من الكتاب والعامل معنى الاشارة أو من الضمير فى فيه والعامل ما فى الجار والمجرور من معنى الفعل المنفى كأنه قيل لم يحصل فيه الريب حال كونه هاديا على أنه قيد للنفى لا للمنفى. وحاصله انتفى الريب فيه حال كونه هاديا وتنكيره للتفخيم وحمله على الكتاب اما للمبالغة كأنه نفس الهدى أو لجعل المصدر بمعنى الفاعل. هذا والذى يستدعيه جزالة التنزيل فى شأن ترتيب هذه الجمل أن تكون متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ولذلك لم يتخلل بينها عاطف فالم جملة برأسها على انها خبر لمبتدا مضمر أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها دالة على ان المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يؤلفون منه كلامهم وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدى لما دلت عليه من كونه منعوتا بالكمال الفائق. ثم سجل على غاية فضله بنفى الريب فيه اذ لا فضل أعلى مما للحق واليقين وهدى للمتقين مع ما يقدر له من المبتدا جملة مؤكدة لكونه حقا لا يحوم حوله شائبة شك ما ودالة على تكميله بعد كماله أو يستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول فانه لما نبه أولا على اعجاز المتحدى به من حيث انه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته بالمرة ظهر انه الكتاب البالغ أقصى مراتب الكمال وذلك مستلزم لكونه فى غاية النزاهة عن مظنة الريب اذ لا أنقص مما يعتريه الشك وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين. وفى كل منها من النكت الرائقة والمزايا الفائقة مالا يخفى جلالة شأنه حسبما تحققته (الذين يؤمنون بالغيب) اما موصول بالمتقين ومحله الجر على انه صفة مقيدة له ان فسر التقوى بترك المعاصى فقط مترتبة عليه ترتب التحلية على التخلية وموضحة ان فسر بما هو المتعارف شرعا والمتبادر عرفا من فعل الطاعات وترك السيئآت معا لانها حينئذ تكون تفصيلا لما انطوى عليه اسم الموصوف اجمالا وذلك لانها مشتملة على ما هو عماد الاعمال وأساس الحسنات من الايمان والصلاة والصدقة فانها

أمهات الاعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر القرب الداعية الى التجنب عن المعاصي غالبا ألا يرى الى قوله تعالى ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر وقوله عليه السلام الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الاسلام أو مادحة الموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات. وتخصيص ما ذكر من الخصال الثلاث بالذكر لاظهار شرفها وانافتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات أو النصب على المدح بتقدير أعنى. أو الرفع عليه بتقديرهم. واما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرة باسم الاشارة كما سيأتى بيانه فالوقف على المتقين حينئذ وقف تام لانه وقف على مستقل ما بعده أيضا مستقل. وأما على الوجوه الاول فحسن لاستقلال الموقوف عليه غير تام لتعلق ما بعده به. وتبعيته له أما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر وأما على تقدير النصب أو الرفع على المدح فلما تقرر من ان المنصوب والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الاعراب و بذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدا فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ماقبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما قال أبو على اذا ذكرت صفات للمدح وخولف فى بعضها الاعراب فقد خولف للافتنان أى للتفنن الموجب لايقاظ السامع وتحريكه الى الجد فى الاصغاء فان تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب. ان قيل لاريب فى ان حال الموصول عند كونه خبر المبتدأ محذوف كحاله عند كونه مبتدأ خبره أولئك على هدى فى انه ينسبك به جملة اسمية مفيدة لاتصاف المتقين بالصفات الفاضلة ضرورة ان كلا من الضمير المحذوف والموصول عبارة عن المتقين وان كلا من اتصافهم بالايمان وفروعه واحرازهم للهدى والفلاح من النعوت الجليلة فما السر فى أنه جعل ذلك فى الصورة الاولى من توابع المتقين وعد الوقف غير تام وفى الثانية مقتطعا عنه وعد الوقف تاما قلنا. السر فى ذلك ان المبتدأ فى الصورتين وان كان عبارة عن المتقين لكن الخبر فى الاولى لما كان تفصيلا لما تضمنه المبتدأ اجمالا حسبما تحققته معلوم الثبوت له بلا اشتباه غير مفيد للسامع سوى فائدة التفصيل والتوضيح نظم ذلك فى سلك الصفات مراعاة لجانب المعنى وان سمى قطعا مراعاة لجانب اللفظ كيف لا وقد اشتهر فى الفن ان الخبر اذا كان معلوم الانتساب الى المخبر عنه حقه أن يكون وصفاله كما ان الوصف اذا لم يكن معلوم الانتساب الى الموصوف حقه أن يكون

خبرا له حتى قالوا ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات. وأما الخبر فى الثانية فحيث لم يكن كذلك بل كان مشتملا على مالا ينبىء عنه المبتدأ من المعانى اللائقة كما ستحيط به خبرا مفيدا للمخاطب فوائد رائقة جعل ذلك مقتطعا عما قبله محافظة على الصورة والمعنى جميعاً. والايمان افعال من الامن المتعدى الى واحد يقال آمنته وبالنقل تعدى الى اثنين يقال آمنتيه غيرى ثم استعمل فى التصديق لان المصدق يؤمن المصدق أى يجعله أمينا من التكذيب والمخالفة واستعماله بالباء لتضمينه معنى الاعتراف. وقد يطلق على الوثوق فان الواثق يصير ذا أمن وطمأنينة. ومنه ما حكى عن العرب ما آمنت أن أجد صحابة أى ماصرت ذا أمن وسكون وكلا الوجهين حسن هنا وهو فى الشرع لايتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها. وهل هو كاف فى ذلك أو لابد من انضمام الاقرار اليه للمتمكن منه والاول رأى الشيخ الاشعرى ومن شايعه فان الاقرار عنده منشأ لاجراء الاحكام والثانى مذهب أبى حنيفة ومن تابعه. وهو الحق فانه جعلهما جزأين له خلا ان الاقرار ركن محتمل للسقوط بعذر كما عند الاكراه وهو مجموع ثلاثة أمور اعتقاد الحق والاقرار به والعمل بموجبه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق ومن أخل بالاقرار فهو كافر ومن أخل بالعمل فهو فاسق اتفاقا وكافر عند الخوارج وخارج عن الايمان غير داخل فى الكفر عند المعتزلة. وقرىء يومنون بغير همزة. والغيب اما مصدر وصف به الغائب مبالغة كالشهادة فى قوله تعالى «عالم الغيب والشهادة» أو فيعل خفف كقيل فى قيل وهين فى هين وميت فى ميت لكن لم يستعمل فيه الاصل كما استعمل فى نظائره وأياما كان فهو ماغاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لايدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البداهة وهو قسمان قسم لادليل عليه وهو الذى أريد بقوله سبحانه «وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو» وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته والنبوات ومايتعلق بها من الاحكام والشرائع واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء وهو المراد هنا فالباء صلة للايمان اما بتضمينه معنى الاعتراف أو بجعله مجازا من الوثوق وهو واقع موقع المفعول به واما مصدر على حاله كالغيبة فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما فى قوله تعالى «الذين يخشون ربهم بالغيب» وقوله تعالى «ليعلم انى لم أخنه بالغيب» أى يؤمنون متلبسين بالغيبة اما عن المؤمن به أى غائبين عن النبى صلى الله عليه وسلم غير مشاهدين لما فيه من شواهد النبوة لما روى أن أصحاب ابن

مسعود رضى الله عنه ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وايمانهم فقال رضى الله عنه ان أمر محمد عليه الصلاة والسلام كان بينا لمن رآه والذى لااله غيره ما آمن مؤمن أفضل من الايمان بغيب ثم تلا هذه الآية. واما عن الناس أى غائبين عن المؤمنين لا كالمنافقين الذين اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم وقيل المراد بالغيب القلب لانه مستور والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بافواههم ماليس فى قلوبهم فالباء حينئذ للآلة . وترك ذكر المؤمن به على التقادير الثلاثة اما للقصد الى احداث نفس الفعل كما فى قولهم فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الايمان واما للاكتفاء بما سيجىء فان الكتب الالهية ناطقة بتفاصيل مايجب الايمان به (ويقيمون الصلوة) اقامتها عبارة عن تعديل أركانها وحفظها من أن يقع فى شىء من فرائضها وسننها وآدابها زيغ من أقام العود اذا قومه وعدله. وقيل عن المواظبة عليها ماخوذ من قامت السوق اذا نفقت وأقمتها اذا جعلتها نافقة فانها اذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذى يرغب فيه وقيل عن التشمر لادائها من غير فتور ولاتوان من قولهم قام بالامر وأقامه اذا جد فيه واجتهد. وقيل عن أدائها عبر عنه بالاقامة لاشتماله على القيام وبالركوع والسجود والتسبيح والاول هو الاظهر لانه أشهر والى الحقيقة أقرب والصلوة فعلة من صلى اذا دعا كالزكوة من زكى وانما كتبتا بالواو مراعاة للفظ المفخم . وانما سمى الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء . وقيل أصل صلى حرك الصلوين وهما العظمان الناتئان فى أعلى الفخذين لان المصلى يفعله فى ركوعه وسجوده واشتهار اللفظ فى المعنى الثانى دون الاول لايقدح فى نقله عنه. وانما سمى الداعى مصليا تشبيها له فى تخشعه بالراكع والساجد (ومما رزقناهم ينفقون) الرزق فى اللغة العطاء ويطلق على الحظ المعطى نحو ذبح ورعى للمذبوح والمرعى. وقيل هو بالفتح مصدر وبالكسر اسم. وفى العرف ماينتفع به الحيوان والمعتزلة لما أحالوا تمكين الله تعالى من الحرام لانه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لايتناول الحرام ألا يرى انه تعالى أسند الرزق الى ذاته ايذانا بأنهم ينفقون من الحلال الصرف فان انفاق الحرام بمعزل من ايجاب المدح وذم المشركين على تحريم بعض مارزقهم الله تعالى بقوله قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا. وأصحابنا جعلوا الاسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الانفاق والذم لتحريم مالم يحرم. واختصاص مارزقناهم بالحلال للقرينة وتمسكوا لشمول الرزق لها بما روى عنه عليه السلام فى حديث عمرو بن قرة حين اتاه فقال يارسول الله ان الله كتب على الشقوة فلا أرى أرزق الامن دفى بكفى فأذن

لى فى الغناء من غير فاحشة من أنه قال عليه السلام لا إذن لك ولا كرامة ولا نعمة كذبت أى عدو الله والله لقد رزقك الله حلالا طيباً فاخترت ماحرم الله عليك من رزقه مكان ماأحل الله لك من حلاله و بأنه لو لم يكن الحرام رزقا لم يكن المتغذى به طول عمره مرزوقا وقد قال الله تعالى وما من دابة فى الارض إلا على الله رزقها والانفاق والانفاد اخوان خلا أن فى الثانى معنى الاذهاب بالكلية دون الاول والمراد بهذا الانفاق الصرف الى سبيل الخير فرضاً كان أو نفلا ومن فسر بالزكوة ذكر أفضل أنواعه والاصل فيه أوخصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها والجملة معطوفة على ماقبلها من الصلة وتقديم المفعول للاهتمام والمحافظة على رءوس الآى وادخال من التبعيضية عليه للكف عن التبذير هذا وقد يجوز أن يراد به الانفاق من جميع المعاون التى منحهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة و يؤيده قوله عليه السلام ان علماً لاينال به ككنز لاينفق منه واليه ذهب من قال ومما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) معطوف على الموصول الاول على تقدير وصله بما قبله وفصله عنه مندرج معه فى زمرة المتقين من حيث الصورة والمعنى معاً أو من حيث المعنى فقط اندراج خاصين تحت عام إذ المراد بالاولين الذين آمنوا بعد الشرك والغفلة عن جميع الشرائع كما يؤذن به التعبير عن المؤمن به بالغيب و بالآخرين الذين آمنوا بالقرآن بعد الايمان بالكتب المنزلة قبل كعبد الله بن سلام واضرابه أو على المتقين على أن يراد بهم الاولون خاصة و يكون تخصيصهم بوصف الاتقاء للايذان بتنزههم عن حالتهم الاولى بالكلية لما فيها من كمال القباحة والمباينة للشرائع كلها الموجبة للاتقاء عنها بخلاف الآخرين فانهم غير تاركين لما كانوا عليه بالمرة بل متمسكون بأصول الشرائع التى لاتكاد تختلف باختلاف الاعصار و يجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجا تحت المتقين ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الذوات بل لاختلاف الصفات كما فى قوله :

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وقوله يالهف زيابة للحرث الصـ ـابح فالغانم فالآيب

للايذان بأن كل واحد من الايمان بما أشير اليه من الامور الغائبة والايمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله له شأن خطير مستتبع لاحكام جمة حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل أحدهما تتمة للآخر وقد شفع الاول بأداء الصلوة والصدقة اللتين هما من جملة الشرائع المندرجة تحت تلك الامور المؤمن

بها تكملة له فان كمال العلم بالعمل.وقرن الثانى بالايقان بالآخرة مع كونه منطويا تحت الاول تنبيها على كمال صحته وتعريضا بما فى اعتقاد أهل الكتابين من الخلل كما سيأتى هذا على تقدير تعلق الباء بالايمان وقس عليه الحال عند تعلقها بالمحذوف فان كلا من الايمان الغيبي المشفوع بما يصدقه من العبادتين مع قطع النظر عن المؤمن به والايمان بالكتب المنزلة الشارحة لتفاصيل الامور التى يجب الايمان بها مقرونا بما قرن به فضيلة باهرة مستدعية لما ذكر والله تعالى أعلم. وقد حمل ذلك على معنى انهم الجامعون بين الايمان بما يدركه العقل جملة والاتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الايمان بما لاطريق اليه غير السمع.وتكرير الموصول للتنبيه على تغاير القبيلين وتباين السبيلين فليتأمل .وان يراد بالموصول الثانى بعد اندراج الكل فى الأول فريق خاص منهم وهم مؤمنو أهل الكتاب بان يخصوا بالذكر تخصيص جبريل وميكائيل به اثر جريان ذكر الملائكة عليهم السلام تعظيما لشأنهم وترغيبا لأمثالهم وأقرانهم فى تحصيل ما لهم من الكمال . والانزال النقل من الاعلى الى الاسفل وتعلقه بالمعانى انما هو بتوسط تعلقه بالأعيان المستتبعة لها فنزول ما عدا الصحف من الكتب الالهية الى الرسل عليهم السلام والله تعالى أعلم بأن يتلقاها الملك من جنابه عز وجل تلقيا روحانيا أو يحفظها من اللوح المحفوظ فينزل بها الى الرسل فيلقيها عليهم عليهم السلام.والمراد بما أنزل اليك هو القرآن بأسره والشريعة عن آخرها.والتعبير عن انزاله بالماضى مع كون بعضه مترقبا حينئذ لتغليب المحقق على المقدر أو لتنزيل ما فى شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع كما فى قوله تعالى «انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى» مع ان الجن ما كانوا سمعوا الكتاب جميعا ولا كان الجميع اذ ذاك نازلا . «بما أنزل من قبلك» التوراة والانجيل وسائر الكتب السالفة وعدم التعرض لذكر من أنزل اليه من الانبياء عليهم السلام لقصد الايجاز مع عدم تعلق الغرض بالتفصيل حسب تعلقه به فى قوله تعالى «قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل» الآية والايمان بالكل جملة فرض وبالقرآن تفصيلا من حيث انا متعبدون بتفاصيله فرض كفاية فان فى وجوبه على الكل عينا حرجا بينا واخلالا بأمر المعاش. وبناء الفعلين للمفعول للايذان بتعين الفاعل والجرى على سنن الكبرياء وقد قرئا على البناء للفاعل (وبالآخرة هم يوقنون) الايقان اتقان العلم بالشئ بنفى الشك والشبهة عنه ولذلك لايسمى علمه تعالى يقينا أى يعلمون علما قطعيا مزيحا لما كان أهل الكتاب عليه من الشكوك والاوهام التى من جملتها زعمهم أن الجنة لايدخلها الا من كان هودا أو نصارى وان النار لن تمسهم الا أياما معدودات واختلافهم

فى أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أولا وهل هو دائم أولا. وفى تقديم الصلة وبناء يوقنون على الضمير تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب فان اعتقادهم فى أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول الى مرتبة اليقين. والآخرة تأنيث الاخر كما ان الدنيا تأنيث الأدنى غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الأسماء وقرىء بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقرىء يؤقنون بقلب الواو همزة اجراء لضم ماقبلها مجرى ضمها فى وجوه ووقتت ونظيره ما فى قوله

لحب المؤقدان الى مؤسى وجعدة اذ أضاءهما الوقود

وقوله تعالى (أولئك) اشارة الى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها وفيه دلالة على انهم متميزون بذلك أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة. ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله عز وعلا (على هدى) خبره ومافيه من الابهام المفهوم من التنكير لكمال تفخيمه كأنه قيل على أى هدى هدى لايبلغ كنهه ولا يقادر قدره. وايراد كلمة الاستعلاء بناء على تمثيل حالهم فى ملابستهم بالهدى بحال من يعتلى الشىء ويستولى عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد أو على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للايذان بقوة تمكنهم منه وكمال رسوخهم فيه وقوله تعالى (من ربهم) متعلق بمحذوف وقع صفة له مبينة لفخامته الاضافية اثر بيان فخامته الذاتية مؤكدة لها أى على هدى كائن من عنده تعالى وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى وفنون توفيقه. والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوف والمضاف اليهم وتشريفهما ولزيادة تحقيق مضمون الجملة وتقريره ببيان ما يوجبه ويقتضيه وقد أدغمت النون فى الراء بغنة أو بغير غنة. والجملة على تقدير كون الموصولين موصولين بالمتقين مستقلة لامحل لها من الاعراب مقررة لمضمون قوله تعالى (هدى للمتقين) مع زيادة تأكيد له وتحقيق كيف لاوكون الكتاب هدى لهم فن من فنون ما منحوه واستقروا عليه من الهدى حسبما تحققته لا سيما مع ملاحظة ما يستتبعه من الفوز والفلاح. وقيل هى واقعة موقع الجواب عن سؤال ربما ينشأ مما سبق كأنه قيل ما للمنعوتين بما ذكر من النعوت اختصوا بهداية ذلك الكتاب العظيم الشأن وهل هم احقاء بتلك الاثرة فأجيب بأنهم بسبب اتصافهم بذلك ما لكون لزمام أصل الهدى الجامع لفنونه المستتبع للفوز والفلاح فأى ريب فى استحقاقهم لما هو فرع من فروعه. ولقد جار عن سنن الصواب من قال

فى تقرير الجواب أن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا. وأما على تقدير كونهما مفصولين عنه فهى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدا الذى هو الموصول الاول والثانى معطوف عليه. وهذه الجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن من تخصيص ماذكر بالمتقين قبل بيان مبادى استحقاقهم لذلك كانه قيل مابال المتقين مخصوصين به فاجيب بشرح ماانطوى عليه اسمهم اجمالا من نعوت الكمال . وبيان مايستدعيه من النتيجة أى الذين هذه شئونهم احقاء بما هو أعظم من ذلك كقولك أحب الانصار الذين قارعوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا مهجتهم فى سبيل الله أولئك سواد عينى وسويداء قلبى . واعلم ان هذا المسلك يسلك تارة باعادة اسم من استؤنف عنه الحديث كقولك أحسنت الى زيد زيد حقيق بالاحسان وأخرى باعادة صفته كقولك أحسنت الى زيد صديقك القديم أهل لذلك ولا ريب فى أن هذا أبلغ من الاول لما فيه من بيان الموجب للحكم . وايراد اسم الاشارة بمنزلة اعادة الموصوف بصفاته المذكورة مع مافيه من الاشعار بكمال تميزه بها وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الامور المشاهدة والايماء الى بعد منزلته كما مر هذا . وقد جوز أن يكون الموصول الاول مجرى على المتقين حسبما فصل والثانى مبتدأ أولئك الخ خبره ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضا بغير المؤمنين من أهل الكتاب حيث كانوا يزعمون انهم على الهدى ويطمعون فى نيل الفلاح (وأولئك هم المفلحون) تكرير اسم الاشارة لاظهار مزيد العناية بشأن المشار اليهم وللتنبيه على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من تينك الاثرتين وأن كلا منهما كاف فى تميزهم بها عمن عداهم ويؤيده توسيط العاطف بين الجملتين بخلاف مافى قوله تعالى . أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون . فان التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيده تشبيههم بالبهائم فتكون الجملة الثانية مقررة للاولى . وأما الافلاح الذى هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغايرا للهدى نتيجة له وكان كل منهما فى نفسه أعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فعل مافعل . وهم ضمير فصل يفصل الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه . أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لاولئك . وتعريف المفلحين للدلالة على ان المتقين هم الناس الذين بلغك انهم المفلحون فى الآخرة أو اشارة الى مايعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم هذا . وفى بيان اختصاص المتقين بنيل هذه المراتب الفائقة على فنون من الاعتبارات الرائقة اللائقة حسبما أشير اليه فى تضاعيف تفسير الآية الكريمة من الترغيب فى اقتفاء أثرهم والارشاد الى اقتداء سيرهم مالا يخفى مكانه والله ولى الهداية والتوفيق

(أن الذين كفروا) كلام مستأنف سيق لشرح أحوال الكفرة الغواة المردة العتاة
اثر بيان أحوال أضدادهم المتصفين بنعوت الكمال الفائزين بمباغيهم فى الحال والمآل
وانما ترك العاطف بينهما ولم يسلك به مسلك قوله تعالى «ان الابرار لفى نعيم وان الفجار
لفى جحيم» لما بينهما من التنافى فى الاسلوب والتباين فى الغرض فان الاولى مسوقة
لبيان رفعة شأن الكتاب فى باب الهداية والارشاد . وأما التعرض لاحوال المهتدين به
فانما هو بطريق الاستطراد سواء جعل الموصول موصولا بما قبله أو مفصولا عنه فان
الاستئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام المتقدم فهو من مستتبعاته لامحالة. وأما الثانية
فمسوقة لبيان أحوال الكفرة أصالة وترامى أمرهم فى الغواية والضلال الى حيث لايجديهم
الانذار والتبشير ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير فهم ناكبون فى تيه الغى والفساد عن منهاج
العقول. وراكبون فى مسلك المكابرة والعناد متن كل صعب وذلول. وانما أوثرت هذه
الطريقة ولم يؤسس الكلام على بيان ان الكتاب هاد للاولين وغير مجد للآخرين لان
العنوان الاخير ليس مما يورثه كمالا حتى يتعرض له فى أثناء تعداد كمالاته. وان من الحروف
التى تشابه الفعل فى عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم الاسماء ودخول نون الوقاية
عليها كانى ولعلنى ونظائرهما واعطاء معانيه والمتعدى خاصة فى الدخول على اسمين ولذلك
أعملت عمله الفرعى وهو نصب الاول ورفع الثانى ايذانا بكونه فرعا فى العمل دخيلا فيه
وعند الكوفيين لاعمل لها فى الخبر بل هو باق على حاله بقضية الاستصحاب واجيب بان
ارتفاع الخبر مشروط بالتجرد عن العوامل والالما انتصب خبر كان وقد زال بدخولها
فتعين اعمال الحرف وأثرها تاكيد النسبة وتحقيقها ولذلك يتلقى بها القسم ويصدر بها
الاجوبة ويؤتى بها فى مواقع الشك والانكار لدفعه ورده قال المبرد قولك عبد الله قائم
اخبار عن قيامه وان عبد الله قائم جواب سائل عن قيامه شاك فيه وان عبد الله لقائم
جواب منكر لقيامه. وتعريف الموصول اما للعهد والمراد به ناس بأعيانهم كابى لهب
وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم وأحبار اليهود أو للجنس وقد خص منه غير
المصرين بما أسند اليه من قوله تعالى (سواء عليهم) الخ والكفر فى اللغة سترا لنعمة وأصله
الكفر بالفتح أى الستر ومنه قيل للزارع والليل كافر قال تعالى «كمثل غيث أعجب
الكفار نباته» وعليه قول لبيد «فى ليلة كفر النجوم غمامها»
ومنه المتكفر بسلاحه وهو الشاكى الذى غطى السلاح بدنه وفى الشريعة
انكار ماعلم بالضرورة مجىء الرسول عليه الصلاة والسلام به . وانما عد
لبس الغيار وشد الزنار بغير اضطرار ونظائرهما كفراً لدلالته على التكذيب

فان من صدق النبي عليه السلام لايكاد يجترئ على أمثال ذلك إذ لاداعي اليه كالزنا وشرب الخمر ، واحتجت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضي على وجه الأخبار فانه يستدعي سابقة المخبر عنه لامحالة وأجيب بأنه من مقتضيات التعلق وحدوثه لايستدعي حدوث الكلام كما أن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لايستدعي حدوث العلم (سواء) هو اسم بمعنى الاستواء نعت به كما ينعت بالمصادر مبالغة قال تعالى : تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، وقوله تعالى (عليهم) متعلق به ومعناه عندهم وارتفاعه على أنه خبر لان وقوله تعالى (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) مرتفع به على الفاعلية لأن الهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام لتحقيق الاستواء بين مدخوليهما كما جرد الأمر والنهي لذلك عن معنييهما في قوله تعالى : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، وحرف النداء في قولك اللهم اغفر لنا أيتها العصابة عن معنى الطلب لمجرد التخصيص كأنه قيل ان الذين كفروا مستوعليهم انذارك وعدمه كقولك ان زيداً مختصم أخوه وابن عمه أو مبتدأ وسواء عليهم خبر قدم عليه اعتناء بشأنه والجملة خبر لان والفعل انما يمتنع الأخبار عنه عند بقائه على حقيقته أما لو أريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمناً على طريقة الاتساع فهو كالاسم في الاضافة والاسناد اليه كما في قوله تعالى : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، وقوله تعالى : واذا قيل لهم لا تفسدوا ، وفي قولهم تسمع بالمعيدي خير من أن تراه كأنه قيل انذارك وعدمه سيان عليهم . والعدول الى الفعل لما فيه من إيهام التجدد والتوصل الى ادخال الهمزة ومعادلها عليه لافادة تقرير معنى الإستواء وتأكيده كما أشير اليه وقيل سواء مبتدأ وما بعده خبره وليس بذاك لأن مقتضى المقام بيان كون الانذار وعدمه سواء لابيان كون المستوي الانذار وعدمه . والانذار اعلام المخوف للاحتراز عنه أفعال من نذر بالشيء اذا علمه فحذره والمراد ههنا التخويف من عذاب الله وعقابه على المعاصي . والاقتصار عليه لما أنهم ليسوا بأهل للبشارة أصلا ولأن الانذار أوقع في القلوب وأشد تأثيراً في النفوس فان دفع المضار أهم من جلب المنافع فحيث لم يتأثروا به فلأن لايرفعوا للبشارة رأساً أولى . وقرئ بتوسيط ألف بين الهمزتين مع تحقيقهما وبتوسيطها والثانية بين بين وبتخفيف الثانية بين بين بلا توسيط وبحذف حرف الاستفهام وبحذفه والقاء حركته على الساكن قبله كما قرئ قد أفلح . وقرئ بقلب الثانية ألفاً وقد نسب ذلك الى اللحن (لايؤمنون) جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها مبينة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الاعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه أو خبر لأن وما قبلها اعتراض بما هو علة للحكم أو خبر ثان على رأي من يجوزه عند كونه جملة . والآية الكريمة مما استدل

به على جواز التكليف بما لا يطاق فانه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون فظهر استحالة أيمانهم لاستلزامه المستحيل الذى هو عدم مطابقة اخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالايمان باقين على التكليف ولان من جملة ما كلفوه الايمان بعدم ايمانهم المستمر. والحق ان التكليف بالممتنع لذاته وان جاز عقلا من حيث ان الاحكام لا تستدعى أغراضا لاسيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء والاخبار بوقوع الشىء أو بعدمه لا ينفى القدرة عليه كاخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره وليس ما كلفوه الايمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم ان يكلفوا الايمان بعدم ايمانهم المستمر بل هو الايمان بجميع ما جاء به النبى عليه السلام اجمالا. على ان كون الموصول عبارة عنهم ليس معلوما لهم وفائدة الانذار بعد العلم بانه لا يفيد الزام الحجة واحراز الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الابلاغ ولذلك قيل سواء عليهم لم يقل عليك كما قيل لعبدة الاصنام سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون وفى الآية الكريمة اخبار بالغيب على ما هو به ان أريد بالموصول اشخاص باعيانهم فهى من المعجزات الباهرة (ختم الله على قلوبهم) استئناف تعليلى لما سبق من الحكم وبيان لما يقتضيه أو بيان وتأكيد له والمراد بالقلب محل القوة العاقلة من الفؤاد والختم على الشىء الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانة أو لما فيه من التعرض له كما فى البيت الفارغ والكيس المملوء والاول هو الانسب بالمقام اذ ليس المراد به صيانة ما فى قلوبهم بل احداث حالة تجعلها بسبب تماديهم فى الغى وانهماكهم فى التقليد وأعراضهم عن منهاج النظر الصحيح بحيث لا يؤثر فيها الانذار ولا ينفذ فيها الحق أصلا اما على طريقة الاستعارة التبعية بان يشبه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنية للسكنى تشبيه معقول بمحسوس بجامع عقلى هو الاشتمال على منع القابل عما من شانه وحقه ان يقبله ويستعار له الختم ثم يشتق منه صيغة الماضى واما على طريقة التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم وقد فعل بها ما فعل من احداث تلك الحالة المانعة من أن يصل اليها ما خلقت هى لاجله من الامور الدينية النافعة وحيل بينها وبينه بالمرة بهيئة منتزعة من محال معدة لحلول ما يحلها حالا مستتبعا لمصالح مهمة وقد منع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لاجله بالكلية ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة المشبه بها فيكون كل من طرفى التشبيه مركبا من أمور عدة قد اقتصر من جانب المشبه به على ما عليه يدور الامر فى تصوير تلك الهيئة وانتزاعها وهو الختم والباقى منوى مراد قصدا بالفاظ متخيلة بها يتحقق التركيب وتلك الالفاظ وان كان لها مدخل فى تحقيق وجه الشبه الذى هو أمر عقلى منتزع منها وهو امتناع الانتفاع بما أعد له

بسبب مانع قوى لكن ليس فى شىء منها على الانفراد تجوز باعتبار هذا المجاز بل هى باقية على حالها من كونها حقيقة أو مجازا أو كناية وانما التجوز فى المجموع وحيث كان معنى المجموع مجموع معانى تلك الالفاظ التى ليس فيها التجوز المعهود ولم تكن الهيئة المنتزعة منها مدلولا وضعيا لها ليكون مادل على الهيئة المشبه بها عند استعماله فى الهيئة المشبهة مستعملا فى غير ماوضع له فيندرج تحت الاستعارة التى هى قسم من المجاز اللغوى الذى هو عبارة عن الكلمة المستعملة فى غير ماوضعت له ذهب قدماء المحققين كالشيخ عبد القاهر وأضرابه الى جعل التمثيل قسما برأسه .ومن رام تقليل الاقسام عد تلك الهيئة المشبه بها من قبيل المدلولات الوضعية وجعل الكلام المفيد لها عند استعماله فيما يشبه بها من هيئة أخرى منتزعة من أمور أخر من قبيل الاستعارة وسماه استعارة تمثيلية واسناد احداث تلك الحالة فى قلوبهم الى الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عندنا من حيث الخلق اليه سبحانه وتعالى وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة اليهم فان خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على مااقترفوه من القبائح كما يعرب عنه قوله تعالى «بل طبع الله عليها بكفرهم» ونحو ذلك . وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل وذكروا فى ذلك عدة من الاقاويل .منها ان القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك فى قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلقى المجبول عليه. ومنها ان المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التى خلقها الله تعالى خالية عن الفطن أو بقلوب قدر ختم الله تعالى عليها كما فى سال به الوادى اذا هلك وطارت به العنقاء اذا طالت غيبته. ومنها ان ذلك فعل الشيطان أو الكافر واسناده اليه تعالى باعتبار كونه باقداره تعالى وتمكينه. ومنها ان أعراقهم لما رسخت فى الكفر واستحكمت بحيث لم يبق الى تحصيل ايمانهم طريق سوى الالجاء والقسر ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف عبر عن ذلك بالختم لانه سد لطريق ايمانهم بالكلية. وفيه اشعار بترامى أمرهم فى الغى والعناد وتناهى انهماكهم فى الشر والفساد. ومنها أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولون مثل قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب تهكما بهم . ومنها أن ذلك فى الآخرة وانما أخبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ويعضده قوله تعالى «ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما» ومنها أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمة يعرفها الملائكة فيبغضونهم ويتنفرون عنهم (وعلى سمعهم) عطف على ما قبله داخل فى حكم الختم لقوله عز وجل وختم على سمعه وقلبه وللوفاق على الوقف عليه لا على قلوبهم ولاشتراكهما فى الادراك من جميع الجوانب. واعادة الجار

للتأكيد والاشعار بتغاير الختمين وتقديم ختم قلوبهم للايذان بأنها الأصل فى عدم الايمان وللاشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية بختم سمعهم بناء على أنه طريق اليها فالختم عليه ختم عليها بل هى مختومة بختم على حدة لو فرض عدم الختم على سمعهم فهو باق على حاله حسبما يفصح عنه قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون . والسمع ادراك القوة السامعة وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا اذ هو المختوم عليه اصالة وتقديم حاله على حال أبصارهم للاشتراك بينه و بين قلوبهم فى تلك الحال أو لان جنايتهم من حيث السمع الذى به تلقى الاحكام الشرعية وبه يتحقق الانذار أعظم منها من حيث البصر الذى به يشاهد الاحوال الدالة على التوحيد فبيانها أحق بالتقديم وأنسب بالمقام .قالوا السمع أفضل من البصر لأنه عز و علا حيث ذكرهما قدم السمع على البصر .ولأن السمع شرط النبوة ولذلك مابعث الله رسولا أصم .ولأن السمع وسيلة الى استكمال العقل بالمعارف التى تتلقف من أصحابها .وتوحيده للامن عن اللبس واعتبار الأصل أو لتقدير المضاف أى وعلى حواس سمعهم والكلام فى ايقاع الختم على ذلك كامر من قبل (وعلى أبصارهم غشاوة) الابصار جمع بصر والكلام فيه كما سمعته فى السمع .والغشاوة فعالة من التغشية أى التغطية بنيت لما يشتمل على الشىء كالعصابة والعمامة وتنكيرها للتفخيم والتهويل وهى على رأى سيبويه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ما قبلها وإيثار الأسمية للايذان بدوام مضمونها فان مايدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة فى الآفاق والانفس حيث كانت مستمرة كان تعاميهم من ذلك أيضاً كذلك.وأما الآيات التى تتلقى بالقوة السامعة فلما كان وصولها اليها حينا فحينا أوثر فى بيان الختم عليها وعلى ماهى أحد طريقى معرفته أعنى القلب الجملة الفعلية .وعلى رأى الأخفش مرتفع على الفاعلية بما تعلق به الجار وقرىء بالنصب على تقدير فعل ناصب أى وجعل على أبصارهم غشاوة وقيل على حذف الجار وايصال الختم اليه والمعنى وختم على أبصارهم بغشاوة .وقرىء بالضم والرفع وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها وغشوة بالكسر مرفوعة وبالفتح مرفوعة ومنصوبة وعشاوة بالعين غير المعجمة والرفع (ولهم عذاب عظيم) وعيد وبيان لما يستحقونه فى الآخرة والعذاب كالنكال بناء ومعنى يقال أعذب عن الشىء اذا أمسك عنه ومنه الماء العذب لما أنه يقمع العطاش ويردعه ولذلك يسمى نقاخا لأنه ينقخ العطاش ويكسره ثم اتسع فيه فأطلق على كل ألم فادح وان لم يكن عقابا يراد به ردع الجانى عن المعاودة وقيل اشتقاقه من التعذيب الذى هو ازالة العذاب كالتقذية والتمريض .والعظيم نقيض الحقير والكبير

نقيض الصغير فمن ضرورة كون الحقير دون الصغير كون العظيم فوق الكبير ويستعملان في الجثث والاحداث تقول رجل عظيم وكبير تريد جثته أو خطره ووصف العذاب به لتأكيد ما يفيده التنكير من التفخيم والتهويل والمبالغة في ذلك والمعنى أن على أبصارهم ضربا من الغشاوة خارجا مما يتعارفه الناس وهي غشاوة التعامي عن الآيات ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يبلغ كنهه ولا تدرك غايته اللهم انا نعوذ بك من ذلك كله يا أرحم الراحمين (ومن الناس) شروع في بيان أن بعض من حكيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصرين على ما ذكر من محض الاضرار على الكفر والعناد بل يضمون اليه فنونا أخر من الشر والفساد وتعديد جناياتهم الشنيعة المستتبعة لأحوال هائلة عاجلة وآجلة وأصل ناس أناس كما يشهد له انسان وأناسي وأنس حذفت همزته تخفيفا كما قيل في لوقة ألوقة وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يجمع بينهما وأما ما في قوله:

ان المنايا يطلعـ ـن على الاناس الآمنينا

فشاذ سموا بذلك لظهورهم وتعلق الايناس بهم كما سمي الجن جنا لاجتنانهم وذهب بعضهم الى أن أصله النوس وهو الحركة انقلبت واوه ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها وبعضهم الى أنه مأخوذ من نسي نقلت لامه الى موضع العين فصار نيسا ثم قلبت ألفا سموا بذلك لنسيانهم ويروى عن ابن عباس أنه قال سمي الانسان انسانا لأنه عهد اليه فنسي. واللام فيه اما للعهد أو للجنس المقصور على المصرين حسبما ذكر في الموصول كأنه قيل ومنهم أو من أولئك. والعدول الى الناس للايذان بكثرتهم كما ينبىء عنه التبعيض ومحل الظرف الرفع على أنه مبدأ باعتبار مضمونه أو نعت لمقدر هو المبتدأ كما في قوله عز وجل: ومنادون ذلك. أي وجمع منا الخ ومن في قوله تعالى (من يقول) موصولة أو موصوفة ومحلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذي يقول كقوله تعالى: ومنهم الذين يؤذون النبي. الآية أو فريق يقول كقوله تعالى: من المؤمنين رجال. الخ على أن يكون مناط الافادة والمقصود بالاصالة اتصافهم بما في حيز الصلة أو الصفة وما يتعلق به من الصفات جميعا لا كونهم ذوات أولئك المذكورين. وأما جعل الظرف خبرا كما هو الشائع في موارد الاستعمال فيأباه جزالة المعنى لأن كونهم من الناس ظاهر فالاخبار به عار عن الفائدة كما قيل فان مبناه توهم كون المراد بالناس الجنس مطلقا وكذا مدار الجواب عنه بأن الفائدة هو التنبيه على أن الصفات المذكورة تنافي الانسانية فحق من يتصف بها ان لا يعلم كونه من الناس

فيخبر به ويتعجب منه. وأنت خبير بأن الناس عبارة عن المعهودين أو عن الجنس المقصور على المصرين وأياما كان فالفائدة ظاهرة بل لان خبرية الظرف تستدعي ان يكون اتصاف هؤلاء بتلك الصفات القبيحة المفصلة فى ثلاث عشرة آية عنوانا للموضوع مفروغا عنه غير مقصود بالذات ويكون مناط الافادة كونهم من أولئك المذكورين ولا ريب لاحد فى أنه يجب حمل النظم الجليل على أجزل المعانى وأكملها . وتوحيد الضمير فى يقول باعتبار لفظة من وجمعه فى قوله (آمنا بالله وباليوم الآخر) وما بعده باعتبار معناها والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر الى مالا يتناهى أو الى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار اذ لاحد وراءه . وتخصيصهم للايمان بهما بالذكر مع تكرير الباء لادعاء انهم قد حازوا الايمان من قطريه وأحاطوا به من طرفيه . وأنهم قد آمنوا بكل منهما على الاصالة والاستحكام وقد دسوا تحته ماهم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكن ايمانهم بواحد منهما ايمانا فى الحقيقة اذ كانوا مشركين بالله بقولهم عزير ابن الله وجاحدين باليوم الآخر بقولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة ونحو ذلك. وحكاية عبارتهم لبيان كمال خبثهم ودعارتهم فان ماقالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن ذلك ايمانا فكيف وهم يقولونه تمويها على المؤمنين واستهزاء بهم (وماهم بمؤمنين) رد لما ادعوه ونفى لما انتحلوه وما حجازية فان جواز دخول الباء فى خبرها لتأكيد النفى اتفاقى بخلاف التميمية. وايثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة فى الرد بافادة انتفاء الايمان عنهم فى جميع الازمنة لا فى الماضى فقط كما تفيده الفعلية ولا يتوهمن أن الجملة الاسمية الايجابية تفيد دوام الثبوت فعند دخول النفى عليها يتعين الدلالة على نفى الدوام فانها بمعونة المقام تدل على دوام النفى قطعاً كما أن المضارع الخالى عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود وعند دخول حرف الامتناع عليه يدل على استمرار الامتناع لا على امتناع الاستمرار كما فى قوله عز وجل ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم ﴾ فان عدم قضاء الاجل لاستمرار عدم التعجيل لا لعدم استمرار التعجيل. واطلاق الايمان عما قيدوه به للايذان بأنهم ليسوا من جنس الايمان فى شىء أصلا فضلا عن الايمان بما ذكروا وقد جوز أن يكون المراد ذلك ويكون الاطلاق للظهور . ومدلول الآية الكريمة ان من أظهر الايمان واعتقاده بخلافه لايكون مؤمناً فلا حجة فيها للكرامية القائلين بأن من تفوه بكلمتى الشهادة فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه مؤمن (يخادعون الله والذين آمنوا) بيان ليقول وتوضيح لما هو غرضهم مما يقولون أو استئناف وقع جوابا عن

سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل مالهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين فقيل يخادعون الله الخ أى يخدعون وقدقرىء كذلك. وايثار صيغة المفاعلة لافادة المبالغة فى الكيفية فان الفعل متى غولب فيه بولغ فيه قطعاً أو فى الكمية كما فى الممارسة والمزاولة فانهم كانوا مداومين على الخدع.والخدع ان يوهم صاحبه خلاف مايريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لايحتسب أو يوهمه المساعدة على مايريد هو به ليغتر بذلك فينجو منه بسهولة من قولهم ضب خادع وخدع وهو الذى اذا أمر الحارش يده على باب جحره يوهمه الاقبال عليه فيخرج من بابه الآخر وكلا المعنيين مناسب للمقام فانهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها الى المنابذين وان يدفعوا عن أنفسهم مايصيب سائر الكفرة وأياما كان فنسبته الى الله سبحانه. اما على طريق الاستعارة والتمثيل لافادة كمال شناعة جنايتهم أى يعاملون معاملة الخادعين.واما على طريق المجاز العقلى بان ينسب اليه تعالى ماحقه أن ينسب الى الرسول صلى الله وسلم ابانة لمكانته عنده تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم وقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله مع افادة كمال الشناعة كمامر. وإما لمجرد التوطئة والتمهيد لما بعده من نسبته الى الذين آمنوا والايذان بقوة اختصاصهم به تعالى كما فى قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقوله تعالى ان الذين يؤذون الله ورسوله وابقاء صيغة المخادعة على معناها الحقيقى بناء على زعمهم الفاسد وترجمة عن اعتقادهم الباطل كأنه قيل يزعمون أنهم يخدعون الله والله يخدعهم أو على جعلها استعارة تبعية أو تمثيلا لما ان صورة صنعهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعه تعالى معهم باجراء أحكام الاسلام عليهم وهم عنده أخبث الكفرة وأهل الدرك الاسفل من النار استدراجا لهم.وامتثال الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأمر الله تعالى فى ذلك مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين كما قيل مما لايرتضيه الذوق السليم. اما الاول فلان المنافقين لو اعتقدوا أن الله تعالى يخدعهم بمقابلة خدعهم له لم يتصور منهم التصدى للخدع .وأما الثانى فلان مقتضى المقام ايراد حالهم خاصة وتصويرها بما يليق بها من الصورة المستهجنة وبيان ان غائلتها آيلة اليهم من حيث لايحتسبون كما يعرب عنه قوله عز وعلا (وما يخدعون الا أنفسهم) فالتعرض لحال الجانب الآخر مما يخل بتوفية المقام حقه وهو حال من ضمير يخادعون أى يفعلون مايفعلون والحال انهم مايضرون بذلك الا أنفسهم فان دائرة فعلهم مقصورة عليهم أو مايخدعون حقيقة الا أنفسهم حيث يغرونها بالاكاذيب فيلقونها فى مهاوى

الردىء وقرىء وما يخادعون والمعنى هو المعنى ومن حافظ على الصيغة فيما قبل قال وما يعاملون تلك المعاملة الشبيهة بمعاملة المخادعين الا أنفسهم لأن ضررها لايحيق الابهم أو مايخادعون حقيقة الا أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل وهي أيضاً تغرهم وتمنيهم الأماني الفارغة . وقرىء وما يخدعون من التخديع وما يخدعون أي يختدعون ويخدعون ويخادعون على البناء للمفعول ونصب أنفسهم بنزع الخافض . والنفس ذات الشيء وحقيقته وقد يقال للروح لان نفس الحي به وللقلب أيضاً لانه محل الروح أو متعلقه وللدم أيضاً لان قوامها به وللماء أيضاً لشدة حاجتها اليه والمراد هنا هو المعنى الاول لان المقصود بيان ان ضرر مخادعتهم راجع اليهم لايتخطاهم الى غيرهم وقوله تعالى (وما يشعرون) حال من ضمير مايخدعون أي يقتصرون على خدع أنفسهم والحال انهم مايشعرون أي مايحسون بذلك لتماديهم في الغواية . وحذف المفعول أما لظهوره أو لعمومه أي مايشعرون بشيء أصلا جعل لحوق وبال ماصنعوا بهم في الظهور بمنزلة الامر المحسوس الذي لايخفى الاعلى مؤف الحواس مختل المشاعر (في قلوبهم مرض) المرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ويوجب الخلل في أفاعيله ويؤدي الى الموت استعير ههنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدي الى الهلاك الروحاني والتنكير للدلالة على كونه نوعا مبهما غير مايتعارفه الناس من الامراض والجملة مقررة لما يفيده قوله تعالى وماهم بمؤمنين من استمرار عدم ايمانهم أو تعليل له كأنه قيل مالهم لايؤمنون فقيل في قلوبهم مرض يمنعه (فزادهم الله مرضاً) بان طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لايؤثر فيها التذكير والانذار . والجملة معطوفة على ماقبلها والفاء للدلالة على ترتب مضمونها عليه وبه اتضح كونهم من الكفرة المختوم على قلوبهم مع زيادة بيان السبب . وقيل زادهم كفرا بزيادة التكاليف الشرعية لانهم كانوا كلما ازداد التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفراً . ويجوز أن يكون المرض مستعارا لما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور عند مشاهدتهم لعزة المسلمين . فزيادته تعالى اياهم مرضاً مافعل بهم من القاء الروع وقذف الرعب في قلوبهم عند اعزاز الدين بامداد النبي صلى الله عليه وسلم بانزال الملائكة وتأييده بفنون النصر والتمكين فقوله تعالى في قلوبهم مرض الخ حينئذ استئناف تعليلي لقوله تعالى يخادعون الله الخ كانه قيل مالهم يخادعون ويداهنون ولم لايجاهرون بما في قلوبهم من الكفر فقيل في قلوبهم ضعف مضاعف هذه حالهم في الدنيا (ولهم) في الآخرة (عذاب أليم) أي مؤلم يقال ألم وهو أليم

كوجع وهو وجيع وصف به العذاب للمبالغة كما فى قوله
تحية بينهم ضرب وجيع . على طريقة جد جده فان الألم والوجع حقيقة للمؤلم والمضروب كما أن الجد للجاد وقيل هو بمعنى المؤلم كالسميع بمعنى المسمع وليس ذلك بثبت كما سيجىء فى قوله تعالى بديع السموات والأرض (بما كانوا يكذبون) الباء للسببية أو المقابلة وما مصدرية داخلة فى الحقيقة على يكذبون وكلمة كانوا مقحمة لافادة دوام كذبهم وتجدده أى بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذى هو قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر وهم غير مؤمنين فانه اخبار باحداثهم الايمان فيما مضى لا انشاء للايمان ولو سلم فهو متضمن للأخبار بصدوره عنهم وليس كذلك لعدم التصديق القلبى بمعنى الاذعان والقبول قطعاً ويجوز أن يكون محمولا على الظاهر بناء على رأى من يجوز أن يكون لكان الناقصة مصدر كما صرح به فى قول الشاعر :

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى . وكونك اياه عليك يسير

أى لهم عذاب أليم بسبب كونهم يكذبون على الاستمرار . وترتيب العذاب عليه من بين سائر موجباته القوية إما لان المراد بيان العذاب الخاص بالمنافقين بناء على ظهور شركتهم للمجاهرين فيما ذكر من العذاب العظيم حسب اشتراكهم فيما يوجبه من الاصرار على الكفر كما ينبىء عنه قوله تعالى ومن الناس الخ وإما للايذان بأن لهم بمقابلة سائر جناياتهم العظيمة من العذاب مالا يوصف وإما للرمز الى كمال سماجة الكذب نظراً الى ظاهر العبارة المخيلة لانفراده بالسببية مع إحاطة علم السامع بأن لحوق العذاب بهم من جهات شتى وأن الاقتصار عليه للاشعار بنهاية قبحه والتنفير عنه . عن الصديق رضى الله عنه ويروى مرفوعا أيضاً الى النبى صلى الله عليه وسلم اياكم والكذب فانه مجانب للايمان وما روى أن ابراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات فالمراد به التعريض . وانما سمى به لشبهه به صورة . وقيل ما موصولة والعائد محذوف أى بالذى يكذبونه . وقرىء يكذبون والمفعول محذوف وهو إما النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن وما مصدرية أى بسبب تكذيبهم اياه عليه السلام أو القرآن أو موصولة أى بالذى يكذبونه على أن العائد محذوف ويجوز أن يكون صيغة التفعيل للمبالغة كما فى بين فى بان وقلص فى قلص أو للتكثير كما فى موتت البهائم وبركت الابل وأن يكون من قولهم كذب الوحشى اذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ماوراءه فان المنافق متوقف فى أمره متردد فى رأيه ولذلك قيل له مذبذب (واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) شروع فى تعديد بعض من قبائحهم المتفرعة على ما حكى عنهم

من الكفر والنفاق. واذا ظرف زمن مستقبل و يلزمها معنى الشرط غالباً ولا تدخل الا فى الأمر المحقق أو المرجح وقوعه. واللام متعلقة بقيل ومعناها الانهاء والتبليغ والقائم مقام فاعله جملة لا تفسدوا على أن المراد بها اللفظ وقيل هو مضمر يفسره المذكور .والفساد خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والصلاح مقابله. والفساد فى الارض هيج الحروب والفتن المستتبعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد واختلال أمر المعاش والمعاد . والمراد بما نهوا عنه ما يؤدى الى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين الى الكفار واغرائهم عليهم وغير ذلك من فنون الشرور كما يقال للرجل لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك فى النار إذا أقدم على ما تلك عاقبته وهو اما معطوف على يقول فان جعلت كلمة من موصولة فلا محل له من الاعراب. ولا بأس بتخلل البيان أو الاستئناف وما يتعلق بهما بين أجزاء الصلة فان ذلك ليس توسيطاً بالأجنبي وإن جعلت موصوفة فمحله الرفع والمعنى ومن الناس من اذا نهوا من جهة المؤمنين عما هم عليه من الافساد فى الأرض (قالوا) إراءة للناهين ان ذلك غير صادر عنهم مع أن مقصودهم الأصلى انكار كون ذلك افساداً وادعاء كونه اصلاحاً محضاً كما سيأتى توضيحه (انما نحن مصلحون) أى مقصورون على الأصلاح المحض بحيث لا يتعلق به شائبة الإفساد والفساد مشيرين بكلمة إنما الى أن ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغى أن يرتاب فيه. و إما كلام مستأنف سيق لتعديد شنائعهم. وأما عطفه على يكذبون بمعنى ولهم عذاب أليم بكذبهم وبقولهم حين نهوا عن الافساد انما نحن مصلحون كما قيل فيأباه ان هذا النحو من التعليل حقه أن يكون بأوصاف ظاهرة العلية مسلمة الثبوت للموصوف غنية عن البيان لشهرة الاتصاف بها عند السامع أو لسبق ذكره صريحاً كما فى قوله تعالى بما كانوا يكذبون فان مضمونه عبارة عما حكى عنهم من قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر أو لذكر ما يستلزمه استلزاماً ظاهراً كما فى قوله عز وجل ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب فان ما ذكر من الضلال عن سبيل الله مما يوجب حتما نسيان جانب الآخرة التى من جملتها يوم الحساب وما لم يكن كذلك فحقه أن يخبر بعليته قصداً كما فى قوله تعالى ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الآية. وقوله ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق الآية إلى غير ذلك ولا ريب فى أن هذه الشرطية وما بعدها من الشرطيتين المعطوفتين عليها ليس مضمون شيء منها معلوم الانتساب اليهم عند السامعين بوجه من الوجوه المذكورة حتى تستحق الانتظام فى سلك التعليل المذكور فاذن حقها أن تكون مسوقة على سنن تعديد قبائحهم

على أحد الوجهين مفيدة لاتصافهم بكل واحد من تلك الأوصاف قصداً واستقلالا كيف لا وقوله عز وجل (ألا إنهم هم المفسدون) ينادى بذلك نداء جليا فانه رد من جهته تعالى لدعواهم المحكية أبلغ رد وأدله على سخط عظيم حيث سلك فيه مسلك الاستئناف المؤدى الى زيادة تمكن الحكم فى ذهن السامع.وصدرت الجملة بحر فى التأكيد ألا المنبهة على تحقق ما بعدها فان الهمزة الانكارية الداخلة على النفى تفيد تحقيق الاثبات قطعاً كما فى قوله تعالى أليس الله بكاف عبده.ولذلك لايكاد يقع ما بعدها من الجملة الا مصدرة بما يتلقى به القسم وأختها التى هى أما من طلائع القسم وقيل هما حرفان بسيطان موضوعان للتنبيه والاستفتاح. وان المقررة للنسبة وعرف الخبر ووسط ضمير الفصل لرد مافى قصر أنفسهم على الاصلاح من التعريض بالمؤمنين ثم استدرك بقوله تعالى (ولكن لا يشعرون) للايذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة لكن لاحس لهم حتى يدركوه وهكذا الكلام فى الشرطيتين الآتيتين وما بعدهما من رد مضمونهما.ولولا أن المراد تفصيل جناياتهم وتعديد خبائثهم وهناتهم ثم اظهار فسادها وابانة بطلانها لما فتح هذا الباب والله أعلم بالصواب(واذا قيل لهم) من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف أثر نهيهم عن المنكر إتماما للنصح واكمالا للارشاد (آمنوا)حذف المؤمن به لظهوره أو أريد افعلوا الايمان(كما آمن الناس) الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف أى آمنوا ايماناً مماثلا لايمانهم.فما مصدرية أو كافة كما فى ربما فانها تكف الحرف عن العمل وتصحح دخولها على الجملة وتكون للتشبيه بين مضمونى الجملتين أى حققوا ايمانكم كما تحقق ايمانهم واللام للجنس.والمراد بالناس الكاملون فى الانسانية العاملون بقضية العقل.فان اسم الجنس كما يستعمل فى مسماه يستعمل فيما يكون جامعاً للمعانى الخاصة به المقصودة منه ولذلك يسلب عما ليس كذلك فيقال هو ليس بانسان وقد جمعهما من قال:

إذ الناس ناس والزمان زمان أو للعهد والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام واضرابه والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالاخلاص متمحضاً عن شوائب النفاق مماثلا لايمانهم (قالوا) مقابلين للأمر بالمعروف بالانكار المنكر واصفين للمراجيح الرزان بضد أوصافهم الحسان (أنؤمن كما آمن السفهاء) مشيرين باللام الى من أشير اليهم فى الناس من الكاملين أو المعهودين أو الى الجنس بأسره وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد.والسفه خفة وسخافة رأى يورثهما قصور العقل ويقابله الحلم والأناة.وانما نسبوهم اليه مع أنهم فى الغاية القاصية من الرشد

والرزانة والوقار لكمال انهماك أنفسهم في السفاهة وتماديهم في الغواية وكونهم ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً فمن حسب الضلال هدى يسمى الهدى لامحالة ضلالا أو للتحقير شأنهم فان كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد بالناس عبد الله بن سلام وأمثاله وأياما كان فالذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعى فخامة شأنه الجليل أن يكون صدور هذا القول عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم جوابا عن نصيحتهم .وحيث كان فحواه تسفيه أولئك المشاهير الأعلام والقدح فى ايمانهم لزم كونهم مجاهرين لا منافقين وذلك مما لا يكاد يساعده السباق والسياق.وعن هذا قالوا ينبغى أن يكون ذلك فيما بينهم لا على وجه المؤمنين قال الامام الواحدى انهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام والمؤمنين بذلك عنهم.وأنت خبير بأن إبراز ماصدر من أحد المتحاورين فى الخلاء فى معرض ماجرى بينهما فى مقام المجاورة مما لا عهد به فى الكلام فضلا عما هو فى منصب الاعجاز فالحق الذى لا محيد عنه أن قولهم هذا وان صدر عنهم بمحضر من الناصحين لا يقتضى كونهم مجاهرين فانه ضرب من الكفر أنيق وفن فى النفاق عريق مصنوع على شاكلة قولهم واسمع غير مسمع فكما أنه كلام ذو وجهين مثلهم محتمل للشر بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاما ترضاه ونحوه وللخير بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين إرادة المعنى الأخير وهم مضمرون فى أنفسهم المعنى الأول مطمئنون به ولذلك نهوا عنه كذلك هذا الكلام محتمل للشر كما ذكر فى تفسيره وللخير بأن يحمل على ادعاء الايمان كايمان الناس وانكار ما اتهموا به من النفاق على معنى أنؤمن كما آمن السفهاء والمجانين الذين لا اعتداد بايمانهم لو آمنوا ولا نؤمن كايمان الناس حتى تأمرونا بذلك.قد خاطبوا به الناصحين استهزاء بهم مرائين لارادة المعنى الأخير وهم معولون على الأول فرد عليهم ذلك بقوله عز قائلا (ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) أبلغ رد وجهلوا أشنع تجهيل حيث صدرت الجملة بحرفى التأكيد حسبما أشير اليه فيما سلف وجعلت السفاهة مقصورة عليهم وبالغة الى حيث لا يدرون أنهم سفهاء وعن هذا اتضح لك سر ما مر فى تفسير قوله تعالى انما نحن مصلحون فان حمله على المعنى الأخير كما هو رأى الجمهور مناف لحالهم ضرورة ان مشافهتهم للناصحين بادعاء كون مانهوا عنه من الافساد اصلاحا كما مر اظهار منهم للشقاق وبروز باشخاصهم من نفق النفاق . والاعتذار بان المراد بما نهوا عنه مداراتهم للمشركين كما ذكر فى بعض

التفاسير و بالاصلاح الذى يدعونه اصلاح مابينهم و بين المؤمنين وأن معنى قوله تعالى ألا انهم هم المفسدون أنهم فى تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين لاشعارها باعطاء الدنية وانبائها عن ضعفهم الملجىء الى توسيط من يتصدى لاصلاح ذات البين فضلا عن كونهم مصلحين مما لاسبيل اليه قطعا فان قوله تعالى ولكن لايشعرون ناطق بفساده كيف لا وانه يقتضى أن يكون المنافقون فى تلك الدعوى صادقين قاصدين للاصلاح ويأتيهم الافساد من حيث لايشعرون ولا ريب فى أنهم فيها كاذبون لايعاشرونهم الا مضارة للدين وخيانة للمؤمنين فاذن طريق حل الاشكال ليس إلاما أشير اليه فان قولهم أنما نحن مصلحون محتمل للحمل على الكذب وانكار صدور الافساد المنسوب اليهم عنهم على معنى أنما نحن مصلحون لايصدر عنا ماتنهوننا عنه من الافساد وقد خاطبوا به الناصحين استهزاء بهم وارادة لارادة هذا المعنى وهم معرجون على المعنى الاول فرد عليهم بقوله تعالى ألاانهم هم المفسدون الآية والله سبحانه أعلم بما أودعه فى تضاعيف كتابه المكنون من السر المخزون نسأله العصمة والتوفيق والهداية الى سواء الطريق وتفصيل هذه الآية الكريمة بلا يعلمون لما انه أكثر طباقا لذكر السفه الذى هو فن من فنون الجهل ولان الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوط بالتمييز بين الحق والباطل وذلك مما لايتسنى الا بالنظر والاستدلال. وأما النفاق وما فيه من الفتنة والافساد ومايترتب عليه من كون من يتصف به مفسدا فأمر بديهى يقف عليه من له شعور ولذلك فصلت الآية الكريمة السابقة بلا يشعرون (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) بيان لتباين أحوالهم وتناقض أقوالهم فى أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين المخاطبين ومساق ماصدرت به قصتهم لتحرير مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ولذلك لم يتعرض ههنا لمتعلق الايمان فليس فيه شائبة التكرير. روى أن عبدالله بن أبى وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة فقال ابن أبى انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فلما دنوا منهم أخذ بيد أبى بكر رضى الله عنه فقال مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الاسلام وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال مرحبا بسيد بنى عدى الفاروق القوى فى دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد على كرم الله وجهه فقال مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيد بنى هاشم ماخلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت. وقيل قال له على رضى الله عنه ياعبد الله اتق الله ولا تنافق فان المنافقين شر خلق الله تعالى. فقال له مهلا ياأبا الحسن أفى تقول هذا والله ان ايماننا

كايمانكم وتصديقنا كتصديقكم . ثم افترقوا. فقال ابن أبي لاصحابه كيف رأيتموني فعلت فاذا رأيتموهم فافعلوا مثل مافعلت فاثنوا عليه خيرا وقالوا مازال بخير ماعشت فينا فرجع المسلمون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت واللقاء المصادفة يقال لقيته ولاقيته أي صادفته واستقبلته وقرىء اذا لاقوا (واذا خلوا) من خلوت الى فلان أي انفردت معه وقد يستعمل بالباء أو من خلا بمعنى مضى ومنه القرون الخالية وقولهم خلاك ذم أي جاوزك ومضى عنك وقد جوز كونه من خلوت به اذا سخرت منه على ان تعديته بالى في قوله تعالى (الى شياطينهم) لتضمنه معنى الانهاء أي واذا أنهوا اليهم السخرية الخ وأنت خبير بأن تقييد قولهم المحكى بذلك الانهاء مما لا وجه له والمراد بشياطينهم المماثلون منهم الشيطان في التمرد و العناد المظهرون لكفرهم واضافتهم اليهم المشاركة في الكفر أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم. وجعل سيبويه نون الشيطان تارة أصلية فوزنه فيعال على أنه من شطن اذا بعد فانه بعيد من الخير والرحمة. ويشهد له قولهم تشيطن . وأخرى زائدة فوزنه فعلان على أنه من شاط أى هلك أو بطل ومن أسمائه الباطل وقيل معناه هاج واحترق (قالوا إنا معكم) أى في الدين والاعتقاد لانفارقكم في حال من الاحوال. وانما خاطبوهم بالجملة الاسمية المؤكدة لان مدعاهم عندهم تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين والتأكيد للانباء عن صدق رغبتهم ووفور نشاطهم لا لانكار الشياطين بخلاف معاملتهم مع المؤمنين فانهم انما يدعون عندهم احداث الايمان لجزمهم بعدم رواج ادعاء الكمال فيه أو الثبات عليه (انما نحن) أى في اظهار الايمان عند المؤمنين (مستهزئون) بهم من غير أن يخطر ببالنا الايمان حقيقة وهو استئناف مبنى على سؤال ناشىء من ادعاء المعية كأنه قيل لهم عند قولهم انا معكم فما بالكم توافقون المؤمنين في الاتيان بكلمة الايمان فقالوا انما نحن مستهزئون بهم فلا يقدح ذلك في كوننا معكم بل يؤكده . وقد ضمنوا جوابهم أنهم يهينون المؤمنين ويعدون ذلك نصرة لدينهم. أو تأكيد لما قبله فان المستهزىء بالشىء مصر على خلافه. أو بدل منه لان من حقر الاسلام فقد عظم الكفر . والاستهزاء بالشىء السخرية منه يقال هزأت واستهزأت بمعنى وأصله الخفة من الهزء وهو القتل السريع وهزأ يهزأ مات على مكانه وتهزأ به ناقته أى تسرع به وتخف (الله يستهزىء بهم) أى يجازيهم على استهزائهم سمى جزاؤه باسمه كما سمى جزاء السيئة سيئة اما للمشاكلة في اللفظ أو المقارنة في الوجود أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزىء بهم أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء أو يعاملهم

معاملة المستهزئ بهم أما فى الدنيا فباجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالامهال و الزيادة فى النعمة على التمادى فى الطغيان. وأما فى الآخرة فبما يروى أنه يفتح لهم باب الى الجنة فيسرعون نحوه فاذا صاروا اليه سد عليهم الباب وذلك قوله تعالى. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . وانما استؤنف للايذان بأنهم قد بلغوا فى المبالغة فى استهزاء المؤمنين الى غاية ظهرت شناعته عند السامعين وتعاظم ذلك عليهم حتى اضطرهم الى أن يقولوا ما مصير أمر هؤلاء و ما عاقبة حالهم. وفيه أنه تعالى هو الذى يتولى أمرهم ولا يحوجهم الى المعارضة بالمثل و يستهزىء بهم الاستهزاء الا بلغ الذى ليس استهزاؤهم عنده من باب الاستهزاء حيث ينزل بهم من النكال و يحل عليهم من الذل والهوان مالا يوصف وايثار صيغة الاستقبال الدلالة على التجدد والاستمرار كما يعرب عنه قوله عز قائلا أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين وما كانوا خالدين فى أكثر الأوقات من تهتك أستار وتكشف أسرار ونزول فى شأنهم واستشعار حذر من ذلك كما أنبأ عنه قوله عز وجل يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون (و يمدهم) أى يزيدهم و يقويهم من مد الجيش و أمده اذا زاده وقواه ومنه مددت الدواة و السراج اذا أصلحتهما بالحبر والزيت. وايثاره على يزيدهم للرمز الى أن ذلك منوط بسوء اختيارهم لما أنه انما يتحقق عند الاستمداد وما يجرى مجراه من الحاجة الداعية اليه كما فى الامثلة المذكورة وقرىء يمدهم من الامداد وهو صريح فى أن القراءة المشهورة ليست من المد فى العمر على انه يستعمل باللام كالاملاء قال تعالى ونمد له من العذاب مداً. وحذف الجار وايصال الفعل الى الضمير خلاف الاصل لا يصار اليه الا بدليل (فى طغيانهم) متعلق بيمدهم والطغيان مجاوزة الحد فى كل أمر. والمراد افراطهم فى العتو وغلوهم فى الكفر وقرىء بكسر الطاء وهى لغة فيه كلقيان لغة فى لقيان وفى اضافته اليهم ايذان باختصاصه بهم وتأييد لما أشير اليه من ترتب المد على سوء اختيارهم (يعمهون) حال من الضمير المنصوب أو المجرور لكون المضاف مصدراً فهو مرفوع حكما. والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر وهو التحير والتردد بحيث لا يدرى أن يتوجه واسناد هذا المد الى الله تعالى مع اسناده فى قوله تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى محقق لقاعدة أهل الحق من أن جميع الأشياء مستند من حيث الخلق اليه سبحانه وان كانت أفعال العباد من حيث الكسب مستندة اليهم. والمعتزلة لما تعذر عليهم اجراء النظم الكريم على مسلكهم نكبوا الى شعاب التأويل فأجابوا أولا بأنهم لما أصروا على كفرهم خذلهم الله تعالى ومنعهم ألطافه

فتزايد الرين فى قلوبهم فسمى ذلك مدداً فى الطغيان فأسند ايلاؤه اليه تعالى. ففى المسند مجاز لغوى وفى الاسناد عقلى لانه اسناد للفعل الى المسبب له وفاعله الحقيقى هم الكفرة وثانياً بانه أريد بالمد فى الطغيان ترك القسر والالجاء الى الايمان كما فى قوله تعالى ونذرهم فى طغيانهم يعمهون. فالمجاز فى المسند فقط. وثالثاً بان المراد به معناه الحقيقى وهو فعل الشيطان لكنه أسند اليه سبحانه مجازاً لانه بتمكينه تعالى وأقداره (أولئك) اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميزة لهم عمن عداهم أكمل تمييز بحيث صاروا كأنهم حضار مشاهدون على ماهم عليه. وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر وسوء الحال ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى (الذين اشتروا الضلالة بالهدى) والجملة مسوقة لتقرير ماقبلها وبيان لكمال جهالتهم فما حكى عنهم من الاقوال والافعال باظهار غاية سماجتها وتصويرها بصورة مالا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز فضلا عن العقلاء. والضلالة الجور عن القصد والهدى التوجه اليه وقد استعير الأول للعدول عن الصواب فى الدين والثانى للاستقامة عليه والاشتراء استبدال السلعة بالثمن أى أخذها به لا بذله لتحصيلها كما قيل وان كان مستلزماً له فان المعتبر فى عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب الذى هو المعتبر فى عقد البيع ثم استعير لأخذ شيء باعطاء ما فى يده عينا كان كل منهما أو معنى لا للاعراض عما فى يده محصلا به غيره كما قيل وان استلزمه لما مر سره. ومنه قوله

أخذت بالجملة رأساً أزعرا ... وبالثنايا الواضحات الدردرا
وبالطويل العمر عمراً جيدرا ... كما اشترى المسلم اذ تنصرا

فاشتراء الضلالة بالهدى مستعار لاخذها بدلا منه أخذاً منوطاً بالرغبة فيها والاعراض عنه. ولما اقتضى ذلك أن يكون ما يجرى مجرى الثمن حاصلا للكفرة قبل العقد وما يجرى مجرى المبيع غير حاصل لهم اذ ذاك حسبما هو فى البيت ولا ريب فى انهم بمعزل من الهدى مستمرون على الضلالة استدعى الحال تحقيق ما جرى مجرى العوضين فنقول وبالله التوفيق ليس المراد بما تعلق به الاشتراء ههنا جنس الضلالة الشاملة لجميع أصناف الكفرة حتى تكون حاصلة لهم من قبل بل هو فردها الكامل الخاص بهؤلاء على أن اللام للعهد وهو عمههم المقرون بالمد فى الطغيان المترتب على ما حكى عنهم من القبائح. وذلك انما يحصل لهم عند اليأس عن اهتدائهم والختم على قلوبهم. وكذا ليس المراد بما فى حيز الثمن نفس الهدى بل هو التمكن التام منه بتعاضد الأسباب وتأخذ المقدمات المستتبعة له بطريق الاستعارة كأنه نفس الهدى بجامع المشاركة

فى استتباع الجدوى. ولا مرية فى أن هذه المرتبة من التمكن كانت حاصلة لهم بما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبما سمعوه من نصائح المؤمنين التى من جملتها ما حكى من النهى عن الافساد فى الأرض والأمر بالايمان الصحيح وقد نبذوها وراء ظهورهم وأخذوا بدلها الضلالة الهائلة التى هى العمه فى تيه الطغيان. وحمل الهدى على الفطرة الأصلية الحاصلة لكل أحد يأباه أن اضاعتها غير مختصة بهؤلاء ولئن حملت على الاضاعة التامة الواصلة الى حد الختم على القلوب المختصة بهم فليس فى اضاعتها فقط من الشناعة ما فى اضاعتها مع ما يؤيدها من المؤيدات العقلية والنقلية على أن ذلك يفضى الى كون ذكر ما فصل من أول السورة الكريمة الى هنا ضائعا وأبعد منه حمل اشتراء الضلالة بالهدى على مجرد اختيارها عليه من غير اعتبار كونه فى أيديهم بناء على انه يستعمل اتساعا فى ايثار أحد الشيئين الكائنين فى شرف الوقوع على الآخر فانه مع خلوه عن المزايا المذكورة بالمرة مخل برونق الترشيح الآتى. هذا على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارة عن معاملتهم السابقة المحكية وهو الأنسب بتجاوب أطراف النظم الكريم. وأما اذا جعل ترجمة عن جناية أخرى من جناياتهم فالمراد بالهدى ما كانوا عليه من معرفة صحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وحقية دينه بما كانوا يشاهدونه من نعوته عليه السلام فى التوراة وقد كانوا على يقين منه حتى كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به كما سيأتى. ولا مساغ لحمل الهدى على ما كانوا يظهرونه عند لقاء المؤمنين فانها ضلالة مضاعفة (فما ربحت تجارتهم) عطف على الصلة داخل فى حيزها والفاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها. والتجارة صناعة التجارة وهو التصدى للبيع والشراء لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال يقال ربح فلان فى تجارته أى استشف فيها وأصاب الربح واسناد عدمه الذى هو عبارة عن الخسران اليها وهو لأربابها بناء على التوسع المبنى على ما بينهما من الملابسة. وفائدته المبالغة فى تخسيرهم لما فيه من الاشعار بكثرة الخسار وعمومه المستتبع لسرايته الى ما يلابسهم. وايرادها إثر الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة وتصوير لما فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسار التجارة الذى يتحاشى عنه كل أحد للاشباع فى التخسير والتحسير ولا ينافى ذلك أن التجارة فى نفسها استعارة لانهما كهم فيما هم عليه من ايثار الضلالة على الهدى وتمرنهم عليه معربة عن كون ذلك

صناعة لهم راسخة إذ ليس من ضرو ريات الترشيح أن يكون باقياً على الحقيقة تابعاً للاستعارة لا يقصد به الا تقويتها كما فى قولك رأيت أسداً وافى البراثن فانك لا تريد به الا زيادة تصوير للشجاع وانه أسد كامل من غير أن تريد بلفظ البراثن معنى آخر بل قد يكون مستعارا من ملائم المستعار منه لملائم المستعار له ومع ذلك يكون ترشيحاً لأصل الاستعارة كما فى قوله :

فلما رأيت النسر عز ابن دأية   وعشش فى وكريه جاش له صدرى

فان لفظ الوكرين مع كونه مستعاراً من معناه الحقيقى الذى هو موضع يتخذه الطائر للتفريخ للرأس واللحية أو للفودين أعنى جانبى الرأس ترشيح باعتبار معناه الأصلى لاستعارة لفظ النسر للشيب، ولفظ ابن دأية للشعر الأسود وكذا لفظ التعشيش مع كونه مستعارا للحلول والنزول المستمرين ترشيح لتينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور .وقرىء تجاراتهم وتعددها لتعدد المضاف اليهم (وما كانوا مهتدين) أى الى طرق التجارة فان المقصود منها سلامة رأس المال مع حصول الربح ولئن فات الربح فى صفقة فربما يتدارك فى صفقة أخرى لبقاء الأصل .وأما اتلاف الكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعا فهؤلاء الذى كان رأس مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلتا الطلبتين فبقوا خائبين خاسرين نائين عن طريق التجارة بألف منزل. فالجملة راجعة الى الترشيح معطوفة على ما قبلها مشاركة له فى الترتب على الاشتراء المذكور والأولى عطفها على اشتروا الخ (مثلهم) زيادة كشف حالهم وتصوير لها غب تصويرها بصورة مايؤدى الى الخسار بحسب المآل بصورة ما يفضى الى الخسار من حيث النفس تهويلا لها وابانة لفظاعتها. فان التمثيل ألطف ذريعة الى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه .وأقوى وسيلة الى تفهيم الجاهل الغبى وقمع سورة الجامح الابى كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية وابرازها فى معرض المحسوسات الجلية وابداء للمنكر فى صورة المعروف واظهار للوحشى فى هيئة المألوف. والمثل فى الاصل بمعنى المثل والنظير يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ثم أطلق على القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك الا قولا بديعا فيه غرابة صيرته جديرا بالتسيير فى البلاد وخليقا بالقبول فيما بين كل حاضر وباد استعير لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن عجيب وخطر غريب من غير أن يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيه .ومنه قوله عز وجل ولله المثل الاعلى : أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل وقوله تعالى مثل الجنة التى وعد المتقون : أى قصتها العجيبة الشأن (كمثل الذى) أى الذين كما فى قوله تعالى وخضتم كالذى خاضوا .

خلا أنه وحد الضمير فى قوله تعالى «استوقد نارا» نظرا الى الصورة. وانما جاز ذلك مع عدم جواز وضع القائم مقام القائمين لان المقصود بالوصف هى الجملة الواقعة صلة له دون نفسه بل انما هو وصلة لوصف المعارف بها ولأنه حقيق بالتخفيف لاستطالته بصلته ولذلك بولغ فيه فحذف ياؤه ثم كسرته ثم اقتصر على اللام فى أسماء الفاعلين والمفعولين. ولانه ليس باسم تام بل هو كجزئه فحقه أن لا يجمع ويستوى فيه الواحد والمتعدد كما هو شأن أخواته. وليس الذين جمعه المصحح بل النون فيه مزيدة للدلالة على زيادة المعنى ولذلك جاء بالياء أبدا على اللغة الفصيحة أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج أو الفريق المستوقد. والنار جوهر لطيف مضىء حار محرق واشتقاقها من نار ينور اذا نفر لان فيها حركة واضطرابا واستيقادها طلب وقودها أى سطوعها وارتفاع لهبها وتنكيرها للتفخيم (فلما أضاءت ما حوله) الاضاءة فرط الانارة كما يعرب عنه قوله تعالى «هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا» وتجىء متعدية ولازمة. والفاء للدلالة على ترتبها على الاستيقاد أى فلما أضاءت النار ما حول المستوقد أو فلما أضاء ما حوله والتأنيث لكونه عبارة عن الاماكن والاشياء أو أضاءت النار نفسها فما حوله على أن ذلك ظرف لاشراق النار المنزل منزلتها لا لنفسها أو مزيدة وحوله ظرف وتأليف الحول للدوران وقيل للعام حول لانه يدور (ذهب الله بنورهم) النور ضوء كل نير واشتقاقه من النار والضمير للذى والجمع باعتبار المعنى أى أطفأ الله نارهم التى هى مدار نورهم وانما علق الاذهاب بالنور دون نفس النار لأنه المقصود بالاستيقاد لا الاستدفاء ونحوه كما ينبىء عنه قوله تعالى: فلما أضاءت: حيث لم يقل فلما شب ضرامها أو نحو ذلك وهو جواب لما أو استئناف أجيب به عن سؤال سائل يقول ما بالهم أشبهت حالهم حال مستوقد انطفأت ناره. أو بدل من جملة التمثيل على وجه البيان والضمير على الوجهين للمنافقين والجواب محذوف كما فى قوله تعالى فلما ذهبوا به للايجاز والأمن من الالباس كانه قيل فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا فى الظلمات خابطين متحيرين خائبين بعد الكدح فى احيائها. واسناد الاذهاب الى الله تعالى اما لان الكل بخلقه تعالى واما لان الانطفاء حصل بسبب خفى أو أمر سماوى كريح أو مطر واما للمبالغة كما يؤذن به تعدية الفعل بالباء دون الهمزة لما فيه من معنى الاستصحاب والامساك يقال ذهب السلطان بماله اذا أخذه وما أخذه الله عز وجل فأمسكه فلا مرسل له من بعده ولذلك عدل عن الضوء الذى هو مقتضى الظاهر الى النور لان ذهاب الضوء قد يجامع بقاء النور فى الجملة لعدم استلزام عدم القوى لعدم الضعيف والمراد ازالته بالكلية كما يفصح عنه قوله تعالى (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون)

فان الظلمة التى هى عدم النور وانطماسه بالمرة لا سيما اذا كانت متضاعفة متراكمة متراكبا بعضها على بعض كما يفيده الجمع والتنكير التفخيمي وما بعدها من قوله تعالى لا يبصرون لا يتحقق الا بعد أن لا يبقى من النور عين ولا أثر.واما لان المراد بالنور مالا يرضى به الله تعالى من النار المجازية التى هى نار الفتنة والفساد كما فى قوله تعالى كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله.ووصفها باضاءة ما حول المستوقد من باب الترشيح أو النار الحقيقية التى يوقدها الغواة ليتوصلوا بها الى بعض المعاصى ويهتدوا بها فى طرق العبث والفساد فأطفأها الله تعالى وخيب آمالهم.وترك فى الاصل بمعنى طرح وخلى وله مفعول واحد فضمن معنى التصيير فجرى مجرى أفعال القلوب قال:

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

والظلمة مأخوذة من قولهم ما ظلمك أن تفعل كذا أى ما منعك لانها تسد البصر وتمنعه من الرؤية.وقرىء فى ظلمات بسكون اللام وفى ظلمة بالتوحيد ومفعول لا يبصرون من قبيل المطروح كأن الفعل غير متعد.والمعنى أن حالهم العجيبة التى هى اشتراؤهم الضلالة التى هى عبارة عن ظلمتى الكفر والنفاق المستتبعتين لظلمة سخط الله تعالى وظلمة يوم القيامة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وظلمة العقاب السرمدى بالهدى الذى هو النور الفطرى المؤيد بما شاهدوه من دلائل الحق أو بالهدى الذى كانوا حصلوه من التوراة حسبما ذكر كحال من استوقد نارا عظيمة حتى كاد ينتفع بها فأطفأها الله تعالى وتركه فى ظلمات هائلة لا يتسنى فيها الابصار (صم بكم عمى) أخبار لمبتدا محذوف هو ضمير المنافقين أو خبر واحد بالتأويل المشهور كما فى قولهم هذا حلو حامض.والصمم آفة مانعة من السماع وأصله الصلابة واكتناز الاجزاء ومنه الحجر الاصم والقناة الصماء وصمام القارورة سدادها سمى به فقدان حاسة السمع لما ان سببه اكتناز باطن الصماخ وانسداد منافذه بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموجه .والبكم الخرس .والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر وصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الاصاخة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم وأبوا أن يتلقوها بالقبول وينطقوا بها ألسنتهم ولم يجتلوا ماشاهدوا من المعجزات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينظروا الى آيات التوحيد المنصوبة فى الآفاق والأنفس بعين التدبر وأصروا على ذلك بحيث لم يبق لهم احتمال الارعواء عنه صاروا كفاقدى تلك المشاعر بالكلية وهذا عند مفلقى سحرة البيان من باب التمثيل البليغ المؤسس على تناسى التشبيه كما فى قول من قال :

و يصعد حتى يظن الجهول بان له حاجـــة فى السماء

لما أن المقدر فى النظم فى حكم الملفوظ لامن قبيل الاستعارة التى يطوى فيها ذكر المستعار له بالكلية حتى لو لم يكن هناك قرينة لحمل على المعنى الحقيقى كما فى قول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

(فهم لايرجعون) الفاء للدلالة على ترتب مابعدها على ماقبلها أى هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لايعودون الى الهدى الذى تركوه وضيعوه أو عن الضلالة التى أخذوها. و الآية نتيجة للتمثيل مفيدة لزيادة تهويل و تفظيع فان قصارى أمر التمثيل بقاؤهم فى ظلمات هائلة من غير تعرض لمشعرى السمع و النطق و لاختلال مشعر الابصار . و قيل الضمير المقدر و ما بعده للموصول باعتبار المعنى كالضمائر المتقدمة فالآية الكريمة تتمة للتمثيل و تكميل له بأن ماأصابهم ليس مجرد انطفاء نارهم و بقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة مع بقاء حاسة البصر بحالها بل اختلت مشاعرهم جميعاً و اتصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أو الحقيقة فبقوا جامدين فى مكاناتهم لايرجعون و لايدرون أيتقدمون أم يتأخرون و كيف يرجعون الى ماابتدأوا منه . و العدول الى الجملة الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم. و قرئ صما بكما عمياً اما على الذم كما فى قوله تعالى حمالة الحطب و المخصوص بالذم هم المنافقون أو المستوقدون و اما على الحالية من الضمير المنصوب فى تركهم أو المرفوع فى لايبصرون و اما على المفعولية لتركهم فالضميران للمستوقدين (أو كصيب) تمثيل لحالهم أثر تمثيل ليعم البيان منها كل دقيق وجليل و يوفى حقها من التفظيع و التهويل . فان تفننهم فى فنون الكفر و الضلال و تنقلهم فيهامن حال الى حال حقيق بان يضرب فى شأنه الامثال. و يرخى فى حلبته أعنة المقال. و يمد لشرحه أطناب الاطناب. و يعقد لاجله فصول و أبواب. لما أن كل كلام له حظ من البلاغة و قسط من الجزالة و البراعة لابد أن يوفى فيه حق كل من مقامى الاطناب و الايجاز فما ظنك بما فى ذروة الاعجاز من التنزيل الجليل و لقد نعى عليهم فى هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم. و هو عطف على الاول على حذف المضاف لما سيأتى من الضمائر المستدعية لذلك أى كمثل ذوى صيب. و كلمة أو للايذان بتساوى القصتين فى الاستقلال بوجه التشبيه و بصحة التمثيل بكل و احدة منهما و بهما معا و الصيب فيعل من الصوب و هو النزول الذى له وقع و تأثير يطلق على المطر و على السحاب قال الشماخ. عفا آية نسج الجنوب مع الصبا و اسحم دان صادق الوعد صيب

ولعل الاول هو المراد ههنا لاستلزامه الثانى. وتنكيره لما أنه أريد به نوع منه شديد هائل كالنار فى التمثيل الأول وأمد به ما فيه من المبالغات من جهة مادته الأولى التى هى الصاد المستعلية والياء المشددة والباء الشديدة ومادته الثانية أعنى الصوب المنبىء عن شدة الانسكاب ومن جهة بنائه الدال على الثبات وقرىء أو كصائب (من السماء) متعلق بصيب أو بمحذوف وقع صفة له. والمراد بالسماء هذه المظلة وهى فى الاصل كل ماعلاك من سقف ونحوه وعن الحسن انها موج مكفوف أى ممنوع بقدرة الله عز وجل من السيلان. وتعريفها للايذان بان انبعاث الصيب ليس من أفق واحد فان كل أفق من آفاقها أى كل مايحيط به كل أفق منها سماء على حدة قال ومن بعد أرض بيننا وسماء كما أن كل طبقة من طباقها سماء قال تعالى وأوحى فى كل سماء أمرها والمعنى انه صيب عام نازل من غمام مطبق آخذ بالآفاق وقيل المراد بالسماء السحاب واللام لتعريف الماهية (فيه ظلمات) أى أنواع منها وهى ظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر وظلمة اظلال مايلزمه من الغمام الاسحم المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل وجعله محلا لها مع ان بعضها لغيره كظلمتى الغمام والليل لما أنهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغة فى شدته وتهويلا لأمره وإيذانا بانه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام وهو السر فى عدم جعل الظلمات هو الاصل المستتبع للبواقى مع ظهور ظرفيتها للكل اذ لو قيل أو كظلمات فيها صيب الخ لما أفاد أن للصيب ظلمة خاصة به فضلا عن كونها غالبة على غيرها (ورعد) وهو صوت يسمع من السحاب والمشهور أنه يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض أو من انقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها بسوق الرياح اياه سوقا عنيفاً (وبرق) وهو مايلمع من السحاب من برق الشىء بريقاً أى لمع وكلاهما فى الاصل مصدر ولذلك لم يجمعا وكونهما فى الصيب باعتبار كونهما فى أعلاه ومصبه ووصول أثرهما اليه وكونهما فى الظلمات الكائنة فيه. والتنوين فى الكل للتفخيم والتهويل كأنه قيل فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف وبرق خاطف. وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعلية لتحقق شرط العمل بالاتفاق وقيل بالابتداء والجملة اما صفة لصيب أو حال منه لتخصصه بالصفة أو بالعمل فيما بعده من الجار أو من المستكن فى الظرف الاول على تقدير كونه صفة لصيب. والضمائر فى قوله عز وجل (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) للمضاف الذى أقيم مقامه المضاف اليه فان معناه باق وان حذف لفظه تعويلا على الدليل كما فى قوله تعالى وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون فان الضمير للاهل المدلول

عليه بما قام مقامه من القرية قال حسان رضى الله عنه :

يسقون من ورد البريص عليهم ۞ بردى يصفق بالرحيق السلسل

فان تذكير الضمير المستكن فى يصفق لرجوعه الى الماء المضاف الى بردى والا لانث حتما . وايثار الجعل المنبئ عن دوام الملابسة واستمرار الاستقرار على الادخال المفيد لمجرد الانتقال من الخارج الى الداخل للمبالغة فى بيان سد المسامع باعتبار الزمان كما أن ايراد الأصابع بدل الأنامل للاشباع فى بيان سدها باعتبار الذات كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها فحسب كما هو المعتاد . ويجوز أن يكون هذا ايماء الى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم الى حيث لا يهتدون الى استعمال الجوارح على النهج المعتاد . وكذا الحال فى عدم تعيين الاصبع المعتاد أعنى السبابة. وقيل ذلك لرعاية الأدب. والجملة استئناف لا محل لها من الاعراب مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل عند بيان أحوالهم الهائلة فماذا يصنعون فى تضاعيف تلك الشدة فقيل يجعلون الخ وقوله تعالى (من الصواعق) متعلق بيجعلون اى من أجل الصواعق المقارنة للرعد من قولهم سقاه من العيمة. والصاعقة قصفة رعد هائل تنقض معها شقة نار لا تمر بشىء الا أتت عليه من الصعق وهو شدة الصوت وبناؤها اما ان يكون صفة لقصفة الرعد أو للرعد . والتاء للمبالغة كما فى الراوية أو مصدرا كالعافية وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد يقال صعقته الصاعقة اذا أهلكته بالاحراق أو بشدة الصوت . وسد الآذان انما يفيد على التقدير الثانى دون الأول . وقرىء من الصواقع وليس ذلك بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين فى التصرف يقال صقع الديك وخطيب مصقع أى مجهر بخطبته (حذر الموت) منصوب بيجعلون على العلة وان كان معرفة بالاضافة كقوله :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره ۞ وأصفح عن شتم اللئيم تكرما

ولا ضير فى تعدد المفعول له فان الفعل يعلل بعلل شتى. وقيل هو نصب على المصدرية أى يحذرون حذرا مثل حذر الموت والحذر والحذار هو شدة الخوف. وقرىء حذار الموت. والموت زوال الحياة وقيل عرض يضادها لقوله تعالى خلق الموت والحياة . ورد بأن الخلق بمعنى التقدير والاعدام مقدرة (والله محيط بالكافرين) أى لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط . شبه شمول قدرته تعالى لهم وانطواء ملكوته عليهم باحاطة المحيط بما أحاط به فى استحالة الفوت. أو شبه الهيئة المنتزعة من شئونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط فالاستعارة المبنية على التشبيه الاول استعارة تبعية فى الصفة متفرعة على مافى مصدرها من الاستعارة والمبنية على الثانى تمثيلية قد اقتصر

من طرف المشبه به على ما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى الاحاطة والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كامر تحريره فى قوله عز وجل ختم الله على قلوبهم والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سد الآذان بالأصابع لا يغنى عنهم شيئاً فان القدر لا يدافعه الحذر والحيل لا ترد بأس الله عز وجل. وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع الى أصحاب الصيب الايذان بأن مادهمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم على منهاج قوله تعالى كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته فان الاهلاك الناشىء من السخط أشد. وقيل هذا الاعتراض من جملة أحوال المشبه على أن المراد بالكافرين المنافقون قد دل به على أنه لا مدفع لهم من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة. وانما وسط بين أحوال المشبه به مع أن القياس تقديمه أو تأخيره لاظهار كمال العناية وفرط الاهتمام بشأن المشبه (يكاد البرق) استئناف آخر وقع جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق فقيل يكاد ذلك (يخطف أبصارهم) أى يختلسها ويستلبها بسرعة. وكاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لتآخذ أسبابه وتعاضد مباديه لكنه لم يوجد بعد لفقد شرط أو لعروض مانع ولا يكون خبرها إلا مضارعا عاريا عن كلمة أن وشذ مجيئه اسما صريحا كما فى قوله:

فأبت الى فهم وما كدت آيبا وكذا مجيئه مع أن حملا لها على عسى كما فى مثل قول رؤبة قد كان من طول البلى أن يمصحا كما تحمل هى عليها بالحذف لما بينهما من المقارنة فى أصل المقاربة وليس فيها شائبة الانشائية كما فى عسى. وقرىء يخطف بكسر الطاء ويختطف ويخطف بفتح الياء والخاء بنقل فتحة التاء الى الخاء وادغامها فى الطاء ويخطف بكسرهما على اتباع الياء الخاء ويخطف من صيغة التفعيل ويتخطف من قوله تعالى ويتخطف الناس من حولهم (كلما أضاء لهم) كل ظرف وما مصدرية والزمان محذوف أى كل زمان اضاءة. وقيل ما نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف أى كل وقت أضاء لهم فيه والعامل فى كلما جوابها وهو استئناف ثالث كأنه قيل مايفعلون فى أثناء ذلك الهول أيفعلون بأبصارهم ما فعلوا بآذانهم أم لا فقيل كلما نور البرق لهم ممشى ومسلكا على أن أضاء متعد والمفعول محذوف أو كلما لمع لهم على أنه لازم ويؤيده قراءة كلما ضاء (مشوا فيه) أى فى ذلك المسلك أو فى مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم وايثار المشى على ما فوقه من السعى والعدو للاشعار بعدم استطاعتهم

لها (و اذا أظلم عليهم) أى خفى البرق واستتر . والمظلم وان كان غيره لكن لما كان الاظلام دائراً على استتاره أسند اليه مجازاً تحقيقاً لما أريد من المبالغة فى موجبات تخبطهم وقد جوز أن يكون متعدياً منقولا من ظلم الليل ومنه ماجاء فى قول أبى تمام

هما أظلما حالى ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

و يعضده قراءة أظلم على البناء للمفعول (قاموا) أى وقفوا فى أماكنهم على ما كانوا عليه من الهيئة متحيرين مترصدين لخفقة أخرى عسى يتسنى لهم الوصول الى المقصد أو الالتجاء الى ملجأ يعصمهم. و ايراد كلما مع الاضاءة و اذا مع الاظلام للايذان بأنهم حراص على المشى مترقبون لما يصححه فكلما وجدوا فرصة انتهزوها ولا كذلك الوقوف و فيه من الدلالة على كمال التحير وتطاير اللب مالا يوصف (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) كلمة لو لتعليق حصول أمر ماض هو الجزاء بحصول أمر مفروض فيه هو الشرط لما بينهما من الدوران حقيقة أو ادعاء و من قضية مفروضية الشرط دلالتها على انتفائه قطعاً والمنازع فيه مكابر . وأما دلالتها على انتفاء الجزاء فقد قيل وقيل . و الحق الذى لا محيد عنه أنه أن كان ما بينهما من الدوران كليا أو جزئياً قد بنى الحكم على اعتباره فهى دالة عليه بواسطة مدلولها الوضعى لامحالة ضرورة استلزام انتفاء العلة لانتفاء المعلول. أما فى مادة الدوران الكلى كما فى قوله عز وجل ، ولو شاء لهداكم أجمعين وقولك لو جئتنى لاكرمتك فظاهر لان وجود المشيئة علة لوجود الهداية حقيقة و وجود المجيء علة لوجود الاكرام ادعاء وقد انتفيا بحكم المفروضية فانتفى معلولاهما حتما. ثم انه قد يساق الكلام لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما فى المثالين المذكورين وهو الاستعمال الشائع لكلمة لو ولذلك قيل هى لامتناع الثانى لامتناع الاول. وقد يساق للاستدلال بانتفاء الثانى لكونه ظاهراً أو مسلماً على انتفاء الاول لكونه خفياً أو متنازعاً فيه كما فى قوله سبحانه. لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا. وفى قوله تعالى. لو كان خيراً ماسبقونا اليه . فان فسادهما لازم لتعدد الآلهة حقيقة وعدم سبق المؤمنين الى الايمان لازم لخيريته فى زعم الكفرة ولا ريب فى انتفاء اللازمين فتعين انتفاء الملزومين حقيقة فى الاول وادعاء باطلا فى الثانى ضرورة استلزام انتفاء اللازم لانتفاء الملزوم . لكن لا بطريق السببية الخارجية كما فى المثالين الاولين بل بطريق الدلالة العقلية الراجعة الى سببية العلم بانتفاء الثانى للعلم بانتفاء الاول ومن لم يتنبه له زعم انه لانتفاء الاول لانتفاء الثانى . وأما فى مادة الدوران الجزئى كما فى قولك لو طلعت الشمس لوجد الضوء فلان الجزاء المنوط بالشرط الذى هو طلوعها

ليس وجود أى ضوء كان كضوء القمر الجامع لعدم الطلوع مثلا بل انما هو وجود الضوء الخاص الناشيء من الطلوع فلا ريب فى انتفائه بانتفاء الطلوع هذا اذا بنى الحكم على اعتبار الدوران . وأما اذا بنى على عدمه فاما أن يعتبر هناك تحقق مدار آخر له أولا . فان اعتبر فالدلالة تابعة لحال ذلك المدار . فان كان بينه و بين انتفاء الاول منافاة تعين الدلالة كما اذا قلت لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء فان وجود الضوء وان علق صورة بعدم الطلوع لكنه فى الحقيقة معلق بسبب آخر له ضرورة أن عدم الطلوع من حيث هو هو ليس مدارا لوجود الضوء فى الحقيقة وانما وضع موضع المدار لكونه كاشفاً عن تحقق مدار آخر له فكأنه قيل لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء بسبب آخر كالقمر مثلا ولا ريب فى أن هذا الجزاء منتف عند انتفاء الشرط لاستحالة وجود الضوء القمرى عند طلوع الشمس . وان لم يكن بينهما منافاة تعين عدم الدلالة كما فى قوله صلى الله عليه وسلم فى بنت أبى سلمة . لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ماحلت لى انها لابنة أخى من الرضاعة. فان المدار المعتبر فى ضمن الشرط أعنى كونها ابنة اخيه عليه السلام من الرضاعة غير مناف لانتفائه الذى هو كونها ربيبة عليه السلام بل مجامع له ومن ضرورته مجامعة أثريهما أعنى الحرمة الناشئة من كونها ربيبته عليه السلام والحرمة الناشئة من كونها ابنة أخيه من الرضاعة. وان لم يعتبر هناك تحقق مدار آخر بل بنى الحكم على اعتبار عدمه فلا دلالة لها على ذلك أصلا كيف لا ومساق الكلام حينئذ لبيان ثبوت الجزاء على كل حال بتعليقه بما ينافيه ليعلم ثبوته عند وقوع مالا ينافيه بالطريق الاولى كما فى قوله عز وجل قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لامسكتم وقوله عليه السلام لو كان الايمان فى الثريا لناله رجال من فارس وقول على رضى الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا. فان الاجزية المذكورة قد نيطت بما ينافيها و يستدعى نقائضها ايذاناً بانها فى أنفسها بحيث يجب ثبوتها مع فرض انتفاء أسبابها أو تحقق أسباب انتفائها فكيف اذا لم يكن كذلك على طريقة لو الوصلية فى مثل قوله تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ولها تفاصيل وتفاريع حررناها فى تفسير قوله تعالى أولو كنا كارهين وقول عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه أن حمل على تعليق عدم العصيان فى ضمن عدم الخوف بمدار آخر نحو الحياء والاجلال و غيرهما مما يجامع الخوف كان من قبيل حديث ابنة أبى سلمة. وان حمل على بيان استحالة عصيانه مبالغة كان من هذا القبيل . والآية الكريمة واردة على الاستعمال الشائع مفيدة لكمال فظاعة حالهم وغاية هول مادهمهم من المشاق وأنها قد بلغت من الشدة الى حيث لو تعلقت

مشيئة الله تعالى بازالة مشاعرهم لزالت لتحقق ما يقتضيه اقتضاء تاماً. وقيل كلمة لو فيها لربط جزائها بشرطها مجردة عن الدلالة على انتفاء أحدهما لانتفاء الآخر بمنزلة كلمة إن ومفعول المشيئة محذوف جريا على القاعدة المستمرة فانها اذا وقعت شرطاً وكان مفعولها مضموناً للجزاء فلا يكاد يذكر الا أن يكون شيئا مستغربا كما فى قوله :

فلو شئت أن أبكى دما لبكيته ۞ عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

أى لوشاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لفعل ولكن لم يشأ لما يقتضيه من الحكم والمصالح . وقرىء لأذهب بأسماعهم على زيادة الباء كما فى قوله تعالى ولاتلقوا بأيديكم الى التهلكة . والافراد فى المشهورة لان السمع مصدر فى الاصل والجملة الشرطية معطوفة على ماقبلها من الجمل الاستئنافية وقيل على كلما أضاء الخ وقوله عز وجل (إن الله على كل شيء قدير) تعليل للشرطية وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على ازالة مشاعرهم بالطريق البرهانى. والشيء بحسب مفهومه اللغوى يقع على كل مايصح أن يعلم ويخبر عنه كائنا ما كان على انه فى الأصل مصدر شاء أطلق على المفهوم واكتفى فى ذلك باعتبار تعلق المشيئة به من حيث العلم والاخبار عنه فقط وقد خص ههنا بالممكن موجوداً كان أو معدوما بقضية اختصاص تعلق القدرة به لما أنها عبارة عن التمكن من الايجاد والاعدام الخاصين به. وقيل هى صفة تقتضى ذلك التمكن. والقادر هو الذى أن شاء فعل وان لم يشأ لم يفعل . والقدير هو الفعال لكل مايشاء كما يشاء ولذلك لم يوصف به غير البارى جل جلاله . ومعنى قدرته تعالى على الممكن الموجود حال وجوده أنه إن شاء ابقاءه على الوجود أبقاه عليه فان علة الوجود هى علة البقاء وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى رب العالمين وان شاء اعدامه أعدمه. ومعنى قدرته على المعدوم حال عدمه أنه ان شاء ايجاده أوجده وان لم يشأ لم يوجده. وقيل قدرة الانسان هيئة بها يتمكن من الفعل والترك وقدرة الله تعالى عبارة عن نفى العجز . واشتقاق القدرة من القدر لان القادر يوقع الفعل بقدر ماتقتضيه ارادته أو بقدر قوته. وفيه دليل على أن مقدور العبد مقدور لله تعالى حقيقة لانه شيء وكل شيء مقدور له تعالى. واعلم أن كل واحد من التمثيلين وان احتمل أن يكون من قبيل التمثيل المفرق كما فى قوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ۞ لدى وكرها العناب والحشف البالى

بأن يشبه المنافقون فى التمثيل الأول بالمستوقدين وهداهم الفطرى بالنار وتأييدهم اياه بما شاهدوه من الدلائل باستيقادها وتمكنهم التام من الانتفاع به باضاءتها ماحولهم وازالته باذهاب النور النارى وأخذ الضلالة بمقابلته بملابستهم الظلمات الكثيفة وبقائهم فيها

ويشبهوا فى التمثيل الثانى بالسابلة . والقرآن وما فيه من العلوم والمعارف التى هى مدار الحياة الأبدية بالصيب الذى هو سبب الحياة الأرضية. وماعرض لهم بنزوله من الغموم والأحزان. وانكساف البال بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق . وتصامهم عما يقرع أسماعهم من الوعيد بحال من يهوله الرعد والبرق فيخاف صواعقه فيسد أذنه عنها ولا خلاص له منها واهتزازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رفد يحرزونه بمشيهم فى مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم. وتحيرهم فى أمرهم حين عن لهم مصيبة بوقوفهم اذا أظلم عليهم. لكن الحمل على التمثيل المركب الذى لا يعتبر فيه تشبيه كل واحد من المفردات الواقعة فى أحد الجانبين بواحد من المفردات الواقعة فى جانب المشبه هيئة فتشبه بهيئة أخرى منتزعة من المفردات الواقعة فى أحد الجانبين بواحد من المفردات الواقعة فى الجانب الآخر على وجه التفصيل بل ينتزع فيه من من المفردات الواقعة فى جانب المشبه هيئة فتشبه بهيئة أخرى منتزعة من المفردات الواقعة فى جانب المشبه به بأن ينتزع من المنافقين وأحوالهم المفصلة فى كل واحد من التمثيلين هيئة على حدة وينتزع من كل واحد من المستوقدين وأصحاب الصيب وأحوالهم المحكية هيئة بحيالها فتشبه كل واحدة من الاولين بما يضاهيها من الآخرين هو الذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه فخامة شأنه الجليل لاشتماله على التشبيه الأول اجمالا مع أمر زائد هو تشبيه الهيئة بالهيئة وإيذانه بأن اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بأن تكون مثلا فى الغرابة (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) أثر ماذكر الله تعالى علو طبقة كتابه الكريم وتحزب الناس فى شأنه الى ثلاث فرق. مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام. وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق. وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق. ونعت كل فرقة منها بما لها من النعوت والأحوال وبين ما لهم من المصير والمآل أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزا لهم الى الاصغاء وتوجيها لقلوبهم نحو التلقى. وجبرا لما فى العبادة من الكلفة بلذة الخطاب فأمرهم كافة بعبادته. ونهاهم عن الاشراك به. ويا حرف وضع لنداء البعيد وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد إما اجلالا كما فى قول الداعى يا الله ويارب وهو أقرب اليه من حبل الوريد استقصاراً لنفسه واستبعاداً لها من محافل الزلفى ومنازل المقربين وإما تنبيهاً على غفلته وسوء فهمه. وقد يقصد به التنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه. وأى اسم مبهم جعل وصلة الى نداء المعرف باللام لا على أنه المنادى أصالة بل على انه صفة موضحة له مزيلة لابهامه والتزم رفعه مع انتصاب موصوفه محلا اشعاراً بأنه المقصود بالنداء

وأقحمت بينهما كلمة التنبيه تأكيد المعنى النداء وتعويضاً عما يستحقه أى من المضاف اليه ولما ترى من استقلال هذه الطريقة بضروب من أسباب المبالغة والتأكيد كثر سلوكها فى التنزيل المجيد كيف لا وكل ما ورد فى تضاعيفه على العباد من الاحكام والشرائع وغير ذلك خطوب جليلة حقيقة بأن تقشعر منها الجلود وتطمئن بها القلوب الآبية ويتلقوها باذان واعية وأكثرهم عنها غافلون. فاقتضى الحال المبالغة والتأكيد فى الايقاظ والتنبيه . والمراد بالناس كافة المكلفين الموجودين فى ذلك العصر لما أن الجموع وأسماءها المحلاة باللام للعموم بدليل صحة الاستثناء منها والتأكيد بما يفيد العموم كما فى قوله تعالى . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . واستدلال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بعمومها شائعاً ذائعا. وأما من عداهم ممن سيوجد منهم فغير داخلين فى خطاب المشافهة وانما دخولهم تحت حكمه لما تواتر من دينه صلى الله عليه وسلم ضرورة أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للموجودين من المكلفين ولمن سيوجد منهم الى قيام الساعة . ولايقدح فى العموم ماروى عن علقمة والحسن البصرى من أن كل مانزل فيه ياأيها الناس فهو مكى . اذ ليس من ضرورة نزوله بمكة شرفها الله تعالى اختصاص حكمه بأهلها ولا من قضية اختصاصه بهم اختصاصه بالكفار اذ لم يكن كل أهلها حينئذ كفرة ولاضير فى تحقق العبادة فى بعض المكلفين قبل ورود هذا الامر لما أن المأمور به القدر المشترك الشامل لانشاء العبادة والثبات عليها والزيادة فيها مع أنها متكررة حسب تكرر أسبابها ولافى انتفاء شرطها فى الآخرين منهم أعنى الايمان لان الامر بها منتظم للامر بما لاتتم الا به. وقد علم من الدين ضرورة اشتراطها به فان أمر المحدث بالصلاة مستتبع للامر بالتوضىء لامحالة . وقد قيل المراد بالعبادة مايعم أفعال القلب أيضا لما أنها عبارة عن غاية التذلل والخضوع. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل ماورد فى القرآن من العبادة فمعناها التوحيد. وقيل معنى اعبدوا وحدوا وأطيعوا ولافى كون بعض من الفرقتين الآخرتين ممن لايجدى فيهم الانذار بموجب النص القاطع لما أن الامر لقطع الاعذار وليس فيه تكليفهم بما ليس فى وسعهم من الايمان بعدم ايمانهم أصلا اذ لاقطع لاحد منهم بدخوله فى حكم النص قطعا. وورد النص بذلك لكونهم فى أنفسهم بسوء اختيارهم كذلك لاأن كونهم كذلك لورود النص بذلك فلا جبر أصلا. نعم لتخصيص الخطاب بالمشركين وجه لطيف ستقف عليه عند قوله تعالى وأنتم تعلمون . وايراده تعالى بعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأكيد موجب الامر بالاشعار بعليتها للعبادة (الذى خلقكم) صفة أجريت عليه سبحانه

للتبجيل والتعليل أثر التعليل وقد جوز كونها للتقييد والتوضيح بناء على تخصيص الخطاب بالمشركين وحمل الرب على ماهو أعم من الرب الحقيقى والآلهة التى يسمونها أرباباً والخلق إيجاد الشىء على تقدير واستواء وأصله التقدير يقال خلق النعل أى قدرها وسواها بالمقياس. وقرئ خلقكم بادغام القاف فى الكاف (والذين من قبلكم) عطف على الضمير المنصوب ومتمم لماقصد من التعظيم والتعليل فان خالق أصولهم من موجبات العبادة كخالق أنفسهم. ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف أى كانوا من زمان قبل زمانكم وقيل خلقهم من قبل خلقكم فحذف الخلق وأقيم الضمير مقامه والمراد بهم من تقدمهم من الأمم السالفة كافة. ومن ضرورة عموم الخطاب بيان شمول خلقه تعالى للكل وتخصيصه بالمشركين يؤدى الى عدم التعرض لخلق من عداهم من معاصريهم واخراج الجملة مخرج الصلة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب الى الموصول عندهم أيضا مع أنهم غير معترفين بغاية الخلق وان اعترفوا بنفسه كما ينطق به قوله تعالى « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » للايذان بأن خلقهم للتقوى من الظهور بحيث لا يتأتى لأحد انكاره. وقرئ وخلق من قبلكم . وقرئ والذين من قبلكم باقحام الموصول الثانى بين الأول وصلته توكيدا كاقحام اللام بين المضافين فى لا أبالك أو بجعله موصوفا بالظرف خبرا لمبتدا محذوف أى الذين هم أناس كائنون من قبلكم (لعلكم تتقون) المعنى الوضعى لكلمة لعل هو انشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول اما محبوب فيسمى ترجيا أو مكروه فيسمى اشفاقا. وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل اما من جهة المتكلم كما فى قولك لعل الله يرحمنى وهو الأصل الشائع فى الاستعمال لان معانى الانشاءات قائمة به واما من جهة المخاطب تنزيلا له منزلة المتكلم فى التلبس التام بالكلام الجارى بينهما كما فى قوله سبحانه « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز ايذانا بأن ذلك الأمر فى نفسه مئنة للتوقع متصف بحيثية مصححة له من غير أن يعتبر هنالك توقع بالفعل من متوقع أصلا . فان روعيت فى الآية الكريمة جهة المتكلم يستحيل ارادة ذلك المعنى لامتناع التوقع من علام الغيوب عز وجل فيصار أما الى الاستعارة بان يشبه طلبه تعالى من عباده التقوى مع كونهم مئنة لها لتعاضد أسبابها برجاء الراجى من المرجو منه أمرا هين الحصول فى كون متعلق كل منهما مترددا بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للمبالغة فى الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع . واما الى التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى اياهم مستعدين للتقوى وطلبه اياها منهم وهم متمكنون منها جامعون لأسبابها

وينتزع من ذلك هيئة فتشبه بهيئة منتزعة من الراجى ورجائه من المرجو منه شيئاً سهل المنال فيستعمل فى الهيئة الأولى ما حقه أن يستعمل فى الثانية فيكون هناك استعارة تمثيلية قد صرح من ألفاظها بما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى كلمة الترجى والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كما مر مرارا وأما جعل المشبه ارادته تعالى فى الاستعارة والتمثيل فأمر مؤسس على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلف المراد عن ارادته تعالى فالجملة حال اما من فاعل خلقكم أى طالبا منكم التقوى أو من مفعوله وما عطف عليه بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين لانهم المأمورون بالعبادة أى خلقكم واياهم مطلوبا منكم التقوى أو علة له فان خلقهم على تلك الحال فى معنى خلقهم لأجل التقوى كأنه قيل خلقكم لتتقوا أوكى تتقوا اما بناء على تجويز تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة الى العباد كما ذهب اليه كثير من أهل السنة واما تنزيلا لترتب الغاية على ما هى ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له فان استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقنة جليلة من غير أن تكون هى علة غائية لها بحيث لولاها لما أقدم عليها مما لانزاع فيه .وتقييد خلقهم بما ذكر من الحال أو العلة لتكميل عليته للمأمور به وتأكيدها فان اتيانهم بما خلقوا له أدخل فى الوجوب.وايثار تتقون على تعبدون مع موافقته لقوله تعالى : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون : للمبالغة فى ايجاب العبادة والتشديد فى الزامها لما أن التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده فاذا لزمتهم التقوى كان ما هو أدنى منها ألزم والاتيان به أهون. وان روعيت جهة المخاطب فلعل فى معناها الحقيقى والجملة حال من ضمير اعبدوا كأنه قيل اعبدوا ربكم راجين للانتظام فى زمرة المتقين الفائزين بالهدى والفلاح على أن المراد بالتقوى مرتبتها الثالثة التى هى التبتل الى الله عز وجل بالكلية والتنزه عن كل ما يشغل سره عن مراقبته وهى أقصى غايات العبادة التى يتنافس فيها المتنافسون. وبالانتظام القدر المشترك بين انشائه والثبات عليه ليرتجيه أرباب هذه المرتبة وما دونها من مرتبتى التوقى عن العذاب المخلد والتجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك كما مر فى تفسير المتقين ولعل توسيط الحال من الفاعل بين وصفى المفعول لما فى التقديم من فوات الاشعار بكون الوصف الأول معظم أحكام الربوبية وكونه عريقا فى ايجاب العبادة وفى التأخير من زيادة طول الكلام هذا على تقدير اعتبار تحقق التوقع بالفعل فاما ان اعتبر تحققه بالقوة فالجملة حال من مفعول خلقكم وما عطف عليه على الطريقة المذكورة أى خلقكم واياهم حال كونكم جميعاً بحيث يرجو منكم كل راج ان تتقوا فانه سبحانه وتعالى لما برأهم مستعدين للتقوى جامعين لمباديها

الآفاقية والأنفسية كان حالهم بحيث يرجو منهم كل راج أن يتقوا لا محالة وهذه الحالة مقارنة لخلقهم وان لم يتحقق الرجاء قطعا. واعلم أن الآية الكريمة مع كونها بعبارتها ناطقة بوجوب توحيده تعالى وتحتم عبادته على كافة الناس مرشدة لهم باشارتها الى أن مطالعة الآيات التكوينية المنصوبة فى الانفس والآفاق مما يقضى بذلك قضاء متقنا وقد بين فيها أولا من تلك الآيات ما يتعلق بأنفسهم من خلقهم وخلق أسلافهم لما أنه أقوى شهادة وأظهر دلالة ثم عقب بما يتعلق بمعاشهم فقيل (الذى جعل لكم الأرض فراشا) وهو فى محل النصب على أنه صفة ثانية لربكم موضحة أو مادحة أو على تقدير أخص أو أمدح أو فى محل الرفع على المدح والتعظيم بتقدير المبتدا قال ابن مالك التزم حذف الفعل فى المنصوب على المدح اشعاراً بأنه انشاء كما فى المنادى وحذف المبتدا فى المرفوع اجراء للوجهين على سنن واحد . وأما كونه مبتدأ خبره فلا تجعلوا كما قيل فيستدعى أن يكون مناط النهى ما فى حيز الصلة فقط من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلق من قبلهم مدخل فى ذلك مع كونه أعظم شأنا وجعل بمعنى صير والمنصوبان بعده مفعولاه وقيل هو بمعنى خلق وانتصاب الثانى على الحالية والظرف متعلق به على التقديرين وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين وللتشويق اليه لأن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما بعد الاشعار بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن أو لما فى المؤخر وما عطف عليه من نوع طول فلو قدم لفات تجاوب أطراف النظم للكريم . ومعنى جعلها فراشا جعل بعضها بارزا من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للقعود عليها والنوم فيها كالبساط المفروش وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا فان كرية شكلها مع عظم جرمها مصححة لافتراشها وقرىء بساطا ومهادا (والسماء بناء) عطف على المفعولين السابقين وتقديم حال الأرض لما أن احتياجهم اليها وانتفاعهم بها أكثر وأظهر أى جعلها قبة مضروبة عليكم . والسماء اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد أو جمع سماوة أو سماءة. والبناء فى الأصل مصدر سمى به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ومنه قولهم بنى على امرأته لما أنهم كانوا اذا تزوجوا امرأة ضربوا عليها خباء جديدا (وأنزل من السماء ماء) عطف على جعل أى أنزل من جهتها أو منها الى السحاب ومن السحاب الى الأرض كما روى ذلك عنه عليه الصلاة والسلام أو المراد بالسماء جهة العلو كما ينبىء عنه الاظهار فى موضع الاضمار وهو على الأولين لزيادة التقرير . ومن لابتداء الغاية متعلقة بأنزل أو بمحذوف

وقع حالا من المفعول أى كائنا من السماء قدم عليه لكونه نكرة. وأما تقديم الظرف على الوجه الأول مع أن حقه التأخير عن المفعول الصريح فاما لأن السماء أصله ومبدؤه واما لما مر من التشويق اليه مع ما فيه من مزيد انتظام بينه وبين قوله تعالى (فأخرج به) أى بسبب الماء (من الثمرات رزقا لكم) وذلك بأن أودع فى الماء قوة فاعلة وفى الأرض قوة منفعلة فتولد من تفاعلهما أصناف الثمار. أو بأن أجرى عادته بافاضة صور الثمار وكيفيتها المتخالفة على المادة الممتزجة منهما وان كان المؤثر فى قدرته تعالى ومشيئته فانه تعالى قادر على أن يوجد جميع الأشياء بلا مباد ومواد كما أبدع نفوس المبادى والأسباب لكن له عز وجل فى انشائها متقلبة فى الأحوال ومتبدلة فى الأطوار من بدائع حكم باهرة تجدد لأولى الأبصار عبرا. ومزيد طمأنينة الى عظيم قدرته ولطيف حكمته ما ليس فى ابداعها بغتة. ومن للتبعيض لقوله تعالى فأخرجنا به ثمرات ولوقوعها بين منكرين أعنى ماء ورزقا كأنه قيل وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج من الأرض كل الثمرات ولا جعل كل المرزوق ثماراً أو للتبيين ورزقا مفعول بمعنى المرزوق ومن الثمرات بيان له أو حال منه كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدراً من أخرج لأنه بمعنى رزق. وأنما شاع ورود الثمرات دون الثمار مع أن الموضع موضع كثرة لأنه أريد بالثمرات جماعة الثمرة فى قولك أدركت ثمرة بستانه ويؤيده القراءة على التوحيد أو لان الجموع يقع بعضها موقع بعض كقوله تعالى كم تركوا فيهامن جنات وعيون. وقوله تعالى ثلاثة قروء. أو لانها محلاة باللام خارجة عن حد القلة واللام متعلقة بمحذوف وقع صفة لرزقا على تقدير كونه بمعنى المرزوق أى رزقا كائناً لكم أو دعامة لتقوية عمل رزقا على تقدير كونه مصدرا كأنه قيل رزقا اياكم (فلا تجعلوا لله أنداداً) اما متعلق بالامر السابق مترتب عليه كأنه قيل اذا أمرتم بعبادة من هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والافعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكا. وانما قيل أنداداً باعتبار الواقع لا لان مدار النهى هو الجمعية وقرىء ندا. وايقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود بالذات أثر تعيينه بالصفات. وتعليل الحكم بوصف الألوهية التى عليها يدور أمر الوحدانية واستحالة الشركة والايذان باستتباعها لسائر الصفات. واما معطوف عليه كما فى قوله تعالى اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. والفاء للاشعار بعلية ماقبلها من الصفات المجراة عليه

تعالى للنهى أو الانتهاء أولان مآل النهى هو الامر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها كأنه قيل اعبدوه فخصوها به . والاظهار فى موضع الاضمار لما مر آنفا وقيل هو نفى منصوب باضمار أن جوابا للامر ويأباه أن ذلك فيما يكون الاول سبباً للثانى ولا ريب فى أن العبادة لاتكون سبباً للتوحيد الذى هو أصلها ومبناها وقيل هو منصوب بلعل نصب فأطلع فى قوله تعالى « لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات فأطلع الى آله موسى » أى خلقكم لتتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه وحيث كان مدار هذا النصب تشبيه لعل فى بعد المرجو بليت كان فيه تنبيه على تقصيرهم بجعلهم المرجو القريب بمنزلة المتمنى البعيد. وقيل هو متعلق بقوله تعالى الذى جعل الخ على تقدير رفعه على المدح أى هو الذى حفكم بهذه الآيات العظام والدلائل النيرة فلا تتخذوا له شركاء . وفيه مامر من لزوم كون خلقهم وخلق أسلافهم بمعزل من مناطية النهى مع عراقتهما فيها . وقيل هو خبر للموصول بتأويل مقول فى حقه وقد عرفت مافيه من لزوم المصير الى مذهب الاخفش فى تنزيل الاسم الظاهر منزلة الضمير كما فى قولك زيد قام أبو عبد الله اذا كان ذلك كنيته . والند المثل المساوى من ند ندودا اذا نفر وناددته خالفته خص بالمخالف المماثل بالذات كما خص المساوى بالمماثل فى المقدار . وتسمية مايعبده المشركون من دون الله أنداداً والحال أنهم مازعموا أنها تماثله تعالى فى صفاته ولا أنها تخالفه فى أفعاله لما أنهم لما تركوا عبادته تعالى الى عبادتها وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله عز وجل وتمنحهم مالم يرد الله تعالى بهم من خير فتهكم بهم وشنع عليهم أن جعلوا أندادا لمن يستحيل أن يكون له ند واحد وفى ذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا واحدا أم ألف رب « أدين اذا تقسمت الامور

تركت اللات والعزى جميعاً « كذلك يفعل الرجل البصير

قوله تعالى (وأنتم تعلمون) حال من ضمير لاتجعلوا بصرف التقييد الى ماأفاده النهى من قبح المنهى عنه ووجوب الاجتناب عنه ومفعول تعلمون مطروح بالكلية كأنه قيل لاتجعلوا ذلك فانه قبيح واجب الاجتناب عنه والحال انكم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الامور واصابة الرأى أو مقدر حسبما يقتضيه المقام نحو وأنتم تعلمون بطلان ذلك . أو تعلمون أنه لايماثله شىء . أو تعلمون مابينه وبينها من التفاوت. أو تعلمون أنها لاتفعل مثل أفعاله كما فى قوله تعالى « هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء » أو غير ذلك وحاصله تنشيط المخاطبين وحثهم على الانتهاء عما نهوا

عنه هذا هو الذى يستدعيه عموم الخطاب فى النهى بجعل المنهى عنه القدر المشترك المنتظم لانشاء الانتهاء كما هو المطلوب من الكفرة والثبات عليه كما هو شأن المؤمنين حسبما مر مثله فى الامر . وأما صرف التقييد الى نفس النهى فيستدعى تخصيص الخطاب بالكفرة لامحالة اذ لايتسنى ذلك بطريق قصر النهى على حالة العلم ضرورة شمول التكليف للعالم والجاهل والمتمكن من العلم . بل انما يتأتى بطريق المبالغة فى التوبيخ والتقريع بناء على أن تعاطى القبائح من العالمين بقبحها أقبح وذلك انما يتصور فى حق الكفرة فمن صرف التقييد الى نفس النهى مع تعميم الخطاب للمؤمنين أيضاً فقد نأى عن التحقيق (ان قلت) أليس فى تخصيصه بالكفرة فى الامر والنهى خلاص من امثال ما مر من التكلفات وحسن انتظام بين السباق والسياق اذ لامحيد فى آية التحدى من تجريد الخطاب وتخصيصه بالكفرة لامحالة مع مافيه من رباء محل المؤمنين ورفع شأنهم عن حيز الانتظام فى سلك الكفرة والايذان بأنهم مستمرون على الطاعة والعبادة حسبما مر فى صدر السورة الكريمة مستغنون فى ذلك عن الأمر والنهى (قلت) بلى انه وجه سرى ونهج سوى لايضل من ذهب اليه ولايزل من ثبت قدمه عليه فتأمل (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) شروع فى تحقيق أن الكتاب الكريم الذى من جملته ما تلى من الآيتين الكريمتين الناطقتين بوجوب العبادة والتوحيد منزل من عند الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم كما أن ما ذكر فيهما من الآيات التكوينية الدالة على ذلك صادرة عنه تعالى لتوضيح اتصافه بما ذكر فى مطلع السورة الشريفة من النعوت الجليلة التى من جملتها نزاهته عن أن يعتريه ريب ما . والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر كما يعرب عنه قوله تعالى ان كنتم صادقين اما للايذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وان كانوا فى غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب فى شأنه . وأما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للاشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع واما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الاعجاز ونهاية قوتها . وانما لم يقل وان ارتبتم فيما نزلنا الخ لما أشير اليه فيما سلف من المبالغة فى تنزيه ساحة التنزيه عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قوله تعالى لاريب فيه والاشعار بأن ذلك ان وقع فمن جهتهم لا من جهته العالية . واعتبار استقرارهم فيه واحاطته بهم لاينافى اعتبار ضعفه وقلته لما ان مايقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لاقوته وكثرته . ومن فى مما ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لريب وحملها على السببية

ربما يوهم كونه محلا للريب فى الجملة وحاشاه ذلك. وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن الكتاب الكريم لا عن القدر المشترك بينه و بين أبعاضه وليس معنى كونهم فى ريب منه ارتيابهم فى استقامة معانيه وصحة أحكامه بل فى نفس كونه وحيا منزلا من عند الله عز وجل. وايثار التنزيل المنبىء عن التدريج على مطلق الانزال لتذكير منشأ ارتيابهم و بناء التحدى عليه ارخاء للعنان وتوسيعا للميدان فانهم كانوا اتخذوا نزوله منجما وسيلة الى انكاره فجعل ذلك من مبادى الاعتراف به كأنه قيل ان ارتبتم فى شأن مانزلناه على مهل وتدريج فهاتوا أنتم مثل نوبة فذة من نوبه و نجم فرد من نجومه فانه أيسر عليكم من أن ينزل جملة واحدة ويتحدى بالكل وهذا كما ترى غاية مايكون فى التبكيت وازاحة العلل. وفى ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الاضافة الى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه و التنبيه على اختصاصه به عز وجل وانقياده لاوامره تعالى مالا يخفى. وقرئ على عبادنا والمراد هو صلى الله عليه وسلم وأمته أو جميع الانبياء عليهم السلام ففيه ايذان بأن الارتياب فيه ارتياب فيما أنزل من قبله لكونه مصدقاً له ومهيمناً عليه والامر فى قوله تعالى (فأتوا بسورة) من باب التعجيز والقام الحجر كما فى قوله تعالى فأت بها من المغرب والفاء للجواب وسببية الارتياب للامر أو الاتيان بالمأمور به لما أشير اليه من أنه عبارة عن جزمهم المذكور فانه سبب للاول مطلقا وللثانى على تقدير الصدق كانه قيل ان كان الامر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتوا بمثله لانكم تقدرون على مايقدر عليه سائر بنى نوعكم. والسورة الطائفة من القرآن العظيم المترجمة وأقلها ثلاث آيات وواوها أصلية منقولة من سور البلد لانها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها أو محتوية على فنون رائقة من العلوم احتواء سور المدينة على مافيها أو من السورة التى هى الرتبة قال:

ولرهط حراب وقد سورة فى المجد ليس غرابها بمطار

فان سور القرآن مع كونها فى أنفسها رتبا من حيث الفضل و الشرف أو من حيث الطول والقصر فهى من حيث انتظامها مع أخواتها فى المصحف مراتب يرتقى اليها القارئ شيئاً فشيئاً. وقيل واوها مبدلة من الهمزة فمعناها البقية من الشئ ولا يخفى مافيه ومن فى قوله تعالى (من مثله) بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة والضمير لما نزلنا أى بسورة كائنة من مثله فى علو الرتبة وسمو الطبقة والنظم الرائق والبيان البديع وحيازة سائر نعوت الاعجاز. وجعلها تبعيضية يوهم أن له مثلا محققا قد أريد تعجيزهم عن الاتيان ببعضه كانه قيل فأتوا ببعض ماهو مثل له فلا يفهم منه كون المماثلة من تتمة المعجوز عنه فضلا عن كونها مدارا للعجز مع أنه المراد وبناء

الأمر على المجاراة معهم بحسب حسبانهم حيث كانوا يقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا أو على التهكم بهم يأباه ماسبق من تنزيله منزلة الريب فان مبنى التهكم على تسليم ذلك منهم وتسويفه ولو بغير جد وقيل هى زائدة على ماهو رأى الأخفش بدليل قوله تعالى فأتوا بسورة مثله بعشر سور مثله. وقيل هى ابتدائية فالضمير حينئذ للمنزل عليه حتما لما أن رجوعه الى المنزل يوهم أن له مثلا محققا. قد ورد الأمر التعجيزى بالاتيان بشيء منه وقد عرفت مافيه بخلاف رجوعه الى المنزل عليه فان تحقق مثله عليه السلام فى البشرية والعربية والأمية يهون الخطب فى الجملة خلا أن تخصيص التحدى بفرد يشاركه عليه السلام فيما ذكر من الصفات المنافية للاتيان المأمور به لايدل على عجز من ليس كذلك من علمائهم بل ربما يوهم قدرتهم على ذلك فى الجملة فرادى أومجتمعين مع أنه يستدعى عراء المنزل عما فصل من النعوت الموجبة لاستحالة وجود مثله فان هذا من تحدى أمة جمة وأمره بان يحتشدوا فى حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم حسبما ينطق به قوله تعالى (وادعوا شهداءكم من دون الله) و يتعاونوا على الاتيان بقدر يسير مماثل فى صفات الكمال لما أتى بجملته واحد من أبناء جنسهم والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر ومعنى دون أدنى مكان من شيء يقال هذا دون ذاك اذا كان أحط منه قليلا ثم استعير للتفاوت فى الأحوال والرتب فقيل زيد دون عمرو أى فى الفضل والرتبة ثم اتسع فاستعمل فى كل تجاوز حد الى حد وتخطى حكم الى حكم من غير ملاحظة انحطاط باحدهما عن الآخر فجرى مجرى أداة الاستثناء . وكلمة من اما متعلقة بادعوا فتكون لابتداء الغاية والظرف مستقر والمعنى ادعوا متجاوزين الله تعالى للاستظهار من حضركم كائنا من كان أو الحاضرين فى مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفزعون اليهم فى الملمات وتعولون عليهم فى المهمات أو القائمين بشهاداتكم الجارية فيما بينكم من أمنائكم المتسولين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة أو القائمين بنصرتكم حقيقة أو زعما من الانس والجن ليعينوكم . واخراجه سبحانه وتعالى من حكم الدعاء فى الاول مع اندراجه فى الحضور لتأكيد تناوله لجميع ما عداه لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فان ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم اليه وأما فى سائر الوجوه فللتصريح من أول الامر ببراءتهم منه تعالى وكونهم فى عدوة المحادة والمشاقة له قاصرين استظهارهم على ما سواه . والالتفات لادخال الروعة وتربية المهابة. وقيل المعنى أدعوا من دون أولياء الله شهداءكم الذين هم وجوه الناس وفرسان المقاولة والمنافلة ليشهدوا لكم ان ماأتيتم به مثله ايذانا بأنهم يابون أن

يرضوا لانفسهم الشهادة بصحة ما هو بين الفساد وجلى الاستحالة . وفيه أنه يؤذن بعدم شمول التحدى لأولئك الرؤساء. وقيل المعنى أدعوا شهداءكم فصححوا بهم دعواكم ولاتستشهدوا بالله تعالى قائلين الله يشهد ان ماندعيه حق فان ذلك ديدن المحجوج. وفيه انه إن اريد بما يدعون حقيقة ماهم عليه من الدين الباطل فلا مساس له بمقام التحدى . وان أريد مثلية ماأتوا به للمتحدى به فمع عدم ملاءمته لابتداء التحدى يوهم انهم قد تصدوا للمعارضة وأتوا بشىء مشتبه الحال متردد بين المثلية وعدمها وانهم ادعوها مستشهدين فى ذلك بالله سبحانه اذ عند ذلك تمس الحاجة الى الامر بالاستشهاد بالناس والنهى عن الاستشهاد به تعالى وأنى لهم ذلك وما نبض لهم عرق ولا نبسوا ببنت شفة . وأما متعلقة بشهداءكم والمراد بهم الاصنام ودون بمعنى التجاوز على أنها ظرف مستقر وقع حالا من ضمير المخاطبين والعامل مادل عليه شهداءكم أى ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله تعالى فى اتخاذها كذلك. وكلمة من ابتدائية فان الاتخاذ ابتداء من التجاوز والتعبير عن الاصنام بالشهداء لتعيين مدار الاستظهار بها بتذكير مازعموا من انها بمكان من الله تعالى وأنها تنفعهم بشهادتها لهم أنهم على الحق فان ماهذا شأنه يجب أن يكون ملاذاً لهم فى كل أمرمهم وملجأ يأوون اليه فى كل خطب ملم كأنه قيل أولئك عدتكم فادعوهم لهذه الداهية التى دهمتكم . فوجه الالتفات الايذان بكمال سخافة عقولهم حيث آثروا على عبادة من له الالوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة مالا احقر منه. وقيل لفظة دون مستعارة من معناها الوضعى الذى هو أدنى مكان من شىء لقدامه كما فى قول الاعشى

تريك القذى من دونها وهى دونه ﴿ أى تريك القذى قدامها وهى قدام القذى فتكون ظرفا لغوا معمولا لشهدائكم لكفاية رائحة الفعل فيه من غير حاجة الى اعتماد ولا الى تقدير يشهدون أى ادعوا شهداءكم الذين يشهدون لكم بين يدى الله تعالى ليعينوكم فى المعارضة وايرادها بهذا العنوان لما مر من الاشعار بمناط الاستعانة بها ووجه الالتفات تربية المهابة وترشيح ذلك المعنى فان ما يقوم بهذا الأمر فى ذلك المقام الخطير حقه أن يستعان به فى كل مرام وفى أمرهم على الوجهين بان يستظهروا فى معارضة القرآن الذى أخرس كل منطيق بالجماد من التهكم بهم مالا يوصف. وكلمة من ههنا تبعيضية لما أنهم يقولون جلس بين يديه وخلفه بمعنى فى لانهما ظرفان للفعل ومن بين يديه ومن خلفه لان الفعل انما يقع فى بعض تينك الجهتين كما تقول جئته من الليل تريد بعض الليل. وقد يقال كلمة من الداخلة على دون فى جميع المواقع بمعنى فى كما فى سائر الظروف التى لاتتصرف وتكون منصوبة

على الظرفية أبدا ولا تنجر الا بمن خاصة. وقيل المراد بالشهداء مداره القوم ووجوه المحافل والمحاضر . ودون ظرف مستقر ومن ابتدائية أى ادعوا الذين يشهدون لكم أن ما أتيتم به متجاوزين فى ذلك أولياء الله. ومحصله شهداء مغايرين لهم ايذانا بأنهم أيضا لا يشهدون بذلك . وانما قدر المضاف الى الله تعالى رعاية للمقابلة فان أولياء الله تعالى يقابلون أولياء الأصنام كما ان ذكر الله تعالى يقابل ذكر الأصنام والمقصود بهذا الأمر ارخاء العنان والاستدراج الى غاية التبكيت كأنه قيل تركنا إلزامكم بشهداء لاميل لهم الى أحد الجانبين كما هو المعتاد واكتفينا بشهدائكم المعروفين بالذب عنكم فانهم أيضا لا يشهدون لكم حذرا من اللائمة وأنفة من الشهادة البينة البطلان كيف لا وأمر الاعجاز قد بلغ من الظهور الى حيث لم يبق الى انكاره سبيل قطعا. وفيه ما مر من عدم الملاءمة لابتداء التحدى وعدم تناوله لأولئك الشهداء وإيهام انهم تعرضوا للمعارضة وأتوا بشيء احتاجوا فى اثبات مثليته للمتحدى به الى الشهادة وشتان بينهم وبين ذلك (ان كنتم صادقين) أى فى زعمكم أنه من كلامه عليه السلام وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه أى ان كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله الخ . واستلزام المقدم للتالى من حيث أن صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الاتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه السلام فى البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام لاسيما عند المظاهرة والتعاون ولا ريب فى ان القدرة على الشيء من موجبات الاتيان به ودواعى الأمر به (فان لم تفعلوا) أى ما أمرتم به من الاتيان بالمثل بعد ما بذلتم فى السعى غاية المجهود وجاوزتم فى الجد كل حد معهود متشبثين بالذيول راكبين متن كل صعب وذلول . وانما لم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه بناء على كمال ظهور تهالكهم على ذلك. وانما أورد فى حيز الشرط مطلق الفعل وجعل مصدر الفعل المأمور به مفعولا له للايجاز البديع المغنى عن التطويل والتكرير مع سر سرى استقل به المقام وهو الايذان بان المقصود بالتكليف هو ايقاع نفس الفعل المأمور به لاظهار عجزهم عنه لا لتحصيل المفعول أى المأتى به ضرورة استحالته وأن مناط الجواب فى الشرطية أعنى الأمر باتقاء النار هو عجزهم عن ايقاعه لافوت حصول المفعول فان مدلول لفظ الفعل هو أنفس الأفعال الخاصة لازمة كانت أو متعدية من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة فاذا علق بفعل خاص متعد فانما يقصد به ايقاع نفس ذلك الفعل واخراجه من القوة الى الفعل وأما تعلقه بمفعوله المخصوص فهو خارج عن مدلول الفعل

المطلق وانما يستفاد ذلك من الفعل الخاص ولذلك تراهم يتوسلون بذلك الى تجريد الافعال المتعدية عن مفعولاتها وتنزيلها منزلة الأفعال اللازمة فيقولون مثلا معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء والمنع يرشدك الى هذا قوله تعالى «فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون» بعد قوله تعالى «ائتونى بأخ لكم من أبيكم» فانه لما كان مقصود يوسف عليه السلام بالامر ومرمى غرضه بالتكليف منه استحضار بنيامين لم يكتف فى الشرطية الداعية لهم الى الجد فى الامتثال والسعى فى تحقيق المأمور به بالاشارة الاجمالية الى الفعل الذى ورد به الأمر بأن يقول فان لم تفعلوا بل أعاده بعينه متعلقا بمفعوله تحقيقاً لمطلبه واعرابا عن مقصده هذا .وقد قيل أطلق الفعل وأريد به الاتيان مع ما يتعلق به اما على طريقة التعبير عن الاسماء الظاهرة بالضمائر الراجعة اليها حذرا من التكرار أو على طريقة ذكر اللازم وارادة الملزوم لما بينهما من التلازم المصحح للانتقال بمعونة قرائن الحال فتدبر .وايثار كلمة ان المفيدة للشك على اذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم مجاراة معهم بحسب حسبانهم قبل التجربة أو تهكم بهم (ولن تفعلوا) كلمة لن لنفى المستقبل كلا خلا أن فى لن زيادة تأكيد وتشديد . وأصلها عند الخليل لا أن وعند الفراء لا أبدلت ألفها نونا وعند سيبويه حرف مقتضب للمعنى المذكور وهى احدى الروايتين عن الخليل .والجملة اعتراض بين جزئى الشرطية مقرر لمضمون مقدمها ومؤكد لايجاب العمل بتاليها وهى معجزة باهرة حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به عز وجل وقد وقع الأمر كذلك كيف لا ولو عارضوه بشىء يدانيه فى الجملة لتناقله الرواة خلفا عن سلف (فاتقوا النار) جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد اذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتبه عليه كأنه قيل فأذا عجزتم عن الاتيان بمثله كما هو المقرر فاحترزوا من انكار كونه منزلا من عند الله سبحانه فانه مستوجب للعقاب بالنار لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها للمبالغة فى تهويل شأنه وتفظيع أمره واظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه وتنفيرهم عنه وحثهم على الجد فى تحقيق المكنى عنه.وفيه من الايجاز البديع مالا يخفى حيث كان الأصل فان لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم واذا صح ذلك كان لزومكم العناد وترككم الايمان به سببا لاستحقاقكم العقاب بالنار فاحترزوا منه واتقوا النار (التى وقودها الناس والحجارة) صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفظاعة أعاذنا الله من ذلك.والوقود ما يوقد به النار وترفع من الحطب وقرىء بضم الواو وهو مصدر سمى به المفعول مبالغة كما يقال فلان فخر قومه وزين

بلده. والمعنى أنها من الشدة بحيث لا تمس شيئاً من رطب أو يابس الا أحرقته لا كنيران الدنيا تفتقر فى الالتهاب الى وقود من حطب أو حشيش. وانما جعل هذا الوصف صلة الموصول مقتضية لكون انتسابها الى ما نسبت هى اليه معلوما للمخاطب بناء على أنهم سمعوه من أهل الكتاب قبل ذلك أو من الرسول صلى الله عليه وسلم أو سمعوا قبل هذه الآية المدنية قوله تعالى « نارا وقودها الناس والحجارة » فاشير ههنا الى ما سمعوه أولا وكون سورة التحريم مدنية لا يستلزم كون جميع آياتها كذلك كما هو المشهور. وأما ان الصفة أيضا يجب أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب فالخطب فيه هين لما أن المخاطب هناك المؤمنون وظاهر أنهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمراد بالحجارة الاصنام و بالناس أنفسهم حسبما ورد فى قوله تعالى « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الآية (أعدت للكافرين) أى هيئت للذين كفروا بما نزلناه وجعلت عدة لعذابهم. والمراد اما جنس الكفار والمخاطبون داخلون فيهم دخولا أوليا وإما هم خاصة و وضع الكافرين موضع ضميرهم لذمهم وتعليل الحكم بكفرهم. وقرىء اعتدت من العتاد بمعنى العدة. وفيه دلالة على أن النار مخلوقة موجودة الآن والجملة استئناف لا محل لها من الاعراب مقررة لمضمون ما قبلها ومؤكدة لايجاب العمل به ومبينة لمن أريد بالناس دافعة لاحتمال العموم وقيل حال باضمار قد من النار لا من ضميرها فى وقودها لما فى ذلك من الفصل بينهما بالخبر وقيل صلة بعد صلة أو عطف على الصلة بترك العاطف (وبشر الذين آمنوا) أى بانه منزل من عند الله عز وجل وهو معطوف على الجملة السابقة لكن لا على أن المقصود عطف نفس الأمر حتى يطلب له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة المؤمنين بالقرآن ووصف ثوابهم على قصة الكافرين به وكيفية عقابهم جريا على السنة الالهية من شفع الترغيب بالترهيب والوعد بالوعيد. وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين حالى الفريقين. وقرىء بشر على صيغة الفعل مبنياً للمفعول عطفاً على أعدت فيكون استئنافا وتعليق التبشير بالموصول للاشعار بانه معلل بما فى حيز الصلة من الايمان والعمل الصالح لكن لا لذاتهما فانهما لا يكافئان النعم السابقة فضلا من أن يقتضيا ثوابا فيما يستقبل بل بجعل الشارع ومقتضى وعده. وجعل صلته فعلا مفيداً للحدوث بعد ايراد الكفار بصيغة الفاعل لحث المخاطبين بالاتقاء على احداث الايمان وتحذيرهم من الاستمرار على الكفر والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل لكل

من يتأتى منه التبشير كما فى قوله عليه السلام « بشر المشائين الى المساجد فى ظلم الليالى بالنور التام يوم القيامة » فانه عليه السلام لم يأمر بذلك واحداً بعينه بل كل أحد ممن يتأتى منه ذلك .وفيه رمز الى أن الامر لعظمه وفخامة شأنه حقيق بان يتولى التبشير به كل من يقدر عليه والبشارة الخبر السار الذى يظهر به أثر السرور فى البشرة وتباشير الصبح أوائل ضوئه (وعملوا الصالحات) الصالحة كالحسنة فى الجريان مجرى الاسم وهى كل ما استقام من الاعمال بدليل العقل والنقل .واللام للجنس .والجمع لافادة أن المراد بها جملة من الاعمال الصالحة التى أشير الى امهاتها فى مطلع السورة الكريمة وطائفة منها متفاوتة حسب تفاوت حال المكلفين فى مُواجب التكليف « وفى عطف العمل على الايمان دلالة على تغايرهما واشعار بان مدار استحقاق البشارة مجموع الامرين فان الايمان أساس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء بأس لابناء به (ان لهم جنات) منصوب بنزع الخافض وافضاء الفعل اليه أو مجرور باضماره مثل الله لافعلن .والجنة هى المرة من مصدر جنه اذا ستره تطلق على النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه قال زهير: كان عينى فى غربى مقتلة « من النواضح تسقى جنة سحقا » أى نخلا طوالا كانها لفرط تكاثفها والتفافها وتغطيتها لما تحتها بالمرة نفس السترة وعلى الارض ذات الشجرة قال الفراء: الجنة ما فيه النخيل . والفردوس ما فيه الكرم فحق المصدر حينئذ أن يكون مأخوذا من الفعل المبنى للمفعول. وانما سميت دار الثواب بها مع أن فيها مالا يوصف من الغرفات والقصور لما انها مناط نعيمها ومعظم ملاذها. وجمعها مع التنكير لانها سبع على ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما جنة الفردوس .وجنة عدن . وجنة النعيم .ودار الخلد. وجنة المأوى. ودار السلام. وعليون. وفى كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الاعمال وأصحابها (تجرى من تحتها الانهار) فى حيز النصب على انه صفة جنات فان أريد بها الأشجار فجريان الإنهار من تحتها ظاهر وان أريد بها الارض المشتملة عليها فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وان أريد بها مجموع الارض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر الى الجزء الظاهر المصحح لاطلاق اسم الجنة على الكل. عن مسروق أن أنهار الجنة تجرى فى غير اخدود. واللام فى الانهار للجنس كما فى قولك لفلان بستان فيه الماء الجارى والتين والعنب أو عوض عن المضاف اليه كما فى قوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » أو للعهد والاشارة الى ماذكر فى قوله عز وعلا « أنهار من ماء غير آسن » الآية .والنهر بفتح الهاء وسكونها المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر

كالنيل والفرات والتركيب للسعة والمراد بها ماؤها على الاضمار أو على المجاز اللغوى أو المجارى أنفسها وقد أسند اليها الجريان مجازا عقليا كما فى سال الميزاب (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) صفة أخرى لجنات أخرت عن الاولى لان جريان الانهار من تحتها وصف لها باعتبار ذاتها وهذا وصف لها باعتبار أهلها المتنعمين بها أو خبر مبتدا محذوف أو جملة مستأنفة كأنه حين وصفت الجنات بما ذكر من الصفة وقع فى ذهن السامع أثمارها كثمار جنات الدنيا أولا فبين حالها. وكلما نصب على الظرفية رزقا مفعول به. ومن الاولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال كانه قيل كل وقت رزقوا مرزوقاً مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة على أن الرزق مقيد بكونه مبتدأ من الجنات وابتداؤه منها مقيد بكونه مبتدأ من ثمرة فصاحب الحال الاولى رزقا وصاحب الثانية ضميره المستكن فى الحال. ويجوز كون من ثمرة بيانا قدم على المبين كما فى قولك رأيت منك أسدا وهذا اشارة الى مارزقوا وان وقعت على فرد معين منه كقولك مشيرا الى نهر جار هذا الماء لاينقطع فانك ان أشرت الى ماتعاينه بحسب الظاهر لكنك انما تعنى بذلك النوع المعلوم المستمر فالمعنى هذا مثل الذى رزقناه من قبل أى من قبل هذا فى الدنيا ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته. وانما جعل ثمر الجنة كثمار الدنيا لتميل النفس اليه حين تراه فان الطباع مائلة الى المألوف متنفرة عن غير معروف وليتبين لها مزيته وكنه النعمة فيه اذ لو كان جنسا غير معهود لظن أنه لا يكون الا كذلك. أو مثل الذى رزقناه من قبل فى الجنة لان طعامها متشابه الصور كما يحكى عن الحسن رضى الله عنه أن أحدهم يؤتى الصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الاولى فيقول ذلك فيقول الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف أو كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: والذى نفسى بيده أن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى واصلة الى فيه حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها: والاول أنسب لمحافظة عموم كلما فانه يدل على ترديدهم هذه المقالة كل مرة رزقوا لا فيما عدا المرة الاولى يظهرون بذلك التبجح وفرط الاستغراب لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذة مع اتحادهما فى الشكل واللون كأنهم قالوا هذا عين مارزقناه فى الدنيا فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب. ولا يقدح فيه ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه ليس فى الجنة من أطعمة الدنيا الا الاسم فان ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما من حيث اللذة والحسن والهيئة لا لبيان أن لاتشابه بينهما أصلا كيف لا و اطلاق الاسماء منوط بالاتحاد النوعى قطعا هذا. وقد فسرت الآية الكريمة بأن

مستلذات أهل الجنة بمقابلة مارزقوه فى الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة الحال فيجوز أن يريدوا هذا ثواب الذى رزقناه فى الدنيا من الطاعات ولا يساعده تخصيص ذلك بالثمرات فان الجنة وما فيها من فنون الكرامات من قبيل الثواب (وأتوابه متشابها) اعتراض مقرر لما قبله والضمير المجرور على الاول راجع الى مادل عليه فحوى الكلام مما رزقوا فى الدارين كما فى قوله تعالى « ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما » أى بجنسى الغنى والفقير وعلى الثانى الى الرزق (ولهم فيها أزواج مطهرة) أى مما فى نساء الدنيا من الاحوال المستقذرة كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق فان التطهر يستعمل فى الاجسام والاخلاق والافعال وقرئ مطهرات وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن وهن فاعلة وفواعل قال :

واذا العذارى بالدخان تقنعت « واستعجلت نصب القدور فملت

فالجمع على اللفظ والافراد على تأويل الجماعة وقرئ مطهرة بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى متطهرة ومطهرة أبلغ من طاهرة ومتطهرة للاشعار بان مطهرا طهرهن وما هو الا الله سبحانه وتعالى وأما التطهر فيحتمل أن يكون من قبل أنفسهن كما عند اغتسالهن والزوج يطلق على الذكر والانثى وهو فى الاصل اسم لماله قرين من جنسه وليس فى مفهومه اعتبار التوالد الذى هو مدار بقاء النوع حتى لايصح اطلاقه على أزواج أهل الجنة لخلودهم فيها واستغنائهم عن الاولاد كما ان المدارية لبقاء الفرد ليست بمعتبرة فى مفهوم اسم الرزق حتى يخل ذلك باطلاقه على ثمار الجنة (وهم فيها خالدون) أى دائمون « والخلود فى الأصل الثبات المديد دام أو لم يدم ولذلك قيل للاثافى والاحجار الخوالد وللجزء الذى يبقى من الانسان على حاله خلد ولو كان وضعه للدوام لما قيد بالتأبيد فى قوله عز وعلا « خالدين فيها أبدا » ولما استعمل حيث لادوام فيه لكن المراد ههنا الدوام قطعا لما يقضى به من الآيات والسنن . وما قيل من أن الابدان مؤلفة من الاجزاء المتضادة فى الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية الى الانحلال والانفكاك مداره قياس ذلك العالم الكامل بما يشاهد فى عالم الكون والفساد على أنه يجوز أن يعيدها الخالق تعالى بحيث لايعتورها الاستحالة ولا يعتريها الانحلال قطعا بأن تجعل أجزاؤها متفاوتة فى الكيفيات متعادلة فى القوى بحيث لا يقوى شئ منها عند التفاعل على احالة الآخر متعانقة متلازمة لاينفك بعضها عن بعض وتبقى هذه النسبة منحفظة فيما بينها أبدا لا يعتريها التغير بالاكل والشرب والحركات وغير ذلك . واعلم أن معظم اللذات الحسية لما كان مقصورا على المساكن والمطاعم والمناكح حسبما يقضى به الاستقراء

وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات اذ كل نعمة وان جلت حيث كانت فى شرف الزوال ومعرض الاضمحلال فانها منغصة غير صافية من شوائب الالم بشر المؤمنين بها وبدوامها تكميلا للبهجة والسرور اللهم وفقنا لمراضيك وثبتنا على ما يؤدى اليها من العقد والعمل (ان الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة) شروع فى تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب خاص اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الامثال وبيان لحكمته وتحقيق للحق أثر تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدى والقام الحجر والخام كافة البلغاء من أهل المدر والوبر. روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن المنافقين طعنوا فى ضرب الامثال بالنار والظلمات والرعد والبرق وقالوا الله أجل وأعلى من ضرب الامثال. وروى عطاء رضى الله عنه أن هذا الطعن كان من المشركين وروى عنه أيضا أنه لما نزل قوله تعالى «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له» الآية وقوله تعالى «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء» الآية قالت اليهود أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله تعالى بهما الامثال وجعلوا ذلك ذريعة الى انكار كونه من عند الله تعالى مع أنه لا يخفى على أحد ممن له تمييز أنه ليس مما يتصور فيه التردد فضلا عن النكير بل هو من أوضح أدلة كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر. كيف لا وان التمثيل كما مر ليس الا ابراز المعنى المقصود فى معرض الامر المشهود وتحلية المعقول بحلية المحسوس وتصوير أوابد المعانى بهيئة المأنوس لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستعصائه عليه فى ادراك الحقائق الخفية وفهم الدقائق الابية كى يتابعه فيما يقتضيه ويشايعه الى ما يرتضيه ولذلك شاعت الامثال فى الكتب الالهية والكلمات النبوية وذاعت فى عبارات البلغاء واشارات الحكماء ومن قضية وجوب التماثل بين الممثل والممثل به فى مناط التمثيل تمثيل العظيم بالعظيم والحقير بالحقير. وقد مثل فى الانجيل غل الصدر بالنخالة ومعارضة السفهاء باثارة الزنابير وجاء فى عبارات البلغاء أجمع من ذرة وأجرأ من الذباب وأسمع من قراد وأضعف من بعوضة الى غير ذلك مما لا يكاد يحصر. والحياء تغير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم عليه يقال حيي الرجل وهو حيي. واشتقاقه من الحياة اشتقاق شظى وحشى ونسى من الشظى والنسى والحشى يقال شظى الفرس ونسى وحشى اذا اعتلت منه تلك الأعضاء كأن من يعتريه الحياء تعتل قوته الحيوانية وتنتقص واستحيا بمعناه خلا أنه يتعدى بنفسه وبحرف الجر يقال استحييته واستحييت منه والاول لا يتعدى الا بحرف الجر وقد يحذف منه احدى الياءين ومنه قوله:

ألا يستحي منا الملوك ويتقى ＊ محارمنا لا يبؤم الدم بالدم

وقوله

اذا ما استحين الماء يعرض نفسه ＊ كرعن بسبت فى اناء من الورد

فكما أنه اذا أسند اليه سبحانه بطريق الايجاب فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله يستحي من ذي الشيبة المسلم أن يعذبه: وقوله عليه السلام: إن الله حي كريم يستحي اذا رفع اليه العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا: يراد به الترك الخاص على طريقة التمثيل حيث مثل فى الحديثين الكريمين تركه تعذيب ذى الشيبة وتخييب العبد من عطائه بترك من يتركهما حياء كذلك اذا نفى عنه تعالى فى المواد الخاصة كما فى هذه الآية الشريفة وفى قوله تعالى ＊ والله لا يستحيي من الحق يراد به سلب ذلك الترك الخاص المضاهي لترك المستحيي عنه لا سلب وصف الحياء عنه تعالى رأسا كما فى قولك ان الله لا يوصف بالحياء لأن تخصيص السلب ببعض المواد يوهم كون الايجاب من شأنه تعالى فى الجملة فالمراد ههنا عدم ترك ضرب المثل المماثل لترك من يستحيي من ضربه . وفيه رمز الى تعاضد الدواعي الى ضربه وتآخذ البواعث اليه اذ الاستحياء انما يتصور فى الافعال المقبولة للنفس المرضية عندها . ويجوز أن يكون وروده على طريقة المشاكلة فانهم كانوا يقولون أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالاشياء المحقرة كما فى قول من قال:

من مبلغ أفناء يعرب كلها ＊ أني بنيت الجار قبل المنزل

＊ وضرب المثل استعماله فى مضربه وتطبيقه به لا صنعه وانشاؤه فى نفسه وإلا لكان انشاء الامثال السائرة فى مواردها ضربا لها دون استعمالها بعد ذلك فى مضاربها لفقدان الأنشاء هناك . والامثال الواردة فى التنزيل وان كان استعمالها فى مضاربها عين انشائها فى أنفسها لكن التعبير عنه بالضرب ليس بهذا الاعتبار بل بالاعتبار الاول قطعا وهو مأخوذ اما من ضرب الخاتم بجامع التطبيق فكما أن ضربه تطبيقه بقالبه كذلك استعمال الامثال فى مضاربها تطبيقها بها كأن المضارب قوالب تضرب الامثال على شاكلتها لكن لا بمعنى انها تنشأ بحسبها بعد ان لم تكن كذلك بل بمعنى أنها تورد منطبقة عليها سواء كان انشاؤها حينئذ كعامة الامثال التنزيلية فان مضاربها قوالبها أو قبل ذلك كسائر الامثال السائرة فانها وان كانت مصنوعة من قبل إلا أن تطبيقها أى ايرادها منطبقة على مضاربها انما يحصل عند الضرب . واما من ضرب الطين على الجدار ليلتزق به بجامع الالصاق كأن من يستعملها يلصقها بمضاربها ويجعلها ضربة لازب لا تنفك عنها لشدة تعلقها بها ومحل أن يضرب على تقدير تعدية يستحيي بنفسه النصب

على المفعولية . وأما على تقدير تعديته بالجار فعند الخليل الخفض باضمار من. وعند سيبويه النصب بافضاء الفعل اليه بعد حذفها. ومثلا مفعول ليضرب . وما اسمية ابهامية تزيد ما تقارنه من الاسم المنكر ابهاما وشياعا كما فى قولك اعطنى كتابا ما كأنه قيل مثلا ما من الامثال أى مثل كان فهى صفة لماقبلها أو حرفية مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها كما فى قوله تعالى فبما رحمة من الله وبعوضة بدلا من مثلا أو عطف بيان عند من يجوزه فى النكرات أو مفعول ليضرب ومثلا حال تقدمت عليها لكونها نكرة أوهما مفعولاه لتضمنه معنى الجعل والتصيير .وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو بعوضة والجملة على تقدير كون ما موصولة صلة لها محذوفة الصدر كما فى قوله تعالى تماما على الذى أحسن على قراءة الرفع وعلى تقدير كونها موصوفة صفة لها كذلك ومحل ما على الوجهين النصب على أنه بدل من مثلا أو على أنه مفعول ليضرب وعلى تقدير كونها ابهامية صفة لمثلا كذلك.وأما على تقدير كونها استفهامية فهى خبر لها كانه لما رد استبعادهم ضرب المثل قيل مابعوضة وأى مانع فيها حتى لا يضرب بها المثل بل له تعالى ان يمثل بما هو أصغر منها وأحقر كجناحها على ماوقع فى قوله صلى الله عليه وسلم:لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء:والبعوض فعول من البعض وهو القطع كالبضع والعضب غلب على هذا النوع كالخموش فى لغة هذيل من الخمش وهو الخدش (فما فوقها) عطف على بعوضة على تقدير نصبها على الوجوه المذكورة وما موصولة أو موصوفة صلتها أو صفتها الظرف.وأما على تقدير رفعها فهو عطف على ما الاولى على تقدير كونها موصولة أو موصوفة .وأما على تقدير كونها استفهامية فهو عطف على خبرها أعنى بعوضة لا على نفسها كما قيل والمعنى مابعوضة فالذى فوقها أو فشىء فوقها حتى لايضرب بها المثل وكذا على تقدير كونها صفة للنكرة أو زائدة وبعوضة خبر للمضمر .وذكر البعوضة فما فوقها من بين أفراد المثل انما هو بطريق التمثيل دون التعيين والتخصيص فلا يخل بالشيوع بل يقرره ويؤكده بطريق الاولوية.والمراد بالفوقية إما الزيادة فى المعنى الذى أريد بالتمثيل أعنى الصغر والحقارة وإما الزيادة فى الحجم والجثة لكن لا بالغا مابلغ بل فى الجملة كالذباب والعنكبوت وعلى التقدير الأول يجوز أن يكون ماالثانية خاصة استفهامية انكارية والمعنى أن الله لايستحى أن يضرب مثلا مابعوضة فأى شىء فوقها فى الصغر والحقارة فأذن له تعالى أن يمثل بكل مايريد ونظيره فى احتمال الامرين ماروى أن رجلا بمنى خر على طنب فسطاط فقالت عائشة رضى الله عنها حين ذكر لها ذلك:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مامن مسلم يشاك

شوكة فما فوقها الا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة: فانه يحتمل ما يجاوز الشوكة فى القلة كنخبة النملة بقوله عليه السلام: ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة: وما تجاوزها من الالم كامثال ماحكى من الحرور (فاما الذين آمنوا) شروع فى تفصيل مايترتب على ضرب المثل من الحكم أثر تحقيق حقية صدوره عنه تعالى. والفاء للدلالة على ترتب مابعدها على مايدل عليه ماقبلها كأنه قيل فيضربه فاما الذين الخ وتقديم بيان حال المؤمنين على ماحكى من الكفرة مما لا يفتقر الى بيان السبب. وفى تصدير الجلتين باما من احماد أمر المؤمن وذم الكفرة مالا يخفى وهو حرف متضمن لمعنى اسم الشرط وفعله بمنزلة مهما يكن من شىء ولذلك يجاب بالفاء وفائدته توكيد ماصدر به وتفصيل ما فى نفس المتكلم من الاقسام فقد تذكر جميعاً وقد يقتصر على واحد منها كما فى قوله عز من قائل فاما الذين فى قلوبهم زيغ الخ قال سيبويه أما زيد فذاهب معناه مهما يكن من شىء فهو ذاهب لامحالة وانه منه عزيمة وكان الاصل دخول الفاء على الجملة لانها الجزاء لكن كرهوا ايلاءها حرف الشرط فادخلوها الخبر وعوض المبتدأ عن الشرط لفظا. والمراد بالموصول فريق المؤمنين المعهودين كما أن المراد بالموصول الآتى فريق الكفرة لامن يؤمن بضرب المثل ومن يكفر به لاختلاف المعنى أى فاما المؤمنون (فيعلمون أنه الحق من ربهم) كسائر ماورد منه تعالى. والحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لامحالة بحيث لاسبيل للعقل الى انكاره لاالثابت مطلقا. واللام للدلالة على أنه مشهود له بالحقية وأن له حكما ومصالح. ومن لابتداء الغاية المجازية وعاملها محذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى الحق أو من الضمير العائد الى المثل أو الى ضربه أى كائنا وصادرا من ربهم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتشريفهم وللايذان بأن ضرب المثل تربية لهم وارشاد الى مايوصلهم الى كمالهم اللائق بهم والجملة سادة مسد مفعولى يعلمون عند الجمهور ومسد مفعوله الاول والثانى محذوف عند الاخفش أى فيعلمون حقيته ثابتة ولعل الاكتفاء بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كما فى قوله تعالى والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا للاشعار بقوة مابينهما من التلازم وظهوره المغنى عن الذكر (وأما الذين كفروا) ممن حكيت أقوالهم وأحوالهم (فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أوثر يقولون على لايعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال علوهم فى الكفر وترامى أمرهم فى العتو فان مجرد عدم العلم بحقيته ليس بمثابة انكارها والاستهزاء به صريحا وتمهيداً لتعداد مانعى عليهم فى

تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ونقض العهد وغير ذلك من شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور . على ان عدم العلم بحقيته لايعم جميعهم فان منهم من يعلم بها وانما يقول مايقول مكابرة وعنادا وحمله على عدم الاذعان والقبول الشامل للجهل والعناد تعسف ظاهر . هذا وقد قيل كان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه ويقابل قسيمه لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحا على جهلهم عدل اليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه فتأمل وكن على الحق المبين. وماذا اما مؤلفة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ خبره ذا بمعنى الذى وصلته مابعده والعائد محذوف فالاحسن أن يجيء جوابه مرفوعا . واما منزلة منزلة اسم واحد بمعنى أى شيء فالاحسن فى جوابه النصب . والارادة نزوع النفس وميلها الى الفعل بحيث يحملها اليه أو القوة التى هو مبدؤه والاول مع الفعل والثانى قبله وكلاهما مما لايتصور فى حقه تعالى ولذلك اختلفوا فى ارادته عز وجل فقيل ارادته تعالى لافعاله كونه غير ساه فيه ولا مكره ولافعال غيره أمره بها فلا تكون المعاصى بارادته تعالى. وقيل هى علمه باشتمال الامر على النظام الاكمل والوجه الاصلح فانه يدعو القادر الى تحصيله . والحق انها عبارة عن ترجيح أحد طرفى المقدور على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى يوجبه وهى أعم من الاختيار فانه ترجيح مع تفضيل . وفى كلمة هذا تحقير للمشار اليه واسترذال له ومثلا نصب على التميز أو على الحال كما فى قوله تعالى . ناقة الله لكم آية . وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهام الحكمة فى ضرب المثل ولا القدح فى اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا بل غرضهم التنبيه بادعاء أنه من الدناءة والحقارة بحيث لايليق بان يتعلق به أمر من الامور الداخلة تحت ارادته تعالى على استحالة أن يكون ضرب المثل به من عنده سبحانه فقوله عز من قائل (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) جواب عن تلك المقالة الباطلة ورد لها ببيان انه مشتمل على حكمة جليلة وغاية جميلة هى كونه ذريعة الى هداية المستعدين للهداية واضلال المنهمكين فى الغواية فوضع الفعلان موضع الفعل الواقع فى الاستفهام مبالغة فى الدلالة على تحققهما فان ارادتهما دون وقوعهما بالفعل وتجافيا عن نظم الاضلال مع الهداية فى سلك الارادة لايهامه تساويهما فى تعلقهما وليس كذلك فان المراد بالذات من ضرب المثل هو التذكر والاهتداء كما ينبىء عنه قوله تعالى . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون . ونظائره وأما الاضلال فهو أمر عارض مترتب على سوء اختيارهم وأوثر صيغة الاستقبال ايذانا بالتجدد والاستمرار . وقيل وضع الفعلان موضع مصدريهما كانه قيل أراد اضلال كثير

وهداية كثير. وقدم الاضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرا فظيعا يسوءهم ويفت فى أعضادهم وهو السر فى تخصيص هذه الفائدة بالذكر. وقيل هو بيان للجملتين المصدرتين باما وتسجيل بان العلم بكونه حقا هدى وان الجهل بوجه ايراده والانكار لحسن مورده ضلال وفسوق. وكثرة كل فريق انما هي بالنظر الى أنفسهم لا بالقياس الى مقابليهم فلا يقدح فى ذلك أقلية أهل الهدى بالنسبة الى أهل الضلال حسبما نطق به قوله تعالى «وقليل من عبادى الشكور» ونحو ذلك واعتبار كثرتهم الذاتية دون قلتهم الاضافية لتكميل فائدة ضرب المثل وتكثيرها ويجوز أن يراد فى الاولين الكثرة من حيث العدد وفى الآخرين من حيث الفضل والشرف كما فى قول من قال:

ان الكرام كثير فى البلاد وإن … قلوا كما غيرهم قلوا وإن كثروا

واسناد الاضلال أى خلق الضلال اليه سبحانه مبنى على ان جميع الاشياء مخلوقة له تعالى وإن كانت أفعال العباد من حيث الكسب مستندة اليهم. وجعله من قبيل اسناد الفعل الى سببه يأباه التصريح بالسبب. وقرئ يضل به كثير ويهدى به كثير على البناء للمفعول وتكرير به مع جواز الاكتفاء بالاول لزيادة تقرير السببية وتأكيدها (وما يضل به) أى بالمثل أو بضربه (الا الفاسقين) عطف على ما قبله وتكملة للجواب والرد وزيادة تعيين لمن أريد اضلالهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له واشارة الى ان ذلك ليس اضلالا ابتدائيا بل هو تثبيت على ما كانوا عليه من فنون الضلال وزيادة فيه. وقرئ وما يضل به الا الفاسقون على البناء للمفعول. والفسق فى اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها والفأرة من حجرها أى خرجت قال رؤبة:

يذهبن فى نجد وغورا غائرا … فواسقا عن قصدها جوائرا

وفى الشريعة الخروج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التى من جملتها الاصرار على الصغيرة وله طبقات ثلاث: الاولى التغابى وهو ارتكابها أحيانا مستقبحا لها والثانية الانهماك فى تعاطيها. والثالثة المثابرة عليها مع جحود قبحها. وهذه الطبقة من مراتب الكفر فما لم يبلغها الفاسق لا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذى عليه يدور الايمان ولقوله تعالى «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» والمعتزلة لما ذهبوا الى أن الايمان عبارة عن مجموع التصديق والاقرار والعمل والكفر عن تكذيب الحق وجحوده ولم يتسن لهم ادخال الفاسق فى أحدهما جعلوه قسما بين قسمي المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما فى بعض أحكامه. والمراد بالفاسقين ههنا العاتون الماردون

فى الكفر الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم ما حكى من انكار كلام الله تعالى والاستهزاء به. وتخصيص الاضلال بهم مترتبا على صفة الفسق و ما أجرى عليهم من القبائح للايذان بأن ذلك هو الذى أعدهم للاضلال وأدى بهم الى الضلال فان كفرهم وعدولهم عن الحق واصرارهم على الباطل صرفت وجوه أنظارهم عن التدبر فى حكمة المثل الى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا فيه ما قالوا (الذين ينقضون عهد الله) صفة للفاسقين للذم وتقرير ما هم عليه من الفسق والنقض فسخ التركيب من المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما. واستعماله فى ابطال العهد من حيث استعارة الحبل له لما فيه من ارتباط أحد كلامى المتعاهدين بالآخر فان شفع بالحبل وأريد به العهد كان ترشيحا للمجاز. وان قرن بالعهد كان رمزا الى ما هو من روادفه وتنبيها على مكانه وان المذكور قد استعير له كما يقال شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس تنبيها على انه أسد فى شجاعته و بحر فى افاضته. والعهد الموثق يقال عهد اليه كذا اذا وصاه به و وثقه عليه والمراد ههنا إما العهد المأخوذ بالعقل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على وجوده و وحدته و صدق رسوله عليه السلام و به أول قوله تعالى «وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى» أو المعنى الظاهر منه أو المأخوذ من جهة الرسل عليهم السلام على الامم بأنهم اذا بعث اليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره وذكره فى الكتب المتقدمة و لم يخالفوا حكمه كما ينبىء عنه قوله عز وجل «واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه» ونظائره وقيل عهود الله تعالى ثلاثة : الاول ما أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقروا على ربوبيته والثانى ما أخذه على الانبياء عليهم السلام بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه. والثالث ما أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه (من بعد ميثاقه) الميثاق اما اسم لما يقع به الوثاقة والاحكام. واما مصدر بمعنى التوثقة كالميعاد بمعنى الوعد فعلى الاول ان رجع الضمير الى العهد كان المراد بالميثاق ما وثقوه به من القبول والالتزام. وان رجع الى لفظ الجلالة يراد به آياته وكتبه وانذار رسله عليهم السلام والمضاف محذوف على الوجهين أى من بعد تحقق ميثاقه. وعلى الثانى ان رجع الضمير الى العهد والميثاق مصدر من المبنى للفاعل فالمعنى من بعد أن وثقوه بالقبول والالتزام أو من بعد أن وثقه الله عز وجل بانزال الكتب و انذار الرسل وان كان مصدراً من المبنى للمفعول فالمعنى من بعد كونه موثقا إما بتوثيقهم اياه بالقبول. وإما بتوثيقه تعالى اياه بانزال الكتب و انذار الرسل (ويقطعون ما أمر الله به أن

يوصل) يحتمل كل قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه وتعالى كقطع الرحم وموالاة المؤمنين والتفرقة بين الانبياء عليهم السلام والكتب فى التصديق وترك الجماعات المفروضة وسائر مافيه رفض خير أو تعاطى شر فانه يقطع مابين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التى هى المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ، والامر هو القول الطالب للفعل مع العلو وقيل بالاستعلاء وبه سمى الامر الذى هو واحد الامور تسمية للمفعول بالمصدر فانه مما يؤمر به كما يقال له شأن وهو القصد والطلب لما أنه أثر للشأن وكذا يقال له شيء وهو مصدر شاء لما أنه أثر للمشيئة .ومحل أن يوصل اما النصب على انه بدل من الموصول أو من ضميره والثانى أولى لفظاً ومعنى (ويفسدون فى الارض) بالمنع عن الايمان والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التى عليها يدور فلك نظام العالم وصلاحه (أولئك) اشارة الى الفاسقين باعتبار اتصافهم بما فصل من الصفات القبيحة وفيه ايذان بانهم متميزون بها أكمل تميز ومنتظمون بسبب ذلك فى سلك الامور المحسوسة وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الفساد (هم الخاسرون) الذين خسروا باهمال العقل عن النظر واقتناص مايفيدهم الحياة الابدية واستبدال الانكار والطعن فى الآيات بالايمان بها والتأمل فى حقائقها والاقتباس من أنوارها واشتراء النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والقطيعة بالصلة والعقاب بالثواب (كيف تكفرون بالله) التفات الى خطاب المذكورين مبنى على ايراد ماعدد من قبائحهم السابقة لتزايد السخط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع .والاستفهام انكارى لابمعنى انكار الوقوع كما فى قوله تعالى ، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، الخ بل بمعنى انكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة ماليس فى توجيه الانكار الى نفس الكفر بأن يقال أتكفرون لان كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الاحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى وقوله عز وجل (وكنتم أمواتا) الى آخر الآية حال من ضمير الخطاب فى تكفرون مؤكدة للانكار والاستبعاد بما عدد فيها من الشؤون العظيمة الداعية الى الايمان الرادعة عن الكفر من حيث كونها نعمة عامة ومن حيث دلالتها على قدرة تامة كقوله تعالى ، وقد خلقكم أطواراً ، وكيف منصوبة على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الاخفش أى فى أى حال أو على أى حال تكفرون به تعالى والحال انكم كنتم أمواتا أى أجساما لا حياة لها عناصر وأغذية ونطفا ومضغا مخلقة وغير مخلقة .والاموات

جمع ميت كاقوال جمع قيل واطلاقها على تلك الاجسام باعتبار عدم الحياة مطلقاً كما فى قوله تعالى «بلدة ميتا» وقوله تعالى «وآية لهم الارض الميتة» (فأحيا كم) بنفخ الار واح فيكم والفاء للدلالة على التعقيب فان الاحياء حاصل اثر كونهم أمواتا وان توارد عليهم فى تلك الحالة أطوار مترتبة بعضها متراخ عن بعض كما أشير اليه آنفاً (ثم يميتكم) أى عند انقضاء آجالكم وكون الامانة من دلائل القدرة ظاهر. وأما كونها من النعم فلكونها وسيلة الى الحياة الثانية التى هى الحيوان والنعمة العظمى والتراخى المستفاد من كلمة ثم بالنسبة الى زمان الاحياء دون زمان الحياة فان زمان الاماتة غير متراخ عنه (ثم يحييكم) بالنشور يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور وأياما كان فهو متراخ من زمان الاماتة وان كان اثر زمان الموت المستمر (ثم اليه ترجعون) بعد الحشر لا الى غيره فيجازيكم بأعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر أو اليه تنشرون من قبوركم للحساب. وهذه الافعال وان كان بعضها ماضيا وبعضها مستقبلا لا يتسنى مقارنة شئ منها لما هو حال منه فى الزمان لكن الحال فى الحقيقة هو العلم المتعلق بها كانه قيل كيف تكفرون بالله وأنتم عالمون بهذه الاحوال المانعة منه ومآله التعجيب من وقوعه مع تحقق ماينفيه. وانما نظم ما ينكرونه من الاحياء الأخير والرجع فى سلك مايعترفون به من الاحياء الاول والاماتة تنزيلا لتمكنهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعة منزلة العلم بذلك بالفعل فى ازاحة العلل والاعذار. والحياة حقيقة فى القوة الحساسة أو مايقتضيها وبها سمى الحيوان حيوانا مجاز فى القوة النامية لكونها من طلائعها وكذا فيما يخص الانسان من العقل والعلم والايمان من حيث انه كمالها وغايتها. والموت بازائها يطلق على ما يقابل كل مرتبة من تلك المراتب قال تعالى «قل الله يحييكم ثم يميتكم» وقال تعالى «اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها» وقال تعالى «أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس» وعند وصفه تعالى بها يراد صحة اتصافه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا أو معنى قائم بذاته تعالى مقتض لذلك. وقرئ ترجعون بفتح التاء والاول هو الاليق بالمقام (هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا) تقرير للانكار وتأكيد له من الحيثيتين المذكورتين. غير سبكه عن سبك ماقبله مع اتحادهما فى المقصود ابانة لما بينهما من التفاوت فان مايتعلق بذواتهم من الاحياء والاماتة والحشر أدخل فى الحث على الايمان والكف عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم وما يجرى مجراها. وفى جعل الضمير مبتدأ والموصول خبرا من الدلالة على الجلالة مالا يخفى. وتقديم الظرف على المفعول

الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعا للمخاطبين وللتشويق اليه كما سلف أى خلق لأجلكم جميع مافى الارض من الموجودات لتنتفعوا بها فى أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة وأمور دينكم بالاستدلال بها على شئون الصانع تعالى شأنه والاستشهاد بكل واحد منها على مايلائمه من اللذات الآخرة وآلامها وما يعم جميع مافى الارض لانفسها الا ان يراد بها جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو نعم يعم كل جزء من أجزائها فانه من جملة مافيها ضرورة وجود الجزء فى الكل. وجميعا حال من الموصول الثانى مؤكدة لما فيه من العموم فان كل فرد من افراد مافى الارض بل كل جزء من أجزاء العالم له مدخل فى استمراره على ماهو عليه من النظام اللائق الذى عليه يدور انتظام مصالح الناس. أما من جهة المعاش فظاهر. وأما من جهة الدين فلما انه ليس فى العالم شئ مما يتعلق به النظر ومالا يتعلق به الا وهو دليل على القادر الحكيم جل جلاله كما مر فى تفسير قوله تعالى «رب العالمين» وان لم يستدل به أحد بالفعل (ثم استوى الى السماء) أى قصد اليها بارادته ومشيئته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من ارادة خلق شئ آخر فى تضاعيف خلقها أو غير ذلك مأخوذ من قولهم استوى اليه كالسهم المرسل وتخصيصه بالذكر ههنا إما لعدم تحققه فى خلق السفليات لما روى من تخلل خلق السموات بين خلق الارض ودحوها عن الحسن رضى الله عنه: خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان يلتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارضين وذلك قوله تعالى «كانتا رتقا ففتقناهما» وإما لاظهار كمال العناية بابداع العلويات. وقيل استوى استولى وملك والاول هو الظاهر وكلمة ثم للايذان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات لا للتراخى الزمانى فان تقدمه على خلق مافى الارض المتأخر عن دحوها مما لا مرية فيه لقوله تعالى «والارض بعد ذلك دحاها» ولما روى عن الحسن والمراد بالسماء اما الاجرام العلوية فان القصد اليها بالارادة لا يستدعى سابقة الوجود واما جهات العلو (فسواهن) أى أتمهن وقومهن وخلقهن ابتداء مصونة عن العوج والفطور لا أنه تعالى سواهن بعد أن لم يكن كذلك ولا يخفى ما فى مقارنة التسوية والاستواء من حسن الموقع وفيه اشارة الى أن لا تغير فيهن بالنمو والذبول كما فى السفليات والضمير على الوجه الاول للسماء فانها فى معنى الجنس وقيل هى جمع سماءة أو سماوة وعلى الوجه الثانى مبهم يفسره قوله تعالى (سبع سموات) كما فى قولهم ربه رجلا وهو على الوجه الاول بدل من الضمير. وتأخير ذكر هذا الصنع البديع عن ذكر خلق

ما فى الارض مع كونه أقوى منه فى الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نبه عليه لما أن المنافع المنوطة بما فى الارض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وان كان فى ابداع العلويات أيضا من المنافع الدينية والدنيوية مالا يحصى هذا ما قالوا وسيأتى فى حم السجدة مزيد تحقيق وتفصيل باذن الله تعالى (وهو بكل شىء عليم) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من خلق السموات والارض وما فيها على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الفائقة والمصالح اللائقة فان علمه عز وجل بجميع الاشياء ظاهرها وباطنها بارزها وكامنها وما يليق بكل واحد منها يستدعى ان يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق وقرىء وهو بسكون الهاء تشبيها له بعضد (واذ قال ربك) بيان لامر آخر من جنس الامور المتقدمة المؤكدة للانكار والاستبعاد فان خلق آدم عليه السلام وما خصه به من الكرامات السنية المحكية من أجل النعم الداعية لذريته الى الشكر والايمان الناهية عن الكفر والعصيان وتقرير لمضمون ما قبله من قوله تعالى خلق لكم ما فى الارض جميعا وتوضيح لكيفية التصرف والانتفاع بما فيها وتلوين الخطاب بتوجيهه الى النبى صلى الله عليه وسلم خاصة للايذان بأن فحوى الكلام ليس مما يهتدى اليه بأدلة العقل كالامور المشاهدة التى نبه عليها الكفرة بطريق الخطاب بل انما طريقه الوحى الخاص به عليه السلام وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من الانباء عن تشريفه عليه السلام مالا يخفى واذ ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة أخرى مثلها كما أن اذا موضوع لزمان نسبة مستقبلة يقع فيه أخرى مثلها ولذلك يجب اضافتهما الى الجمل وانتصابه بمضمر صرح بمثله فى قوله عز وجل واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وقوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل عليها فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا وقيل ليس انتصابه على المفعولية بل على تأويل اذكر الحادث فيه بحذف المظروف واقامة الظرف مقامه وايا ما كان فهو معطوف على مضمر آخر ينسحب عليه الكلام كانه قيل له عليه السلام غب ما أوحى اليه ما خوطب به الكفرة من الوحى الناطق بتفاصيل الامور السابقة الزاجرة عن الكفر به تعالى ذكرهم بذلك وأذكر لهم هذه النعمة ليتنبهوا بذلك لبطلان ما هم فيه وينتهوا عنه وأما ما قيل من أن المقدر هو اشكر النعمة فى خلق السموات والارض أو تدبر ذلك فغير

سديد ضرورة أن مقتضى المقام تذكير المخاطبين بمواجب الشكر وتنبيههم على ما يقتضيه وأين ذاك من مقامه الجليل صلى الله عليه وسلم. وقيل انتصابه بقوله تعالى قالوا. ويأباه أنه يقتضى أن يكون هو المقصود بالذات دون سائر القصة وقيل بما سبق من قوله تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ ولا يخفى بعده. وقيل بمضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم اذ قال الخ ولاريب في أنه لافائده في تقييد بدء الخلق بذلك الوقت. وقيل بخلقكم أو بأحياكم مضمراً وفيه مافيه. وقيل اذ زائدة ويعزى ذلك الى أبي عبيد ومعمر وقيل أنه بمعنى قد. واللام في قوله عزقائلا (للملائكة) للتبليغ. وتقديم الجار والمجرور في هذا الباب مطرد لما في المقول من الطول غالبا مع مافيه من الاهتمام بما قدم والتشويق الى ما أخر كما مر مرارا. والملائكة جمع ملك باعتبار أصله الذي هو ملاك على أن الهمزة مزيدة كالشمائل في جمع شمأل والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة واشتقاقه من ملك لما فيه من معنى الشدة والقوة. وقيل على أنه مقلوب من مالك من الالوكة وهي الرسالة أي موضع الرسالة أو مرسل على أنه مصدر بمعنى المفعول فانهم وسائط بين الله تعالى وبين الناس فهم رسله عز وجل أو بمنزلة رسله عليهم السلام. واختلفت العقلاء في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بانفسها فذهب أكثر المتكلمين الى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل باشكال مختلفة مستدلين بان الرسل كانوا يرونهم كذلك عليهم السلام. وذهب الحكماء الى أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة وأنها أكمل منها قوة وأكثر علما تجري منها مجرى الشمس من الاضواء منقسمة الى قسمين قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما نعتهم الله عز وجل بقوله ﴿ يسبحون الليل والنهار لايفترون ﴾ وهم العليون المقربون وقسم يدبر الامر من السماء الى الارض حسبما جرى عليه قلم القضاء والقدر وهم المدبرات أمراً فمنهم سماوية ومنهم أرضية. وقالت طائفة من النصارى هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للابدان ونقل في شرح كثرتهم أنه عليه السلام قال « أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع قدم الا وفيه ملك ساجد أو راكع » وروى أن بني آدم عشر الجن وهما عشر حيوانات البر. والكل عشر الطيور. والكل عشر حيوانات البحار. وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الارض الموكلين. وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا. وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية. وهكذا الى السماء السابعة. ثم كل أولئك في مقابلة ملائكة الكرسي نزر قليل. ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق واحد من سرادقات العرش التي عددها ستمائة ألف. طول كل سرادق وعرضه وسمكه اذا قوبلت به السموات والأرض وما

فيهما و ما بينهما الا يكون لها عنده قدر محسوس و ما منه من مقدار شبر الا و فيه ملك ساجد أو راكع أو قائم لهم زجل بالتسبيح والتقديس. ثم كل هؤلاء فى مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة فى البحر. ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع اسرافيل عليه السلام. والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام لا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفيات عباداتهم الا بارئهم العليم الخبير على ما قال تعالى: وما يعلم جنود ربك الا هو. وروى أنه عليه السلام حين عرج به الى السماء «رأى ملائكة فى موضع بمنزلة شرف يمشى بعضهم تجاه بعض فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام الى أين يذهبون فقال جبريل لا أدرى الا أنى أراهم منذ خلقت ولا أرى واحدا منهم قد رأيته قبل ذلك ثم سألا واحدا منهم منذ كم خلقت فقال لا أدرى غير أن الله عز وجل يخلق فى كل أربعمائة ألف سنة كوكبا وقد خلق منذ خلقنى اربعمائة ألف كوكب» فسبحانه من إله ما أعظم قدره و ما أوسع ملكوته. واختلف فى الملائكة الذين قيل لهم ما قيل فقيل هم ملائكة الارض وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم المختارون مع ابليس حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجن حيث كانوا سكان الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء فقتلوهم الا قليلا قد أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحار وقلل الجبال وسكنوا الارض وخفف الله تعالى عنهم العبادة وأعطى ابليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة فكان يعبد الله تعالى تارة فى الارض وتارة فى السماء وأخرى فى الجنة فأخذه العجب فكان من أمره ما كان. وقال أكثر الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم فى أنهم كل الملائكة لعموم اللفظ وعدم المخصص وقوله تعالى (انى جاعل فى الأرض خليفة) فى حيز النصب على أنه مقول قال وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل ولذلك عملت عمله وفيها ما ليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه فاعل ذلك لا محالة. وهى من الجعل بمعنى التصيير المتعدى الى مفعولين فقيل أولها خليفة وثانيهما الظرف المتقدم على ما هو مقتضى الصناعة فان مفعولى التصيير فى الحقيقة اسم صار وخبره أولها الأول وثانيهما الثانى وهما مبتدأ وخبر والأصل فى الارض خليفة ثم قيل صار فى الارض خليفة ثم مصير فى الارض خليفة فمعناه بعد اللتيا والتى انى جاعل خليفة من الخلائف أو خليفة بعينه كائناً فى الارض فان خبر صار فى الحقيقة هو الكون المقدر العامل فى الظرف ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يقتضيه المقام أصلا وانما الذى يقتضيه هو الاخبار بجعل آدم خليفة فيها كما يعرب عنه جواب الملائكة عليهم السلام فاذن قوله تعالى خليفة مفعول ثان والظرف متعلق بجاعل قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق الى ما أخر أو بمحذوف وقع حالا مما بعده

لكونه نكرة وأما المفعول الأول فمحذوف تعويلا على القرينة الدالة عليه كما فى قوله تعالى :ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما: حذف فيه المفعول الأول وهو ضمير الأموال لدلالة الحال عليه وكذا فى قوله تعالى : ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم : حيث حذف فيه المفعول الأول لدلالة يبخلون عليه أى لا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيرا لهم ولا ريب فى تحقق القرينة ههنا. أما ان حمل على الحذف عند وقوع المحكى فهى واضحة لوقوعه فى أثناء ذكره عليه السلام على ما سنفصله كأنه قيل إنى خالق بشرا من طين وجاعل فى الأرض خليفة. وأما ان حمل على انه لم يحذف هناك بل قيل مثلا وجاعل إياه خليفة فى الأرض لكنه حذف عند الحكاية فالقرينة ما ذكر من جواب الملائكة عليهم السلام قال العلامة الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين (ان قلت) كيف صح أن يقول لهم بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به (قلت) وجهه أن يكون قد قال لهم إنى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم انتهى. فحيث جاز الاكتفاء عند الحكاية عن ذلك التفصيل بمجرد الاسم من غير قرينة تدل عليه فما ظنك بما نحن فيه ومعه قرينة ظاهرة. ويجوز أن يكون من الجعل بمعنى الخلق المتعدى الى مفعول واحد هو خليفة وحال الظرف فى التعلق والتقديم كما مر فحينئذ لا يكون ما سيأتى من كلام الملائكة مترتبا عليه بالذات بل بالواسطة فانه روى أنه تعالى لما قال لهم إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال تعالى يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا فعند ذلك قالوا ماقالوا والله تعالى أعلم. والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه فعيل بمعنى الفاعل والتاء للمبالغة والمراد به اما آدم عليه السلام وبنوه وإنما اقتصر عليه استغناء بذكره عن ذكرهم كما يستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها كمضر وهاشم ومنه « الخلافة فى قريش » وأما من يخلف أو خلف يخلف فيعمه عليه السلام وغيره من خلفاء ذريته. والمراد بالخلافة إما الخلافة من جهته سبحانه فى إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق لكن لا حاجة به تعالى الى ذلك بل لقصور استعداد المستخلف عليهم وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات فتختص بالخواص من بنيه. وأما الخلافة ممن كان فى الأرض قبل ذلك فتعم حينئذ الجميع (قالوا) استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الأذهان كأنه قيل فماذا قالت الملائكة حينئذ فقيل قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها) وهو أيضا من الجعل المتعدى إلى اثنين فقيل فيهما ما قيل فى الأول. والظاهر أن الأول كلمة من والثانى محذوف

ثقة بما ذكر فى الكلام السابق كما حذف الأول ثمة تعويلا على ما ذكر هنا قال قائلهم:

لا تخالنا عن عزائك انا   طالما قد وشى بنا الأعداء

بحذف المفعول الثانى أى لا تخالنا جازعين على عزائك والمعنى أتجعل فيها من يفسد فيها خليفة . والظرف الأول متعلق بتجعل وتقديمه لما مر مراراً والثانى بيفسد وفائدته تأكيد الاستبعاد لما أن فى استخلاف المفسد فى محل افساده من البعد ما ليس فى استخلافه فى غيره هذا . وقد جوز كونه من الجعل بمعنى الخلق المتعدى الى مفعول واحد هو كلمة من . وأنت خبير بان مدار تعجبهم ليس خلق من يفسد فى الارض كيف لا وان ما يعقبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى حقيتهم منه يقضى ببطلانه حتما اذ لا صحة لدعوى الاحقية منه بالخلق وهم مخلوقون بل مداره أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها باجراء أحكام الله تعالى وأوامره أو يستخلف مكان المطبوعين عن الطاعة من شأن بنى نوعه الافساد وسفك الدماء وهو عليه السلام وان كان منزها عن ذلك الا ان استخلافه مستتبع لاستخلاف ذريته التى لا تخلو عنه غالبا . وانما أظهروا تعجبهم استكشافا عما خفى عليهم من الحكم التى بدت على تلك المفاسد وألغتها واستخباراً عما يزيح شبهتهم ويرشدهم الى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التى جعلته أهلا لذلك كسؤال المتعلم عما ينقدح فى ذهنه لا اعتراضا على فعل الله سبحانه ولا شكا فى اشتماله على الحكمة والمصلحة اجمالا ولا طعنا فيه عليه السلام ولا فى ذريته على وجه الغيبة فان منصبهم أجل من أن يظن بهم أمثال ذلك قال تعالى : بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . وانما عرفوا ما قالوا اما باخبار من الله تعالى حسبما نقل من قبل أو بتلق من اللوح أو باستنباط عما ارتكز فى عقولهم من اختصاص العصمة بهم أو بقياس لأحد الثقلين على الآخر (ويسفك الدماء) السفك والسفح والسبك والسكب أنواع من الصب والأولان مختصان بالدم بل لا يستعمل أولهما الا فى الدم المحرم أى بقتل النفوس المحرمة بغير حق . والتعبير عنه بسفك الدماء لما أنه أقبح أنواع القتل وأفظعه . وقرىء يسفك بضم الفاء ويسفك ويسفك من أسفك وسفك . وقرىء يسفك على البناء للمفعول وحذف الراجع الى من موصولة أو موصوفة أى يسفك الدماء فيهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) جملة حالية مقررة للتعجب السابق ومؤكدة له على طريقة قول من يجد فى خدمة مولاه وهو يأمر بها غيره أتستخدم العصاة وأنا مجتهد فيها كأنه قيل أتستخلف من من شأن ذريته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلا والمقصود عرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ما هو متوقع منهم من الموانع

لا العجب والتفاخر فكأنهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التى رذيلتها الافراطية الفساد فى الأرض . والقوة الغضبية التى رذيلتها الافراطية سفك الدماء فقالوا ما قالوا وذهلوا عما اذا سخرتهما القوة العقلية ومرنتهما على الخير يحصل بذلك من علو الدرجة مايقصر عن بلوغ رتبة القوة العقلية عندانفرادها فى أفاعيلها كالاحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة الى الفعل وغير ذلك مما نيط به أمر الخلافة والتسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقادا وقولا وعملا عما لايليق بجنابه سبحانه من سبح فى الارض والماء اذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وكذلك تقديسه تعالى من قدس فى الارض اذا ذهب فيها وأبعد ويقال قدسه أى طهره فان مطهر الشئ مبعده عن الأقذار . والباء فى بحمدك متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير أى ننزهك عن كل مالا يليق بشأنك ملتبسين بحمدك على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التى من جملتها توفيقنا لهذه العبادة فالتسبيح لاظهار صفات الجلال والحمد لتذكير صفات الانعام واللام فى لك إما مزيدة والمعنى نقدسك . وإما صلة للفعل كما فى سجدت لله . وإما للبيان كما فى سقيالك فتكون متعلقة بمحذوف أى نقدس تقديسا لك أى نصفك بما يليق بك من العلو والعزة وننزهك عما لا يليق بك . وقيل المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لاجلك كأنهم قابلوا الفساد الذى أعظمه الاشراك بالتسبيح وسفك الدماء الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم بتطهير النفس عن الآثام لا تمدحا بذلك ولا اظهارا للمنة بل بيانا للواقع (قال) استئناف كما سبق (انى أعلم ما لا تعلمون) ليس المراد به بيان انه تعالى يعلم ما لا يعلمونه من الاشياء كائنا ما كان فان ذلك مما لاشبهة لهم فيه حتى يفتقروا الى التنبيه عليه لاسيما بطريق التوكيد بل بيان أن فيه عليه السلام معانى مستدعية لاستخلافه اذ هو الذى خفى عليهم وبنوا عليه مابنوا من التعجب والاستبعاد فما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن تلك المعانى والمعنى انى أعلم مالا تعلمونه من دواعى الخلافة فيه وانما لم يقتصر على بيان تحققها فيه عليه السلام بأن قيل مثلا ان فيه ما يقتضيه من غير تعرض لاحاطته تعالى به وغفلتهم عنه تفخيما لشأنه وايذانا بابتناء أمره تعالى على العلم الرصين والحكمة المتقنة وصدور قولهم عن الغفلة وقيل معناه انى أعلم من المصالح فى استخلافه ماهو خفى عليكم وان هذا ارشاد للملائكة الى العلم بأن أفعاله تعالى كلها حسنة وحكمة وان خفى عليهم وجه الحسن والحكمة . وأنت خبير بأنه مشعر بكونهم غير عالمين بذلك من قبل ويكون تعجبهم مبنيا على ترددهم فى اشتمال هذا الفعل

لحكمة ما وذلك مما لا يليق بشأنهم فانهم عالمون بأن ذلك متضمن لحكمة ما ولكنهم مترددون فى انها ماذا هل هو أمر راجع الى محض حكم الله عز وجل أو الى فضيلة من جهة المستخلف فبين سبحانه وتعالى لهم أولا على وجه الاجمال والابهام أن فيه فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا اليها ثم أبرز لهم طرفا منها ليعاينوه جهرة ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته ويزاح شبهتهم بالكلية (وعلم آدم الاسماء كلها) شروع فى تفصيل ما جرى بعد الجواب الاجمالى تحقيقا لمضمونه وتفسير الابهامه وهو عطف على قال. والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن مامر من المقاولة المحكية انما جرت بعد خلقه عليه السلام بمحضر منه وهو الانسب بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام بان قيل اثر نفخ الروح فيه انى جاعل اياه خليفة فقيل ماقيل كما أشير اليه. وايراده عليه السلام باسمه العلمى لزيادة تعيين المراد بالخليفة ولان ذكره بعنوان الخلافة لايلائم مقام تمهيد مباديها وهو اسم أعجمى والاقرب أن وزنه فاعل كشالخ وعاذر وعابر وفالغ لاأفعل والتصدى لاشتقاقه من الادمة أو الادمة بالفتح بمعنى الاسوة أو من أديم الارض بناء على ماروى عنه صلى الله عليه وسلم «من انه تعالى قبض قبضة من جميع الارض سهلها وحزنها فخلق منها آدم ولذلك اختلفت ألوان ذريته» أو من الادم والادمة بمعنى الالفة تعسف كاشتقاق ادريس من الدرس ويعقوب من العقب وابليس من الابلاس. والاسم باعتبار الاشتقاق مايكون علامة للشيء ودليلا يرفعه الى الذهن من الالفاظ والصفات والافعال واستعماله عرفا فى اللفظ الموضوع لمعنى مفردا كان أو مركبا مخبرا عنه أو خبرا أو رابطة بينهما واصطلاحا فى المفرد الدال على معنى فى نفسه غير مقترن بالزمان. والمراد ههنا اما الاول أو الثانى وهو مستلزم للاول اذ العلم بالالفاظ من حيث الدلالة على المعانى مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة عن فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه ولا يحصل ذلك بمجرد افاضة المعلم بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته كما مر فى تفسير الهدى وهو السر فى ايثاره على الاعلام والانباء فانهما انما يتوقفان على سماع الخبر الذى يشترك فيه البشر والملك وبه تظهر أحقيته بالخلافة منهم عليهم السلام لما ان جبلتهم غير مستعدة للاحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية خبرا فمعنى تعليمه تعالى اياه أن يخلق فيه اذ ذاك بموجب استعداده علما ضروريا تفصيليا باسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منها أو يلقى فى روعه تفصيلا ان هذا فرس وشأنه كيت وكيت وذاك بعير وحاله ذيت وذيت الى غير ذلك من أحوال الموجودات فيتلقاها عليه السلام حسبما يقتضيه استعداده ويستدعيه قابليته المتفرعة على فطرته المنطوية على

طبائع متباينة وقوى متخالفة وعناصر متغايرة قال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم علمه أسماء جميع الاشياء حتى القصعة والقصيعة وحتى الجفنة والمحلب وأنحى منفعة كل شيء الى جنسه. وقيل أسماء ما كان وماسيكون الى يوم القيامة وقيل معنى قوله تعالى وعلم آدم الاسماء خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعدا لادراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات وألهمه معرفة ذوات الاشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها فيكون ماص من المقاولة قبل خلقه عليه السلام وقيل التعليم على ظاهره ولكن هناك جملا مطوية عطف عليها المذكور أى فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح وعلمه الخ (ثم عرضهم على الملائكة) الضمير للمسميات المدلول عليها بالاسماء كما فى قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا والتذكير لتغليب العقلاء على غيرهم وقرىء عرضهن وعرضها أى عرض مسمياتهن أو مسمياتها فى الحديث أنه تعالى عرضهم أمثال الذر ولعله عز وجل عرض عليهم من أفراد كل نوع ما يصلح أن يكون انموذجا يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها (فقال أنبؤنى بأسماء هؤلاء) تبكيتا لهم واظهارا لعجزهم عن اقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة فان التصرف والتدبير واقامة المعدلة بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق مما لا يكاد يمكن والانباء اخبار فيه اعلام ولذلك يجرى مجرى كل منهما. والمراد ههنا ما خلا عنه وايثاره على الاخبار للايذان برفعة شأن الاسماء وعظم خطرها فان النبأ انما يطلق على الخبر الخطير والامر العظيم (ان كنتم صادقين) أى فى زعمكم انكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته كما ينبىء عنه مقالكم والتصديق كما يتطرق الى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق اليه باعتبار ما يلزمه من الاخبار فان أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماء مافى الارض. وأما ماقيل من أن المعنى فى زعمكم انى أستخلف فى الارض مفسدين سفاكين للدماء فليس مما يقتضيه المقام. وان أول بأن يقال فى زعمكم أنى أستخلف من غالب أمره الافساد وسفك الدماء من غير أن يكون له مزية من جهة أخرى اذ لا تعلق له بأمرهم بالانباء وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه (قالوا) استئناف واقع موقع الجواب كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ هل خرجوا عن عهدة ما كلفوه أولا فقيل قالوا (سبحانك) قيل هو علم للتسبيح ولا يكاد يستعمل الا مضافا وقد جاء غير مضاف على الشذوذ غير منصرف للتعريف والالف والنون المزيدتين كما فى قوله:

سبحان من علقمة الفاخر ۞ وأما ما فى قوله ۞ سبحانه ثم سبحانا نعود له ۞ فقيل صرفه للضرورة وقيل انه مصدر منكر كغفران لا اسم مصدر ومعناه على الاول نسبحك عما لا يليق بشأنك الاقدس من الامور التى من جملتها خلو أفعالك من الحكم والمصالح وعنوا بذلك تسبيحا ناشئا عن كمال طمأنينة النفس والايقان باشتمال استخلاف آدم عليه السلام على الحكم البالغة وعلى الثانى تنزهت عن ذلك تنزها ناشئا عن ذاتك وأرادوا به أنهم قالوه عن اذعان لما علموا اجمالا بأنه عليه السلام يكلف ما كلفوه وأنه يقدر على ما قد عجزوا عنه مما يتوقف عليه الخلافة وقوله عز وعلا (لا علم لنا الا ما علمتنا) اعتراف منهم بالعجز عما كلفوه اذ معناه لا علم لنا الا ما علمتناه بحسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا ولا قدرة بنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادنا حتى لو كنا مستعدين لذلك لافضته علينا وما فى ما علمتنا موصولة حذف من صلتها عائدها أو مصدرية ولقد نفوا عنهم العلم بالاسماء على وجه المبالغة حيث لم يقتصروا على بيان عدمه بان قالوا مثلا لا علم لنا بها بل جعلوه من جملة مالا يعلمونه وأشعروا بان كونه من تلك الجملة غنى عن البيان (انك أنت العليم) الذى لا يخفى عليه خافية وهذا اشارة الى تحقيقهم لقوله تعالى انى أعلم مالا تعلمون (الحكيم) أى المحكم لمصنوعاته الفاعل لها حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وهو خبر بعد خبر أو صفة للاول وأنت ضمير الفصل لا محل له من الاعراب أوله محل منه مشارك لما قبله كما قاله الفراء أو لما بعده كما قاله الكسائى. وقيل تأكيد للكاف كما فى قولك مررت بك أنت. وقيل مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر ان. وتلك الجملة تعليل لما سبق من قصر علمهم بما علمهم الله تعالى وما يفهم من ذلك من علم آدم عليه السلام بما خفى عليهم فكأنهم قالوا أنت العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما فى الارض من أنواع المخلوقات التى عليها يدور فلك خلافة الحكيم الذى لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالاحكام الواردة على ما فى الارض وبناء أمر الخلافة عليها (قال) استئناف كما سلف (يا آدم أنبئهم) أى أعلمهم أوثر على أنبئنى كما وقع فى أمر الملائكة مع حصول المراد معه أيضا وهو ظهور فضل آدم عليهم السلام ابانة لما بين الامرين من التفاوت الجلى وايذانا بأن علمه عليه السلام بها أمر واضح غير محتاج الى ما يجرى مجرى الامتحان وانه عليه السلام حقيق بأن يعلمها غيره. وقرىء بقلب الهمزة ياء و بحذفها أيضا والهاء مكسورة

فيهما (بأسمائهم) التى عجزوا عن علمها واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها (فلما أنبأهم بأسمائهم) الفاء فصيحة عاطفة للجملة الشرطية على محذوف يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام للايذان بتقرره وغناه عن الذكر وللاشعار بتحققه فى أسرع ما يكون كما فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله سبحانه أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك. واظهار الاسماء فى موقع الاضمار لاظهار كمال العناية بشأنها والايذان بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الاجمال والمعنى فأنبأهم بأسمائهم مفصلة وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد فعلموا ذلك لما رأوا أنه عليه السلام لم يتلعثم فى شىء من التفاصيل التى ذكرها مع مساعدة ما بين الاسماء والمسميات من المناسبات والمشاكلات وغير ذلك من القرائن الموجبة لصدق مقالاته عليه السلام فلما أنبأهم بذلك (قال) عز وجل تقريرا لما مر من الجواب الاجمالى واستحضاراً له (ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض) لكن لا لتقرير نفسه كما فى قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ونظائره بل لتقرير ما يفيده من تحقق دواعى الخلافة فى آدم عليه السلام لظهور مصداقه وايراد مالا يعلمون بعنوان الغيب مضافا الى السموات والارض للمبالغة فى بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته مع الايذان بان ما ظهر من عجزهم وعلم آدم عليه السلام من الامور المتعلقة باهل السموات وأهل الارض وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون فيما سبق ما أشير اليه هناك كأنه قيل ألم أقل لكم انى أعلم فيه من دواعى الخلافة مالا تعلمونه فيه هو هذا الذى عاينتموه وقوله تعالى (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) عطف على جملة ألم أقل لكم لا على أعلم اذ هو غير داخل تحت القول وما فى الموضعين موصولة حذف عائدها أى أعلم ما تبدونه وماتكتمونه وتغيير الاسلوب للايذان باستمرار كتمهم قيل المراد بما يبدون قولهم أتجعل الخ وبما يكتمون استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لا يخلق خلقا أفضل منهم روى «أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة وقالوا ليكن ماشاء فلن يخلق ربنا خلقاً الا كنا أكرم عليه منه» وقيل هو ماأسره ابليس فى نفسه من الكبر وترك السجود فاسناد الكتمان حينئذ الى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد من بينهم. قالوا فى الآية الكريمة دلالة على شرف الانسان ومزية العلم وفضله على العبادة وأن ذلك هو المناط للخلافة وأن التعليم يصح اطلاقه على الله تعالى وان لم يصح اطلاق المعلم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترف به. وأن اللغات توقيفية اذ الاسماء تدل على الالفاظ بخصوص أو بعموم

وتعليمها ظاهر فى القائها على المتعلم مبيناً له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع و ما هو الامن الله تعالى وان مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم والالازم التكرار وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة. والحكماء منعوا ذلك فى الطبقة العليا منهم وحملوا على ذلك قوله تعالى « ومامنا الا له مقام معلوم » وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لانه عليه السلام أعلم منهم وأنه تعالى يعلم الاشياء قبل حدوثها (واذا قلنا للملائكة) عطف على الظرف الاول منصوب بما نصبه من المضمر أو بناصب مستقل معطوف على ناصبه عطف القصة على القصة أى واذكر وقت قولنا لهم وقيل بفعل دل عليه الكلام أى أطاعوا وقت قولنا الخ وقدعرفت مافى أمثاله. وتخصيص هذا القول بالذكر مع كون مقتضى الظاهر ايراده على منهاج ماقبله من الاقوال المحكية المتصلة به للايذان بأن مافى حيزه نعمة جليلة مستقلة حقيقة بالذكر والتذكير على حيالها والالتفات الى التكلم لاظهار الجلالة وتربية المهابة مع مافيه من تأكيد الاستقلال وكذا اظهار الملائكة فى موضع الاضمار والكلام فى اللام وتقديمها مع مجرورها على المفعول كما مر وقرىء بضم تاء الملائكة اتباعا لضم الجيم فى قوله تعالى (اسجدوا لآدم) كما قرىء بكسر الدال فى قوله تعالى الحمد لله اتباعا لكسر اللام وهى لغة ضعيفة « والسجود فى اللغة الخضوع والتطامن. وفى الشرع وضع الجبهة على الارض على قصد العبادة فقيل أمروا بالسجود له عليه السلام على وجه التحية والتكرمة تعظيما له واعترافا بفضله وأداء لحق التعلم واعتذاراً عما وقع منهم فى شأنه. وقيل أمروا بالسجود له تعالى وانما كان آدم قبلة لسجودهم تفخيما لشأنه أو سبباً لوجوبه فكأنه تعالى لما برأه أنموذجا للمبدعات كلها ونسخة منطوية على تعلق العالم الروحانى بالعالم الجسمانى وامتزاجهما على نمط بديع أمرهم بالسجود له تعالى لما عاينوا من عظيم قدرته فاللام فيه كما فى قول حسان رضى الله عنه :

أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعرف الناس بالقرآن والسنن

أوفى قوله تعالى « أقم الصلاة لدلوك الشمس » والاول هو الاظهر وقوله عز وجل (فسجدوا) عطف على قلنا والفاء لافادة مسارعتهم الى الامتثال وعدم تلعثمهم فى ذلك روى عن وهب « أن أول من سجد جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم سائر الملائكة عليهم السلام » وقوله تعالى (الا ابليس) استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغموراً بالوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى فسجدوا ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لان من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما روى عن

ابن عباس رضي الله عنهما وهو منهم أو لأن الجن أيضاً كانوا مأمورين بالسجود له لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم أو منقطع وهو اسم أعجمي ولذلك لم ينصرف. ومن جعله مشتقا من الابلاس وهو الياس قال أنه مشبه بالعجمة حيث لم يسم به أحد فكان كالاسم الاعجمي. واعلم أن الذي تقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة الاعراف من قوله تعالى ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس. الآية والتي في سورة بني اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا . الآية أن سجود الملائكة انما ترتب على الامر التنجيزي الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه البتة كما يلوح به حكاية امتثالهم بعبارة السجود دون الوقوع الذي به ورد الامر التعليقي ولكن ما في سورة الحجر من قوله عز وعلا . واذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون .وما في سورة ص من قوله تعالى اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين الى آخر الآية يستدعيان بظاهرهما ترتبه على ما فيهما من الامر التعليقي من غير أن يتوسط بينهما شيء غير ما يفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه عليه السلام وقد روي عن وهب أنه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير .وتأويل الآيات السابقة بحمل ما فيها من الامر على حكاية الامر التعليقي بعد تحقق المعلق به اجمالا فانه حينئذ يكون في حكم التنجيز يأباه ما في سورة الاعراف من كلمة ثم المنادية بتأخر ورود الامر عن التصوير المتأخر عن الخلق المتأخر عن الامر التعليقي.والاعتذار بحمل التراخي على الرتبي أو التراخي في الاخبار أو بأن الامر التعليقي قبل تحقق المعلق به لما كان في عدم ايجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه انما حدث بعد تحققه فحكي على صورة التنجيز يؤدي بعد اللتيا والتي الى أن ما جرى بينه وبينهم عليهم السلام في شأن الخلافة وما قالوا فيه وما سمعوا انما جرى بعد السجود المسبوق بمعرفة جلالة منزلته عليه السلام.وخروج ابليس من البين باللعن المؤبد لعناده وبعد مشاهدتهم لذلك كله عياناً وهل هو الاخرق لقضية العقل والنقل والالتجاء في التفصي عنه الى تأويل نفخ الروح بحمله على ما يعم افاضة ما به حياة النفوس التي من جملتها تعليم الاسماء تعسف ينبيء عن ضيق المجال فالذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الانيق بعد التصفح في مستودعات الكتاب المكنون والتفحص عما فيه من السر المخزون أن سجودهم له عليه السلام انما ترتب على الامر التنجيزي المتفرع على ظهور فضله عليه السلام المبني على المحاورة المسبوقة بالاخبار

بخلافه المنتظم جميع ذلك فى سلك ما نيط به الامر التعليقى من التسوية ونفخ الروح اذ ليس من قضيته وجوب السجود عقيب نفخ الروح فيه فان الفاء الجزائية ليست بنص فى وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيب وجود الشرط من غير تراخ للقطع بعدم وجوب السعى عقيب النداء لقوله تعالى اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الآية وبعدم وجوب اقامة الصلاة غب الاطمئنان لقوله تعالى فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة بل انما الوجوب عند دخول الوقت كيف لا والحكمة الداعية الى ورود ما نحن فيه من الامر التعليقى أثر ذى أثير انما هى حمل الملائكة عليهم السلام على التأمل فى شأنه عليه السلام ليتدبروا فى أحواله طرا ويحيطوا بما لديه خبراً ويستفهموا ماعسى يستبهم عليهم فى أمره عليه السلام لابتنائه على حكم أبية وأسرار خفية طويت عن علومهم ويقفوا على جلية الحال قبل ورود الامر التنجيزى وتحتم الامتثال وقد قالوا بحسب ذلك ماقالوا وعاينوا ماعاينوا وعدم نظم الامر التنجيزى فى سلك الامور المذكورة فى السورتين عند الحكاية لايستلزم عدم انتظامه فيه عند وقوع المحكى كما ان عدم ذكر الامر التعليقى عند حكاية الامر التنجيزى فى السورة الكريمة المذكورة لايوجب عدم مسبوقيته به فان حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام ليست بعزيزة فى الكتاب العزيز وناهيك بما نقل فى توجيه قوله تعالى بشرا مع عدم سبق معرفة الملائكة عليهم السلام بذلك وحيث صير اليه مع انه لم يرد به نقل فما ظنك بما قد وقع التصريح به فى مواضع عديدة فلعله قد ألقى اليهم ابتداء جميع مايتوقف عليه الامر التنجيزى اجمالا بأن قيل مثلا انى خالق بشرا من كذا وكذا وجاعل اياه خليفة فى الارض فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وتبين لكم شأنه فقعوا له ساجدين فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح فقالوا عند ذلك ماقالوا. أو ألقى اليهم خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المعدودة بأن قيل اثر نفخ الروح فيه انى جاعل هذا خليفة فى الارض فهنالك ذكروا فى حقه عليه السلام ماذكروا فايده الله عز وجل بتعليم الاسماء فشاهدوا منه ماشاهدوا فعند ذلك ورد الامر التنجيزى اعتناء بشأن المأمور به وتعيينا لوقته. وقد حكى بعض الامور فى بعض المواطن وبعضها فى بعضها اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى موطن آخر والذى يحسم مادة الاشتباه ان مافى سورة ص من قوله تعالى اذ قال ربك للملائكة الخ بدل من قوله تعالى

اذ يختصمون فيما قبله من قوله تعالى ما كان لى من علم بالملأ الا على اذ يختصمون أى بكلامهم عند اختصامهم. و المراد بالملأ الاعلى الملائكة و آدم عليهم السلام وابليس حسبما أطبق عليه جمهور الامة و باختصامهم ماجرى بينهم فى شأن خلافة آدم عليه السلام من التقاول الذى من جملته ماصدر عنه عليه السلام من الانباء بالاسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور فى تضاعيف ماذكر فيه تفصيلا من الامر التعليقى وما علق به من الخلق و التسوية ونفخ الروح فيه و ما ترتب عليه من سجود الملائكة عليهم السلام و عناد ابليس و ما تبعه من لعنه و اخراجه من بين الملائكة و ما جرى بعده من الافعال والاقوال و اذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة ابليس المستتبعة لطرده من بينهم لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة استحالة الانباء بالاسماء حينئذ فهو اذن بعد نفخ الروح و قبل السجود حتما باحد الطريقين و الله سبحانه أعلم بحقيقة الامر (أبى و استكبر) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء و انه لم يكن للتردد أو للتأمل و الاباء الامتناع بالاختيار و التكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره و الاستكبار طلب ذلك بالتشبع أى امتنع عما أمر به واستكبر من ان يعظمه أو يتخذه وصلة فى عبادة ربه. و تقديم الاباء على الاستكبار مع كونه مسبباً عنه لظهوره ووضوح أثره واقتصر فى سورة ص على ذكر الاستكبار اكتفاء به و فى سورة الحجر على ذكر الاباء حيث قيل أبى أن يكون مع الساجدين (وكان من الكافرين) أى فى علم الله تعالى اذ كان أصله من كفرة الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه فالجملة اعتراضية مقررة لما سبق من الاباء والاستكبار أو صار منهم باستقباح أمره تعالى اياه بالسجود لآدم عليه السلام زعما منه أنه أفضل منه و الافضل لايحسن أن يؤمر بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله أنا خير منه حين قيل له مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين لا بترك الواجب وحده فالجملة معطوفة على ماقبلها. و ايثار الواو على الفاء للدلالة على أن محض الاباء و الاستكبار كفر لانهما سببان له كما تفيده الفاء (وقلنا) شروع فى حكاية ماجرى بينه تعالى و بين آدم عليه السلام بعد تمام ماجرى بينه تعالى و بين الملائكة و ابليس من الاقوال و الافعال و قد تركت حكاية توبيخ ابليس و جوابه و لعنه واستنظاره وانظاره اجتزاء بما فصل فى سائر السور

الكريمة و هو عطف على قلنا للملائكة و لا يقدح فى ذلك اختلاف وقتيهما فان المراد بالزمان المدلول عليه بكلمة اذ زمان ممتد واسع للقولين . وقيل هو عطف على اذ قلنا باضمار اذ و هذا تذكير لنعمة أخرى موجبة للشكر مانعة من الكفر وتصدير الكلام بالنداء فى قوله تعالى (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به. وتخصيص أصل الخطاب به عليه السلام للايذان باصالته فى مباشرة المأمور به واسكن من السكنى وهو اللبث والاقامة والاستقرار دون السكون الذى هو ضد الحركة و أنت ضمير أكدبه المستكن ليصح العطف عليه . و اختلف فى وقت خلق زوجه فذكر السدى عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ان الله تعالى لما أخرج ابليس من الجنة وأسكنها آدم بقى فيها وحده وما كان معه من يستأنس به فالقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعاً من جانبه الايسر ووضع مكانه لحما وخلق حواء منه فلما استيقظ و جدها عند رأسه قاعدة فسألها ما أنت قالت امرأة قال ولم خلقت قالت لتسكن الى فقالت الملائكة تجربة لعلمه: من هذه قال امرأة قالوا لم سميت امرأة قال لانها من المرء أخذت فقالوا ما اسمها قال حواء قالوا لم سميت حواء قال لانها خلقت من شىء حى و روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال بعث الله تعالى جندا من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما يحمل الملوك ولباسهما النور حتى أدخلوهما الجنة وهذا كما ترى يدل على خلقها قبل دخول الجنة والمراد بها دار الثواب لانها المعهودة وقيل هي جنة بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خلقها الله تعالى امتحانا لآدم عليه السلام وحمل الاهباط على النقل منها الى أرض الهند كما فى قوله تعالى اهبطوا مصرا لما أن خلقه عليه السلام كان فى الارض بلاخلاف ولم يذكر فى هذه القصة رفعه الى السماء ولو رفع ذلك لكان أولى بالذكر . والتذكير لما أنه من أعظم النعم ولانها لو كانت دار الخلد لما دخلها ابليس. وقيل انها كانت فى السماء السابعة بدليل اهبطوا ثم ان الاهباط الاول كان منها الى السماء الدنيا. والثانى منها الى الارض وقيل الكل ممكن والادلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع (وكلا منها) أى من ثمارها. وأما وجه الخطاب اليهما تعميما للتشريف والترفيه ومبالغة فى إزالة العلل والاعذار و إيذانا بتساويهما فى مباشرة المأمور به فان حواء اسوة له عليه السلام فى الاكل بخلاف السكنى فانها تابعة له فيه (رغدا) صفة للمصدر المؤكد أى أكلا واسعا رافها (حيث شئتما) أى أى مكان أردتما منها وهذا كما ترى اطلاق كلى حيث أبيح لهما الاكل منها

على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يخطر عليهما بعض الاكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات حتى لا يبقى لهما عذر فى تناول ما منعا منه بقوله تعالى (ولا تقربا) بفتح الراء من قربت الشيء بالكسر أقربه بالفتح اذا التبست به وتعرضت له وقال الجوهرى قرب بالضم يقرب قربا اذا دنا وقربته بالكسر قربانا دنوت منه (هذه الشجرة) نصب على أنه بدل من اسم الاشارة أو نعت له بتأويلها بمشتق أى هذه الحاضرة من الشجرة أى لا تأكلا منها .وانما علق النهى بالقربان منها مبالغة فى تحريم الاكل ووجوب الاجتناب عنه. والمراد بها الحنطة أو العنبة أو التينة. وقيل هى شجرة من أكل منها أحدث والاولى عدم تعيينها من غير قاطع .وقرىء هذى بالياء وبكسر شين الشجرة وتاء تقربا وقرىء الشيرة بكسر الشين وفتح الياء (فتكونا من الظالمين) مجزوم على أنه معطوف على تقربا أو منصوب على أنه جواب للنهى وايا ما كان فالقرب أى الاكل منها سبب بكونهما من الظالمين أى الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية أو نقصوا حظوظهم بمباشرة ما يخل بالكرامة والنعيم أو تعدوا حدود الله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها) أى أصدر زلتهما أى زلقهما وحملهما على الزلة بسببها ونظيره عن هذه ما فى قوله تعالى وما فعلته عن أمرى .أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما وأبعدهما عنها يقال زل عن كذا اذا ذهب عنك ويعضده قراءة أزالهما وهما متقاربان فى المعنى فان الازلال أى الازلاق يقتضى زوال الزال عن موضعه البتة .وازلاله قوله لهما :هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى .وقوله :ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ومقاسمته لهما انى لكما لمن الناصحين .وهذه الآيات مشعرة بأنه عليه السلام لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الارض الى حين البعث اليها .واختلف فى كيفية توصله اليهما بعد ما قيل له أخرج منها فانك رجيم فقيل انه انما منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة عليهم السلام ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء .وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة وقيل دخل فى فم الحية فدخل معها وقيل أرسل بعض اتباعه فازلهما والعلم عند الله سبحانه (فاخرجهما مما كانا فيه) أى من الجنة ان كان ضمير عنها للشجرة والتعبير عنها بذلك للايذان بفخامتها وجلالتها وملابستهما له أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه أو من الكرامة والنعيم ان كان الضمير للجنة (وقلنا اهبطوا) الخطاب لآدم وحواء عليهما السلام بدليل قوله تعالى :قال اهبطا منها جميعا. وجمع الضمير لانهما أصل الجنس فكأنهما الجنس كلهم

وقيل لهما وللحية وابليس على أنه أخرج منها ثانيا بعد ما كان يدخلها للوسوسة أو يدخلها مسارقة أواهبط من السماء. وقرئ بضم الباء (بعضكم لبعض عدو) حال استغنى فيها عن الواو بالضمير أي متعادين يبغي بعضكم على بعض بتضليله. أو استئناف لا محل له من الاعراب وافراد العدو اماللنظر الى لفظ البعض واما لان وزانه وزان المصدر كالقبول (ولكم فى الارض) التى هى محل الاهباط والظرف متعلق بما تعلق به الخبر أعنى لكم من الاستقرار (مستقر) أى استقرار أو موضع استقرار (ومتاع) أى تمتع بالعيش وانتفاع به (الى حين) هو حين الموت على ان المغيا تمتع كل فرد من المخاطبين. أو القيامة على انه تمتع الجنس فى ضمن بعض الافراد والجملة كما قبلها فى كونها حالا أى مستحقين للاستقرار والتمتع أو استئنافا (فتلقى آدم من ربه كلمات) أى استقبلها بالاخذ والقبول والعمل بها حين علمها ووفق لها. وقرىء بنصب آدم ورفع كلمات دلالة على انها استقبلته وبلغته وهى قوله تعالى: ربنا ظلمنا أنفسنا: الآية. وقيل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا آله الا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب الا أنت. وعن ابن عباس رضى الله عنهما «قال يارب ألم تخلقنى بيدك قال بلى قال يارب ألم تنفخ فى من روحك قال بلى قال يارب ألم تسبق رحمتك غضبك قال بلى قال ألم تسكنى جنتك قال بلى قال يارب ان تبت وأصلحت راجعى أنت الى الجنة قال نعم» والفاء للدلالة على ان التوبة حصلت عقيب الامر بالهبوط قبل تحقق المأمور به. والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليه عليه السلام للتشريف والايذان بعليته لالقاء الكلمات المدلول عليه بتلقيها (فتاب عليه) أى رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة. والفاء للدلالة على ترتبه على تلقى الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التى هى عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود اليه واكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له فى الحكم ولذلك طوى ذكر النساء فى أكثر مواقع الكتاب والسنة (انه هو التواب) أى الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذى يكثر اعانتهم على التوبة. وأصل التوب الرجوع فاذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية واذا وصف به البارى عز وعلا أريد به الرجوع عن العقاب الى المغفرة (الرحيم) المبالغ فى الرحمة. وفى الجمع بين الوصفين وعد بليغ للتائب بالاحسان مع العفو والغفران والجملة تعليل لقوله تعالى فتاب عليه (قلنا) استئناف مبنى على سؤال ينسحب عليه الكلام كانه قيل فماذا وقع بعد قبول توبته فقيل قلنا (اهبطوا منها جميعا) كرر الامر بالهبوط ايذانا بتحتم مقتضاه وتحققه لامحالة ودفعا لما عسى يقع فى أمنيته عليه السلام من استتباع قبول

التوبة للعفو عن ذلك واظهار النوع رأفة به عليه السلام لما بين الامرين من الفرق النير كيف لا والاول مشوب بضرب سخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لايخلدون فيها والثانى مقرون بوعد ايتاء الهدى المؤدى إلى النجاة والنجاح. وأما مافيه من وعيد العقاب فليس بمقصود من التكليف قصدا أوليا بل انما هو دائر على سوء اختيار المكلفين. قيل وفيه تنبيه على أن الحازم يكفيه فى الردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافة الاهباط المقترن باحد هذين الامرين فكيف بالمقترن بهما فتأمل. وقيل الاول من الجنة الى السماء الدنيا والثانى منها الى الارض ويأباه التعرض لاستقرارهم فى الارض فى الاول ورجوع الضمير الى الجنة فى الثانى. وجميعا حال فى اللفظ وتأكيد فى المعنى كأنه قيل اهبطوا أنتم أجمعون ولذلك لايستدعى الاجتماع على الهبوط فى زمان واحد كما فى قولك جاءوا جميعا بخلاف قولك جاءوا معا (فاما يأتينكم منى هدى) الفاء لترتيب مابعدها على الهبوط المفهوم من الامر به. واما مركبة من أن الشرطية وما المزيدة المؤكدة لمعناها والفعل فى محل الجزم بالشرط لانه مبنى لاتصاله بنون التأكيد وقيل معرب مطلقا والصحيح التفصيل ان باشرته النون بنى والا أعرب نحو هل يقومان. وتقديم الظرف على الفاعل لمامر غير مرة والمعنى ان يأتينكم منى هدى برسول أبعثه اليكم وكتاب أنزله عليكم وجواب الشرط قوله تعالى (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) كما فى قولك ان جئتنى فان قدرت أحسنت اليك وايراد كلمة الشك مع تحقق الاتيان لامحالة للايذان بأن الايمان بالله والتوحيد لايشترط فيه بعثة الرسل وانزال الكتب بل يكفى فى وجوبه افاضة العقل ونصب الادلة الآفاقية والانفسية والتمكين من النظر والاستدلال أو للجرى على سنن العظماء فى ايراد عسى ولعل فى مواقع القطع والجزم والمعنى أن من تبع هداى منكم فلا خوف عليهم فى الدارين من لحوق مكروه ولاهم يحزنون من فوات مطلوب أى لايعتريهم ذلك لكنهم لايخافون ولا يحزنون ولا انه لايعتريهم نفس الخوف والحزن أصلا بل يستمرون على السرور والنشاط كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى اقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين. والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يتوهم من كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام. واظهار الهدى مضافا الى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيد وجود اتباعه أو لان المراد بالثانى ماهو أعم من الهدايات التشريعية وماذكر من افاضة العقل ونصب الادلة الآفاقية والانفسية

كما قيل. وقرىء هدى على لغة هذيل ولاخوف بالفتح (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) عطف على من تبع الخ قسيم له كأنه قيل ومن لم يتبعه. وانما أوثر عليه ماذكر تفظيعا لحال الضلالة واظهاراً لكمال قبحها، وإيراد الموصول بصيغة الجمع للاشعار بكثرة الكفرة. والجمع بين الكفر والتكذيب للايذان بتنوع الهدى الى ماذكر من النوعين. وإيراد نون العظمة لتربية المهابة وادخال الروعة. واضافة الآيات اليها لاظهار كمال قبح التكذيب بها أى والذين كفروا برسلنا المرسلة اليهم وكذبوا بآياتنا المنزلة عليهم. وقيل المعنى كفروا بالله وكذبوا بآياته التى أنزلها على الأنبياء عليهم السلام أو أظهرها بأيديهم من المعجزات وقيل كفروا بالآيات جنانا وكذبوا بها لسانا فيكون كلا الفعلين متوجها الى الجار والمجرور والآية فى الاصل العلامة الظاهرة قال النابغة:

توهمت آيات لها فعرفتها ✻ لستة أعوام وذا العام سابع

ويقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى وعلمه وقدرته ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل لانها علامة لانفصال ماقبلها مما بعدها وقيل لأنها تجمع كلمات منه فيكون من قولهم خرج بنو فلان بآيتهم أى بجماعتهم قال:

خرجنا من البيتين لا حى مثلنا ✻ بآيتنا نزجى النعاج المطافلا

واشتقاقها من أى لانها تبين أيا من أى أو من أوى اليه أى رجع وأصلها أوية أو أية فأبدلت عينها ألفا على غير قياس أو أوية أو أيية كرمكة فأعلت أو آئية كقائلة فحذفت الهمزة تخفيفا (أولئك) إشارة الى الموصوف باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وفيه اشعار بتميزهم بذلك الوصف تميزاً مصححا للاشارة الحسية ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فيه وهو مبتدأ وقوله عز وجل (أصحاب النار) أى ملازموها وملابسوها بحيث لايفارقونها خبره والجملة خبر للموصول أو اسم الاشارة بدل من الموصول أو عطف بيان له وأصحاب النار خبر له وقوله تعالى (هم فيها خالدون) فى حيز النصب على الحالية لورود التصريح به فى قوله تعالى أصحاب النار خالدين فيها. وقد جوز كونه حالا من النار لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الاضافة أو اللام المقدرة أو فى محل الرفع على أنه خبر آخر لأولئك على رأى من جوز وقوع الجملة خبراً ثانيا وفيها متعلق بخالدون والخلود فى الاصل المكث الطويل وقد انعقد الاجماع على أن المراد به الدوام (يابنى اسرائيل) تلوين للخطاب وتوجيه له الى طائفة خاصة من الكفرة المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم لتذكيرهم بفنون النعم الفائضة عليهم بعد توجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره بتذكيركلهم بالنعمة العامة لبنى آدم قاطبة بقوله تعالى: واذقال

ربك الخ واذ قلنا للملائكة الخ لان المعنى كما أشير اليه بلغهم كلامى واذكر لهم اذ جعلنا أباهم خليفة فى الارض ومسجوداً للملائكة عليهم السلام وشرفناه بتعليم الاسماء وقبلنا توبته . والابن من البناء لانه مبنى أبيه ولذلك ينسب المصنوع الى صانعه فيقال أبو الحرب وبنت فكر . واسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية صفوة الله وقيل عبد الله وقرىء اسرائل بحذف الياء واسرال بحذفهما واسرايل بقلب الهمزة ياء واسراءل بهمزة مفتوحة واسرئل بهمزة مكسورة بين الراء واللام . وتخصيص هذه الطائفة بالذكر والتذكير لما أنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفرا بها (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) بالتفكير فيها والقيام بشكرها . وفيه أشعار بأنهم قد نسوها بالكلية ولم يخطروها بالبال لا أنهم أهملوا شكرها فقط . واضافة النعمة الى ضمير الجلالة لتشريفها وايجاب تخصيص شكرها به تعالى . وتقييد النعمة بهم لما أن الانسان مجبول على حب النعمة فاذا نظر الى ما فاض عليه من النعم حمله ذلك على الرضا والشكر قيل أريد بها ما أنعم به على آبائهم من النعم التى سيجىء تفصيلها وعليهم من فنون النعم التى أجلها ادراك عصر النبى عليه السلام وقرىء اذكروا من الافتعال ونعمتى باسكان الياء واسقاطها فى الدرج وهو مذهب من لا يحرك الياء المكسور ما قبلها (وأوفوا بعهدى) بالايمان والطاعة (أوف بعهدكم) بحسن الاثابة . والعهد يضاف الى كل واحد ممن يتولى طرفيه ولعل الاول مضاف الى الفاعل والثانى الى المفعول فانه تعالى عهد اليهم بالايمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وارسال الرسل وانزال الكتب ووعد لهم بالثواب على حسناتهم وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتبه منا هو الاتيان بكلمتى الشهادة ومن الله تعالى حقن الدماء والاموال وآخرها منا الاستغراق فى بحر التوحيد بحيث نغفل عن أنفسنا فضلا عن غيرنا ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم . وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أوفوا بعهدى فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم أوف بعهدكم فى رفع الآصار والاغلال وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم فبالنظر الى الوسائط . وقيل كلاهما مضاف الى المفعول والمعنى أوفوا بما عاهدتمونى من الايمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الاثابة وتفصيل العهدين قوله تعالى . ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل الى قوله ولادخلنكم جنات الخ وقرىء أوف بالتشديد للمبالغة والتأكيد (واياى فارهبون) فيما تأتون وما تذرون خصوصاً فى نقض العهد وهو آكد فى افادة التخصيص من اياك نعبد

لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول و الفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل ان كنتم راهبين شيئاً فارهبونى والرهبة خوف معه تحرز والآية متضمنة للوعد والوعيد ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وأن المؤمن ينبغى أن لا يخاف الا الله تعالى (وآمنوا بما أنزلت) أفرد الايمان بالقرآن بالأمر به لما أنه العمدة القصوى فى شأن الوفاء بالعهود (مصدقا لما معكم) من التوراة والتعبير عنها بذلك للايذان بعلمهم بتصديقه لها فان المعية مئنة لتكرر المراجعة اليها والوقوف على ما فى تضاعيفها المؤدى الى العلم بكونه مصدقا لها .ومعنى تصديقه للتوراة أنه نازل حسبما نعت فيها أو من حيث انه موافق لها فى القصص والمواعيد والدعوة الى التوحيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش .وأما ما يتراءى من مخالفته لها فى بعض جزئيات الأحكام المتفاوتة بسبب تفاوت الأعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى موافقة لها من حيث ان كلا منها حق بالاضافة الى عصره وزمانه متضمن للحكم التى عليها يدور فلك التشريع . وليس فى التوراة دلالة على أبدية أحكامها المنسوخة حتى يخالفها ما ينسخها وانما تدل على مشروعيتها مطلقاً من غير تعرض لبقائها وزوالها بل نقول هى ناطقة بنسخ تلك الأحكام فان نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها فاذن مناط المخالفة فى الأحكام المنسوخة انما هو اختلاف العصر حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعاً ولذلك قال عليه السلام « لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعى » وتقييد المنزل بكونه مصدقا لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر فان إيمانهم بما معهم مما يقتضى الايمان بما يصدقه قطعاً (ولا تكونوا أول كافر به) أى لا تسارعوا الى الكفر به فان وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به لما أنكم تعرفون شأنه وحقيته بطريق التلقى مما معكم من الكتب الالهية كما تعرفون أبناءكم وقد كنتم تستفتحون به وتبشرون بزمانه كما سيجىء فلا تضعوا موضع ما يتوقع منكم ويجب عليكم مالا يتوهم صدوره عنكم من كونكم أول كافر به . ووقوع أول كافر به خبرا من ضمير الجمع بتأويل أول فريق أو فوج أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به كقولك كسانا حلة .ونهيهم عن التقدم فى الكفر به مع أن مشركى العرب أقدم منهم لما أن المراد به التعريض لا الدلالة على ما نطق به الظاهر كقولك أما أنا فلست بجاهل لان المراد نهيهم عن كونهم أول كافر به من أهل الكتاب أو ممن كفر بما عنده فان من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركى مكة وأول افعل لا فعل له وقيل أصله أوأل من وأل إليه اذا

نجا وخلص فأبدلت الهمزة واوا تخفيفا غير قياسى . أو أ أول من آل فقلبت همزته واوا وأدغمت (ولا تشتروا بآياتى) أى لا تأخذوا لأنفسكم بدلا منها (ثمنا قليلا) من الحظوظ الدنيوية فانها وان جلت قليلة مسترذلة بالنسبة إلى ما فات عنهم من حظوظ الآخرة بترك الايمان . قيل كانت لهم رياسة فى قومهم ورسوم وهدايا فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختاروها على الايمان . وانما عبر عن المشترى الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصود فيها بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة فيها وقرنت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون بالباء التى تصحب الوسائل ايذاناً بتعكيسهم حيث جعلوا ماهو المقصد الاصلى وسيلة والوسيلة مقصداً (واياى فاتقون) بالايمان واتباع الحق والاعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ماهو كالمبادى لما فى الآية الثانية فصلت بالرهبة التى هى من مقدمات التقوى . أولان الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين . وأما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذى هو المنتهى (ولاتلبسوا الحق بالباطل) عطف على ماقبله واللبس الخلط وقد يلزمه الاشتباه بين المختلطين والمعنى لاتخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى يخترعونه وتكتبونه حتى يشتبه أحدهما بالآخر أو لاتجعلوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذى تكتبونه فى تضاعيفه أو تذكرونه فى تأويله (وتكتموا الحق) مجزوم داخل تحت حكم النهى كأنهم أمروا بالايمان وترك الضلال ونهوا عن الاضلال بالتلبيس على من سمع الحق والاخفاء عمن لم يسمعه أومنصوب باضمار أن على أن الواو للجمع أى لاتجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانه ويعضده أنه فى مصحف ابن مسعود وتكتمون أى وأنتم تكتمون أى كاتمين وفيه اشعار بان استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق . وتكرير الحق اما لان المراد بالاخير ليس عين الاول بل هو نعت النبى صلى الله عليه وسلم الذى كتموه وكتبوا مكانه غيره كما سيجئ فى قوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم واما لزيادة تقبيح المنهى عنه اذ فى التصريح باسم الحق ماليس فى ضميره (وأنتم تعلمون) أى حال كونكم عالمين بانكم لابسون كاتمون أو وأنتم تعلمون أنه حق أو وأنتم من أهل العلم وليس ايراد الحال لتقييد النهى به كما فى قوله تعالى لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى بل لزيادة تقبيح حالهم اذ الجاهل عسى يعذر (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى صلاة المسلمين وزكاتهم فان غيرهما بمعزل من كونه صلاة وزكاة . أمرهم الله تعالى بفروع الاسلام بعد الامر باصوله (واركعوا مع الراكعين) أى فى جماعتهم فان صلاة الجماعة

تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة وعبر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود. وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الاضبط بن قريع السعدى:

لاتحقرن الضعيف علك أن ... تركع يوما والدهر قد رفعه

(أتأمرون الناس بالبر) تجريد للخطاب وتوجيه له الى بعضهم بعد توجيهه الى الكل والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب والبر التوسع فى الخير من البر الذى هو الفضاء الواسع يتناول جميع أصناف الخيرات ولذلك قيل البر ثلاثة بر فى عبادة الله تعالى. وبر فى مراعاة الاقارب. وبر فى معاملة الاجانب (وتنسون أنفسكم) أى تتركونها من البر كالمنسيات عن ابن عباس رضى الله عنهما «أنها نزلت فى أحبار المدينة كانوا يأمرون سراً من نصحوه باتباع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه طمعا فى الهداية والصلات التى كانت تصل اليهم من اتباعهم » وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون وقال السدى انهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية وقال ابن جريج كانوا يأمرون الناس بالصلاة والزكاة وهم يتركونهما ومدار الانكار والتوبيخ هى الجملة المعطوفة دون ماعطفت هى عليه (وأنتم تتلون الكتاب) تبكيت لهم وتقريع كقوله تعالى وأنتم تعلمون. أى والحال انكم تتلون التوراة الناطقة بنعوته صلى الله عليه وسلم الآمرة بالايمان به أو بالوعد بفعل الخير والوعيد على الفساد والعناد وترك البر ومخالفة القول العمل (أفلا تعقلون) أى أتتلونه فلا تعقلون مافيه أو قبح ماتصنعون حتى ترتدعوا عنه فالانكار متوجه الى عدم العقل بعد تحقق مايوجبه فالمبالغة من حيث الكيف أو ألا تتأملون فلا تعقلون فالانكار متوجه الى كلا الامرين والمبالغة حينئذ من حيث الكم. والعقل فى الاصل المنع والامساك ومنه العقال الذى يشد به وظيف البعير الى ذراعه لحبسه عن الحراك سمى به النور الروحانى الذى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية لانه يحبسه عن تعاطى مايقبح ويعقله على مايحسن. والآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره وان فعله فعل الجاهل بالشرع أو الاحمق الخالى عن العقل والمراد بها كما أشير اليه حثه على تزكية النفس والاقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتقيم غيرها لامنع الفاسق عن الوعظ. يروى أنه كان عالم من العلماء مؤثر الكلام قوى التصرف فى القلوب وكان كثيرا مايموت من أهل مجلسه واحد أو اثنان من شدة تأثير وعظه وكان

فى بلده عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحترز عليه وتمنعه من حضور مجالس الواعظ فحضره يوما على حين غفلة منها فوقع من أمر الله تعالى ماوقع ثم أن العجوز لقيت الواعظ يوما فى الطريق فقالت :

لتهدى الانام ولا تهتدى ❊ ألا أن ذلك لاينفع
فياحجر الشحذ حتى متى ❊ تسن الحديد ولا تقطع

فلما سمعه الواعظ شهق شهقة فخر من فرسه مغشيا عليه فحملوه الى بيته فتوفى الى رحمة الله سبحانه (واستعينوا بالصبر والصلاة) متصل بما قبله كأنهم لما كلفوا مافيه مشقة من ترك الرياسة والاعراض عن المال عولجوا بذلك والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلا على الله تعالى. أو بالصوم الذى هو الصبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس والتوسل بالصلاة والالتجاء اليها فانها جامعة لانواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه الى الكعبة والعكوف على العبادة واظهار الخشوع بالجوارح واخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم بالشهادة وكف النفس عن الاطيبين حتى تجابوا الى تحصيل المآرب وجبر المصائب. روى انه عليه السلام «كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة» ويجوز. أن يراد بها الدعاء (وانها) أى الاستعانة بهما أو الصلاة. وتخصيصها برد الضمير اليها لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر كما فى قوله تعالى «واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها» أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها (لكبيرة) لثقيلة شاقة كقوله تعالى كبر على المشركين ماتدعوهم اليه (الا على الخاشعين) الخشوع الاخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة. والخضوع اللين والانقياد ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب. وانما لم تثقل عليهم لانهم يتوقعون ما أعدلهم بمقابلتها فتهون عليهم ولانهم يستغرقون فى مناجاة ربهم فلا يدركون ما يجرى عليهم من المشاق والمتاعب ولذلك قال عليه السلام «وقرة عينى فى الصلاة» والجملة حالية أو اعتراض تذييلى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون) أى يتوقعون لقاءه تعالى ونيل ماعنده من المثوبات. والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليهم للايذان بفيضان احسانه اليهم أو يتيقنون أنهم يحشرون اليه للجزاء فيعملون على حسب ذلك رغبة ورهبة وأما الذين لا يوقنون بالجزاء ولا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب كانت عليهم مشقة خالصة فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين فالتعرض للعنوان المذكور للاشعار بعلية

الربوبية والمالكية للحكم ويؤيده أن فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه يعلمون وكأن الظن لما شابه العلم فى الرجحان أطلق عليه لتضمين معنى التوقع قال:

فارسلته مستيقن الظن أنه ❊ مخالط مابين الشراسيف جائف

وجعل خبران فى الموضعين اسما للدلالة على تحقق اللقاء والرجوع وتقررهما عندهم (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) كرر التذكير للتأكيد ولربط مابعده من الوعيد الشديد به (وانى فضلتكم) عطف على نعمتى عطف الخاص على العام لكماله أى فضلت آباءكم (على العالمين) أى عالمى زمانهم بما منحتهم من العلم والايمان والعمل الصالح وجعلتهم أنبياء وملوكا مقسطين وهم آباؤهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا (واتقوا يوما) أى حساب يوم أو عذاب يوم (لاتجزى نفس عن نفس شيئاً) أى لاتقضى عنها شيئاً من الحقوق فانتصاب شيئاً على المفعولية أو شيئا من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية. وقرئ لاتجزئ أى لاتغنى عنها فيتعين النصب على المصدرية. وايراده منكرا مع تنكير النفس للتعميم والاقناط الكلى والجملة صفة يوما والعائد منها محذوف أى لاتجزى فيه ومن لم يجوز الحذف قال اتسع فيه فحذف الجار وأجرى المجرور مجرى المفعول به ثم حذف كما حذف فى قول من قال:

فما أدرى أغيرهم تناء ❊ وطول العهد أم مال أصابوا

أى أصابوه (ولا تقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل) أى من النفس الثانية العاصية أو من الاولى والشفاعة من الشفع كان المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والعدل الفدية وقيل البدل وأصله التسوية سمى به الفدية لانها تساوى المفدى وتجزى مجزاه (ولا هم ينصرون) أى يمنعون عذاب الله عز وجل. والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة فى سياق النفى من النفوس الكثيرة. والتذكير لكونها عبارة عن العباد والاناسى. والنصرة ههنا أخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكأنه أريد بالآية نفى أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل فانه اما أن يكون قهرا أولا والاول النصرة والثانى اما أن يكون مجانا أولا والاول الشفاعة والثانى اما أن يكون باداء عين ما كان عليه وهو أن يجزى عنه أو باداء غيره وهو أن يعطى عنه عدلا. وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة لاهل الكبائر والجواب انها خاصة بالكفار للآيات الواردة فى الشفاعة والاحاديث المروية فيها. ويؤيده أن الخطاب معهم ولردهم عما كانوا عليه من اعتقاد أن آباءهم الانبياء يشفعون لهم (واذ

نجيناكم من آل فرعون) تذكير لتفاصيل ما أجمل فى قوله تعالى نعمتى التى أنعمت عليكم من فنون النعماء وصنوف الآلاء أى واذكروا وقت تنجيتنا اياكم أى آباءكم فان تنجيتهم تنجية لاعقابهم وقرىء أنجيتكم. وأصل آل أهل لان تصغيره أهيل وخص بالاضافة الى أولى الاخطار كالانبياء عليهم السلام والملوك. وفرعون لقب لمن ملك العمالقة ككسرى لملك الفرس وقيصر لملك الروم وخاقان لملك الترك ولعتوه اشتق منه تفرعن الرجل اذا عتا وتمرد. وكان فرعون موسى عليه السلام مصعب بن ريان وقيل ابنه وليدا من بقايا عاد. وقيل انه كان عطارا صفهانيا ركبته الديون فأفلس فاضطر الى الخروج فلحق بالشام فلم يتسن له المقام به فدخل مصر فرأى فى ظاهره حملا من البطيخ بدرهم وفى نفسه بطيخة بدرهم فقال فى نفسه ان تيسر لى أداء الدين فهذا طريقه فخرج الى السواد فاشترى حملا بدرهم فتوجه به الى السوق فكل من لقيه من المساكين أخذوا منه بطيخاً فدخل البلد وما معه الا بطيخة فذة فباعها بدرهم ومضى لوجهه ورأى أهل البلد متروكين سدى لا يتعاطى أحد سياستهم وكان قد وقع بهم وباء عظيم فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لاوليائه فقال انا أمين المقابر فلا أدعكم تدفنونه حتى تعطونى خمسة دراهم فدفعوها اليه ومضى لآخر وآخر حتى جمع فى مقدار ثلاثة أشهر مالا عظيما ولم يتعرض له أحد قط الى أن تعرض يوما لاولياء ميت فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم فأبوا ذلك فقالوا من نصبك هذا المنصب فذهبوا به الى فرعون فقال من أنت ومن أقامك بهذا المقام قال لم يقمنى أحد وانما فعلت ما فعلت ليحضرنى أحد الى مجلسك فأنبهك على اختلال حال قومك وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار من المال فأحضره ودفعه الى فرعون فقال ولنى أمورك ترنى أمينا كافيا فولاه اياها فسار بهم سيرة حسنة فانتظمت مصالح العسكر واستقامت أحوال الرعية ولبث فيهم دهرا طويلا وترامى أمره فى العدل والصلاح فلما مات فرعون أقاموه مقامه فكان من أمره ما كان وكان فرعون يوسف ريان وكان بينهما أكثر من أربعمائة سنة (يسومونكم) أى يبغونكم من سامه خسفا اذا أولاه ظلما وأصله الذهاب فى طلب الشىء (سوء العذاب) أى أفظعه وأقبحه بالنسبة الى سائره والسوء مصدر من ساء يسوء ونصبه على المفعولية ليسومونكم والجملة حال من الضمير فى نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما جميعا لاشتمالها على ضميريهما (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) بيان ليسومونكم ولذلك ترك العاطف بينهما وقرىء يذبحون بالتخفيف. وانما فعلوا بهم ما فعلوا لما أن فرعون رأى فى المنام أو أخبر الكهنة أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فلم يرد اجتهادهم من قضاء الله عز وجل شيئاً

قيل قتلوا بتلك الطريقة تسعمائة ألف مولود وتسعين الفا وقد أعطى الله عز وجل نفس موسى عليه السلام من القوة على التصرف ما كان يعطيه أولئك المقتولين لوكانوا أحياء ولذلك كانت معجزاته ظاهرة باهرة (وفى ذلكم) إشارة الى ماذكر من التذبيح والاستحياء أو الى الانجاء. منه وجمع الضمير للمخاطبين فعلى الاول معنى قوله تعالى (بلاء) محنة وبلية. وكون استحياء نسائهم أى استبقائهن على الحياة محنة مع أنه عفو وترك للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال فى الاعمال الشاقة . وعلى الثانى نعمة وأصل البلاء الاختبار ولكن لما كان ذلك فى حقه سبحانه محالا وكان مايجرى مجرى الاختبار لعباده تارة بالمحنة وأخرى بالمنحة أطلق عليهما وقيل يجوز أن يشار بذلكم الى الجملة ويراد بالبلاء القدر المشترك الشامل لها (من ربكم) من جهته تعالى بتسليطهم عليكم أو ببعث موسى عليه السلام وبتوفيقه لتخليصكم منهم أو بهما معا (عظيم) صفة لبلاء وتنكيرهما للتفخيم وفى الآية الكريمة تنبيه على أن مايصيب العبد من السراء والضراء من قبيل الاختبار فعليه الشكر فى المسار والصبر على المضار (واذ فرقنا بكم البحر) بيان لسبب التنجية وتصوير لكيفيتها أثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الانجاء من الغرق أى واذكروا اذ فلقناه بسلوككم أو ملتبسا بكم كقوله تعالى تنبت بالدهن أو بسبب انجائكم وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك. وقرئ بالتشديد للتكثير لان المسالك كانت اثنى عشر بعدد الاسباط (فانجينا كم) أى من الغرق باخراجكم الى الساحل كما يلوح به العدول الى صيغة الافعال بعد ايراد التخليص من فرعون بصيغة التفعيل وكذا قوله تعالى (وأغرقنا آل فرعون) أريد فرعون وقومه وانما اقتصر على ذكرهم للعلم بانه أولى به منهم وقيل شخصه كما روى أن الحسن رضى الله عنه كان يقول اللهم صل على آل محمد أى شخصه واستغنى بذكره عن ذكر قومه (وأنتم تنظرون) ذلك أو غرقهم واطباق البحر عليهم أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة أو جثثهم التى قذفها البحر الى الساحل أو ينظر بعضكم بعضا روى «أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسرى ببنى اسرائيل فخرج بهم فصبحهم فرعون وجنوده وصادفوهم على شاطىء البحر فاوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه بها فظهر فيه اثنا عشر طريقا يابسا فسلكوها فقالوا نخاف أن يغرق بعض أصحابنا فلانعلم ففتح الله تعالى فيها كوى فتراءوا وتسامعوا حتى عبروا البحر فلما وصل اليه فرعون فرآه منفلقا اقتحمه هو وجنوده فغشيهم ماغشيهم» واعلم أن هذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم

الجبال ونعمة عظيمة لأوائل بنى اسرائيل موجبة عليهم شكرها كذلك اقتصاصها على ماهى عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الابية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لاعقابهم أن يتلقوها بالاذعان فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها فيالها من عصابة ماأعصاها وطائفة ماأطغاها (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة) لما عادوا الى مصر بعد مهلك فرعون وعد الله موسى عليه السلام أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة وقيل وعد عليه السلام بنى اسرائيل وهو بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان مايأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة ثم زاد عشرا من ذى الحجة. وعبر عنها بالليالى لانها غرر الشهور وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثى وقيل على أصلها تنزيلا لقبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وأربعين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف المضاف أى بمقام أربعين ليلة وقرىء وعدنا (ثم اتخذتم العجل) بتسويل السامرى آلها ومعبودا وثم للتراخى الرتبى (من بعده) أى من بعد مضيه الى الميقات على حذف المضاف (وأنتم ظالمون) باشراككم ووضعكم للشىء فى غير موضعه وهو حال من ضمير اتخذتم أو اعتراض تذييلى أى وأنتم قوم عادتكم الظلم (ثم عفونا عنكم) حين تبتم والعفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجىء لازما قال:

عرفت المنزل الخالى ... عفا من بعد أحوال

عفاه كل هتان ... كثير الوبل هطال

وقوله تعالى (من بعد ذلك) أى من بعد الاتخاذ الذى هو متناه فى القبح للايذان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم (لعلكم تشكرون) لكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة (واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان) أى التوراة الجامعة بين كونها كتاباً وحجة تفرق بين الحق والباطل. وقيل أريد بالفرقان معجزاته الفارقة بين المحق والمبطل فى الدعوى أو بين الكفر والايمان. وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام أو النصر الذى فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى يوم الفرقان يريد به يوم بدر (لعلكم تهتدون) لكى تهتدوا بالتدبر فيه والعمل بما يحويه (واذ قال موسى لقومه) بيان لكيفية وقوع العفو المذكور (ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) أى معبوداً (فتوبوا) أى فاعزموا على التوبة (الى بارئكم) أى

الى من خلقكم بريئاً من العيوب والنقصان والتفاوت وميز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة وأصل التركيب الخلوص عن الغير اما بطريق التفصى كما فى برىء المريض أو بطريق الانشاء كما فى برأ الله آدم من الطين .والتعرض لعنوان البارئية للاشعار بانهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذى خلقهم بلطيف حكمته بريئا من التفاوت والتنافر الى عبادة البقر الذى هو مثل فى الغباوة وأن من لم يعرف حقوق منعمه حقيق بان تسترد هى منه ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب (فاقتلوا أنفسكم) تماماً لتوبتكم بالبخع أو بقطع الشهوات وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً وقيل أمر من لم يعبد العجل بقتل من عبده يروى« أن الرجل كان يرى قريبه فلم يقدر على المضى لأمر الله تعالى فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لايتباصرون بها فأخذوا يقتلون من الغداة الى العشى حتى دعا موسى وهارون عليهما السلام فكشفت السحابة ونزلت التوبة وكانت القتلى سبعين ألفا» والفاء الأولى للتسبيب والثانية للتعقيب (ذلكم) اشارة الى ما ذكر من التوب والقتل (خير لكم عند بارئكم) لما انه طهرة عن الشرك ووصلة الى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية (فتاب عليكم) عطف على محذوف على أنه خطاب منه سبحانه على نهج الالتفات من التكلم الذى يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه فان مبنى الجميع على التكلم الى الغيبة ليكون ذريعة إلى إسناد الفعل الى ضمير بارئكم المستتبع للايذان بعلية عنوان البارئية والخلق والاحياء لقبول التوبة التى هى عبارة عن العفو عن القتل تقديره فعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم بارئكم.وانما لم يقل فتاب عليهم على أن الضمير للقوم لما أن ذلك نعمة أريد التذكير بها للمخاطبين لا لاسلافهم هذا.وقد جوز أن يكون فتاب عليكم متعلقا بمحذوف على انه من كلام موسى عليه السلام لقومه تقديره ان فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ولا يخفى أنه بمعزل من اللياقة بجلالة شأن التنزيل كيف لا وهو حينئذ حكاية لوعد موسى عليه السلام قومه بقبول التوبة منه تعالى لا لقبوله تعالى حتما وقد عرفت أن الآية الكريمة تفصيل لكيفية القبول المحكى فيما قبل وأن المراد تذكير المخاطبين بتلك النعمة (انه هو التواب الرحيم) تعليل لما قبله أى الذى يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويبالغ فى قبولها منهم وفى الانعام عليهم (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك) تذكير لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدر عنهم ما صدر من الجناية العظيمة التى هى اتخاذ العجل أى لن نؤمن لاجل قولك ودعوتك أو لن نقر لك والمؤمن به اعطاءه الله اياه التوراة أو تكليمه اياه أو انه نبى أو انه تعالى جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم (حتى نرى الله

جهرة) أى عيانا وهى فى الأصل مصدر قولك جهرت بالقراءة استعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف الا ان الأول فى المسموعات والثانى فى المبصرات ونصبها على المصدرية لانها نوع من الرؤية أو حال من الفاعل أو المفعول وقرىء بفتح الهاء على انها مصدر كالغلبة أو جمع كالكتبة فيكون حالا من الفاعل لا غير والقائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل. روى « انهم لما ندموا على ما فعلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين أمر الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رجلا ويحضر معهم الطور يظهرون فيه تلك التوبة فلما خرجوا إلى الطور وقع عليه عمود من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه وكان كلما كلمه تعالى أوقع على جبهته نوراً ساطعاً لا يستطيع أحد من السبعين النظر اليه وسمعوا كلامه تعالى مع موسى عليه السلام افعل ولا تفعل فعند ذلك طمعوا فى الرؤية فقالوا ما قالوا» كما سيأتى فى سورة الأعراف ان شاء الله تعالى وقيل عشرة آلاف من قومه (فأخذتكم الصاعقة) لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فانهم ظنوا أنه سبحانه وتعالى مما يشبه الاجسام وتتعلق به الرؤية تعلقها بها على طريق المقابلة فى الجهات والاحياز . ولا ريب فى استحالته انما الممكن فى شأنه تعالى الرؤية المنزهة عن الكيفيات بالكلية وذلك للمؤمنين فى الآخرة وللأفراد من الأنبياء الذين بلغوا فى صفاء الجوهر الى حيث تراهم كأنهم وهم فى جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها الى عالم القدس فى بعض الاحوال فى الدنيا . قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وقيل صيحة وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوما وليلة وعن وهب أنهم لم يموتوا بل لما رأوا تلك الهيئة الهائلة أخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم وتنقض ظهورهم وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعا ربه فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجعت اليهم عقولهم ومشاعرهم ولم تكن صعقة موسى عليه السلام موتا بل غشية لقوله تعالى فلما أفاق (وأنتم تنظرون) أى ما أصابكم بنفسه أو بآثاره (ثم بعثناكم من بعد موتكم) بتلك الصاعقة قيد البعث به لما أنه قد يكون من الاغماء وقد يكون من النوم كما فى قوله تعالى ثم بعثناهم لنعلم الخ (لعلكم تشكرون) أى نعمة البعث أو ما كفرتموه بما رأيتم من بأس الله تعالى (وظللنا عليكم الغمام) أى جعلناها بحيث تلقى عليكم ظلها وذلك أنه تعالى سخر لهم السحاب يسير بسيرهم وهم فى التيه يظلهم من الشمس وينزل بالليل عمود من نار يسيرون فى ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) أى الترنجبين والسمانى . وقيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج

من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه (كلوا) على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا (من طيبات ما رزقناكم) من مستلذاته . وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى (وما ظلمونا) كلام عدل به على نهج الخطاب السابق للايذان باقتضاء جنايات المخاطبين للاعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة معطوف على مضمر قد حذف للايجاز والاشعار بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا تلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفران إذ لايتخطاهم ضرره وتقديم المفعول للدلالة على القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب تهكم بهم. والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فى الظلم واستمرارهم على الكفر (وإذ قلنا) تذكير لنعمة أخرى من جنابه تعالى وكفرة أخرى لأسلافهم أى واذكروا وقت قولنا لآبائكم أثر ما أنقذناهم من التيه (ادخلوا هذه القرية) منصوبة على الظرفية عند سيبويه وعلى المفعولية عند الاخفش وهى بيت المقدس وقيل أريحاء (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) أى واسعاً هنيئاً ونصبه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الاقامة والسكنى فيؤول الى مافى سورة الاعراف من قوله تعالى اسكنوا هذه القرية (وادخلوا الباب) أى باب القرية على ماروى من أنهم دخلوا أريحاء فى زمن موسى عليه السلام كما سيجىء فى سورة المائدة أو باب القبة التى كانوا يصلون اليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام (سجدا) أى متطامنين مخبتين أو ساجدين لله شكراً على اخراجهم من التيه (وقولوا حطة) أى مسئلتنا أو أمرك حطة وهى فعلة من الحط كالجلسة وقرىء بالنصب على الاصل بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة أو على انها مفعول قولوا أى قولوا هذه الكلمة. وقيل معناه أمرنا حطة أى أن نحط رحالنا فى هذه القرية ونقيم بها (نغفر لكم خطاياكم) لما تفعلون من السجود والدعاء وقرىء بالياء والتاء للمفعول وأصل خطايا خطائىء كخضايع فعند سيبويه أبدلت الياء الزائدة همزة لوقوعها بعد الالف واجتمعت همزتان وأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفا وكانت الهمزة بين ألفين فأبدلت ياء . وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ماذكر (وسنزيد المحسنين) ثوابا جعل الامتثال توبة للمسىء وسببا لزيادة الثواب للمحسن وأخرج ذلك عن صورة الجواب الى الوعد ايذانا بان المحسن بصدد ذلك وان لم يفعله فكيف اذا فعله وانه يفعله لامحالة (فبدل الذين ظلموا) بما أمروا به

من التوبة و الاستغفار بان أعرضوا عنه وأوردوا مكانه (قولا) آخر مما لاخير فيه روى انهم قالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا سمقاثا يعنون حنطة حمراء استخفافا بامر الله عز وجل (غير الذى قيل لهم) نعت لقولا وانما صرح به مع استحالة تحقق التبديل بلا مغايرة تحقيقاً لمخالفتهم و تنصيصاً على المغايرة من كل وجه (فانزلنا) أى عقيب ذلك (على الذين ظلموا) بما ذكر من التبديل وانما وضع الموصول موضع الضمير العائد الى الموصول الاول للتعليل والمبالغة فى الذم و التقريع وللتصريح بانهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى (رجزا من السماء) أى عذابا مقدراً منها والتنوين للتهويل والتفخيم (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم المستمر حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل. وتعليل انزال الرجز به بعد الاشعار بتعليله بظلمهم للايذان بان ذلك فسق وخروج عن الطاعة وغلو فى الظلم و أن تعذيبهم بجميع ما ارتكبوه من القبائح لا بعدم توبتهم فقط كما يشعر به ترتيبه على ذلك بالفاء. والرجز فى الاصل مايعاف عنه وكذلك الرجس وقرىء بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون. روى أنه مات به فى ساعة واحدة أربعة وعشرون الفاً (واذ استسقى موسى لقومه) تذكير لنعمة أخرى كفروها وكان ذلك فى التيه حين استولى عليهم العطش الشديد . وتغيير الترتيب لما أشير اليه مراراً من قصد ابراز كل من الأمور المعدودة فى معرض أمر مستقل واجب التذكير والتذكر ولو روعى الترتيب الوقوعى لفهم أن الكل أمر واحد أمر بذكره . واللام متعلقة بالفعل أى استسقى لاجل قومه (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) روى أنه كان حجراً طوريا مكعبا حمله معه وكان ينبع من كل وجه منه ثلاث أعين يسيل كل عين فى جدول الى سبط وكان ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنى عشر ميلا او كان حجراً أهبطه الله تعالى مع آدم عليه السلام من الجنة ووقع الى شعيب عليه السلام فاعطاه موسى عليه السلام مع العصا أو كان هو الحجر الذى فر بثوبه حين وضعه عليه ليغتسل و برأه الله تعالى به عما رموه به من الادرة فاشار اليه جبريل عليه السلام أن يحمله أو كان حجراً من الحجارة وهو الاظهر فى الحجة قيل لم يؤمر عليه السلام بضرب حجر بعينه ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا الى أرض لاحجارة بها حمل حجراً فى مخلاته وكان يضربه بعصاه اذا نزل فيتفجر ويضرب به اذا ارتحل فييبس فقالوا ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله تعالى اليه أن لا تقرع الحجر وكلمه يطعك لعلهم يعتبرون. وقيل كان الحجر من رخام حجمه ذراع فى ذراع والعصا عشرة أذرع على طوله عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان

تتقدان فى الظلمة (فانفجرت) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار كأنه حصل عقيب الامر بالضرب أى فضرب فانفجرت (منه اثنتا عشرة عينا) وأما تعلق الفاء بمحذوف أى فان ضربت فقد انفجرت فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد . وقرىء عشرة بكسر الشين وفتحها وهما أيضاً لغتان (قد علم كل أناس) كل سبط (مشربهم) عينهم الخاصة بهم (كلوا واشربوا) على ارادة القول (من رزق الله) هو ما رزقهم من المن والسلوى والماء وقيل هو الماء وحده لانه يؤكل ما ينبت به من الزروع والثمار ، يأباه أن المأمور به أكل النعمة العتيدة لا ماسيطلبونه . واضافته اليه تعالى مع استناد الكل اليه خلقاً وملكا اما للتشريف واما لظهوره بغير سبب عادى . وانما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا الخ ايذانا بأن الامر بالاكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام (ولا تعثوا فى الارض) العثى أشد الفساد فقيل لهم لا تتمادوا فى الفساد حال كونكم (مفسدين) وقيل انما قيد به لان العثى فى الاصل مطلق التعدى وان غلب فى الفساد وقد يكون فى غير الفساد كما فى مقابلة الظالم المتعدى بفعله وقد يكون فيه صلاح راجح كقتل الخضر عليه السلام للغلام وخرقه للسفينة ونظيره العيث خلا أنه غالب فيما يدرك حسا (واذ قلتم) تذكير لجناية أخرى لاسلافهم وكفرانهم لنعمة الله عز وجل واخلادهم الى ما كانوا فيه من الدناءة والخساسة . واسناد القول المحكى الى أخلافهم وتوجيه التوبيخ اليهم لما بينهم من الاتحاد (يا موسى لن نصبر على طعام واحد) لعلهم لم يريدوا بذلك جمع ما طلبوا مع ما كان لهم من النعمة ولا زوالها وحصول ما طلبوا مكانها اذ يأباه التعرض للوحدة بل أرادوا أن يكون هذا تارة وذاك أخرى روى أنهم كانوا فلاحة فنزعوا الى عكرهم فاجمعوا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحدتها النوعية واطرادها وتاقت أنفسهم الى الشقاء (فادع لنا ربك) أى سله لأجلنا بدعائك اياه والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء والتعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادى الاجابة (يخرج) لنا اى يظهر لنا و يوجد والجزم لجواب الامر (مما تنبت الارض) اسناد مجازى باقامة القابل مقام الفاعل ومن تبعيضية والتى فى قوله تعالى (من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) بيانية واقعة موقع الحال أى كائنا من بقلها الخ وقيل بدل باعادة الجار . والبقل ماتنبت الارض من الخضر والمراد به أطايبه التى تؤكل كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها والفوم الحنطة وقيل الثوم وقرئ قثائها بضم القاف وهو لغة فيه (قال) أى الله تعالى أو موسى عليه السلام انكارا عليهم وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل

قال (أتستبدلون) أى أتأخذون لأنفسكم وتختارون (الذى هو أدنى) أى أقرب منزلة وأدون قدرا سهل المنال وعين الحصول لعدم كونه مرغوبا فيه وكونه تافها مرذولا قليل القيمة . وأصل الدنو القرب فى المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة فقيل بعيد المحل وبعيد الهمة . وقرئ أدنأ من الدناءة وقد حملت المشهورة على أن ألفها مبدلة من الهمزة (بالذى هو خير) أى بمقابلة ماهو خير فان الباء تصحب الذاهب الزائل دون الآتى الحاصل كما فى التبدل والتبديل فى مثل قوله عز وجل « ومن يتبدل الكفر بالايمان» وقوله « وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط » وليس فيه مايدل قطعا على انهم أرادوا زوال المن والسلوى بالمرة وحصول ماطلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة (اهبطوا مصرا) أمروا به بيانا لدناءة مطالبهم أو اسعافا لمرامهم أى انحدروا اليه من التيه يقال هبط الوادى . وقرئ بضم الباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيئين وقيل أريد به العلم وانما صرف لسكون وسطه أو لتأويله بالبلد دون المدينة ويؤيده أنه فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه غير منون وقيل أصله مصرايم فعرب (فان لكم ما سألتم) تعليل للامر بالهبوط أى فان لكم فيه ماسألتموه ولعل التعبير عن الاشياء المسئولة بما للاستهجان بذكرها كأنه قيل فانه كثير فيه مبتذل يناله كل أحد بغير مشقة (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أى جعلتا محيطتين بهم احاطة القبة بمن ضربت عليه أو الصقتا بهم وجعلتا ضربة لازب لاتنفكان عنهم مجازاة لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية واليهود فى غالب الامر أذلاء مساكين إما على الحقيقة وإما لخوف أن تضاعف جزيتهم (وباءوا) أى رجعوا (بغضب) عظيم وقوله تعالى (من الله) متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى بغضب كائن من الله تعالى أو صاروا أحقاء به من قولهم باء فلان بفلان أى صار حقيقا بأن يقتل بمقابلته ومنه قول من قال بؤ بشسع نعل كليب وأصل البوء المساواة (ذلك) اشارة الى ماسلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم (بأنهم) بسبب انهم (كانوا يكفرون) على الاستمرار (بآيات الله) الباهرة التى هى المعجزات الساطعة الظاهرة على يدى موسى عليه السلام مما عد ومالم يعد (ويقتلون النبيين بغير الحق) كشعياء وزكريا ويحيى عليهم السلام وفائدة التقييد مع أن قتل الانبياء يستحيل أن يكون بحق الايذان بان ذلك عندهم أيضا بغير الحق اذ لم يكن أحد معتقدا بحقية قتل أحد منهم عليهم السلام وانما حملهم

على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى والغلو فى العصيان والاعتداء كما يفصح عنه قوله تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى جرهم العصيان والتمادى فى العدوان الى ما ذكر من الكفر وقتل الأنبياء عليهم السلام فان صغار الذنوب اذا دووم عليها أدت الى كبارها كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية الى تحرى كبارها وقيل كررت الاشارة للدلالة على أن مالحقهم كما انه بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم حدود الله تعالى . وقيل الاشارة الى الكفر والقتل والباء بمعنى مع ويجوز الاشارة الى المتعدد بالمفرد بتأويل ما ذكر أو ما تقدم كما فى قول رؤبة بن العجاج :

فيها خطوط من سواد وبلق ٭ كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ما ذكر والذى حسن ذلك فى المضمرات والمبهمات أن تثنيتها وجمعها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذى بمعنى الذين (ان الذين آمنوا) أى بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم فى سلك الكفرة . والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وان عبر عنها بالايمان لاتجديهم نفعا أصلا ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعا (والذين هادوا) أى تهودوا من هاد اذا دخل فى اليهودية ويهود اما عربى من هاد اذا تاب سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخصوا به لما كانت توبتهم توبة هائلة . واما معرب يهوذا كأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام (والنصارى) جمع نصران كندامى جمع ندمان يقال رجل نصران وامرأة نصرانة والياء فى نصرانى للمبالغة كما فى أحمرى سموا بذلك لانهم نصروا المسيح عليه السلام أو لانهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران فسموا باسمها أو نسبوا اليها والياء للنسبة وقال الخليل واحد النصارى نصرى كمهرى ومهارى (والصابئين) هم قوم بين النصارى والمجوس. وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام وقيل هم عبدة الملائكة وقيل عبدة الكواكب فهو ان كان عربيا فمن صبأ اذا خرج من دين الى آخر .وقرئ بالياء اما للتخفيف واما لانه من صبا اذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان الى ما هم فيه أو من الحق الى الباطل (من آمن بالله واليوم الآخر) أى من أحدث من هذه الطوائف إيمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق (وعمل) عملا (صالحا) حسبما يقتضيه الايمان بما ذكر (فلهم) بمقابلة ذلك (أجرهم) الموعود لهم (عند ربهم) أى مالك أمرهم ومبلغهم الى كمالهم اللائق. فمن اما فى محل الرفع على الابتداء خبره جملة فلهم أجرهم والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط كما فى قوله تعالى: ان

قال (أتستبدلون) أى أتأخذون لأنفسكم وتختارون (الذى هو أدنى) أى أقرب منزلة وأدون قدرا سهل المنال وعين الحصول لعدم كونه مرغوبا فيه وكونه تافها مرذولا قليل القيمة . وأصل الدنو القرب فى المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة فقيل بعيد المحل وبعيد الهمة . وقرئ أدنأ من الدناءة وقد حملت المشهورة على ان ألفها مبدلة من الهمزة (بالذى هو خير) أى بمقابلة ماهو خير فان الباء تصحب الذاهب الزائل دون الآتى الحاصل كما فى التبدل والتبديل فى مثل قوله عز وجل « ومن يتبدل الكفر بالايمان وقوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط » وليس فيه مايدل قطعا على انهم أرادوا زوال المن والسلوى بالمرة وحصول ماطلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة (اهبطوا مصرا) أمروا به بيانا لدناءة مطلبهم أو اسعافا لمرامهم أى انحدروا اليه من التيه يقال هبط الوادى . وقرئ بضم الباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيئين وقيل أريد به العلم وانما صرف لسكون وسطه أو لتأويله بالبلد دون المدينة ويؤيده أنه فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه غير منون وقيل أصله مصرايم فعرب (فان لكم ما سألتم) تعليل للامر بالهبوط أى فان لكم فيه ما سألتموه ولعل التعبير عن الاشياء المسئولة بما للاستهجان بذكرها كأنه قيل فانه كثير فيه مبتذل يناله كل أحد بغير مشقة (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أى جعلتا محيطتين بهم احاطة القبة بمن ضربت عليه أو الصقتا بهم وجعلتا ضربة لازب لاتنفكان عنهم مجازاة لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية واليهود فى غالب الامر أذلاء مساكين إما على الحقيقة وإما لخوف أن تضاعف جزيتهم (وباءوا) أى رجعوا (بغضب) عظيم وقوله تعالى (من الله) متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى بغضب كائن من الله تعالى أو صاروا أحقاء به من قولهم باء فلان بفلان أى صار حقيقا بأن يقتل بمقابلته ومنه قول من قال بؤ بشسع نعل كليب وأصل البوء المساواة (ذلك) اشارة الى ماسلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم (بأنهم) بسبب انهم (كانوا يكفرون) على الاستمرار (بآيات الله) الباهرة التى هى المعجزات الساطعة الظاهرة على يدى موسى عليه السلام مما عد ومالم يعد (ويقتلون النبيين بغير الحق) كشعياء وزكريا ويحيى عليهم السلام وفائدة التقييد مع أن قتل الانبياء يستحيل أن يكون بحق الايذان بان ذلك عندهم أيضا بغير الحق اذ لم يكن أحد معتقدا بحقية قتل أحد منهم عليهم السلام وانما حملهم

على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى والغلو فى العصيان والاعتداء كما يفصح عنه قوله تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى جرهم العصيان والتمادى فى العدوان الى ما ذكر من الكفر وقتل الأنبياء عليهم السلام فان صغار الذنوب اذا دووم عليها أدت الى كبارها كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية الى تحرى كبارها وقيل كررت الاشارة للدلالة على أن مالحقهم كما انه بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم حدود الله تعالى . وقيل الاشارة الى الكفر والقتل والباء بمعنى مع ويجوز الاشارة الى المتعدد بالمفرد بتأويل ما ذكر أو ما تقدم كما فى قول رؤبة بن العجاج :

فيها خطوط من سواد وبلق ٭ كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ما ذكر والذى حسن ذلك فى المضمرات والمبهمات أن تثنيتها وجمعها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذى بمعنى الذين (ان الذين آمنوا) أى بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم فى سلك الكفرة . والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وان عبر عنها بالايمان لاتجديهم نفعا أصلا ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعا (والذين هادوا) أى تهودوا من هاد اذا دخل فى اليهودية ويهود اما عربى من هاد اذا تاب سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخصوا به لما كانت توبتهم توبة هائلة. واما معرب يهوذا كأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام (والنصارى) جمع نصران كندامى جمع ندمان يقال رجل نصران وامرأة نصرانة والياء فى نصرانى للمبالغة كما فى أحمرى سموا بذلك لانهم نصروا المسيح عليه السلام أو لانهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران فسموا باسمها أو نسبوا اليها والياء للنسبة وقال الخليل واحد النصارى نصرى كمهرى ومهارى (والصابئين) هم قوم بين النصارى والمجوس. وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام وقيل هم عبدة الملائكة وقيل عبدة الكواكب فهو ان كان عربيا فمن صبأ اذا خرج من دين الى آخر .وقرئ بالياء اما للتخفيف واما لانه من صبا اذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان الى ما هم فيه أو من الحق الى الباطل (من آمن بالله واليوم الآخر) أى من أحدث من هذه الطوائف إيمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق (وعمل) عملا (صالحا) حسبما يقتضيه الايمان بما ذكر (فلهم) بمقابلة ذلك (أجرهم) الموعود لهم (عند ربهم) أى مالك أمرهم ومبلغهم الى كمالهم اللائق. فمن اما فى محل الرفع على الابتداء خبره جملة فلهم أجرهم والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط كما فى قوله تعالى ان

الذين فتنوا المؤمنين الآية وجمع الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما أن أفراد ما فى الصلة باعتبار لفظه والجملة كما هى خبران والعائد إلى اسمها محذوف أى من آمن منهم الخ وإما فى محل النصب على البدلية من اسم ان وما عطف عليه وخبرها فلهم أجرهم وعند متعلق بما تعلق به لهم من معنى الثبوت. وفى اضافته الى الرب المضاف الى ضميرهم مزيد لطف بهم وايذان بان أجرهم متيقن الثبوت مأمون من الفوات (ولاخوف عليهم) عطف على جملة فلهم أجرهم أى لاخوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب (ولاهم يحزنون) حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر من أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام و الاستمرار بحسب المقام هذا وقد قيل المراد بالذين آمنوا المتدينون بدين الاسلام المخلصون منهم والمنافقون فحينئذ لابد من تفسير من آمن بمن اتصف منهم بالايمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الاطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كايمان المخلصين أو بطريق احداثه وانشائه كايمان من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين مزيد ترغيب الباقين فى الايمان ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لأولئك الاقدمين فى استحقاق الاجر وما يتبعه من الامن الدائم. وأما ماقيل فى تفسيره من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فمما لاسبيل اليه أصلا لان مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الاسلام. وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه فلا ملابسة له بالمقام قطعا بل ربما يخل بمقتضاه من حيث دلالته على حقيقته فى زمانه فى الجملة على أن المنافقين والصابئين لايتسنى فى حقهم ماذكر أما المنافقون فان كانوا من أهل الشرك فالامر بين وان كانوا من أهل الكتاب فمن مضى منهم قبل النسخ ليسوا بمنافقين .وأما الصابئون فليس لهم دين يجوز رعايته فى وقت من الاوقات ولو سلم أنه كان لهم دين سماوى ثم خرجوا عنه فمن مضى من أهل ذلك الدين قبل خروجهم منه فليسوا من الصابئين فكيف يمكن ارجاع الضمير الرابط بين اسم ان وخبرها اليهم أو الى المنافقين وارتكاب ارجاعه الى مجموع الطوائف من حيث هو مجموع لاالى كل واحدة منها قصداً الى درج الفريق المذكور فيه ضرورة أن من كان من أهل الكتاب عاملا بمقتضى شرعه قبل نسخه من مجموع الطوائف بحكم اشتماله على اليهود والنصارى وان لم يكن من المنافقين والصابئين مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله على أن المخلصين مع اندراجهم فى حيز اسم أن ليس لهم فى حيز خبرها عين

ولا أثر فتأمل وكن على الحق المبين (واذ أخذنا ميثاقكم) تذكير لجناية أخرى لاسلافهم أى واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على مافى التوراة (ورفعنا فوقكم الطور) عطف على قوله أخذنا أوحال أى وقد رفعنا فوقكم الطور كانه ظلة روى «أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا مافيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم فأبوا قبولها فامر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله عليهم حتى قبلوا» (خذوا) على ارادة القول (ما آتيناكم) من الكتاب (بقوة) بجدوعزيمة (واذكروا مافيه) أى احفظوه ولا تنسوه أوتفكروا فيه فانه ذكر بالقلب أو اعملوا به (لعلكم تتقون) لكى تتقوا المعاصى أو لتنجوا من هلاك الدارين أو رجاء منكم أن تنتظموا فى سلك المتقين او طلبا لذلك وقد مر تحقيقه (ثم توليتم) اى اعرضتم عن الوفاء بالميثاق (من بعد ذلك) من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) بتوفيقكم للتوبة أو بمحمد صلى الله عليه وسلم حيث يدعوكم الى الحق ويهديكم اليه (لكنتم من الخاسرين) أى المغبونين بالانهماك فى المعاصى والخبط فى مهاوى الضلال عند الفترة. وقيل لولا فضله تعالى عليكم بالامهال وتأخير العذاب لكنتم من الهالكين وهو الأنسب بما بعده. وكلمة لولا اما بسيطة أو مركبة من لو الامتناعية وحرف النفى ومعناها امتناع الشىء لوجود غيره كما أن لو لامتناعه لامتناع غيره والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتدأ خبره محذوف وجوبا لدلالة الحال عليه وسد الجواب مسده والتقدير لولا فضل الله حاصل وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف أى لولا ثبت فضل الله تعالى عليكم (ولقد علمتم) أى عرفتم (الذين اعتدوا منكم فى السبت) روى انهم أمروا بأن يتمحضوا يوم السبت للعبادة ويتجردوا لها ويتركوا الصيد فاعتدى فيه اناس منهم فى زمن داود عليه السلام فاشتغلوا بالصيد وكانوا يسكنون قرية بساحل البحر يقال لها ايلة فاذا كان يوم السبت لم يبق فى البحر حوت الابرز وأخرج خرطومه فاذا مضى تفرقت فحفروا حياضا وشرعوا اليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد فالمعنى وبالله لقد علمتموهم حين فعلوا من قبيل جناياتكم ما فعلوا فلم نمهلهم ولم نؤخر عقوبتهم بل عجلناها (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار على أن خاسئين نعت لقردة وقيل حال من اسم كونوا عند من يجيز عمل كان فى الظروف والحال وقيل من الضمير المستكن فى قردة لأنه فى معنى ممسوخين وقال مجاهد ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى: كمثل

الحمار يحمل أسفارا . والمراد بالأمر بيان سرعة التكوين وانهم صاروا كذلك كما أراده عز وجل وقرىء قردة بفتح القاف وكسر الراء وخاسين بغير همز (فجعلناها) أى المسخة والعقوبة (نكالا) عبرة تنكل المعتبر بها أى تمنعه وتردعه ومنه النكل للقيد (لما بين يديها وما خلفها) لما قبلها وما بعدها من الأمم اذ ذكرت حالهم فى زبر الأولين واشتهرت قصصهم فى الآخرين أو لمعاصريهم ومن بعدهم أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها أو لاهل تلك القرية وما حواليها أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها (وموعظة للمتقين) من قومهم أو لكل متق سمعها (واذقال موسى لقومه) توبيخ آخر لاخلاف بنى اسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت عن أسلافهم أى واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لأجدادكم (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وسببه أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ موسر فقتله بنو عمه طمعا فى ميراثه فطرحوه على باب المدينة ثم جاءوا يطالبون بديته فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيا فيخبرهم بقاتله (قالوا) استئناف وقع جوابا عما ينساق اليه الكلام كانه قيل فماذا صنعوا هل سارعوا الى الامتثال أولا فقيل قالوا (أتتخذنا هزوا) بضم الزاى وقلب الهمزة واوا وقرىء بالهمزة مع الضم والسكون أى أتجعلنا مكان هزؤ أو هزؤا أو مهزؤا بنا أو الهزؤ نفسه استبعادا لما قاله واستخفافا به (قال) استئناف كما سبق (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) لان الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهل وسفه نفى عنه عليه السلام ماتوهموه من قبله على أبلغ وجه وآكده باخراجه مخرج مالا مكروه وراءه بالاستعاذة منه استفظاعا له واستعظاما لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه عليه السلام بها (قالوا) استئناف كما مر كانه قيل فماذا قالوا بعد ذلك فقيل توجهوا نحو الامتثال وقالوا (ادع لنا) أى لاجلنا (ربك يبين لنا ماهى) ما مبتدأ وهى خبره والجملة فى حيز النصب يبين أى يبين لنا جواب هذا السؤال وقد سألوا عن حالها وصفتها لما قرع اسماعهم مالم يعهدوه من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فان ما . وان شاعت فى طلب مفهوم الاسم والحقيقة كما فى ما الشارحة والحقيقية لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال طبيب أو عالم . وقيل كان حقه أن يستفهم باى لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حالة مغايرة لما عليه الجنس أخرجوه عن الحقيقة فجعلوه جنسا على حياله (قال) أى موسى عليه السلام بعد مادعا ربه عز وجل بالبيان وأتاه الوحى (انه) تعالى (يقول انها) أى البقرة المأمور بذبحها (بقرة لافارض ولا بكر) أى لامسنة ولا فتية يقال فرضت البقرة فرضا أى أسنت من الفرض بمعنى

القطع كانها قطعت سنها وبلغت آخرها وتركيب البكر للاولية ومنه البكرة والباكورة (عوان) أى نصف لافحم ولا ضرع قال:

طوال مثل اعناق الهوادى * نواعم بين ابكار وعون

(بين ذلك) اشارة الى ماذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف اليه بين لاختصاصه بالاضافة الى المتعدد (فافعلوا) أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ماقبله من بيان صفة المأمور به (ماتؤمرون) أى ماتؤمرونه بمعنى تؤمرون به كما فى قوله * أمرتك الخير فافعل ماأمرت به * فان حذف الجار قد شاع فى هذا الفعل حتى لحق بالافعال المتعدية الى مفعولين وهذا الامر منه عليه السلام لحثهم على الامتثال وزجرهم عن المراجعة ومع ذلك لم يقتنعوا به وقوله تعالى (قالوا) استئناف كما مر كانه قيل ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافى والامر المكرر فقيل قالوا (ادع لنا ربك يبين لنا مالونها) حتى يتبين لنا البقرة المأمور بها (قال) أى موسى عليه السلام بعد المناجاة الى الله تعالى ومجىء البيان (انه) تعالى (يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) اسناد البيان فى كل مرة الى الله عز وجل لاظهار كمال المساعدة فى إجابة مسئولهم بقولهم يبين لنا وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة. والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها ولذلك يؤكد به ويقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وأحمر قانئ. وفى اسناده الى اللون مع كونه من أحوال الملون لملابسته به مالا يخفى من فضل تأكيد كانه قيل صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما فى جد جده وعن الحسن رضى الله عنه سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى جمالة صفر وقيل ولعل التعبير عن السواد بالصفرة لما انها من مقدماته واما لان سواد الابل يعلوه صفرة ويأباه وصفها بقوله تعالى (تسر الناظرين) كما يأباه وصفها بفقوع اللون والسرور لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه من السر عن على رضى الله عنه من لبس نعلا صفراء قل همه (قالوا) استئناف كنظائره (ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) زيادة استكشاف عن حالها كأنهم سألوا بيان حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ما عداها مما تشاركها فى الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحة فى أثناء البيان ولذلك عللوه بقولهم (ان البقر تشابه علينا) يعنون ان الأوصاف المعدودة يشترك فيها كثير من البقر ولا نهتدى بها الى تشخيص ماهو المأمور بها ولذلك لم يقولوا إن البقرة تشابهت ايذانا بأن النعوت المعدودة ليست بمشخصة للمأمور بها بل صادقة على سائر أفراد الجنس وقرئ ان الباقر وهو اسم لجماعة البقر والأباقر والبواقر ويتشابه بالياء والتاء ويشابه

بطارح التاء والادغام على التذكير والتأنيث وتشابهت مخففا ومشددا وتشبه بمعنى تتشبه وتشبه بالتذكير ومتشابه ومتشابهة ومتشبه ومتشبهة وفيه دلالة على انهم ميزوها عن بعض ما عداها فى الجملة وانما بقى اشتباه بشرف الزوال كما ينبئ عنه قولهم (وانا ان شاء الله لمهتدون) مؤكدا بوجوه من التوكيد أى لمهتدون بما سألنا من البيان الى المأمور بذبحها وفى الحديث «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد» (قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث) أى لم تذلل للكراب وسقى الحرث ولا ذلول صفة لبقرة بمعنى غير ذلول ولا الثانية لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل لا ذلول مثيرة وساقية وقرئ لا ذلول بالفتح أى حيث هى كقولك مررت برجل لا بخيل ولا جبان أى حيث هو وقرئ تسقى من أسقى (مسلمة) أى سلمها الله تعالى من العيوب أو أهلها من العمل أو أخلص لها لونها من سلم له كذا إذا خلص له ويؤيده قوله تعالى (لاشية فيها) أى لا لون فيها يخالف لون جلدها حتى قرنها وظلفها وهى فى الأصل مصدر وشاه وشيا وشية اذا خلط بلونه لونا آخر (قالوا) عند ما سمعوا هذه النعوت (الآن جئت بالحق) أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا بخلاف المرتين الأوليين فان ما جئت به فيهما لم يكن فى التعيين بهذه المرتبة ولعلهم كانوا قبل ذلك قد رأوها ووجدوها جامعة لجميع ما فصل من الأوصاف المشروحة فى المرات الثلاث من غير مشارك لها فيما عد فى المرة الأخيرة والا فمن أين عرفوا اختصاص النعوت الأخيرة بها دون غيرها . وقرىء آلآن بالمد على الاستفهام والآن بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام (فذبحوها) الفاء فصيحة كما فى فانفجرت أى فحصلوا البقرة فذبحوها (وما كادوا يفعلون) كاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر من الحصول والجملة حال من ضمير ذبحوا أى فذبحوها والحال انهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه اعتراض تذييلى ومآله استثقال استعصائهم واستبطاء لهم وانهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط اسهابهم فيها قيل مضى من أول الامر الى الامتثال أربعون سنة وقيل وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها روى «أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ صالح له عجلة فاتى بها الغيضة وقال اللهم انى استودعتكها لابنى حتى يكبر وكان برا بوالديه فتوفى الشيخ وشبت العجلة فكانت من أحسن البقر وأسمنها فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا لما كانت وحيدة بالصفات المذكورة وكانت البقرة اذ ذاك بثلاثة دنانير» واعلم أنه لاخلاف فى أن مدلول ظاهر النظم الكريم بقرة مطلقة مبهمة وأن الامتثال فى آخر

الامر انما وقع بذبح بقرة معينة حتى لو ذبحوا غيرها ماخرجوا عن عهدة الامر لكن اختلف فى أن المراد المأمور به أثر ذى أثير هل هى المعينة وقد أخر البيان عن وقت الخطاب أو المبهمة ثم لحقها التغيير الى المعينة بسبب تثاقلهم فى الامتثال وتماديهم فى التعمق والاستكشاف فذهب بعضهم الى الاول تمسكا بان الضمائر فى الاجوبة أعنى انها بقرة الى آخره للمعينة قطعا ومن قضيته أن يكون فى السؤال أيضا كذلك ولا ريب فى أن السؤال انما هو عن البقرة المأمور بذبحها فتكون هى المعينة وهو مدفوع بأنهم لما تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ظنوها معينة خارجة عما عليه الجنس من الصفات والخواص فسألوا عنها فرجعت الضمائر الى المعينة فى زعمهم واعتقادهم فعينها الله تعالى تشديدا عليهم وان لم يكن المراد من أول الامر هى المعينة والحق انها كانت فى أول الامر مبهمة بحيث لو ذبحوا أية بقرة كانت لحصل الامتثال بدلالة ظاهر النظم الكريم وتكرير الامر قبل بيان اللون وما بعده من كونها مسلمة الخ وقد قال صلى الله عليه وسلم «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم» وروى مثله عن رئيس المفسرين عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ثم رجع الحكم الاول منسوخا بالثانى والثانى بالثالث تشديدا عليهم لكن لا على وجه ارتفاع حكم المطلق بالكلية وانتقاله الى المعين بل على طريقة تقييده وتخصيصه به شيئا فشيئا كيف لا ولو لم يكن كذلك لما عدت مراجعاتهم المحكية من قبيل الجنايات بل من قبيل العبادة فان الامتثال بالامر بدون الوقوف على المأمور به مما لا يكاد يتسنى فتكون سؤالاتهم من باب الاهتمام بالامتثال (واذ قتلتم نفسا) منصوب بمضمر كما مرت نظائره والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم. واسناد القتل والتدارؤ اليهم لما مر من نسبة جنايات الاسلاف الى الاخلاف توبيخا وتقريعا. وتخصيصهما بالاسناد دون مامر من هناتهم لظهور قبح القتل واسناده الى الغير أى اذكروا وقت قتلكم نفسا محرمة (فادارأتم فيها) أى تخاصمتم فى شأنها اذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر أو تدافعتم بان طرح كل واحد قتلها الى آخر وأصله تدارأتم فادغمت التاء فى الدال واجتلبت لها همزة الوصل (والله مخرج ما كنتم تكتمون) اى مظهر لما تكتمونه لامحالة والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار وانما اعمل مخرج لانه حكاية حال ماضية (فقلنا اضربوه) عطف على فادارأتم ومابينهما اعتراض والالتفات لتربية المهابة والضمير للنفس والتذكير باعتبار انها عبارة عن الرجل او بتأويل الشخص او القتيل (ببعضها) أى ببعض البقرة اى بعض كان. وقيل بأصغريها. وقيل بلسانها. وقيل

بفخذها اليمنى وقيل باذنها وقيل بعجبها وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف وهذا اول القصة كما ينبىء عنه الضمير الراجع الى البقرة كأنه قيل واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها وانما غير الترتيب عندالحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع فان كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على أمره وترك المسارعة الى الامتثال به جناية عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها. ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ . وانما حكى الامر بالذبح عن موسى عليه السلام مع أنه من الله عز وجل كالامر بالضرب لما أن جناياتهم كانت بمراجعتهم اليه عليه السلام والافتيات على رأيه (كذلك يحي الله الموتى) على إرادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فضربوه فحي وقلنا كذلك يحي الخ فحذفت الفاء الفصيحة فى يحي مع ما عطف بها وما عطف هو عليه لدلالة كذلك على ذلك فالخطاب فى كذلك حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ الى تقدير القول بل تنتهى الحكاية عند قوله تعالى ببعضها مع ماقدر بعده فالجملة معترضة أى مثل ذلك الاحياء العجيب يحي الله الموتى يوم القيامة (ويريكم آياته) ودلائله الدالة على أنه تعالى على كل شىء قدير ويجوز أن يراد بالآيات هذا الاحياء والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت واخباره بقاتله وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة (لعلكم تعقلون) أى لكى تكمل عقولكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها أو تعملوا على قضية عقولكم ولعل الحكمة فى اشتراط ما اشترط فى الاحياء مع ظهور كمال قدرته على إحيائه ابتداء بلاواسطة أصلا اشتماله على التقرب الى الله تعالى وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل على الله تعالى والشفقة على الاولاد ونفع بر الوالدين وأن من حق الطالب أن يقدم قربة ومن حق المتقرب أن يتحرى الاحسن ويغالى بثمنه كما يروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلثمائة دينار وأن المؤثر هو الله تعالى وانما الأسباب أمارات لا تأثير لها وأن من رام أن يعرف أعدى عدوه الساعى فى اماتته الموت الحقيقى فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التى هى قوته الشهوية حين زال عنها شره الصبا ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة فى طلب الدنيا مسلمة عن دنسها لاسمة بها من قبائحها بحيث يتصل أثره الى نفسه فيحيا بها حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع مابين العقل والوهم من التدارؤ والجدال (ثم

قست قلوبكم) الخطاب لمعاصري النبي صلى الله عليه وسلم والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور . وإيراد الفعل المفيد لحدوث القساوة مع أن قلوبهم لم تزل قاسية لما أن المراد بيان بلوغهم الى مرتبة مخصوصة من مراتب القساوة حادثة . وإما لان الاستمرار على شيء بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه أمر جديد وصنع حادث وثم لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها كقوله تعالى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (من بعد ذلك) إشارة الى ماذكر من إحياء القتيل أو الى جميع ماعدد من الآيات الموجبة للين القلوب وتوجهها نحو الحق أي من بعد سماع ذلك وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته وعلو طبقته . وتوحيد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين اما بتأويل الفريق أو لأن المراد مجرد الخطاب لاتعيين المخاطب كما هو المشهور (فهي كالحجارة) في القساوة (أو أشد) منها (قسوة) أي هي في القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها أو أنها مثلها أو مثل ماهو أشد منها قسوة كالحديد فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ويعضده القراءة بالجر عطفا على الحجارة . وإيراد الجملة اسمية مع كون ماسبق فعلية للدلالة على استمرار قساوة قلوبهم . والفاء اما لتفريع مشابهتها لها على ماذكر من القساوة تفريع التشبيه على بيان وجه الشبه في قولك احمر خده فهو كالورد . واما للتعليل كما في قولك اعبد ربك فالعبادة حق له وانما لم يقل او اقسى منها لما في التصريح بالشدة من زيادة مبالغة ودلالة ظاهرة على اشتراك القسوتين في الشدة واشتمال المفضل على زيادة . وأو للتخيير او للترديد بمعنى ان من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هي أقسى من الحجارة وترك ضمير المفضل عليه للامن من الالتباس (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار) بيان لاشدية قلوبهم من الحجارة في القساوة وعدم التأثر واستحالة صدور الخير منها يعني أن الحجارة ربما تتأثر حيث يكون منها ما يتفجر منه المياه العظيمة (وان منها لما يشقق) أي يتشقق (فيخرج منه الماء) أي العيون (وان منها لما يهبط من خشية الله) أي يتردى من الأعلى الى الأسفل بقضية ماأودعه الله عز وجل فيها من الثقل الداعي الى المركز وهو مجاز من الانقياد لأمره تعالى والمعنى أن الحجارة ليس منها فرد الا وهو منقاد لامره عز وعلا آت بماخلق له من غير استعصاء وقلوبهم ليست كذلك فتكون أشد منها قسوة لا محالة واللام في لما لام الابتداء دخلت على اسم ان لتقدم الخبر وقرىء أن على أنها مخففة من الثقيلة واللام فارقة وقرىء يهبط بالضم (وما الله بغافل عما تعملون) عن

متعلقة بغافل وما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية وهو وعيد شديد على ماهم عليه من قساوة القلوب ومايترتب عليها من الاعمال السيئة . وقرئ بالياء على على الالتفات وقوله تعالى (أفتطمعون) تلوين للخطاب وصرف له عن اليهود أثر ماعددت هناتهم ونعيت عليهم جناياتهم الى النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين والهمزة لانكار الواقع واستبعاده كما فى قولك أتضرب أباك لا لانكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى. والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه نظام الكلام لكن لا على قصد توجيه الانكار الى المعطوفين معا كما فى أفلا تبصرون على تقدير المعطوف عليه منفيا أى ألا تنظرون فلا تبصرون فالمنكر كلا الامرين بل الى ترتب الثانى على الاول مع وجوب ان يترتب عليه نقيضه كما اذا قدر الاول مثبتا اى أتنظرون فلا تبصرون فالمنكر ترتب الثانى على الاول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه أى أتسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون ومآل المعنى: أبعد أن علمتم تفاصيل شؤنهم المؤيسة عنهم تطمعون (أن يؤمنوا) فانهم متماثلون فى شدة الشكيمة والاخلاق الذميمة لا يتأتى من اخلافهم الامثل ماأتى من اسلافهم .وأن مصدرية حذف عنها الجار والاصل فى أن يؤمنوا وهى مع مافى حيزها فى محل النصب أو الجر على الخلاف المعروف واللام فى لكم لتضمين معنى الاستجابة كما فى قوله عزوجل فآمن له لوط أى فى ايمانهم مستجيبين لكم أو للتعليل أى فى أن يحدثوا الايمان لاجل دعوتكم وصلة الايمان محذوفة لظهور أن المراد به معناه الشرعى وستقف على مافيه من المزية باذن الله تعالى (وقد كان فريق منهم) الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم والجار والمجرور فى محل الرفع أى فريق كائن منهم وقوله تعالى (يسمعون كلام الله) خبر كان وقرىء كلم الله والجملة حالية مؤكدة للانكار حاسمة لمادة الطمع مثل أحوالهم الشنيعة المحكية فيما سلف على منهاج قوله تعالى وهم لكم عدو بعد قوله تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى أى والحال أن طائفة منهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم قوم من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون كلامه تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور وما أمر به ونهى عنه (ثم يحرفونه) عن مواضعه لا لقصر فهمهم عن الاحاطة بتفاصيله على ماينبغى لاستيلاء الدهشة والمهابة حسبما يقتضيه مقام الكبرياء بل (من بعد ماعقلوه) أى فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم فى مضمونه ولا فى كونه كلام رب العزة ريبة أصلا فلما رجعوا الى قومهم أداه الصادقون اليهم كما سمعوا وهؤلاء قالوا سمعنا الله تعالى يقول فى آخر كلامه ان استطعتم

أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وان شئتم فلا تفعلوا فلا بأس فثم للتراخى زمانا أو رتبة وقال القفال سمعوا كلام الله وعقلوا مراده تعالى منه فأولوه تأويلا فاسدا. وقيل هم رؤساء اسلافهم الذين تولوا تحريف التوراة بعد ما أحاطوا بما فيها علما. وقيل هم الذين غيروا نعت النبي صلى الله عليه وسلم فى عصره وبدلوا آية الرجم ويأباه الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل الدال على وقوع السماع والتحريف فيما سلف الا أن يحمل ذلك على تقدمه على زمان نزول الآية الكريمة لا على تقدمه على عهده عليه الصلاة والسلام هذا والاول هو الانسب بالسماع والكلام اذ التوراة وان كانت كلام الله عز وعلا لكنها باسم الكتاب أشهر وأثر التحريف فيه أظهر. ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فان وظيفتهم التلاوة دون السماع فكان الانسب حينئذ ان يقال يتلون كتاب الله تعالى فالمعنى افتطمعون فى أن يؤمن هؤلاء بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحال ان اسلافهم الموافقين لهم فى خلال السوء كانوا يسمعون كلام الله بلا واسطة ثم يحرفونه من بعد ما علموه يقينا ولا يستجيبون له هيهات ومن ههنا ظهر ما فى ايثار لكم على بالله من الفخامة والجزالة وقوله عز وجل (وهم يعلمون) جملة حالية من فاعل يحرفونه مفيدة لكمال قباحة حالهم مؤذنة بأن تحريفهم ذلك لم يكن بناء على نسيان ما عقلوه أو على الخطا فى بعض مقدماته بل كان ذلك حال كونهم عالمين مستحضرين له أو وهم يعلمون انهم كاذبون ومفترون (واذ لقوا) جملة مستأنفة سيقت اثر بيان ما صدر عن أشباههم لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة عن ايمانهم من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم. أو معطوفة على ما سبق من الجملة الحالية والضمير لليهود لما ستقف على سره لا لمنافقيهم خاصة كما قيل تحريا لاتحاد الفاعل فى فعلى الشرط والجزاء حقيقة (الذين آمنوا) من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (قالوا) أى اللاقون لكن لا بطريق تصدى الكل للقول حقيقة بل بمباشرة منافقيهم وسكوت الباقين كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وهذا أدخل فى تقبيح حال الساكتين أولا العاتبين ثانيا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلاف أحوالهم وتناقض آرائهم من اسناد القول الى المباشرين خاصة بتقدير المضاف أى قال منافقوهم (آمنا) لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بانهم وجدوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة وعلموا انه النبي المبشر به وانما لم يصرح به تعويلا على شهادة التوبيخ الآتى (واذا خلا بعضهم) أى بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أى اذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمين (الى بعض) آخر منهم وهم منافقوهم بحيث لم يبق معهم غيرهم وهذا

نص على اشتراك الساكتين فى لقاء المؤمنين كما أشير اليه آنفا اذ الخلو انما يكون بعد الاشتغال ولان عتابهم معلق بمحض الخلو ولولا أنهم حاضرون عند المقاولة لوجب ان يجعل سماعهم لها من تمام الشرط ولأن فيه زيادة تشنيع لهم على ماأتوا من السكوت ثم العتاب (قالوا) أى الساكتون موبخين لمنافقيهم ماصنعوا (أتحدثونهم) يعنون المؤمنين (بما فتح الله عليكم) ماموصولة والعائد محذوف أى بينة لكم خاصة فى التوراة من نعت النبى صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بالفتح للايذان بانه سر مكنون وباب مغلق لايقف عليه أحد وتجويز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لاعقابهم اراءة للتصلب فى دينهم كما ذهب اليه عصابة مما لايليق بشأن التنزيل الجليل واللام فى قوله عز وجل (ليحاجوكم به) متعلقة بالتحديث دون الفتح والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ فان التحديث بذلك وان كان منكرا فى نفسه لكن التحديث به لاجل هذا الغرض مما لايكاد يصدر عن العاقل أى أتحدثونهم بذلك ليحتجوا عليكم به فيبكتوكم والمحدثون بهوان لم يحوموا حول ذلك الغرض لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعا له البتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور اظهاراً لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم (عند ربكم) أى فى حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله كذا أى كتابه كما يقال هو عند الله كذا فى كتابه وشرعه وقيل عند ربكم يوم القيامة ورد عليه بان الاخفاء لايدفعه اذهم عالمون بانهم محجوجون يومئذ حدثوا به أو لم يحدثوا والاعتذار بان الزام المؤمنين اياهم وتبكيتهم بان يقولوا لهم ألم تحدثونا بما فى كتابكم فى الدنيا من حقية ديننا وصدق نبينا أفحش فيجوز ان يكون المحذور عندهم هذا الالزام بارجاع الضمير فى به الى التحديث دون المحدث به ولا ريب فى انه مدفوع بالاخفاء لا تساعده الآية الكريمة الآتية كما ستقف عليه باذن الله عز وجل (أفلا تعقلون) من تمام التوبيخ والعتاب والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش أو شيئاً من الأشياء التى من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل ابتداء أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون الى التنبيه عليه فالمنكر حينئذ عدم التعقل بعد الفعل هذا. وأما ما قيل من أنه خطاب من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصل بقوله تعالى أفتطمعون والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم فى ايمانهم فيأباه قوله تعالى (أولا يعلمون) فانه إلى آخره تجهيل لهم من جهته تعالى فيما حكى عنهم فيكون ايراد خطاب المؤمنين فى أثنائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه على ان فى تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف وفى تعميمه للنبى أيضاً صلى الله عليه وسلم كما

فى أفتطمعون من سوء الأدب ما لا يخفى والهمزة للانكار والتوبيخ كما قبلها والواو للعطف على مقدر ينساق اليه الذهن والضمير للموبخين أى أيلومونهم على التحديث المذكور مخافة المحاجة ولا يعلمون (أن الله يعلم ما يسرون) أى يسرونه فيما بينهم من المؤمنين أو ما يضمرونه فى قلوبهم فيثبت الحكم فى ذلك بالطريق الأولى (وما يعلنون) أى يظهرونه للمؤمنين أو لأصحابهم حسبما سبق فحينئذ يظهر الله تعالى للمؤمنين ما أرادوا إخفاءه بواسطة الوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم فتحصل المحاجة ويقع التبكيت كما وقع فى آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم فأى فائدة فى اللوم والعتاب ومن ههنا تبين ان المحذور عندهم هو المحاجة بما فتح الله عليهم وهى حاصلة فى الدارين حدثوا به أم لا لا بالتحديث به حتى يندفع بالاخفاء. وقيل الضمير للمنافقين فقط أولهم وللموبخين أو لآبائهم المحرفين أى أيفعلون ما يفعلون ولا يعلمون أن الله يعلم جميع ما يسرون وما يعلنون ومن جملته إسرارهم الكفر وإظهارهم الايمان وإخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره وكتم أمر الله وإظهار ما أظهروه افتراء. وإنما قدم الاسرار على الاعلان للايذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة فى بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما فى الحقيقة على السوية فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة ونظيره قوله عز وعلا. قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله. حيث قدم فيه الاخفاء على الأبداء لما ذكر من السر على عكس ما وقع فى قوله تعالى. وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله. فان الأصل فى تعلق المحاسبة به هو الامور البادية دون الخافية ويجوز أن يكون ذلك باعتبار ان مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شىء يعلن الا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب يتعلق به الاسرار غالباً فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية (ومنهم أميون) وقرىء بتخفيف الياء جمع أمى وهو من لا يقدر على الكتابة والقراءة واختلف فى نسبته فقيل الى الأم بمعنى أنه شبيه بها فى الجهل والكتابة والقراءة فانهما ليستا من شئون النساء بل من خلال الرجال. أو بمعنى أنه على الحالة التى ولدته أمه فى الخلو عن العلم والكتابة. وقيل الى الأمة بمعنى أنه باق على سذاجتها خال عن معرفة الأشياء كقولهم عامى أى على عادة العامة روى عن عكرمة والضحاك أن المراد بهم نصارى العرب. وقيل هم قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين

وعن على رضى الله عنه هم المجوس * والحق الذى لا محيد عنه أنهم جهلة اليهود والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبائحهم أثر بيان شنائع الطوائف السالفة. وقيل هى معطوفة على الجملة الحالية فان مضمونها مناف لرجاء الخير منهم وان لم يكن فيه ما يحسم مادة الطمع عن ايمانهم كما فى مضمون الجملة الحالية وما بعدها فان الجهل بالكتاب فى منافاة الايمان ليس بمثابة تحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه كما وقع من الأولين أو النفاق والنهى عن اظهار ما فى التوراة كما وقع من الفرقتين الأخر بين أى ومنهم طائفة جهلة غير قادرين على الكتابة والتلاوة (لا يعلمون الكتاب) أى لا يعرفون التوراة ليطالعوها ويتحققوا ما فى تضاعيفها من دلائل النبوة فيؤمنوا وحمل الكتاب على الكتابة يأباه سباق النظم الكريم وسياقه (الا أمانى) بالتشديد وقرىء بالتخفيف جمع أمنية أصلها أمنوية أفعولة من منى بمعنى قدر أو بمعنى تلا كتمنى فى قوله * تمنى كتاب الله أول ليله * فأعلت اعلال سيد وميت ومعناها على الأول ما يقدره الانسان فى نفسه ويتمناه وعلى الثانى ما يتلوه وعلى التقديرين فالاستثناء منقطع اذ ليس ما يتمنى وما يتلى من جنس علم الكتاب أى لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أمانى حسبما منتهم أحبارهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم وان آباءهم الانبياء يشفعون لهم وغير ذلك من أمانيهم الفارغة المستندة الى الكتاب على زعم رؤسائهم أولا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر فيه. وأما حمل الأمانى على الأكاذيب المختلفة على الاطلاق من غير أن يكون لها ملابسة بالكتاب فلا يساعده النظم الكريم (وان هم الا يظنون) ماهم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يصلوا الى رتبة العلم فانى يرجى منهم الايمان المؤسس على قواعد اليقين ولما بين حال هؤلاء فى تمسكهم بحبال الامانى واتباع الظن عقب بيان حال الذين أوقعوهم فى تلك الورطة وبكشف كيفية اضلالهم وتعيين مرجع الكل بالآخرة فقيل على وجه الدعاء عليهم (فويل) هو وأمثاله من ويح وويس وويب وويه وويك وعول من المصادر المنصوبة بأفعال من غير لفظها لا يجوز اظهارها ألبتة فان أضيف نصب نحو ويلك وويحك واذا فصل عن الاضافة رفع نحو ويل له. ومعنى الويل شدة الشر قاله الخليل وقال الاصمعى الويل التفجع والويح الترحم وقال سيبويه ويل لمن رفع فى الهلكة وويح زجر لمن أشرف على الهلاك. وقيل الويل الحزن وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو بينه وبينها فرق. وقيل ويل فى الدعاء عليه وويح ومابعده فى الترحم عليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما الويل العذاب الاليم. وعن سفيان الثورى

أنه صديد أهل جهنم وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» وقال سعيد بن المسيب أنه واد فى جهنم لوسيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حره وقال ابن بريدة جبل قيح ودم. وقيل صهريج فى جهنم وحكى الزهراوى أنه باب من أبواب جهنم وعلى كل حال فهو مبتدأ خبره قوله عز وعلا (للذين يكتبون الكتاب) أى المحرف أوما كتبوه من التأويلات الزائغة (بأيديهم) تأكيد لدفع توهم المجاز كقوله كتبته بيمينى (ثم يقولون هذا) أى جميعا على الاول وبخصوصه على الثانى (من عند الله) روى أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا فى تعويق أسافل اليهود عن الايمان فعمدوا الى صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة وكانت هى فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة فغيروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر فاذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ماكتبوا فيجدونه مخالفا لصفته عليه السلام فيكذبونه وثم للتراخى الرتبى فان نسبة المحرف والتأويل الزائغ الى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل (ليشتروا به) أى يأخذوا لانفسهم بمقابلته (ثمنا) هو ماأخذوه من الرشا بمقابلة مافعلوه من التحريف والتأويل وانما عبر عن المشترى الذى هو المقصود بالذات فى عقد المعاوضة بالثمن الذى هو وسيلة فيه ايذانا بتعكيسه حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلة والوسيلة مقصوداً بالذات (قليلا) لايعبأ به فان ذلك وان جل فى نفسه فهو أقل قليلا عندما استوجبوا به من العذاب الخالد (فويل لهم) تكرير لماسبق للتأكيد وتصريح بتعليله بما قدمت أيديهم بعد الاشعار به فيما سلف بايراد بعضه فى حيز الصلة وبعضه فى معرض الغرض. والفاء للايذان بترتبه عليه ومن فى قوله عزوجل (مما كتبت أيديهم) تعليلية متعلقة بويل أو بالاستقرار فى الخبر. وماموصولة اسمية والعائد محذوف أى كتبته أو مصدرية والاول أدخل فى الزجر عن تعاطى المحرف والثانى فى الزجر عن التحريف (وويل لهم مما يكسبون) الكلام فيه كالذى فيما قبله والتكرير لما مر من التأكيد والتشديد والقصد الى التعليل بكل من الجانبين وعدم التعرض لقولهم هذا من عند الله لما أنه من مبادى ترويج ماكتبت أيديهم فهو داخل فى التعليل به (وقالوا) بيان لبعض آخر من جناياتهم. وفصله عما قبله مشعر بكونه من الاكاذيب التى اختلقوها ولم يكتبوها فى الكتاب (لن تمسنا النار) فى الآخرة (الا أياما معدودة) قليلة محصورة عدد أيام عبادتهم العجل أربعين يوما مدة غيبة موسى عليه السلام عنهم. وحكى الاصمعى عن بعض اليهود أن عدد أيام عبادتهم العجل سبعة وروى عن ابن عباس

ومجاهد أن اليهود قالوا عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب بكل ألف سنة يوماً واحداً وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود زعمت أنهم وجدوا فى التوراة ان مابين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة الى أن ينتهوا الى شجرة الزقوم وانهم يقطعون فى كل مسيرة سنة فيكملونها (قل) تبكيتاً لهم وتوبيخاً (أتخذتم) باسقاط الهمزة المجتلبة لوقوعهافى الدرج و باظهار الذال.وقرئ بادغامها فى التاء (عند الله عهدا) خبرا أو وعداً بما تزعمون فان ماتدعون لا يكون الابناء على وعد قوى ولذلك عبر عنه بالعهد (فلن يخلف الله عهده) الفاء فصيحة معربة عن شرط محذوف كما فى قول من قال :

قالوا خراسان اقصى مايراد بنا ۞ ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أى ان كان الأمر كذلك فلن يخلفه والجملة اعتراضية. واظهار الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم فان عدم الاخلاف من قضية الالوهية واظهار العهد مضافا الى ضميره عز وجل لما ذكر أو لان المراد به جميع عهوده لعمومه بالاضافة فيدخل فيه العهد المعهود دخولا أوليا وفيه تجاف عن التصريح بتحقق مضمون كلامهم وان كان معلقاً بمالم يكد يشم رائحة الوجود قطعاً اعنى اتخاذ العهد (أم تقولون) مفترين (على الله مالاتعلمون) وقوعه.وانما علق التوبيخ باسنادهم اليه سبحانه مالا يعلمون وقوعه مع أن ماأسندوه اليه تعالى من قبيل مايعلمون عدم وقوعه للمبالغة فى التوبيخ والنكير فانالتوبيخ على الادنى مستلزم للتوبيخ على الاعلى بالطريق الاولى وقولهم المحكى وان لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه لكنه مستلزم له لان ذلك الجزم لايكون الا باسناد سببه اليه تعالى. وأم اما متصلة والاستفهام للتقرير المؤدى الى التبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير كانه قيل أم لم تتخذوه بل تتقولون عليه تعالى.واما منقطعة والاستفهام لانكار الاتخاذ ونفيه ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ بالانكار على اتخاذ العهد الى ماتفيد همزتها من التوبيخ على التقول على الله سبحانه كما فى قوله عز وجل قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون (بلى) الى آخره جواب عن قولهم المحكى و إبطال له من جهته تعالى و بيان لحقيقة الحال تفصيلا فى ضمن تشريع كلى شامل لهم ولسائر الكفرة بعد اظهار كذبهم اجمالا وتفويض ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم لما أن المحاجة والالزام من وظائفه عليه السلام مع مافيه من الاشعار بانه أمر هين لايتوقف على التوقيف و بلى حرف ايجاب مختص بجواب النفى خبرا واستفهاما (من كسب سيئة) فاحشة من السيئات أى كبيرة من الكبائر

كدأب هؤلاء الكفرة. والكسب استجلاب النفع و تعليقه بالسيئة على طريقة فبشرهم بعذاب أليم (وأحاطت به) من جميع جوانبه بحيث لم يبق له جانب من قلبه ولسانه وجوارحه الا وقد اشتملت واستولت عليه (خطيئته) التي كسبها و صارت خاصة من خواصه كما تنبئ عنه الاضافة اليه وهذا انما يتحقق في الكافر ولذلك فسرها السلف بالكفر حسبما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم وابن جرير عن أبي وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع. وقيل السيئة الكفر والخطيئة الكبيرة. وقيل بالعكس وقيل الفرق بينهما أن الاولى قد تطلق على ما يقصد بالذات والثانية تغلب على ما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ. وقرئ خطيته وخطياته على القلب والادغام فيهما وخطيئآته وخطاياه وفي ذلك إيذان بكثرة فنون كفرهم (فأولئك) مبتدأ (أصحاب النار) خبره والجملة خبر للمبتدأ. والفاء لتضمنه معنى الشرط. وإيراد اسم الاشارة المنبئ عن استحضار المشار اليه بما له من الاوصاف للاشعار بعليتها لصاحبية النار وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم في الكفر والخطايا. وانما أشير اليهم بعنوان الجمعية مراعاة لجانب المعنى في كلمة من بعد مراعاة جانب اللفظ في الضمائر الثلاثة لما أن ذلك هو المناسب لما أسند اليهم في تينك الحالتين فان كسب السيئة وإحاطة خطيئته به في حالة الانفراد وصاحبية النار في حالة الاجتماع أي أولئك الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات وإحاطة خطاياهم بهم أصحاب النار أي ملازموها في الآخرة حسب ملازمتهم في الدنيا لما يستوجبها من الاسباب التي من جملتها ما هم عليه من تكذيب آيات الله تعالى وتحريف كلامه والافتراء عليه وغير ذلك. وانما لم يخص الجواب بحالهم بأن يقال مثلا بلى انهم أصحاب النار الخ لما في التعميم من التهويل و بيان حالهم بالبرهان والدليل مع ما مر من قصد الاشعار بالتعليل (هم فيها خالدون) دائما أبدا فأنى لهم التفصي عنها بعد سبعة أيام أو أربعين كما زعموا فلا حجة في الآية الكريمة على خلود صاحب الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر ولا حاجة الى حمل الخلود على اللبث الطويل على أن فيه تهوين الخطب في مقام التهويل (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) جرت السنة الالهية على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى والتبشير مرة والانذار أخرى (واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل) شروع في تعداد بعض آخر من قبائح اسلاف اليهود مما ينادي بعدم إيمان اخلافهم. وكلمة إذ نصب باضمار فعل خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ليؤديهم التأمل في أحوالهم الى قطع الطمع عن إيمانهم أو اليهود

الموجودون فى عهد النبوة توبيخاً لهم بسوء صنيع أسلافهم أى اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم (لاتعبدون إلا الله) على إرادة القول أى وقلنا أو قائلين لاتعبدون الخ وهو أخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولايضار كاتب ولاشهيد وكما تقول تذهب الى فلان وتقول كيت وكيت وهو أبلغ من صريح النهى لمافيه من إيهام أن المنهى حقه أن يسارع الى الانتهاء عمانهى عنه فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهى ويؤيده قراءة لا تعبدوا وعطف قولوا عليه.وقيل تقديره أن لا تعبدوا الخ فحذف الناصب ورفع الفعل كما فى قوله:

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى ☆ وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

ويعضده قراءة ألا تعبدوا فيكون بدلا من الميثاق أو معمولا له بحذف الجار. وقيل انه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قيل وحلفناهم لاتعبدون الا الله وقرىء بالياء لانهم غيب (وبالوالدين احسانا) متعلق بمضمر أى وتحسنون أو أحسنوا (وذى القربى واليتامى والمساكين) عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم كندامى جمع نديم وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كأن الفقر أسكنه من الحراك وأثخنه عن التقلب (وقولوا للناس حسنا) أى قولا حسنا سماه حسنا مبالغة.وقرىء كذلك وحسنا بضمتين وهى لغة أهل الحجاز وحسنى كبشرى والمراد به ما فيه تخلق وارشاد (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) هما مافرض عليهم فى شريعتهم (ثم توليتم) ان جعل ناصب الظرف خطاباً للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهذا التفات الى خطاب بنى اسرائيل جميعا بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجريان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة فان الخطابات السابقة لاسلافهم محكية داخلة فى حيز القول المقدر قبل لا تعبدون كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم فنعيت هى عليهم وان جعل خطابا لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الاسلاف منزلة الاخلاف كما أنه تعميم للتولى بتنزيل الاخلاف منزلة الاسلاف للتشديد فى التوبيخ أى أعرضتم عن المضى على مقتضى الميثاق ورفضتموه (الا قليلا منكم) وهم من الاسلاف من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن الاخلاف من أسلم كعبد الله بن سلام واضرابه (وأنتم معرضون) جملة تذييلية أى وانتم قوم عادتكم الاعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق. وأصل الاعراض الذهاب عن المواجهة والاقبال الى جانب العرض (واذ أخذنا ميثاقكم) منصوب بفعل مضمر خوطب به اليهود قاطبة على ماذكر من التغليب ونعى عليهم اخلالهم بمواجب الميثاق المأخوذ منهم فى حقوق العباد على طريقة النهى أثر بيان ما فعلوا بالميثاق المأخوذ منهم فى حقوق الله سبحانه وما يجرى مجراها على سبيل الامر فان

المقصود الاصلى من النهى عن عبادة غير الله تعالى هو الامر بتخصيص العبادة به تعالى أى واذكروا وقت أخذنا ميثاقكم فى التوراة وقوله تعالى (لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) كما قبله اخبار فى معنى النهى غير السبك اليه لما ذكر من نكتة المبالغة والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى اسرائيل لبعض بالقتل والاجلاء والتعبير عن ذلك بسفك دماء أنفسهم واخراجها من ديارهم بناء على جريان كل واحد منهم مجرى أنفسهم لما بينهم من الاتصال القوى نسبا ودينا للمبالغة فى الحمل على مراعاة حقوق الميثاق بتصوير المنهى عنه بصورة تكرهها كل نفس وتنفر عنها كل طبيعة فضمير أنفسكم للمخاطبين حتما اذ به يتحقق تنزيل المخرجين منزلتهم كما أن ضمير دياركم للمخرجين قطعا اذ المحذور انما هو اخراجهم من ديارهم لا من ديار المخاطبين من حيث انهم مخاطبون كما يفصح عنه ما سيأتى من قوله تعالى من ديارهم وانما الخطاب ههنا باعتبار تنزيل ديارهم منزلة ديار المخاطبين بناء على تنزيل أنفسهم منزلتهم لتأكيد المبالغة وتشديد التشنيع .واما ضمير دماءكم فمحتمل للوجهين مفاد الاول كون المسفوك دماء ادعائية للمخاطبين حقيقة ومفاد الثانى كونه دماء حقيقية للمخاطبين ادعاء وهما متقاربان فى افادة المبالغة فتدبر وأما ما قيل من أن المعنى لا تباشروا ما يؤدى إلى قتل أنفسكم قصاصاً أو ما يبيح سفك دمائكم واخراجكم من دياركم أو لا تفعلوا ما يرديكم ويصرفكم عن الحياة الابدية فانه القتل فى الحقيقة ولا تقترفوا ما تحرمون به عن الجنة التى هى داركم فانه الجلاء الحقيقى فمما لا يساعده سياق النظم الكريم بل هو نص فيما قلناه كما ستقف عليه (ثم أقررتم) أى بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه (وأنتم تشهدون) توكيد للاقرار كقولك أقر فلان شاهداً على نفسه وقيل وأنتم أيها الحاضرون تشهدون اليوم على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق (ثم أنتم هؤلاء) خطاب خاص بالحاضرين فيه توبيخ شديد واستبعاد قوى لما ارتكبوه بعد ما كان من الميثاق والاقرار به والشهادة عليه فأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره ومناط الافادة اختلاف الصفات المنزل منزلة اختلاف الذات والمعنى أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون الناقضون المتناقضون حسبما تعرب عنه الجمل الآتية فان قوله عز وجل (تقتلون أنفسكم) الخ بيان له وتفصيل لاحوالهم المنكرة المندرجة تحت الاشارة ضمنا كأنهم قالوا كيف نحن فقيل تقتلون أنفسكم أى الجارين مجرى أنفسكم كما أشير اليه.وقرئ تقتلون بالتشديد للتكثير (وتخرجون فريقا منكم) الضمير اما للمخاطبين والمضاف محذوف أى من أنفسكم واما للمقتولين

والخطاب باعتبار أنهم جعلوا أنفس المخاطبين والا فلا يتحقق التكافؤ بين المقتولين والمخرجين فى ذلك العنوان الذى عليه يدور فلك المبالغة فى تأكيد الميثاق حسبما نص عليه ولا يظهر كمال قباحة جنايتهم فى نقضه (من ديارهم) الضمير للفريق. وإيثار الغيبة مع جواز الخطاب أيضا بناء على اعتبار العنوان المذكور كما مر فى الميثاق للاحتراز عن توهم كون المراد اخراجهم من ديار المخاطبين من حيث هى ديارهم لا من حيث هى ديار المخرجين . وقيل هؤلاء موصول والجملتان فى حيز الصلة والمجموع هو الخبر لانتم (تظاهرون عليهم) بحذف احدى التاءين. وقرئ باثباتهما وبالادغام وتظهرون بطرح احدى التاءين من تتظهرون ومعنى الكل تتعاونون وهى حال من فاعل تخرجون أو من مفعوله أو منهما جميعا مبينة لكيفية الاخراج دافعة لتوهم اختصاص الحرمة بالاخراج بطريق الاصالة والإستقلال دون المظاهرة والمعاونة (بالاثم) متعلق بتظاهرون حال من فاعله أى ملتبسين بالاثم وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم. وقيل هو ما ينفر عنه النفس ولا يطمئن اليه القلب (والعدوان) وهو التجاوز فى الظلم (وإن يأتوكم أسارى) جمع أسير وهو من يؤخذ قهراً فعيل بمعنى مفعول من الاسر أى الشد أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح . وقد قرئ أسرى ومحله النصب على الحالية (تفادوهم) أى تخرجوهم من الاسر باعطاء الفداء وقرئ تفدوهم قال السدى إن الله تعالى أخذ على بنى اسرائيل فى التوراة الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى اسرائيل فاشتروه واعتقوه وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج حين كان بينهما ما كان من العداوة والشنآن فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فاذا غلبوا اخربوا ديارهم وأخرجوهم منها ثم اذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالا فيفدونه فعيرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم يفدونهم فيقولون أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ولكن نستحى أن نذل حلفاءنا فذمهم الله تعالى على المناقضة (وهو محرم عليكم إخراجهم) هو ضمير الشأن وقع مبتدأ ومحرم فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبراً من إخراجهم والجملة خبر لضمير الشأن. وقيل محرم خبر لضمير الشأن واخراجهم مرفوع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله وقيل الضمير مبهم يفسره إخراجهم أو راجع الى ما يدل عليه تخرجون من المصدر . واخراجهم تأكيد أو بيان والجملة حال من الضمير فى تخرجون أو من فريقا أو منهما كما مر بعد اعتبار القيد بالحال السابقة. وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالاخراج مع كونه قرينا للقتل عند أخذ الميثاق لكونه مظنة للمساهلة فى أمره بسبب

قلة خطره بالنسبة الى القتل ولان مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معا وذلك مختص بصورة الاخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشئ من دية أو قصاص هو السر فى تخصيص التظاهر به فيما سبق . وأما تأخيره من الشرطية المعترضة مع ان حقه التقديم كما ذكره الواحدى فلان نظم أفاعيلهم المتناقضة فى سمط واحد من الذكر أدخل فى إظهار بطلانها (أفتؤمنون ببعض الكتاب) أى التوراة التى أخذ فيها الميثاق المذكور والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام أى أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب وهو المفاداة (وتكفرون ببعض) وهو حرمة القتال والاخراج معان من قضية الايمان ببعضه الايمان بالباقى لكون الكل من عند الله تعالى داخلا فى الميثاق فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض مع ايمانهم بالبعض حسبما يفيده ترتيب النظم الكريم فان التقديم يستدعى فى المقام الخطابى أصالة المقدم وتقدمه بوجه من الوجوه حتما واذ ليس ذلك ههنا باعتبار الانكار والتوبيخ عليه فهو باعتبار الوقوع قطعا لا إيمانهم بالبعض مع كفرهم بالبعض كما هو المفهوم لو قيل أفتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ولا مجرد كفرهم بالبعض وايمانهم بالبعض كما يفيده أن يقال أفتجمعون بين الايمان ببعض الكتاب والكفر ببعض أو بالعكس (فما جزاء من يفعل ذلك) ما نافية ومن ان جعلت موصولة فلا محل ليفعل من الاعراب . وان جعلت موصوفة فمحله الجر على أنه صفتها وذلك اشارة الى الكفر ببعض الكتاب مع الايمان ببعض أو الى ما فعلوا من القتل والاجلاء مع مفاداة الاسارى (منكم) حال من فاعل يفعل (الا خزى) استثناء مفرغ وقع خبرا للمبتدا . والخزى الذل والهوان مع الفضيحة. والتنكير للتفخيم وهو قتل بنى قريظة واجلاء بنى النضير الى أذرعات وأريحاء من الشام وقيل الجزية (فى الحياة الدنيا) فى حيز الرفع على أنه صفة خزى أى خزى كائن فى الحياة الدنيا أو فى حيز النصب على أنه ظرف لنفس الخزى ولعل بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع اطماعهم الفارغة من ثمرات ايمانهم ببعض الكتاب واظهار أنه لا أثر له أصلا مع الكفر ببعض (و يوم القيامة يردون) وقرىء بالتاء أوثر صيغة الجمع نظراً الى معنى من بعد ما أوثر الافراد نظرا الى لفظها لما أن الرد انما يكون بالاجتماع (الى أشد العذاب) لما أن معصيتهم أشد المعاصى و قيل أشد العذاب بالنسبة الى مالهم فى الدنيا من الخزى والصغار . وانما غير سبك النظم الكريم حيث لم يقل مثلا وأشد العذاب يوم القيامة للايذان بكمال التنافى بين جزائى النشأتين . وتقديم يوم القيامة على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخطب وتفظيع الحال من اول

الأمر (وما الله بغافل عما تعملون) من القبائح التى من جملتها هذا المنكر وقرىء بالياء على نهج يردون وهو تأكيد الوعيد (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الاوصاف القبيحة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الذين اشتروا) أى آثروا (الحياة الدنيا) واستبدلوها بالآخرة وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها فان ما ذكر من الكفر ببعض أحكام الكتاب انما كان لمراعاة جانب حلفائهم لما يعود اليهم منهم من بعض المنافع الدنية الدنيوية (فلا يخفف عنهم العذاب) دنيويا كان اواخرويا (ولا هم ينصرون) بدفعه عنهم شفاعة أو جبرا والجملة معطوفة على ما قبلها عطف الاسمية على الفعلية أو ينصرون مفسر لمحذوف قبل الضمير فيكون من عطف الفعلية على مثلها (ولقد آتينا موسى الكتاب) شروع فى بيان بعض آخر من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية لاظهار كمال الاعتناء به والمراد بالكتاب التوراة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان التوراة لما نزلت جملة واحدة أمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق بذلك فبعث الله بكل حرف منها ملكا فلم يطيقوا بحملها فخففها الله تعالى لموسى عليه السلام فحملها (وقفينا من بعده بالرسل) يقال قفا به اذا أتبعه اياه أى أرسلناهم على أثره كقوله تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرمياء وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام (وآتينا عيسى بن مريم البينات) المعجزات الواضحات من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص والاخبار بالمغيبات أو الأنجيل وعيسى بالسريانية ايشوع ومعناه المبارك ومريم بمعنى الخادم وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال وبه فسر قول رؤبة:

قلت لزير لم تصله مريمه ۞ ضليل أهواء الصبا تندمه

ووزنه مفعل اذ لم يثبت فعيل (وأيدناه) أى قويناه وقرىء آيدناه (بروح القدس) بضم الدال.وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة وهى روح عيسى عليه السلام كقولك حاتم الجود ورجل صدق.وانما وصفت بالقدس لكرامته أو لأنه عليه السلام لم تضمه الاصلاب ولا أرحام الطوامث.وقيل بجبريل عليه السلام وقيل بالانجيل كما قيل فى القرآن روحا من أمرنا وقيل باسم الله الأعظم الذى كان يحيى الموتى بذكره .وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من ايتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثتهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها.وأما عيسى عليه السلام فقد نسخ بشرعه كثير من أحكامها ولحسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ببيان

حقيته واظهار كال قبح ما فعلوا به عليه السلام (أفكلما جاءكم رسول) من أولئك الرسل (بما لا تهوى أنفسكم) من الحق الذى لا محيد عنه أى لا تحبه من هوى كفرح اذا أحب.والتعبير عنه بذلك للايذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لاهواء أنفسهم والموافقة لها لا شيء آخر. وتوسيط الهمزة بين الفاء وما تعلقت به من الافعال السابقة لتو بيخهم على تعقيبهم ذلك بهذا و للتعجيب من شأنهم و يجوز كون الفاء للعطف على مقدر يناسب المقام أى ألم تطيعوهم فكلما جاءكم رسول منهم بما لا تهوى أنفسكم (استكبرتم) عن الاتباع له والايمان بما جاء به من عند الله تعالى (ففريقاً) منهم (كذبتم) من غير أن تتعرضوا لهم بشيء آخر من المضار والفاء للسببية أو للتعقيب (وفريقا) آخر منهم (تقتلون) غير مكتفين بتكذيبهم كزكريا و يحيى و غيرهما عليهم السلام و تقديم فريقاً فى الموضعين للاهتمام وتشويق السامع الى مافعلوا بهم لا للقصر. وايثار صيغة الاستقبال فى القتل لاستحضار صورته الهائلة أو للايماء الى أنهم بعد على تلك النية حيث هموا بما لم ينالوه من جهته عليه السلام و سحروه وسموا له الشاة حتى قال صلى الله عليه وسلم «ما زالت أكلة خيبر تعاودنى» فهذا أوان قطعت ابهرى (وقالوا) بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات الى الغيبة اشعارا بابعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للاعراض عنهم وحكاية نظائرها لكل من يفهم بطلانها وقباحتها من أهل الحق والقائلون هم الموجودون فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام (قلوبنا غلف) جمع أغلف مستعار من الأغلف الذى لم يختن أى هى مغشاة باغشية جبلية لا يكاد يصل اليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه كقولهم: قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه. وقيل هو تخفيف غلف جمع غلاف و يؤيده ما روى عن أبى عمرو من القراءة بضمتين يعنون أن قلوبنا أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبى يعنون أن قلوبنا لا يصل اليها حديث الا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضاً (بل لعنهم الله بكفرهم) رد لما قالوه و تكذيب لهم فى ذلك والمعنى على الأول بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأن خذلهم وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض و ابطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرة و كونهم بحيث لا ينفعهم الالطاف أصلا بعد أن خلقهم على الفطرة و التمكن من قبول الحق وعلى الثانى بل أبعدهم من رحمته فانى لهم ادعاء العلم الذى هو أجل آثارها وعلى الثالث بل أبعدهم من رحمته فلذلك لايقبلون الحق المؤدى اليها (فقليلا ما يؤمنون) ما مزيدة للمبالغة أى فايمانا قليلا يؤمنون وهو ايمانهم ببعض الكتاب

وقيل فزمانا قليلا يؤمنون وهو ما قالوا: آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره . وكلاهما ليس بايمان حقيقة . وقيل أريد بالقلة العدم والفاء لسببية اللعن لعدم الايمان (ولما جاءهم كتاب) هو القرآن وتنكيره للتفخيم ووصفه بقوله عز وجل (من عند الله) أى كائن من عنده تعالى للتشريف (مصدق لما معهم) من التوراة عبر عنها بذلك لما أن المعية من موجبات الوقوف على مافى تضاعيفها المؤدى الى العلم بكونه مصدقا لها.وقرىء مصدقا على أنه حال من كتاب لتخصصه بالوصف (وكانوا من قبل) أى من قبل مجيئه (يستفتحون على الذين كفروا) أى وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم قال ابن عباس وقتادة والسدى نزلت فى بنى قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه.وقيل معنى يستفتحون يفتحون عليهم ويعرفونهم بأن نبيا يبعث منهم قد قرب أوانه والسين للمبالغة كما فى استعجب أى يسألون من أنفسهم الفتح عليهم أو يسأل بعضهم بعضاً ان يفتح عليهم وعلى التقديرين فالجملة حالية مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم وقوله عز وعلا (فلما جاءهم) تكرير للاول لطول العهد بتوسط الجملة الحالية وقوله تعالى (ماعرفوا) عبارة عما سلف من الكتاب لان معرفة من أنزل هو عليه معرفة له والاستفتاح به استفتاح به.وايراد الموصول دون الاكتفاء بالاضمار لبيان كمال مكابرتهم فان معرفة ماجاءهم من مبادى الايمان به ودواعيه لامحالة.والفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له وقوله تعالى (كفروا به) جواب لما الاولى كما هو رأى المبرد أو جوابهما معا كما قاله أبو البقاء . وقيل جواب الاولى محذوف لدلالة المذكور عليه فيكون قوله تعالى وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية عطف القصة على القصة والمراد بما عرفوا النبى صلى الله عليه وسلم كما هو المراد بما كانوا يستفتحون به فالمعنى ولما جاءهم كتاب مصدق لكتابهم كذبوه وكانوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليه ذلك الكتاب فلما جاءهم النبى الذى عرفوه كفروا به (فلعنة الله على الكافرين) اللام للعهد أى عليهم ووضع المظهر موضع المضمر للاشعار بان حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم كما أن الفاء للايذان بترتبها عليه أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا اذ الكلام فيهم وأياما كان فهو محقق لمضمون قوله

تعالى بل لعنهم الله بكفرهم (بئسما اشتروا به أنفسهم) ما نكرة بمعنى شيء منصوبة مفسرة لفاعل بئس واشتروا صفته أي بئس شيئاً باعوا به أنفسهم وقيل اشتروها به في زعمهم حيث يعتقدون انهم بما فعلوا خلصوها من العقاب ويأباه أنه لا بد أن يكون المذموم ما كان حاصلا لهم لا ما كان زائلا عنهم والمخصوص بالذم قوله تعالى (ان يكفروا بما أنزل الله) أي بالكتاب المصدق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته. وتبديل الانزال بالمجيء للايذان بعلو شأنه الموجب للايمان به (بغيا) حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة لان يكفروا حتما دون اشتروا لما قيل من الفصل بما هو أجنبي بالنسبة اليه وان لم يكن أجنبيا بالنسبة الى فعل الذم وفاعله ولان البغي مما لا تعلق له بعنوان البيع قطعاً لا سيما وهو معلل بما سيأتي من تنزيل الله تعالى من فضله على من يشاؤه وانما الذي بينه وبينه علاقة هو كفرهم بما أنزل الله والمعنى بئس شيئاً باعوا به انفسهم كفرهم المعلل بالبغي الكائن لاجل (أن ينزل الله من فضله) الذي هو الوحي (على من يشاء) أي يشاؤه ويصطفيه (من عباده) المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة ومآله تعليل كفرهم بالمنزل بحسدهم المنزل عليه. وايثار صيغة التفعيل ههنا للايذان بتجدد بغيهم حسب تجدد الانزال وتكثره حسب تكثره (فباءوا بغضب على غضب) أي رجعوا ملتبسين بغضب كائن على غضب مستحقين له حسبما اقترفوا من كفر على كفر فانهم كفروا بنبي الحق وبغوا عليه وقيل كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى وقيل بعد قولهم عزير ابن الله وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك من فنون كفرهم (وللكافرين) أي لهم والاظهار في موقع الاضمار للاشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم (عذاب مهين) يراد به اهانتهم واذلالهم لما أن كفرهم بما انزل الله تعالى كان مبنيا على الحسد المبني على طمع المنزول عليهم وادعاء الفضل على الناس والاستهانة بمن أنزل عليه عليه السلام (واذا قيل) من جانب المؤمنين (لهم) أي لليهود وتقديم الجار والمجرور قد مر وجهه لا سيما في لام التبليغ (آمنوا بما أنزل الله) من الكتب الالهية جميعاً والمراد به الامر بالايمان بالقرآن لكن سلك مسلك التعميم ايذانا بتحتم الامتثال من حيث مشاركته لما آمنوا به فيما في حيز الصلة وموافقته له في المضمون وتنبيها على أن الايمان بما عداه من غير ايمان به ليس بايمان بما أنزل الله (قالوا نؤمن) أي نستمر على الايمان (بما أنزل علينا) يعنون به التوراة وما نزل على أنبياء بني اسرائيل لتقرير حكمها ويدسون فيه أن ماعدا ذلك غير منزل عليهم ومرادهم بضمير المتكلم اما

أنفسهم فمعنى الانزال عليهم تكليفهم بما فى المنزل من الاحكام. وأما أنبياء بنى اسرائيل وهو الظاهر لاشتماله على مزية الايذان بان عدم ايمانهم بالفرقان لما مر من بغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم ولان مرادهم بالموصول وان كان هو التوراة وما فى حكمها خاصة لكن ايرادها بعنوان الانزال عليهم مبنى على ادعاء ان ماعداها ليس كذلك على وجه التعريض كما أشير اليه فلو أريد بالانزال عليهم ماذكر من تكليفهم يلزم من مغايرة القرآن لما أنزل عليهم حسبما يعرب عنه قوله عزوجل (ويكفرون بما وراءه) عدم كونهم مكلفين بما فيه كما يلزم عدم كونه نازلا على واحد من بنى اسرائيل على الوجه الاخير وتجريد الموصول عند الاضمار عما عرضوا به تعسف لايخفى. والوراء فى الاصل مصدر جعل ظرفا ويضاف الى الفاعل فيراد به مايتوارى به وهو خلفه والى المفعول فيراد به ما يواريه وهو أمامه والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير مبتدا أى قالوا ماقالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المراد مجرد بيان أن أفراد ايمانهم بما أنزل عليهم بالذكر لنفى ايمانهم بماوراءه بل بيان ان مايدعون من الايمان ليس بايمان بما أنزل عليهم حقيقة فان قوله عزاسمه (وهو الحق) أى المعروف بالحقية الحقيق بان يخص به اسم الحق على الاطلاق حال من فاعل يكفرون وقوله تعالى (مصدقا) حال مؤكدة لمضمون الجملة صاحبها إما ضمير الحق وعاملها مافيه من معنى الفعل قاله أبو البقاء وأما ضمير دل عليه الكلام وعاملها فعل مضمر أى أحقه مصدقا (لما معهم) من التوراة والمعنى قالوا أنؤمن بما أنزل علينا وهم يكفرون بالقرآن والحال انه حق مصدق لما آمنوا به فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ومآله انهم ادعوا الايمان بالتوراة والحال انهم يكفرون بما يلزم من الكفر به الكفر بها (قل) تبكيتا لهم من جهة الله عزوجل من قائل ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم بعد بيان التناقض فى أقوالهم (فلم) أصله لما حذفت عنه الالف فرقا بين الاستفهامية والخبرية (تقتلون أنبياء الله من قبل) الخطاب للحاضرين من اليهود والماضين على طريق التغليب وحيث كانوا مشاركين فى العقد والعمل كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضا على اخلافهم. وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وهو جواب شرط محذوف أى قل لهم ان كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون فلاى شىء كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام. وقرئ أنبياء الله مهموزا وقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) تكرير للاعتراض لتأكيد الالزام وتشديد التهديد أى ان كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم وقد حذف من كل واحدة من الشرطيتين ماحذف ثقة بما أثبت فى الاخرى

وقيل لاحذف فيه بل تقديم الجواب على الشرط وذلك لايتأتى الا على رأى الكوفيين وأبى زيد. وقيل ان نافية أى ما كنتم مؤمنين والا لما قتلتموهم (ولقد جاءكم موسى بالبينات) من تمام التبكيت والتوبيخ داخل تحت الامر لا تكرير لما قص فى تضاعيف تعداد النعم التى من جملتها العفو عن عبادة العجل واللام للقسم أى والله لقد جاءكم موسى ملتبسا بالمعجزات الظاهرة التى هى العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقد عد منها التوراة وليس بواضح فان المجيء بها بعد قصة العجل (ثم اتخذتم العجل) أى الها (من بعده) أى من بعد مجيئه بها وقيل من بعد ذهابه الى الطور فتكون التوراة حينئذ من جملة البينات وثم للتراخى فى الرتبة والدلالة على نهاية قبح ماصنعوا (وأنتم ظالمون) حال من ضمير اتخذتم بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته واضعين لها فى غير موضعها أو بالاخلال بحقوق آيات الله تعالى أو اعتراض أى وأنتم قوم عادتكم الظلم (واذ أخذنا ميثاقكم) توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيب لهم فى ادعائهم الايمان بما أنزل عليهم بتذكير جناياتهم الناطقة بكذبهم أى واذكروا حين أخذنا ميثاقكم (ورفعنا فوقكم الطور) قائلين (خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) أى خذوا بما أمرتم به فى التوراة واسمعوا مافيها سمع طاعة وقبول (قالوا) استئناف مبنى على سؤال سائل كانه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا (سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك فاذا قابل اسلافهم مثل ذلك الخطاب المؤكد مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزة الباهرة بمثل هذه العظيمة الشنعاء وكفروا بما فى تضاعيف التوبة فكيف يتصور من خلافهم الايمان بما فيها (وأشربوا فى قلوبهم العجل) على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه للمبالغة أى تداخلهم حبه ورسخ فى قلوبهم صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب اعماق البدن وفى قلوبهم بيان لمكان الاشراب كما فى قوله تعالى (انما يأكلون فى بطونهم ناراً) والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير قد (بكفرهم) بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك قيل كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن فى قلوبهم ماسول لهم السامرى (قل) توبيخ لحاضرى اليهود أثر ماتبين أحوال رؤسائهم الذين بهم يقتدون فى كل ما يأتون وما يذرون (بئسما يأمركم به ايمانكم) بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدعون والمخصوص بالذم محذوف أى ما ذكر من قولهم سمعنا وعصينا وعبادتهم العجل. وفى اسناد الامر الى الايمان تهكم بهم واضافة الايمان اليهم للايذان بانه ليس بايمان حقيقة كما ينبئ عنه قوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) فانه قدح

فى دعواهم الايمان بما أنزل عليهم من التوراة وابطال لها وتقريره ان كنتم مؤمنين بها عاملين فيما ذكر من القول والعمل بما فيها فبئسما يأمركم به ايمانكم بها واذ لا يسوغ الايمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعا وجواب الشرط كما ترى محذوف لدلالة ماسبق عليه (قل) كرر الامر مع قرب العهد بالامر السابق لما انه أمر بتبكيتهم واظهار كذبهم فى فن آخر من أباطيلهم لكنه لم يحك عنهم قبل الامر بابطاله بل اكتفى بالاشارة اليه فى تضاعيف الكلام حيث قيل (ان كانت لكم الدار الآخرة) أى الجنة أو نعيم الدار الآخرة (عند الله خالصة) أى سالمة لكم خاصة بكم كما تدعون أنه لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى. ونصبها على الحالية من الدار وعند ظرف للاستقرار فى الخبر أعنى لكم وقوله تعالى (من دون الناس) فى محل النصب بخالصة يقال خلص لى كذا من كذا. واللام للجنس أى الناس كافة أو للعهد أى المسلمين (فتمنوا الموت) فان من أيقن بدخول الجنة اشتاق الى التخلص اليها من دارة البوار وقرارة الاكدار. لاسيما اذا كانت خالصة له كما قال على كرم الله وجهه لاأبالى أسقطت على الموت أو سقط الموت على وقال عمار بن ياسر بصفين الآن ألاقى الاحبة محمدا وحزبه وقال حذيفة بن اليمان حين احتضر وقد كان يتمنى الموت قبل:

جاء حبيب على فاقة ☆ فلا أفلح اليوم من قد ندم

أى على التمنى وقوله تعالى (ان كنتم صادقين) تكرير للكلام لتشديد الالزام وللتنبيه على أن ترتب الجواب ليس على تحقق الشرط فى نفس الامر فقط بل فى اعتقادهم أيضا وانهم قد ادعوا ذلك والجواب محذوف ثقة بدلالة ماسبق عليه أى ان كنتم صادقين فتمنوه وقوله تعالى (ولن يتمنوه أبدا) كلام مستأنف غير داخل تحت الامر سيق من جهته سبحانه لبيان ما يكون منهم من الاحجام عما دعوا اليه الدال على كذبهم فى دعواهم (بما قدمت أيديهم) بسبب ماعملوا من المعاصى الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبى عليه السلام والقرآن وتحريف التوراة ولما كانت اليد من بين جوارح الانسان مناط عامة صنائعه ومدار أكثر منافعه عبر بها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة (والله عليم بالظالمين) أى بهم. وايثار الاظهار على الاضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى جميع الامور التى من جملتها ادعاء ماليس لهم ونفيه عن غيرهم. والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه أى عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصى المفضية الى أفانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدى الى ذلك فوقع الامر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد اذ لو وقع ذلك لنقل واشتهر وعن النبى صلى الله عليه وسلم «لو تمنوا الموت

لغص كل انسان بريقه فمات مكانه وما بقى يهودى على وجه الارض» (ولتجدنهم أحرص الناس) من الوجدان العقلى وهو جار مجرى العلم خلا أنه مختص بما يقع بعد التجربة ونحوها ومفعولاه الضمير وأحرص. والتنكير فى قوله تعالى (على حياة) للايذان بأن مرادهم نوع خاص منها وهى الحياة المتطاولة وقرئ بالتعريف (ومن الذين اشركوا) عطف على ماقبله بحسب المعنى كأنه قيل أحرص من الناس ومن الذين اشركوا وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى الناس للايذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص للمبالغة فى توبيخ اليهود فان حرصهم وهم معترفون بالجزاء لما كان أشد من حرص المشركين المنكرين له دل ذلك على جزمهم بمصيرهم الى النار. ويجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقة بانباء المعطوف عليه عنه أى وأحرص من الذين أشركوا فقوله تعالى (يود أحدهم) بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف ويجوز أن يكون فى حيز الرفع صفة لمبتدأ محذوف خبره الظرف المتقدم على أن يكون المراد بالمشركين اليهود لقولهم عزير ابن الله أى ومنهم طائفة يود أحدهم أيهم كان أى كل واحد منهم (لو يعمر ألف سنة) وهو حكاية لودادتهم كانه قيل ليتنى اعمر وانما أجرى على الغيبة لقوله تعالى يود كما تقول حلف بالله ليفعلن ومحله النصب على أنه مفعول يود اجراء له مجرى القول لانه فعل قلبى (وماهو بمزحزحه من العذاب) ما حجازية والضمير العائد على أحدهم اسمها وبمزحزحه خبرها والباء زائدة و (أن يعمر) فاعل مزحزحه أى وما أحدهم بمن يزحزحه أى يبعده وينجيه من العذاب تعميره وقيل الضمير لما دل عليه يعمر من المصدر وان يعمر بدل منه. وقيل هو مبهم وأن يعمر مفسره والجملة حال من أحدهم والعامل يود لا يعمر على أنها حال من ضميره لفساد المعنى أو اعتراض. وأصل سنة سنوة لقولهم سنوات وسنية وقيل سنهة كجبهة لقولهم سانهته وسنيهة وتسنهت النخلة اذا أتت عليها السنون (والله بصير بما يعملون) البصير فى كلام العرب العالم بكنه الشئ الخبير به ومنه قولهم فلان بصير بالفقه أى عليم بخفيات أعمالهم فهو مجازيهم بها لا محالة. وقرئ بتاء الخطاب التفاتا وفيه تشديد للوعيد (قل من كان عدوا لجبريل) نزل فى عبدالله بن صوريا من أحبار فدك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عمن نزل عليه بالوحى فقال عليه السلام جبريل عليه السلام فقال هو عدونا لو كان غيره لآمنا بك وفى بعض الروايات ورسولنا ميكائيل فلو كان هو الذى يأتيك لآمنا بك وقد عادانا مرارا وأشدها أنه انزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بخت نصر فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا فدفع عنه جبريل عليه السلام وقال ان كان ربكم آمره بهلاككم فانه لا يسلطكم عليه والا فبأى حق تقتلونه. وقيل أمره الله تعالى أن

يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا وروى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض باعلى المدينة وكان ممره على مدارس اليهود فكان يجلس اليهم ويسمع كلامهم فقالوا ياعمر قد أحببناك وانا لنطمع فيك فقال والله ماأجيئكم لحبكم ولا اسألكم لشك فى دينى وانما أدخل عليكم لازداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن جبريل عليه السلام فقالوا ذاك هو عدونا يطلع محمدا على اسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل يجيء بالخصب والسلام فقال لهم وما منزلتهما عندالله تعالى قالوا جبريل أقرب منزلة هو عن يمينه وميكائيل عن يساره وهما متعاديان فقال عمر رضى الله عنه ان كانا كما تقولون فماهما بعدوين ولانتم أكفر من الحمير ومن كان عدوا لاحدهما فهو عدو للآخر ومن كان عدوا لهما كان عدوا لله سبحانه ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحى فقال النبى صلى الله عليه وسلم لقد وافقك ربك ياعمر فقال عمر رضى الله عنه لقد رأيتنى فى دينى بعد ذلك أصلب من الحجر وقرىء جبرئيل كسلسبيل وجبرئل كجحمرش وجبريل وجبرئل وجبرائيل كجبراعيل وجبرائل كجبراعل ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة وقيل معناه عبد الله (فانه نزله) تعليل لجواب الشرط قائم مقامه والبارز الاول لجبريل عليه السلام والثانى للقرآن اضمر من غير ذكر ايذانا بفخامة شأنه واستغنائه عن الذكر لكمال شهرته ونباهته لاسيما عند ذكر شيء من صفاته (على قلبك) زيادة تقرير للتنزيل ببيان محل الوحى فانه القابل الاول له ومدار الفهم والحفظ. وايثار الخطاب على التكلم المبنى على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما فى قوله تعالى «قل ياعبادى الذين أسرفوا على انفسهم» لما فى النقل بالعبارة من زيادة تقرير لمضمون المقالة (باذن الله) بامره وتيسيره مستعار من تسهيل الحجاب وفيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام الى تنزيله وصدق عزيمته عليه السلام وهو حال من فاعل نزله وقوله تعالى (مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب الالهية التى معظمها التوراة حال من مفعوله وكذا قوله تعالى (وهدى وبشرى للمؤمنين) والعامل فى الكل نزله والمعنى من عادى جبريل من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته بل يجب عليه محبته فانه نزل عليك كتابا مصدقا لكتبهم أو فالسبب فى عداوته تنزيله لكتاب مصدق لكتابهم موافق له وهم له كارهون ولذلك حرفوا كتابهم وجحدوا موافقته له لان الاعتراف بها يوجب الايمان به وذلك يستدعى انتكاس أحوالهم وزوال رياستهم وقيل أن الجواب فقد خلع ربقة الانصاف أو فقد كفر بما معه من الكتاب أو فليمت غيظا أو فهو عدو لى وأنا عدو له (من كان عدو الله) أريد بعداوته تعالى مخالفة أمره عنادا والخروج عن طاعته مكابرة أو عداوة خواصه ومقربيه

لكن صدر الكلام بذكره الجليل تفخيما لشأنهم وايذانا بان عداوتهم عداوته عز وعلا كما فى قوله عز وجل «والله ورسوله أحق أن يرضوه» ثم صرح بالمرام فقيل (وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل) وانما افرادا بالذكر مع أنهما أول من يشمله عنوان الملكية والرسالة لاظهار فضلهما كأنهما عليهما السلام من جنس آخر أشرف مما ذكر تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الجنس وللتنبيه على أن عداوة أحدهما عداوة للآخر حسما لمادة اعتقادهم الباطل فى حقهما حيث زعموا أنهما متعاديان وللاشارة الى أن معاداة الواحد والكل سواء فى الكفر واستتباع العداوة من جهة الله سبحانه وأن من عادى أحدهم فكأنما عادى الجميع وقوله تعالى (فان الله عدو للكافرين) أى لهم جواب الشرط والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب وإيثار الأسمية للدلالة على التحقيق والثبات. ووضع الكافرين موضع المضمر للايذان بأن عداوة المذكورين كفر وان ذلك بين لايحتاج الى الاخبار به وأن مدار عداوته تعالى لهم وسخطه المستوجب لأشد العقوبة والعذاب هو كفرهم المذكور. وقرىء ميكائل كميكاعل وميكائيل كميكاعيل وميكئل كميكعل وميكئيل كميكعيل (ولقد أنزلنا اليك آيات بينات) واضحات الدلالة على معانيها وعلى كونها من عند الله عز وجل (وما يكفر بها إلا الفاسقون) أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن حدوده فان من ليس على تلك الصفة من الكفرة لايجترىء على الكفر بمثل هاتيك البينات قال الحسن اذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال «قال ابن صوريا يارسول الله صلى الله عليه وسلم ماجئتنا بشىء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها فنزلت» واللام للعهد أى الفاسقون المعهودون وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم الخارجون عن دينهم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا (أو كلما عاهدوا عهدا) الهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكفروا بها وهى فى غاية الوضوح وكلما عاهدوا عهدا ومن جملة ذلك ما أشير اليه فى قوله تعالى «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا» من قولهم للمشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. وقرىء بسكون الواو على أن تقدير النظم الكريم وما يكفر بها إلا الذين فسقوا أو نقضوا عهودهم مرارا كثيرة. وقرىء عوهدوا وعهدوا. وقوله تعالى عهدا إما مصدر مؤكد لعاهدوا من غير لفظه أو مفعول له على أنه بمعنى أعطوا العهد (نبذه فريق منهم) أى رموا بالزمام ورفضوه. وقرىء نقضه واسناد النبذ الى

فريق منهم لأن منهم من لم ينبذه (بل أكثرهم لا يؤمنون) أى بالتوراة وهذا دفع لما
يتوهم من أن النابذين هم الاقلون وأن من لم ينبذ جهاراً فهم يؤمنون بها سرا (ولما
جاءهم رسول) وهو النبي صلى الله عليه وسلم والتنكير للتفخيم ومن عند الله متعلق
بجاء أو بمحذوف وقع صفة لرسول لافادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير من
الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية (مصدق لما معهم) من التوراة من حيث أنه صلى الله
عليه وسلم قرر صحتها وحقق حقية نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بما أنزل عليه أو من حيث
انه عليه السلام جاء على وفق ما نعت فيها (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب) أى
التوراة وهم اليهود الذين كانوا فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ممن كانوا يستفتحون به
قبل ذلك لا الذين كانوا فى عهد سليمان عليه السلام كما قيل لان النبذ عند مجيء النبي
صلى الله عليه وسلم لا يتصور منهم. وافراد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه تحت قوله
عز وجل «أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم» لانه معظم جناياتهم ولانه تمهيد لذكر
اتباعهم لما تتلوا الشياطين وايثارهم له عليه والمراد بايتائها اما ايتاء علمها بالدراسة والحفظ
والوقوف على ما فيها فالموصول عبارة عن علمائهم. وأما مجرد انزالها عليهم فهو عبارة
عن الكل وعلى التقديرين فوضعه موضع الضمير للايذان بكمال التنافى بين ما أثبت
لهم فى حيز الصلة وبين ما صدر عنهم من النبذ (كتاب الله) أى الذى أوتوه قال
السدى لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراة والفرقان
فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن فهذا
قوله تعالى «ولما جاءهم رسول من عند الله» الخ وانما عبر عنها بكتاب الله تشريفا لها وتعظيما
لحقها عليهم وتهويلا لما اجترأوا عليه من الكفر بها. وقيل كتاب الله القرآن نبذوه بعد
ما لزمهم تلقيه بالقبول لاسيما بعد ما كانوا يستفتحون به من قبل فان ذلك قبول له
وتمسك به فيكون الكفر به عند مجيئه نبذا له كأنه قيل كتاب الله الذى جاء به فان مجيء
الرسول معرب عن مجيء الكتاب (وراء ظهورهم) مثل لتركهم واعراضهم عنه
بالكلية مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات اليه (كأنهم لا يعلمون)
جملة حالية أى نبذوه وراء ظهورهم مشبهين بمن لا يعلمه فان أريد بهم أحبارهم فالمعنى
كأنهم لا يعلمونه على وجه الايقان ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته عليه الصلاة
والسلام ففيه ايذان بأن علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لا يعلمون أنه كتاب
الله أو لا يعلمونه أصلا كما اذا أريد بهم الكل وفى هذين الوجهين زيادة مبالغة فى
اعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة هذا. وان أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن

فالمراد بالعلم المنفى فى قوله تعالى «كأنهم لا يعلمون» هو العلم بأنه كتاب الله ففيه ما فى الوجه الاول من الاشعار بانهم متيقنون فى ذلك وانما يكفرون به مكابرة وعنادا. قيل ان جيل اليهود أربع فرق ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب وهم الاقلون المشار اليهم بقوله عزوجل «بل أكثرهم لا يؤمنون» وفرقة جاهروا بنبذ العهود وتعدى الحدود تمردا وفسوقا وهم المعنيون بقوله تعالى «نبذه فريق منهم» وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوها لجهلهم بها وهم الاكثرون. وفرقة تمسكوا بها ظاهرا ونبذوها خفية وهم المتجاهلون (واتبعوا ما تتلوا الشياطين) عطف على جواب لما أى نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة التى كانت تقرؤها الشياطين وهم المتمردون من الجن. وتتلوا حكاية حال ماضية والمراد بالاتباع التوغل والتمحض فيه والاقبال عليه بالكلية والا فأصل الاتباع كان حاصلا قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتسنى عطفه على جواب لما ولذلك قيل هو معطوف على الجملة وقيل على اشربوا (على ملك سليمان) أى فى عهد ملكه قيل كانت الشياطين يسترقون السمع ويضمون الى ماسمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها الى الكهنة وهم يدونونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك فى عهد سليمان عليه السلام حتى قيل أن الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون هذا علم سليمان وماتم له ملكه الا بهذا العلم وبه سخر الانس والجن والطير والريح التى تجرى بأمره. وقيل ان سليمان عليه السلام كان قد دفن كثيرا من العلوم التى خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه فلما مضت على ذلك مدة توصل اليها قوم من المنافقين فكتبوا فى خلال ذلك اشياء من فنون السحر تناسب تلك الاشياء المدفونة من بعض الوجوه ثم بعد موته واطلاع الناس على تلك الكتب اوهموهم انه من عمل سليمان عليه السلام وانه مابلغ هذا المبلغ الا بسبب هذه الاشياء (وما كفر سليمان) تنزيه لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيب لمن افترى عليه بانه كان يعتقده ويعمل به. والتعرض لكونه كفرا للمبالغة فى اظهار نزاهته عليه السلام وكذب باهتيه بذلك (ولكن الشياطين) وقرىء بتخفيف لكن ورفع الشياطين والواو عاطفة للجملة الاستدراكية على ماقبلها وكون المخففة عند الجمهور للعطف انما هو عند عدم الواو وكون مابعدها مفردا (كفروا) باستعمال السحر وتدوينه (يعلمون الناس السحر) اغواء واضلالا والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير كفروا او من الشياطين فان مافى لكن من رائحة الفعل كاف فى العمل فى الحال او فى محل الرفع على انه خبر ثان للكن او بدل من الخبر الاول. وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار التعليم وتجدده أو جملة مستأنفة هذا على تقدير كون الضمير للشياطين واما على تقدير رجوعه الى فاعل اتبعوا فهى اما حال منه واما استئنافية فحسب. واعلم ان السحر

انواع. منها سحر الكلدانيين الذين كانوا فى قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون انها هى المدبرة لهذا العالم ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الارضية وهم الذين بعث الله تعالى ابراهيم عليه الصلاة والسلام لابطال مقالتهم وهم ثلاث فرق ففرقة منهم يزعمون ان الافلاك والنجوم واجبة الوجود لذواتها وهم الصابئة. وفرقة يقولون بالهية الافلاك ويتخذون لكل واحد منها هيكلا ويشتغلون بخدمتها وهم عبدة الاوثان. وفرقة اثبتوا للافلاك وللكواكب فاعلا مختاراً لكنهم قالوا انه اعطاها قوة عالية نافذة فى هذا العالم وفوض تدبيره اليها. ومنها سحر اصحاب الاوهام والنفوس القوية فانهم يزعمون ان الانسان تبلغ روحه بالتصفية فى القوة والتأثير الى حيث يقدر على الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة وتغيير البنية والشكل. ومنها سحر من يستعين بالارواح الارضية وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجن. ومنها التخييلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة ولا خلاف بين الامة فى أن من اعتقد الاول فقد كفر وكذا من اعتقد الثانى وهو سحر اصحاب الأوهام والنفوس القوية وامامن اعتقد أن الانسان يبلغ بالتصفية وقراءة العزائم والرقى الى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب ذلك على سبيل جريان العادة بعض الخوارق فالمعتزلة اتفقوا على أنه كافر لانه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الانبياء والرسل بخلاف غيرهم. ولعل التحقيق ان ذلك الانسان ان كان خيرا متشرعا فى كل ما يأتى ويذر وكان من يستعين به من الارواح الخيرة وكانت عزائمه ورقاه غير مخالفة لاحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيما ظهر فى يده من الخوارق ضرر شرعي لاحد فليس ذلك من قبيل السحر وان كان شريرا غير متمسك بالشريعة الشريفة فظاهر أن من يستعين به من الارواح الخبيثة الشريرة لا محالة ضرورة امتناع تحقق التضام والتعاون بينهما من غير اشتراك فى الخبث والشرارة فيكون كافرا قطعا، وأما الشعوذة وما يجرى مجراها من اظهار الامور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الادوية والاحجار فاطلاق السحر عليها بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة لانه فى الاصل عبارة عن كل ما لطف مأخذه وخفى سببه أو من الصرف عن الجهة المعتادة لما أنه فى أصل اللغة الصرف على ما حكاه الازهرى عن الفراء ويونس (وما أنزل على الملكين) عطف على السحر أى ويعلمونهم ما أنزل عليهما والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه أو على ما تتلوا وما بينهما اعتراض أى واتبعوا ما أنزل الخ وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس كما ابتلى قوم

طالوت بالنهر . أو تمييز أ بينه و بين المعجزة لئلا يغتر به الناس. أو لأن السحرة كثرت فى ذلك الزمان واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين واظهار أمرهم على الناس . و اماما يحكى «من ان الملائكة عليهم السلام لما رأوا ما يصعد من ذنوب بنى آدم عيروهم وقالوا لله سبحانه هؤلاء الذين اخترتهم لخلافة الأرض يعصونك فيها فقال عز وجل: لو ركبت فيكم ما ركبت فيهم لعصيتمونى قالوا سبحانك ما ينبغى لنا أن نعصيك قال تعالى فاختاروا من خياركم ملكين فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلحهم واعبدهم فأهبطا الى الأرض بعد ما ركب فيهما ما ركب فى البشر من الشهوة وغيرها من القوى ليقضيا بين الناس نهارا ويعرجا الى السماء مساء وقد نهيا عن الاشراك والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا يقضيان بينهم نهارا فاذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم فصعدا الى السماء فاختصمت اليهما ذات يوم امرأة من أجمل النساء تسمى زهرة وكانت من لخم وقيل كانت من أهل فارس ملكة فى بلدها وكانت خصومتها مع زوجها فلما رأياها افتتنا بها فراوداها عن نفسها فأبت فالحاعليها فقالت لا الا ان تقضيالى على خصمى ففعلا ثم سألاها ماسألا فقالت لا الا أن تقتلاه ففعلا ثم سألاها ما سألا فقالت لا الا أن تشربا الخمر وتسجدا للصنم ففعلا كلا من ذلك بعد اللتيا والتى ثم سألاها ماسألا فقالت لا الا ان تعلمانى ما تصعدان به الى السماء فعلماها الاسم الأعظم فدعت به وصعدت الى السماء فمسخها الله سبحانه كوكبا فهما بالعروج حسب عادتهما فلم تطعهما أجنحتهما فعلما ما حل بهما و كانا فى عهد ادريس عليه السلام فالتجآ اليه ليشفع لهما ففعل فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الأول لانقطاعه عما قليل فهما معذبان ببابل » قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان يضربان بسياط الحديد الى قيام الساعة فمما لا تعويل عليه لما أن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل ولعله من مقولة الأمثال والرموز التى قصد بها ارشاد اللبيب الاريب بالترغيب والترهيب وقيل هما رجلان سميا ملكين لصلاحهما و يعضده قراءة الملكين بالكسر (ببابل) الباء بمعنى فى وهى متعلقة بانزل أو بمحذوف وقع حالا من الملكين أو من الضمير فى أنزل وهى بابل العراق وقال ابن مسعود رضى الله عنه بابل أرض الكوفة وقيل جبل دماوند ومنع الصرف للعجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية (هاروت وماروت) عطف بيان للملكين علمان لهما ومنع صرفهما للعجمة والعلمية ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا. وأما من قرأ الملكين بكسر اللام أو قال كانا رجلين صالحين

فقال هما اسمان لهما وقيل هما اسما قبيلتين من الجن هما المراد من الملكين بالكسر وقرئ بالرفع على هما هاروت وماروت (وما يعلمان من أحد) من مزيدة في المفعول به لافادة تأكيد الاستغراق الذي يفيده أحد لالافادة نفس الاستغراق كما في قولك ما جاءني من رجل . وقرئ يعلمان من الاعلام (حتى يقولا انما نحن فتنة) الفتنة الاختبار والامتحان وافرادها مع تعددهما لكونها مصدراً وحملها عليهما مواطأة للمبالغة كأنهما نفس الفتنة. والقصر لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن سواها لينصرف الناس عن تعلمه أي وما يعلمان ما أنزل عليهما من السحر أحدا من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم ويقولا له انما نحن فتنة وابتلاء من الله عز وجل فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيته كفر ومن توقى عن العمل به أو اتخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقي على الايمان (فلا تكفر) باعتقاد حقيته وجواز العمل به والظاهر أن غاية النفي ليست هذه المقالة فقط بل من جملتها التزام المخاطب بموجب النهي لكن لم يذكر لظهوره وكون الكلام في بيان اعتناء الملكين بشأن النصح والارشاد . والجملة في محل النصب على الحالية من ضمير يعلمون لامعطوفة عليه كما قيل أى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ويحملونهم على العمل به اغواء واضلالا والحال انهما ما يعلمان أحدا حتى ينهياه عن العمل به والكفر بسببه. وأما ما قيل من أن ما في قوله تعالى وما أنزل الخ نافية والجملة معطوفة على قوله تعالى وما كفر سليمان جيء بها لتكذيب اليهود في القصة أي لم ينزل على الملكين اباحة السحر وأن هاروت وماروت بدل من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خصتا بالذكر لاصالتهما وكون باقي الشياطين أتباعا لهما وأن المعنى ما يعلمان أحدا حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فتكون مثلنا فيأباه ان مقام وصف الشياطين بالكفر واضلال الناس مما لايلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر مع ما فيه من الاخلال بنظام الكلام فان الابدال في حكم تنحية المبدل منه (فيتعلمون منهما) عطف على الجملة المنفية فانها في قوة المثبتة كأنه قيل يعلمانهم بعد قولهما انما نحن الخ والضمير لاحد حملا على المعنى كما في قوله تعالى «فما منكم من أحد عنه حاجزين» (مايفرقون به) أي بسببه وباستعماله (بين المرء) وقرئ بضم الميم وكسرها مع الهمزة وتشديد الراء بلا همزة (وزوجه) بان يحدث الله تعالى بينهما التباغض والفرك والنشوز عند مافعلوا مافعلوا من السحر على حسب جري العادة الالهية من خلق المسببات عقيب حصول الاسباب العادية ابتلاء لان السحر هو المؤثر في ذلك وقيل فيتعلمون منهما مايعملون به فيراه الناس ويعتقدون انه حق

فيكفرون فتبين أزواجهم (وما هم بضارين به) أى بما تعلموه واستعملوه من السحر (من أحد) أى أحد او من مزيدة لما ذكر فى قوله تعالى «وما يعلمان من أحد» والمعهود وان كان زيادتها فى معمول فعل منفى الا أنه حملت الاسمية فى ذلك على الفعلية كأنه قيل وما يضرون به من أحد (الا باذن الله) لانه وغيره من الاسباب بمعزل من التأثير بالذات وانما هو بامره تعالى فقد يحدث عند استعمالهم السحر فعلا من أفعاله ابتلاء وقد لا يحدثه . والاستثناء مفرغ والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير ضارين أو من مفعوله وان كان نكرة لاعتمادها على النفى أو الضمير المجرور فى به أى وما يضرون به أحدا الا مقرونا باذن الله تعالى . وقرئ بضارى على الاضافة بجعل الجار جزأ من المجرور وفصل ما بين المضافين بالظرف (ويتعلمون ما يضرهم) لانهم يقصدون به العمل أو لان العلم يجر الى العمل غالبا (ولا ينفعهم) صرح بذلك ايذانا بانه ليس من الامور المشوبة بالنفع والضرر بل هو شر بحت وضرر محض لانهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار باكاذيب من يدعى النبوة مثلا من السحرة أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع فى الجملة وفيه ان الاجتناب عما لا يؤمن من غوائله خير كتعلم الفلسفة التى لا يؤمن ان تجر الى الغواية وان قال من قال :

عرفت الشر لا للشر ... ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر ... من الناس يقع فيه

(ولقد علموا) أى اليهود الذين حكيت جناياتهم (لمن اشتراه) أى استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله عز وجل واللام الاولى جواب قسم محذوف والثانية لام ابتداء علق به علموا عن العمل ومن موصولة فى حيز الرفع بالابتداء واشتراه صلتها وقوله تعالى (ماله فى الآخرة من خلاق) أى من نصيب جملة من مبتدا وخبر ومن مزيدة فى المبتدا وفى الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا منه ولو أخر عنه لكان صفة له والتقدير ماله خلاق فى الآخرة وهذه الجملة فى محل الرفع على انها خبر للموصول والجملة فى حيز النصب سادة مسد مفعولى علموا ان جعل متعديا الى اثنين أو مفعوله الواحد ان جعل متعديا الى واحد فجملة ولقد علموا الخ مقسم عليها دون جملة لمن اشتراه الخ هذا ما عليه الجمهور وهو مذهب سيبويه وقال الفراء وتبعه أبو البقاء ان اللام الاخيرة موطئة للقسم ومن شرطية مرفوعة بالابتداء واشتراه خبرها وماله فى الآخرة من خلاق جواب القسم وجواب الشرط محذوف اكتفاء عنه بجواب القسم لانه اذا اجتمع الشرط والقسم يجاب سابقهما غالبا فحينئذ تكون الجملتان مقسما عليهما (ولبئس ما شروا به أنفسهم)

أى باعوها واللام جواب قسم محذوف والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبئسما باعوا به أنفسهم السحر أو الكفر وفيه ايذان بأنهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عرضوا أنفسهم للهلكة وباعوها بما لا يزيدهم الا تبارا وتجويز كون الشراء بمعنى الاشتراء مما لا سبيل اليه لان المشترى متعين وهو ما تتلوا الشياطين ولان متعلق الذم هو المأخوذ لا المنبوذ كما أشير اليه فى تفسير قوله سبحانه بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله (لو كانوا يعلمون) أى يعملون بعلمهم جعلوا غير عالمين لعدم عملهم بموجب علمهم أو لو كانوا يتفكرون فيه أو يعلموا قبحه على اليقين أو حقيقة ما يتبعه من العذاب عليه على أن المثبت لهم أولا على التوكيد القسمى العقل الغريزى أو العلم الاجمالى بقبح الفعل أو ترتب العقاب من غير تحقيق وجواب لو محذوف أى لما فعلوا ما فعلوا (ولو أنهم آمنوا) أى بالرسول المومأ اليه فى قوله تعالى : ولما جاءهم رسول من عند الله الخ أو بما أنزل اليه من الآيات المذكورة فى قوله تعالى «ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون» أو بالتوراة التى أريدت بقوله تعالى «نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم» فان الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفر بها (واتقوا) المعاصى المحكية عنهم (لمثوبة من عند الله خير) جواب لو وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيرا مما شروا به أنفسهم فحذف الفعل وغير السبك الى ما عليه النظم الكريم دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها وحذف المفضل عليه إجلالا للمفضل من أن ينسب إليه . وتنكير المثوبة للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة تشريفية لمثوبة أى لشىء ما من المثوبة كائنة من عنده تعالى خير . وقيل جواب لو محذوف أى لأثيبوا وما بعده جملة مستأنفة فان وقوع الجملة الابتدائية جوابا للو غير معهود فى كلام العرب . وقيل لو للتمنى ومعناه أنهم من فظاعة الحال بحيث يتمنى العارف ايمانهم واتقاءهم تلهفا عليهم. وقرىء لمثوبة وإنما سمى الجزاء ثوابا ومثوبة لان المحسن يثوب اليه (لو كانوا يعلمون) ان ثواب الله خير نسبوا الى الجهل لعدم العمل بموجب العلم (يا أيها الذين آمنوا) خطاب للمؤمنين فيه ارشاد لهم الى الخير واشارة الى بعض آخر من جنايات اليهود (لا تقولوا راعنا) المراعاة المبالغة فى الرعى وهو حفظ الغير وتدبير أموره وتدارك مصالحه وكان المسلمون اذا ألقى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من العلم يقولون راعنا يا رسول الله أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه وكانت لليهود كلمة عبرانية أو سريانية يتسابون بها فيما بينهم وهى راعينا قيل معناه اسمع لا سمعت فلما سمعوا بقول المؤمنين ذلك افترصوه واتخذوه ذريعة الى

مقصدهم فجعلوا يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم يعنون به تلك المسبة أو نسبته صلى الله عليه وسلم الى الرعن وهو الحمق والهوج روى ان سعد بن عبادة رضى الله عنه سمعها منهم فقال يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول صلى الله عليه وسلم لاضربن عنقه قالوا أولستم تقولونها فنزلت الآية ونهى فيها المؤمنون عن ذلك قطعاً لألسنة اليهود عن التدليس وأمروا بما فى معناها ولا يقبل التلبيس فقيل (وقولوا انظرنا) أى انظر الينا بالحذف والايصال أو انتظرنا على أنه من نظره اذا انتظره. وقرئ أنظرنا من النظرة أى أمهلنا حتى نحفظ. وقرئ راعونا على صيغة الجمع للتوقير وراعنا على صيغة الفاعل أى قولا ذارعن كدارع ولابن. لانه لما أشبه قولهم راعينا وكان سببا للسب بالرعن اتصف به (واسمعوا) وأحسنوا سماع مايكلمكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقى عليكم من المسائل بآذان واعية واذهان حاضرة حتى لاتحتاجوا الى الاستعاذة وطلب المراعاة أو واسمعوا ما كلفتموه من النهى والامر بجد واعتناء حتى لاترجعوا الى مانهيتم عنه. أو واسمعوا سماع طاعة وقبول ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا (وللكافرين) أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور الى كفرياتهم وجعلوه سببا للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له ماقالوا (عذاب أليم) لما اجترأوا عليه من العظيمة وهو تذييل لما سبق فيه وعيد شديد لهم ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه (مايود الذين كفروا) الود حب الشيء مع تمنيه ولذلك يستعمل فى كل منهما ونفيه كناية عن الكراهة ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بعلية مافى حيز الصلة لعدم ودهم ولعل تعلقه بما قبله من حيث أن القول المنهى عنه كثيراً ما كان يقع عند تنزيل الوحى المعبر عنه فى هذه الآية بالخير فكأنه أشير الى أن سبب تحريفهم له الى ماحكى عنهم لوقوعه فى أثناء حصول مايكرهونه من تنزيل الخير. وقيل كان فريق من اليهود يظهرون للمؤمنين محبة ويزعمون أنهم يودون لهم الخير فنزلت تكذيبا لهم فى ذلك ومن قوله تعالى (من أهل الكتاب ولا المشركين) للتبيين كما فى قوله عز وعلا «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين» ولا مزيدة لما ستعرفه (ان ينزل عليكم) فى حيز النصب على أنه مفعول يود وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعين الفاعل والتصريح الآتى فى قوله تعالى (من خير) هو القائم مقام فاعله ومن مزيدة للاستغراق والنفى وان لم يباشره ظاهراً لكنه منسحب عليه معنى. والخير الوحى وحمله على مايعمه وغيره من العلم والنصرة كما قيل يأباه وصفه فيما سيأتى بالاختصاص

وتقديم الظرف عليه مع ان حقه التأخر عنه لاظهار كمال العناية به لانه المدار لعدم ودهم ومن فى قوله تعالى (من ربكم) ابتدائية والتعرض لعنوان الربوبية للاشعار بعليته لتنزيل الخير والاضافة الى ضمير المخاطبين لتشريفهم وليست كراهتهم لتنزيله على المخاطبين من حيث تعبدهم بما فيه وتعريضهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحيثية من جملة من نزل عليهم الخير بل من حيث وقوع ذلك التنزيل على النبى صلى الله عليه وسلم . وصيغة الجمع للايذان بان مدار كراهتهم ليس معنى خاصا بالنبى صلى الله عليه وسلم بل وصف مشترك بين الكل هو الخلو عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين والمعنى انهم يرون أنفسهم أحق بان يوحى اليهم ويكرهون فيحسدونكم ان ينزل عليكم شيء من الوحى أما اليهود فبناء على انهم أهل الكتاب وأبناء الانبياء الناشئون فى مهابط الوحى وأنتم أميون . وأما المشركون فادلالا بما كان لهم من الجاه والمال زعما منهم ان رياسة الرسالة كسائر الرياسات الدنيوية منوطة بالاسباب الظاهرة ولذلك قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . ولما كانت اليهود بهذا الداء أشهر لاسيما فى أثناء ذكر ابتلائهم به لم يلزم من نفى ودادتهم لما ذكر نفى ودادة المشركين له فزيدت كلمة لا لتأكيد النفى (والله يختص برحمته) جملة ابتدائية سيقت لتقرير ماسبق من تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وارغام الكارهين له والمراد برحمته الوحى كما فى قوله سبحانه «أهم يقسمون رحمة ربك» عبر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين بالخير وباعتبار اضافته اليه تعالى بالرحمة قال على رضى الله عنه بنبوته خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم فالفعل متعد . وصيغة الافتعال للانباء عن الاصطفاء واشاره على التنزيل المناسب للسياق الموافق لقوله تعالى «ان ينزل الله من فضله على من يشاء» لزيادة تشريفه صلى الله عليه وسلم واقناطهم مما علقوا به اطماعهم الفارغة. والباء داخلة على المقصور أى يؤتى رحمته (من يشاء) من عباده ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتى الفائض عليه بحسب ارادته عز وعلا تفضلا لا تتعداه الى غيره وقيل الفعل لازم ومن فاعله والضمير العائد الى من محذوف على التقديرين وقوله تعالى (والله ذو الفضل العظيم) تذييل لما سبق مقرر لمضمونه وفيه ايذان بان إيتاء النبوة من فضله العظيم كقوله تعالى «ان فضله كان عليك كبيرا» وان حرمان من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله بل لمشيئته الجارية على سنن الحكمة البالغة. وتصدير الجملتين بالاسم الجليل للايذان بفخامة مضمونيهما وكون كل منهما مستقلة بشأنها فان الاضمار فى الثانية منبئ عن توقفها على الاولى (ما ننسخ من آية أو ننسها) كلام مستأنف مسوق لبيان سر النسخ

الذى هو فرد من افراد تنزيل الوحى وابطال مقالة الطاعنين فيه أثر تحقيق حقيقة الوحى ورد كلام الكارهين له رأسا قيل نزلت حين قال المشركون أو اليهود ألا ترون الى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه و يأمر بخلافه والنسخ فى اللغة الازالة والنقل يقال نسخت الريح الاثر أى ازالته ونسخت الكتاب أى نقلته ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعا. وانساؤها اذهابها من القلوب. وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية. وقرئ ننسخ من أنسخ أى نأمرك أو جبريل بنسخها أو نجدها منسوخة وننسأها من النسء أى نؤخرها وننسها بالتشديد وتنسها وتنسها على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيا للفاعل وللمفعول وقرئ ما ننسخ من آية أو ننسكها. وقرئ ما ننسك من آية أو ننسخها والمعنى ان كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من ازالة لفظها أو حكمها أو كليهما معا الى بدل أو الى غير بدل (نأت بخير منها) أى نوع آخر هو خير للعباد بحسب الحال فى النفع والثواب من الذاهبة. وقرىء بقلب الهمزة ألفا (أو مثلها) أى فيما ذكر من النفع والثواب وهذا الحكم غير مختص بنسخ الآية التامة فما فوقها بل جار فيما دونها أيضاً وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب والنص كما ترى دال على جواز النسخ كيف لا وتنزيل الآيات التى عليها يدور فلك الاحكام الشرعية انما هو بحسب ما يقتضيه من الحكم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الاحوال ويتبدل حسب تبدل الاشخاص والاعصار كاحوال المعاش فرب حكم تقتضيه الحكمة فى حال تقتضى فى حال أخرى نقيضه فلو لم يجز النسخ لاختل ما بين الحكمة والاحكام من النظام (ألم تعلم) الهمزة للتقرير كما فى قوله سبحانه أليس الله بكاف عبده وقوله تعالى ألم نشرح لك صدرك والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (ان الله على كل شىء قدير) سادمسد مفعولى تعلم عند الجمهور ومسد مفعوله الاول والثانى محذوف عند الاخفش والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الاتيان بما هو خير من المنسوخ وبما هو مثله لان ذلك من جملة الاشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته تعالى لجميع الاشياء علم قدرته على ذلك قطعا والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة والاشعار بمناط الحكم فان شمول القدرة لجميع الاشياء من أحكام الالوهية وكذا الحال فى قوله عز سلطانه (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض) فان عنوان الالوهية مدار أحكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والارض مبتدأ والجملة خبر لان. وايثاره على أن يقال ان لله ملك

السموات والارض للقصد الى تقوى الحكم بتكرر الاسناد وهو اما تكرير للتقرير واعادة للاستشهاد على ماذكر وانما لم يعطف ان مع ما فى حيزها على ما سبق من مثلها رومالزيادة التأكيد واشعارا باستقلال العلم بكل منهما وكفايته فى الوقوف على ماهو المقصود. واما تقرير مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الاشياء أى ألم تعلم ان الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما ايجادا واعداما وأمرا ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته لا معارض لامره ولا معقب لحكمه فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شىء من الاشياء وقوله تعالى (ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) معطوف على الجملة الواقعة خبرالان داخل معها تحت تعلق العلم المقرر. وفيه اشارة الى تناول الخطابين السابقين للامة أيضا وانما افرده عليه السلام بهما لما ان علومهم مستندة الى علمه عليه السلام. ووضع الاسم الجليل موضع الضمير الراجع الى اسم أن لتربية المهابة والايذان بمقارنة الولاية والنصرة للقوة والعزة والمراد به الاستشهاد بما تعلق به من العلم على تعلق ارادته تعالى بما ذكر من الاتيان بما هو خير من المنسوخ أو بمثله فان مجرد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعى حصوله البتة وانما الذى يستدعيه كونه تعالى مع ذلك ولياً ونصيراً لهم فمن علم أنه تعالى وليه ونصيره على الاستقلال يعلم قطعاً انه لايفعل به إلا ماهو خير له فيفوض أمره اليه تعالى ولا يخطر بباله ريبة فى أمر النسخ وغيره أصلا والفرق بين الولى والنصير أن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبياً من المنصور. وما إما تميمية لاعمل لها ولكم خبر مقدم ومن ولى مبتدأ مؤخر زيدت فيه كلمة من للاستغراق. واما حجازية ولكم خبرها المنصوب عند من يجيز تقديمه واسمها من ولى ومن مزيدة لما ذكر ومن دون الله فى حيز النصب على الحالية من اسمها لانه فى الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا ومعناه سوى الله والمعنى أن قضية العلم بماذكر من الامور الثلاثة هو الجزم والايقان بأنه تعالى لايفعل بهم فى أمر من أمور دينهم أودنياهم إلا ما هو خير لهم والعمل بموجبه من الثقة به والتوكل عليه وتفويض الامر اليه من غير إصغاء الى أقاويل الكفرة وتشكيكاتهم التى من جملتها ماقالوا فى أمر النسخ وقوله تعالى (أم تريدون) تجريد للخطاب عن النبى صلى الله عليه وسلم وتخصيص له بالمؤمنين وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم فى ذلك وأمارات التأثر من أقاويل الكفرة الى التحذير من ذلك ومعنى الهمزة انكار

وقوع الارادة منهم واستبعاده لما أن قضية الايمان وازعة عنها. وتوجيه الانكار الى الارادة دون متعلقها للمبالغة فى انكاره واستبعاده ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلا عن صدوره نفسه والمعنى بل أتريدون (أن تسألوا) وأنتم مؤمنون (رسولكم) وهو فى تلك الرتبة من علو الشأن وتقترحوا عليه ما تشتهون غير واثقين فى أموركم بفضل الله تعالى حسبما يوجبه قضية علمكم بشؤونه سبحانه قيل لعلهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيان تفاصيل الحكم الداعية الى النسخ. وقيل سأله عليه السلام قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كانت للمشركين وهى شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب وقوله تعالى (كما سئل موسى) مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر مؤكد محذوف وما مصدرية أى سؤالا مشبهاً بسؤال موسى عليه السلام حيث قيل له اجعل لنا إلٰها وأرنا الله جهرة وغير ذلك ومقتضى الظاهر أن يقال كما سألوا موسى لأن المشبه هو المصدر من المبنى للفاعل أعنى سائلية المخاطبين لا من المبنى للمفعول أعنى مسئولية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يشبه بمسئولية موسى عليه السلام فلعله أريد التشبيه فيهما معاً ولكنه أوجز النظم فذكر فى جانب المشبه السائلية وفى جانب المشبه به المسئولية واكتفى بما ذكر فى كل موضع عما ترك فى الموضع الآخر كما ذكر فى قوله تعالى «وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله» وقد جوز أن تكون ما موصولة على أن العائد محذوف أى كالسؤال الذى سأله موسى عليه السلام وقوله تعالى (من قبل) متعلق بسئل جيء به للتأكيد. وقرىء سيل بالياء وكسر السين وبتسهيل الهمزة بين بين (ومن يتبدل الكفر) أي يختره ويأخذه لنفسه (بالايمان) بمقابلته بدلا منه. وقرىء ومن يبدل من أبدل وكان مقتضى الظاهر أن يقال ومن يفعل ذلك أى السؤال المذكور أو ارادته وحاصله ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة بحسب المصالح التى من جملتها الآيات الناسخة التى هى خير محض وحق بحت واقترح غيرها (فقد ضل سواء السبيل) أى عدل وجار من حيث لا يدرى عن الطريق المستقيم الموصل الى معالم الحق والهدى وتاه فى تيه الهوى وتردى فى مهاوى الردى. وانما أوثر على ذلك ما عليه النظم الكريم للتصريح من أول الامر بانه كفر وارتداد وان كونه كذلك أمر واضح غنى عن الاخبار به بأن يقال ومن يفعل ذلك يكفر حقيق بان يعد من المسلمات ويجعل مقدما للشرطية روما للمبالغة فى الزجر والافراط فى الردع وسواء السبيل من باب اضافة الوصف الى الموصوف لقصد المبالغة فى بيان قوة الانصاف كانه نفس السواء على منهاج حصول الصورة فى الصورة

الحاصلة وقيل الخطاب لليهود حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتاباً من السماء وقيل للمشركين حين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الخ فاضافة الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم على القولين باعتبار أنهم من أمة الدعوة ومعنى تبدل الكفر بالايمان وهم بمعزل من الايمان ترك صرف قدرتهم اليه مع تمكنهم من ذلك وايثارهم للكفر عليه (ود كثير من أهل الكتاب) هم رهط من احبار اليهود روى «أن فنحاص ابن عازوراء وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ماهزمتم فارجعوا الى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن اهدى منكم سبيلا فقال عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فانى عاهدت أن لا أكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ماعشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبا وقال حذيفة أما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين اخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال أصبتما خيرا وأفلحتما» فنزلت (لو يردونكم) حكاية لودادتهم ولو فى معنى التمنى وصيغة الغيبة كما فى قوله حلف ليفعلن وقيل هى بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا لود والتقدير ودوا ردكم. وقيل هى على حقيقتها وجوابها محذوف تقديره لو يردونكم كفارا لسروا بذلك (من بعد ايمانكم) متعلق بيردونكم وقوله تعالى (كفارا) مفعول ثان له على تضمين الرد معنى التصيير أى يصيرونكم كفارا كما فى قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد ⁂ بمقدار سمدن له سموداً

فرد شعورهن السود بيضا ⁂ ورد وجوههن البيض سوداً

وقيل هو حال من مفعوله والاول أدخل لما فيه من الدلالة صريحا على كون الكفر المفروض بطريق القسر. وايراد الظرف مع عدم الحاجة اليه ضرورة كون المخاطبين مؤمنين واستحالة تحقق الرد الى الكفر بدون سبق الايمان مع توسيطه بين المفعولين لاظهار كمال شناعة ماأرادوه وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه الصارف للعاقل عن مباشرته وإما لممانعة الايمان له كأنه قيل من بعد ايمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين مالا يخفى (حسدا) علة لود أو حال أريد به نعت الجمع أى حاسدين لكم. والحسد الاسف على من له خير بخيره (من عند أنفسهم) متعلق بود أى ودوا ذلك من أجل تشهيهم وحظوظ أنفسهم لا من قبل التدين والميل مع الحق ولو على زعمهم أو بحسدا أى حسدا منبعثا من أصل نفوسهم بالغا أقصى مراتبه (من بعد ماتبين لهم الحق) بالمعجزات الساطعة وبما عاينوا

فى التوراة من الدلائل وعلموا انكم متمسكون به وهم منهمكون فى الباطل (فاعفوا واصفحوا) العفو ترك المؤاخذة والعقوبة والصفح ترك التثريب والتأنيب (حتى يأتى الله بأمره) الذى هو قتل بنى قريظة واجلاء بنى النضير واذ لالهم بضرب الجزية عليهم أو الاذن فى القتال وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه منسوخ بآية السيف ولا يقدح فى ذلك ضرب الغاية لانها لا تعلم الا شرعا ولا يخرج الوارد بذلك من أن يكون ناسخا كانه قيل فاعفوا واصفحوا الى ورود الناسخ (ان الله على كل شىء قدير) فينتقم منهم اذا حان حينه وآن أوانه فهو تعليل لما دل عليه ماقبله (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) عطف على فاعفوا أمروا بالصبر والمداراة واللجأ الى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية (وما تقدموا لانفسكم من خير) كصلاة أوصدقة أوغير ذلك أي أى شىء من الخيرات تقدموه لمصلحة أنفسكم (تجدوه عند الله) أى تجدوا ثوابه وقرىء تقدموا من أقدم (ان الله بما تعملون بصير) فلا يضيع عنده عمل فهو وعد للمؤمنين وقرىء بالياء فهو وعيد للكافرين (وقالوا) عطف على ود والضمير لاهل الكتابين جميعا (لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى) أى قالت اليهود لن يدخل الجنة الا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصارى فلف بين القولين ثقة ان السامع يرد كلا منهما الى قائله ونحوه وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا وليس مرادهم باولئك من أقام اليهودية والنصرانية قبل النسخ والتحريف على وجهها بل أنفسهم على ماهم عليه لانهم انما يقولونه لاضلال المؤمنين وردهم الى الكفر والهود جمع هائد كعوذ جمع عائذ وبزل جمع بازل والافراد فى كان باعتبار لفظ من والجمع فى خبره باعتبار معناه وقرىء الا من كان يهوديا أو نصرانيا (تلك أمانيهم) الامانى جمع امنية وهى مايتمنى كالاعجوبة والاضحوكة والجملة معترضة مبينة لبطلان ماقالوا وتلك اشارة اليه والجمع باعتبار صدوره عن الجميع وقيل فيه حذف مضاف أى أمثال تلك الامنية امانيهم وقيل تلك اشارة اليه والي ماقبله من ان لاينزل على المؤمنين خير من ربهم وان يردوهم كفارا ويرده قوله تعالي (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) فانهما ليسا مما يطلب له البرهان ولا مما يحتمل الصدق والكذب قيل هاتوا أصله آتوا قلبت الهمزة هاء أى أحضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ان كنتم صادقين فى دعواكم هذا مايقتضيه المقام بحسب النظر الجليل والذى يستدعيه اعجاز التنزيل ان يحمل الامر التبكيتى على طلب البرهان على أصل الدخول الذي يتضمنه دعوى الاختصاص به فان قوله تعالى (بلى) الخ اثبات من جهته تعالى لما نفوه مستلزم لنفى

ما أثبتوه وإذ ليس الثابت به مجرد دخول غيرهم الجنة ولو معهم ليكون المنفى مجرد اختصاصهم به مع بقاء أصل الدخول على حاله بل هو اختصاص غيرهم بالدخول كما ستعرفه باذن الله تعالى ظهر أن المنفى أصل دخولهم ومن ضرورته أن يكون هو الذى كلفوا إقامة البرهان عليه لا اختصاصهم به ليتحد مورد الاثبات والنفى . وانما عدل عن ابطال صريح ما ادعوه وسلك هذا المسلك ابانة لغاية حرمانهم مما علقوا به أطماعهم واظهارا لكمال عجزهم عن اثبات مدعاهم لان حرمانهم من الاختصاص بالدخول وعجزهم عن اقامة البرهان عليه لا يقتضيان حرمانهم من أصل الدخول وعجزهم عن اثباته . وأما نفس الدخول فحيث ثبت حرمانهم منه وعجزهم عن اثباته فهم من الاختصاص به أبعد وعن اثباته أعجز وانما الفائز به من انتظمه قوله سبحانه (من أسلم وجهه لله) أي أخلص نفسه له تعالى لا يشرك به شيئا عبر عنها بالوجه لانه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع الذى هو من أخص خصائص الاخلاص أو توجهه وقصده بحيث لا يلوى عزيمته الى شئ غيره (وهو محسن) حال من ضمير أسلم أى والحال انه محسن فى جميع أعماله التى من جملتها الاسلام المذكور . وحقيقة الاحسان الاتيان بالعمل على الوجه اللائق وهو حسنه الوصفى التابع لحسنه الذاتى وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (فله أجره) الذى وعد له على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة أو عما يدخل هو فيه دخولا أوليا وأياما كان فتصويره بصورة الأجر للايذان بقوة ارتباطه بالعمل واستحالة نيله بدونه وقوله تعالى (عند ربه) حال من أجره والعامل فيه معنى الاستقرار فى الظرف والعندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافا الى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لاظهار مزيد اللطف به وتقرير مضمون الجملة أي فله أجره عند مالكه ومدبر أموره ومبلغه الى كماله والجملة جواب من ان كانت شرطية وخبرها ان كانت موصولة والفاء لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله تعالى بلى وحده ويجوز أن يكون من فاعلا لفعل مقدر أي بلى يدخلها من أسلم وقوله تعالى فله أجره معطوف على ذلك المقدر وأياما كان فتعليق ثبوت الاجر بما ذكر من الاسلام والاحسان المختصين بأهل الايمان قاض بان أولئك المدعين من دخول الجنة بمعزل ومن الاختصاص به بألف منزل (ولا خوف عليهم) فى الدارين من لحوق مكروه (ولاهم يحزنون) من فوات مطلوب أى يعتريهم ما يوجب ذلك لا انه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما ان الافراد فى الضمائر الاول باعتبار اللفظ (وقالت اليهود

ليست النصاري على شيء) بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه اثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم .نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا فارتفعت أصواتهم فقالوا لهم لستم على شيء أى أمر يعتد به من الدين أو على شيء ما منه أصلا مبالغة فى ذلك كما قالوا أقل من لاشيء وكفروا بعيسى والانجيل (وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) على الوجه المذكور وكفروا بموسى والتوراة لا انهم قالوا ذلك بناء للامر على منسوخية التوراة (وهم يتلون الكتاب) الواو للحال واللام للجنس أى قالوا ما قالوا والحال ان كل فريق منهم من أهل العلم والكتاب أى كان حق كل منهم أن يعترف بحقية دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه فان كتب الله تعالى متصادقة (كذلك) أى مثل ذلك الذى سمعت به والكاف فى محل النصب إما على انها نعت لمصدر محذوف قدم على عامله لافادة القصر أى قولا مثل ذلك القول بعينه لا قولا مغايرا له (قال الذين لا يعلمون) من عبدة الاصنام والمعطلة ونحوهم من الجهلة أى قالوا لاهل كل دين ليسوا على شيء وأما على انها حال من المصدر المضمر المعرف الدال عليه قال أى قال القول الذين لا يعلمون حال كونه مثل ذلك القول الذى سمعت به (مثل قولهم) إما بدل من محل الكاف وإما مفعول للفعل المنفى قبله أى مثل ذلك القول قال الجاهلون بمثل مقالة اليهود والنصارى وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم فى سلك من لا يعلم أصلا (فالله يحكم بينهم) أي بين اليهود والنصاري فان مساق النظم لبيان حالهم وانما التعرض لمقالة غيرهم لاظهار كمال بطلان مقالهم ولان المحاجة المحوجة الي الحكم انما وقعت بينهم (يوم القيامة) متعلق بيحكم وكذا ماقبله ومابعده ولاضير فيه لاختلاف المعنى (فيما كانوا فيه يختلفون) بما يقسم لكل فريق مايليق به من العقاب وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار والظرف الاخير متعلق بيختلفون قدم عليه للمحافظة على رءوس الآي لا بكانوا (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) انكار واستبعاد لان يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أومساويا له وان لم يكن سبك التركيب متعرضا لانكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشي والاستعمال المطرد فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما انه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا الحكم عام لكل من فعل ذلك فى أي مسجد كان وان كان سبب النزول فعل طائفة معينة فى مسجد مخصوص روى ان النصاري كانوا يطرحون فى بيت المقدس الاذي ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وأن الروم غزوا أهله فخربوه وأحرقوا التوراة

وقتلوا وسبوا وقد نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ان طيطوس الرومى ملك النصاري وأصحابه غزوا بنى اسرائيل وقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه وانما أوقع المنع على المساجد وان كان الممنوع هو الناس لما ان فعلهم من طرح الاذي والتخريب ونحوهما متعلق بالمسجد لا بالناس مع كونه على حاله. وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث انها مبطلة لدعوي النصارى اختصاصهم بدخول الجنة. وقيل هو منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية فتعلقها بما تقدمها من جهة ان المشركين من جملة الجاهلين القائلين لكل من عداهم ليسوا على شيء (أن يذكر فيها اسمه) ثانى مفعولى منع كقوله تعالى «ومامنع الناس أن يؤمنوا» وقوله تعالى «وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون» ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجار مع أن وأن يكون ذلك مفعولا له أى كراهة أن يذكر فيها اسمه (وسعى فى خرابها) بالهدم أو التعطيل بانقطاع الذكر (أولئك) المانعون الظالمون الساعون فى خرابها (ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين) أى ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها الا بخشية وخضوع فضلا عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها. أو ما كان الحق أن يدخلوها الا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من جهة المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم فى علم الله تعالى وقضائه بالآخرة الا ذلك فيكون وعدا للمؤمنين بالنصرة واستخلاص ما استولوا عليه منهم وقد أنجز الوعد ولله الحمد. روى انه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى الا متنكرا مسارقة وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول فى المسجد واختلف الائمة فى ذلك فجوزه أبو حنيفة مطلقا ومنعه مالك مطلقا وفرق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره (لهم) أي لاولئك المذكورين (فى الدنيا خزي) أي خزي فظيع لا يوصف بالقتل والسبي والاذلال بضرب الجزية عليهم (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) وهو عذاب النار لما أن سببه أيضا وهو ما حكى من ظلمهم كذلك فى العظم وتقديم الظرف فى الموضعين للتشويق الي ما يذكر بعده من الخزي والعذاب لما مر من أن تأخير ما حقه التقديم موجب لتوجه النفس اليه فيتمكن فيها عند وروده فضل تمكن كما فى قوله تعالى «ألم نشرح لك صدرك وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج» الي غير ذلك (ولله المشرق والمغرب) أي له كل الارض التى هى عبارة عن ناحيتى المشرق والمغرب لا يختص به من حيث الملك والتصرف ومن حيث

المحلية لعبادته مكان منها دون مكان فان منعتم من اقامة العبادة فى المسجد الاقصى أو المسجد الحرام (فأينما تولوا) أى ففى أى مكان فعلتم تولية وجوهكم شطر القبلة (فثم وجه الله) ثم اسم اشارة للمكان البعيد خاصة مبنى على الفتح ولا يتصرف سوي الجر بمن وهو خبر مقدم و وجه الله مبتدأ والجملة فى محل الجزم على انها جواب الشرط أي هنالك جهته التى أمر بها فان امكان التولية غير مختص بمسجد دون مسجد أو مكان دون آخر أو فثم ذاته بمعنى الحضور العلمى أي فهو عالم بما يفعل فيه ومثيب لكم على ذلك. وقرئ بفتح التاء واللام أي فاينما توجهوا القبلة (ان الله واسع) باحاطته بالاشياء أو برحمته يريد التوسعة على عباده (عليم) بمصالحهم وأعمالهم فى الاماكن كلها والجملة تعليل لمضمون الشرطية وعن ابن عمر رضى الله عنهما نزلت فى صلاة المسافرين على الراحلة أينما توجهوا . وقيل فى قوم عميت عليهم القبلة فصلوا الى انحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطأهم وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارك . وقيل هى توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للمعبود عن ان يكون فى جهة (وقالوا اتخذ الله ولدا) حكاية لطرف آخر من مقالاتهم الباطلة المحكية فيما سلف معطوفة على ما قبلها من قوله تعالى وقالت الخ لا على صلة من لما بينهما من الجمل الكثيرة الاجنبية والضمير لليهود والنصارى ومن شاركهم فيما قالوا من الذين لا يعلمون . وقرئ بغير واو على الاستئناف . نزلت حين قالت اليهود عزير ابن الله والنصارى المسيح ابن الله ومشركوا العرب الملائكة بنات الله. والاتخاذ اما بمعنى الصنع والعمل فلا يتعدى الا الى واحد واما بمعنى التصيير والمفعول الأول محذوف أى صير بعض مخلوقاته ولدا (سبحانه) تنزيه وتبرئة له تعالى عما قالوا وسبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه تنزيها لائقا به. وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الارض ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لا سيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل مالا يخفى. وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به ففيه مبالغة من حيث اسناد البراءة الى الذات المقدسة وان كان التنزيه اعتقاد نزاهته تعالى عما لا يليق به لا اثباتها له تعالى وقوله تعالى (بل له ما فى السموات والأرض) رد لما زعموا وتنبيه على بطلانه وكلمة بل للاضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشئ من المخلوقات ومن سرعة فنائه المحوجة

الي اتخاذ ما يقوم مقامه فان مجرد الامكان والفناء لا يوجب ذلك ألا يرى أن الاجرام الفلكية مع امكانها وفنائها بالآخرة مستغنية بدوامها وطول بقائها عما يجرى مجرى الولد من الحيوان أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة (كل) التنوين عوض عن المضاف اليه أى كل ما فيهما كائنا ما كان من أولى العلم وغيرهم (له قانتون) منقادون لا يستعصى شئ منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشيء ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد وانما جيء بما المختصة بغير أولى العلم تحقيراً لشأنهم وايذانا بكمال بعدهم عما نسبوا الى بعض منهم وصيغة جمع العقلاء فى قانتون للتغليب أو كل من جعلوه لله تعالى ولدا له قانتون أي مطيعون عابدون له معترفون بربوبيته تعالي كقوله تعالى «أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة» (بديع السموات والأرض) أي مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فان البديع كما يطلق على المبتدع يطلق على المبتدع نص عليه أساطين أهل اللغة وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه كما ذكر فى القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله: ❊ أمن ريحانة الداعي السميع ❊ وقيل هو من اضافة الصفة المشبهة الي فاعلها للتخفيف بعد نصبه على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور أي بديع سمواته من بدع اذا كان على شكل فائق وحسن رائق وهو حجة أخري لابطال مقالتهم الشنعاء تقريرها ان الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه والله سبحانه مبدع الأشياء كلها على الاطلاق منزه عن الانفعال فلا يكون والداً ورفعه على انه خبر لمبتدأ محذوف أى هو بديع الخ وقرئ بالنصب على المدح وبالجر على انه بدل من الضمير فى له على رأى من يجوز الابدال من الضمير المجرور كما فى قوله:

❊ على جوده لضن بالماء حاتم ❊ (واذا قضى أمراً) أى اراد شيئاً كقوله تعالى «انما أمره اذا أراد شيئاً» وأصل القضاء الاحكام أطلق على الارادة الالهية المتعلقة بوجود الشئ لايجابها اياه ألبتة وقيل الامر ومنه قوله تعالى وقضى ربك الخ (فانما يقول له كن فيكون) كلاهما من الكون التام أى احدث فيحدث وليس المراد به حقيقة الأمر والامتثال وانما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات بحسب تعلق مشيئته تعالى وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى الباب من طاعة المأمور المطيع للآمر القوي المطاع وفيه تقرير لمعنى الابداع وتلويح لحجة أخري لابطال مازعموه بان اتخاذ الولد شأن من يفتقر فى تحصيل مراده الي مباد يستدعى ترتيبها مرور زمان

وتبدل أطوار وفعله تعالي متعال عن ذلك (وقال الذين لايعلمون) حكاية لنوع آخر من قبائحهم وهو قدحهم فى أمر النبوة بعد حكاية قدحهم فى شأن التوحيد بنسبة الولد اليه سبحانه وتعالى . واختلف فى هؤلاء القائلين فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود وقال مجاهد هم النصارى ووصفهم بعدم العلم لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغى أو لعدم عملهم بموجب علمهم أو لان مايحكى عنهم لايصدر عمن له شائبة علم أصلا وقال قتادة وأكثر أهل التفسير هم مشركوا العرب لقوله تعالي «فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقالوا لولا نزل علينا الملائكة أو نرى ربنا» (لولا يكلمنا الله) أي هلا يكلمنا بلا واسطة أمراً ونهياً كما يكلم الملائكة أو هلا يكلمنا تنصيصاً على نبوتك (أو تأتينا آية) حجة تدل على صدقك بلغوا من العتو والاستكبار الي حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الالهية من غير توسط الرسول والملك ومن العناد والمكابرة الي حيث لم يعدوا ما آتاهم من البينات الباهرة التي تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات قاتلهم الله أنى يؤفكون (كذلك) مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد (قال الذين من قبلهم) من الامم الماضية (مثل قولهم) هذا الباطل الشنيع فقالوا أرنا الله جهرة وقالوا لن نصبر على طعام واحد الآية وقالوا هل يستطيع ربك الخ وقالوا اجعل لنا الها الخ (تشابهت قلوبهم) أي قلوب هؤلاء وأولئك في العمى والعناد والا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة (قد بينا الآيات) أي نزلناها بينة بان جعلناها كذلك فى أنفسها كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل لا أنا بيناها بعد أن لم تكن بينة (لقوم يوقنون) أي يطلبون اليقين ويوقنون بالحقائق لايعتريهم شبهة ولا ريبة وهذا رد لطلبهم الآية وفى تعريف الآيات وجمعها وايراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح مكان الاتيان الذي طلبوه مالا يخفى من الجزالة . والمعنى انهم اقترحوا آية فذة ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين وانما لم يتعرض لرد قولهم لولا يكلمنا الله ايذانا بانه من ظهور البطلان بحيث لاحاجة له الى الرد والجواب (انا أرسلناك بالحق) أى ملتبسا بالقرآن كما فى قوله تعالي «بل كذبوا بالحق لما جاءهم» أو بالصدق كما فى قوله تعالى أحق هو وقوله تعالي (بشيراً ونذيراً) حال من المفعول باعتبار تقييده بالحال الأولى اي أرسلناك ملتبسا بالقرآن حال كونك بشيرا لمن آمن بما أنزل عليك وعمل به ونذيراً لمن كفر به أو أرسلناك صادقا حال كونك بشيرا لمن صدقك بالثواب ونذيرا لمن كذب بالعذاب ليختاروا لانفسهم ماأحبوا لاقاسر لهم على الايمان فلا عليك ان أصروا وكابروا (ولاتسأل

عن أصحاب الجحيم) مالهم لم يؤمنوا بعد مابلغت ماأرسلت به وقرئ لن تسأل
وماتسأل وقرئ لاتسأل على صيغة النهي ايذانا بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلا لها
كانها لغاية فظاعتها لايقدر المخبر على اجرائها على لسانه أولا يستطيع السامع أن يسمع
خبرها وحمله على نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعده
النظم الكريم. والجحيم المتأجج من النار وفي التعبير عنهم بصاحبية الجحيم دون الكفر
والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وايذان بانهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الايمان
قطعا وقوله تعالي (ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصاري حتى تتبع ملتهم) بيان لكمال
شدة شكيمة هاتين الطائفتين خاصة أثر بيان مايعمهما والمشركين من الاصرار على
ماهم عليه الي الموت . وايراد لاالنافية بين المعطوفين لتأكيد النفي لما مر من أن تصلب
اليهود في أمثال هذه العظائم أشد من النصاري والاشعار بأن رضا كل منهما مباين
لرضا الاخري أي لن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم ولاالنصارى
ولو تركتهم ودينهم حتى تتبع ملتهم فاوجز النظم ثقة بظهور المراد . وفيه من المبالغة في
اقناطه صلى الله عليه وسلم من اسلامهم مالا غاية وراءه فانهم حيث لم يرضوا عنه عليه
السلام ولو خلاهم يفعلون مايفعلون بل أملوا منه صلى الله عليه وسلم مالا يكاد يدخل
تحت الامكان من اتباعه عليه السلام لملتهم فكيف يتوهم اتباعهم لملته عليه السلام
وهذه حالتهم في أنفسهم ومقالتهم فيما بينهم واما انهم أظهروها للنبي صلى الله عليه وسلم
وشافهوه بذلك وقالوا لن نرضى عنك وان بالغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا كما
قيل فلا يساعده النظم الكريم بل فيه مايدل على خلافه فان قوله عز وجل (قل ان
هدي الله هو الهدي) صريح في أن ماوقع هذا جوابا عنه ليس عين تلك العبارة بل
مايستلزم مضمونها أو يلزمه من الدعوة الي اليهودية والنصرانية وادعاء ان الاهتداء
فيهما كقوله عز وجل حكاية عنهم « كونوا هوداً اونصاري تهتدوا » أي قل رداً عليهم
ان هدي الله الذي هو الاسلام هو الهدي بالحق والذي يحق ويصح ان يسمى هدي
وهو الهدي كله ليس وراءه هدي وماتدعون اليه ليس بهدي بل هو هوى كما يعرب
عنه قوله تعالي (ولئن اتبعت اهواءهم) اي آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات
انفسهم وهي التي عبر عنها فيما قبل بملتهم اذ هي التي ينتمون اليها واما ماشرعه الله تعالي لهم من الشريعة
على لسان الانبياء عليهم الصلاة والسلام وهو المعنى الحقيقي للملة فقد غيروها تغييرا (بعد الذي
جاءك من العلم) أي الوحي أو الدين المعلوم صحته (مالك من الله) من جهته العزيزة (من
ولي) يلي أمرك عموما (ولانصير) يدفع عنك عقابه وحيث لم يستلزم نفي الولي نفي النصير

وسط لابين المعطوفين لتأكيد النفي وهذا من باب التهييج والالهاب والا فانى يتوهم امكان اتباعه عليه السلام لملتهم وهو جواب للقسم الذي وطأه اللام واكتفى به عن جواب الشرط (الذين آتيناهم الكتاب) هم مؤمنوا أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه (يتلونه حق تلاوته) بمراعاة لفظة عن التحريف وبالتدبر فى معانيه والعمل بما فيه وهو حال مقدرة والخبر مابعده أوخبر وما بعده مقرر له (أولئك) إشارة الي الموصوفين بايتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعدمنزلتهم فى الفضل (يؤمنون به) أي بكتابهم دون المحرفين فانهم بمعزل من الايمان به فانه لايجامع الكفر ببعض منه (ومن يكفر به) بالتحريف والكفر بما يصدقه (فاولئك هم الخاسرون) حيث اشتروا الكفر بالايمان (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) ومن جملتها التوراة وذكر النعمة انما يكون بشكرها وشكرها الايمان بجميع مافيها ومن جملته نعت النبى صلى الله عليه وسلم ومن ضرورة الايمان بها الايمان به عليه الصلاة والسلام (وانى فضلتكم على العالمين) افردت هذه النعمة بالذكر مع كونها مندرجة تحت النعمة السالفة لانافتها فيما بين فنون النعم (واتقوا) ان لم تؤمنوا (يوما لاتجزي) فى ذلك اليوم (نفس) من النفوس (عن نفس) أخري (شيئا) من الاشياء أو شيئا من الجزاء (ولا يقبل منها عدل) أي فدية (ولاتنفعها شفاعة ولاهم ينصرون) وتخصيصهم بتكرير التذكير واعادة التحذير للمبالغة فى النصح وللايذان بأن ذلك فذلكة القضية والمقصود من القصة لما أن نعم الله عز وجل عليهم أعظم وكفرهم بها اشد وأقبح (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) شروع فى تحقيق أن هدي الله هو ماعليه النبى صلى الله عليه وسلم من التوحيد والاسلام الذي هو ملة ابراهيم عليه السلام وأن ماعليه أهل الكتابين أهواء زائغة وأن مايدعونه من انهم على ملته عليه الصلاة والسلام فرية بلا مرية ببيان ماصدر عن ابراهيم وأبنائه الانبياء عليهم السلام من الاقاويل والافاعيل الناطقة بحقية التوحيد والاسلام وبطلان الشرك وبصحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وبكونه ذلك النبى الذي استدعاه ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بقولهما «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم» الآية فاذ منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أي واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ليتذكروا بما وقع فيه من الامور الداعية الي التوحيد الوازعة عن الشرك فيقبلوا الحق ويتركوا ماهم فيه من الباطل وتوجيه الامر بالذكر الي الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع انها المقصودة

بالذات قد مر وجهه فى اثناء تفسير قوله عز وجل «واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة» وقيل على الظرفية بمضمر مؤخر أي واذ ابتلاه كان كيت وكيت وقيل بما سيجيء من قوله تعالي قال الخ والاول هو اللائق بجزالة التنزيل ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على اذكروا خوطب به بنو اسرائيل ليتأملوا فيما يحكى عمن ينتمون الي ملته من ابراهيم وأبنائه عليهم السلام من الافعال والاقوال فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم والابتلاء فى الاصل الاختبار أي تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لامر يشق عليه غالبا فعله أو تركه وذلك انما يتصور حقيقة ممن لاوقوف له على عواقب الامور . وأما من العليم الخبير فلا يكون الا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار احد الامرين قبل أن يرتب عليه شيئا هو من مباديه العادية كمن يختبر عبده ليتعرف حاله من الكياسة فيأمره بما يليق بحاله من مصالحه وابراهيم أعجمى قال السهيلى كثيرا مايقع الاتفاق أو التقارب بين السرياني والعربى ألا يرى ان ابراهيم تفسيره أب راحم ولذلك جعل هو وزوجته سارة كافلين لاطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا الى يوم القيامة على ماروي البخاري فى حديث الرؤيا ان النبى صلى الله عليه وسلم رأي فى الروضة ابراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس. وهو مفعول مقدم لاضافة فاعله الي ضميره والتعرض لعنوان الربوبية تشريف له عليه السلام وايذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لامر خطير والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه أوامر ونواهي يظهر بحسن قيامه بحقوقها قدرته على الخروج عن عهدة الامامة العظمى وتحمل أعباء الرسالة وهذه المعاملة وتذكيرها للناس لارشادهم الى طريق اتقان الامور ببنائها على التجربة وللايذان بان بعثة النبى صلى الله عليه وسلم أيضا مبنية على تلك القاعدة الرصينة واقعة بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوة العامة كيف لا وهى التى أجيب بها دعوة ابراهيم عليه السلام كما سيأتى. واختلف فى الكلمات فقال مجاهد هى المذكورة بعدها ورد بانه يأباه الفاء فى فأتمهن ثم الاستئناف وقال طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما هى عشر خصال كانت فرضا فى شرعه وهن سنة فى شرعنا : خمس فى الرأس المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك . وخمس فى البدن الختان وحلق العانة ونتف الابط وتقليم الاظفار والاستنجاء بالماء وفى الخبر «ان ابراهيم عليه السلام أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الاظفار» وقال عكرمة عن ابن عباس لم يبتل أحد بهذا الدين فاقامه كله الا ابراهيم ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الاسلام عشر منها فى سورة براءة التائبون الخ وعشر فى الاحزاب ان

المسلمين والمسلمات الخ وعشر فى المؤمنون وسأل سائل الى قوله عز وجل «والذين هم على صلاتهم يحافظون» وقيل ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياء بالشمس والقمر والنجوم والاختتان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة فوفى بالكل. وقيل هن محاجته قومه والصلاة والزكاة والصوم والضيافة والصبر عليها. وقيل هى مناسك كالطواف والسعى والرمى والاحرام والتعريف وغيرهن وقيل هى قوله عليه السلام «الذى خلقنى فهو يهدين» الآيات ثم قيل انما وقع هذا الابتلاء قبل النبوة وهو الظاهر وقيل بعدها لانه يقتضى سابقة الوحى وأجيب بان مطلق الوحى لا يستلزم البعثة الى الخلق. وقرئ برفع ابراهيم ونصب ربه أى دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه اليهن أولا (فأتمهن) أى قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان فى قوله تعالى « وابراهيم الذى وفى » وعلى القراءة الاخيرة فأعطاه الله تعالى ما سأله من غير نقص ويعضده ما روى عن مقاتل انه فسر الكلمات بما سأل ابراهيم ربه بقوله رب اجعل الآيات وقوله عز وجل (قال) على تقدير انتصاب إذ بمضمر جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الكلام فان الابتداء تمهيد لامر معظم وظهور فضيلة المبتلى من دواعى الاحسان اليه فبعد حكايتهما تترقب النفس الى ما وقع بعدهما كانه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال (انى جاعلك للناس اماما) أو بيان لقوله تعالى ابتلى على رأى من جعل الكلمات عبارة عما ذكر اثره من الامامة وتطهير البيت ورفع قواعده وغير ذلك وعلى تقدير انتصاب اذ بقال فالجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة والواو فى المعنى داخلة على قال أى وقال اذ ابتلى الخ والجعل بمعنى التصيير أحد مفعوليه الضمير والثانى اماما واسم الفاعل بمعنى المضارع وأوكد منه لدلالته على انه جاعل له ألبتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه وللناس متعلق بجاعلك أى لاجل الناس أو بمحذوف وقع حالا من إماما إذ لو تأخر عنه لكان صفة له والامام اسم لمن يؤتم به وكل نبى امام لامته وامامته عليه السلام عامة مؤبدة إذ لم يبعث بعده نبى الا كان من ذريته مأمورا باتباع ملته (قال) استئناف مبنى على سؤال مقدر كانه قيل فماذا قال ابراهيم عليه السلام عنده فقيل قال (ومن ذريتى) عطف على الكاف ومن تبعيضية متعلقة بجاعل أى وجاعل بعض ذريتى كما تقول وزيدا لمن يقول سأكرمك أو بمحذوف أى واجعل فريقا من ذريتى اماما. وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة امامة الكل وان كانوا على الحق. وقيل التقدير وماذا يكون من ذريتى والذرية نسل الرجل فعولة من ذروت أو ذريت والاصل ذرووة أو ذروية فاجتمع فى الاولى واوان

زائدة وأصلية فقلبت الاصلية ياء فصارت كالثانية فاجتمعت واو و ياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت ذرية أو فعيلة منهما والاصل فى الاولي ذريوة فقلبت الواو ياء لما سبق من اجتماعهما وسبق احداهما بالسكون فصارت ذريية كالثانية فأدغمت اليـاء فى مثلها فصارت ذرية أو فعيـلة من الذرء بمعنى الخلق والاصل ذريئة فخففت الهمزة بابدالها ياء كهمزة خطيئة ثم أدغمت الياء الزائدة فى المبدلة.أو فعيلة من الذر بمعنى التفريق والاصل ذريرة قلبت الراء الاخيرة ياء لتوالي الامثال كما فى تسرى وتقضى وتظنى فأدغمت الياء فى الياء كما مر.أو فعولة منه والاصل ذرورة فقلبت الراء الاخيرة ياء فجاء الادغام.وقرئ بكسر الذال وهى لغـة فيها وقرأ أبو جعفر المـدنى بالفتح وهى أيضا لغة فيها (قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كما سبق (لا ينال عهدي الظالمين) ليس هذا رد لدعوته عليه السلام بل اجابة خفية لها وعدة اجمـالية منه تعالي بتشريف بعض ذريته عليـه السلام بنيل عهد الامامة حسبما وقع فى استدعائه عليـه السلام من غير تعيين لهم بوصف يميزاتهم عن جميع من عداهم فان التنصيص على حرمان الظالمين منـه بمعزل من ذلك التمييز اذ ليس معناه انه ينال كل من ليس بظالم منهم ضرورة استحالة ذلك كما أشير اليه ولعل ايثار هـذه الطريقة على تعيين الجـامعين لمبادى الامامة من ذريته اجمالا أو تفصيلا وارسال البـاقين لئـلا ينتظم المقتدون بالائمة من الامة فى سلك المحرومين. وفى تفصيل كل فرقة من الاطناب مالا يخفى مع مافى هـذه الطريقة من تخييب الكفرة الذين كانوا يتمنون النبوة وقطع اطماعهم الفارغة من نيلها. وانما أوثر النيل على الجعل ايمـاء الى أن امامة الأنبياء عليهم السلام من ذريته عليه السلام كاسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهرون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحي وعيسى وسـيدنا محمد صلى الله عليـه وسلم تسليما كثيراً ليست بجعل مستقبل بل هى حاصلة فى ضمن امامة ابراهيم عليه السلام تنال كلا منهم فى وقت قدره الله عز وجل.وقرئ الظالمون على أن عهدى مفعول مقدم على الفاعل اهتماما ورعاية للفواصل وفيه دليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الـكبائر على الاطلاق وعدم صلاحية الظالم للامامة وقوله تعالى (واذ جعلنا البيت) أى الـكعبة المعظمة غلب عليها غلبة النجم على الثريا معطوف على اذ ابتلى على أن العامل فيه هو العامل فيه أو مضمر مستقل معطوف على المضمر الاول والجعل اما بمعنى التصيير فقوله عز وجل (مثابة) أى مرجعاً يثوب اليه الزوار بعـد ماتفرقوا عنه أو أمثالهم أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره مفعوله الثانى.واما بمعنى الابداع فهو

حال من مفعوله واللام فى قوله تعالى (للناس) متعلقة بمحذوف وقع صفة لمثابة أى مثابة كائنة للناس أو بجعلنا أى جعلناه لاجل الناس وقرىء مثابات باعتبار تعدد الثائبين (وأمنا) أى آمنا كما فى قوله تعالى «حرما آمنا» على ايقاع المصدر موقع اسم الفاعل للمبالغة أو على تقدير المضاف أي ذا أمن أو على الاسناد المجازي أي آمنا من حجه من عذاب الآخرة من حيث أن الحج يجب ماقبله أو من دخله من التعرض له بالعقوبة وان كان جانيا حتى يخرج على ماهو رأي أبي حنيفة. ويجوز أن يعتبر الامن بالقياس الى كل شئ كائنا ما كان و يدخل فيه أمن الناس دخولا أوليا وقد اعتيد فيه أمن الصيد حتى أن الكلب كان يهم بالصيد خارج الحرم فيفر منه وهو يتبعه فاذا دخل الصيد الحرم لم يتبعه الكلب (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) على ارادة قول هو عطف على جعلنا أو حال من فاعله أي وقلنا أو قائلين لهم اتخذوا الخ وقيل هو بنفسه معطوف على الامر الذي يتضمنه قوله عز وجل مثابة للناس كانه قيل توبوا اليه واتخذوا الخ وقيل على المضمر العامل فى اذ وقيل هى جملة مستأنفة والخطاب على الوجوه الاخيرة له عليه السلام ولامته والاول هو الاليق بجزالة النظم الكريم .والامر صريحا كان أو مفهوما من الحكاية للاستجلاب ومن تبعيضية والمقام اسم مكان وهو الحجر الذي عليه أثر قدمه عليه السلام والموضع الذي كان عليه حين قام ودعا الناس الي الحج أو حين رفع قواعد البيت وهو موضعه اليوم. والمراد بالمصلى اما موضع الصلاة أو موضع الدعاء روي أنه صلى الله عليه وسلم «أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال هذا مقام ابراهيم فقال عمر رضى الله عنه أفلا تتخذه مصلى فقال لم أومر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت» وقيل المراد به الأمر بركعتى الطواف لما روي جابر رضى الله عنه أنه عليه السلام «لما فرغ من طوافه عمد الي مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى» وللشافعى فى وجوبهما قولان وقيل مقام ابراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج عرفة والمزدلفة والجمار واتخاذها مصلى أن يدعى فيها و يتقرب الي الله عز وجل. وقرئ واتخذوا على صيغة الماضى عطفا على جعلنا أي واتخذ الناس من مكان ابراهيم الذي وسم به لاهتمامه به واسكان ذريته عنده قبلة يصلون اليها (وعهدنا الي ابراهيم واسمعيل) أي أمرناهما أمراً مؤكدا (أن طهرا بيتى) بان طهراه على أن أن مصدرية حذف عنها الجار حذفا مطردا لجواز كون صلتها أمرا ونهيا كما فى قوله عز وجل «وأن أقم وجهك للدين حنيفا» لأن مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهى متحققة فيهما. ووجوب كونها

خبرية فى صلة الموصول الاسمى انما هو للتوصل الي وصف المعارف بالجمل وهي لا يوصف بها الا اذا كانت خبرية. وأما الموصول الحر فى فليس كذلك. ولما كان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الامر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الامر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال. أو أي طهراه على أن أن مفسرة لتضمن العهد معنى القول. واضافة البيت الى ضمير الجلالة للتشريف وتوجيه الامر بالتطهير ههنا اليهما عليهما السلام لاينافى ما فى سورة الحج من تخصيصه بابراهيم عليه السلام فان ذلك واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى «واذ بوأنا لأبراهيم مكان البيت» وكان اسمعيل عليه السلام حينئذ بمعزل من مثابة الخطاب وظاهر أن هذا بعد بلوغه مبلغ الامر والنهى وتمام البناء بمباشرته كما ينبيء عنه ايراده أثر حكاية جعله مثابة للناس الخ والمراد تطهيره من الاوثان والانجاس وطواف الجنب والحائض وغير ذلك مما لا يليق به (الطائفين) حوله (والعاكفين) المجاورين المقيمين عنده أو المعتكفين أو القائمين فى الصلاة كما فى قوله عز وعلا للطائفين والقائمين (والركع السجود) جمع راكع وساجد أي للطائفين والمصلين لأن القيام والركوع والسجود من هيئات المصلى ولتقارب الآخرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما أو اخلصاه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم وفيه ايماء الى أن ملابسة غيرهم به وان كانت مع مقارنة أمر مباح من قبيل تلويثه وتدنيسه (واذ قال ابراهيم) عطف على ما قبله من قوله واذ جعلنا الخ اما بالذات أو بعامله المضمر كما مر (رب اجعل هذا بلدا آمنا) ذا أمن كعيشة راضية أو آمنا أهله كليله نائم أي اجعل هـذا الوادي من البلاد الآمنة وكان ذلك أول ماقدم عليه السلام مكة كما روي سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه الصلاة والسلام «لما أسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر فجعلت تقول الى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال نعم قالت اذا لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال ربنا انى أسكنت الآية» وتعريف البلد مع جعله صفة لهذا فى سورة ابراهيم ان حمل على تعداد السؤال لما انه عليه السلام سأل أولا كلا الامرين البلدية والامن فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر له لما تقتضيه الحكمة الباهرة ثم كرر السؤال حسبما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أو كان المسئول أولا البلدية ومجرد الأمن المصحح للسكنى كما فى سائر البلاد وقد أجيب الي ذلك

وثانيا الأمن المعهود أو كان هو المسئول أولا أيضا وقد أجيب اليه لكن السؤال الثاني لاستدامته والاقتصار على سؤاله مع جعل البلد صفة لهذا لانه المقصد الاصلى أو لان المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسئول كلا الامرين وقد حكى ذلك ههنا واقتصر هناك على حكاية سؤال الامن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال جعل أفئدة الناس تهوي اليه كما سيأتى تفصيله هناك باذن الله عز وجل (وارزق أهله من الثمرات) من أنواعها بأن تجعل بقرب منه قري يحصل فيها ذلك أو يجبى اليها من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما «ان الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم» وعن الزهري «انه تعالى نقل قرية من قري الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام» (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) بدل من أهله بدل البعض خصهم بالدعاء اظهارا لشرف الايمان وابانة لخطره واهتماما بشأن أهله ومراعاة لحسن الادب وفيه ترغيب لقومه فى الايمان وزجر عن الكفر كما ان فى حكايته ترغيبا وترهيبا لقريش وغيرهم من أهل الكتاب (قال) استئناف مبنى على السؤال كما مر مرارا وقوله تعالي (ومن كفر) عطف على مفعول فعل محذوف تقديره ارزق من آمن ومن كفر وقوله تعالي (فامتعه) معطوف على ذلك الفعل أو فى محل رفع بالابتداء وقوله تعالي فامتعه خبره أي فانا أمتعه وانما دخلته الفاء تشبيها له بالشرط والكفر وان لم يكن سببا للتمتيع المطلق لكنه يصلح سببا لتقليله وكونه موصولا بعذاب النار وقيل هو عطف على من آمن عطف تلقين كانه قيل قل وارزق من كفر فانه أيضا مجاب كانه عليه السلام قاس الرزق على الامامة فنبهه تعالي على انه رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الامامة الخاصة بالخواص وقرئ فامتعه من أمتع وقرئ فنمتعه (قليلا) تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا (ثم اضطره الي عذاب النار) أي ألزه اليه لز المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم وقرئ ثم نضطره على وفق قراءة فنمتعه. وقرئ فامتعه قليلا ثم اضطره بلفظ الامر فيهما على انهما من دعاء ابراهيم عليه السلام وفى قال ضميره وانما فصله عما قبله لكونه دعاء على الكفرة وتغيير سبكه للايذان بأن الكفر سبب لاضطرارهم الى عذاب النار. وأما رزق من آمن فانما هو على طريقة التفضل والاحسان

وقرىء بكسر الهمزة على لغة من يكسر حرف المضارعة وأطره بادغام الضاد فى الطاء وهى لغة مرذولة فان حروف ضم شفر يدغم فيها ما يجاورها بلا عكس (وبئس المصير) المخصوص بالذم محذوف أي بئس المصير النار أو عذابها (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت) عطف على ماقبله من قوله عز وعلا واذ قال ابراهيم على أحد الطريقين المذكورين فى وإذ جعلنا وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة .والقواعد جمع قاعدة وهى الاساس صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من مقابل القيام و منه قعدك الله.و رفعها البناء عليها لأنه ينقلها من هيئة الانخفاض الى هيئة الارتفاع و المرتفع حقيقة وان كان هو الذي بنى عليها لكنهما لما التأما صارا شيئاً واحدا فكأنها نمت و ارتفعت .وقيل المراد بها سافات البناء فان كل ساف قاعدة لما يبنى عليها و يرفعها بناء بعضها على بعض.وقيل المراد برفعها رفع مكانة البيت و اظهار شرفه و دعاء الناس الي حجه وفى ابهامها أولا ثم تبيينها من تفخيم شأنها ما لايخفى وقيل المعنى وإذ يرفع ابراهيم ما قعد من البيت واستوطأ يعنى يجعل هيئة القاعدة المستوطأة مرتفعة عالية بالبناء روى أن الله عز وجل «أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد شرقى وغربى وقال لآدم أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشى فتوجه آدم من أرض الهند اليه ماشيا و تلقته الملائكة فقالوا بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام وحج آدم عليه السلام أربعين حجة من أرض الهند الي مكة على رجليه فكان على ذلك الي أن رفعه الله أيام الطوفان الي السماء الرابعة فهو البيت المعمور »وكان موضعه خاليا الي زمن ابراهيم عليه السلام فأمره سبحانه ببنائه و عرفه جبريل عليه السلام بمكانه. وقيل بعث الله السكينة لتدله عليه فتبعها ابراهيم عليه السلام حتى أتيا مكة المعظمة.وقيل بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت وسار ابراهيم فى ظلها الي أن وافت مكة المعظمة فوقفت على موضع البيت فنودي أن ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص.وقيل بناه من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودي وأسسه من حراء وجاء جبريل عليه السلام بالحجر الاسود من السماء.وقيل تمخض أبو قبيس فانشق عنه وقد خبىء فيه فى أيام الطوفان وكان ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة فلما لمسته الحيض فى الجاهلية اسود وقال الفاسى فى مثير الغرام فى تاريخ البلد الحرام:والذي يتحصل من جملة ماقيل فى عدد بناء الكعبة أنها بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة عليهم السلام ذكره النووي فى تهذيب الاسماء واللغات والازرقى فى تاريخه وذكر أنه كان قبل خلق آدم

عليه السلام. ومنها بناء آدم عليه السلام ذكره البيهقى فى دلائل النبوة وروي فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال بعث الله عز وجل جبريل الى آدم عليهما السلام فقال له ولحواء ابنيا لي بيتا فخط جبريل وجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى اذ أصاب الماء نودي من تحته حسبك آدم فلما بناه أوحى اليه أن يطوف به فقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت» وهكذا ذكره الازرقى فى تاريخه وعبد الرزاق فى مصنفه منها بناء بنى آدم عند ما رفعت الخيمة التى عزي الله تعالي بها آدم عليه السلام وكانت ضربت فى موضع البيت فبنى بنوه مكانها بيتا من الطين والحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم ومن بعدهم الى أن مسه الغرق فى عهد نوح عليه السلام ذكره الازرقى بسنده الي وهب بن منبه. ومنها بناء الخليل عليه السلام وهو منصوص عليه فى القرآن مشهور فى ما بين قاص ودان. ومنها بناء العمالقة. ومنها بناء جرهم ذكرهما الازرقى بسنده الي على بن أبى طالب رضى الله عنه. ومنها بناء قصى بن كلاب ذكره الزبير بن بكار فى كتاب النسب ومنها بناء قريش وهو مشهور. ومنها بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما. ومنها بناء الحجاج بن يوسف وما كان ذلك بناء لكلها بل لجدار من جدرانها وقال الحافظ السهيلى ان بناءها لم يكن فى الدهر الا خمس مرات الاولي حين بناها شيث عليه السلام انتهى والله سبحانه أعلم (واسمعيل) عطف على ابراهيم ولعل تأخيره عن المفعول للايذان بان الاصل فى الرفع هو ابراهيم واسمعيل تبع له قيل انه كان يناوله الحجارة وهو يبنيها وقيل كانا يبنيانه من طرفين (ربنا تقبل منا) على ارادة القول أي يقولان وقد قرئ به على انه حال منهما عليهما السلام وقيل على انه هو العامل فى اذو الجملة معطوفة على ما قبلها والتقدير ويقولان ربنا تقبل منا اذ يرفعان أي وقت رفعهما وقيل واسمعيل مبتدأ خبره قول محذوف وهو العامل فى ربنا تقبل منا فيكون ابراهيم هو الرافع واسمعيل هو الداعي والجملة فى محل النصب على الحالية أي واذ يرفع ابراهيم القواعد والحال ان اسمعيل يقول ربنا تقبل منا والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن افاضة مافيه صلاح المربوب مع الاضافة الي ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلة الاجابة وترك مفعول تقبل مع ذكره فى قوله تعالى «ربنا وتقبل دعاء» ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التى من جملتها ما هما بصدده من البناء كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية حالية (انك أنت السميع) لجميع المسموعات التى من جملتها دعاؤنا (العليم) بكل المعلومات التى من زمرتها نياتنا فى جميع أعمالنا والجملة تعليل لاستدعاء التقبل لا من حيث ان

كونه تعالى سميعا لدعائهما عليما بنياتهما مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث ان علمه تعالى بصحة نياتهما واخلاصهما فى أعمالهما مستدع له بموجب الوعد تفضلا. وتأكيد الجملة لغرض كمال قوة يقينهما بمضمونها وقصر نعتي السمع والعلم عليه تعالى لاظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية. واعلم ان الظاهر أن أول ما جرى من الامور المحكية هو الابتلاء وما يتبعه ثم دعاء البلدية والامن وما يتعلق به ثم رفع قواعد البيت وما يتلوه ثم جعله مثابة للناس والامر بتطهيره ولعل تغيير الترتيب الوقوعي فى الحكاية لنظم الشئون الصادرة عن جنابه تعالى فى سلك مستقل ونظم الامور الواقعة من جهة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام من الافعال والاقوال فى سلك آخر. وأما قوله تعالى ومن كفر الخ فانما وقع فى تضاعيف الاحوال المتعلقة بابراهيم لاقتضاء المقام واستيجاب ماسبق من الكلام ذلك بحيث لم يكن بد منه أصلا كما ان وقوع قوله عليه السلام ومن ذريتي فى خلال كلامه سبحانه لذلك (ربنا واجعلنا مسلمين لك) مخلصين لك أو مستسلمين من أسلم اذا استسلم وانقاد وايا ما كان فالمطلوب الزيادة والثبات على ما كان عليه من الاخلاص والاذعان. وقرىء مسلمين على صيغة الجمع بادخال هاجر معهما فى الدعاء أو لان التثنية من مراتب الجمع (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) أى واجعل بعض ذريتنا وانما خصاهم بالدعاء لانهم أحق بالشفقة ولانهم اذا صلحوا أصلح الاتباع وانما خصا به بعضهم لما علما أن منهم ظلمة وأن الحكمة الالهية لاتقتضى اتفاق الكل على الاخلاص والاقبال الكلي على الله عز وجل فان ذلك مما يخل بامر المعاش ولذلك قيل لولا الحمقى لخربت الدنيا. وقيل أرادا بالامة المسلمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد جوز أن يكون من مبينة قدمت على المبين وفصل بها بين العاطف والمعطوف كما فى قوله تعالى «ومن الارض مثلهن» والاصل وأمة مسلمة لك من ذريتنا (وأرنا) من الرؤية بمعنى الابصار أو بمعنى التعريف اي بصرنا او عرفنا (مناسكنا) اي متعبداتنا فى الحج او مذابحنا. والنسك فى الاصل غاية العبادة وشاع فى الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة. وقرئ ارنا قياسا على فخذ فى فخذ وفيه اجحاف لان الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها وقرئ باختلاس (وتب علينا) استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة فى التوبة والايمان أو توبة لهما عما فرط منهما سهوا ولعلهما قالاه هضما لانفسهما وارشاداً لذريتهما (انك انت التواب الرحيم) وهو تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للاجابة قيل اذا اراد العبد ان يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من اسمائه وصفاته (ربنا وابعث فيهم) اي فى الامة المسلمة (رسولا منهم) اي من انفسهم فان البعث فيهم لايستلزم البعث منهم ولم يبعث من

ذريتهما غير النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي اجيب به دعوتهما عليهم السلام روي انه قيل له قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان قال عليه السلام «انا دعوة ابى ابراهيم وبشري عيسى ورؤيا امى» وتخصيص ابراهيم عليه السلام بالاستجابة له لما أنه الاصل فى الدعاء واسمعيل تبع له عليه السلام (يتلو عليهم آياتك) يقرأ عليهم ويبلغهم مايوحى اليه من البينات (ويعلمهم) بحسب قوتهم النظرية (الكتاب) أي القرآن (والحكمة) وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة (ويزكيهم) بحسب قوتهم العملية أي يطهرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصى (انك أنت العزيز) الذى لايقهر ولايغلب على مايريد (الحكيم) الذي لايفعل الاماتقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء واجابة المسئول فان وصف الحكمة مقتض لافاضة ماتقتضيه الحكمة من الامور التى من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرة (ومن يرغب عن ملة ابراهيم) انكار واستبعاد لان يكون فى العقلاء من يرغب عن ملته التى هى الحق الصريح والدين الصحيح أى لايرغب عن ملته الواضحة الغراء (الا من سفه نفسه) أى أذلها واستمهنها واستخف بها وقيل خسر نفسه وقيل أو بق او أهلك أو جهل نفسه قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم ويشهد له ماورد فى الخبر «الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس» وقيل معناه ضل من قبل نفسه وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو غبن رأيه والم رأسه ونحو قوله :

ونأخذ بعده بذناب عيش ※ أجب الظهر ليس له سنام

وقوله : وماقومى بثعلبة بن سعد ※ ولا بفزارة الشعر الرقابا

وذلك لانه اذا رغب عما لايرغب عنه أحد من العقلاء فقد بالغ فى اذلال نفسه واذالتها واهانتها حيث خالف بها كل نفس عاقلة روى ان عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا الى الاسلام فقال لهما قد علمتما ان الله تعالى قال فى التوراة انى باعث من ولد اسمعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن به فهو ملعون فاسلم سلمة وأبى مهاجر فنزلت (ولقد اصطفيناه فى الدنيا) أي اخترناه بالنبوة والحكمة من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشيء كما ان أصل الاختيار اتخاذ خيره. واللام لجواب قسم محذوف والواو اعتراضية والجملة مقررة لمضمون ماقبلها أى وبالله لقد اصطفيناه وقوله تعالى (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أي من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح معطوف عليها داخل فى حيز القسم مؤكد لمضمونها مقرر لما تقرره ولا حاجة الى جعله اعتراضا آخر أو حالا مقدرة فان من

كان صفوة للعباد فى الدنيا مشهودا له بالصلاح فى الآخرة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عن ملته الا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والاعراض عن النظر والتأمل . وايثار الاسمية لما ان انتظامه فى زمرة صالحى أهل الآخرة أمر مستمر فى الدارين لا انه يحدث فى الآخرة . والتأكيد بان واللام لما ان الامور الاخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها الى التأكيد أشد من الامور التى تشاهد آثارها . وكلمة فى متعلقة بالصالحين على ان اللام للتعريف وليست بموصولة حتى يلزم تقديم بعض الصلة عليها على انه قد يغتفر فى الظرف مالا يغتفر فى غيره كما فى قوله :

ربيته حتى اذا تمعددا .. كان جزائى بالعصا أن أجلدا

أو بمحذوف من لفظه أى وانه لصالح فى الآخرة لمن الصالحين أو من غير لفظه أي أعنى فى الآخرة نحو لك بعد رعيا . وقيل هى متعلقة باصطفيناه على ان فى النظم الكريم تقديما وتأخيرا تقديره ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وانه لمن الصالحين (اذ قال له) ظرف لاصطفيناه لما ان المتوسط ليس باجنبى بل هو مقرر له لان اصطفاءه فى الدنيا انما هو للنبوة وما يتعلق بصلاح الآخرة أو تعليل له أو منصوب باذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتقف على انه المصطفى الصالح المستحق للامامة والتقدم وانه ما نال الا بالمبادرة الى الاذعان والانقياد لما أمر به واخلاص سره على أحسن مايكون حين قال له (ربه أسلم) أي لربك (قال أسلمت لرب العالمين) وليس الامر على حقيقته بل هو تمثيل والمعنى أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية الى المعرفة الداعية الى الاسلام من الكوكب والقمر والشمس. وقيل أسلم أي أذعن وأطع وقيل اثبت على ما أنت عليه من الاسلام والاخلاص أو استقم وفوض أمورك الى الله تعالى فالامر على حقيقته والالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليه عليه السلام لاظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته واضافة الرب فى جوابه عليه الصلاة والسلام الى العالمين للايذان بكمال قوة اسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به (ووصى بها ابراهيم بنيه) شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره اثر بيان كماله فى نفسه . وفيه توكيد لوجوب الرغبة فى ملته عليه السلام . والتوصية التقدم الى الغير بما فيه خير وصلاح للمسلمين من فعل أو قول وأصلها الوصلة يقال وصاه اذا وصله وفصاه اذا فضله كان الموصى يصل فعله بفعل الوصى . والضمير فى بها للملة أو قوله أسلمت لرب العالمين بتأويل الكلمة كما عبر بها عن قوله تعالى « أننى براء مما تعبدون الا الذى فطرنى فى قوله عز وجل وجعلها كلمة باقية فى عقبه » وقرىء أوصى

والاول أبلغ (و يعقوب) عطف على ابراهيم أى وصى بها هو أيضا بنيه وقرىء بالنصب عطفا على بنيه (يابنى) على اضمار القول عند البصريين ومتعلق بوصى عند الكوفيين لانه فى معنى القول كما فى قوله :

رجلان من ضبة أخبرانا ... انا رأينا رجلا عريانا

فهو عند الاولين بتقدير القول وعند الآخرين متعلق بالاخبار الذى هو فى معنى القول وقرىء أن يابنى. و بنو ابراهيم عليه السلام كانوا أربعة اسمعيل واسحق ومدين ومدان وقيل ثمانية .وقيل أربعة وعشرين وكان بنو يعقوب اثنى عشر روبين وشمعون ولاوى و يهوذاو يشسوخور وزبولون وزوانا وتفتونا وكوذا وأوشير وبنيامين و يوسف عليه السلام (ان الله اصطفى لكم الدين) دين الاسلام الذى هو صفوة الاديان ولا دين غيره عنده تعالى (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) ظاهره النهى عن الموت على خلاف حال الاسلام والمقصود الامر بالثبات على الاسلام الى حين الموت أى فاثبتوا عليه ولا تفارقوه أبدا كقولك لاتصل الا وأنت خاشع وتغيير العبارة للدلالة على ان موتهم لاعلى الاسلام موت لاخير فيه وان حقه ان لايحل بهم وانه يجب ان يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وأنت شهيد روى ان اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب أوصى باليهودية يوم مات فنزلت (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت) أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة والخطاب لاهل الكتاب الراغبين عن ملة ابراهيم وشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر واذ ظرف لشهداء .والمراد بحضور الموت حضور أسبابه.وتقديم يعقوب عليه السلام للاهتمام به اذ المراد بيان كيفية وصيته لبنيه بعد مابين ذلك اجمالا. ومعنى بل الاضراب والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة ابراهيم عليه السلام الى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية حسبما حكى عنهم. وأما تعميم الافتراء ههنا لسائر الانبياء عليهم السلام كما قيل فيأباه تخصيص يعقوب بالذكر وما سيأتى من قوله عز وجل أم تقولون ان ابراهيم الخ ومعنى الهمزة انكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام وتبكيتهم وقوله تعالى (اذ قال) بدل من اذ حضر أى ماكنتم حاضرين عند احتضاره عليه السلام وقوله (لبنيه ماتعبدون من بعدى) أى أى شىء تعبدونه بعد موتى فمن أين لكم أن تدعوا عليه عليه السلام ماتدعون رجما بالغيب وعند هذا تم التوبيخ والانكار والتبكيت ثم بين ان الامر قد جرى حينئذ على خلاف مازعموا وأنه عليه السلام أراد بسؤاله ذلك تقرير بنيه على التوحيد والاسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما اذ

به تتم وصيته بقوله فلا تموتن الا وأنتم مسلمون وما يسأل به عن كل شيء مالم يعرف فاذا عرف خص العقلاء بمن اذا سئل عن شيء بعينه وان سئل عن وصفه قيل ماز يد أفقيه أم طبيب فقوله تعالى (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقوب عليه السلام كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا (نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق) حسبما كان مراد أبيهم بالسؤال أى نعبد الاله المتفق على وجوده والهيته ووجوب عبادته وعد اسمعيل من آبائه تغليبا للاب والجد لقوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه وقوله عليه السلام فى العباس هذا بقية آبائى وقرىء أبيك على انه جمع بالواو والنون كما فى قوله :

فلما تبين أصواتنا ... بكين وفديننا بالابينا

وقد سقطت النون بالاضافة أو مفرد وابراهيم عطف بيان له واسمعيل واسحق معطوفان على أبيك (الها واحدا) بدل من اله آبائك كقوله تعالى بالناصية ناصية كاذبة وفائدته التصريح بالتوحيد ودفع التوهم الناشئ من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور أو نصب على الاختصاص (ونحن له مسلمون) حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما معاً ويحتمل أن يكون اعتراضاً محققا لمضمون ما سبق (تلك أمة) مبتدأ وخبر والاشارة الى ابراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين والأمة هى الجماعة التى تؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها (قد خلت) صفة للخبر أى مضت بالموت وانفردت عمن عداها وأصله صارت الى الخلاء وهى الأرض التى لا أنيس بها (لها ما كسبت) جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب أو صفة أخرى لأمة أو حال من الضمير فى خلت وما موصولة أو موصوفة والعائد اليها محذوف أى لها ما كسبته من الأعمال الصالحة المحكية لا تتخطاها الى غيرها فان تقديم المسند يوجب قصر المسند اليه عليه كما هو المشهور (ولكم ما كسبتم) عطف على نظيرتها على الوجه الأول وجملة مبتدأة على الوجهين الاخيرين اذ لا رابط فيها ولا بد منه فى الصفة ولا مقارنة فى الزمان ولا بد منها فى الحال أي لكم ما كسبتموه لا ما كسبه غيركم فان تقديم المسند قد يقصد به قصره على المسند اليه كما قيل فى قوله تعالى لكم دينكم ولى دين أى ولى دينى لا دينكم وحمل الجملة الأولى على هذا القصر على معنى أن أولئك لا ينفعهم الا ما اكتسبوا كما قيل مما لا يساعده المقام اذ لا يتوهم متوهم انتفاعهم بكسب هؤلاء حتى يحتاج الى بيان امتناعه وانما الذى يتوهم انتفاع هؤلاء بكسبهم فبين امتناعه بان أعمالهم الصالحة مخصوصة بهم لا تتخطاهم الى

غيرهم وليس لهؤلاء الا ما كسبوا فلا ينفعهم انتسابهم اليهم وانما ينفعهم اتباعهم لهم في الأعمال كما قال عليه السلام «يابني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم» (ولا تسألون عما كانوا يعملون) ان أجري السؤال على ظاهره فالجملة مقررة لمضمون ما مر من الجملتين تقريراً ظاهراً وان أريد به مسببه أعني الجزاء فهو تتميم لما سبق جار مجرى النتيجة له وأياما كان فالمراد تخييب المخاطبين وقطع أطماعهم الفارغة عن الانتفاع بحسنات الأمة الخالية وانما أطلق العمل لاثبات الحكم بالطريق البرهاني في ضمن قاعدة كلية هذا وقد جعل السؤال عبارة عن المؤاخذة والموصول عن السيئات فقيل أي لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم ولا ريب في أنه مما لا يليق بشأن التنزيل كيف لا وهم منزهون من كسب السيئات فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم حتى يتصدى لبيان انتفاعه (وقالوا) شروع في بيان فن آخر من فنون كفرهم وهو اضلالهم لغيرهم أثر بيان ضلالهم في أنفسهم والضمير لأهل الكتابين على طريقة الالتفات المؤذن باستيجاب حالهم لابعادهم من مقام المخاطبة والاعراض عنهم وتعديد جناياتهم عند هم أي قالوا للمؤمنين (كونوا هودا أو نصاري) ليس هذا القول مقولا لكلهم أو لأي طائفة كانت من الطائفتين بل هو موزع عليهما على وجه خاص يقتضيه حالهما اقتضاء مغنيا عن التصريح به أي قالت اليهود كونوا هوداً والنصاري كونوا نصاري ففعل بالنظم الكريم ما فعل بقوله تعالى «وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصاري» اعتمادا على ظهور المرام (تهتدوا) جواب للامر أي ان تكونوا كذلك تهتدوا (قل) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي قل لهم على سبيل الرد عليهم وبيان ما هو الحق لديهم وارشادهم اليه (بل ملة ابراهيم) أي لا نكون كما تقولون بل نكون أهل ملته عليه السلام. وقيل بل نتبع ملته عليه السلام وقد جوز أن يكون المعنى بل اتبعوا أنتم ملته عليه السلام أو كونوا أهل ملته وقرئ بالرفع أي بل ملتنا أو أمرنا ملته أو نحن ملته أي أهل ملته (حنيفا) أي مائلا عن الباطل الى الحق وهو حال من المضاف اليه كما في رأيت وجه هند قائمة أو المضاف كما في قوله تعالى ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا الخ (وما كان من المشركين) تعريض بهم وايذان ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام مع اشراكهم بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله (قولوا) خطاب للمؤمنين بعد خطابه عليه السلام برد مقالتهم الشنعاء على الاجمال وارشاد لهم الى طريق التوحيد والايمان على ضرب من التفصيل أي قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقا وارشادا ضمنيا لهم اليه (آمنا بالله وما أنزل

الينا) يعنى القرآن قدم على سائر الكتب الالهية مع تأخره عنها نزولا لاختصاصه بنا وكونه سبباً للايمان بها (وما أنزل إلى إبراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) الصحف وان كانت نازلة إلى إبراهيم عليه السلام لكن من بعده حيث كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها جعلت منزلة اليهم كما جعل القرآن منزلا الينا والاسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام أو أبناؤه الاثنا عشر وذراريهم فانهم حفدة ابراهيم واسحق (وما أوتى موسى وعيسى) من التوراة والانجيل وسائر المعجزات الباهرة الظاهرة بأيديهما حسبما فصل فى التنزيل الجليل وايراد الايتاء لما أشير اليه من التعميم وتخصيصهما بالذكر لما ان الكلام مع اليهود والنصارى (وما أوتى النبيون) أى جملة المذكورين وغيرهم (من ربهم) من الآيات البينات والمعجزات الباهرات (لا نفرق بين أحد منهم) كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض وانما اعتبر عدم التفريق بينهم مع ان الكلام فيما أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق بين ما أوتوه وهمزة أحد اما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح ان يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس ومنه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم «ما أحلت الغنائم لأحد سود الرأس غيركم» حيث وصف بالجمع، واما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وبين غيره كما فى قول النابغة

فما كان بين الخير لو جاء سالما ... أبو حجر الا ليال قلائل

أى بين الخير وبينى وفيه من الدلالة صريحا على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ما ليس فى ان يقال لا نفرق بينهم والجملة حال من الضمير فى آمنا وقوله عز وجل (ونحن له مسلمون) أى مخلصون له ومذعنون حال أخرى منه أو عطف على آمنا (فان آمنوا) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ما تقدم من ايمان المخاطبين على الوجه المحرر مظنة لايمان أهل الكتابين لما انه مشتمل على ما هو مقبول عندهم (بمثل ما آمنتم به) أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصل على ان المثل مقحم كما فى قوله تعالى « وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله» أى عليه ويعضده قراءة ابن مسعود بما آمنتم به وقراءة أبى بالذى آمنتم به ويجوز ان تكون الباء للاستعانة على ان المؤمن به محذوف لظهوره بمروره آنفاً أو على ان الفعل مجرى

مجري اللازم أى فان آمنوا بما مر مفصلا أو فان فعلوا الايمان بشهادة مثل شهادتكم وان تكون الاولى زائدة والثانية صلة لآمنتم وما مصدرية فان آمنوا إيمانا مثل إيمانكم بما ذكر مفصلا وان تكونا للملابسة أى فان آمنوا ملتبسين بمثل ما آمنتم ملتبسين به أو فان آمنوا إيمانا ملتبسا بمثل ما آمنتم ايمانا ملتبسا به من الاذعان والاخلاص وعدم التفريق بين الأنبياء عليهم السلام فان ماوجد فيهم وصدر عنهم من الشهادة والاذعان وغير ذلك مثل ما للمؤمنين لاعينه بخلاف المؤمن به فانه لايتصور فيه التعدد (فقد اهتدوا) الى الحق وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق . وأما ماقيل من أن المعنى فان تحروا الإيمان بطريق يهدى الى الحق مثل طريقكم فقد اهتدوا فان وحدة المقصد لاتأبى تعدد الطرين فيأباه ان مقام تعيين طريق الحق وارشادهم اليه بعينه لايلائم تجويز أن يكون له طريق آخر وراءه (وان تولوا) أى اعرضوا عن الايمان على الوجه المذكور بأن أخلوا بشيء من ذلك كأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما هو دينهم وديدنهم (فانما هم فى شقاق) المشاقة والشقاق من الشق كالمخالفة والخلاف من الخلف . والمعاداة والعداء من العدوة أى الجانب فان أحد المخالفين يعرض عن الآخرة صورة أو معنى ويوليه خلفه ويأخذ فى شق غير شقه وعدوة غير عدوته. والتنوين للتفخيم أى هم مستقرون فى خلاف عظيم بعيد من الحق وهذا الدفع مايتوهم من احتمال الوفاق بسبب ايمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون والجملة اما جواب الشرط كما هى على ان المراد مشاقتهم الحادثة بعد توليهم عن الايمان كجواب الشرطية الاولى وانما أوثرت الجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم واستقرارهم فى ذلك واما بتأويل فاعلموا انماهم فى شقاق هذا هو الذى يستدعيه فخامة شأن التنزيل الجليل وقد قيل قوله تعالى فان آمنوا الخ من باب التعجيز والتبكيت على منهاج قوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » والمعنى فان حصلوا دينا آخر مثل دينكم مماثلاله فى الصحة والسداد فقد اهتدوا واذ لاامكان له فلا امكان لاهتدائهم ولاريب فى أنه مما لايليق بحمل النظم الكريم عليه ولما دل تنكير الشقاق على امتناع الوفاق وان ذلك مما يؤدى الى الجدال والقتال لامحالة عقب ذلك بتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفريح المؤمنين بوعد النصر والغلبة وضمان التأييد والاعزاز . وعبر بالسين الدالة على تحقق الوقوع البتة فقيل (فسيكفيكهم الله) أى سيكفيك شقاقهم فان الكفاية لاتتعلق بالاعيان بل بالافعال وقد أنجز عز وجل وعده الكريم بقتل بنى قريظة وسبيهم واجلاء بنى النضير . وتلوين الخطاب بتجريده للنبى صلى الله عليه وسلم مع أن ذلك كفاية منه سبحانه للكل لما أنه

الاصل والعمدة فى ذلك وللايذان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المؤن و المشاق ومقاساة الشدائد فى مناهضة الاعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالى فى الكفاية و النصر فى حقه عليه السلام أتم وأكمل (وهو السميع العليم) تذييل لما سيق من الوعد و تأكيد له والمعنى انه تعالى يسمع ماتدعو به و يعلم مافى نيتك من اظهار الدين فيستجيب لك و يوصلك الى مرادك .أو وعيد للكفرة أى يسمع ماينطقون به و يعلم مايضمرونه فى قلوبهم مما لاخير فيه وهو معاقبهم عليه ولا يخفى مافيه من تأكيد الوعد السابق فان وعيد الكفرة وعد للمؤمنين (صبغة الله) الصبغة من الصبغ كالجلسة من الجلوس وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ عبر بها عن الايمان بما ذكر على الوجه الذي فصل لكونه تطهيراً للمؤمنين من أوضار الكفر وحلية تزينهم بآثاره الجميلة ومتداخلا فى قلوبهم كما أن شأن الصبغ بالنسبة الى الثوب كذلك وقيل للمشاكلة التقديرية فان النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ويزعمون أنه تطهير لهم وبه يحق نصرانيتهم واضافتها الى الله عز وجل مع استناده فيما سلف الى ضمير المتكلمين للتشريف والايذان بأنها عطية منه سبحانه لايستقل العبد بتحصيلها فهى اذن مصدر مؤكد لقوله تعالى آمنا داخل معه فى حيز قولوا منتصب عنه انتصاب وعدالله عماتقدمه لكونه بمثابة فعله كانه قيل صبغنا الله صبغة.و قيل هى منصوبة بفعل الاغراء أى الزموا صبغة الله وانما وسط بينهما الشرطيتان ومابعدهما اعتناء ببيان أنه الايمان الحق وبه الاهتداء ومسارعة الى تسليته عليه الصلاة والسلام (ومن أحسن من الله) مبتدأ وخبر والاستفهام للانكار والنفى وقوله تعالى (صبغة) نصب على التميز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن صبغته أحسن من صبغته تعالي فالتفضيل جار بين الصبغتين لابين فاعليهما أى لاصبغة أحسن من صبغته تعالى على معنى أنها أحسن من كل صبغة على ما أشير اليه فى قوله تعالى : ومن أظلم ممن منع الخ وحيث كان مدار التفضيل على تعميم الحسن الحقيقى و الفرضى المبنى على زعم الكفرة لم يلزم منه أن يكون فى صبغة غيره تعالى حسن فى الجملة والجملة اعتراضية مقررة لما فى صبغة الله من معنى التبجح والابتهاج (ونحن له) أى لله الذى أولانا تلك النعمة الجليلة (عابدون) شكرا لها ولسائرنعمه وتقديم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على آمنا داخل معه تحت الامر.وايثار الاسمية للاشعار بدوام العبادة أو على فعل الاغراء بتقدير القول أى الزموا صبغة الله وقولوا نحن له عابدون فقوله تعالي: ومن أحسن من الله صبغة :حينئذ يجرى مجرى

التعليل للاغراء (قل أتحاجوننا) تجريداً لخطاب النبى صلى الله عليه وسلم عقيب الكلام الداخل تحت الامر الوارد بالخطاب العام لما أن المأمور به من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وقرىء بادغام النون والهمزة للانكار والتوبيخ أى أتجادلوننا (فى الله) أى فى دينه وتدعون ان دينه الحق هو اليهودية والنصرانية وتبنون دخول الجنة والاهتداء عليهما وتقولون تارة لن يدخل الجنة الامن كان هوداً أونصارى وتارة كونوا هودا أونصارى تهتدوا (وهو ربنا وربكم) جملة حالية وكذلك ماعطف عليها أى أتجادلوننا والحال أنه لاوجه للمجادلة اصلا لانه تعالى ربنا أى مالك أمرنا وأمركم (ولنا أعمالنا) الحسنة الموافقة لامره (ولكم أعمالكم) السيئة المخالفة لحكمه (ونحن له مخلصون) فى تلك الاعمال لانبتغى بها الاوجهه فانى لكم المحاجة وادعاء حقية ماأنتم عليه والطمع فى دخول الجنة بسببه ودعوة الناس اليه وكلمة أم فى قوله تعالى (أم تقولون) أما معادلة للهمزة فى قوله تعالى أتحاجوننا داخلة فى حيز الامر على معنى أى الامرين تأتون اقامة الحجة وتنوير البرهان على حقية ماأنتم عليه والحال ماذكر أم التشبث بذيل التقليد والافتراء على الانبياء وتقولون (ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداأو نصارى) فنحن بهم مقتدون والمراد انكار كلا الامرين والتوبيخ عليهما واما منقطعة مقدرة ببل والهمزة دالة على الاضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة الى التوبيخ على الافتراء على الانبياء عليهم السلام وقرىء أم يقولون على صيغة الغيبة فهى منقطعة لاغير غير داخلة تحت الامر واردة من جهته تعالى توبيخا لهم وانكارا عليهم لا من جهته عليه السلام على نهج الالتفات كما قيل هذا . وأما ماقيل من أن المعنى أتحاجوننا فى شأن الله واصطفائه نبيا من العرب دونكم لما روى ان أهل الكتاب قالوا الانبياء كلهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا فنزلت ومعنى قوله تعالى «وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم» أنه لا اختصاص له تعالى بقوم دون قوم يصيب برحمته من يشاء من عباده فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا كما أكرمكم باعمالكم كانه ألزمهم على كل مذهب ينتحونه افحاما وتبكيتا فان كرامة النبوة إما تفضل من الله تعالى على من يشاء فالكل فيه سواء . وإما افاضة حق على المستحقين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلى بالاخلاص فكما أن لكم أعمالا ربما يعتبرها الله تعالى فى اعطائها فلنا أيضا أعمال ونحن له مخلصون أى لا أنتم فمع عدم ملاءمته لسباق النظم الكريم وسياقه لاسيما على تقدير كون كلمة أم معادلة للهمزة غير صحيح فى نفسه لما أن المراد بالاعمال من الطرفين ما أشير اليه من الاعمال الصالحة والسيئة ولا ريب فى ان أمر الصلاح والسوء يدور على موافقة الدين المبنى على البعثة ومخالفته

فكيف يتصور اعتبار تلك الاعمال فى استحقاق النبوة واستعدادها المتقدم على البعثة بمراتب (قل أأنتم أعلم أم الله) اعادة الامر ليست لمجرد تأكيد التوبيخ وتشديد الانكار عليهم بل للايذان بان مابعده ليس متصلا بما قبله بل بينهما كلام للمخاطبين مترتب على ماسبق مستتبع لما لحق قد ضرب عنه الذكر صفحا لظهوره وهو تصريحهم بما وبخوا عليه من الافتراء على الانبياء عليهم السلام كما فى قوله عز وجل «قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون» وقوله عز قائلا «قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على» فان تكرير قال فى الموضعين وتوسيطه بين قولى قائل واحد للايذان بان بينهما كلاما لصاحبه متعلقا بالاول والثانى بالتبعية والاستتباع كما حرر فى محله أى كذبهم فى ذلك وبكتهم قائلا ان الله يعلم وأنتم لاتعلمون وقد نفى عن ابراهيم عليه السلام كلا الامرين حيث قال ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا واحتج عليه بقوله تعالى «وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده» وهؤلاء المعطوفون عليه عليه السلام اتباعه فى الدين وفاقا فكيف تقولون ماتقولون سبحان الله عما تصفون (ومن أظلم) انكار لان يكون أحد أظلم (ممن كتم شهادة) ثابتة (عنده) كائنة (من الله) وهى شهادته تعالى له عليه السلام بالحنيفية والبراءة من اليهودية والنصرانية حسبما تلى آنفا فعنده صفة لشهادة وكذا من الله جيء بهما لتعليل الانكار وتأكيده فان ثبوت الشهادة عنده وكونها من جناب الله عز وجل من أقوى الدواعى الى اقامتها وأشد الزواجر عن كتمانها .وتقديم الاول مع انه متأخر فى الوجود لمراعاة طريقة الترقى من الادنى الي الاعلى والمعنى أنه لاأحد أظلم من أهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادة وأثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء .وتعليق الاظلمية بمطلق الكتمان للايماء الى ان مرتبة من يردها ويشهد بخلافها فى الظلم خارجة عن دائرة البيان أو لا أحد أظلم منا لو كتمناها فالمراد بكتمها عدم اقامتها فى مقام المحاجة .وفيه تعريض بغاية أظلمية أهل الكتاب على نحو ما أشير اليه وفى اطلاق الشهادة مع أن المراد بها ما ذكر من الشهادة المعينة تعريض بكتمانهم شهادة الله عز وجل للنبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والانجيل (وما الله بغافل عما تعملون) من فنون السيئات فيدخل فيها كتمانهم لشهادته سبحانه وافتراؤهم على الانبياء عليهم الصلاة والسلام دخولا أوليا أى هو محيط بجميع ما تأتون وما تذرون فيعاقبكم بذلك أشد عقاب وقرئ عما يعملون على صيغة الغيبة فالضمير اما لمن كتم باعتبار المعنى واما لاهل الكتاب وقوله تعالى ومن أظلم الى آخر الآية مسوق من جهته تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدهم بالوعيد (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت

ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) تكرير للمبالغة فى الزجر عماهم عليه من الافتخار بالآباء والاتكال على أعمالهم وقيل الخطاب السابق لهم وهذا لنا تحذيرا عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالامة الاولى الانبياء عليهم السلام وبالثانية أسلاف اليهود (سيقول السفهاء) أى الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والاعراض عن التدبر والنظر من قولهم ثوب سفيه اذا كان خفيف النسج وقيل السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم وقيل الظلوم الجهول والمراد بالسفهاء هم اليهود على ما روى عن ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم قالوه انكارا للنسخ وكراهة للتحويل حيث كانوا يأنسون بموافقته عليه الصلاة والسلام لهم فى القبلة . وقيل هم المنافقون وهو الانسب بقوله عز وعلا «ألا انهم هم السفهاء» وانما قالوه لمجرد الاستهزاء والطعن لا لاعتقادهم حقية القبلة الاولى وبطلان الثانية اذ ليس كلهم من اليهود. وقيل هم المشركون ولم يقولوه كراهة للتحويل الى مكة بل طعنا فى الدين فانهم كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائه ثم رجع اليها وليرجعن الى دينهم أيضا. وقيل هم القادحون فى التحويل منهم جميعا فيكون قوله تعالى (من الناس) أى الكفرة لبيان أن ذلك القول المحكى لم يصدر عن كل فرد فرد من تلك الطوائف الثلاث بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض فى فنون الفساد وهو الاظهر اذ لو أريد بهم طائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونهم من الناس مزيد فائدة وتخصيص سفهائهم بالذكر لا يقتضى تسليم الباقين للتحويل وارتضاءهم اياه بل عدم التفوه بالقدح مطلقا أو بالعبارة المحكية (ماولاهم) أى أى شىء صرفهم والاستفهام للانكار والنفى (عن قبلتهم) القبلة فعلة من المقابلة كالوجهة من المواجهة وهى الحالة التى يقابل الشىء غيره عليها كالجلسة للحالة التى يقع عليها الجلوس يقال لا قبلة له ولا دبرة اذا لم يهتد لجهة أمره غلبت على الجهة التى يستقبلها الانسان فى الصلاة والمراد بها ههنا بيت المقدس واضافتها الى ضمير المسلمين ووصفها بقوله تعالى (التى كانوا عليها) أى ثابتين مستمرين على التوجه اليها ومراعاتها واعتقاد حقيقتها لتأكيد الانكار فان الاختصاص بالشىء والاستمرار عليه باعتقاد حقيته مما ينافى الانصراف عنه فان أريد بالقائلين اليهود فمدار الانكار كراهتهم للتحويل عنها وزعمهم أنه خطأ. وان أريد بهم المشركون فمدار مجرد القصد الى الطعن فى الدين والقدح فى أحكامه واظهار أن كلا من التوجه اليها والانصراف عنها واقع بغير داع اليه لا لكراهتهم الانصراف عنها أو التوجه الى مكة. وتعليق الانكار بما يوليهم عنها لا بما يوجههم الى غيرها مع تلازمهما فى الوجود لما أن ترك الدين القديم

أبعد عند العقول و إنكار سببه أدخل لا للايذان بأن المنكرين هم اليهود بناء على أن المنكر عندهم هو التحويل عن خصوصية بيت المقدس الذي هو القبلة الحقة عندهم لا التوجه الى خصوصية قبلة أخرى أو هم المشركون بناء على أن المنكر عندهم ترك القبلة القديمة على وجه الطعن والقدح لا التوجه الى الكعبة لانه الحق عندهم فانه بمعزل عن ذلك كيف لا والمنافقون من أحد الفريقين لامحالة والاخبار بذلك قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما أخبر لتوطين النفوس و إعداد ما يبكتهم فان مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد والجواب العتيد لشغب الخصم الالد أرد وقوله عز وجل (قل لله المشرق و المغرب) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا أقول عند ذلك فقيل قل الخ أى لله تعالى ناحيتا الارض أى الجهات كلها ملكا وملكا وتصرفاً فلا اختصاص لناحية منها بذاتها بكونها قبلة دون ماعداها بل انما هو بأمر الله سبحانه ومشيئته (يهدي من يشاء) أن يهديه مشيئة تابعة للحكم الخفية التى لا يعلمها إلا هو (الي صراط مستقيم) موصل الى سعادة الدارين وقد هدانا الى ذلك حيث أمرنا بالتوجه الى بيت المقدس تارة والى الكعبة أخري حسبما تقتضيه مشيئته المقارنة لحكم أبية ومصالح خفية (وكذلك جعلناكم) توجيه للخطاب الى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول صلى الله عليه وسلم لتأييد مافى مضمون الكلام من التشريف وذلك اشارة الي مصدر جعلناكم لا الي جعل آخر مفهوم مماسبق كما قيل وتوحيد الكاف مع القصد الي المؤمنين لما أن المراد مجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه و بعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه به و انتظامه بسببه فى سلك الامور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الاصل النصب على انه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير جعلناكم أمة وسطاً جعلا كائناً مثل ذلك الجعل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتاً له أي ذلك الجعل البديع جعلناكم (أمة وسطا) لاجعلا آخر أدنى منه والوسط فى الاصل اسم لما يستوي نسبة الجوانب اليه كمركز الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لكن لا لان الاطراف يتسارع اليها الخلل والاعواز والاوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول ابن أوس الطائى :

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت ❊ بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فان تلك العلاقة بمعزل من الاعتبار فى هذا المقام اذ لا ملابسة بينها و بين أهلية

الشهادة التى جعلت غاية للجعل المذكور بل لكون تلك الخصال أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفى الافراط والتفريط كالعفة التى طرفاها الفجور والخمود وكالشجاعة التى طرفاها التهور والجبن وكالحكمة التى طرفاها الجربزة والبلادة وكالعدالة التى هى كيفية متشابهة حاصلة من اجتماع تلك الاوساط المحفوفة بأطرافها ثم أطلق على المتصف بها مبالغة كأنه نفسها.وسوى فيه بين المفرد والجمع والمذكر والمؤنث رعاية لجانب الاصل كدأب سائر الاسماء التى يوصف بها وقد روعيت ههنا نكتة رائقة هى ان الجعل المشار اليه عبارة عما تقدم ذكره من هدايته تعالى الي الحق الذي عبر عنه بالصراط المستقيم الذى هو الطريق السوى الواقع فى وسط الطرق الجائرة عن القصد الي الجوانب فانا اذا فرضنا خطوطا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين فالخط المستقيم انما هو الخط الواقع فى وسط تلك الخطوط المنحنية ومن ضرورة كونه وسطا بين الطرق الجائرة كون الامة المهدية اليه أمة وسطا بين الأمم السالكة الى تلك الطرق الزائغة أي متصفة بالخصال الحميدة خيارا وعدولا مزكين بالعلم والعمل (لتكونوا شهداء على الناس) بان الله عز وجل قد أوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا وذكروا فهل من مدكر .وهى غاية للجعل المذكور مترتبة عليه فان العدالة كما أشير اليه حيث كانت هى الكيفية المتشابهة المتألفة من العفة التى هى فضيلة القوة الشهوية البهيمية والشجاعة التى هى فضيلة القوة الغضبية السبعية والحكمة التى هي فضيلة القوة العقلية الملكية المشار الي رتبتها بقوله عز وعلا «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» كان المتصف بها واقفا على الحقائق المودعة فى الكتاب المبين المنطوى على أحكام الدين وأحوال الأمم أجمعين حاويا لشرائط الشهادة عليهم. روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء عليهم السلام فيطالبهم الله تعالى بالبينة وهو أعلم اقامة للحجة على المنكرين وزيادة لخزيهم بان كذبهم من بعدهم من الامم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فيقول الأمم من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك باخبار الله تعالي فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى عند ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله عز قائلا (ويكون الرسول عليكم شهيدا) وكلمة الاستعلاء لما فى الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن وقيل لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا فيما لا يقبل فيه الشهادة الا من العدول الاخيار وتقديم الظرف للدلالة على اختصاص شهادته عليه السلام بهم (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) جرد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم رمزاً إلى ان مضمون الكلام من

الاسرار الحقيقة بأن يخص معرفته به عليه السلام وليس الموصول صفة للقبلة بل هو مفعول ثان للجعل وما قيل من ان الجعل تحويل الشئ من حالة الى أخرى فالمتلبس بالحالة الثانية هو المفعول الثانى كما فى قولك جعلت الطين خزفا فينبغى أن يكون المفعول الاول هو الموصول والثانى هو القبلة فكلام صناعى ينساق اليه الذهن بحسب النظر الجليل ولكن التأمل اللائق يهدى الي العكس فان المقصود افادته ليس جعله الجهة قبلة لاغير كما يفيده ماذكر بل هو جعل القبلة المحققة الوجود هذه الجهة دون غيرها والمراد بالموصول هى الكعبة فانه عليه الصلاة والسلام كان يصلى اليها أولا ثم لما هاجر أمر بالصلاة الي الصخرة تألفا لليهود أو هى الصخرة لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من ان قبلته عليه السلام بمكة كانت بيت المقدس الا انه كان يجعل الكعبة بينه وبينه . وعلى هذه الرواية لايمكن ان يراد بالقبلة الاولى الكعبة.وأما الصخرة فيتأتى ارادتها على الروايتين والمعنى على الاول وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها آثر ذي أثير وهى الكعبة وعلى الثانى وما جعلناها التى كنت عليها قبل هذا الوقت وهى الصخرة (الا لنعلم) استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعلنا ذلك لشئ من الاشياء الا لنمتحن الناس أى نعاملهم معاملة من يمتحنهم .ونعلم حينئذ (من يتبع الرسول) فى التوجه الى ماأمر به من الدين أو القبلة والالتفات الي الغيبة مع ايراده عليه السلام بعنوان الرسالة للاشعار بعلة الاتباع (ممن ينقلب على عقبيه) يرتد عن دين الاسلام أو لايتوجه الى القبلة الجديدة أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لايتبعه وما كان لعارض يزول بزواله وعلى الاول مارددناك الي ماكنت عليه الا لنعلم الثابت على الاسلام والناكص على عقبيه لقلقه وضعف ايمانه والمراد بالعلم مايدور عليه فلك الجزاء من العلم الحالى أى ليتعلق علمنا به موجودا بالفعل وقيل المراد علم الرسول عليه السلام والمؤمنين واسناده اليه سبحانه لما انهم خواصه أو ليتميز الثابت عن المتزلزل كقوله تعالي ليميز الله الخبيث من الطيب فوضع العلم موضع التمييز الذى هو مسبب عنه ويشهد له قراءة ليعلم على بناء المجهول من صيغة الغيبة. والعلم إما بمعنى المعرفة أو متعلق بما فى من من معنى الاستفهام أو مفعوله الثانى ممن ينقلب الخ أى لنعلم من يتبع الرسول متميزا ممن ينقلب على عقبيه (وان كانت لكبيرة) أى شاقة ثقيلة وان هى المخففة من الثقيلة دخلت على ناسخ المبتدا والخبر واللام هى الفارقة بينها وبين النافية كما فى قوله تعالي «ان كان وعد ربنا لمفعولا» وزعم الكوفيون أنها نافية واللام بمعنى الا أى ماكانت الا كبيرة والضمير الذى هو اسم كان راجع الي مادل عليه قوله

تعالى «وما جعلنا القبلة التي كنت عليها » من الجعلة أو التولية أو التحويلة أو الردة أو القبلة وقرئ لكبيرة بالرفع على ان كان مزيدة كما في قوله : « واخوان لنا كانوا كرام » وأصله وان هي لكبيرة كقوله ان زيد لمنطلق (الا على الذين هدى الله) أى الي سر الاحكام الشرعية المبنية على الحكم والمصالح اجمالا وتفصيلا وهم المهديون الي الصراط المستقيم الثابتون على الايمان واتباع الرسول عليه السلام (وماكان الله ليضيع ايمانكم) أى ماصح وما استقام له ان يضيع ثباتكم على الايمان بل شكر صنيعكم وأعد لكم الثواب العظيم وقيل ايمانكم بالقبلة المنسوخة وصلاتكم اليها لما روي أنه عليه السلام لما توجه الى الكعبة قالوا كيف حال اخواننا الذين مضوا وهم يصلون الى بيت المقدس فنزلت. واللام في ليضيع اما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدرة أى ما كان الله مريداً أو متصديا لان يضيع الخ ففى توجيه النفى الى ارادة الفعل تأكيد ومبالغة ليس فى توجيهه الى نفسه واما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله تعالى (ان الله بالناس لرءوف رحيم) تحقيق وتقرير للحكم وتعليل له فان اتصافه عز وجل بهما يقتضى لا محالة ان لا يضيع أجورهم ولا يدع ما فيه صلاحهم والباء متعلقة برءوف. وتقديمه على رحيم مع كونه ابلغ منه لما مر فى وجه تقديم الرحمن على الرحيم وقيل الرحمة أكثر من الرأفة فى الكمية والرأفة أقوي منها فى الكيفية لانها عبارة عن ايصال النعم الصافية عن الآلام والرحمة ايصال النعمة مطلقا وقد يكون مع الالم كقطع العضو المتأكل. وقرئ رءوف بغير مدكندس (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) أي تردده وتصرف نظرك فى جهتها تطلعا للوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقع فى روعه ويتوقع من ربه عز وجل أن يحوله الى الكعبة لانها قبلة ابراهيم وأدعى للعرب الى الايمان لانها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل بالوحى بالتحويل (فلنولينك قبلة) الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وهى فى الحقيقة داخلة على قسم محذوف يدل عليه اللام أى فوالله لنولينك أي لنعطينكها ولنمكننك من استقبالها من قولك وليته كذا أى صيرته واليا له أو لنجعلنك تلى جهتها أو لنحولنك على ان نصب قبلة بحذف الجار أى الى قبلة. وقيل هو متعد الي مفعولين (ترضاها) تحبها وتشتاق اليها لمقاصد دينية وافقت مشيئته تعالى وحكمته (فول وجهك) الفاء لتفريع الامر بالتولية على الوعد الكريم. وتخصيص التولية بالوجه لما انه مدار التوجه ومعياره وقيل المراد به

كل البدن أى فاصرفه (شطر المسجد الحرام) أى نحوه وهو نصب على الظرفية من
ول أو على نزع الخافض أو على أنه مفعول ثان له وقيل الشطر فى الاصل اسم لما
انفصل من الشئ ودار شطور اذا كانت منفصلة عن الدور ثم استعمل لجانبه وان لم
ينفصل كالقطر والحرام المحرم أى محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوا له
وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ايذان بكفاية مراعاة الجهة لان فى مراعاة العين
من البعيد حرجا عظيما بخلاف القريب روى عن البراء بن عازب ان نبى الله صلى الله
عليه وسلم قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم وجه الي
الكعبة وقيل كان ذلك فى رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين
ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين
من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء
مكان الرجال فسمي المسجد مسجد القبلتين (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره)
خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب تعظيما لجنابه وايذانا باسعاف مرامه ثم
عمم الخطاب للمؤمنين مع التعرض لاختلاف أماكنهم تأكيداً للحكم وتصريحا بعمومه
لكافة العباد من كل حاضر وباد وحثا للامة على المتابعة. وحيثما شرطية وكنتم
فى محل الجزم بها وقوله تعالى فولوا جوابها وتكون هى منصوبة على الظرفية
بكنتم نحو قوله تعالى «أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى» (وان الذين أوتوا الكتاب)
من فريقى اليهود والنصارى (ليعلمون انه) أى التحويل أو التوجه المفهوم من
التولية (الحق) لاغير لعلمهم بان عادته سبحانه وتعالى جارية على تخصيص كل
شريعة بقبلة ومعاينتهم لما هو مسطور فى كتبهم من انه عليه الصلاة والسلام يصلى
الي القبلتين كما يشعر بذلك التعبير عنهم بالاسم الموصول بايتاء الكتاب وان مع اسمها
وخبرها ساد مسد مفعولى يعلمون أو مسد مفعوله الواحد على ان العلم بمعنى المعرفة
وقوله تعالى (من ربهم) متعلق بمحذوف وقع حالا من الحق أى كائنا من ربهم
أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائن من ربهم
(وما الله بغافل عما تعملون) وعد ووعيد للفريقين والخطاب للكل تغليبا وقرئ
على صيغة الغيبة فهو وعيد لاهل الكتاب (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب)
وضع الموصول موضع المضمر للايذان بكمال سوء حالهم من العناد مع تحقق ما يرغمهم
منه من الكتاب الناطق بحقية ما كابروا فى قبوله (بكل آية) أي حجة قطعية
دالة على حقيقة التحويل واللام موطئة للقسم وقوله تعالي (ماتبعوا قبلتك)

جواب القسم المضمر سادمسد جواب الشرط والمعنى انهم ماتركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة وانما خالفوك مكابرة وعناداً . وتجريد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه للامة لما أن المحاجة والاتيان بالآية من الوظائف الخاصة به عليه السلام وقوله تعالى (وما أنت بتابع قبلتهم) جملة معطوفة على الجملة الشرطية لا على جوابها مسوقة لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجوا أن تكون صاحبنا الذى ننتظره تغريرا له عليه الصلاة والسلام وطمعا فى رجوعه وايثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره وافراد قبلتهم مع تعددها باعتبار اتحادها فى البطلان ومخالفة الحق ولئلا يتوهم ان مدار النفى هو التعدد . وقرئ بتابع قبلتهم على الاضافة (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) فان اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس لايرجى توافقهم كما لايرجى موافقتهم لك لتصلب كل فريق فيما هو فيه (ولئن اتبعت أهواءهم) الزائغة المتخالفة (من بعد ماجاءك من العلم) ببطلانها وحقية ماأنت عليه وهذه الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهييج والالهاب للثبات على الحق . أى ولئن اتبعت أهواءهم فرضا (انك اذاً لمن الظالمين) وفيه لطف للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى فان من ليس من شأنه ذلك اذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه مارتب من الانتظام فى سلك الراسخين فى الظلم فما ظن من ليس كذلك واذن حرف جواب وجزاء توسطت بين اسم أن وخبرها لتقرير مابينهما من النسبة اذ كان حقها ان تتقدم أو تتأخر فلم تتقدم لئلا يتوهم أنها لتقرير النسبة التى بين الشرط وجوابه المحذوف لان المذكور جواب القسم ولم تتأخر لرعاية الفواصل . ولقد بولغ فى التأكيد من وجوه تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتفائه وتحذيرا عن متابعة الهوي واستعظاما لصدور الذنب من الانبياء عليهم السلام (الذين آتيناهم الكتاب) أى علماءهم اذهم العمدة فى ايتائه . ووضع الموصول موضع المضمر مع قرب العهد للاشعار بعلية مافى حيز الصلة للحكم والضمير المنصوب فى قوله تعالى (يعرفونه) للرسول صلى الله عليه وسلم والالتفات الي الغيبة للايذان بان المراد ليس معرفتهم له عليه السلام من حيث ذاته ونسبه الزاهر بل من حيث كونه مسطوراً فى الكتاب منعوتا فيه بالنعوت التي من جملتها أنه عليه السلام يصلى الي القبلتين كانه قيل الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وبهذا يظهر جزالة النظم الكريم وقيل هو اضمار قبل الذكر للاشعار بفخامة شأنه عليه الصلاة والسلام أنه علم معلوم بغير اعلام فتأمل وقيل الضمير للعلم

أو سببه الذي هو الوحي أو القرآن أو التحويل و يؤيد الاول قوله عز وجل (كما يعرفون أبناءهم) أي يعرفونه عليه الصلاة والسلام بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم ولا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناؤهم وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لكونهم أعرف عندهم منهن بسبب كونهم أحب اليهم «عن عمر رضي الله عنه انه سأل عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انا اعلم به مني بابني قال ولم قال لاني لست اشك فيه انه نبي فاما ولدي فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه رضي الله عنهما» (وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) هم الذين كابروا وعاندوا الحق والباقون هم الذين آمنوا منهم فانهم يظهرون الحق ولا يكتمونه وأما الجهلة منهم فليست لهم معرفة بالكتاب ولا بما في تضاعيفه فما هم بصدد الاظهار ولا بصدد الكتم وانما كفرهم على وجه التقليد (الحق) بالرفع على أنه مبتدأ وقوله تعالى (من ربك) خبره واللام للعهد والاشارة الى ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم أو الى الحق الذي يكتمونه أو للجنس والمعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه لا غيره كالذي عليه أهل الكتاب أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق . وقوله تعالى من ربك إما حال أو خبر بعد خبر . وقرىء بالنصب على أنه بدل من الاول أو مفعول ليعلمون وفي التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من اظهار اللطف به عليه السلام مالا يخفى (فلا تكونن من الممترين) أي الشاكين في كتمانهم الحق عالمين به . وقيل في أنه من ربك وليس المراد به نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك فيه لانه غير متوقع منه عليه السلام وليس بقصد واختيار بل إما تحقيق الامر وانه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمر الامة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الابلغ (ولكل) أي ولكل أمة من الامم على أن التنوين عوض عن المضاف اليه (وجهة) أي قبلة وقد قرىء كذلك أو لكل قوم من المسلمين جانب من جوانب الكعبة (هو موليها) أحد المفعولين محذوف أي موليها وجهه أو الله موليها اياه . وقرىء ولكل وجهة بالاضافة والمعنى ولكل وجهة الله موليها أهلها . واللام مزيدة للتأكيد وجبر ضعف العامل وقرىء مولاها أي مولى تلك الجهة قد وليها (فاستبقوا الخيرات) أي تسابقوا اليها بنزع الجار كما في قوله :

ثنائي عليكم آل حرب ومن يمل ... سواكم فاني مهتد غير مائل

وهو أبلغ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على احراز قصب السبق والمراد بالخيرات جميع أنواعها من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين أو الفاضلات من الجهات وهي المسامتة للكعبة (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا) أي في أي موضع

تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو متفرقها يحشركم الله تعالى الى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من الجهات المختلفة المتقابلة يجعل صلواتكم كأنها صلاة الى جهة واحدة (ان الله على كل شئ قدير) فيقدر على الاماتة والاحياء والجمع فهو تعليل للحكم السابق (ومن حيث خرجت) تأكيد لحكم التحويل وتصريح بعدم تفاوت الامر فى حالتى السفر و الحضر ومن متعلقة بقوله تعالى (فول) أو بمحذوف عطف هو عليه أى من أى مكان خرجت اليه للسفر فول (وجهك) عند صلاتك (شطر المسجد الحرام) أو افعل ما أمرت به من أى مكان خرجت اليه فول الخ (وانه) أى هذا الأمر (للحق من ربك) أى الثابت الموافق للحكمة (وما الله بغافل عما تعملون) فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو وعد للمؤمنين. وقرئ يعملون على صيغة الغيبة فهو وعيد للكافرين (ومن حيث خرجت) اليه فى أسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة (فول وجهك شطر المسجد الحرام) الكلام فيه كما مر آنفا (وحيث ما كنتم) من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين حسبما يعرب عنه ايثار كنتم على خرجتم فان الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين فى الآفاق من الحاضرين والمسافرين فاو قيل وحيثما خرجتم لما تناول الخطاب المقيمين فى الأماكن المختلفة من حيث اقامتهم فيها (فولوا وجوهكم) من محالكم (شطره) والتكرير لما أن القبلة لها شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فبالحرى ان يؤكد أمرها مرة غب أخرى مع أنه قد ذكر فى كل مرة حكمة مستقلة (لئلا يكون للناس عليكم حجة) متعلق بقوله تعالى فولوا. وقيل بمحذوف يدل عليه الكلام كأنه قيل فعلنا ذلك لئلا الخ . والمعنى ان التولية عن الصخرة تدفع احتجاج اليهود بان المنعوت فى التوراة من أوصافه أنه يحول الى الكعبة واحتجاج المشركين بانه يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته (الا الذين ظلموا منهم) وهم أهل مكة أى لئلا يكون لأحد من الناس حجة الا المعاندين منهم الذين يقولون ما تحول الى الكعبة الا ميلا الى دين قومه وحبا لبلده أو بداله فرجع الى قبلة آبائه و يوشك أن يرجع الى دينهم وتسمية هذه الكلمة الشنعاء حجة مع أنها أفحش الأباطيل من قبيل ما فى قوله تعالى «حجتهم داحضة» حيث كانوا يسوقونها مساق الحجة . وقيل الحجة بمعنى مطلق الاحتجاج وقيل الاستثناء للمبالغة فى نفى الحجة رأسا كالذى فى قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ضرورة ان لا حجة للظالم. وقرئ إلا الذين بحرف التنبيه على انه استئناف (فلا تخشوهم)

فان مطاعنهم لا تضركم شيئا (واخشونى) فلا تخالفوا أمرى (ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون) علة لمحذوف يدل عليه النظم الكريم أى وأمرتكم بما مر لاتمام النعمة عليكم لما انه نعمة جليلة ولارادتى اهتداءكم لما أنه الخ صراط مستقيم مؤد الى سعادة الدارين كما أشير اليه فى قوله عز وجل «يهدى من يشاء الى صراط مستقيم» وفى التعبير عن الارادة بكلمة لعل الموضوعة للترجى على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية مالا يخفى أو عطف على علة مقدرة أى واخشونى لأحفظكم عنهم وأتم الخ أو على قوله تعالى لئلا يكون الخ. وتوسيط قوله تعالى فلا تخشوهم الخ بينهما للمسارعة الى التسلية والتثبيت وفى الخبر تمام النعمة دخول الجنة وعن على رضى الله عنه تمام النعمة الموت على الاسلام (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) متصل بما قبله والظرف الاول متعلق بالفعل قدم على مفعوله الصريح لما فى صفاته من الطول والظرف الثانى متعلق بمضمر وقع صفة لرسولا مبينة لتمام النعمة أى ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى الآخرة اتماما كائنا كاتمامى لها بارسال رسول كائن منكم فان ارسال الرسول لاسيما المجانس لهم نعمة لا يكافئها نعمة قط. وقيل متصل بما بعده أى كما ذكرتم بالارسال فاذكرونى الخ. وايثار صيغة المتكلم مع الغير بعد التوحيد فيما قبله افتنان وجريان على سنن الكبرياء (يتلو عليكم آياتنا) صفة ثانية لرسول كاشفة لكمال النعمة (ويزكيكم) عطف على يتلو أى يحملكم على ما تصيرون به أزكياء (ويعلمكم الكتاب والحكمة) صفة أخرى مترتبة فى الوجود على التلاوة وانما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بأن كلا من الامور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى «وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم» لتبادر الى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر نظيره فى قصة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب والحكمة رمزا الى انه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الاحاديث الشريفة من الشرائع. وقوله عز وجل (ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) صريح فى ذلك فان الموصول مع كونه عبارة عن الكتاب والحكمة قطعا قد عطف تعليمه على تعليمهما وما ذلك الا لتفصيل فنون النعم فى مقام يقتضيه كما فى قوله تعالى «ونجيناهم من عذاب غليظ» عقيب قوله تعالى «نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا» والمراد بعدم علمهم انه ليس من شأنهم أن يعلموه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم لانحصار

الطريق في الوحي (فاذكروني) الفاء للدلالة على ترتب الامر على ما قبله من موجباته أي فاذكروني بالطاعة (أذكركم) بالثواب وهو تحريض على الذكر مع الاشعار بما يوجبه (واشكروا لي) ما أنعمت به عليكم من النعم (ولا تكفرون) بجحدها وعصيان ما أمرتكم به (يا أيها الذين آمنوا) وصفهم بالايمان اثر تعداد ما يوجبه ويقتضيه تنشيطا لهم وحثا على مراعاة ما يعقبه من الأمر (استعينوا) في كل ما تأتون وما تذرون (بالصبر) على الامور الشاقة على النفس التي من جملتها معاداة الكفرة ومقابلتهم المؤدية الى مقاتلتهم (والصلاة) التي هي أم العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين (ان الله مع الصابرين) تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة لما أنه المحتاج الى التعليل وأما الصلاة فحيث كانت عند المؤمنين أجل المطالب كما ينبئ عنه قوله عليه السلام «وجعلت قرة عيني في الصلاة» لم يفتقر الامر بالإستعانة بها الى التعليل. ومعنى المعية الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة واجابة الدعوة ودخول مع على الصابرين لما انهم المباشرون للصبر حقيقة فهم متبوعون من تلك الحيثية (ولا تقولوا) عطف على استعينوا الخ مسوق لبيان أن لا غائلة للمأمور به وان الشهادة التي ربما يؤدي اليها الصبر حياة أبدية (لمن يقتل في سبيل الله أموات) أي هم أموات (بل أحياء) أي بل هم أحياء (ولكن لا تشعرون) بحياتهم وفيه رمز الى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وانما هي أمر روحاني لا يدرك بالعقل بل بالوحي وعن الحسن رحمه الله «أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل اليهم الروح والفرح كما تعرض النار على آل فرعون غدوا وعشيا فيصل اليهم الالم والوجع. قلت رأيت في المنام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة أني أزور قبور شهداء أحد رضي الله تعالى عنهم أجمعين وأنا أتلو هذه الآية وما في سورة آل عمران وأرددهما متفكرا في أمرهم وفي نفسي أن حياتهم روحانية لا جسمانية فبينما أنا على ذلك اذ رأيت شابا منهم قاعدا في قبره تام الجسد كامل الخلقة في أحسن ما يكون من الهيئة والمنظر ليس عليه شيء من اللباس قد بدا منه ما فوق السرة والباقي في القبر خلا أني أعلم يقينا ان ذلك أيضا كما ظهر وانما لا يظهر لكونه عورة فنظرت الي وجهه فرأيته ينظر إلي متبسما كأنه ينبهني على ان الامر بخلاف رأيي فسبحان من علت كلمته وجلت حكمته. وقيل الآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه جمهور الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبه نطقت الآيات والسنن وعلى هذا فتخصيص

الشهداء بذلك لما يستدعيه مقام التحريض على مباشرة مبادى الشهادة ولاختصاصهم بمزيد القرب من الله عز وعلا (ولنبلونكم) لنصيبنكم اصابة من يختبر أحوالكم أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء (بشيء من الخوف والجوع) أى بقليل من ذلك فان ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلي ما أصابهم بألف مرة وكذا ما يصيب به معانديهم وانما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة (ونقص من الاموال والانفس والثمرات) عطف على شيء وقيل على الخوف. وعن الشافعي رحمه الله الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ونقص من الاموال الزكاة والصدقات ومن الانفس الامراض ومن الثمرات موت الاولاد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم روح ولد عبدى فيقولون نعم فيقول عز وجل أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدى فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله عز وعلا ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد» (وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه البشارة. والمصيبة مايصيب الانسان من مكروه لقوله عليه السلام «كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب بان يتصور ماخلق له وانه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله تعالى عليه ويرى ان ماأبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون ذلك على نفسه ويستسلم والمبشر به محذوف دل عليه مابعده (أولئك) اشارة الى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت ومعنى البعد فيه للايذان بعلو رتبتهم (عليهم صلوات من ربهم ورحمة) الصلاة من الله سبحانه المغفرة والرأفة. وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها والجمع بينها وبين الرحمة للمبالغة كما فى قوله تعالى: رأفة ورحمة رءوف رحيم. والتنوين فيهما للتفخيم. والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لاظهار مزيد العناية بهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة عليهم فنون الرأفة الفائضة من مالك أمورهم ومبلغهم الى كمالاتهم اللائقة بهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه (وأولئك) اشارة اليهم اما بالاعتبار السابق والتكرير لاظهار كمال العناية بهم واما باعتبار حيازتهم لما ذكر من الصلوات والرحمة المترتب على الاعتبار الاول فعلى الاول المراد بالاهتداء فى قوله عز وجل (هم المهتدون) هو الاهتداء للحق والصواب مطلقا لا الاهتداء لما ذكر من الاسترجاع والاستسلام خاصة لما أنه متقدم

عليهما فلا بد لتأخيره عما هو نتيجة لها من داع يوجبه وليس بظاهر . والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبله كانه قيل وأولئك هم المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى وعلى الثانى هو الاهتداء والفوز بالمطالب والمعنى أولئك هم الفائزون بمباغيهم الدينية والدنيوية فان من نال رأفة الله تعالى ورحمته لم يفته مطلب (ان الصفا والمروة) علمان لجبلين بمكة المعظمة كالصمان والمقطم (من شعائر الله) من أعلام مناسكه جمع شعيرة وهى العلامة (فمن حج البيت أو اعتمر) الحج فى اللغة القصد والاعتمار الزيارة غلبا فى الشريعة على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين كالبيت والنجم فى الاعيان وحيث أظهر البيت وجب تجريده عن التعلق به (فلا جناح عليه أن يطوف بهما) أي فى ان يطوف بهما أصله يتطوف قلبت التاء طاء فادغمت الطاء فى الطاء . وفى ايراد صيغة التفعل ايذان بان من حق الطائف ان يتكلف فى الطواف ويبذل فيه جهده وهذا الطواف واجب عندنا وعن مالك والشافعي رحمهما الله انه ركن. وايراده بعدم الجناح المشعر بالتخيير لما أنه كان فى عهد الجاهلية على الصفا صنم يقال له اساف وعلى المروة آخر اسمه نائلة وكانوا اذا سعوا بينهما مسحوا بهما فلما جاء الاسلام وكسر الاصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت . وقيل هو تطوع ويعضده قراءة ابن مسعود فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما (ومن تطوع خيرا) أى فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف. وخيرا حينئذ نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أى تطوعا خيرا أو على حذف الجار وايصال الفعل اليه أو على تضمين معنى فعل. وقرئ يطوع وأصله يتطوع مثل يطوف وقرئ ومن يتطوع بخير (فان الله شاكر) أى مجاز على الطاعة عبر عن ذلك بالشكر مبالغة فى الاحسان الي العباد (عليم) مبالغ فى العلم بالاشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئا وهو علة لجواب الشرط قائم مقامه كأنه قيل ومن تطوع خيرا جازاه الله وأثابه فان الله شاكر عليم (ان الذين يكتمون) قيل نزلت فى أحبار اليهود الذين كتموا ما فى التوراة من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الاحكام وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدى والربيع والاصم أنها نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وقيل نزلت فى كل من كتم شيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكل والاقرب هو الاول فان عموم الحكم لا يأبى خصوص السبب. والكتم والكتمان ترك اظهار الشئ قصدا مع مساس الحاجة اليه وتحقق الداعي الي اظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره واخفائه وقد يكون بازالته

و وضع شيء آخر فى موضعه وهو الذى فعله هؤلاء (ما انزلنا من البينات) من الآيات الواضحة الدالة على امر محمد صلى الله عليه وسلم (والهدى) والآيات الهادية الى كنه أمره و وجوب اتباعه والايمان به عبر عنها بالمصدر مبالغة ولم يجمع مراعاة للاصل وهى المرادة بالبينات أيضاً والعطف لتغاير العنوان كما فى قوله عز وجل« هدى للناس و بينات الخ وقيل المراد بالهدى الادلة العقلية و يأباه الانزال والكتم (من بعد ما بيناه للناس) متعلق بيكتمون والمراد بالناس الكل لا الكاتمون فقط واللام متعلقة ببيناه وكذا الظرف فى قوله تعالى (فى الكتاب) فان تعلق جارين بفعل واحد عند اختلاف المعنى مما لا ريب فى جوازه أو الاخير متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى كائنا فى الكتاب. وتبيينه لهم تلخيصه وايضاحه بحيث يتلقاه كل أحد منهم من غير أن يكون له فيه شبهة وهذا عنوان مغاير لكونه بينافى نفسه و هدى مؤكد لقبح الكتم أوتفهيمه لهم بواسطة موسى عليه السلام والاول أنسب بقوله تعالى فى الكتاب و المراد بكتمه ازالته و وضع غيره فى موضعه فانهم محوا نعته عليه الصلاة والسلام وكتبوا مكانه ما يخالفه كما ذكرناه فى تفسير قوله عز وعلا «فويل للذين يكتبون الكتاب» الخ (أولئك) اشارة اليهم باعتبار ما وصفوا به للاشعار بعليته لما حاق بهم وما فيه من معنى البعد للايذان بترامى أمرهم وبعد منزلتهم فى الفساد (يلعنهم الله) أى يطردهم و يبعدهم من رحمته و الالتفات الى الغيبة باظهار اسم الذات الجامع للصفات لتربية المهابة وادخال الروعة والاشعار بأن مبدأ صدور اللعن عنه سبحانه صفة الجلال المغايرة لما هو مبدأ الانزال والتبيين من وصف الجمال والرحمة (ويلعنهم اللاعنون) أى الذين يتأتى منهم اللعن أى الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمنى الثقلين والمراد بيان دوام اللعن و استمراره وعليه يدور الاستثناء المتصل فى قوله تعالى (الا الذين تابوا) أى عن الكتمان (و أصلحوا) أى ما أفسدوا بأن أزالوا الكلام المحرف و كتبوا مكانه ما كانوا أزالوه عند التحريف (و بينوا) للناس معانيه فانه غير الاصلاح المذكور. أو بينوا لهم ماوقع منهم أولا وآخراً فانه أدخل فى ارشاد الناس الى الحق وصرفهم عن طريق الضلال الذى كانوا أوقعوهم فيه. أو بينوا توبتهم ليمحوا به سمة ما كانوا فيه و يقتدى بهم اضرابهم وحيث كانت هذه التوبة المقرونة بالاصلاح والتبيين مستلزمة للتوبة عن الكفر مبنية عليها لم يصرح بالايمان . وقوله تعالى (فأولئك) إشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة للاشعار بعليته للحكم و الفاء لتأكيد ذلك (أتوب عليهم) أي بالقبول و إفاضة المغفرة والرحمة. وقوله تعالى (و أنا التواب

الرحيم) أي المبالغ في قبول التوب ونشر الرحمة اعتراض تذييلي محقق لمضمون ماقبله والالتفات الى التكلم للافتنان في النظم الكريم مع مافيه من التلويح والرمز الى مامر من اختلاف المبدأ في فعليه تعالى السابق واللاحق (ان الذين كفروا) جملة مستأنفة سيقت لتحقيق بقاء اللعن فيماوراء الاستثناء وتأكيد دوامه واستمراره على غير التائبين حسبما يفيده الكلام. والاقتصار على ذكر الكفر في الصلة من غير تعرض لعدم التوبة والاصلاح والتبيين مبني على ما أشير اليه فكما أن وجود تلك الأمور الثلاثة مستلزم للايمان الموجب لعدم الكفر كذلك وجود الكفر مستلزم لعدمها جميعا أي ان الذين استمروا على الكفر المستتبع للكتمان وعدم التوبة (وماتوا وهم كفار) لايرعوون عن حالتهم الاولى (أولئك) الكلام فيه كما فيما قبله (عليهم) أي مستقر عليهم (لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) ممن يعتد بلعنتهم وهذا بيان لدوامها الثبوتي بعدبيان دوامها التجددي. وقيل الاول لعنتهم احياء وهذا لعنتهم أمواتا. وقرىء والملائكة والناس أجمعين عطفاً على محل اسم الله لأنه فاعل في المعنى كقولك أعجبني ضرب زيد وعمرو تريد من أن ضرب زيد وعمرو وكأنه قيل أولئك عليهم ان لعنهم الله والملائكة الخ وقيل هو فاعل لفعل مقدر أي ويلعنهم الملائكة (خالدين فيها) أي في اللعنة أو في النار على أنها أضمرت من غير ذكر تفخيما لشأنها وتهويلا لامرها (لايخفف عنهم العذاب) امامستأنف لبيان كثرة عذابهم من حيث الكيف أثر بيان كثرته من حيث الكم أو حال من الضمير في خالدين على وجه التداخل أو من الضمير في عليهم على طريقة الترادف (ولاهم ينظرون) عطف على ماقبله جار فيه ماجرى فيه. وإيثار الجملة الاسمية لافادة دوام النفي واستمراره أي لايمهلون ولايؤجلون أو لاينتظرون ليعتذروا أو لاينظر اليهم نظر رحمة (والهكم) خطاب عام لكافة الناس أي المستحق منكم للعبادة (اله واحد) اي فرد في الالهية لاصحة لتسمية غيره الها أصلا (لااله الاهو) خبر ثان للمبتدأ أو صفة أخرى للخبر أو اعتراض وأياما كان فهو مقرر للوحدانية ومزيح لما عسى يتوهم أن في الوجود إلها لكن لايستحق العبادة (الرحمن الرحيم) خبران آخران للمبتدأ أو لمبتدأ محذوف وهو تقرير للتوحيد فانه تعالي حيث كان موليا لجميع النعم أصولها وفروعها جليلها ودقيقها وكان ماسواه كائنا ما كان مفتقراً اليه في وجوده ومايتفرع عليه من كمالاته تحققت وحدانيته بلاريب وانحصر استحقاق العبادة فيه تعالى قطعا قيل كان للمشركين حول الكعبة المكرمة ثلثمائة وستون صنما فلما سمعوا هذه الآية تعجبوا وقالوا ان كنت صادقا فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت (إن في خلق السموات والارض) أي في ابداعهما

على ماهما عليه مع مافيهما من تعاجيب العبر و بدائع صنائع يعجز عن فهمها عقول البشر. وجمع السموات لماهو المشهور من أنها طبقات متخالفة الحقائق دون الارض (واختلاف الليل و النهار) أي اعتقابهما وكون كل منهما خلفا للآخر كقوله تعالى «وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة» أو اختلاف كل منهما فى أنفسهما ازدياداً وانتقاصا على ماقدره الله تعالى (والفلك التي تجري فى البحر) عطف على ماقبله وتأنيثه إما بتأويل السفينة أو بأنه جمع فان ضمة الجمع مغايرة لضمة الواحد فى التقدير اذ الاولى كما فى حمر والثانية كما فى قفل وقرئ بضم اللام (بما ينفع الناس) أي متلبسة بالذي ينفعهم مما يحمل فيها من انواع المنافع او بنفعهم (وما أنزل الله من السماء من ماء) عطف على الفلك و تأخيره عن ذكرها مع كونه اعم منها نفعا لمافيه من مزيد تفصيل. وقيل المقصود الاستدلال بالبحر واحواله. وتخصيص الفلك بالذكر لانه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه و لذلك قدم على ذكر المطر والسحاب لان منشأهما البحر فى غالب الامر. ومن الاولي ابتدائية و الثانية بيانية اوتبعيضية وايا ما كان فتأخيرها لمامر مراراً من التشويق والمراد بالسماء الفلك اوالسحاب او جهة العلو (فاحيى به الارض) بانواع النبات والازهار وماعليها من الاشجار (بعد موتها) باستيلاء اليبوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها كما يؤذن به ايراد الموت فى مقابلة الاحياء (وبث فيها) اى فرق ونشر (من كل دابة) من العقلاء وغيرهم. والجملة معطوفة على أنزل داخلة تحت حكم الصلة و قوله تعالى فاحيى الخ متصل بالمعطوف عليه بحيث كانا فى حكم شئ واحد كانه قيل و ما انزل فى الارض من ماء وبث فيها الخ اوعلى احيا بحذف الجار والمجرور العائد الى الموصول وان لم تتحقق الشرائط المعهودة كما فى قوله:

وان لسانى شهدة يشتفى بها ❊ ولكن على من صبه الله علقم

اى علقم عليه وقوله:

لعل الذي اصعدتني ان يردني ❊ الى الارض ان لم يقدر الخير قادره

على معنى فاحيا بالماء الارض وبث فيها من كل دابة فانهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا (وتصريف الرياح) عطف على ما أنزل أي تقليبها من مهب الى آخر أو من حال الى أخرى. وقرئ على الافراد والسحاب عطف على تصريف أو الرياح وهو اسم جنس واحده سحابة سمي بذلك لانسحابه فى الجو (المسخر بين السماء والارض) صفة للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما فى قوله تعالى «سحابا ثقالا» وتسخيره تقليبه فى الجو بواسطة الرياح حسبما تقتضيه مشيئة الله تعالى. ولعل تأخير تصريف الرياح وتسخير

السحاب فى الذكر عن جريان الفلك وانزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجى لما مر فى قصة البقرة من الاشعار باستقلال كل من الأمور المعدودة فى كونها آية ولو روعى الترتيب الخارجى لربما توهم كون المجموع المترتب بعضه على بعض آية واحدة (لآيات) اسم ان دخلته اللام لتأخره عن خبرها. والتنكير للتفخيم كما وكيفا أى آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاص الالوهية به سبحانه (لقوم يعقلون) أى يتفكرون فيها وينظرون اليها بعيون العقول وفيه تعريض بجهل المشركين الذين اقترحوا على النبى صلى الله عليه وسلم آية تصدقه فى قوله تعالى « والهكم اله واحد » وتسجيل عليهم بسخافة العقول والا فمن تأمل فى تلك الآيات وجد كلا منها ناطقة بوجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى واستغنى بها عن سائرها فان كل واحد من الامور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ماعداه مستتبعاً لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده فضلا عن وجوده على نمط معين مستتبع لحكم مستقل فاذن لابد له حتما من موجد قادر حكيم يوجده حسبما تقتضيه حكمته وتستدعيه مشيئته متعال عن معارضة الغير اذ لو كان معه آخر يقدر على مايقدر عليه لزم إما اجتماع المؤثرين على أثر واحد أو التمانع المؤدى الى فساد العالم (ومن الناس من يتخذ من دون الله) بيان لكمال ركاكة آراء المشركين أثر تقرير وحدانيته سبحانه وتحرير الآيات الباهرة الملجئة للعقلاء الى الاعتراف بها الفائضة باستحالة أن يشاركه شيء من الموجودات فى صفة من صفات الكمال فضلا عن المشاركة فى صفة الالوهية . والكلام فى اعرابه كما فصل فى قوله تعالى «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر» الخ ومن دون الله متعلق بيتخذ أى من الناس من يتخذ من دون ذلك الاله الواحد الذى ذكرت شئونه الجليلة . وايثار الاسم الجليل لتعينه تعالى بالذات غب تعيينه بالصفات (أنداداً) أى أمثالا وهم رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون لاسيما فى الأوامر والنواهى كما يفصح عنه ماسيأتى من وصفهم بالتبرى من المتبعين. وقيل هى الاصنام وارجاع ضمير العقلاء اليها فى قوله عز وعلا (يحبونهم) مبنى على آرائهم الباطلة فى شأنها من وصفهم بما لا يوصف به الا العقلاء والمحبة ميل القلب من الحب استعير لحبة القلب ثم اشتق منه الحب لانه أصابها ورسخ فيها والفعل منها حب على حد مد لكن الاستعمال

المستفيض على أحب حبا و محبةفهو محب وذاك محبوب ومحب قليل وحاب أقل منه ومحبة العبد لله سبحانه ارادة طاعته فى أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مراضيه فمعنى يحبونهم يطيعونهم و يعظمونهم. والجملة فى حيز النصب إما صفة لأنداداً أو حالا من فاعل يتخذ وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن افراده باعتبار لفظها (كحب الله) مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق ومن قضية كونه مبنيا للفاعل كونه أيضاً كذلك والظاهر اتحادفاعلهمافانهم كانوا يقرون به تعالى أيضاً و يتقربون اليه فالمعني يحبونهم حبا كائنا كحبهم لله تعالى أى يسوون بينه تعالى و بينهم فى الطاعة والتعظيم. وقيل فاعل الحب المذكور هم المؤمنون فالمعني حبا كائنا كحب المؤمنين له تعالى فلا بد من اعتبار المشابهة بينهما فى اصل الحب لا فى وصفه كما أو كيفا لما سيأتى من التفاوت البين. وقيل هو مصدر من المبني للمفعول أى كما يحب الله تعالى و يعظم وانما استغني عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس وأنت خبير بأنه لا مشابهة بين محبيتهم لأندادهم و بين محبوبيته تعالى فالمصير حينئذ ما أسلفناه من تفسير قوله عز قائلا «كما سئل موسى من قبل» واظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف و ابانة كمال قبح ما ارتكبوه (والذين آمنوا أشد حبا لله) جملة مبتدأة جيء بها توطئة لما يعقبها من بيان رخاوة حبهم وكونه حسرة عليهم والمفضل عليه محذوف أى المؤمنون أشد حباله تعالى منهم لأندادهم ومآله أن حب أولئك له تعالى أشد من حب هؤلاء لأندادهم فيه من الدلالة على كون الحب مصدرا من المبني للفاعل مالا يخفى. وانما لم يجعل المفضل عليهم حبهم لله تعالى لما أن المقصود بيان انقطاعه و انقلابه بغضا وذلك انما يتصور فى حبهم لأندادهم لكونه منوطا بمبان فاسدة ومباد موهومة يزول بزوالها قيل ولذلك كانوايعدلون عنها عند الشدائد الى الله سبحانه وكانوا يعبدون صنما أياما فاذا وجدوا آخر رفضوه اليه وقد أكلت باهلة إلهها عام المجاعة وكان من حيس وأنت خبير بان مدار ذلك اعتبار اختلال حبهم لها فى الدنيا وليس الكلام فيه بل فى انقطاعه فى الآخرة عند ظهور حقيقة الحال ومعاينة الاهوال كما سيأتى بل اعتباره مخل بما يقتضيه مقام المبالغة فى بيان كمال قبح ما ارتكبوه وغاية عظم ما اقترفوه. وايثار الاظهار فى موضع الاضمار لتفخيم الحب والاشعار بعلته (ولو يرى الذين ظلموا) اى باتخاذ الانداد ووضعها موضع المعبود (اذ يرون العذاب) المعد لهم يوم القيامة أى لو علموا اذا عاينوه وانما أوثر صيغة المستقبل لجريانها مجرى الماضى فى الدلالة على التحقق فى أخبار علام الغيوب (ان القوة لله جميعا) ساد مسد مفعولى يرى (وان الله شديد

العذاب) عطف عليه وفائدته المبالغة فى تهويل الخطب وتفظيع الأمر فان اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه وجواب لو محذوف للايذان بخروجه عن دائرة البيان اما لعدم الاحاطة بكنهه. وإما لضيق العبارة عنه. واما لايجاب ذكره مالا يستطيعه المعبر أو المستمع من الضجر والتفجع عليه أى لو علموا اذ رأوا العذاب قد حل بهم ولم ينقذهم منه احد من اندادهم ان القوة لله جميعا ولادخل لاحد فى شيء أصلا لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد يوصف. وقرىء ولو ترى بالتاء الفوقانية على ان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب فالجواب حينئذ لرأيت أمرا لا يوصف من الهول والفظاعة وقرىء اذ يرون على البناء للمفعول وان الله شديد العذاب على الاستئناف واضمار القول (اذ تبرأ الذين اتبعوا) بدل من اذ يرون أي اذ تبرأ الرؤساء (من الذين اتبعوا) من الاتباع بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعونه فى الدنيا ويدعونهم اليه من فنون الكفر والضلال واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن كقول ابليس انى كفرت بما اشركتمونى من قبل وقرىء بالعكس أي تبرأ الاتباع من الرؤساء والواو فى قوله عز وجل (ورأوا العذاب) حالية وقد مضمرة وقيل عاطفة على تبرأ والضمير فى رأوا للموصوفين جميعا (وتقطعت بهم الاسباب) والوصل التى كانت بينهم من التبعية والمتبوعية والاتفاق على الملة الزائغة والاعراض الداعية الى ذلك وأصل السبب الحبل الذى يرتقى به الشجر ونحوه. والجملة معطوفة على تبرأ. وتوسيط الحال بينهما للتنبيه على علة التبري وقد جوز عطفها على الجملة الحالية (وقال الذين اتبعوا) حين عاينوا تبرؤ الرؤساء منهم وندموا على مافعلوا من اتباعهم لهم فى الدنيا (لو أن لنا كرة) أى ليت لنا رجعة الى الدنيا (فنتبرأ منهم) هناك (كما تبرؤا منا) اليوم (كذلك) اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده لا الى شيء آخر مفهوم مما سبق ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته مع كمال تميزه عما عداه وانتظامه فى سلك الامور المشاهدة والكاف مفخمة لتأكيد ماأفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحله النصب على المصدرية أي ذلك الأراء الفظيع (يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) أى ندامات شديدة فان الحسرة شدة الندم والكمد وهى تألم القلب وانحصاره عما يؤلمه واشتقاقها من قولهم بعير حسير أى منقطع القوة وهى ثالث مفاعيل يري ان كان من رؤية القلب والا فهى حال. والمعنى ان أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون الا حسرات مكان أعمالهم (وماهم بخارجين من النار) كلام مستأنف لبيان حالهم بعد

دخولهم النار والاصل وما يخرجون . والعدول الى الاسمية لافادة دوام نفى الخروج والضمير للدلالة على قوة أمرهم فيما أسند اليهم كما فى قوله :

هم يفرشون اللبد كل طمرة * وأجرد سباق يبذ المغاليا

(ياأيها الناس كلوا مما فى الارض) أى بعض مافيها من أصناف المأكولات التى من جملتها ماحرمتموه افتراء على الله من الحرث والانعام قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى قوم من ثقيف وبنى عامر بن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حرموا على أنفسهم ماحرموا من الحرث والبحائر والسوائب والوصائل والحام. وقوله تعالى (حلالا)حال من الموصول أى كلوه حال كونه حلالا أو مفعول لكلوا على أن من ابتدائية وقد جوز كونه صفة لمصدر مؤكد أى أكلا حلالا ويؤيد الاولين قوله تعالى (طيبا) فانه صفة له ووصف الاكل به غير معتاد . وقيل نزلت فى قوم من المؤمنين حرموا على أنفسهم رفيع الاطعمة والملابس ويرده قوله عز وجل (ولاتتبعوا خطوات الشيطان) أى لا تقتدوا بها فى اتباع الهوى فانه صريح فى ان الخطاب للكفرة كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهدا ليس من باب اتباع خطوات الشيطان فضلا عن كونه تقولا وافتراء على الله تعالى وانما الذى نزل فيهم ما فى سورة المائدة من قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم » الآية وقرئ خطوات بسكون الطاء وهما لغتان فى جمع خطوة وهى ما بين قدمى الخاطى وقرئ بضمتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو وبفتحتين على انها جمع خطوة وهى المرة من الخطو (انه لكم عدو مبين) تعليل للنهى أى ظاهر العداوة عند ذوى البصيرة وان كان يظهر الولاية لمن يغويه ولذلك سمى وليا فى قوله تعالى «أولياؤهم الطاغوت» (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء) استئناف لبيان كيفية عداوته وتفصيل لفنون شره وافساده وانحصار معاملته معهم فى ذلك والسوء فى الاصل مصدر ساءه يسوءه سوأ ومساءة إذا أحزنه يطلق على جميع المعاصى سواء كانت من أعمال الجوارح أو أفعال القلوب لاشتراك كلها فى انها تسوء صاحبها والفحشاء أقبح أنواعها وأعظمها مساءة (وان تقولوا على الله مالاتعلمون) عطف على الفحشاء أى وبأن تفتروا على الله بانه حرم هذا وذاك ومعنى مالاتعلمون مالاتعلمون أن الله تعالى أمر به. وتعليق أمره بتقولهم على الله تعالى مالايعلمون وقوعه منه تعالى لا بتقولهم عليه ما يعلمون عدم وقوعه منه تعالى مع ان حالهم ذلك للمبالغة فى الزجر فان التحذير من الاول مع كونه فى القبح والشناعة دون الثانى تحذير عن الثانى على أبلغ وجه وآكده وللايذان بان العاقل يجب عليه

أن لا يقول على الله تعالى مالا يعلم وقوعه منه تعالى مع الاحتمال فضلا عن أن يقول عليه مايعلم عدم وقوعه منه تعالى قالوا وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأساً وأما اتباع المجتهد لما أدى اليه ظنه فمستند الى مدرك شرعي فوجوبه قطعي والظن في طريقه (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) التفات الى الغيبة تسجيلا بكمال ضلالهم وايذانا بايجاب تعداد ماذكر من جناياتهم لصرف الخطاب عنهم وتوجيهه الى العقلاء وتفصيل مساوى أحوالهم لهم على نهج المباثة أى اذا قيل لهم على وجه النصيحة والارشاد اتبعوا كتاب الله الذى أنزله (قالوا) لانتبعه (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) أى وجدناهم عليه اما على أن الظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من آباءنا والفينا متعد الى واحد. وأما على أنه مفعول ثان له مقدم على الاول. نزلت فى المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى من الحجج الظاهرة والبينات الباهرة فجنحوا للتقليد. والموصول إما عبارة عما سبق من اتخاذ الانداد وتحريم الطيبات ونحو ذلك. واما باق على عمومه وما ذكر داخل فيه دخولا أوليا. وقيل نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام فقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا لانهم كانوا خيرا منا وأعلم فعلى هذا يعم ما أنزل الله تعالى التوراة لانها أيضا تدعو الى الاسلام وقوله عز وجل (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) استئناف مسوق من جهته تعالى ردا لمقالتهم الحمقاء واظهارا لبطلان آرائهم. والهمزة لانكار الواقع واستقباحه والتعجيب منه لا لانكار الوقوع كالتى فى قوله تعالى «أولو كنا كارهين» وكلمة لو فى أمثال هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشىء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ماقبلها عليه بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق بالذات وبالواسطة من الحكم الموجب. أو المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الاحوال بطريق الاولية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شىء من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الاحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على سبيل الاجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والامر والنهى كما فى قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا او بخيل لا يعطى ولو كان غنيا وقولك أحسن اليه ولو أساء اليك ولا تهنه ولو أهانك

لبقائه على حاله. وأما فيما نحن فيه ففيه ونوع خفاء ناشئ من ورود الانكار عليه لكن الاصل فى الكل واحد الا أن كلمة لو فى الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن مايقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو مايتعلق به وأن مافى حيز لو باق على ماهو عليه من الاستبعاد غالبا بخلاف مانحن فيه لما ان كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور. وان مايقصد بيان تحققه على كل حال مدلوله لا مدلول المذكور من حيث هو مدلوله وأن الجملة حال مما يتعلق به لا مما يتعلق بالمذكور من حيث هو متعلق به. وأن المقصود الاصلى انكار مدلوله باعتبار مقارنته للحالة المذكورة. وأما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة. وان مافى حيز لو لا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الاشعار بأنه أمر محقق إلا انه أخرج مخرج الاستبعاد معاملة مع المخاطبين على معتقدهم لئلا يلبسوا من التصريح بنسبة آبائهم الى كمال الجهالة والضلالة جلد النمر فيركبوا متن العناد ومبالغة فى الانكار من جهة اتباعهم لابائهم حيث كان منكرا مستقبحا عند احتمال كون آبائهم كما ذكر احتمالا بعيدا فلأن يكون منكرا عند تحقق ذلك أولى والتقدير أيتبعون ذلك لو لم يكن آباؤهم لايعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا كذلك فالجملة فى حيز النصب على الحالية من آبائهم على طريقة قوله تعالى «أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا» كانه قيل أيتبعون دين آبائهم حال كونهم غافلين وجاهلين ضالين انكار لما أفاده كلامهم من الاتباع على أى حالة كانت من الحالتين غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية تنبيها على أنها هى الواقعة فى نفس الامر وتعويلا على اقتضائها للحالة الاولى اقتضاء بينا فان اتباعهم الذى تعلق به الانكار حيث تحقق مع كون آبائهم جاهلين ضالين فلان يتحقق مع كونهم عاقلين ومهتدين أولى (ان قلت) الانكار المستفاد من الاستفهام الانكارى بمنزلة النفى ولا ريب فى أن الاولوية فى صورة النفى معتبرة بالنسبة الى النفى ألا يرى أن الاولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الاعطاء لا نفسه فكان ينبغى ان يكون الاولى بالتحقق فيما نحن فيه عند الحالة المسكوت عنها وهى حالة كون آبائهم عاقلين ومهتدين انكار الاتباع لا نفسه اذ هو الذى يدل عليه أيتبعون الخ فلم اختلفت الحال بينهما (قلت) لما أن مناط الاولوية هو الحكم الذى اريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال النفى عدم الاعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور. وأما فيما نحن فيه فهو نفس الاتباع المستفاد من الفعل المقدر اذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق اعنى قولهم بل نتبع الخ. وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لانكار ما يفيده واستقباح ما يقتضيه لا أنه من تمامه

كما فى صورة النفى وكذا الحال فيما اذا كانت الهمزة لانكار الوقوع ونفيه مع كونه بمنزلة صريح النفى كما سيأتى تحقيقه فى قوله تعالى «أو لو كنا كارهين» وقيل الواو حالية ولكن التحقيق أن المعنى يدور على معنى العطف فى سائر اللغات أيضا (ومثل الذين كفروا) جملة ابتدائية واردة لتقرير ماقبلها بطريق التصوير وفيها مضاف قد حذف لدلالة مثل عليه. ووضع الموصول موضع الضمير الراجع الى ما يرجع اليه الضمائر السابقة لذمهم بما فى حيز الصلة وللاشعار بعلة ما أثبت لهم من الحكم والتقدير مثل ذلك القائل وحاله الحقيقة لغرابتها بان تسمى مثلا وتسير فى الآفاق فيما ذكر من دعوته اياهم الى اتباع الحق وعدم رفعهم اليه رأسا لانهما كهم فى التقليد واخلادهم الى ماهم عليه من الضلالة وعدم فهمهم من جهة الداعى الى الدعاء من غير أن يلقوا أذهانهم الى مايلقى عليهم (كمثل الذى ينعق بمالايسمع الا دعاء ونداء) من البهائم فانها لاتسمع الاصوت الراعى وهتفه بها من غير فهم لكلامه أصلا. وقيل إنما حذف المضاف من الموصول الثانى لدلالة كلمة ماعليه فانها عبارة عنه مشعرة مع مافى حيز الصلة بماهو مدار التمثيل أى مثل الذين كفروا فيما ذكر من انهما كهم فيما هم فيه وعدم التدبر فيما ألقى اليهم من الآيات كمثل بهائم الذى ينعق بها وهى لاتسمع منه الا جرس النغمة ودوى السوط. وقيل المراد تمثيلهم فى اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التى تسمع الصوت ولاتفهم ماتحته. وقيل تمثيلهم فى دعائهم الاصنام بالناعق فى نعقه وهو تصويته على البهائم وهذا غنى عن الاضمار لكن لايساعده قوله الادعاء ونداء فان الاصنام بمعزل من ذلك وقد عرفت أن حسن التمثيل فيما تشابه افراد الطرفين (صم بكم عمى) بالرفع على الذم أى هم صم الخ (فهم لايعقلون) شيئا لان طريق التعقل هو التدبر فى مبادى الامور المعقولة والتأمل فى ترتيبها وذلك انما يحصل باستماع آيات الله ومشاهدة حججه الواضحة والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم فاذا كانوا صما بكما عميا فقد انسد عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكلية (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) أى من مستلذاته (واشكروا لله) الذى رزقكموها والالتفات لتربية المهابة (إن كنتم اياه تعبدون) فان عبادته تعالى لا تتم الا بالشكر له وعن النبى صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل انى والانس والجن فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى» (انما حرم عليكم الميتة) أى أكلها والانتفاع بها وهى التى ماتت على غير ذكاة والسمك والجراد خارجان عنها بالعرف أو استثناء الشرع خروج الطحال من الدم (والدم ولحم الخنزير) انما خص لحمه مع أن سائر أجزائه أيضا فى حكمه

لانه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه بمنزلة التابع له (وما أهل به لغير الله) أي رفع به الصوت عند ذبحه للصنم والاهلال أصله رؤية الهلال لكن لما جرت العادة برفع الصوت بالتكبير عندها سمى ذلك اهلالا ثم قيل لرفع الصوت وان كان لغيره (فمن اضطر غير باغ) بالاستئثار على مضطر آخر (ولا عاد) سد الرمق والجوعة . وقيل غير باغ على الوالى ولا عاد بقطع الطريق وعلى هذا لا يباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحمد رحمهما الله (فلا اثم عليه) فى تناوله (ان الله غفور) لما فعل (رحيم) بالرخصة (ان قيل) كلمة انما تفيد قصر الحكم على ما ذكر وكم من حرام لم يذكر . (قلنا) المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقا أو قصر حرمته على حالة الاختيار كانه قيل انما حرم عليكم هذه الاشياء ما لم تضطروا اليها (ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) المشتمل على فنون الاحكام التى من جملتها أحكام المحللات والمحرمات حسبما ذكر آنفا وقال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم (ويشترون به) أى يأخذون بدله (ثمنا قليلا) عوضا حقيرا وقد مر سر التعبير عن ذلك بالثمن الذي هو وسيلة فى عقود المعارضة وقوله تعالى (أولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الوصفين الشنيعين المميزين لهم عمن عداهم أكمل تمييز الجاعلين اياهم بحيث كأنهم حضار مشاهدون على ما هم عليه ومافيه من معنى البعد للايذان بغاية بعد منزلتهم فى الشر والفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (مايأكلون فى بطونهم الا النار) والجملة خبر لان أو اسم الاشارة مبتدأ ثان أو بدل من الاول والخبر مايأكلون الخ ومعنى أكلهم النار أنهم يأكلون فى الحال ما يستتبع النار ويستلزمها فكأنه عين النار وأكله أكلها كقوله :

أكلت دما ان لم أرعك بضرة ... بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

أو يأكلون فى المآل يوم القيامة عين النار عقوبة على أكلهم الرشا فى الدنيا وفى بطونهم متعلق بيأكلون وفائدته تأكيد الاكل وتقريره ببيان مقر المأكول . وقيل معناه ملء بطونهم كما فى قولهم أكل فى بطنه وأكل فى بعض بطنه ومنه :

كلوا فى بعض بطنكم تعفوا ... فلا بد من الالتجاء الى تعليقه بمحذوف وقع حالا مقدرة من النار مع تقديمه على حرف الاستثناء والا فتعليقه بيأكلون يؤدى الى قصر مايأكلونه الى الشبع على النار والمقصود قصر مايأكلونه مطلقا عليها (ولا يكلمهم الله

يوم القيامة) عبارة عن غضبه العظيم عليهم وتعريض بحرمانهم ماأتيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنية والزلفى (ولا يزكيهم) لا يثنى عليهم (ولهم) مع ماذكر (عذاب أليم) مؤلم (أولئك) اشارة الى ما أشير اليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصة لا مع ما يتلوه من أحوالهم الفظيعة اذ لا دخل لها فى الحكم الذى يراد اثباته هنا فان المقصود تصوير ما باشروه من المعاملة بصورة قبيحة تنفر منها الطباع ولا يتعاطاها عاقل أصلا ببيان حقية ما نبذوه واظهار كنه ما أخذوه وابداء فظاعة تبعاته وهو مبتدأ خبره الموصول أى أولئك المشترون بكتاب الله عز وجل ثمنا قليلا ليسوا بمشترين للثمن وان قل بل هم (الذين اشتروا) بالنسبة الى الدنيا (الضلالة) التى ليست مما يمكن أن يشترى قطعا (بالهدى) الذى ليس من قبيل ما يبذل بمقابلة شئ وان جل (والعذاب) أى اشتروا بالنظر الى الآخرة العذاب الذى لا يتوهم كونه مما يشترى (بالمغفرة) التى يتنافس فيها المتنافسون (فما أصبرهم على النار) تعجيب من حالهم الهائلة التى هى ملابستهم بما يوجب النار ايجابا قطعيا كأنه عينها وما عند سيبويه نكرة تامة مفيدة لمعنى التعجب مرفوعة بالابتداء . وتخصصها كتخصص شر فى : شر أهر ذاناب : خبرها ما بعدها أى شئ ما عظيم جعلهم صابرين على النار وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها أى أى شئ أصبرهم على النار . وقيل هى موصولة . وقيل موصوفة بما بعدها والخبر محذوف أى الذى أصبرهم على النار أوشئ أصبرهم على النار أمر عجيب فظيع (ذلك) العذاب (بأن الله نزل الكتاب) أى جنس الكتاب (بالحق) أى ملتبسا به فلا جرم يكون من يرفضه بالتكذيب والكتمان وبركب متن الجهل والغواية مبتلى بمثل هذا من أفانين العذاب (وان الذين إختلفوا فى الكتاب) أى فى جنس الكتاب الالهى بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها أو فى التوراة بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض كالآيات المغيرة المشتملة على أمر بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ونعوته الكريمة فمعنى الاختلاف التخلف عن الطريق الحق أو الاختلاف فى تأويلها أو فى القرآن بان قال بعضهم أنه سحر وبعضهم أنه شعر وبعضهم أساطير الاولين كما حكى عن المفسرين (لفى شقاق بعيد) عن الحق والصواب مستوجب لاشد العذاب (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) البر اسم جامع لمراضى الخصال والخطاب لأهل الكتابين فانهم كانوا أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت الى الكعبة وكان كل فريق يدعى خيرية التوجه الى قبلته من القطرين المذكورين . وتقديم المشرق على المغرب مع تأخر زمان

الملة النصرانية إمالرعايةما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب واما لأن توجه اليهود الى المغرب ليس لكونه مغربا بل لكون بيت المقدس من المدينة المنورة واقعا فى جانب الغرب فقيل لهم ليس البر ماذكرتم من التوجه الى تينك الجهتين على أن البر خبر ليس مقدما على اسمها كما فى قوله :

سلي ان جهلت الناس عني وعنهم ۞ فليس سواء عالم وجهول

وقوله: أليس عظما أن تلم ملمة ۞ وليس علينا فى الخطوب مقول

وانما أخر ذلك لما أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرف أحق بالاسمية ولأن فى الاسم طولا فلو روعى الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم الكريم. وقرئ برفع البر على أنه اسمها وهو أقوى بحسب المعنى لان كل فريق يدعى أن البر هذا فيجب أن يكون الرد موافقا لدعواهم وما ذلك الا بكون البر اسما كما يفصح عنه جعله مخبرا عنه فى الاستدراك بقوله عز وجل (ولكن البر من آمن بالله) وهو تحقيق للحق بعد بيان بطلان الباطل وتفصيل لخصال البر مما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها أى ولكن البر المعهود الذى يحق أن يهتم بشأنه ويجد فى تحصيله بر من آمن بالله وحده ايمانا بريئا من شائبة الاشراك لا كايمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم عزير ابن الله وقولهم المسيح ابن الله (واليوم الآخر) أى على ما هو عليه لا كما يزعمون من أن النار لا تمسهم الا أياما معدودة وان آباءهم الانبياء يشفعون لهم ففيه تعريض بأن ايمان أهل الكتابين حيث لم يكن كما ذكر من الوجه الصحيح لم يكن ايمانا . وفى تعليق البر بهما من أول الامر عقيب نفيه عن التوجه الى المشرق والمغرب من الجزالة مالا يخفى كأنه قيل ولكن البر هو التوجه الى المبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب فى الحقيقة (والملائكة) أى وآمن بهم وبأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى وبين أنبيائه بالقاء الوحى وانزال الكتب (والكتاب) أى بجنس الكتاب الذى من افراده الفرقان الذى نبذوه وراء ظهورهم وفيه تعريض بكتمانهم نعوت النبى صلى الله عليه وسلم واشترائهم بما أنزل الله تعالى ثمنا قليلا (والنبيين) جميعا من غير تفرقة بين أحد منهم كما فعل أهل الكتابين ووجه توسيط الكتاب بين حملة الوحى وبين النبيين واضح وسيأتى فى قوله تعالى « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » (وآتى المال على حبه) حال من الضمير فى آتى والضمير المجرور للمال أى آتاه كائنا على حب المال كما فى قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل أى الصدقة أفضل « أن تؤتيه وأنت صحيح

شحيح» وقول ابن مسعود رضى الله عنه «أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا» وقيل الضمير لله تعالى أى آتاه كائنا على محبته تعالى لا على قصد الشر والفساد ففيه نوع تعريض لباذلى الرشا وآخذيها لتغيير التوراة. وقيل للمصدر أى كائنا على حب الايتاء (ذوى القربى) مفعول أول لآتى قدم عليه مفعوله الثانى أعنى المال للاهتمام به أو لان فى الثانى مع ماعطف عليه طولا لو روعى الترتيب لفات تجاوب الاطراف فى الكلام وهو الذي اقتضى تقديم الحال أيضا وقيل هو المفعول الثانى (واليتامى) أى المحاويج منهم على مايدل عليه الحال. وتقديم ذوي القربى عليهم لما أن ايتاءهم صدقة وصلة (والمساكين) جمع مسكين وهو الدائم السكون لما أن الخلة أسكنته بحيث لاحراك به أو دائم السكون الى الناس (وابن السبيل) أى المسافر سمى به لملازمته اياه كما سمى القاطع ابن الطريق وقيل الضيف (والسائلين) الذين ألجأتهم الحاجة والضرورة الى السؤال قال عليه الصلاة والسلام «أعطوا السائل ولو جاء على فرس» (وفى الرقاب) أى وضعه فى فك الرقاب بمعاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم. وقيل فى فك الاسارى وقيل فى ابتياع الرقاب واعتاقها وأياما كان فالعدول عن ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية كالذين من قبلهم إما للايذان بعدم قرار ملكهم فيما أوتوا كما فى الوجهين الاولين أو بعدم ثبوته رأسا كما فى الوجه الاخير. وأما للاشعار برسوخهم فى الاستحقاق والحاجة لما ان فى للظرفية المنبئة عن محليتهم لما يؤتى (وأقام الصلاة) أي المفروضة منها (وآتى الزكاة) أى المفروضة على أن المراد بما مر من إيتاء المال التنفل بالصدقات قدم على الفريضة مبالغة فى الحث عليه أو المراد بهما المفروضة والاول لبيان المصارف والثانى لبيان وجوب الاداء (والموفون بعهدهم) عطف على من آمن فانه فى قوة ان يقال ومن أوفوا بعهدهم. وايثار صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء. والمراد بالعهد مالا يحرم حلالا ولا يحلل حراما من العهود الجارية فيما بين الناس وقوله تعالى (اذا عاهدوا) للايذان بعدم كونه من ضروريات الدين (والصابرين) نصب على الاختصاص غير سبكه عما قبله تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته وهو فى الحقيقة معطوف على ماقبله قال أبو على اذا ذكرت صفات للمدح أو الذم فخولف فى بعضها الاعراب فقد خولف للافتنان ويسمى ذلك قطعا لان تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب فى استماع المذكور ومزيدة اهتمام بشأنه كما مر فى صدر السور وقد قرئ والصابرون كما قرئ والموفين (فى البأساء) أى فى الفقر والشدة (والضراء) أى المرض

الزمانة (وحين البأس) أى وقت مجاهدة العدو فى مواطن الحرب وزيادة الحين للاشعار بوقوعه أحيانا وسرعة انقضائه (أولئك) اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بالنعوت الجميلة المعدودة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من التنبيه على علو طبقتهم وسمو رتبتهم (الذين صدقوا) أى فى الدين واتباع الحق وتحرى البر حيث لم تغيرهم الاحوال ولم تزلزلهم الاهوال (وأولئك هم المتقون) عن الكفر وسائر الرذائل . وتكرير الاشارة لزيادة تنويه شأنهم . وتوسيط الضمير للاشارة الى انحصار التقوى فيهم والآية الكريمة كما ترى حاوية لجميع الكمالات البشرية برمتها تصريحا أو تلويحا لما انها مع تكثر فنونها وتشعب شجونها منحصرة فى خلال ثلاث صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة مع العباد . وتهذيب النفس . وقد أشير الى الاولى بالايمان بما فصل والى الثانية بايتاء المال . والى الثالثة باقامة الصلاة الخ ولذلك وصف الحائزون لها بالصدق نظرا الى ايمانهم واعتقادهم وبالتقوى اعتبارا بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق واليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان» (ياأيها الذين آمنوا) شروع فى بيان بعض الاحكام الشرعية على وجه التلافى لما فرط من المخلين بما ذكر من أصول الدين وقواعده التى عليها بنى أساس المعاش والمعاد (كتب عليكم) أى فرض وألزم عند مطالبة صاحب الحق فلا يقدح فيه قدرة الولى على العفو فان الوجوب انما اعتبر بالنسبة الى الحكام أو القاتلين (القصاص فى القتلى) أى بسبب قتلهم كما فى قوله صلى الله عليه وسلم «ان امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها» أى بسبب ربطها اياها (الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى) كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لاحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالانثى فلما جاء الاسلام تحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فأمرهم أن يتباوأوا وليس فيها دلالة على عدم قتل الحر بالعبد عند الشافعى أيضا لان اعتبار المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر وجه سوى اختصاص الحكم بالمنطوق وقد رأيت الوجه ههنا . وانما يتمسك فى ذلك هو ومالك رحمهما الله بما روى على رضى الله عنه «أن رجلا قتل عبده فجلده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفاه سنة» ولم يقده وبما روى عنه رضى الله عنه أنه قال «من السنة أن لا يقتل مسلم بذى عهد ولا حر بعبد » وبان أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير نكير وبالقياس على الاطراف . وعندنا يقتل الحر بالعبد لقوله تعالى «ان النفس بالنفس» فان شريعة من قبلنا اذا قصت علينا من غير دلالة

على نسخها فالعمل بها واجب على انهـا شريعة لنا ولان القصاص يعتمد المساواة فى العصمة وهى بالدين أو بالدار وهما سيان فيهما . وقرئ كتب على البناء للفاعل ونصب القصاص (فمن عفى له من أخيه شئ) أى شئ من العفو لان عفا لازم وفائدته الاشعار بأن بعض العفو بمنزلة كله فى اسقاط القصاص وهو الواقع ايضا فى العـادة اذ كثيرا ما يقع العفو من بعض الاولياء فهو شئ من العفو . وقيل معنى عفى ترك وشئ مفعول به وهو ضعيف اذ لم يثبت عفاه بمعنى تركه بل أعفاه وحمل العفو على المحو كما فى قول من قال ؛ ديار عفاها جور كل معاند ؛ وقوله :

عفاها كل حنان ؛ كثير الوبل هطال

فيكون المعنى فمن محى له من أخيه شئ صرف للعبارة المتداولة فى الكتاب والسنة عن معناها المشهور المعهود الى ما ليس بمعهود فيهما وفى استعمال الناس فانهم لا يستعملون العفو فى باب الجنايات الا فيما ذكر من قبل . وعفا يعدى بعن الى الجانى والذنب قال تعالى «عفا الله عنك وقال عفا الله عنها» فاذا تعدى الى الذنب قيل عفوت لفلان عما جنى كانه قيل فمن عفى له عن جنايته من جهة أخيه يعنى ولى الدم . وايراده بعنوان الاخوة الثابتة بينهما بحكم كونهما من بنى آدم عليه السلام لتحريك سلسلة الرقة والعطف عليه (فاتباع بالمعروف) فالامر اتباع أو فليكن اتباع والمراد وصية العافى بالمسامحة ومطالبة الدية بالمعروف من غير تعنيف وقوله عز وجل (وأداء اليه باحسان) حث للمعفو عنه على ان يؤديها باحسان من غير مماطلة وبخس (ذلك) أى ما ذكر من الحكم (تخفيف من ربكم ورحمة) لما فيه من التسهيل والنفع وقيل كتب على اليهود القصاص وحده وحرم عليهم العفو والدية وعلى النصارى العفو على الاطلاق وحرم عليهم القصاص والدية وخيرت هذه الامة بين الثلاث تيسيرا عليهم وتنزيلا للحكم على حسب المنازل (فمن اعتدى بعد ذلك) بأن قتل غير القاتل بعد ورود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية (فله) باعتدائه (عذاب أليم) أما فى الدنيا فبالاقتصاص بما قتله بغير حق . وأما فى الآخرة فبالنار (ولكم فى القصاص حياة) بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تنال غايته حيث جعل الشئ محلا لضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على ان فى هذا الجنس نوعا من الحياة عظيما لا يبلغه الوصف وذلك لان العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب لحياة نفسين ولانهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم فاذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم وعلى الاول فيه اضمار وعلى الثانى تخصيص. وقيل المراد بالحياة

هى الأخروية فان القاتل اذا قتص منه فى الدنيا لم يؤاخذ به فى الآخرة والظرفان اماخبران لحياة أو أحدهما خبر والآخر صلة له أوحال من المستكن فيه . وقرئ فى القصص أى فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو فى القرآن حياة للقلوب (ياأولى الالباب) أى ذوى العقول الخالصة عن شوب الاوهام خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الايمان تنشيطا لهم الى التأمل فى حكمة القصاص (لعلكم تتقون) أى تقون أنفسكم من المساهلة فى أمره والاهمال فى المحافظة عليه والحكم به والاذعان له أو فى القصاص فتكفوا عن القتل المؤدى اليه (كتب عليكم) بيان لحكم آخر من الاحكام المذكورة (اذا حضر أحدكم الموت) أى حضر اسبابه وظهر أماراته أو دنا نفسه من الحضور وتقديم المفعول لافادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها (ان ترك خيراً) أى مالا وقيل مالا كثيراً لما روى عن على رضى الله عنه ان مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى ان ترك خيراً وان هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضى الله عنها ان رجلا أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت ماأرى فيه فضلا وأراد آخر أن يوصي فسألته كم مالك فقال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت انما قال الله تعالى ان ترك خيراً وان هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك (الوصية للوالدين والاقربين) مرفوع بكتب أخر عما بينهما لما مر مراراً . وايثار تذكير الفعل مع جواز تأنيثه أيضاً للفصل أوعلى تأويل أن يوصى أو الايصاء ولذلك ذكر الضمير فى قوله تعالى «فمن بدله بعد ماسمعه» واذا ظرف محض والعامل فيه كتب لكن لامن حيث صدور الكتب عنه تعالى بل من حيث تعلقه بهم تعلقاً فعلياً مستتبعا لوجوب الاداء كما ينبئ عنه البناء للمفعول وكلمة الايجاب ولا مساغ لجعل العامل هو الوصية لتقدمه عليها وقيل هو مبتدأ خبره للوالدين والجملة جواب الشرط باضمار الفاء كما فى قوله :

من يفعل الحسنات الله يشكرها ورد بأنه إن صح فمن ضرورة الشعر ومعنى كتب فرض وكان هذا الحكم فى بدء الاسلام ثم نسخ عند نزول آية المواريث بقوله عليه السلام «ان الله قد أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث» فانه وان كان من أخبار الآحاد لكن حيث تلقته الامة بالقبول انتظم فى سلك المتواتر فى صلاحيته للنسخ عند أئمتنا على أن التحقيق ان الناسخ حقيقة هى آية المواريث وانما الحديث مبين لجهة نسخها ببيان أنه تعالى كان قد كتب عليكم أن تؤدوا الى الوالدين والاقربين حقوقهم بحسب استحقاقهم من غير تبيين لمراتب استحقاقهم ولا

تعيين لمقادير أنصبائهم بل فوض ذلك الى آرائكم حيث قال (بالمعروف) أى بالعدل فالآن قد رفع ذلك الحكم عنكم لتبيين طبقات استحقاق كل واحد منهم وتعيين مقادير حقوقهم بالذات وأعطى كل ذى حق منهم حقه الذى يستحقه بحكم القرابة من غير نقص ولا زيادة ولم يدع ثمة شيئاً فيه مدخل لرأيكم أصلا حسبما يعرب عنه الجملة المنفية بلا النافية للجنس وتصديرها بكلمة التنبيه اذا تحققت هذا ظهر لك ان ماقيل من أن آية المواريث لا تعارضه بل تحققه وتؤكده من حيث انها تدل على تقديم الوصية مطلقا والحديث من الآحاد وتلقى الامة اياه بالقبول لايلحقه بالمتواتر ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله عز وجل من توريث الوالدين والاقربين بقوله تعالى «يوصيكم الله» أو بايصاء المحتضر لهم بتوفير ما أوصى به الله تعالى عليهم بمعزل من التحقيق وكذا ماقيل من ان الوصية للوارث كانت واجبة بهذه الآية من غير تعيين لانصبائهم فلما نزلت آية المواريث بيانا للانصباء بلفظ الايصاء فهم منها بتنبيه النبى صلى الله عليه وسلم أن المراد منه هذه الوصية التى كانت واجبة كأنه قيل ان الله تعالى أوصى بنفسه تلك الوصية ولم يفوضها اليكم فقام الميراث مقام الوصية فكان هذا معنى النسخ لا ان فيها دلالة على رفع ذلك الحكم فان مدلول آية الوصية حيث كان تفويضا للامر الى آراء المكلفين على الاطلاق وتسنى الخروج عن عهدة التكليف بأداء ماأدى اليه آراؤهم بالمعروف فتكون آية المواريث الناطقة بمراتب الاستحقاق وتفاصيل مقادير الحقوق القاطعة بامتناع الزيادة والنقص بقوله تعالى «فريضة من الله» ناسخة لها رافعة لحكمها بما لايشتبه على أحد . وقوله تعالى (حقا على المتقين) مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا (فمن بدله) أى غيره من الاوصياء والشهود (بعد ما سمعه) أى بعد ماوصل اليه وتحقق لديه (فانما اثمه) أى اثم الايصاء المغير أو اثم التبديل (على الذين يبدلونه) لانهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ووضع الموصول فى موضع الضمير الراجع الى من لتأكيد الايذان بعلية مافى حيز الصلة الاولى . وايثار الجمع للاشعار بتعدد المبدلين انواعا أو كثرتهم افراداً والايذان بشمول الاثم لجميع الافراد (ان الله سميع عليم) وعيد شديد للمبدلين (فمن خاف من موص) أى توقع وعلم من قولهم أخاف أن يرسل السماء . وقرئ من موص (جنفاً) أى ميلا بالخطأ فى الوصية (أو اثما) أى تعمداً للجنف (فاصلح بينهم) أى بين الموصى لهم باجرائهم على منهاج الشريعة الشريفة (فلا اثم عليه) أى فى هذا التبديل لانه تبديل باطل الى حق بخلاف الاول (ان الله غفور رحيم) وعد

المصالح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الاثم وكون الفعل من جنس مايؤثم (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) بيان لحكم آخر من الاحكام الشرعية وتكرير النداء لاظهار مزيد الاعتناء . و الصيام و الصوم فى اللغة الامساك عما تنازع اليه النفس و منه قوله تعالى « انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم» الآية وقيل هو الامساك عن الشيء مطلقا ومنه صامت الريح اذا أمسكت عن الهبوب والفرس اذا أمسكت عن العدو وقال :

خيل صيام وخيل غير صائمة ۞ تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وفى الشريعة هو الامساك نهارا مع النية عن المفطرات المعهودة التى هى معظم ما تشتهيه الانفس (كما كتب) فى حيز النصب على أنه نعت للمصدر المؤكد أى كتابا كائنا كما كتب أو على أنه حال من المصدر المعرفة أى كتب عليكم الصيام الكتب مشبها بما كتب فما على الوجهين مصدرية أو على أنه نعت لمصدر من لفظ الصيام أى صوما مماثلا للصوم المكتوب على من قبلكم فما موصولة أو على أنه حال من الصيام أى حال كونه مماثلا لما كتب (على الذين من قبلكم) من الانبياء عليهم الصلاة والسلام و الامم من لدن آدم عليه السلام . وفيه تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطييب لانفس المخاطبين به فان الشاق اذا عم سهل عمله والمراد بالمماثلة إما المماثلة فى أصل الوجوب وإما فى الوقت والمقدار كما يروى أن صوم رمضان كان مكتوبا على اليهود والنصارى أما اليهود فقد تركته وصامت يوما من السنة زعموا أنه يوم غرق فرعون وكذبوا فى ذلك فانه كان يوم عاشوراء . وأما النصاري فانهم صاموا رمضان حتى صادفوا حرا شديدا فاجتمعت آراء علمائهم على تعيين فصل واحد بين الصيف والشتاء فجعلوه فى الربيع وزادوا عليه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم مرض ملكهم أو وقع فيهم موتان فزادوا عشرة أيام فصار خمسين (لعلكم تتقون) أى المعاصى فان الصوم يكسر الشهوة الداعية اليها كما قال عليه الصلاة والسلام «فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء» أو تتقون الاخلال بادائه لاصالته او تصلون بذلك الى رتبة التقوى (اياما معدودات) مؤقتات بعدد معلوم او قلائل فان القليل من المال يعد عدا والكثير يهال هيلا والمراد بها اما رمضان او ما وجب فى بدء الاسلام ثم نسخ به من صوم عاشوراء وثلاثة ايام من كل شهر وانتصابه ليس بالصيام كما قيل لوقوع الفصل بينهما بأجنبي بل بمضمر دل هو عليه اعنى صوموا اما على الظرفية أو المفعولية اتساعا . وقيل بقوله تعالى كتب على أحد الوجهين وفيه ان الايام ليست محلا له بل للمكتوب فلا تتحقق الظرفية ولا المفعولية

المتفرعة عليها اتساعا (فمن كان منكم مريضا) أي مرضا يضره الصوم أو يعسر معه (أو على سفر) مستمرين عليه وفيه تلويح ورمز الى أن من سافر فى أثناء اليوم لم يفطر (فعدة) أى فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر (من أيام أخر) إن أفطر فحذف الشرط والمضاف ثقة بالظهور . وقرئ بالنصب أى فليصم عدة وهذا على سبيل الرخصة وقيل على الوجوب واليه ذهبت الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضى الله عنه (وعلى الذين يطيقونه) أى وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا (فدية) أى اعطاء فدية وهى (طعام مسكين) وهو نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق ومد عند أهل الحجاز وكان ذلك فى بدء الاسلام لما أنه قد فرض عليهم الصوم وما كانوا متعودين له فاشتد عليهم فرخص لهم فى الافطار والفدية . وقرئ يطوقونه أى يكلفونه أو يقلدونه ويتطوقونه ويطوقونه بادغام التاء فى الطاء ويطيقونه ويطيقونه بمعنى يتطوقونه وأصلهما يطيوقونه ويتطيوقونه من فيعل وتفعيل من الطوق فادغمت الياء فى الواو بعد قلبها ياء كقولهم تدير المكان وما بها ديار وفيه وجهان أحدهما نحو معنى يطيقونه والثانى يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الافطار والفدية وهو حينئذ غير منسوخ ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه أى يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم (فمن تطوع خيراً) فزاد فى الفدية (فهو) أى التطوع أو الخير الذى تطوعه (خير له وأن تصوموا) أيها المطيقون أو المطوقون وتحملوا على أنفسكم وتجهدوا طاقتكم أو المرخصون فى الافطار من المرضى والمسافرين (خير لكم) من الفدية أو من تطوع الخير أو منهما أو من التأخير الى أيام أخر والالتفات الى الخطاب للهز والتنشيط (ان كنتم تعلمون) أى ما فى صومكم مع تحقق المبيح للافطار من الفضيلة والجواب محذوف ثقة بظهوره أى اخترتموه أو سارعتم اليه . وقيل معناه ان كنتم من أهل العلم والتدبير علمتم أن الصوم خير من ذلك (شهر رمضان) مبتدأ سيأتى خبره أو خبر لمبتدأ محذوف أى ذلك شهر رمضان أو بدل من الصيام على حذف المضاف أى صيام شهر رمضان . وقرئ بالنصب على اضمار صوموا أو على أنه مفعول تصوموا أو بدل من أياما معدودات ورمضان مصدر رمض أى احترق من الرمضاء فاضيف اليه الشهر وجعل علما ومنع الصرف للتعريف والالف والنون كما قيل ابن دأية للغراب فقوله عليه السلام « من صام رمضان » الحديث وارد على حذف المضاف للامن من الالتباس . وانما سمى بذلك اما لارتماضهم فيه من الجوع والعطش أو لارتماض الذنوب بالصيام فيه أو لوقوعه فى أيام رمض الحر عند نقل أسماء الشهور عن اللغة القديمة

(الذى أنزل فيه القرآن) خبر للمبتدا على الوجه الاول وصفة لشهر رمضان على الوجوه الباقية ومعنى انزاله فيه أنه ابتدئ انزاله فيه وكان ذلك ليلة القدر. أو أنزل فيه جملة الى السماء الدنيا ثم نزل منجما الى الارض حسبما تقتضيه المشيئة الربانية. أو أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله عز وجل «كتب عليكم» وعن النبى صلى الله عليه وسلم «نزلت صحف ابراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين منه والانجيل لثلاث عشرة منه والقرآن لاربع وعشرين» (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) حالان من القرآن أى أنزل حال كونه هداية للناس بما فيه من الاعجاز وغيره وآيات واضحة مرشدة الى الحق فارقة بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والاحكام (فمن شهد منكم الشهر) أى حضر فيه ولم يكن مسافرا . ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان والفاء للتفريع والترتيب أو لتضمن المبتدا معنى الشرط أو زائدة على تقدير كون شهر رمضان مبتدأ والموصول صفة له وهذه الجملة خبر له. وقيل هى جزائية كأنه قيل لما كتب عليكم الصيام فى ذلك الشهر فمن حضر فيه (فليصمه) أى فليصم فيه بحذف الجار . وايصال الفعل الى المجرور اتساعا . وقيل من شهد منكم هلال الشهر فليصمه على أنه مفعول به كقولك شهدت الجمعة أى صلاتها فيكون ما بعده مخصصا له كأنه قيل (ومن كان مريضا) وان كان مقيما حاضرا فيه (أو على سفر) وان كان صحيحا (فعدة من أيام أخر) أي فعليه صيام أيام أخر لان المريض والمسافر ممن شهد الشهر ولعل التكرير لذلك أو لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه (يريد الله) بهذا الترخيص (بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) لغاية رأفته وسعة رحمته (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) علل لفعل محذوف يدل عليه ماسبق أى ولهذه الامور شرع ما مر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص لهم بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى اباحة الفطر فقوله تعالى «لتكملوا» علة الامر بمراعاة العدة «ولتكبروا» علة ما علم من كيفية القضاء «ولعلكم تشكرون» علة الترخيص والتيسير . وتعدية فعل التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم ويجوز أن تكون معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم أو لتعلموا ما تعملون ولتكملوا الخ ويجوز عطفها على اليسر أى يريد بكم لتكملوا الخ كقوله تعالى «يريدون ليطفئوا» الخ والمعنى بالتكبير تعظيمه تعالى بالحمد والثناء عليه وقيل تكبير يوم العيد . وقيل التكبير عند الاهلال وما يحتمل المصدرية والموصولة أى على هدايته اياكم أو على الذى هداكم اليه وقرئ ولتكملوا بالتشديد (وإذا سألك

عبادي عني) في تلوين الخطاب وتوجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا يخفى من تشريفه ورفع محله (فاني قريب) أي فقل لهم إني قريب وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه روى ان أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت (أجيب دعوة الداع اذا دعان) تقرير للقرب وتحقيق له ووعد للداعي بالاجابة (فليستجيبوا لي) اذا دعوتهم للايمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم (وليؤمنوا بي) أمر بالثبات على ما هم عليه (لعلهم يرشدون) راجين إصابة الرشد أي الحق وقرئ بفتح الشين وكسرها ولما أمرهم الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الكريمة الدالة على انه تعالى خبير بأحوالهم سميع لاقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيدا له وحثا عليه ثم شرع في بيان أحكام الصيام فقال (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) روى أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الاكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الاخيرة أو يرقدوا ثم إن عمر رضي الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر اليه فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت وليلة الصيام الليلة التي يصبح منها صائما والرفث كناية عن الجماع لانه لايكاد يخلو من رفث وهو الافصاح بما يجب أن يكنى عنه وعدى بالى لتضمنه معنى الافضاء والانهاء . وإيثاره ههنا لاستقباح ما ارتكبوه ولذلك سمي خيانة . وقرئ الرفوث . وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من التشويق فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن عندها وقت وروده فضل تمكن (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن)استئناف مبين لسبب الاحلال وهو صعوبة الصبر عنهن مع شدة المخالطة وكثرة الملابسة بهن وجعل كل من الرجل والمرأة لباسا للآخر لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر بالليل قال :

اذا ما الضجيع ثنى عطفها ٭ تثنت فكانت عليه لباسا

أو لان كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب . والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب (فتاب عليكم) عطف على علم أي تاب عليكم لما تبتم مما اقترفتموه (وعفا عنكم) أي محا أثره عنكم (فالآن) لما نسخ التحريم (باشروهن) المباشرة

إلزاق البشرة بالبشرة كنى بها عن الجماع الذى يستلزمها . وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة (وابتغوا ما كتب الله لكم) أى واطلبوا ماقدره الله لكم وقرره فى اللوح من الولد وفيه أن المباشر ينبغى أن يكون غرضه الولد فانه الحكمة فى خلق الشهوة وشرع النكاح لاقضاء الشهوة . وقيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأتى والتقدير وابتغوا المحل الذى كتب الله لكم (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر) شبه أول مايبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غلس الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الابيض بقوله تعالى من الفجر عن بيان الخيط الاسود لدلالته عليه وبذلك خرجا عن الاستعارة الى التمثيل . ويجوز أن يكون من للتبعيض فان مايبدو بعض الفجر . وماروى من أنها نزلت ولم ينزل من الفجر فعمد رجال الى خيطين أبيض وأسود وطفقوا يأكلون ويشربون حتى يتبينا لهم فنزلت فلعل ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان الى وقت الحاجة جائز أو اكتفى أولا باشتهارهما فى ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفى تجويز المباشرة الى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل اليه وصحة صوم من أصبح جنبا (ثم أتموا الصيام الى الليل) بيان لآخر وقته (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) أى معتكفون فيها والمراد بالمباشرة الجماع وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج الى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك . وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون فى المسجد غير مختص ببعض دون بعض وأن الوطء فيه حرام ومفسد له لان النهى فى العبادة يوجب الفساد (تلك حدود الله) أى الاحكام المذكورة حدود وصفها الله تعالى لعباده (فلا تقربوها) فضلا عن تجاوزها نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل مبالغة فى النهى عن تخطيها كما قال صلى الله عليه وسلم «أن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» ويجوز أن يراد بحدود الله تعالى محارمه ومناهيه (كذلك) أى مثل ذلك التبيين البليغ (يبين الله آياته) الدالة على الاحكام التى شرعها (للناس لعلهم يتقون) مخالفة أوامره ونواهيه (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) نهى عن أكل بعضهم أموال بعض على خلاف حكم الله تعالى بعد النهى عن أكل أموال أنفسهم فى نهار رمضان أى لا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذى لم يبحه الله تعالى وبين نصب على الظرفية أو الحالية من أموالكم (وتدلوا بها الى الحكام) عطف على المنهى عنه أو نصب باضمار أن . والادلاء الالقاء أى ولا تلقوا حكومتها الى الحكام (لتأكلوا) بالتحاكم اليهم (فريقا من أموال الناس بالاثم) بما يوجب اثما كشهادة الزور واليمين الفاجرة أو ملتبسين بالاثم (وأنتم تعلمون) أنكم مبطلون

فان ارتكاب المعاصى مع العلم بها أقبح. «روى ان عبدان الحضرمى ادعى على امرىء القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يحلف امرؤ القيس فهم به فقرأ عليه الصلاة والسلام ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية فارتدع عن اليمين فسلم الارض الى عبدان» فنزلت وروى انه اختصم اليه خصمان فقال عليه السلام «انما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون الى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فاقضى له على نحو ماأسمع منه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فانما أقضى له قطعة من نار فبكيا فقال كل واحد منهما حقى لصاحبى فقال اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه» (يسألونك عن الاهلة) سأله معاذ ابن جبل وثعلبة بن غنم فقالا ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوي ثم لايزال ينقص حتى يعود كما بدا (قل هى مواقيت للناس والحج) كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحكمة فى اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم ان يجيبهم بان الحكمة الظاهرة فى ذلك أن تكون معالم للناس فى عباداتهم لاسيما الحج فان الوقت مراعى فيه أداء وقضاء وكذا فى معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه. والمواقيت جمع ميقات من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان ان المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها الى منتهاها والزمان مدة مقسومة الى الماضى والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لامر (وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها) كانت الانصار اذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وانما يدخلون ويخرجون من نقب أو فرجة وراءها ويعدون ذلك برا فبين لهم انه ليس ببر فقيل (ولكن البر من اتقى) أى بر من اتقى المحارم والشهوات ووجه اتصاله بما قبله انهم سألوا عن الامرين أو أنه لما ذكر أنها مواقيت الحج ذكر عقيبه ماهو من أفعالهم فى الحج استطرادا أو أنهم لما سألوا عما لايعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة فانه عليه الصلاة والسلام مبعوث لبيان الشرائع لا لبيان حقائق الاشياء وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم الرسالة عقب بذكره جواب ما سألوا عنه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو أريد به التنبيه على تعكيسهم فى السؤال وكونه من قبيل دخول البيت من ورائه والمعنى وليس البر بان تعكسوا فى مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترئ على مثله (وأتوا البيوت من أبوابها) اذ ليس فى العدول بر أو باشروا الامور من وجوهها (واتقوا الله) فى تغيير أحكامه أو فى جميع أموركم أمر بذلك صريحا بعد بيان أن البر بر من اتقى اظهاراً لزيادة الاعتناء بشأن التقوى وتمهيداً لقوله

تعالى (لعلكم تفلحون) أى لكى تظفروا بالبر والهدى (وقاتلوا فى سبيل الله) أى جاهدوا لاعزاز دينه واعلاء كلمته . وتقديم الظرف على المفعول الصريح لابراز كمال العناية بشأن المقدم (الذين يقاتلونكم) قيل كان ذلك قبل ماأمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين. وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهابنة والنساء أو الكفرة جميعا فان الكل بصدد قتال المسلمين ويؤيد الاول ماروى ان المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة شرفها الله تعالى ثلاثة أيام فرجع لعمرة القضاء فخاف المسلمون أن لا يفوا لهم ويقاتلوهم فى الحرم والشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت . ويعضده ايراده فى أثناء بيان أحكام الحج (ولاتعتدوا) بابتداء القتال أو بقتال المعاهد والمفاجأة به من غير دعوة أو بالمثلة وقتل من نهيتم عن قتله من النساء والصبيان ومن يجرى مجراهم (ان الله لايحب المعتدين) أى لايريد بهم الخير وهو تعليل للنهى (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى حيث وجدتموهم من حل أو حرم وأصل الثقف الحذق فى ادراك الشيء علما أو عملا وفيه معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال :

فاما تثقفونى فاقتلونى ٭ فمن أثقف فليس الى خلود

(وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى من مكة وقد فعل بهم ذلك يوم الفتح بمن لم يسلم من كفارها (والفتنة أشد من القتل) أى المحنة التى يفتتن بها الانسان كالاخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وبقاء تألم النفس بها. وقيل شركهم فى الحرم وصدهم لكم عنه أشد من قتلكم اياهم فيه (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) أى لاتفاتحوهم بالقتل هناك ولاتهتكوا حرمة المسجد الحرام (حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم) ثمة (فاقتلوهم) فيه ولاتبالوا بقتالهم ثمة لانهم الذين هتكوا حرمته فاستحقوا أشد العذاب. وفى العدول عن صيغة المفاعلة التى بها ورد النهى والشرط عدة بالنصر والغلبة. وقرىء ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فان قاتلوكم فاقتلوهم والمعنى حتى يقتلوا بعضكم كقولهم قتلتنا بنو أسد (كذلك جزاء الكافرين) يفعل بهم مثل مافعلوا بغيرهم (فان انتهوا) عن القتال والكفر بعد ماراأوا قتالكم (فان الله غفور رحيم) يغفر لهم ماقدسلف (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) أي شرك (ويكون الدين لله) خالصا ليس للشيطان فيه نصيب (فان انتهوا) بعد مقاتلتكم عن الشرك (فلا عدوان الا على الظالمين) أى فلا تعتدوا عليهم اذ لايحسن الظلم الا لمن ظلم فوضع العلة موضع الحكم. وتسمية الجزاء بالعدوان للمشاكلة كما فى قوله عزوجل «فمن اعتدى عليكم

فاعتدوا عليه» أو أنكم ان تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وتنعكس الحال عليكم والفاء الاولى للتعقيب والثانية للجزاء (الشهر الحرام بالشهر الحرام) قاتلهم المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء فى ذى القعدة أيضا وكراهتهم القتال فيه هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام وهتكه بهتكه فلا تبالوا به (والحرمات قصاص) أى كل حرمة وهى ما يجب المحافظة عليه يجرى فيها القصاص فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فاقتلوهم ان قاتلوكم كما قال تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وهو فذلكة مقررة لما قبلها (واتقوا الله) فى شأن الانتصار واحذروا أن تعتدوا الى مالم يرخص لكم (واعلموا أن الله مع المتقين) فيحرسهم ويصلح شئونهم بالنصر والتمكين (وأنفقوا فى سبيل الله) أمر بالجهاد بالمال بعد الامر به بالانفس اى ولا تمسكوا كل الامساك (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) بالاسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والانفاق فيه فان ذلك مما يقوى العدو ويسلطهم عليكم ويؤيده ما روى عن أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه أنه قال لما أعز الله الاسلام وكثر أهله رجعنا الى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت .أو بالامساك وحب المال فانه يؤدى الى الهلاك المؤبد ولذلك سمى البخل هلاكا .وهو فى الاصل انتهاء الشئ فى الفساد . والالقاء طرح الشئ وتعديته بالى لتضمنه معنى الانتهاء والباء مزيدة والمراد بالايدى الانفس والتهلكة مصدر كالتنصرة والتسترة وهى والهلك والهلاك واحد أى لا توقعوا أنفسكم فى الهلاك .وقيل معناه لا تجعلوها آخذة بأيديكم أو لا تلقوا بايديكم أنفسكم اليها فحذف المفعول (وأحسنوا) أى أعمالكم وأخلاقكم أو تفضلوا على الفقراء (ان الله يحب المحسنين) أى يريد بهم الخير وقوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله) بيان لوجوب اتمام افعالهما عند التصدى لادائهما وارشاد للناس الى تدارك ما عسى يعتريهم من العوارض المخلة بذلك من الاحصار ونحوه من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما من الوجوب وعدمه كما فى قوله تعالى «ثم أتموا الصيام الى الليل» فانه بيان لوجوب مد الصيام الى الليل من غير تعرض لوجوب أصله وانما هو بقوله تعالى «كتب عليكم الصيام» الآية كما أن وجوب الحج بقوله تعالى «ولله على الناس حج البيت» الآية فان الامر باتمام فعل من الافعال ليس أمراً باصله ولا مستلزما له أصلا فليس فيه دليل على وجوب العمرة قطعا وادعاء ان الامر باتمامهما أمر بانشائهما تامين كاملين حسبما تقتضيه قراءة وأقيموا الحج والعمرة وان الامر للوجوب مالم يدل على خلافه دليل مما لا سداد له ضرورة

ان ليس البيان مقصورا على أفعال الحج المفروض حتى يتصور ذلك بل الحق أن تلك القراءة أيضا محمولة على المشهورة ناطقة بوجوب اقامة أفعالها كما ينبغى من غير تعرض لحالها فى أنفسهما. فالمعنى أكملوا أركانهما وشرائطهما وسائر أفعالهما المعروفة شرعا لوجه الله تعالى من غير اخلال منكم بشيء منها هذا. وقد قيل اتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك. روى ذلك عن على وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم. وقيل ان تفرد لكل واحد منهما سفرا كما قال محمد حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل. وقيل هو جعل نفقتهما حلالا وقيل ان تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من الاغراض الدنيوية وأياما كان فلا تعرض فى الآية الكريمة لوجوب العمرة أصلا. وأما ما روى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال ان العمرة لقرينة الحج وقول عمر رضى الله عنه هديت لسنة نبيك حين قال له رجل وجدت الحج والعمرة مكتوبين على أهلت بهما. وفى رواية فأهللت بهما جميعا فبمعزل من افادة الوجوب مع كونه معارضا بما روي عن جابر أنه قال يارسول الله العمرة واجبة مثل الحج «قال لا ولكن أن تعتمر خير لك» وبقوله عليه السلام «الحج جهاد والعمرة تطوع» فتدبر (فان أحصرتم) أى منعتم من الحج يقال حصره العدو وأحصره اذا حبسه ومنعه من المضى لوجهه مثل صده وأصده والمراد منع العدو عند مالك والشافعى رضى الله عنهما لقوله تعالى «فاذا أمنتم» ولنزوله فى الحديبية ولقول ابن عباس لاحصر الاحصر العدو وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبى حنيفة رضى الله عنه لما روى عن النبى صلى الله عليه «وسلم من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل» (فما استيسر من الهدى) أى فعليكم أو فالواجب ما استيسر أو فاهدوا ما استيسر. والمعنى أن المحرم اذا أحصر وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدى تيسر عليه من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الاكثر. وعندنا يبعث به الى الحرم ويجعل للمبعوث بيده يوم أمار فاذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) أى لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدى المبعوث الى الحرم بلغ مكانه الذى يجب أن ينحر فيه وحمل الاولون بلوغ الهدى محله على ذبحه حيث يحل ذبحه فيه حلا كان أو حرما. ومرجعهم فى ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عام الحديبية بها وهى من الحل. قلنا كان محصره عليه الصلاة والسلام طرف الحديبية الذى الى أسفل مكة وهو من الحرم. وعن الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه فى الحرم. وقال الواقدى الحديبية هى طرف الحرم على تسعة أميال من مكة والمحل بالكسر يطلق على المكان والزمان. والهدى جمع هدية كجدى وجدية. وقرئ من الهدى جمع هدية كمطى ومطية (فمن كان منكم مريضا) مرضا محوجا الى الحلق (أو به أذى من رأسه)

بجراحة أو قمل (ففدية) أى فعليه فدية ان حلق (من صيام أو صدقة أونسك) بيان لجنس الفدية. وأما قدرها فقدروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة «لعلك آذاك هوامك قال نعم يارسول الله قال احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة» والفرق ثلاثة آصع (فاذا أمنتم) أى الاحصار أو كنتم فى حال أمن أوسعة (فمن تمتع بالعمرة الى الحج) أى فمن انتفع بالتقرب الى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج فى أشهره وقيل من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الاحرام الى أن يحرم بالحج (فما استيسر من الهدى) أى فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع وهو دم جبران يذبحه اذا أحرم بالحج ولا يأكل منه عند الشافعى وعندنا هو كالاضحية (فمن لم يجد) أى الهدى (فصيام ثلاثة أيام فى الحج) أى فى أشهره بين الاحرامين وقال الشافعى فى أيام الاشتغال باعماله بعد الاحرام وقبل التحلل والاحب أن يصوم سابع ذى الحجة وثامنه وتاسعه فلا يصح يوم النحر وأيام التشريق (وسبعة اذا رجعتم) أى نفرتم وفرغتم من أعماله وفى أحد قولى الشافعى اذا رجعتم الى أهليكم وقرئ وسبعة بالنصب عطفا على محل ثلاثة أيام (تلك عشرة) فذلكة الحساب وفائدتها أن لايتوهم أن الواو بمعنى أو كما فى قولك جالس الحسن وابن سيرين وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا فان أكثر العرب لايعرف الحساب وأن المراد بالسبعة هو العدد المخصوص دون الكثرة كما يراد بها ذلك أيضا (كاملة) صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة فى المحافظة على العد أو مبينة لكمال العشرة فانها أول عدد كامل اذ به ينتهى الآحاد ويتم مراتبها أو مقيدة تفيد كمال بدليتها من الهدى (ذلك) اشارة الى التمتع عندنا والى الحكم المذكور عند الشافعى (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عند الشافعى ومن كان مسكنه وراء الميقات عندنا وأهل الحل عند طاوس وغير أهل مكة عند مالك (واتقوا الله) فى المحافظة على أوامره ونواهيه لاسيما فى الحج (واعلموا أن الله شديد العقاب) لمن لم يتقه كى يصدكم العلم به عن العصيان . واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة (الحج) أى وقته (أشهر معلومات) معروفات بين الناس هى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة عندنا وتسعة بليلة النحر عند الشافعى وكله عند مالك. ومدار الخلاف أن المراد بوقته وقت احرامه أو وقت أعماله ومناسكه أو ما لا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقا فان مالكا كره العمرة فى بقية ذى الحجة وأبوحنيفة وان صحح الاحرام به قبل شوال فقد استكرهه . وانما سمى شهرين و بعض شهر أشهرا

اقامة للبعض مقام الكل أو اطلاقا للجمع على مافوق الواحد.وصيغة جمع المذكر فى غير العقلاء تجئ بالالف و التاء (فمن فرض فيهن الحج) أى أوجبه على نفسه بالاحرام فيهن و بالتلبية أو بسوق الهدى (فلا رفث ولا فسوق) أى لاجماع أو فلا فحش من الكلام ولا خروج من حدود الشرع بارتكاب المحظورات. و قيل بالسباب والتنابذ بالالقاب (ولا جدال) أى لامراء مع الخدم والرفقة (فى الحج) أى فى أيامه والاظهار فى مقام الاضمار لاظهار كمال الاعتناء بشأنه والاشعار بعلة الحكم فان زيارة البيت المعظم والتقرب بها الى الله عز وجل من موجبات ترك الامور المذكورة. وايثار النفى للمبالغة فى النهى والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لايكون فان ما كان منكرا مستقبحا فى نفسه ففى تضاعيف الحج أقبح كلبس الحرير فى الصلاة والتطريب بقراءة القرآن لانه خروج عن مقتضى الطبع والعادة الى محض العبادة. وقرئ الاولان بالرفع على معنى لايكونن رفث ولافسوق والثالث بالفتح على معنى الاخبار بانتفاء الخلاف فى الحج وذلك أن قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام فارتفع الخلاف بأن أمروا بأن يقفوا أيضا بعرفات (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) فيجزى به خير جزاء وهو حث على فعل الخير اثر النهى عن الشر (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) أى تزودوا لمعادكم التقوى فانه خير زاد.وقيل نزلت فى أهل اليمن كانوا يحجون ولايتزودون و يقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فامروا أن يتزودوا و يتقوا الابرام فى السؤال والتثقيل على الناس (واتقون ياأولى الالباب) فان قضية اللب استشعار خشية الله عز وجل وتقواه حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بذلك هو الله تعالى فيتبرأوا من كل شيء سواه وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص بهذا الخطاب أولو الالباب (ليس عليكم جناح أن تبتغوا) أى فى أن تبتغوا أي تطلبوا (فضلا من ربكم) عطاء ورزقا منه أى الربح بالتجارة وقيل كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية يقيمونها أيام مواسم الحج وكانت معايشهم منها فلما جاء الاسلام تأثموا منه فنزلت (فاذا أفضتم من عرفات) أى دفعتم منها بكثرة من أفضت الماء اذا صببته بكثرة وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول حذفه من دفعت من البصرة وعرفات جمع سمى به كاذرعات وانما نون وكسر وفيه علمية وتأنيث لما أن تنوين الجمع تنوين المقابلة لاتنوين التمكن ولذلك يجمع مع اللام وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف وههنا ليس كذلك أولان التأنيث أما بالتاء المذكورة وهى ليست بتاء التأنيث وانما هى مع الالف التى قبلها علامة جمع المؤنث

أو بتاء مقدرة كما فى سعاد ولا سبيل اليه لان المذكورة تأبى تقديرها لما انها كالبدل منها لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت. وانما سمي الموقف عرفة لانه نعت لابراهيم عليه السلام فلما أبصره عرفه أو لان جبريل عليه السلام كان يدور به فى المشاعر فلما رآه قال عرفت أو لان آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا أو لان الناس يتعارفون فيه وهى من الاسماء المرتجلة الا من يجعلها جمع عارف. قيل وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لان الافاضة لاتكون الا بعده وهى مأمور بها بقوله تعالى: ثم أفيضوا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد ادرك الحج» أو متقدمة للذكر المأمور به وفيه نظر اذ الذكر غير واجب والامر به غير مطلق (فاذكروا الله) بالتلبية والتهليل والدعاء وقيل بصلاة العشاءين (عند المشعر الحرام) هو جبل يقف عليه الامام ويسمى قزح وقيل ما بين مأزمى عرفة ووادى محسر ويؤيد الاول ماروى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر يعنى بالمزدلفة بغلس ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا فيه وكبر وهلل ولم يزل واقفا حتى أسفر. وانما سمي مشعرا لانه معلم العبادة ووصف بالحرام لحرمته ومعنى عند المشعر الحرام مايليه ويقرب منه فانه أفضل والا فالمزدلفة كلها موقف الا وادى محسر (واذكروه كما هداكم) أى كما علمكم أو اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة الى المناسك وغيرها وما مصدرية أو كافة (وان كنتم من قبله) من قبل ماذكر من هدايته اياكم (لمن الضالين) غير العاملين بالايمان والطاعة وان هى المخففة واللام هى الفارقة وقيل هى نافية واللام بمعنى الا كما فى قوله عز وعلا «وان نظنك لمن الكاذبين» (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) أى من عرفة لا من المزدلفة والخطاب لقريش لما كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعا عليهم فأمروا بأن يساووهم وثم لتفاوت مابين الافاضتين كما فى قولك أحسن الى الناس ثم لاتحسن الا الى كريم. وقيل من مزدلفة الى منى بعد الافاضة من عرفة اليها والخطاب عام. وقرئ الناس بكسر السين أى الناسى على أن يراد به آدم عليه السلام من قوله تعالى فنسى والمعنى أن الافاضة من عرفة شرع قديم فلا تغيروه (واستغفروا الله) من جاهليتكم فى تغيير المناسك (ان الله غفور رحيم) يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه فهو تعليل للاستغفار أو للامر به (فاذا قضيتم مناسككم) عباداتكم المتعلقة بالحج وفرغتم منها (فاذكروا الله كذكركم آباءكم) أى فأكثروا ذكره تعالى وبالغوا فى ذلك كما تفعلون بذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم وكانت العرب اذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم (أو أشد ذكرا) اما

مجرور معطوف على الذكر بجعله ذاكراً على المجاز والمعنى فاذكروا الله ذكراً كائنا مثل ذكركم آباءكم أوكذكر أشد منه وأبلغ أو على ماأضيف اليه بمعنى أوكذكر قوم أشد منكم ذكراً أو منصوب بالعطف على آباءكم و ذكراً من فعل المذكور بمعنى أوكذكركم أشد مذكور من آبائكم أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره أو كونوا أشد ذكراً لله منكم لآبائكم (فمن الناس) تفصيل للذاكرين الى من لايطلب بذكر الله الا الدنيا والى من يطلب به خير الدارين والمراد به الحث على الاكثار والانتظام في سلك الآخرين (من يقول) أى فى ذكره (ربنا آتنا فى الدنيا) أى اجعل ايتاءنا و منحتنا فى الدنيا خاصة (وماله فى الآخرة من خلاق) أى من حظ و نصيب لاقتصار همه على الدنيا فهو بيان لحاله فى الآخرة أو من طلب خلاق فهو بيان لحاله فى الدنيا و تأكيد لقصر دعائه على المطالب الدنيوية (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة) هى الصحة والكفاف والتوفيق للخير (وفى الآخرة حسنة) هى الثواب والرحمة (وقنا عذاب النار) بالعفو والمغفرة وروى عن علي رضى الله عنه ان الحسنة فى الدنيا المرأة الصالحة وفى الآخرة الحوراء وعذاب النار امرأة السوء وعن الحسن ان الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقنا عذاب النار معناه أحفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية الى النار (أولئك) اشارة الي الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وما فيه من معنى البعد لما مر مراراً من الاشارة الى علو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وقيل اليهما معا فالتنوين فى قوله تعالى (لهم نصيب مما كسبوا) على الاول للتفخيم وعلى الثانى للتنويع أى لكل منهم نوع نصيب من جنس ما كسبوا أو من أجله كقوله تعالى «مماخطيئاتهم أغرقوا» أو مما دعوا به نعطيهم منه ماقدرناه وتسمية الدعاء كسبا لما انه من الاعمال (والله سريع الحساب) يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم فى مقدار لمحة فاحذروا من الاخلال بطاعة من هذا شأن قدرته أو يوشك أن يقيم القيامة و يحاسب الناس فبادروا الي الطاعات واكتساب الحسنات (واذكروا الله) أي كبروه فى أعقاب الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها (فى أيام معدودات) هى أيام التشريق (فمن تعجل) أي استعجل فى النفر أو النفر فان التفعل و الاستفعال يجيئآن لازمين ومتعديين يقال تعجل فى الأمر واستعجل فيه وتعجله و استعجله و الاول أوفق للتأخر كما فى قوله :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته   وقد يكون من المستعجل الزلل

(فى يومين) أى فى تمام يومين بعد يوم النحر وهو يوم القر ويوم الرءوس واليوم بعده ينفر اذا فرغ من رمى الجمار (فلا اثم عليه) بتعجله (ومن تأخر) فى النفر حتى رمى فى اليوم الثالث قبل الزوال أو بعده وعند الشافعى بعده فقط (فلا اثم عليه) بما صنع من التأخر والمراد التخيير بين التعجل والتأخر ولا يقدح فيه أفضلية الثانى وانما ورد بنفى الاثم تصريحا بالرد على أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فمن مؤثم للمتعجل ومؤثم للمتأخر (لمن اتقى) خبر لمبتدأ محذوف أي الذي ذكر من التخيير ونفى الاثم عن المتعجل والمتأخر أو من الاحكام لمن اتقى لانه الحاج على الحقيقة والمنتفع به أو لاجله حتى لايتضرر بترك مايهمه منهما (واتقوا الله) فى مجامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات ليعبأ بكم وتنظموا فى سلك المغتنمين بالاحكام المذكورة والرخص أو احذروا الاخلال بما ذكر من الاحكام وهو الانسب بقوله عز وجل (واعلموا انكم اليه تحشرون) أي للجزاء على أعمالكم بعد الاحياء والبعث وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق وهو تأكيد للامر بالتقوى وموجب للامتثال به فان من علم بالحشر والمحاسبة والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعى الى ملازمة التقوى (ومن الناس من يعجبك قوله) تجريد للخطاب وتوجيه له اليه عليه الصلاة والسلام وهو كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس فى شأن التقوى الى حزبين وتعيين مآل كل منهما ومن موصولة أو موصوفة واعرابه كما بين فى قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر » أي ومنهم من يروقك كلامه ويعظم موقعه فى نفسه لما تشاهد فيه من ملاءمة الفحوى ولطف الاداء والتعجب حيرة تعرض للانسان بسبب عدم الشعور بسبب مايتعجب منه (فى الحياة الدنيا) متعلق بقوله أى مايقوله فى حق الحياة الدنيا ومعناها فانها الذى يريده بما يدعيه من الايمان ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم .وفيه اشارة الى أن له قولا آخر ليس بهذه الصفة أو بيعجبك أو يعجبك قوله فى الدنيا بحلاوته وفصاحته لافى الآخرة لما أنه يظهر هناك كذبه وقبحه وقيل لما يرهقه من الحبسة واللكنة.و أنت خبير بأنه لامبالغة حينئذ فى سوء حاله فان مآله بيان حسن كلامه فى الدنيا وقبحه فى الآخرة وقيل معنى فى الحياة الدنيا مدة الحياة الدنيا أى لايصدر منه فيها الا القول الحسن (ويشهد الله على مافى قلبه) أي بحسب ادعائه حيث يقول الله يعلم ان مافى قلبى موافق لما فى لسانى وهو عطف على يعجبك .وقرىء ويشهد الله فالمراد بمافى قلبه مافيه حقيقة ويؤيده قراءة ابن عباس رضى الله عنهما والله يشهد على مافى قلبه على

ان كلمة على لكون المشهود به مضراً له فالجملة اعتراضية . وقرئ ويستشهد الله (وهو ألد الخصام) أى شديد العداوة والخصومة للمسلمين على ان الخصام مصدر واضافة ألد اليه بمعنى فى كقولهم ثبت الغدر . أو أشد الخصوم لهم خصومة على انه جمع خصم كصعب وصعاب . قيل نزلت فى الاخنس بن شريق الثقفى وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الاسلام والمحبة وقيل فى المنافقين والجملة حال من الضمير المجرور فى قوله أو من المستكن فى يشهد وعطف على ماقبلها على القراءتين المتوسطتين (واذا تولى) أى من مجلسك . وقيل اذا صار واليا (سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) كما فعله الاخنس بثقيف حيث بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والاتلاف أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل . وقرئ ويهلك الحرث والنسل على اسناد الهلاك اليهما عطفا على سعى . وقرئ بفتح اللام وهى لغة وقرئ على البناء للمفعول من الاهلاك (والله لا يحب الفساد) أى لا يرتضيه ويبغضه ويغضب على من يتعاطاه وهو اعتراض تذييلى (وإذا قيل له) على نهج العظة والنصيحة (اتق الله) واترك ما تباشره من الفساد أو النفاق واحذر سوء مغبته (أخذته العزة بالاثم) أى حملته الانفة وحمية الجاهلية على الاثم الذى نهى عنه لجاجا وعنادا من قولك أخذته بكذا اذا حملته عليه أو ألزمته اياه (فحسبه جهنم) مبتدأ وخبر أى كافيه جهنم . وقيل جهنم فاعل لحسبه ساد مسد خبره وهو مصدر بمعنى الفاعل وقوى لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها . وقيل حسب اسم فعل ماض أى كفته جهنم (ولبئس المهاد) جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعينه . والمهاد الفراش وقيل ما يوطأ للجنب والجملة اعتراض (ومن الناس من يشرى نفسه) مبتدأ وخبر كما مر أى يبيعها ببذلها فى الجهاد ومشاق الطاعات وتعريضها للمهالك فى الحروب أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وان ترتب عليه القتل (ابتغاء مرضات الله) أى طلبا لرضاه وهذا كمال التقوى . وايراده قسما للاول من حيث ان ذلك يأنف من الامر بالتقوى وهذا يأمر بذلك وان أدى الى الهلاك . وقيل نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال إنى شيخ كبير لا أنفعكم ان كنت معكم ولا أضركم إن كنت عليكم فخلونى وما أنا عليه وخذوا مالى فقبلوا منه ماله فأتى المدينة فيشرى حينئذ بمعنى يشترى لجريان الحال على صورة الشراء (والله رءوف بالعباد) ولذلك يكلفهم التقوى ويعرضهم للثواب والجملة اعتراض تذييلى (يا أيها الذين آمنوا

ادخلوا فى السلم) أى الاستسلام والطاعة.وقيل الاسلام.وقرئ بفتح السين وهى لغة فيه وبفتح اللام أيضا وقوله تعالى (كافة) حال من الضمير فى ادخلوا أو من السلم أو منهما معا كما فى قوله :

خرجت بها تمشى تجر وراءنا ... على أثرينا ذيل مرط مرجل

وهى فى الاصل اسم للجماعة تكف مخالفها ثم استعملت فى معنى جميعا وتاؤها ليست للتأنيث حتى يحتاج الى جعل السلم مؤنثا مثل الحرب كما فى قوله عز وجل «وان جنحوا للسلم فاجنح لها» وفى قوله :

السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وانما هى للنقل كما فى عامة وخاصة وقاطبة والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملة ظاهرا وباطنا والخطاب للمنافقين. أو ادخلوا فى الاسلام بكليته ولا تخلطوا به غيره والخطاب لمؤمنى أهل الكتاب فانهم كانوا يراعون بعض أحكام دينهم القديم بعد اسلامهم. أو فى شرائع الله تعالى كلها بالايمان بالانبياء عليهم السلام والكتب جميعا والخطاب لاهل الكتاب كلهم. و وصفهم بالايمان اما على طريقة التغليب واما بالنظر الى ايمانهم القديم أو فى شعب الاسلام وأحكامه كلها فلا يخلو بشىء منها والخطاب للمسلمين. وانما خوطب أهل الكتاب بعنوان الايمان مع انه لا يصح الايمان الا بما كلفوه الآن ايذانا بأن ما يدعونه لا يتم بدونه (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) بالتفرق والتفريق أو بمخالفة ما أمرتم به (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة أو مظهر لها وهو تعليل للنهى أو الانتهاء (فان زللتم) أى عن الدخول فى السلم. وقرئ بكسر اللام وهى لغة فيه (من بعد ما جاءتكم) الآيات (البينات) والحجج القطعية الدالة على حقيته الموجبة للدخول فيه (فاعلموا أن الله عزيز) غالب على أمره لا يعجزه الانتقام منكم (حكيم) لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين المستعصين على أوامره (هل ينظرون) استفهام انكارى فى معنى النفى أى ما ينتظرون بما يفعلون من العناد والمخالفة فى الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه (الا أن يأتيهم الله) أي أمره وبأسه أو يأتيهم الله بأمره وبأسه فحذف المأتى به لدلالة الحال عليه. والالتفات الى الغيبة للايذان بأن سوء صنيعهم موجب للاعتراض عنهم و حكاية جناياتهم لمن عداهم من أهل الانصاف على طريق المباثة. وايراد الانتظار للاشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها (فى ظلل) جمع ظلة كقلل فى جمع قلة وهى ما أظلك.وقرئ فى ظلال كقلال فى جمع قلة (من

الغمام) أى السحاب الابيض . وانما أتاهم العذاب فيه لما انه مظنة الرحمة فاذا أتى منه العذاب كان أفظع وأقطع للمطامع فان اتيان الشر من حيث لا يحتسب صعب فكيف باتيانه من حيث يرجى منه الخير (والملائكة) عطف على الاسم الجليل أى ويأتيهم الملائكة فانهم وسائط فى اتيان أمره تعالى بل هم الآتون بأسه على الحقيقة وتوسيط الظرف بينهما للايذان بان الآتى أولا من جنس ما يلابس الغمام ويترتب عليه عادة وأما الملائكة وان كان اتيانهم مقارنا لما ذكر من الغمام لكن ذلك ليس بطريق الاعتياد وقرىء بالجر عطفا على ظلل أو الغمام (وقضى الامر) أى أتم أمر اهلاكهم وفرغ منه وهو عطف على يأتيهم داخل فى حيز الانتظار . وانما عدل الى صيغة الماضى دلالة على تحققه فكانه قد كان أو جملة مستأنفة جيء بها انباء عن وقوع مضمونها. وقرىء وقضاء الامر عطفا على الملائكة (والى الله) لا إلى غيره (ترجع الامور) بالتأنيث على البناء المفعول من الرجع وقرىء بالتذكير وعلى البناء للفاعل بالتأنيث من الرجوع (سل بنى اسرائيل) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل الخطاب والمراد بالسؤال تبكيتهم وتقريعهم بذلك وتقرير لمجيء البينات (كم آتيناهم من آية بينة) معجزة ظاهرة على أيدى الانبياء عليهم السلام وآية ناطقة بحقية الاسلام المأمور بالدخول فيه وكم خبرية أو استفهامية مقررة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر وآية مميزها (ومن يبدل نعمة الله) التى هى آياته الباهرة فانها سبب للهدى الذى هو أجل النعم وتبديلها جعلها سبباً للضلالة وازدياد الرجس أو تحريفها وتأويلها الزائغ (من بعد ما جاءته) ووصلت اليه وتمكن من معرفتها والتصريح بذلك مع أن التبديل لا يتصور قبل المجيء للاشعار بأنهم قد بدلوها بعد ما وقفوا على تفاصيلها كما فى قوله عز وجل «ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل وانما حذف للايذان بعدم الحاجة الى التصريح به لظهوره (فان الله شديد العقاب) تعليل للجواب كأنه قيل ومن يبدل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة فانه شديد العقاب. واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها والتزيين من حيث الخلق والايجاد مستند الى الله سبحانه كما يعرب عنه القراءة على البناء للفاعل اذ ما من شيء إلا وهو خالقه وكل من الشيطان والقوى الحيوانية وما فى الدنيا من الأمور البهية والأشياء الشهية مزين بالعرض (ويسخرون من الذين آمنوا) عطف على زين. وايثار صيغة

الاستقبال للدلالة على استمرار السخرية منهم وهم فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب رضى الله عنهم كانوا يسترذلونهم ويستهزؤون بهم على رفضهم الدنيا واقبالهم على العقبى ومن ابتدائية فكأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم (والذين اتقوا) هم الذين آمنوا بعينهم وانما ذكروا بعنوان التقوى للايذان بأن اعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها مخلة بتبتلهم الى جناب القدس شاغلة عنده (فوقهم يوم القيامة) لأنهم فى أعلى عليين وهم فى أسفل سافلين أو لأنهم فى أوج الكرامة وهم فى حضيض الذل والمهانة أو لأنهم يتطاولون عليهم فى الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم فى الدنيا والجملة معطوفة على ما قبلها . وايثار الاسمية للدلالة على دوام مضمونها (والله يرزق من يشاء) أى فى الدارين (بغير حساب) بغير تقدير فيوسع فى الدنيا استدراجا تارة وابتلاء أخرى (كان الناس أمة واحدة) متفقين على كلمة الحق ودين الاسلام وكان ذلك بين آدم وادريس أو نوح عليهم السلام أو بعد الطوفان (فبعث الله النبيين) أى فاختلفوا فبعث الخ وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وقد حذف تعويلا على ما يذكر عقيبه (مبشرين ومنذرين) عن كعب الذى علمته من عدد الانبياء عليهم السلام مائة وأربعة وعشرون ألفا والمرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر والمذكور فى القرآن ثمانية وعشرون . وقيل كان الناس أمة واحدة متفقة على الكفر والضلال فى فترة ادريس أو نوح فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم والأول هو الانسب بالنظم الكريم (وأنزل معهم الكتاب) أى جنس الكتاب أو مع كل واحد منهم ممن له كتاب كتابه الخاص به لا مع كل واحد منهم على الاطلاق اذ لم يكن لبعضهم كتاب وانما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وعموم النبيين لاينافى خصوص الضمير العائد عليه بمعونة المقام (بالحق) حال من الكتاب أى ملتبسا بالحق أو متعلق بأنزل كقوله عز وعلا «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل» (ليحكم) أى الكتاب أو الله سبحانه وتعالى أو كل واحد من النبيين (بين الناس) أى المذكورين. والاظهار فى موضع الاضمار لزيادة التعيين (فيما اختلفوا فيه) أى فى الحق الذى اختلفوا فيه أو فيما التبس عليهم (وما اختلف فيه) أى فى الحق أو فى الكتاب المنزل ملتبسا به والواو حالية (الا الذين أوتوه) أى الكتاب المنزل لازالة الاختلاف وازاحة الشقاق. والتعبير عن الانزال بالايتاء للتنبيه من أول الامر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما فى تضاعيفه من الحق فان الانزال لايفيد تلك الفائدة أي عكسوا الامر حيث جعلوا ما أنزل لازالة الاختلاف سببا لاستحكامه ورسوخه (من بعد ما جاءتهم البينات) أى رسخت فى عقولهم ومن

متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أى فاختلفوا وما اختلف فيه الخ وقيل بالملفوظ بناء على عدم منع الاعنه كما فى قولك ما قام الا زيد يوم الجمعة (بغيا بينهم) متعلق بما تعلقت به من. أى اختلفوا بغيا وتهالكا على الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا) بالكتاب (لما اختلفوا فيه) أى للحق الذى اختلف فيه من اختلف (من الحق) بيان لما و فى ابهامه أولا و تفسيره ثانيا مالا يخفى من التفخيم (باذنه) بامره أو بتيسيره ولطفه (والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) موصل الى الحق وهو اعتراض مقرر لمضمون ما سبق (أم حسبتم) خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معهم من المؤمنين حثا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفرة وتحمل المشاق من جهتهم أثر بيان اختلاف الامم على الانبياء عليهم السلام وقد بين فيه مآل اختلافهم وما لقى الانبياء ومن معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وان عاقبة أمرهم النصر .وأم منقطعة والهمزة فيها للانكار والاستبعاد أى بل أحسبتم (ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) من الانبياء ومن معهم من المؤمنين أى والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الاحوال الهائلة التى هى مثل فى الفظاعة والشدة وهو متوقع ومنتظر (مستهم) استئناف وقع جوابا عما ينساق اليه الذهن كأنه قيل كيف كان مثلهم فقيل مستهم (البأساء) أى الشدة من الخوف والفاقة (والضراء) أى الآلام والأمراض (وزلزلوا) أى أزعجوا ازعاجا شديدا بما دهمهم من الأهوال والافزاع (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه) أى انتهى أمرهم من الشدة الى حيث اضطرهم الضجر الى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بشئون الله تعالى وأوثقهم بنصره والمؤمنون المقتدون بآثاره المستضيئون بأنواره (متى) أى متى يأتى (نصر الله) طلبا وتمنيا له واستطالة لمدة الشدة والعناء .وقرئ حتى يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية كيف لا والرسل مع علو كعبهم فى الثبات والاصطبار حيث عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضجيج علم أن الامر بلغ الى غاية لا مطمح وراءها (ألا ان نصر الله قريب) على تقدير القول أى فقيل لهم حينئذ ذلك اسعافا لمرامهم .والمراد بالقرب القرب الزمانى .وفى إيثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها وتقرره ما لا يخفى .واختيار حكاية الوعد بالنصر لما أنها فى حكم انشاء الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والاقتصار على حكايتها دون حكاية

نفس النصر مع تحققه للإيذان بعدم الحاجة الى ذلك لاستحالة الخلف. ويجوز أن يكون هذا وارداً من جهته تعالى عند الحكاية على نهج الاعتراض لا وارداً عند وقوع المحكي وفيه رمز الى أن الوصول الى جناب القدس لا يتسنى إلا برفض اللذات ومكابدة المشاق كما ينبئ عنه قوله عليه السلام «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» (يسألونك ماذا ينفقون) أي من أصناف أموالهم (قل ما أنفقتم من خير) ما إما شرطية وإما موصولة حذف العائد اليها أي ما أنفقتموه من خير أي خير كان ففيه تجويز الانفاق من جميع أنواع الاموال وبيان لما في السؤال إلا أنه جعل من جملة ما في حيز الشرط أو الصلة وأبرز في معرض بيان المصرف حيث قيل (فللوالدين والاقربين) للايذان بأن الاهم بيان المصارف المعدودة لأن الاعتداد بالانفاق بحسب وقوعه في موقعه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه جاء عمرو بن الجموح وهو شيخ هم له مال عظيم فقال يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت (واليتامى) أي المحتاجين منهم (والمساكين وابن السبيل) ولم يتعرض للسائلين والرقاب إما اكتفاء بما ذكر في المواقع الأخر. وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى (وما تفعلوا من خير) فانه شامل لكل خير واقع في أي مصرف كان (فان الله به عليم) فيوفي ثوابه وليس في الآية ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به كما نقل عن السدي (كتب عليكم القتال) ببناء الفعل للمفعول ورفع القتال أي قتال الكفرة وقرىء ببنائه للفاعل وهو الله عز وجل ونصب القتال وقرىء كتب عليكم القتل أي قتل الكفرة والواو في قوله تعالى (وهو كره لكم) حالية أي والحال أنه مكروه لكم طبعاً على أن الكره مصدر وصف به المفعول مبالغة أو بمعنى المفعول كالخبز بمعنى المخبوز وقرىء بالفتح على أنه بمعنى المضموم كالضعف والضعف أو على أنه بمعنى الاكراه مجازاً كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) وهو جميع ما كلفوه من الامور الشاقة التي من جملتها القتال فان النفوس تكرهه وتنفر عنه والجملة اعتراضية دالة على أن في القتال خيراً لهم (وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) وهو جميع ما نهوا عنه من الأمور المستلذة وهو معطوف على ما قبله لا محل لها من الاعراب (والله يعلم) ما هو خير لكم فلذلك يأمركم به (وأنتم لا تعلمون) أي لا تعلمونه ولذلك تكرهونه. أو والله يعلم ما هو خير وشر لكم وأنتم لا تعلمونهما فلا تتبعوا في ذلك رأيكم وامتثلوا بأمره تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام) روى أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبدالله بن جحش على سرية فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليترصدوا عيراً لقريش فيهم عمر بن عبدالله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة الطائف وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف ويبذعر فيه الناس الى معايشهم فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا مانبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والاسارى وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة. والمعنى يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام على أن قوله عز وجل (قتال فيه) بدل اشتمال من الشهر. وتنكيره لما أن سؤالهم كان عن مطلق القتال الواقع فى الشهر الحرام لا عن القتال المعهود ولذلك لم يقل يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام. وقرئ عن قتال فيه بتكرير العامل كما فى قوله تعالى «للذين استضعفوا لمن آمن منهم» وقرئ قتل فيه (قل) فى جوابهم (قتال فيه كبير) جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بقل وانما جاز وقوع قتال مبتدأ مع كونه نكرة لتخصصه أما بالوصف أن تعلق الظرف بمحذوف وقع صفة له أى قتال كائن فيه وأما بالعمل ان تعلق به. وانما أوثر التنكير احترازا عن توهم التعيين وايذانا بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أى قتال كان. عن عطاء أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام الا أن يقاتلوا فيه ومانسخت وأكثر الاقاويل أنها منسوخة بقوله تعالى «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» (وصد عن سبيل الله) مبتدأ قد تخصص بالعمل فيما بعده أى ومنع عن الاسلام الموصل للعبد الى الله تعالى (وكفر به) عطف على صد عامل فيما بعده مثله أى وكفر بالله تعالى وحيث كان الصد عن سبيل الله فردا من أفراد الكفر به تعالى لم يقدح العطف المذكور فى حسن عطف قوله تعالى (والمسجد الحرام) على سبيل الله لانه ليس باجنبى محض. وقيل هو أيضا معطوف على صد بتقدير المضاف أى وصد المسجد الحرام (واخراج أهله) وهو النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون (منه) أى من المسجد الحرام وهو عطف على وكفر به (أكبر عند الله) خبر للاشياء المعدودة أى كبائر السائلين أكبر عند الله مما عنوا بالسؤال وهو ما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن وأفعل يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (والفتنة) أى ما ارتكبوا من الاخراج والشرك وصد الناس عن الاسلام ابتداء وبقاء (أكبر من القتل) أى أفظع من قتل الحضرمى (ولا يزالون

يقاتلونكم) بيان لاستحكام عداوتهم وأصرارهم على الفتنة فى الدين (حتى يردونكم عن دينكم) الحق الى دينهم الباطل.واضافة الدين اليهم لتذكير تأكد مابينهما من العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق (ان استطاعوا) اشارة الى تصلبهم فى الدين وثبات قدمهم فيه كانه قيل وانى لهم ذلك (ومن يرتد منكم عن دينه) تحذير من الارتداد أي ومن يفعل ذلك باضلالهم وأغوائهم (فيمت وهو كافر) بان لم يرجع الى الاسلام.وفيه ترغيب فى الرجوع الى الاسلام بعد الارتداد (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بمافى حيز الصلةمن الارتداد والموت عليه وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعدمنزلتهم فى الشر والفساد.والجمع للنظر الى المعنى أي أولئك المصرون على الارتداد الى حين الموت (حبطت أعمالهم) الحسنة التي كانوا عملوها فى حالة الاسلام حبوطا لاتلافى له قطعا (فى الدنيا والآخرة) بحيث لم يبق لها حكم من الاحكام الدنيوية والأخروية (وأولئك) الموصوفون بماذكر سابقا ولاحقا من القبائح (أصحاب النار) أي ملابسوها وملازموها (هم فيها خالدون) كدأب سائر الكفرة (ان الذين آمنوا) نزلت فى أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم ان سلموا من الاثم فلا أجر لهم (والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله) كرر الموصول مع أن المراد بهما واحد لتفخيم شأن الهجرة والجهاد فكانهما مستقلان فى تحقيق الرجاء (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة (يرجون) بما لهم من مبادئ الفوز (رحمة الله) أي ثوابه أثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للايذان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للاجر وانما هو على طريق التفضل منه سبحانه لالان فى فوزهم اشتباها (والله غفور) مبالغ فى مغفرة مافرط من عباده خطأ (رحيم) يجزل لهم الاجر والثواب.والجملة اعتراض محقق لمضمون ماقبلها (يسألونك عن الخمر والميسر) تواردت فى شأن الخمر أربع آيات نزلت بمكة «ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا» فطفق المسلمون يشربونها ثم ان عمر ومعاذا ونفراً من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قالوا أفتنا يارسول الله فى الخمر فانها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون.ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا فسكروا فأم أحدهم فقرأ قل ياأيها الكافرون أعبد ماتعبدون فنزلت لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية فقل من شربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبى وقاص فى نفر فلما سكروا افتخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء الانصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه موضحة فشكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا» فنزلت انما الخمر والميسر الى قوله فهل أنتم منتهون فقال عمر رضى الله عنه انتهينا

يارب. وعن على رضى الله عنه لو وقعت قطرة منها فى بئر فبنيت فى مكانها منارة لم أؤذن عليها ولو وقعت فى بحر ثم جف فنبت فيه الكلأ لم أرعه . وعن ابن عمر رضى الله عنهما لو أدخلت أصبعى فيها لم تتبعنى و هذا هو الايمان والتقى حقا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ❊ والخمر مصدر خمره أى ستره سمى به من عصير العنب ماغلى واشتد وقذف بالزبد لتغطيتها العقل والتمييز كانها نفس الستر كما سميت سكرا لانها تسكرهما أى تحجزهما. والميسر مصدر ميمى من يسر كالموعد والمرجع يقال يسرته اذا قمرته و اشتقاقه أما من اليسر لانه أخذ المال بيسر من غير كد وتعب واما من اليسار لانه سلب له وصفته انه كانت لهم عشرة أقداح هى الازلام والاقلام الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد. لكل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها و يجزؤنها عشرة أجزاء و قيل ثمانية وعشرين الا الثلاثة هى المنيح والسفيح والوغد للفذ سهم وللتوأم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحلس أربعة وللنافس خمسة والمسبل ستة وللمعلى سبعة يجعلونها فى الربابة وهى خريطة و يضعونها على يدى عدل ثم يجلجلها و يدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا فمن خرج له قدح من ذوات الانصباء أخذ النصيب المعين لها ومن خرج له من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه وكانوا يدفعون تلك الانصباء الي الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لا يدخل فيه و يسمونه البرم. وفى حكمه جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « اياكم وهاتين اللعبتين المشؤومتين فانهما مياسر العجم » وعن على كرم الله وجهه أن النرد والشطرنج من الميسر وعن ابن سيرين كل شيء فيه خطر فهو من الميسر. والمعنى يسئلونك عن حكمهما وعما فى تعاطيهما (قل فيهما اثم كبير) أي فى تعاطيهما ذلك لما أن الاول مسلبة للعقول التى هى قطب الدين والدنيا مع كون كل منهما متلفة للاموال (ومنافع للناس) من كسب الطرب واللذة ومصاحبة الفتيان وتشجيع الجبان وتقوية الطبيعة. وقرىء اثم كثير بالمثلثة. وفى تقديم بيان اثمه ووصفه بالكبر وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الاول مالايخفى على مانطق به قوله تعالى (واثمهما أكبر من نفعهما) أى المفاسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه وقرىء أقرب من نفعهما (ويسألونك ماذا ينفقون) عطف على يسألونك عن الخمر الخ عطف القصة على القصة أى أى شيء ينفقونه قيل هو عمرو بن الجموح أيضا سأل أولا من أى جنس ينفق من أجناس الاموال فلما بين جواز الانفاق من جميع الاجناس سأل ثانيا من أى أصنافها ننفق أمن خيارها أم من غيرها أو سأل عن مقدار ماينفقه منه فقيل (قل

العفو) بالنصب أي ينفقون العفو أو أنفقوا العفو وقرىء بالرفع على انما استفهامية وذا موصولةصلتها ينفقون أي الذي ينفقونه العفو. قال الواحدي أصل العفو في اللغة الزيادة. وقال القفال العفو ما سهل و تيسر مما فضل من الكفاية وهو قول قتادة وعطاء والسدى. وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يكسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل. وروى أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم فقال «خذها مني صدقة فاعرض عنه فكرر ذلك مرارا حتى قال عليه السلام مغضباهاتها فاخذها فحذفها عليه حذفالو أصابته لشجته ثم قال يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به و يجلس يتكفف الناس انما الصدقة عن ظهر غنى» (كذلك) اشارة الى مصدر الفعل الآتي وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه في الفضل مع كمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الامور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة. وافراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق أو لعدم القصد الى تعيين المخاطب كامر ومحله النصب على انه نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك البيان الواضح الذي هو عبارة عما مضى في أجوبة الاسئلة المارة (يبين الله لكم الآيات) الدالة على الاحكام الشرعية المذكورة لا بيانا أدنى منه وقد مر تمام تحقيقه في قوله تعالى «وكذلك جعلناكم أمةوسطا» وتبيين الآيات تنزيلها مبينة الفحوى واضحة المدلول لا انه تعالى يبينها بعد أن كانت مشتبهة ملتبسة. وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة (لعلكم تتفكرون) لكي تتفكروا فيها وتقفوا على مقاصدها وتعملوا بما في تضاعيفها وقوله تعالى (في الدنيا والآخرة) متعلق اما بيبين أي يبين لكم فيما يتعلق بالدنيا والآخرة الآيات واما بمحذوف وقع حالا من الآيات أي يبينها لكم كائنة فيهما أي مبينة لاحوالكم المتعلقة بهما. وانما قدم عليه التعليل لمزيد الاعتناء بشأن التفكر واما بقوله تعالى تتفكرون أي تتفكرون في الامور المتعلقة بالدنيا والآخرة في الاحكام الواردة في أجوبة الاسئلة المارة فتختارون منها ما يصلح لكم فيهما وتجتنبون عن غيره وهذا التخصيص هو المناسب لمقام تعداد الاحكام الجزئية ويجوز التعميم لجميع الامور المتعلقة بالدنيا والآخرة فذلك حينئذ اشارة الي مامر من البيانات كلا أو بعضا لا الى مصدر ما بعده فانه حينئذ فعل مستقل ليس بعبارة عن تلك البيانات والمراد بالآيات غير ما ذكر والمعنى مثل ذلك البيان الوارد في الاجوبة المذكورة يبين الله لكم الآيات والدلائل لعلكم تتفكرون في أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة وتأخذون بما يصلح لكم وينفعكم فيها وتذرون ما يضركم حسبما تقتضيه تلك الآيات المبينة (ويسألونك عن

اليتامى) عطف على ما قبله من نظيره . روى انه لما نزلت «ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» الآية تحامى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أموالهم فشق عليهم ذلك فذكروه للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت (قل اصلاح لهم خير) أي التعرض لاحوالهم وأموالهم على طريق الاصلاح خير من مجانبتهم (وان تخالطوهم) وتعاشروهم على وجه ينفعهم (فاخوانكم) أى فهم اخوانكم أى فى الدين الذى هو أقوى من العلاقة النسبية ومن حقوق الاخوة وموجبها المخالطة بالاصلاح والنفع وقد حمل المخالطة على المصاهرة (والله يعلم المفسد من المصلح) العلم بمعنى المعرفة المتعدية الى واحد ومن لتضمينه معنى التمييز أى يعلم من يفسد فى أمورهم عند المخالطة أو من يقصد بمخالطته الخيانة والافساد مميزاً له ممن يصلح فيها أو يقصد الاصلاح فيجازى كلا منهما بعمله ففيه وعد و وعيد خلا ان فى تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد (ولو شاء الله لاعنتكم) أى لو شاء ان يعنتكم أي يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهو المشقة لفعل ولم يجوز لكم مداخلتهم (ان الله عزيز) غالب على امره لا يعز عليه أمر من الامور التي من جملتها اعناتكم فهو تعليل لمضمون الشرطية وقوله عز وجل (حكيم) أى فاعل لافعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية الى بناء التكليف على أساس الطاقة دليل على ما تفيده كلمة لو من انتفاء مقدمها (ولا تنكحوا المشركات) أي لاتتزوجوهن . وقرئ بضم التاء من الانكاح أى لاتزوجوهن من المسلمين (حتى يؤمن) والمراد بهن اما ما يعم الكتابيات أيضاً حسبما يقتضيه عموم التعليلين الآتيين لقوله تعالى «وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله الى قوله سبحانه عما يشركون» فالآية منسوخة بقوله تعالى «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» وأما غير الكتابيات فهي ثابتة . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي الى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين وكان يهوي امرأة فى الجاهلية اسمها عناق فأتته فقالت ألا تخلو فقال ويحك ان الاسلام حال بيننا فقالت هل لك أن تتزوج بى قال نعم ولكن أرجع الي النبي صلى الله عليه وسلم فاستأمره فاستأمره فنزلت (ولأمة مؤمنة) تعليل للنهى عن مواصلتهن وترغيب فى مواصلة المؤمنات صدر بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم فى أفادة التأكيد مبالغة فى الحمل على الانزجار . وأصل أمة أمو حذف لامها على غير قياس وعوض منه تاء التأنيث ودليل كون لامها واواً رجوعها فى الجمع قال الكلابى:

أما الإماء فلا يدعونني ولداً   اذا تداعى بنو الاموان بالعار

وظهورها فى المصدر يقال هى أمة بينة الاموة وأقرت له بالاموة وقد وقعت مبتدأ

لما فيها من لام الابتداء والوصف أي ولامة مؤمنة مع مابها من خساسة الرق وقلة الخطر (خير) بحسب الدين والدنيا (من مشركة) أي امرأة مشركة مع مالها من شرف الحرية ورفعة الشأن (ولو أعجبتكم) قد مر أن كلمة لو فى أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشيء فى الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قدحذف ثقة بدلالة ماقبلها عليه مع انصاب المعنى على تقديره بل هى لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته معه ثبوته مع ماعداه من الاحوال بطريق الاولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافى القوي فلان يتحقق مع غيره أولى ولذلك لايذكر معه شيء من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الاحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على وجه الاجمال كأنه قيل لو لم تعجبكم ولو أعجبتكم. والجملة فى حيز النصب على الحالية من مشركة اذ المآل ولامة مؤمنة خير من أمرأة مشركة حال عدم اعجابها وحال اعجابها اياكم بجمالها ومالها ونسبها وبغير ذلك من مبادى الاعجاب وموجبات الرغبة فيها أي على كل حال وقد اقتصر على ذكر ماهو أشد منافاة للخيرية تنبيها على انها حيث تحققت معه فلان تتحقق مع غيره أولى. وقيل الواو حالية وليس بواضح وقيل اعتراضية وليس بسديد والحق انها عاطفة مستتبعة لما ذكر من الاعتبار اللطيف نعم يجوز أن تكون الجملة الاولى مع ماعطف عليها مستأنفة مقررة لمضمون ماقبلها فتدبر (ولا تنكحوا المشركين) من الانكاح والمراد بهم الكفار على الاطلاق للمر أي لاتزوجوا منهم المؤمنات سواء كن حرائر أو اماء (حتى يؤمنوا) ويتركوا ماهم فيه من الكفر (ولعبد مؤمن) مع مابه من ذل المملوكية (خير من مشرك) مع ماله من عز المالكية (ولو أعجبكم) بما فيه من دواعى الرغبة فيه الراجعة الى ذاته وصفاته (أولئك) استئناف مقرر لمضمون التعليلين المارين أي أولئك المذكورون من المشركات والمشركين (يدعون) من يقارنهم ويعاشرهم (الى النار) أى الى مايؤدى اليها من الكفر والفسوق فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم (والله يدعو) بواسطة عباده المؤمنين من يقارنهم (الى الجنة والمغفرة) أي الي الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين اليهما. وتقديم الجنة على المغفرة مع أن حق التخلية أن تقدم على التحلية لرعاية مقابلة النار ابتداء (بأذنه) متعلق بيدعو أى يدعو ملتبسا بتوفيقه الذي من جملته ارشاد

المؤمنين لمقارنيهم الى الخير ونصيحتهم اياهم فهم أحقاء بالمواصلة (ويبين آياته) المشتملة على الاحكام الفائقة والحكم الرائقة (للناس لعلهم يتذكرون) أي لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها فيفوزوا بما دعوا اليه من الجنة والغفران هذا. وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون وهم المؤمنون على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تشريفا لهم. وأنت خبير بأن الضمير في المعطوف على الخبر اعني قوله تعالى «ويبين الله» تعالى فيلزم التفكيك. وقيل معناه والله يدعو بأحكامه المذكورة الى الجنة والمغفرة فانها موصلة لمن عمل بها اليهما هذا وان كان مستدعيا لاتحاد مرجع الضميرين الكائنين في الجملتين المتعاطفتين الواقعتين خبرا للمبتدأ لكن يفوت حينئذ حسن المقابلة بينه وبين قوله تعالى «أولئك يدعون الى النار» ولعل الطريق الاسلم ما اوضحناه أولا. وايراد التذكر ههنا للاشعار بأنه واضح لا يحتاج الى التفكر كما في الاحكام السابقة (ويسألونك عن المحيض) عطف على ما تقدم من مثله ولعل حكاية هذه الاسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكل عند السؤال عن الخمر وحكاية ما عداها بغير عطف لوقوع كل من ذلك في وقت على حدة. والمحيض مصدر من حاضت المرأة كالمجيء والمبيت. روى أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحيض ولا يؤاكلونهن كدأب اليهود والمجوس واستمر الناس على ذلك الى ان سأل عن ذلك أبو الدحداح في نفر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فنزلت (قل هو اذى) أي شيء يستقذر منه ويؤذي من يقربه نفرة منه وكراهة له (فاعتزلوا النساء في المحيض) أي فاجتنبوا مجامعتهن في حالة المحيض. قيل أخذ المسلمون بظاهر الاعتزال فأخرجوهن من بيوتهن فقال ناس من الاعراب يارسول الله البرد شديد والثياب قليلة فان آثرناهن هلك سائر أهل البيت وان استأثرنا بها هلكت الحيض فقال صلى الله عليه وسلم «انما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن اذا حضن ولم يأمركم باخراجهن من البيوت كفعل الاعاجم» وقيل أن النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض واليهود كانوا يفرطون في الاعتزال فأمر المسلمون بالاقتصاد بين الامرين (ولا تقربوهن حتى يطهرن) تأكيد لحكم الاعتزال وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن لا عدم القرب منهن وبيان لغايته وهو انقطاع الدم عند أبي حنيفة رحمه الله فان كان ذلك في أكثر المدة حل القربان كما انقطع والا فلا بد من الاغتسال أو من مضى وقت صلاة وعند الشافعي رحمه الله أن يغتسلن بعد الانقطاع كما تفصح عنه القراءة بالتشديد وينبئ عنه قوله عز وجل (فاذا تطهرن) فان التطهر هو الاغتسال (فأتوهن من حيث أمركم الله) من المأتى الذي حلله لكم وهو

القبل (إن الله يحب التوابين) مما عسى يندر منهم من ارتكاب بعض مانهوا عنه ومن سائر الذنوب (ويحب المتطهرين) المتنزهين عن الفواحش والاقذار وفى ذكر التوبة اشعار بمساس الحاجة اليها بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه. وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهر (نساؤكم حرث لكم) أي مواضع حرث لكم شبهن بها لما بين مايلقى فى أرحامهن وبين البذور من المشابهة من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه (فأتوا حرثكم) لما عبر عنهم بالحرث عبر عن مجامعتهن بالاتيان وهو بيان لقوله تعالى «فأتوهن من حيث أمركم الله» (أنى شئتم) من أي جهة شئتم روى أن اليهود كانوا يزعمون أن من أتى امرأته فى قبلها من دبرها يأتي ولده أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (وقدموا لانفسكم) أى مايدخر لكم من الثواب وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند المباشرة (واتقوا الله) بالاجتناب عن معاصيه التى من جملتها ماعد من الامور (واعلموا أنكم ملاقوه) فتعرضوا لتحصيل ماتنتفعون به حينئذ واجتنبوا اقتراف ماتفتضحون به (وبشر المؤمنين) الذين تلقوا ماخوطبوا به من الاوامر والنواهى بحسن القبول والامتثال بمايقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم أو بكل مايبشر به من الامور التي تسر بها القلوب وتقر بها العيون وفيه مع مافى تلوين الخطاب وجعل المبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم من المبالغة فى تشريف المؤمنين مالايخفى (ولاتجعلوا الله عرضة لايمانكم) قيل نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف أن لايكلم ختنه بشر بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته. وقيل فى الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لاينفق على مسطح لخوضه فى حديث الافك. والعرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والعرضة تطلق على مايعرض دون الشيء فيصير حاجزا عنه كما يقال فلان عرضة للخير وعلى المعرض للامر كما فى قوله ۞ فلا تجعلونى عرضة للوائم ۞ فالمعنى على الوجه الاول لاتجعلوا الله مانعا للامور الحسنة التي تحلفون على تركها وعبر عنها بالايمان لملابستها بها كما فى قوله عليه السلام لعبد الله بن سمرة «اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك» وقوله تعالى (أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) عطف بيان لايمانكم أو بدل منها لما عرفت أنها عبارة عن الامور المحلوف عليها. واللام فى لايمانكم متعلقة بالفعل أو بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض أي لاتجعلوا الله لبركم وتقواكم واصلاحكم بين الناس عرضة أي برزخا حاجزا بأن تحلفوا به تعالى على تركها أو لاتجعلوه تعالى عرضة أى شيئا يعترض الامور المذكورة ويحجزها بما ذكر من الحلف به تعالى على تركها وقد جوز أن تكون اللام للتعليل

و يتعلق أن تبروا الخ بالفعل أو بعرضه فيكون الايمان بمعناها.وأنت خبير بانه يؤدى الي الفصل بين العامل ومعموله بأجنبى وعلى الوجه الثانى لاتجعلوا الله معرضاً لايمانكم تبتذلونه بكثرة الحلف به ولذلك ذم من نزلت فيه «ولا تطع كل حلاف مهين بأشنع المذام»وجعل الحلاف مقدمتها وأن تبروا حينئذ علة للنهى أي ارادة ان تبروا وتتقوا وتصلحوا لان الحلاف مجترىء على الله سبحانه غير معظم له فلا يكون براً متقيا ثقة بين الناس فيكون بمعزل من التوسط فى اصلاح ذات البين (والله سميع) يسمع أيمانكم (عليم) يعلم نياتكم فحافظوا على ما كلفتموه (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار . والمراد به فى الايمان ما لا عقد معه ولا قصد كما ينبئ عنه قوله تعالى : ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان وهو المعنى بقوله عز وجل (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وقد اختلف فيه فعندنا هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه فانه لا قصد فيه الي الكذب.وعند الشافعى رحمه الله هو قول العرب لا والله وبلى والله مما يؤكدون به كلامهم من غير اخطار الحلف بالبال فالمعنى على الأول لا يؤاخذكم الله أي لا يعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم ظانا انه صادق فيه ولكن يعاقبكم بما اقترفته قلوبكم من اثم القصد الى الكذب فى اليمين وذلك فى الغموس.وعلى الثانى لا يلزمكم الكفارة بما لا قصد معه الي اليمين ولكن يلزمكموها بما نوت قلوبكم وقصدت به اليمين ولم يكن كسب اللسان فقط (والله غفور) حيث لم يؤاخذكم باللغو مع كونه ناشئاً من عدم التثبت وقلة المبالاة (حليم) حيث لم يعجل بالمؤاخذة والجملة اعتراض مقرر لمضمون قوله تعالى لا يؤاخذكم الخ وفيه ايذان بان المراد بالمؤاخذة المعاقبة لا ايجاب الكفارة اذ هى التى يتعلق بها المغفرة والحلم ذونه (للذين يؤلون من نسائهم) الايلاء الحلف وحقه أن يستعمل بعلى.واستعماله بمن لتضمينه معنى البعد أي للذين يحلفون متباعدين من نسائهم ويحتمل أن يراد لهم من نسائهم (تربص أربعة أشهر) كقولك لى منك كذا.وقرئ آلوا من نسائهم.وقرئ يقسمون من نسائهم والايلاء من المرأة أن يقول والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعدا على التقييد بالاشهر أولا أقربك على الاطلاق ولا يكون فيما دون ذلك وحكمه انه ان فاء اليها فى المدة بالوطء ان أمكن أو بالقول ان عجز عنه صح الفيء وحنث القادر ولزمته كفارة اليمين ولا كفارة على العاجز.وان مضت الاربعة بانت بتطليقة.والتربص الانتظار والتوقف أضيف الى الظرف اتساعا أي لهم ان ينتظروا فى هذه المدة من غير مطالبة بفيء أو طلاق (فان فاؤا) أي رجعوا

عن اليمين بالحنث والفاء للتفصيل كما اذا قلت انا نزيلكم هذا الشهر فان احمدتكم أقمت عندكم الى آخره والا لم ألبث الا ريثما أتحول (فان الله غفور رحيم) يغفر للمولي بفيئته التي هي كتوبته اثم حنثه عند تكفيره أو ما قصد بالايلاء من ضرار المرأة (وان عزموا الطلاق) وأجمعوا عليه (فان الله سميع) بما جرى منهم من الطلاق وما يتعلق به من الدمدمة والمقاولة التي لاتخلو عنهـا الحال عادة (عليم) بنياتهم وفيه من الوعيد على الاصرار وترك الفيئة مالا يخفى (والمطلقات) أي ذوات الاقراء من الحرائر المدخول بهن لما قد بين أن لاعدة على غير المدخول بها وان عدة من لاتحيض لصغر أو كبر أو حمل بالاشهر ووضع الحمل وأن عدة الأمة قرآن أو شهران (يتربصن) خبر في معنى الامر مفيد للتأكيد باشعاره بأن المأمور به مما يجب أن يتلقى بالمسارعة الى الاتيان به فكأنهن امتثلن بالامر بالتربص فتخبر به موجودا متحققا وبناؤه على المبتدا مفيد لزيادة تأكيد (بأنفسهن) الباء للتعدية أي يقمعنها ويحملنها على مالا تشتهيه بل يشق عليها من التربص وفيه مزيد حث لهن على ذلك لما فيه من الانباء عن الاتصاف بما يستنكفن منه من كون نفوسهن طوامح الى الرجال فيحملهن ذلك على الاقدام على الاتيان بما أمرن به (ثلاثة قروء) نصب على الظرفية أو المفعولية بتقدير مضاف أي يتربصن مدة ثلاثة قروء أو يتربصن مضى ثلاثة قروء وهو جمع قرء والمراد به الحيض بدليل قوله صلى الله عليه وسلم «دعي الصلاة أيام أقرائك» وقوله عليه السلام «طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان» وقوله تعالى «واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر» ولان المقصود الاصلي من العدة استبراء الرحم ومداره الحيض دون الطهر ويقال أقرأت المرأة اذا حاضت وقوله تعالى «فطلقوهن لعدتهن» معناه مستقبلات لعدتهن وهي الحيض الثلاث. وايراد جمع الكثرة في مقام جمع القلة بطريق الاتساع فان ايراد كل من الجمعين مكان الآخر شائع ذائع. وقرىء ثلاثة قرو بغير همز (ولايحل لهن أن يكتمن ماخلق الله في ارحامهن) من الحيض والولد استعجالا في العدة وابطالا لحق الرجعة وفيه دليل على قبول قولهن في ذلك نفيا واثباتا (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) جواب الشرط محذوف يدل عليه ماقبله دلالة واضحة أي فلا يجترئن على ذلك فان قضية الايمان بالله تعالى واليوم الآخر الذي يقع فيه الجزاء والعقوبة منافية له قطعا (وبعولتهن) البعولة جمع بعل وهو في الاصل السيد المالك والتاء لتأنيث الجمع أو تاء المصدر كما في الحزونة والسهولة بتقدير مضاف أي أهل بعولتهن أي أزواجهن الذين طلقوهن طلاقا رجعيا كما ينبيء عنه التعبير عنهم

بالبعولة والضمير لبعض أفراد المطلقات (أحق بردهن) الى ملكهم بالرجعة اليهن (فى ذلك) أى فى زمان التربص . وصيغة التفضيل لافادة ان الرجل اذا أراد الرجعة والمرأة تأباها وجب ايثار قوله على قولها لاأن لها أيضا حقافى الرجعة (ان أرادوا) أى الازواج بالرجعة (اصلاحا) لما بينهم و بينهن واحسانا اليهن و لم يريدوا مضارتهن وليس المراد به شرطية قصد الاصلاح بصحة الرجعة بل هو الحث عليه والزجر عن قصد الضرار (ولهن) عليهم من الحقوق (مثل الذى) لهم (عليهن بالمعروف) من الحقوق التي يجب مراعاتها و يتحتم المحافظة عليها (وللرجال عليهن درجة) أى زيادة فى الحق لان حقوقهم فى أنفسهن وحقوقهن فى المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها أو مزية فى الفضل لما أنهم قوامون عليهن حراس لهن ولما فى أيديهن يشاركونهن فيما هو الغرض من الزواج و يستبدون بفضيلة الرعاية والانفاق (والله عزيز) يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه (حكيم) تنطوى شرائعه على الحكم والمصالح (الطلاق) هو بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم والمراد به الرجعى لما أن السابق الاقرب حكمه ولما روى انه عليه السلام سئل عن الثالثة «فقال عليه السلام أو تسريح باحسان» وهو مبتدأ بتقدير مضاف خبره مابعده أى عدد الطلاق الذى يستحق الزوج فيه الرد والرجعة حسبما بين آنفا (مرتان) أى اثنان. وأيثار ماورد به النظم الكريم عليه للايذان بأن حقهما أن يقعامرة بعد مرة لادفعة واحدة وان كان حكم الرد ثابتا حينئذ أيضا (فامساك) أى فالحكم بعدهما امساك لهن بالرجعة (بمعروف) أى بحسن عشرة ولطف معاملة (أو تسريح باحسان) بالطلقة الثالثة كما روىعنه صلى الله عليه وسلم أو بعدم الرجعة الى أن تنقضى العدة فتبين. وقيل المراد به الطلاق الشرعى بالمرتين مطلق التكرير لا التثنية بعينها كما فى قوله تعالى «ثم ارجع البصر كرتين» أى كرة بعد كرة والمعنى ان التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع بين الطلقتين أو الثلاث فان ذلك بدعة عندنا فقوله تعالى فامساك الخ حكم مبتدأ وتخيير مستأنف والفاء فيه للترتيب على التعليم كأنه قيل اذا علمتم كيفية التطليق فامركم أحد الامرين (ولا يحل لكم أن تأخذوا) منهن بمقابلة الطلاق (مما آتيتموهن)أى من الصدقات وتخصيصها بالذكر وان شاركها فى الحكم سائر أموالهن اما لرعاية العادة أو للتنبيه على انه اذا لم يحل لهم ان يأخذوا مما آتوهن بمقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلان لايحل أن يأخذوا مما لاتعلق له بالبضع أولى وأحرى (شيئا) أي نزرا يسيرا فضلا عن الكثير وتقديم الظرف عليه لما مر مرارا والخطاب مع الحكام واسناد الاخذ والايتاء

اليهم لانهم الآمرون بهما عند المرافعة وقيل مع الازواج وما بعده مع الحكام وذلك مما يشوش النظم الكريم على القراءة المشهورة (الا أن يخافا) أى الزوجان وقرىء يظنا وهو مؤيد لتفسير الخوف بالظن (أن لا يقيما حدود الله) أى أن لا يراعيا مواجب أحكام الزوجية وقرىء يخافا على البناء للمفعول وابدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتمال وقرىء تخافا وتقيما بتاء الخطاب (فان خفتم) أيها الحكام (أن لا يقيما) أى الزوجان (حدود الله) بمشاهدة بعض الامارات والمخايل (فلا جناح عليهما) أى على الزوجين (فيما افتدت به) لا على الزوج فى أخذ ما افتدت به ولا عليها فى اعطائه اياه روي ان جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول كانت تبغض زوجها ثابت ابن قيس فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسي ورأسه شيء والله ما أعيب عليه فى دين ولا خلق ولكن أكره الكفر بعد الاسلام ما أطيقه بغضا انى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة فاذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فنزلت فاختلعت منه بحديقة كان أصدقها اياها (تلك) أى الاحكام المذكورة (حدود الله فلا تعتدوها) بالمخالفة والرفض (ومن يتعد حدود الله فأولئك) المتعدون والجمع باعتبار معنى الموصول (هم الظالمون) أي لانفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه ووضع الاسم الجليل فى المواقع الثلاثة الاخيرة موقع الضمير لتربية المهابة وادخال الروعة وتعقيب النهى بالوعيد للمبالغة فى التهديد (فان طلقها) أي بعد الطلقتين السابقتين (فلا تحل) هى (له من بعد) أى من بعد هذا الطلاق (حتى تنكح زوجا غيره) أى حتى تتزوج غيره فان النكاح ايضا يسند الى كل منهما وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد. والجمهور على اشتراط الاصابة لما روى ان امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رفاعة طلقني فبت طلاقي وان عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وان ما معه مثل هدبة الثوب فقال صلى الله عليه وسلم «أتريدين ان ترجعي الى رفاعة قالت نعم قال صلى الله عليه وسلم لا الا أن تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» وبمثله تجوز الزيادة على الكتاب وقيل النكاح بمعنى الوطء والعقد مستفاد من لفظ الزوج والحكمة من هذا التشريع الردع عن المسارعة الى الطلاق والعود الي المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل مكروه عندنا ويروي عدم الكراهة فيما لم يكن الشرط مصرحا به وفاسد عند الاكثرين لقوله صلى الله عليه وسلم «لعن الله المحلل والمحلل له» (فان طلقها) أى الزوج الثانى (فلا جناح عليهما) أى على الزوج الاول والمرأة (أن يتراجعا) ان يرجع كل منهما الى الآخر بالعقد (ان ظنا أن يقيما حدود الله) التى أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق

ولا وجه لتفسير الظن بالعلم لما أن العواقب غير معلومة ولأن أن الناصبة للتوقع المنافى للعلم ولذلك لا يكاد يقال علمت أن يقوم زيد (وتلك) اشارة الي الاحكام المذكورة الى هنا (حدود الله) أى أحكامه المعينة المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة (يبينها) بهذا البيان اللائق أو سيبينها فيما سيأتى بناء على ان بعضها يلحقه زيادة كشف وبيان بالكتاب والسنة والجملة خبر ثان عند من يجوز كونه جملة كما فى قوله تعالى «فاذا هى حية تسعى» أو حال من حدود الله والعامل معنى الاشارة (لقوم يعلمون) أى يفهمون وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما أنهم المنتفعون بالبيان أو لان ما سيلحق بعض النصوص من البيان لا يقف عليه الا الراسخون فى العلم (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أى آخر عدتهن فان الاجل كما ينطلق على المدة ينطلق على منتهاها والبلوغ هو الوصول الي الشيء وقد يقال للدنو منه اتساعا وهو المراد ههنا لقوله عزوجل (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) اذ لا امكان للامساك بعد تحقق بلوغ الاجل أى فراجعوهن بغير ضرار أو خلوهن حتى ينقضى أجلهن باحسان من غير تطويل وهذا كما ترى اعادة للحكم فى بعض صوره اعتناء بشأنه ومبالغة فى ايجاب المحافظة عليه (ولا تمسكوهن ضرارا) تأكيد للامر بالامساك بمعروف وتوضيح لمعناه وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه أى لا تراجعوهن ارادة الاضرار بهن كان المطلق يترك المعتدة حتى اذا شارفت انقضاء الاجل يراجعها لا لرغبة فيها بل ليطول عليها العدة فنهى عنه بعد ما أمر بضده لما ذكر . وضرارا نصب على العلية أو الحالية أى لا تمسكوهن للمضارة أو مضارين واللام فى قوله (لتعتدوا) متعلقة بضرارا أى لتظلموهن بالالجاء الى الافتداء (ومن يفعل ذلك) أى ماذكر من الامساك المؤدى الى الظلم وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلته فى الشر والفساد (فقد ظلم نفسه) فى ضمن ظلمه لهن بتعريضها للعقاب (ولا تتخذوا آيات الله) المنطوية على الاحكام المذكورة أو جميع آياته وهى داخلة فيها دخولا أوليا (هزوا) أى مهزوا بها بأن تعرضوا عنها وتتهاونوا فى المحافظة على مافى تضاعيفها من الاحكام والحدود من قولهم لمن لم يجد فى الامر أنت هازيء كأنه نهى عن الهزء بها وأريد ما يستلزمه من الامر بضده أى جدوا فى الاخذ بها والعمل بما فيها وارعوها حق رعايتها والا فقد أخذتموها هزؤا ولعبا . ويجوز أن يراد به النهى عن الامساك ضرارا فان الرجعة بلا رغبة فيها عمل بموجب آيات الله تعالى بحسب الظاهر دون الحقيقة وهو معنى الهزؤ . وقيل كان الرجل ينكح و يطلق و يعتق ثم يقول انما كنت ألعب فنزلت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث جدهن جد وهزلهن جد «النكاح والطلاق والعتاق» (واذكروا

نعمت الله عليكم) حيث هداكم الى ما فيه سعادتكم الدينية والدنيوية أى قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها.والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من نعمةالله أي كائنة عليكم أو صفة لها على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أي الكائنة عليكم ويجوز أن يتعلق بنفسها أن يدرأ بها الانعام لأنها اسم مصدر كنبات من أنبت ولا يقدح فى عمله تاء التأنيث لأنه مبنى عليها كما فى قوله :

فاولا رجاء النصر منك ورهبة ۞ عقابك قد كانوا لنا كالموارد

(وما أنزل عليكم) عطف على نعمة الله وما موصولة حذف عائدها من الصلة ومن فى قوله عز وجل (من الكتاب والحكمة) بيانية أي من القرآن والسنة أو القرآن الجامع للعنوانين على أن العطف لتغاير الوصفين كما فى قوله :

الي الملك القرم وابن الهمام ۞ وفى ابهامه أولا ثم بيانه من التفخيم مالايخفى وفى افراده بالذكر مع كونه أول ما دخل فى النعمة المأمور بذكرها ابانة بخطره ومبالغة فى البعث على مراعاة ماذكر قبله من الاحكام (يعظكم به) أى بما أنزل حال من فاعل أنزل أو من مفعوله أو منهما معا (واتقوا الله) فى شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة (واعلموا ان الله بكل شيء عليم) فلا يخفى عليه شيء مما تأتون وما تذرون فيأخذكم بأفانين العقاب (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن) بيان لحكم ما كانوا يفعلونه عند بلوغ الأجل حقيقة بعد بيان حكم ما كانوا يفعلونه عند المشارفة اليه. والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت الدجاجة اذا نشب بيضها ولم يخرج والمراد المنع والخطاب اما للاولياء لما روي أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته جملا أن ترجع الى زوجها الاول بالنكاح. وقيل نزلت فى جابر بن عبد الله حين عضل ابنة عم له.واسناد التطليق اليهم لتسببهم فيه كما ينبيء عنه تصديهم للعضل ولعل التعرض لبلوغ الأجل مع جواز التزوج بالزوج الأول قبله أيضاً لوقوع العضل المذكور حينئذ وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها والا لما احتيج الى نهى الاولياء عن العضل لما أن النهى لدفع الضرر عنهن فانهن وان قدرن على تزويج أنفسهن لكنهن يحترزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة.واما للازواج حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم ولا يدعونهن يتزوجن ظلما وقسرا لحمية الجاهلية .واما للناس كافة فان اسناد ما فعله واحد منهم الي الجميع شائع مستفيض والمعنى اذا وجد فيكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الاولياء أو من جهة الازواج أو من غيرهم وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير

منه وايذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الغائلة (أن ينكحن) أي من أن ينكحن فمحله النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل على الخلاف المشهور وقيل هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب في تعضلوهن وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن (أزواجهن) ان أريد بهم المطلقون فالزوجية اما باعتبار ماكان واما باعتبار ما يكون والافبالاعتبار الاخير (اذا تراضوا) ظرف للاتعضلوا وصيغة التذكير باعتبار تغليب الخطاب على النساء والتقييد به لانه المعتاد لا لتجويز المنع قبل تمام التراضي وقيل ظرف لان ينكحن وقوله تعالى (بينهم) ظرف للتراضي مفيد لرسوخه واستحكامه (بالمعروف) الجميل عند الشرع المستحسن عند الناس والباء اما متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل تراضوا أو نعتا لمصدر محذوف أي تراضيا كائنا بالمعروف وأما بتراضوا أي تراضوا بما يحسن في الدين والمروءة وفيه اشعار بأن المنع من التزوج بغير كفء أو بما دون مهر المثل ليس من باب العضل (ذلك) اشارة الى ما فصل من الأحكام وما فيه من معنى البعد لتعظيم المشار اليه والخطاب لجميع المكلفين كما فيما بعده والتوحيد اما باعتبار كل واحد منهم واما بتأويل القبيل والفريق واما لأن الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين أو للرسول صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى «يا أيها النبي اذا طلقتم النساء» للدلالة على أن حقيقة المشار اليه أمر لا يكاد يعرفه كل أحد (يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) فيسارع الى الامتثال بأوامره ونواهيه اجلالا له وخوفا من عقابه له وقوله تعالى منكم اما متعلق بكان عند من يجوز عملها في الظروف وشبهها واما بمحذوف وقع حالا من فاعل يؤمن أي كائنا منكم (ذلكم) أي الاتعاظ به والعمل بمقتضاه (أزكى لكم) أي أنمى وأنفع (وأطهر) من أدناس الآثام وأوضار الذنوب (والله يعلم) ما فيه من الزكاء والطهر (وأنتم لا تعلمون) ذلك أو والله يعلم ما فيه صلاح أموركم من الاحكام والشرائع التي من جملتها ما بينه ههنا وأنتم لا تعلمونها فدعوا رأيكم وامتثلوا أمره تعالى ونهيه في كل ما تأتون وما تذرون (والوالدات يرضعن أولادهن) شروع في بيان الاحكام المتعلقة بأولادهن خصوصا واشتراكا وهو أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيق مضمونه ومعناه الندب أو الوجوب ان خص بمادة عدم قبول الصبي ثدي الغير أو فقدان الظئر أو عجز الوالد عن الاستئجار. والتعبير عنهن بالعنوان المذكور لهز عطفهن نحو أولادهن. والحكم عام للمطلقات وغيرهن. وقيل خاص بهن اذ الكلام فيهن (حولين

كاملين) التأكيد بصفة الكمال لبيان أن التقدير تحقيقي لاتقريبي مبني على المسامحة المعتادة (لمن أراد أن يتم الرضاعة) بيان لما يتوجه اليه الحكم أى ذلك لمن أراد اتمام الرضاعة. وفيه دلالة على جواز النقص . وقيل اللام متعلقة بيرضعن فان الاب يجب عليه الارضاع كالنفقة والام ترضع له كما يقال أرضعت فلانة لفلان ولده (وعلى المولود له) أى الوالد فان الولد يولد له وينسب اليه . وتغيير العبارة للاشارة الى المعنى المقتضى لوجوب الارضاع ومؤنة المرضعة عليه (رزقهن وكسوتهن) أجرة لهن واختلف فى استئجار الام وهو غير جائز عندنا مادامت فى النكاح أو العدة جائز عند الشافعي رحمه الله (بالمعروف) حسبما يراه الحاكم ويفى به وسعه (لاتكلف نفس الا وسعها) تعليل لايجاب المؤن بالمعروف أو تفسير للمعروف وهو نص على انه تعالي لايكلف العبد ما لايطيقه وذلك لاينافى امكانه (لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) تفصيل لما قبله وتقرير له أى لايكلف كل واحد منهما الآخر مالا يطيقه ولا يضاره بسبب ولده . وقرئ لاتضار بالرفع بدلا من لاتكلف. وأصله على القراءتين لاتضارر بالكسر على البناء للفاعل وبالفتح على البناء للمفعول وعلى الوجه الاول يجوز أن يكون بمعنى تضر. والباء من صلته أى لايضار الوالدان بالولد فيفرط فى تعهده ويقصر فيما ينبغى له. وقرئ لاتضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضاره يضيره. واضافة الولد الى كل منهما لاستعطافهما اليه وللتنبيه على انه جدير بان يتفقا على استصلاحه ولا ينبغى أن يضرا به أو يتضارا بسببه (وعلى الوارث مثل ذلك) عطف على قوله تعالى «وعلى المولود له رزقهن» الخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض والمراد به وارث الصبي ممن كان ذا رحم محرم منه. وقيل عصباته وقال الشافعي رحمه الله هو وارث الاب وهو الصبي أى تمان المرضعة من ماله عند موت الاب ولا نزاع فيه وانما الكلام فيما اذ لم يكن للصبي مال. وقيل الباقي من الابوين من قوله عليه الصلاة والسلام «واجعله الوارث منا» وذلك اشارة الى ماوجب على الاب من الرزق والكسوة (فان أرادا) أى الوالدان (فصالا) أى فطاما عن الرضاع قبل تمام الحولين. والتنكير للايذان بأنه فصال غير معتاد (عن تراض) متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن أي صادرا عن تراض (منهما) أي من الوالدين لامن أحدهما فقط لاحتمال أقدامه على ما يضر بالولد بأن تمل المرأة الارضاع ويبخل الاب باعطاء الاجرة (وتشاور) فى شأن الولد وتفحص عن أحواله واجماع منهما على استحقاقه للفطام. والتشاور من المشورة وهى استخراج الرأى من شرت العسل اذا استخرجته

وتنكيرهما للتفخيم (فلا جناح عليهما) فى ذلك لما أن تراضيهما انما يكون بعد استقرار رأيهما أو اجتهادهما على ان صلاح الولد فى الفطام وقلما يتفقان على الخطا (وان أردتم) بيان لحكم عدم اتفاقهما على الفطام والالتفات الى خطاب الآباء لهزهم الى الامتثال بما أمروا به (أن تسترضعوا أولادكم) بحذف المفعول الأول استغناء عنه أي ان تسترضعوا المراضع لاولادكم يقال أرضعت المرأة الصبى واسترضعتها اياه وقيل انما يتعدى الى الثانى بحرف الجر يقال استرضعت المرأة للصبى أى ان تسترضعوا المراضع لاولادكم لحذف حرف الجر أيضا كما فى قوله تعالى : وإذا كالوهم. أى كالوا لهم (فلا جناح عليكم) أى فى الاسترضاع وفيه دلالة على ان للاب أن يسترضع للولد و يمنع الأم من الارضاع (اذا سلمتم) أي الي المراضع (ما أتيتم) أى ما أردتم ايتاءه كما فى قوله تعالى «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله» وقرئ ما أتيتم من أتى اليه احسانا إذا فعله وقرئ ما أوتيتم أى من جهة الله عز وجل كما قوله تعالى «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» وفيه مزيد بعث لهم الى التسليم (بالمعروف) متعلق بسلمتم أى بالوجه المتعارف المستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه وليس التسليم بشرط للصحة والجواز بل هو ندب الى ما هو الاليق والاولى فان المراضع اذا أعطين ما قدرلهن ناجزا يدا بيد كان ذلك أدخل فى استصلاح شئون الاطفال (واتقوا الله) فى شأن مراعاة الاحكام المذكورة (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) فيجازيكم بذلك . واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة. وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى (والذين) على حذف المضاف أى وازواج الذين (يتوفون منكم) أى تقبض أرواحهم بالموت فان التوفى هو القبض يقال توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى أخذته وقبضته والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين (ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) أو على حذف العائد الى المبتدا فى الخبر أى يتربصن بعدهم كما فى قولهم :السمن منوان بدرهم: أى منوان منه. وقرئ يتوفون بفتح الياء أى يستوفون آجالهم. وتأنيث العشر باعتبار الليالى لانها غرر الشهور والايام ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير فى مثله أصلا حتى أنهم يقولون صمت عشرا ومن البين فى ذلك قوله تعالى «ان لبثتم الا عشرا ثم ان لبثتم الا يوما» ولعل الحكمة فى هذا التقدير أن الجنين اذا كان ذكرا يتحرك غالبا لثلاثة أشهر وان كان أنثى يتحرك لاربعة فاعتبر أقصى الأجلين و زيد عليه العشر استظهارا اذ ربما تضعف الحركة فلا يحس بها. وعموم اللفظ يقتضى تساوى المسلمة والكتابية

والحرة والامة فى هذا الحكم ولكن القياس اقتضى التنصيف فى الامة وقوله عز وجل «وأولات الاحمال» خص الحامل منه . وعن على وابن عباس رضى الله عنهم انها تعتد بأبعد الاجلين احتياطا (فاذا بلغن أجلهن) أي انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) أيها الحكام والمسلمون جميعا (فيما فعلن فى أنفسهن) من التزين والتعرض للخطاب وسائر ما حرم على المعتدة (بالمعروف) بالوجه الذى لاينكره الشرع . وفيه اشارة الى انهن لو فعلن ما ينكره الشرع فعليهم ان يكفوهن عن ذلك والا فعليهم الجناح (والله بما تعملون خبير) فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به (ولا جناح عليكم) خطاب للكل (فيما عرضتم به) التعريض والتلويح ابهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول السائل جئتك لأسلم عليك وأصله امالة الكلام عن نهجه الى عرض منه أي جانب . والكناية هى الدلالة على الشيء بذكر لوازمه و روادفه كقولك طويل النجاد للطويل وكثير الرماد للمضياف (من خطبة النساء) الخطبة بالكسر كالقعدة والجلسة ما يفعله الخاطب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل . فقيل هى مأخوذة من الخطب أي الشأن الذي له خطر لما انها شأن من الشئون ونوع من الخطوب . وقيل من الخطاب لانها نوع مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة والمراد بالنساء المعتدات للوفاة والتعريض لخطبتهن أن يقول لها انك لجميلة أو صالحة أو نافعة ومن غرضى أن أتزوج ونحو ذلك مما يوهم انه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه ان رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح (أو أكننتم فى أنفسكم) أى أضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا (علم الله أنكم ستذكرونهن) ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن اظهار الرغبة فيهن . وفيه نوع توبيخ لهم على قلة التثبت (ولكن لا تواعدوهن سرا) استدراك عن محذوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لاتواعدوهن نكاحا بل اكتفوا بما رخص لكم من التعريض . والتعبير عن النكاح بالسر لان مسببه الذى هو الوطء مما يسر به . وايثاره على اسمه للايذان بانه مما ينبغى أن يسر به ويكتم وحمله على الوطء ربما يوهم الرخصة فى المحظور الذى هو التصريح بالنكاح . وقيل انتصاب سرا على الظرفية أي لا تواعدوهن فى السر على ان المراد بذلك المواعدة بما يستهجن وفيه ما فيه (الا أن تقولوا قولا معروفا) استثناء مفرغ مما يدل عليه النهى أي لا تواعدوهن مواعدة ما الا مواعدة معروفة غير منكرة شرعا وهى ما يكون بطريق التعريض والتلويح أو الا مواعدة بقول معروف أو لا تواعدوهن بشيء من الأشياء الا بان تقولوا قولا معروفا . وقيل هو استثناء منقطع من

سرا وهو ضعيف لادائه الى جعل التعريض موعودا وليس كذلك (ولا تعزموا عقدة النكاح) من عزم الامر اذا قصده قصدا جازما وحقيقته القطع بدليل قوله عليه السلام «لاصيام لمن يعزم الصيام من الليل» وروي لمن «يبيت الصيام» والنهى عنه للمبالغة فى النهى عن مباشرة عقد النكاح أي لا تعزموا عقد عقدة النكاح (حتى يبلغ الكتاب أجله) أى العدة المكتوبة المفروضة آخرها وقيل معناه لا تقطعوا عقدة النكاح أى لا تبرموها ولا تلزموها ولا تقدموا عليها فيكون نهيا عن نفس الفعل لا عن قصده (واعلموا ان الله يعلم ما فى أنفسكم) من ذوات الصدور التى من جملتها العزم على ما نهيتم عنه (فاحذروه) بالاجتناب عن العزم ابتداء أو اقلاعا عنه بعد تحققه (واعلموا ان الله غفور) يغفر لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى (حليم) لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلوا بتأخيرها على أن ما نهيتم عنه من العزم ليس مما يستتبع المؤاخذة. واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لادخال الروعة (لاجناح عليكم) أى لا تبعة من مهر وهو الاظهر. وقيل من وزر اذ لا بدعة فى الطلاق قبل المسيس. وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر النهى عن الطلاق فظن ان فيه جناحا فنفى ذلك (ان طلقتم النساء مالم تمسوهن) أي مالم تجامعوهن وقرئ تماسوهن بضم التاء فى جميع المواقع أى مدة عدم مساسكم إياهن على أن ما مصدرية ظرفية بتقدير المضاف. و نقل أبو البقاء أنها شرطية بمعنى أن فيكون من باب اعتراض الشرط على الشرط فيكون الثانى قيداً للاول كما فى قولك أن تأتنى أن تحسن الى أكرمك أي أن تأتنى محسناً الى والمعنى ان طلقتموهن غير ماسين لهن وهذا المعنى أقعد من الاول لما أن ما الظرفية انما يحسن موقعها فيما اذا كان المظروف امرا ممتدا منطبقا على ما أضيف اليها من المدة أو الزمان كما فى قوله تعالى «خالدين فيها مادامت السموات والارض» وقوله تعالى «وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم» ولا يخفى أن التطليق ليس كذلك وتعليق الظرف بنفى الجناح ربما يوهم امكان المسيس بعد الطلاق فالوجه أن تقدر الحال مكان الزمان والمدة (أو تفرضوا لهن فريضة) أى الا تفرضوا لهن أو حتى تفرضوا لهن عند العقد مهرا على أن فريضة فعلية بمعنى مفعول والتاء لنقل اللفظ من الوصفية الى الاسمية وانتصابه على المفعولية ويجوز أن يكون مصدرا صيغة واعرابا والمعنى أنه لا تبعة على المطلق بمطالبة المهر أصلا اذا كان الطلاق قبل المسيس على كل حال الا فى حال تسمية المهر فان عليه حينئذ نصف المسمى وفى حال عدم تسميته عليه المتعة لا نصف مهر المثل وأما ما كان بعد المساس فعليه فى صورة التسمية تمام المسمى وفى صورة عدمها تمام مهر المثل وقيل كلمة

أو عاطفة لمدخولها على ماقبلها من الفعل المجزوم على معنى ما لم يكن منكم مسيس ولا فرض مهر (ومتعوهن) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فطلقوهن و متعوهن والحكمة فى إيجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق وهى درع وملحفة وخمار على حسب الحال كما يفصح عنه قوله تعالي (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) أى ما يليق بحال كل منهما. وقرىء بسكون الدال وهى جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبينة لمقدار المتعة بالنظر الي حال المطلق إيساراً و إقتارا أو حال من فاعل متعوهن بحذف الرابط أى على الموسع منكم الخ أو على جعل الالف واللام عوضا من المضاف اليه عند من يجوزه أى على موسعكم الخ وهذا اذا لم يكن مهر مثلها أقل من ذلك فان كان أقل فلها الاقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ولا ينقص عن خمسة دراهم (متاعا) أى (تمتيعاً بالمعروف) أى بالوجه الذى تستحسنه الشريعة والمروءة (حقا) صفة لمتاعا أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا (على المحسنين) أى الذين يحسنون الى أنفسهم بالمسارعة الى الامتثال أو الى المطلقات بالتمتيع بالمعروف وانما سموا محسنين اعتبارا للمشارفة وترغيبا وتحريضا (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن) قبل ذلك (فريضة) أى وان طلقتموهن من قبل المسيس حال كونكم مسمين لهن فيما سبق أى عند النكاح مهرا على أن الجملة حال من فاعل طلقتموهن ويجوز أن تكون حالا من مفعوله لتحقق الرابط بالنسبة اليهما ونفس الفرض من المبني للفاعل أو للمفعول وان لم يقارن حالة التطليق لكن اتصاف المطلق بالفارضية فيما سبق مما لا ريب فى مقارنته لها وكذا الحال فى اتصاف المطلقة بكونها مفروضا لها فيما سبق (فنصف مافرضتم) أي فلهن نصف ماسميتم لهن من المهر أو فالواجب عليكم ذلك وهذا صريح فى أن المنفى فى الصورة السابقة انما هو تبعة المهر . وقرئ بالنصب أي فأدوا نصف مافرضتم ولعل تأخير حكم التسمية مع أنها الاصل فى العقد والاكثر فى الوقوع لما أن الآية الكريمة نزلت فى أنصاري تزوج امرأة من بني حنيفة وكانت مفوضة فطلقها قبل الدخول بها فتخاصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام عند اظهار أن لا شيء له «متعها بقلنسوتك» (إلا أن يعفون) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي فلهن نصف المفروض معينا فى كل حال الاحال عفوهن فانه يسقط ذلك حينئذ بعد وجوبه وظاهر الصيغة فى نفسها يحتمل التذكير والتأنيث وانما الفرق فى الاعتبار والتحقيق فان الواو فى الاولى ضمير والنون علامة الرفع وفى الثانيه لام الفعل والنون ضمير والفعل مبني ولذلك لم يؤثر فيه أن تأثيره فيما عطف على محله من قوله تعالى (أو يعفو) بالنصب

وقرئ بسكون الواو (الذي بيده عقدة النكاح) أى يترك الزوج المالك لعقده و حله مايعود اليه من نصف المهر الذي ساقه اليها كاملا على ماهو المعتاد تكرما فان ترك حقه عليها عفو بلاشبهة.أوسمى ذلك عفواً فى صورة عدم السوق مشاكلة أوتغليبا لحال السوق على حال عدمه فمرجع الاستثناء حينئذ الى منع الزيادة فى المستثنى منه كما أنه فى الصورة الاولى الي منع النقصان فيه أى فلهن هذا القدر بلا زيادة و لانقصان فى جميع الاحوال الافى حال عفوهن فانه حينئذ لايكون لهن القدر المذكور بل ينتفى ذلك أو ينحط أوفى حال عفو الزوج فانه حينئذ يكون لهن الزيادة على ذلك القدر هـذا على التفسير الاول وأما على التفسير الثانى فلابد من المصير الى جعل الاستثناء منقطعا لان فى صورة عفو الزوج لايتصور الوجوب عليه هذا عندنا و فى القول القديم للشافعي رحمه الله أن المراد عفو الولي الذي بيده عقـدة نكاح الصغيرة وهو ظاهر المأخذ خلا أن الاول أنسب بقوله تعالي (وأن تعفوا أقرب للتقوى) الى آخره فان اسقاط حق الصغيرة ليس فى شيء من التقوي وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول وأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو.وقرئ بالياء (ولاتنسوا الفضل بينكم) أي لا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض كالشيء المنسى .وقرئ بكسر الواو والخطاب فى الفعلين للرجال والنساء جميعا بطريق التغليب (ان الله بما تعملون بصير) فلا يكاد يضيع ماعملتم من التفضل والاحسان (حافظوا على الصلوات) أى داوموا على أدائها لاوقاتها من غير اخلال بشيء منها كما تنبئ عنـه صيغة المفاعلة المفيدة للمبالغة ولعل الامر بها فى تضاعيف بيان أحكام الازواج والاولاد قبل الاتمام للايذان بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غـير اشتغال عنها بشأنهم بل بشأن أنفسهم أيضا كما يفصح عنـه الامر بها فى حالة الخوف ولذلك أمر بها فى خلال بيان مايتعلق بهم من الاحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحجزة بعض (و الصلاة الوسطى) أي المتوسطة بينها أو الفضلى منها وهى صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صـلاة العصر ملأ الله تعالى بيوتهم نارا» وقال عليه السلام «انهـا الصلاة التى شغل عنها سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام» وفضلها لكثرة اشتغال الناس فى وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائـكة النهار حينئذ.وقيل هى صـلاة الظهر لانها فى وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم لما أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان يصليها بالهاجرة فكانت أفضلها لقوله عليه السـلام «أفضل العبادات أحمزها» وقيل هى صلاة الفجر لانها بين صلاتى الليل والنهار والواقعة فى الحد

المشترك بينهما ولانها مشهودة كصلاة العصر. وقيل هي صلاة المغرب لانها متوسطة من حيث العدد ومن حيث وقوعها بين صلاتى النهار والليل ووتر النهار ولا تنقص فى السفر. وقيل هي صلاة العشاء لانها بين الجهريتين الواقعتين فى طرفى الليل وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه السلام كان يقرأ والصلاة الوسطى وصلاة العصر فتكون حينئذ احدى الاربع قد خصت بالذكر مع العصر لانفرادها بالفضل. وقرئ وعلى الصلاة الوسطى. وقرئ بالنصب على المدح. وقرئ الوسطى (وقوموا لله) أى فى الصلاة (قانتين) ذاكرين له تعالى فى القيام لان القنوت هو الذكر فيه وقيل هو اكمال الطاعة واتمامها بغير اخلال بشيء من أركانها وقيل خاشعين وقال ابن المسيب المراد به القنوت فى الصبح (فان خفتم) أى من عدو أو غيره (فرجالا) جمع راجل كقيام وقائم أو رجل بمعنى راجل وقريء بضم الراء مع التخفيف وبضمها مع التشديد أيضا. وقريء فرجلا أي راجلا (أو ركبانا) جمع راكب أى فصلوا راجلين أو راكبين حسبما يقتضيه الحال ولا تخلوا بها ماأمكن الوقوف فى الجملة وقد جوز الشافعى رحمه الله أداءها حال المسايفة أيضا (فاذا أمنتم) بزوال الخوف (فاذكروا الله) أي فصلوا صلاة الامن عبر عنها بالذكر لانه معظم اركانها (كما علمكم) متعلق بمحذوف وقع وصفا لمصدر محذوف أي ذكرا كائنا كما علمكم أي كتعليمه اياكم (مالم تكونوا تعلمون) من كيفية الصلاة والمراد بالتشبيه ان تكون الصلاة المؤداة موافقة لما علمه الله تعالى. وايرادها بذلك العنوان لتذكير النعمة أو اشكروا الله تعالى شكرا يوازي تعليمه اياكم مالم تكونوا تعلمونه من الشرائع والاحكام التى من جملتها كيفية اقامة الصلاة حالتى الخوف والامن هذا. وفى ايراد الشرطية الاولى بكلمة ان المفيدة المشكوكية وقوع الخوف وندرته وتصدير الشرطية الثانية بكلمة اذا المنبئة عن تحقق وقوع الامن وكثرته مع الايجاز فى جواب الاولى والاطناب فى جواب الثانية المبنيين على تنزيل مقام وقوع المأمور به فيهما منزلة مقام وقوع الامر تنزيلا مستدعيا لاجراء مقتضى المقام الاول فى كل منهما مجري مقتضى المقام الثانى من الجزالة ولطف الاعتبار مافيه عبرة لاولى الابصار (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) عود الى بيان بقية الاحكام المفصلة فيما سلف أثر بيان أحكام وسطت بينهما لماأشير اليه من الحكمة الداعية الى ذلك (وصية لازواجهم) أي يوصون أوليوصوا أوكتب الله عليهم وصية ويؤيد هذا قراءة من قرأ كتب عليكم الوصية لازواجكم وقرئ بالرفع على تقدير مضاف فى المبتدأ أو الخبر أى حكم الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم أوكتب عليهم وصية

أو عليهم وصية وقرىء متاع لازواجهم بدل وصية (متاعا الى الحول) منصوب بيوصون ان اضمرته والافبالوصية او بمتاع على القراءة الاخيرة (غير اخراج) بدل منه او مصدر مؤكد كما فى قولك هذا القول غير ماتقول اوحال من أزواجهم أى غير مخرجات. والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لازواجهم بان يمتعن بعدهم حولا بالنفقة والسكنى وكان ذلك أول الاسلام ثم نسخت المدة بقوله تعالى أربعة أشهر وعشرا فانه وان كان متقدما فى التلاوة متأخر فى النزول وسقطت النفقة بتوريثها الربع أوالثمن وكذلك السكنى عندنا وعند الشافعى هى باقية (فان خرجن) عن منزل الازواج باختيارهن (فلاجناح عليكم) أيها الائمة (فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) لاينكره الشرع كالتزين والتطيب وترك الحداد والتعرض للخطاب. وفيه دلالة على ان المحظور اخراجها عند ارادة القرار وملازمة مسكن الزوج والحداد من غير أن يجب عليها ذلك وانها كانت مخيرة بين الملازمة مع أخذ النفقة وبين الخروج مع تركها (والله عزيز) غالب على أمره يعاقب من خالفه (حكيم) يراعى فى أحكامه مصالح عباده (وللمطلقات) سواء كن مدخولا بهن أولا (متاع) أي مطلق المتعة الشاملة للواجبة والمستحبة وأوجبها سعيد بن جبير وأبو العالية والزهري للكل وقيل المراد بالمتاع نفقة العدة وقيل اللام للعهد والمراد غير المدخول بهن والتكرير للتأكيد (بالمعروف) شرعا وعادة (حقا) على المتقين أى مما ينبغى (كذلك) أى مثل ذلك البيان الواضح (يبين الله لكم آياته) الدالة على أحكامه التى شرعها لعباده (لعلكم تعقلون) لكى تفهموا مافيها وتعملوا بموجبها (ألم تر) تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الاخبار وتعجيب من شأنهم البديع فان سماعهم لها بمنزلة الرؤية النظرية أو العلمية أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب ايذانا بأن قصتهم من الشهرة والشيوع بحيث يحق لكل أحد أن يحمل على الاقرار برؤيتهم وسماع قصتهم ويعجب بها وان لم يكن ممن رآهم او سمع بقصتهم فان هذا الكلام قد جرى مجرى المثل فى مقام التعجيب لما انه شبه حال غير الرائى لشىء عجيب بحال الرائى له بناء على ادعاء ظهور أمره وجلائه بحيث استوى فى ادراكه الشاهد والغائب ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع الرائى قصداً الى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب وتعدية الرؤية بالى فى قوله تعالى (الى الذين خرجوا من ديارهم) على تقدير كونها بمعنى الابصار باعتبار معنى النظر وعلى تقدير كونها ادراكا قلبيا لتضمين معنى الوصول والانتهاء على معنى ألم ينته علمك اليهم (وهم ألوف) أي ألوف كثيرة قيل عشرة آلاف وقيل

ثلاثون وقيل سبعون ألفا والجملة حال من ضمير خرجوا وقوله عز وجل (حذر الموت) مفعول له. روى ان أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا منها هاربين فاماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أن لا مفر من حكم الله عز سلطانه وقضائه وقيل مر عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقيه وأصابعه تعجبا مما رأى من أمرهم فأوحى اليه نادفيهم أن قوموا بأذن الله فنادى فاذاهم قيام يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لااله الاأنت. وقيل هم قوم من بنى اسرائيل دعاهم ملكهم الي الجهاد فهربوا حذرا من الموت فأماتهم الله تعالى ثمانية أيام ثم أحياهم وقوله عز وجل (فقال لهم الله موتوا) اما عبارة عن تعلق ارادته تعالي بموتهم دفعة واما تمثيل لاماتته تعالي اياهم ميتة نفس واحدة فى أقرب وقت وأدناه وأسرع زمان وأوحاه بأمر آمر مطاع لمأمور مطيع كما فى قوله تعالى «انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» (ثم أحياهم) عطف اما على مقدر يستدعيه المقام أى فماتوا ثم أحياهم وانما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن ارادته واما على قال لما انه عبارة عن الاماتة وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لاسباب الشهادة وان الموت حيث لم يكن منه بد ولم ينفع منه المفر فأولى أن يكون فى سبيل الله تعالى (ان الله لذو فضل) عظيم (على الناس) قاطبة أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة العظمى. وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم الى مسلك الاعتبار والاستبصار (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لايشكرون فضله كما ينبغى ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار واظهار الناس فى مقام الاضمار لمزيد التشنيع (وقاتلوا فى سبيل الله) عطف على مقدر يعينه ما قبله كأنه قيل فاشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا فى سبيله لما علمتم ان الفرار لا ينجي من الحمام وأن المقدر لامرد له فان كان قد حان الاجل فموت فى سبيل الله عز وجل والافنصر عزيز وثواب (واعلموا ان الله سميع) يسمع مقالة السابقين والمتخلفين (عليم) بما يضمرونه فى أنفسهم وهو من وراء الجزاء خيرا وشرا فسارعوا الي الامتثال واحذروا المخالفة والمساهلة (من ذا الذي يقرض الله) من استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا خبره والموصول صفة له أو بدل منه . واقراض الله تعالى مثل لتقديم العمل العاجل طلبا للثواب الآجل والمراد ههنا اما الجهاد الذي هو عبارة عن بذل النفس والمال فى سبيل الله عز وجل ابتغاء لمرضاته واما مطلق العمل الصالح المنتظم له انتظاما أوليا (قرضا حسنا) أي اقراضا مقرونا بالاخلاص وطيب النفس أو مقرضا حلالا طيبا (فيضاعفه له) بالنصب على

جواب الاستفهام حملا على المعنى فانه فى معنى أيقرضه.وقرىء بالرفع أي يضاعف أجره وجزاءه جعل ذلك مضاعفة له بناء على ما بينهما من المناسبة بالسببية والمسببية ظاهرا وصيغة المفاعلة للمبالغة.وقرىء فيضعفه بالرفع وبالنصب (اضعافا) جمع ضعف ونصبه على انه حال بالضمير المنصوب أو مفعول بان يضمن المضاعفة معنى التصيير أو مصدر مؤكد على ان الضعف اسم المصدر والجمع للتنوين (كثيرة) لا يعلم قدرها الا الله تعالى وقيل الواحد بسبعمائة (والله يقبض ويبسط) أي يقتر على بعض ويوسع على بعض أو يقتر تارة ويوسع أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كي لا يبدل أحوالكم ولعل تأخير البسط عن القبض فى الذكر للايماء الي انه يعقبه فى الوجود تسلية للفقراء .وقرىء يبصط بالصاد لمجاورة الطاء (واليه ترجعون) فيجازيكم على ما قدمتم من الاعمال خيرا وشرا (ألم تر) تقرير وتعجيب كما سبق قطع عنه للايذان باستقلاله فى التعجب مع ان له مزيد ارتباط بما وسط بينهما من الامر بالقتال (الى الملأ من بنى اسرائيل) الملأ من القوم وجوههم واشرافهم وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم سموا بذلك لانهم يملأ ون العيون مهابة والمجالس بهاء أو لانهم مليئون بما يبتغى منهم ومن تبعيضية ومن فى قوله تعالى (من بعد موسى) ابتدائية وعاملها مقدر وقع حالا من الملا أي كائنين بعض بنى اسرائيل من بعد وفاة موسى ولا ضير فى اتحاد الحرفين لفظا عند اختلافهما معنى (اذ قالوا) منصوب بمضمر يستدعيه المقام أي ألم تر الى قصة الملا أو حديثهم حين قالوا (لنبى لهم) هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليهما السلام.وقيل شمعون بن صفية بن علقمة من ولد لاوي بن يعقوب عليهما السلام.وقيل اشمويل بن بال بن علقمة وهو بالعبرانية اسمعيل قال مقاتل هو من نسل هرون عليه السلام وقال مجاهد شمويل بن هلقايا (ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) أى انهض للقتال معنا أميرا نصدر فى تدبير أمر الحرب عن رأيه.وقرىء نقاتل بالرفع على انه حال مقدرة أى ابعثه لنا مقدرين القتال أو استئناف مبنى على السؤال.وقرىء يقاتل بالياء مجزوما ومرفوعا على الجواب الأمر والوصف لملكا (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قال لهم النبي حينئذ فقيل قال (هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا) فصل بين عسى وخبره بالشرط للاعتناء به أي هل قاربتم أن لا تقاتلوا كما أتوقعه منكم والمراد تقرير أن المتوقع كائن وانما لم يذكر فى معرض الشرط ما التمسوه بان قيل هل عسيتم أن بعث لكم ملكا الخ مع انه أظهر تعلقا بكلامهم بل ذكر كتابة القتال

عليهم للمبالغة فى بيان تخلفهم عنه فانهم اذا لم يقاتلوا عند فرضية القتال عليهم بايجاب الله تعالي فلأن لايقاتلوا عند عدم فرضيته أولى ولان ايراد ماذكروه ربما يوهم ان سبب تخلفهم عن القتال هو المبعوث لانفس القتال .وقرىءعسيتم بكسر السين وهى ضعيفة (قالوا) استئناف كما سبق (ومالنا ألا نقاتل) أىأى سبب لنا فى أن لا نقاتل (فى سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا) أى والحال انه قد عرض لنا ما يوجب القتال ايجابا قويا من الاخراج عن الديار والاوطان والاغتراب من الاهل والأولاد وافراد الأبناء بالذكر لمزيد تقوية أسباب القتال وذلك أن جالوت رأس العمالقة وملكهم وهو جبار من أولاد عمليق بن عاد كان هو ومن معه من العمالقة يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وظهروا على بنى اسرائيل وأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين نفسا وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم (فلما كتب عليهم القتال) بعد سؤال النبى عليه السلام ذلك وبعث الملك (تولوا) أىأعرضوا وتخلفوا لكن لا فى ابتداء الأمر بل بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكته كما سيجيء تفصيله. وانما ذكر ههنا مآل أمرهم اجمالا اظهارا لما بين قولهم وفعلهم من التنافى والتباين (الا قليلا منهم) وهم الذين اكتفوا بالغرفة من النهر وجاوزوه وهم ثلثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم على ظلمهم بالتولى عن القتال وترك الجهاد وتنافى أقوالهم وأفعالهم والجملة اعتراض تذييلى (وقال لهم نبيهم) شروع فى تفصيل ما جري بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال أثر الاشارة الاجمالية إلى مصير حالهم أى قال لهم بعد ما أوحى اليه ما أوحى (ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) طالوت علم عبرى كداود وجعله فعلوتا من الطول يأباه منع صرفه وملكا حال منه روى أنه عليه السلام لما دعا ربه أن يجعل لهم ملكا أتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها الا طالوت (قالوا) استئناف كما مر أنى يكون له الملك علينا أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك (ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) الواو الأولى حالية والثانية عاطفة جامعة للجملتين فى الحكم أى كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق منه ولعدم ما يتوقف عليه الملك من المال وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى اسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام وسبط المملكة بسبط يهوذا ومنه داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين قيل كان راعيا وقيل دباغا وقيل سقاء (قال ان الله

اصطفاه عليكم) لما استبعدوا تملكه بسقوط نسبه و بفقره ردعليهم ذلك أولا بأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم وثانيا بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة وجسامة البدن ليعظم خطره فى القلوب ويقدر على مقاومة الاعداء ومكابدة الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر وذلك قوله عز وجل (وزاده بسطة فى العلم) أى العلم المتعلق بالملك أو به وبالديانات أيضا .وقيل قد أوحى اليه ونبئ (والجسم) قيل بطول القامة فانه كان أطول من غيره برأسه ومنكبيه حتى أن الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه وقيل بالجمال وقيل بالقوة (والله يؤتى ملكه من يشاء) لما أنه مالك الملك والملكوت فعال لما يريد فعله أن يؤتيه من يشاء من عباده (والله واسع) يوسع على الفقير ويغنيه (عليم) بمن يليق بالملك ممن لا يليق به واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة (وقال لهم نبيهم) توسيطه فيما بين قوليه المحكيين عنه عليه السلام للاشعار بعدم اتصال أحدهما بالآخر وتخلل كلام من جهة المخاطبين متفرع على السابق مستتبع للاحق كانهم طلبوا منه عليه السلام آية تدل على أنه تعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم. روى أنهم قالوا ما آية ملكه فقال (ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) أى الصندوق وهو فعلوت من التوب الذى هو الرجوع لما أنه لا يزال يرجع اليه ما يخرج منه وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كملكوت ورهبوت والمشهور أن يوقف على تائه من غير أن تقلب هاء ومنهم من يقلبها اياها والمراد به صندوق التوراة وكان قد رفعه الله عز وجل بعد وفاة موسى عليه السلام سخطا على بنى اسرائيل لما عصوا واعتدوا فلما طلب القوم من نبيهم آية تدل على ملك طالوت قال لهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فاتاهم كما وصف والقوم ينظرون اليه حتى نزل عند طالوت وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما. وقال أرباب الاخبار ان الله تعالى أنزل على آدم تابوتا فيه تماثيل الأنبياء عليهم السلام من أولاده وكان من عود الشمشاد نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين فكان عند آدم عليه السلام الى أن توفى فتوارثه أولاده واحدا بعد واحد الى أن وصل الى يعقوب عليه السلام ثم بقى فى أيدى بنى اسرائيل الى أن وصل الى موسى عليه السلام فكان عليه الصلاة والسلام يضع فيه التوراة وكان اذا قاتل قدمه فكانت تسكن اليه نفوس بنى اسرائيل وكان عنده الى أن توفى ثم تداولته أيدى بنى اسرائيل وكانوا اذا اختلفوا فى شيء تحاكموا اليه فيكلمهم ويحكم بينهم وكانوا اذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوهم وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر ثم يقاتلون

العدو فاذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا النصر فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه وجعلوه فى موضع البول والغائط فلما أراد الله تعالى أن يملك طالوت سلط عليهم البلاء حتى ان كل من بال عنده ابتلى بالبواسير وهلكت من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت فأخرجوه وجعلوه على ثورين فأقبل الثوران يسيران وقد وكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما حتى أتوا منزل طالوت فلما سألوا نبيهم البينة على ملك طالوت قال لهم النبى ان آية ملكه انكم تجدون التابوت فى داره فلما وجدوه عنده أيقنوا بملكه (فيه سكينة من ربكم) أى فى اتيانه سكون لكم وطمأنينة كائنة من ربكم أو فى التابوت ما تسكنون اليه وهو التوراة المودعة فيه بناء على ما مر من أن موسى عليه السلام اذا قاتل قدمه فتسكن اليه نفوس بنى اسرائيل وقيل السكينة صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهر وذنبه وجناحان فتئن فيزف التابوت نحو العدو وهم يمضون معه فاذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر وعن على رضى الله عنه كان لها وجه كوجه الانسان وفيها ريح هفافة (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) هى رضاض الالواح وعصا موسى وثيابه وشئ من التوراة وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام وآلهما ابناؤهما أو أنفسهما والآل مقحم لتفخيم شأنهم أو أنبياء بنى اسرائيل (تحمله الملائكة) حال من التابوت أى ان آية ملكه اتيانه حال كونه محمولا للملائكة وقد مر كيفية ذلك ولعل حمله الملائكة على الرواية الاخيرة عبارة عن سوقهم للثورين الحاملين له (ان فى ذلك) اشارة الى ماذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلام النبى عليه السلام لقومه أو الى نقل القصة وحكايتها فهو ابتداء كلام من جهة الله تعالى جئ به قبل تمام القصة إظهارا لكمال العناية به. وافراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيره كما سلف (لآية) عظيمة (لكم) دالة على ملك طالوت أو على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بهذه التفاصيل على ماهى عليه من غير سماع من البشر (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بتمليكه عليكم أو بشئ من الآيات وان شرطية والجواب محذوف ثقة بما قبله وقيل هى بمعنى اذ (فلما فصل طالوت بالجنود) أى نفصل بهم عن بيت المقدس والاصل فصله نفسه ولما اتحد فاعله ومفعوله شاع استعماله محذوف المفعول حتى نزل منزلة القاصر كانفصل . وقيل فصل فصولا وقد جوز كونه أصلا برأسه ممتازا من المتعدى بمصدره كوقف وقوفا ووقفه وقفا وكصد صدودا وصده صدا ورجع رجوعا ورجعه رجعا. والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من طالوت أى

ملتبسا بهم مصاحبا لهم روى أنه قال لقومه لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها ولا أبتغى الا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع اليه ممن اختاره ثمانون ألفا وكان الوقت قيظا وسلكوا مفازة فسألوا ان يجرى الله تعالى لهم نهرا فبعد ماظهر له ما تعلقت به مشيئته تعالى من جهة النبي عليه السلام أو بطريق الوحى عند من يقول بنبوته (قال ان الله مبتليكم بنهر) بفتح الهاء وقرئ بسكونها (فمن شرب منه) أى ابتدأ شربه من النهر بأن كرع لان الشرب منه حقيقة (فليس منى) أى من جملتى وأشياعى المؤمنين وقيل ليس بمتصل بى ومتحد معى من قولهم فلان منى كانه بعضه لكمال اختلاطهما (ومن لم يطعمه) أي لم يذقه من طعم الشئ اذا ذاقه مأكولا كان أو مشروبا أو غيرهما قال:

وان شئت حرمت النساء سواكم ... وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

أى نوما (فانه منى الامن اغترف غرفة بيده) استثناء من قوله تعالى فمن شرب منه فليس منى وانما أخر عن الجملة الثانية لابراز كمال العناية بها ومعناه الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون الكروع والغرفة مايغرف .وقرئ بفتح الغين على انها مصدر والباء متعلقة باغترف أو بمحذوف وقع صفة لغرفة أي غرفة كائنة بيده يروي ان الغرفة كانت تكفى الرجل لشربه وادواته ودوابه وأما الذين شربوا منه فقد اسودت شفاههم وغلبهم العطش (فشربوا منه) عطف على مقدر يقتضيه المقام أى فابتلوا به فشربوا منه (الا قليلا منهم) وهم المشار اليهم فيما سلف بالاستثناء من التولي. وقرئ الا قليل منهم ميلا الى جانب المعنى وضربا عن عدوة اللفظ جانبا فان قوله تعالى فشربوا منه فى قوة أن يقال فلم يطيعوه فحق أن يرد المستثنى مرفوعا كما فى قول الفرزدق:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال الا مسحت أو مجلف

فان قوله لم يدع فى حكم لم يبق (فلما جاوزه) أى النهر (هو) أى طالوت (والذين آمنوا معه) عطف على الضمير المتصل المؤكد بالمنفصل والظرف متعلق بجاوز لا بآمنوا وقيل الواو حالية والظرف متعلق بمحذوف وقع خبرا عن الموصول كانه قيل فلما جاوزه والحال ان الذين آمنوا كائنون معه وهم أولئك القليل وفيه اشارة الى ان من عداهم بمعزل من الايمان (قالوا) أي بعض من معه من المؤمنين لبعض (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن أن يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا منهم من الكثرة والشدة قيل كانوا مائة ألف مقاتل شاكى السلاح (قال) استئناف مبنى على السؤال كانه قيل فماذا قال مخاطبهم فقيل قال (الذين يظنون أنهم ملاقوا الله)

قيل أي الخاص منهم الذين يتيقنون لقاء الله تعالى بالبعث و يتوقعون ثوابه. وافرادهم بذلك الوصف لا ينافي ايمان الباقين فان درجات المؤمنين في التيقن والتوقع متفاوتة أو الذين يعلمون انهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى. وقيل الموصول عبارة عن المؤمنين كافة والضمير في قالوا للمنخزلين عنهم كانهم قالوا اعتذارا عن التخلف والنهر بينهما (كم من فئة) أي فرقة وجماعة من الناس من فأوت رأسه اذا شققتها أو من فاء اليه اذا رجع فوزنها على الاول فعة وعلى الثاني فلة (قليلة غلبت فئة كثيرة) وكم خبرية كانت أو استفهامية مفيدة للتكثير وهي في حيز الرفع بالابتداء خبرها غلبت أي كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة (باذن الله) أي بحكمه وتيسيره فان دوران كافة الامور على مشيئته تعالى فلا يذل من نصره وان قل عدده ولا يعز من خذله وان كثرت أسبابه وعدده. وقد روعي في الجواب نكتة بديعة حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة حسبما وقع في كلام أصحابهم مبالغة في رد مقالتهم و تسكين قلوبهم وهذا كما ترى جواب ناشئ من كمال ثقتهم بنصر الله تعالى وتوفيقه ولا دخل في ذلك لظن لقاء الله تعالى بالبعث لا سيما بالاستشهاد فان العلم به ربما يورث اليأس من الغلبة ولا لتوقع ثوابه تعالى ولا ريب في أن ماذكر في حيز الصلة ينبغي أن يكون مدارا للحكم الوارد على الموصول فلا أقل من أن يكون وصفا ملائما له فلعل المراد بلقائه تعالى لقاء نصره وتأييده عبر عنه بذلك مبالغة كما عبر عن مقارنة نصره تعالى بمقارنته سبحانه حيث قيل (والله مع الصابرين) فان المراد به معية نصره وتوفيقه حتما. وحملها على المعية بالاثابة كما فعل يأباه أنهم انما قالوه تتميما لجوابهم وتأييدا له بطريق الاعتراض التذييلي تشجيعا لاصحابهم وتثبيتا لهم على الصبر المؤدي الى الغلبة ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالاثابة قطعا وكذا الحال اذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جيء به تقريرا لكلامهم والمعنى قال الذين يظنون أو يعلمون من جهة النبي أو من جهة التابوت والسكينة أنهم ملاقوا نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله تعالى فنحن أيضا نغلب جالوت وجنوده وإيراد خبر أن اسما مع أن اللقاء مستقبل للدلالة على تقرره وتحققه (ولما برزوا) أي ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا الى براز من الارض في موطن الحرب (لجالوت وجنوده) وشاهدوا ماهم عليه من العدد والعدد وأيقنوا أنهم غير مطيقين بهم عادة (قالوا) أي جميعا عند تقوي قلوب الفريق الاول منهم بقول الفريق الثاني متضرعين الى الله تعالى مستعينين به (ربنا أفرغ علينا صبرا) على مقاساة شدائد الحرب واقتحام موارده الصعبة الضيقة وفي التوسل بوصف الربوبية

المنبئة عن التبليغ الى الكمال. و إيثار الافراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة ما لا يخفى (وثبت أقدامنا) فى مداحض القتال ومزال النزال وثبات القدم عبارة عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة لا مجرد التقرر فى حيز واحد (وانصرنا على القوم الكافرين) بقهرهم وهزمهم ووضع الكافرين فى موضع الضمير العائد الى جالوت وجنوده للاشعار بعلة النصر عليهم ولقد راعوا فى الدعاء ترتيبا بديعا حيث قدموا سؤال افراغ الصبر الذي هو ملاك الامر ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه ثم سؤال النصر الذي هو الغاية القصوى (فهزموهم) أى كسروهم بلا مكث (باذن الله) بنصره وتأييده إجابة لدعائهم. و إيثار هذه الطريقة على طريقة قوله عز وجل فآتاهم الله ثواب الدنيا الخ للمحافظة على مضمون قولهم غلبت فئة كثيرة باذن الله (وقتل داود جالوت) كان ايشا أبو داود فى عسكر طالوت معه ستة من بنيه و كان داود عليه السلام سابعهم و كان صغيرا يرعى الغنم فأوحى الله تعالى الى نبيهم أنه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد مر فى طريقه بثلاثة أحجار قال له كل منها أحملنا فانك بنا تقتل جالوت فحملها فى مخلاته قيل لما أبطأ على أبيه خبر اخوته فى المصاف أرسل داود اليهم ليأتيه بخبرهم فأتاهم وهم فى القراع وقد برز جالوت بنفسه الى البراز ولا يكاد يبارزه أحد و كان ظله ميلا فقال داود لاخوته أما فيكم من يخرج الى هذا الاقلف فزجروه فنحا ناحية أخرى ليس فيها اخوته وقد مر به طالوت و هو يحرض الناس على القتال فقال له داود ما تصنعون بمن يقتل هذا الاقلف قال طالوت أنكحه بنتى وأعطيه شطر مملكتى فبرز له داود فرماه بما معه من الاحجار بالمقلاع فأصابه فى صدره فنفذ الاحجار منه وقتلت بعده ناساً كثيرا وقيل انما كلمته الاحجار عند بروزه لجالوت في المعركة فأنجز له طالوت ما وعده. وقيل أنه حسده وأخرجه من مملكته ثم ندم على ما صنعه فذهب يطلبه الى أن قتل وملك داود عليه السلام وأعطى النبوة وذلك تعالى (وآتاه الله الملك) أى ملك بنى اسرائيل فى مشارق الارض المقدسة ومغاربها (والحكمة) أى النبوة ولم يجتمع فى بنى اسرائيل الملك والنبوة قبله الاله بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط آخر وما اجتمعوا قبله على ملك قط (وعلمه مما يشاء) أى مما يشاء الله تعالى تعليمه إياه لا مما يشاء داود عليه السلام كما قيل لان معظم ما علمه تعالى اياه مما لا يكاد يخطر ببال أحد ولا يقع فى أمنية بشر ليتمكن من طلبه و مشيئته كالسرد بالانة الحديد ومنطق الطير والدواب ونحو ذلك من الامور الخفية (ولولا دفع الله الناس بعضهم) الذين يباشرون الشر والفساد (ببعض) آخر منهم بردهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل كما فى القصة

المحكية أو غيره. وقرئ دفاع الله على أن صيغة المغالبة للمبالغة (لفسدت الارض) و بطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الارض و يصلحها. وقيل لولا أن الله ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الارض بعيثهم وقتلهم المسلمين أو لم يدفعهم بالمسلمين لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الارض قاطبة (ولكن الله ذو فضل) عظيم لايقادر قدره (على العالمين) كافة وهذا اشارة الى قياس استثنائي مؤلف من وضع نقيض المقدم منتج لنقيض التالي خلا أنه قد وضع موضعه مايستتبعه ويستوجبه أعني كونه تعالى ذا فضل على العالمين ايذانا بأنه تعالى متفضل في ذلك الدفع من غير أن يجب عليه ذلك وأن فضله تعالى غير منحصر فيه بل هو فرد من أفراد فضله العظيم كانه قيل ولكنه تعالى يدفع فساد بعضهم ببعض فلا تفسد الارض وتنتظم به مصالح العالم وتصلح أحوال الامم (تلك) أشارة الى ماسلف من حديث الالوف وخبر طالوت على التفصيل المرقوم ومافيه معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه (آيات الله) المنزلة من عنده تعالى والجملة مستأنفة وقوله تعالى (نتلوها عليك) أي بواسطة جبريل عليه السلام أما حال من الآيات والعامل معنى الاشارة وأما جملة مستقلة لامحل لها من الاعراب (بالحق) في حيز النصب على أنه حال من مفعول نتلوها أى متلبسة باليقين الذي لايرتاب فيه أحد من أهل الكتاب وأرباب التواريخ لما يجدونها موافقة لما في كتبهم أو من فاعله أي نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب أو من الضمير المجرور أي متلبسا بالحق والصدق (وانك لمن المرسلين) أي من جملة الذين أرسلوا الى الامم لتبليغ رسالاتنا واجراء أوامرنا وأحكامنا عليهم فان هذه المعاملة لاتجرى بيننا وبين غيرهم فهى شهادة منه سبحانه برسالته عليه الصلاة والسلام أثر بيان مايستوجبها والتأكيد من مقتضيات مقام الجاحدين بها (تلك الرسل) استئناف فيه رمز الى أنه عليه الصلاة والسلام من أفاضل الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام اثر بيان كونه من جملتهم والاشارة الى الجماعة الذين من جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم فاللام فى المآل للاستغراق ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم. وقيل الذين ذكرت قصصهم فى السورة. وقيل الى الذين ثبت علمه صلى الله عليه وسلم بهم فضلنا بعضهم على بعض فى مراتب الكمال بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمآثر جليلة خلا عنها غيره (منهم من كلم الله) تفصيل للتفضيل المذكور اجمالا أى فضله بأن كلمه تعالي بغير سفير وهو موسى عليه الصلاة والسلام حيث كلمه تعالى ليلة الحيرة وفى الطور. وقرئ كلم الله بالنصب وقرئ كالم الله من المكالمة فانه كلم الله تعالى كما أنه تعالي كلمه ويؤيده كليم الله بمعنى

مكالمه. و ايراد الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة و الرمز الى مابين التكليم والرفع و بين ماسبق من مطلق التفصيل و ما لحق من ايتاء البينات و التأييد بروح القدس من التفاوت (و رفع بعضهم درجات) أى و منهم من رفعه على غيره من الرسل المتفاوتين فى معارج الفضل بدرجات قاصية و مراتب نائية و تغيير الاسلوب لتربية مابينهم من اختلاف الحال فى درجات الشرف و الظاهر أنه رسول الله صلى الله عليه و سلم كما ينبئ عنه الاخبار بكونه عليه الصلاة و السلام منهم فان ذلك فى قوة بعضهم فانه قد خص بالدعوة العامة و الحجج الجمة و المعجزات المستمرة و الآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور و الفضائل العلمية و العملية الفائتة للحصر . و الابهام لتفخيم شأنه و للاشعار بانه العلم الفرد الغنى عن التعيين. و قيل أنه ابراهيم عليه الصلاة و السلام حيث خصه تعالى بكرامة الخلة. و قيل ادريس عليه السلام حيث رفعه مكانا عليا. و قيل أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة و السلام (و آتينا عيسى بن مريم البينات) الآيات الباهرة و المعجزات الظاهرة من أحياء الموتى و ابراء الاكمه و الابرص و الاخبار بالمغيبات أو الانجيل (و أيدناه) أى قويناه بروح القدس بضم الدال. و قرئ بسكونها أى بالروح المقدسه كقولك رجل صدق و هى روح عيسى و انما وصفت بالمقدس للكرامة أو لانه عليه السلام لم تضمه الاصلاب و الارحام الطوامث. و قيل بجبريل. و قيل بالانجيل كما مر. و افراده عليه السلام بما ذكر لرد مابين أهل الكتابين فى شأنه عليه السلام من التفريط و الافراط و الآية ناطقة بأن الانبياء عليهم السلام متفاوتة الاقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض و لكن بقاطع (ولو شاء الله مااقتتل الذين من بعدهم) أى جاءوا من بعد الرسل من الامم المختلفه أى لو شاء الله عدم اقتتالهم مااقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقه على كلمة الحق فمفعول المشيئه محذوف لكونه مضمون الجزاء على القاعدة المعروفة. و قيل تقديره ولو شاء هدى الناس جميعا مااقتتل الخ و ليس بذاك من بعد ماجاءتهم من جهة أولئك الرسل (البينات) المعجزات الواضحة و الآيات الظاهرة الدالة على حقية الحق الموجبة لاتباعهم الزاجرة عن الاعراض عن سننهم المؤدى الى الاقتتال فمن متعلقة باقتتل (و لكن اختلفوا) استدراك من الشرطية أشير به الى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض مقدمها منتج لنقيض تاليها الا أنه قد وضع فيه الاختلاف موضع نقيض المقدم المترتب عليه للايذان بأن الاقتتال ناشئ من قبلهم لامن جهته تعالى ابتداء كانه قيل و لكن لم يشأ عدم اقتتالهم لانهم اختلفوا اختلافا فاحشا (فمنهم من آمن) بما جاءت به أولئك الرسل من البينات و عملوا به (ومنهم من كفر) بذلك كفرا لاارعواء له عنه فاقتضت الحكمة عدم مشيئته

تعالى لعدم اقتتالهم فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم (ولوشاء الله) عدم اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضا من الاختلاف والشقاق المستتبعين للاقتتال بحسب العادة (ما اقتتلوا) وما نبض منهم عرق التطاول والتعادى لما أن الكل تحت ملكوته تعالى فالتكرير ليس للتأكيد كما ظن بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجبا لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم كما يفهم ذلك من وضعه فى الاستدراك موضعه بل هو سبحانه مختار فى ذلك حتى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا كما يفصح عنه الاستدراك بقوله عز وجل (ولكن الله يفعل ما يريد) أى من الامور الوجودية والعدمية التى من جملتها عدم مشيئته عدم اقتتالهم فان الترك أيضا من جملة الافعال أي يفعل ما يريد حسبما يريد من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانع . وفيه دليل بين على أن الحوادث تابعة لمشيئته سبحانه خيرا كان أو شرا ايمانا كان أو كفرا (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا) فى سبيل الله (مما رزقناكم) أى شيئا مما رزقناكموه على أن ما موصولة حذف عائدها والتعرض لوصوله منه تعالى للحث على الانفاق كما فى قوله تعالى «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» والمراد به الانفاق الواجب بدلالة ما بعده من الوعيد (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) كلمة من متعلقة بما تعلقت به أختها ولا ضير فيه لاختلاف معنيهما فان الاولى تبعيضية وهذه لابتداء الغاية أي أنفقوا بعض ما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لاتقدرون على تلافى ما فرطتم فيه اذ لا تبايع فيه حتى تبتايعوا ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب ولا خلة حتى يسامحكم به أخلاؤكم أو يعينوكم عليه ولا شفاعة الا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولا حتى تتوسلوا بشفعاء يشفعون لكم فى حط ما فى ذمتكم وانما رفعت الثلاثة مع قصد التعميم لانها فى التقدير جواب هل فيه بيع أوخلة أوشفاعة . وقرئ بفتح الكل (والكافرون) أى والتاركون للزكاة . وأيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما فى قوله تعالى ومن كفر مكان ومن لم يحج وللايذان بان ترك الزكاة من صفات الكفار قال تعالى «وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة» (هم الظالمون) أي الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب ووضعوا المال فى غير موضعه وصرفوه الى غير وجهه (الله لا اله الا هو) مبتدأ وخبر أى هو المستحق للمعبودية لاغير . وفى اضمار خبر لا مثل فى الوجود أو يصح أن يوجد خلاف للنحاة معروف (الحى) الباقى الذى لا سبيل عليه للموت والفناء وهو اما خبر ثان أو خبر مبتدا محذوف أو بدل من لا اله الا هو أو بدل من الله أو صفة له ويعضده القراءة بالنصب على المدح لاختصاصه بالنعت (القيوم) فيعول من قام بالأمر

اذا حفظه أي دائم القيام بتدبير الخلق وحفظه وقيل هو القائم بذاته المقيم لغيره (لا تأخذه سنة ولا نوم) السنة ما يتقدم النوم من الفتور قال عدي بن الرقاع العاملي:

وسنان أقصده النعاس فرنقت ... في عينه سنة وليس بنائم

والنوم حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الابخرة المتصاعدة بحيث تقف المشاعر الظاهرة عن الاحساس رأسا والمراد بيان انتفاء اعتراء شيء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى لا لانهما قاصران بالنسبة الى القوة الالهية فانه بمعزل من مقام التنزيه فلا سبيل الى حمل النظم الكريم على طريقة المبالغة والترقي بناء على أن القادر على دفع السنة قد لا يقدر على دفع النوم القوي كما في قولك فلان يقظ لا تغلبه سنة ولا نوم. وانما تأخير النوم للمحافظة على ترتيب الوجود الخارجي وتوسيط كلمة لا للتنصيص على شمول النفي لكل منهما. كما في قوله عز وجل «ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة» الآية. وأما التعبير عن عدم الاعتراء والعروض بعدم الاخذ فلمراعاة الواقع اذ عروض السنة والنوم لمعروضهما انما يكون بطريق الاخذ والاستيلاء وقيل هو من باب التكميل والجملة تأكيد لما قبلها من كونه تعالى حيا قيوما فان من يعتريه أحدهما يكون مؤوف الحياة قاصرا في الحفظ والتدبير. وقيل استئناف مؤكد لما سبق. وقيل حال مؤكدة من الضمير المستكن في القيوم (له ما في السموات وما في الارض) تقرير لقيوميته تعالى واحتجاج به على تفرده في الالوهية والمراد بما فيهما ماهو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الامور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) بيان لكبرياء شأنه وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريده شفاعة وضراعة فضلا عن ان يدافعه عنادا أو مناصبة (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أي ما قبلهم وما بعدهم أو بالعكس لانك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضي أو أمور الدنيا وأمور الآخرة أو بالعكس أو ما يحسونه وما يعقلونه أو ما يدركونه وما لا يدركونه والضمير لما في السموات الارض بتغلب ما فيهما من العقلاء على غيرهم أو لما دل عليه من ذا الذي من الملائكة والانبياء عليهم الصلاة والسلام (ولا يحيطون بشيء من علمه) أي من معلوماته (الا بما شاء) أن يعلموه وعطفه على ما قبله لما أنهما جميعا دليل على تفرده تعالى بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته (وسع كرسيه السموات والارض) الكرسي ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد وكانه منسوب الى الكرسي الذي هو الملبد. وليس ثمة كرسي ولا قاعد ولا قعود وانما هو تمثيل لعظمة شأنه عز وجل وسعة سلطانه واحاطة علمه بالاشياء قاطبة على طريقة قوله عز قائلا «وماقدروا الله حق قدره»

والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه» وقيل كرسيه مجاز عن علمه أخذا من كرسي العالم. وقيل عن ملكه أخذا من كرسي الملك فان الكرسي كلما كان أعظم تكون عظمة القاعد أكثر وأوفر فعبر عن شمول علمه أو عن بسطة ملكه وسلطانه بسعة كرسيه واحاطته بالاقطار العلوية والسفلية. وقيل هو جسم بين يدى العرش محيط بالسموات السبع لقوله صلى الله عليه وسلم «ما السموات السبع والارضون السبع مع الكرسي إلا كحلقة في فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» ولعله الفلك الثامن وعن الحسن البصري انه العرش (ولا يؤده) أي لا يثقله ولا يشق عليه (حفظهما) أى حفظ السموات والارض وانما لم يتعرض لذكر ما فيهما لما أن حفظهما مستتبع لحفظه (وهو العلى) المتعالى بذاته عن الاشياء والانداد (العظيم) الذى يستحقر بالنسبة اليه كل ما سواه ولما ترى من انطواء هذه الآية الكريمة على أمهات المسائل الالهية المتعلقة بالذات العلية والصفات الجلية فانها ناطقة بانه تعالى موجود متفرد بالالهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجد لغيره لما أن القيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا مناسبة بينه وبين الاشباح ولا يعتريه ما يعترى النفوس والارواح مالك الملك والملكوت ومبدع الاصول والفروع ذو البطش الشديد لا يشفع عنده الا من أذن له فيه العالم وحده بجميع الاشياء جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة لكل ما من شأنه أن يملك ويقدر عليه لا يشق عليه شاق ولا يشغله شأن متعال عما تناله الاوهام عظيم لا تحدق به الافهام تفردت بفضائل رائقة وخواص فائقة خلت عنها أخواتها قال صلى الله عليه وسلم «ان أعظم آية فى القرآن آية الكرسي من قرأها بعث الله تعالى ملكا يكتب من حسناته ويمحو من سيئاته الى الغد من تلك الساعة» وقال عليه الصلاة والسلام «ما قرئت هذه الآية فى دار الا هجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة يا على علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية اعظم منها» وقال عليه السلام «من قرأ آية الكرسي فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الا الموت ولا يواظب عليها الا صديق أو عابد ومن قرأها اذا أخذ مضجعه آمنه الله تعالى على نفسه وجاره وجار جاره والابيات حوله» وقال عليه الصلاة والسلام «سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الايام يوم الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن سورة البقرة وسيد البقرة آية الكرسي» وتخصيص سيادته صلى الله

عليه وسلم للعرب بالذكر فى أثناء تعداد السادات الخاصة لايدل على نفى مادلت عليه
الاخبار المستفيضة وانعقد عليه الاجماع من سيادته عليه السلام لجميع أفراد البشر
(لا اكراه فى الدين) جملة مستأنفة جيء بها اثر بيان تفرده سبحانه وتعالى بالشئون
الجليلة الموجبة للايمان به وحده ايذانا بان من حق العاقل أن لايحتاج الى التكليف
والالزام بل يختار الدين الحق من غير ترددو تلعثم. وقيل هو خبر فى معنى النهى أي لاتكرهوا
فى الدين فقيل منسوخ بقوله تعالى «جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم» وقيل خاص
بأهل الكتاب حيث حصنوا أنفسهم بأداء الجزية وروى أنه كان لانصارى من
بنى سالم بن عوف ابنان قد تنصرا قبل مبعثه عليه السلام ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما
وقال والله لاأدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت
فخلاهما (قد تبين الرشد من الغى) استئناف تعليلى صدر بكلمة التحقيق لزيادة تقرير
مضمونه كما فى قوله عز وجل «قد بلغت من لدنى عذرا» أى اذ قد تبين بما ذكر من نعوته
تعالى التى يمتنع توهم اشتراك غيره فى شيء منها الايمان الذى هو الرشد الموصل الى
السعادة الابدية من الكفر الذى هو الغى المؤدي الى الشقاوة السرمدية (فمن يكفر
بالطاغوت) هو بناء مبالغة من الطغيان كالملكوت والجبروت قلب مكان عينه ولامه
فقيل هو فى الاصل مصدر واليه ذهب الفارسى. وقيل اسم جنس مفرد مذكر وانما الجمع
والتأنيث لارادة الآلهة وهو رأى سيبويه. وقيل هو جمع وهو مذهب المبرد. وقيل يستوى
فيه الافراد والجمع والتذكير والتأنيث أى فمن يعمل اثر ماتميز الحق من الباطل بموجب
الحجج الواضحة والآيات البينة ويكفر بالشيطان أو بالاصنام وبكل ماعبد من دون
الله تعالى أو صد عن عبادته تعالى لما تبين له كونه بمعزل من استحقاق العبادة (ويؤمن
بالله) وحده لما شاهد من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الالوهية به عز وجل
الموجبة للايمان والتوحيد وتقديم الكفر بالطاغوت على الايمان به تعالى لتوقفه عليه
فان التخلية متقدمة على التحلية (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى بالغ فى التمسك
بها كأنه وهو ملتبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه (لا انفصام لها) الفصم
الكسر بغير ابانة كما أن القصم هو الكسر بابانة ونفى الاول يدل على انتفاء الثانى
بالاولوية والجملة اما استئناف مقرر لما قبلها من وثاقة العروة واما حال من العروة
والعامل استمسك أو من الضمير المستتر فى الوثقى ولها فى حيز الخبر أى كائن لها
والكلام تمثيل مبنى على تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق الذي
لايحتمل النقيض أصلا لثبوته بالبراهين النيرة القطعية بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك

بالحبل المحكم المأمون انقطاعه فلا استعارة فى المفردات . ويجوز أن تكون العروة الوثقى مستعارة للاعتقاد الحق الذى هو الايمان والتوحيد لا للنظر الصحيح المؤدى اليه كما قيل فانه غير مذكور فى حيز الشرط والاستمساك بها مستعارا لما ذكر من الملازمة أو ترشيحا للاستعارة الاولى (والله سميع) بالاقوال (عليم) بالعزائم والعقائد والجملة اعتراض تذييلى حامل على الايمان رادع عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد(الله ولى الذين آمنوا) أى معينهم أو متولى أمورهم والمراد بهم الذين ثبت فى علمه تعالى ايمانهم فى الجملة مآلا أو حالا (يخرجهم) تفسير للولاية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة أو حال من الضمير فى ولى (من الظلمات) التى هى أعم من ظلمات الكفر والمعاصى وظلمات الشبه بل مما فى بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس الى مراتبها القوية الجلية بل مما فى جميع مراتبها بالنظر الى مرتبة العيان كما ستعرفه (الى النور) الذى يعم نور الايمان ونور الايقان بمراتبه ونور العيان أى يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التى وقع فيها الى ما يقابلها من النور وافراد النور لوحدة الحق كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال (والذين كفروا) أي الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم (أولياؤهم الطاغوت) أى الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق فالموصول مبتدأ وأولياؤهم مبتدأ ثان والطاغوت خبره والجملة خبر للاول والجملة الحاصلة معطوفة على ماقبلها ولعل تغيير السباك للاحتراز عن وضع الطاغوت فى مقابلة الأسم الجليل ولقصد المبالغة بتكرير الاسناد مع الايماء الى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضا (يخرجونهم) بالوساوس وغيرها من طرق الاضلال والاغواء (من النور) الفطري الذى جبل عليه الناس كافة أو من نور البينات التى يشاهدونها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم بتنزيل تمكنهم من الاستضاءة بها منزلة نفسها (الى الظلمات) ظلمات الكفر والانهماك فى الغى . وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الاسلام والجملة تفسير لولاية الطاغوت أو خبر ثان كما مر واسناد الاخراج من حيث السببية الى الطاغوت لا يقدح فى استناده من حيث الخلق الى قدرته سبحانه(أولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما يتبعه من القبائح (أصحاب النار) أى ملابسوها وملازموها بسبب مالهم من الجرائم (هم فيها خالدون) ماكثون أبدا (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه) استشهاد على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى «ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون» كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها. وانما بدىء بهذا لرعاية الاقتران بينه و بين

مدلوله ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بان يصدر به المقال وهو اجتراؤه على المحاجة فى الله عز وجل وما أتى بها فى أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته ولان فيما بعده تعددا وتفصيلا يورث تقديمه انتشار النظم على أنه قد أشير فى تضاعيفه الى هداية الله تعالى أيضا بواسطة ابراهيم عليه السلام فان ما يحكى عنه من الدعوة الى الحق وادحاض حجة الكافر من آثار ولايته تعالى. وهمزة الاستفهام لانكار النفى وتقرير المنفى أي ألم تنظر وألم ينته علمك الى هذا الطاغوت المارد كيف تصدي لاضلال الناس واخراجهم من النور الى الظلمات أي قد تحققت الرؤية وتقررت بناء على أن أمره من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب فظهر أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الي ضميره عليه السلام تشريف له وايذان لتاييده فى المحاجة (أن آتاه الله الملك) أى لأن آتى اياه حيث أبطره ذلك وحمله على المحاجة أو حاجه لاجله وضعا للمحاجة التي هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر كما يقال عاديتنى لأن أحسنت اليك أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع ايتاء الله الملك للكافر (اذ قال ابراهيم) ظرف لحاج أو بدل من آتاه على الوجه الاخير (ربى الذى يحيى ويميت) بفتح ياء ربى. وقرىء بحذفها. روى انه عليه الصلاة والسلام لما كسر الاصنام سجنه ثم أخرجه فقال من ربك الذي تدعو اليه قال ربى الذي يحيي ويميت أي يخلق الحياة والموت فى الاجساد (قال) استئناف مبني على السؤال كانه قيل كيف حاجه فى هذه المقالة القوية الحقة فقيل قال (أنا أحيي وأميت) روى انه دعا برجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر فقال ذلك (قال ابراهيم) استئناف كما سلف كأنه قيل فاذا قال ابراهيم لمن فى هذه المرتبة من الحماقة وبماذا أفحمه فقيل قال (فان الله يأتى بالشمس من المشرق) حسبما تقتضيه مشيئته (فأت بها من المغرب) ان كنت قادرا على مثل مقدوراته تعالى لم يلتفت عليه السلام الى ابطال مقالة اللعين ايذانا بان بطلانها من الجلاء والظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد وأن التصدي لابطالها من قبيل السعى فى تحصيل الحاصل وأتى بمثال لا يجد اللعين فيه مجالا للتمويه والتلبيس (فبهت الذى كفر) أى صار مبهوتا. وقرىء على بناء الفاعل على أن الموصول مفعوله أى فغلب ابراهيم الكافر وأسكته وايراد الكفر فى حيز الصلة للاشعار بعلة الحكم والتنصيص على كون المحاجة كفرا (والله لا يهدي القوم الظالمين) تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى لا يهدي الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب المخلد بسبب اعراضهم عن قبول الهداية الى مناهج الاستدلال أو الى سبيل النجاة أو الى طريق الجنة يوم القيامة

(أو كالذي مر على قرية) استشهاد على ما ذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير له معطوف على الموصول السابق.وايثار أو الفارقة على الواو الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الامر . والكاف اما اسمية كما اختاره قوم جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر كما فى قولك الفعل الماضى مثل نصر واما زائدة كما ارتضاه آخرون والمعنى أولم تر الي مثل الذى أو الى الذى مر على قرية كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه الى نور العيان والشهود أى قد رأيت ذلك وشاهدته فاذن لا ريب فى أن الله ولى الذين آمنوا الخ هذا . وأما جعل الهمزة لمجرد التعجيب على أن يكون المعنى فى الاول ألم تنظر الي الذي حاج الخ أى انظر اليه وتعجب من أمره وفى الثانى أو أرأيت مثل الذي مر الخ ايذانا بان حاله وما جرى عليه فى الغرابة بحيث لا يرى له مثل كما استقر عليه رأى الجمهور فغير خليق بجزالة التنزيل وفخامة شأنه الجليل فتدبر . والمار هو عزير بن شرخيا قاله قتادة والربيع وعكرمة وناجية بن كعب وسليمان بن يزيد والضحاك والسدى رضى الله عنهم. وقيل هو أرمياء بن حلقيا من سبط هرون عليه السلام قاله وهب وعبيد الله بن عمير.وقيل أرمياء هو الخضر بعينه وقال مجاهد كان المار رجلا كافرا بالبعث وهو بعيد.والقرية بيت المقدس قاله وهب وعكرمة والربيع وقيل هى دير هرقل على شط دجلة وقال الكلبي هى دير سابر آباد وقال السدي هى دير سلماباد والاول هو الاظهر والاشهر روى ان بنى اسرائيل لما بالغوا فى تعاطى الشر والفساد وجاوزوا فى العتو والطغيان كل حد معتاد سلط الله تعالى عليهم بختنصر البابلى فسار اليهم فى ستمائة ألف راية حتى وطىء الشام وخرب بيت المقدس وجعل بني اسرائيل أثلاثا ثلث منهم قتلهم وثلث منهم أقرهم بالشام وثلث منهم سباهم وكانوا مائة ألف غلام يافع وغير يافع فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل ملك منهم أربعة غلمة وكان عزير من جملتهم فلما نجاه الله تعالى منهم بعد حين مر بحماره على بيت المقدس فرآه على أفظع مرأى وأوحش منظر وذلك قوله عز وجل (وهى خاوية على عروشها) أى ساقطة على سقوفها بأن سقطت العروش ثم الحيطان من خوى البيت اذا سقط أو من خوت الأرض أي تهدمت.والجملة حال من ضمير مر أو من قرية عند من يجوز الحال من النكرة مطلقا (قال) أى تلهفا عليها وتشوقا الى عمارتها مع استشعار اليأس عنها (أنى يحيى هذه الله) وهى على ما يرى من الحالة العجيبة المباينة للحياة وتقديمها على الفاعل للاعتناء بها من حيث ان الاستبعاد ناشىء من جهتها لا من جهة الفاعل.وأنى نصب على الظرفية ان كانت بمعنى متى وعلى الحالية من هذه ان كانت بمعنى كيف والعامل يحيى وأياما كان فالمراد استبعاد عمارتها

بالبناء والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا أيدى سبا ومن غيرهم. وانما عبر عنها بالاحياء الذى هو علم فى البعد عن الوقوع عادة تهويلا للخطب وتأكيدا للاستبعاد كما أنه لاجله عبر عن خرابها بالموت حيث قيل (بعد موتها) وحيث كان هذا التعبير معربا عن استبعاد الاحياء بعد الموت على أبلغ وجه وآكده أراه الله عز وجل آثر ذى أثير أبعد الامرين فى نفسه ثم فى غيره ثم أراه ما استبعده صريحا مبالغة فى ازاحة ما عسى يختلج فى خلده وأما حمل احيائها على احياء أهلها فيأباه التعرض لحال القرية دون حالهم والاقتصار على ذكر موتهم دون كونهم ترابا وعظاما مع كونه أدخل فى الاستبعاد لشدة مباينته للحياة وغاية بعده عن قبولها على أنه لم تتعلق ارادته تعالى باحيائهم كما تعلقت بعمارتها ومعاينة المار لها كما ستحيط به خبرا (فأماته الله) وألبثه على الموت (مائة عام) روى أنه لما دخل القرية ربط حماره فطاف بها ولم ير بها أحدا فقال ما قال وكانت أشجارها قد أثمرت فتناول من التين والعنب وشرب من عصيره ونام فأماته الله تعالى فى منامه وهو شاب وأمات حماره وبقية تينه وعنبه وعصيره عنده ثم أعمى الله تعالى عنه عيون المخلوقات فلم يره أحد فلما مضى من موته سبعون سنة وجه الله عز وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس يقال له يوشك الى بيت المقدس ليعمره ومعه ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل فجعلوا يعمرونه وأهلك الله تعالى بختنصر ببعوضة دخلت دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى اسرائيل وردهم الى بيت المقدس وتراجع اليه من تفرق منهم فى الاكناف فعمروه ثلاثين سنة وكثروا وكانوا كاحسن ما كانوا عليه فلما تمت المائة من موت عزير أحياه الله تعالى وذلك قوله تعالى (ثم بعثه) وايثاره على أحياه للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على البارى تعالى كانه بعثه من النوم وللايذان بأنه أعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال له بعد بعثه فقيل قال (كم لبثت) ليظهر له عجزه عن الاحاطة بشؤنه تعالى وان احياءه ليس بعد مدة يسيرة ربما يتوهم أنه هين فى الجملة بل بعد مدة طويلة وينحسم به مادة استبعاده بالمرة ويطلع فى تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى وهو ابقاء الغذاء المتسارع الى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرا طويلا من غير تغير ما. وكم نصب على الظرفية مميزها محذوف أى كم وقتا لبثت والقائل هو الله تعالى أو ملك مأمور بذلك من قبله تعالى قيل نودى من السماء يا عزير كم لبثت بعد الموت (قال لبثت يوما أو بعض يوم) قاله بناء على التقريب والتخمين أو استقصارا لمدة لبثه وأما ما يقال من أنه مات ضحى وبعث بعد المائة

قبيل الغروب فقال قبل النظر الى الشمس يوما فالتفت اليها فرأى منها بقية فقال أو بعض يوم على وجه الاضراب فبمعزل من التحقيق اذ لا وجه للجزم بتمام اليوم ولو بناء على حسبان الغروب لتحقق النقصان من أوله (قال) استئناف كما سلف (بل لبثت مائة عام) عطف على مقدر أي ما لبثت ذلك القدر بل هذا المقدار (فانظر) لتعاين أمراً آخر من دلائل قدرتنا (الى طعامك وشرابك لم يتسنه) أى لم يتغير في هذه المدة المتطاولة مع تداعيه الى الفساد. روي أنه وجد تينه وعنبه كما جنى وعصيره كما عصر. والجملة المنفية حال بغير واو كقوله تعالى «لم يمسسهم سوء» اما من الطعام والشراب وافراد الضمير لجريانهما مجرى الواحد كالغذاء واما من الاخير اكتفاء بدلالة حاله على حال الاول ويؤيده قراءة من قرأ وهذا شرابك لم يتسن. والهاء أصلية أو هاء سكت واشتقاقه من السنة لما أن لامها هاء أو واو وقيل أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فقلبت نونه حرف علة كما في تقضى البازى وقد جوز أن يكون معنى لم يتسنه لم يمر عليه السنون التي مرت لاحقيقة بل تشبيها أى هو على حاله كانه لم يلبث مائة عام. وقرئ لم يسنه بادغام التاء في السين (وانظر الى حمارك) كيف نخرت عظامه وتفرقت وتقطعت أوصاله وتمزقت ليتبين لك ماذكر من اللبث المديد وتطمئن به نفسك وقوله عز وجل (ولنجعلك آية للناس) عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ماسبق أى فعلنا مافعلنا من احيائك بعد ماذكر لتعاين مااستبعدته من الاحياء بعد دهر طويل ولنجعلك آية للناس الموجودين في هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية ويأخذوا منك ماطوى عنهم منذ أحقاب من علم التوراة كما سيأتي أو متعلق بفعل مقدر بعده أى ولنجعلك آية لهم على الوجه المذكور فعلنا مافعلنا فهو على التقديرين دليل على ماذكر من اللبث المديد ولذلك فرق بينه وبين الامر بالنظر الى حماره. وتكرير الامر في قوله تعالى (وانظر الى العظام) مع أن المراد عظام الحمار أيضا لما أن المأمور به أولا هو النظر اليها من حيث دلالتها على ماذكر من اللبث المديد وثانيا هو النظر اليها من حيث تعتريها الحياة ومباديها أى وانظر الى عظام الحمار لتشاهد كيفية الاحياء في غيرك بعد ماشاهدت نفسه في نفسك (كيف ننشزها) بالزاى المعجمة أى نرفع بعضها الى بعض ونردها الى أماكنها من الجسد فنركبها تركيبا لائقا بها وقال الكسائى نلينها ونعظمها ولعل من فسره بنحييها أراد بالاحياء هذا المعنى وكذا من قرأ ننشرها بالراء من أنشر الله تعالى الموتى أى أحياها لامعناه الحقيقي لقوله تعالى (ثم نكسوها لحما) أى نسترها به كما يستر

الجسد باللباس.وأما من قرأ ننشرها بفتح النون وضم الشين فلعله أراد به ضد الطى كما قال الفراء فالمعنى كيف نبسطها والجملة أما حال من العظام أى وانظر اليها مركبة مكسوة لحما أو بدل اشتمال أى وانظر الى العظام كيفية انشازها وبسط اللحم عليها ولعل عدم التعرض لكيفية نفخ الروح لما انها مما لاتقضى الحكمة بيانه روى انه نودى أيتها العظام البالية ان الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع كل جزء من أجزائها التى ذهب بها الطير والسباع وطارت بها الرياح فى سهل وجبل فانضم بعضها الى بعض والتصق كل عضو بما يليق به الضلع بالضلع والذراع بمحلها والرأس بموضعها ثم الاعصاب والعروق ثم انبسط عليه اللحم ثم الجلد ثم خرجت منه الشعور ثم نفخ فيه الروح فاذا هو قائم ينهق (فلما تبين له) أي مادل عليه الامر بالنظر اليه من كيفية الاحياء بمباديه والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الامر المذكور .وانما حذف للايذان بظهور تحققه واستغنائه عن الذكر وللاشعار بسرعة وقوعه كما فى قوله عز وجل « فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » كانه قيل فأنشزها الله تعالي وكساها لحما فنظر اليها فتبين له كيفيته فلما تبين له ذلك أى اتضح اتضاحا تاما (قال أعلم أن الله على كل شئ) من الاشياء التى من جملتها ماشاهده فى نفسه وفى غيره من تعاجيب الآثار (قدير) لايستعصى عليه أمر من الامور .وايثار صيغة المضارع للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظرا الى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل بل انما تبدل بالعيان وصفه.وفيه اشعار بأنه انما قال ماقال بناء على الاستبعاد العادى واستعظاما للامر وقد قيل فاعل تبين مضمر يفسره مفعول أعلم أي فلما تبين له أن الله على كل شئ قدير قال أعلم أن الله على كل شئ قدير فقدم .وقرئ تبين له على صيغة المجهول وقرئ قال اعلم على صيغة الامر.روى انه ركب حماره وأتى محلته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها عزير ياهذه هذا منزل عزير قالت نعم وأين ذكرى عزير قد فقدناه منذ كذا وكذا فبكت بكاء شديدا قال فانى عزير قالت سبحان الله أنى يكون ذلك قال قد أماتنى الله مائة عام ثم بعثنى قالت ان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة فادع الله لي يرد على بصرى حتى أراك فدعا ربه ومسح بيده عينيها فصحتا فاخذ بيدها فقال لها قومى باذن الله فقامت صحيحة كانها نشطت من عقال فنظرت اليه فقالت أشهد انك عزير فانطلقت الى محلة بنى اسرائيل وهم فى أنديتهم وكان فى المجلس ابن لعزير قد بلغ مائة وثمانى عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت انظروا فانى بدعائه رجعت الى هذه الحالة فنهض

الناس فأقبلوا اليه فقال ابنه كان لابي شامة سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فاذا هو كذلك وقد كان قتل بختنصر ببيت المقدس من قراءة التوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة ولا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفا فقال رجل من أولاد المسبيين ممن ورد بيت المقدس بعد مهلك بختنصر حدثني أبي عن جدي أنه دفن التوراة يوم سبينا في خابية في كرم فان أريتموني كرم جدي أخرجتها لكم فذهبوا الى كرم جده ففتشوا فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير من ظهر القلب فما اختلفا في حرف واحد فعند ذلك قالوا هو ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (واذ قال ابراهيم) دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين واخراجه لهم من الظلمات الى النور وانما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بان يقال أو كالذي قال رب الخ لجريان ذكره عليه السلام في اثناء المحاجة ولانه لادخل لنفسه عليه السلام في أصل الدليل كدأب عزير عليه السلام فان ماجرى عليه من احيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته . والظرف منتصب بمضمر صرح بمثله في نحو قوله تعالى « واذكروا اذ جعلكم خلفاء » أي واذكر وقت قوله عليه السلام وماوقع حينئذ من تعاجيب صنع الله تعالى لتقف على مامر من ولايته تعالى وهدايته . وتوجيه الامر بالذكر في أمثال هذه المواقع الى الوقت دون ماوقع فيه من الواقعات مع أنها المقصودة بالتذكير لما ذكر غير مرة من المبالغة في ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهاني ولان الوقت مشتمل عليها مفصلة فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها بحيث لايشذ عنها شيء مما ذكر عند الحكاية أولم يذكر كأنها مشاهدة عيانا (رب) كلمة استعطاف قدمت بين يدي الدعاء مبالغة في استدعاء الاجابة (أرني) من الرؤية البصرية المتعدية الى واحد وبدخول همزة النقل طلبت مفعولا آخر هو الجملة الاستفهامية المعلقة لها فانها تعلق كما يعلق النظر البصري أي اجعلني مبصراً (كيف تحيي الموتى) بان تحييها وانا انظر اليها . وكيف في محل نصب على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الاخفش والعامل فيها تحيي أي في أي حال أو على أي حال تحيي. قال القرطبي الاستفهام بكيف انما هو سؤال عن حال شيء متقرر الوجود عند السائل والمسئول فالاستفهام ههنا عن هيئة الاحياء المتقرر عند السائل أي بصرني كيفية احيائك للموتى . وانما سأله عليه السلام ليتأيد ايقانه بالعيان ويزداد قلبه اطمئنانا على اطمئنان . واما ماقيل من أن نمرود لما قال

أنا أحيي وأميت قال ابراهيم عليه السلام ان أحياء الله تعالى برد الارواح الى الاجساد فقال نمرود هل عاينته فلم يقدر على ان يقول نعم فانتقل الى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ذلك فيأباه تعليل السؤال بالاطمئنان (قال) استئناف كما مر غير مرة (أولم تؤمن) عطف على مقدر أى ألم تعلم ولم تؤمن بانى قادر على الاحياء كيف أشاء حتى تسألنى أراءته قال عز وعلا وهو أعلم بانه عليه السلام أثبت الناس ايمانا وأقواهم يقينا ليجيب بما أجاب به فيكون ذلك لطفاً للسامعين (قال بلى) علمت وآمنت بأنك قادر على الاحياء على أى كيفية شئت (ولكن) سألت ماسألت (ليطمئن قلبى) بمضامة العيان الى الايمان والايقان وازداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة (قال فخذ) الفاء لجواب شرط محذوف أى ان أردت ذلك فخذ (أربعة من الطير) قيل هو اسم لجمع طائر كركب وسفر وقيل جمع له كتاجر وتجر وقيل هو مصدر سمى به الجنس. وقيل هو تخفيف طير بمعنى طائر كهين فى هين ومن متعلقة بخذ أو بمحذوف وقع صفة لاربعة كائنة من الطير قيل هى طاوس وديك وغراب وحمامة وقيل نسر بدل الاخير. وتخصيص الطير بذلك لانه أقرب الى الانسان واجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتى مايفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك (فصرهن) من صاره يصوره أى أماله . وقرئ بكسر الصاد من صاره يصيره أى أملهن واضممهن وقرئ فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من صره يصره ويصره اذا جمعه وقرئ فصرهن من التصرية بمعنى الجمع أى اجمعهن (اليك) لتتأملها وتعرف شياتها مفصلة حتى تعلم بعد الاحياء أن جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الاول أصلا روى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ويمسك رءوسها ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً) أى جزئهن وفرق أجزاءهن على مابحضرتك من الجبال قيل كانت أربعة أجبل وقيل سبعة فجعل على كل جبل ربعاً أو سبعاً من كل طائر وقرئ بضمتين وجزاً بالتشديد بطرح همزته تخفيفاً ثم تشديده عند الوقف ثم اجراء الوصل مجرى لوقف (ثم ادعهن يأتينك) فى حيز الجزم على أنه جواب الامر ولكنه بنى لاتصاله بنون جمع المؤنث (سعيا) أى ساعيات مسرعات أو ذوات سعى طيرانا أو مشيا وانما اقتصر على حكاية أوامره عز وجل من غير تعرض لامتثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى كما روى انه عليه السلام نادى فقال تعالين باذن الله فجعل كل جزء منهن يطير الى صاحبه حتى صارت جثثاً ثم أقبلن الى

رءوسهن فانضمت كل جثة الى رأسها فعادت كل واحدة منهن الى ما كانت عليه من الهيئة للايذان بأن ترتب تلك الامور على الاوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لاحاجة له الى الذكر أصلا وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل و يمن الضراعة فى الدعاء وحسن الادب فى السؤال حيث أراه الله تعالى ماسأله فى الحال على أيسر مايكون من الوجوه وأرى عزير اما أراه بعدما أماته مائة عام (واعلم أن الله عزيز) غالب على أمره لايعجزه شيء عما يريده (حكيم) ذو حكمة بالغة فى أفاعيله فليس بناء أفعاله على الاسباب العادية لعجزه عن ايجادها بطريق آخر خارق للعادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) أى فى وجوه الخيرات من الواجب والنفل (كمثل حبة) لابد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة (أنبتت سبع سنابل) أى أخرجت ساقا تشعب منها سبع شعب لكل واحدة منها سنبلة (فى كل سنبلة مائة حبة) كما يشاهد ذلك فى الذرة والدخن و فى الاراضى المغلة بل أكثر من ذلك. واسناد الانبات الى الحبة مجازى كاسناده الى الارض والربيع و هذا التمثيل تصوير للاضعاف كأنها حاضرة بين يدى الناظر (والله يضاعف) تلك المضاعفة أو فوقها الى ماشاء الله تعالى (لمن يشاء) أن يضاعف له بفضله على حسب حال المنفق من اخلاصه و تعبه ولذلك تفاوتت مراتب الاعمال فى مقادير الثواب (والله واسع) لايضيق عليه مايتفضل به من الزيادة (عليم) بنية المنفق ومقدار انفاقه وكيفية تحصيل ما أنفقه (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) جملة مبتدأة جيء بها لبيان كيفية الانفاق الذى بين فضله بالتمثيل المذكور (ثم لايتبعون ماأنفقوا) أى ماأنفقوه أو انفاقهم (منا ولاأذى) المن أن يعتد على من أحسن اليه باحسانه و يريه أنه أوجب بذلك عليه حقا. والاذى أن يتطاول عليه بسبب انعامه عليه. وانما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة لا للدلالة على شمول النفى لاتباع كل واحد منهما. وثم لاظهار علو رتبة المعطوف. قيل نزلت فى عثمان رضى الله عنه حين جهز جيش العسرة بألف بعير باقتابها وأحلاسها وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه حين أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقة ولم يكد يخطر ببالهما شيء من المن والاذى (لهم أجرهم) أى حسبما وعدلهم فى ضمن التمثيل وهو جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا عن الموصول. وفى تكرير الاسناد وتقييد الاجر بقوله (عند ربهم) من التأكيد والتشريف مالايخفى وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ماقبلها لما بعدها للايذان بأن ترتب الاجر على ماذكر من الانفاق وترك اتباع المن والاذى

أمر بين لايحتاج الى التصريح بالسببية . وأما ايهام أنهم أهل لذلك وان لم يفعلوا فكيف بهم اذا فعلوا فيأباه مقام الترغيب فى الفعل والحث عليه (ولا خوف عليهم) فى الدارين من لحوق مكروه من المكاره (ولاهم يحزنون) لفوات مطلوب من المطالب قل أو جل أى لايعتريهم مايوجبه الا انه يعتريهم ذلك لكنهم لايخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور . كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته واستقصاراً للجد والسعى فى اقامة حقوق العبودية من خواص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام (قول معروف) أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يرد به السائل من غير اعطاء شئ (ومغفرة) أى ستر لما وقع من السائل من الالحاف فى المسئلة وغيره مما يثقل على المسئول وصفح عنه. وانما صح الابتداء بالنكرة فى الاول لاختصاصها بالوصف وفى الثانى بالعطف أو بالصفة المقدرة أى ومغفرة كائنة من المسئول (خير) أى للسائل (من صدقة يتبعها أذى) لكونها مشوبة بضرر مايتبعها وخلوص الاولين من الضرر والجملة مستأنفة مقررة لاعتبار ترك اتباع المن والاذى وتفسير المغفرة بنيل مغفرة من الله تعالى بسبب الرد الجميل أو بعفو السائل بناء على اعتبار الخيرية بالنسبة الى المسئول يؤدى الى أن يكون فى الصدقة الموصوفة بالنسبة اليه خير فى الجملة مع بطلانها بالمرة (والله غنى) لايحوج الفقراء الى تحمل مؤنة المن والاذى ويرزقهم من جهة أخرى (حليم) لايعاجل أصحاب المن والأذى بالعقوبة لا انهم لايستحقونها بسببهما والجملة تذييل لماقبلها مشتمل على الوعد والوعيد مقرر لاعتبار الخيرية بالنسبة الى السائل قطعا (يا أيها الذين آمنوا) أقبل عليهم بالخطاب أثر بيان مابين بطريق الغيبة مبالغة فى إيجاب العمل بموجب النهى (لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) أى لا تحبطوا أجرها بواحد منهما (كالذى) فى محل النصب إما على أنه نعت لمقدر محذوف أى لاتبطلوها ابطالا كابطال الذى (ينفق ماله رئاء الناس) واما على أنه حال من فاعل لاتبطلوا أى لا تبطلوها مشابهين الذى ينفق أى الذى يبطل انفاقه بالرياء . وقيل من ضمير المصدر المقدر على ماهو رأى سيبويه وانتصاب رئاء اما على انه علة لينفق أى لأجل رئائهم أو على أنه حال من فاعله أى ينفق ماله مرائيا والمراد به المنافق لقوله تعالى (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا (فمثله) الفاء لربط مابعدها بما قبلها أى فمثل المرائى فى الانفاق وحالته العجيبة (كمثل صفوان) أى حجر أملس

(عليه تراب) أي شيء يسير منه (فأصابه وابل) أي مطر عظيم القطر (فتركه صلدا) أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلا (لايقدرون على شيء مما كسبوا) لاينتفعون بما فعلوا رئاء ولايجدون له ثوابا قطعا كقوله تعالى «فجعلناه هباء منثورا» والجملة استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل لايقدرون الخ ومن ضرورة كون مثلهم كما ذكر كون مثل من يشبههم وهم أصحاب المن والاذى كذلك والضميران الاخيران للموصول باعتبار المعنى كما فى قوله عز وجل «وخضتم كالذي خاضوا» لما أن المراد به الجنس أو الجمع أو الفريق كما أن الضمائر الاربعة السابقة له باعتبار اللفظ (والله لايهدي القوم الكافرين) الى الخير والرشاد والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى من خصائص الكفار ولابد للمؤمنين أن يجتنبوها (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله) أي لطلب رضاه (وتثبيتا من أنفسهم) أي ولتثبيت بعض أنفسهم على الايمان فمن تبعيضية كما فى قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه فان المال شقيق الروح فمن بذل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فقد ثبتها كلها . أو وتصديقا للاسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم فمن ابتدائية كما فى قوله تعالى «حسدا من عند أنفسهم» ويحتمل أن يكون المعنى وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الايمان مخلصة فيه ويعضده قراءة من قرأ وتبيينا من أنفسهم وفيه تنبيه على أن حكمة الانفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال الذى هو رأس كل خطيئة (كمثل جنة بربوة) الربوة بالحركات الثلاث وقد قرئت بها المكان المرتفع أي مثل نفقتهم فى الزكاء كمثل بستان كائن بمكان مرتفع مأمون من أن يصطلمه البرد للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له فان أشجار الربا تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا وأما الأراضى المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة هوائها بركود الرياح . وقرئ كمثل حبة (أصابها وابل) مطر عظيم القطر (فآتت أكلها) ثمرتها . وقرئ بسكون الكاف تخفيفا (ضعفين) أي مثلى ما كانت تثمر فى سائر الأوقات بسبب ما أصابها من الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثال ونصبه على الحال من أكلها أي مضاعفا (فان لم يصبها وابل فطل) أي فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها . وقيل فيصيبها طل وهو المطر الصغير القطر وقيل فالذى يصيبها طل والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لا تضيع بحال وان كانت تتفاوت باعتبار ما يقارنها من الأحوال ويجوز أن يعتبر التمثيل بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها

من المطر الكثير واليسير فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى زاكية زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عند الله (والله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه شيء منه وهو ترغيب فى الاخلاص مع تحذير من الرياء ونحوه (أيود أحدكم) الود حب الشيء مع تمنيه ولذلك يستعمل استعمالها والهمزة لانكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى لا لانكار الواقع كما فى قولك أتضرب أباك على أن مناط الانكار ليس جميع ما تعلق به الود بل انما هو اصابة الاعصار وما يتبعها من الاحتراق (أن تكون له جنة) وقرىء جنات (من نخيل وأعناب) أى كائنة منهما على أن يكون الأصل والركن فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقى من المستتبعات لا على أن لا يكون فيها غيرهما كما ستعرفه. والجنة تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة قال زهير:

كأن عيني فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

وعلى الأرض المشتملة عليها والاول هو الانسب بقوله عز وجل (تجرى من تحتها الأنهار) اذ على الثانى لا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وكذا لا بد من جعل اسناد الاحتراق اليها فيما سيأتى مجازيا. والجملة فى محل الرفع على أنها صفة جنة كما أن قوله تعالى من نخيل وأعناب كذلك أو فى محل النصب على أنها حال منها لانها موصوفة (له فيها من كل الثمرات) الظرف الاول خبر والثانى حال والثالث مبتدأ أى صفة المبتدا قائمة مقامه أى له رزق من كل الثمرات كما فى قوله تعالى «ومامنا الا له مقام معلوم» أى وما منا أحد الا له الخ وليس المراد بالثمرات العموم بل انما هو التكثير كما فى قوله تعالى «وأوتيت من كل شيء» (وأصابه الكبر) أى كبر السن الذي هو مظنة شدة الحاجة الى منافعها ومئنة كمال العجز عن تدارك أسباب المعاش والواو حالية أى وقد أصابه الكبر (وله ذرية ضعفاء) حال من الضمير فى أصابه أي أصابه الكبر والحال أن له ذرية صغارا لا يقدرون على الكسب وترتيب مبادى المعاش. وقرىء ضعاف (فأصابها اعصار) أى ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم تنعكس منها ساطعة الى السماء على هيئة العمود (فيه نار) شديدة (فاحترقت) عطف على فأصابها وهذا كما ترى تمثيل لحال من يعمل أعمال البر والحسنات ويضم اليها ما يحبطها من القوادح ثم يجدها يوم القيامة عند كمال حاجته الى ثوابها هباء منثورا فى التحسر والتأسف عليها (كذلك) توحيد الكاف مع كون المخاطب جمعا قد مر وجهه مرارا أي مثل ذلك البيان الواضح الجارى فى الظهور مجرى الامور المحسوسة

(يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) كي تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العبر وتعملوا بموجبها (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) بيان لحال ما ينفق منه اثر بيان أصل الانفاق وكيفيته أي أنفقوا من حلال ما كسبتم وجياده لقوله تعالى« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»(ومما أخرجنا لكم من الارض) أي من طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن فحذف لدلالة ما قبله عليه (ولا تيمموا) بفتح التاء أصله ولا تتيمموا .وقرئ بضمها.وقرئ ولاتأمموا والكل بمعنى القصد أي لاتقصدوا (الخبيث)أي الرديء الخسيس وهوكالطيب من الصفات الغالبة التي لا تذكر موصوفاتها (منه تنفقون) الجار متعلق بتنفقون والضمير للخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل تيمموا أي لاتقصدوا الخبيث قاصرين الانفاق عليه أو من الخبيث أي مختصا به الانفاق وأيا ما كان فالتخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من انفاق الخبيث خاصة لا لتسويغ انفاقه مع الطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه .وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من الخبيث والضمير للمال المدلول عليه بحسب المقام أو للموصولين على طريقة قوله :. كأنه في الجلد توليع البهق .. أو للثاني وتخصيصه بذلك لما أن التفاوت فيه أكثر وتنفقون حال من الفاعل المذكور أي ولاتقصدوا الخبيث كائنا من المال أو مما كسبتم وما أخرجنا لكم أو مما أخرجنا لكم منفقين اياه وقوله تعالى (ولستم بآخذيه)حال على كل حال من واو تنفقون أي والحال انكم لا تأخذونه في معاملاتكم في وقت من الاوقات أو بوجه من الوجوه (الا أن تغمضوا فيه) اي الا وقت اغماضكم فيه أو الا باغماضكم فيه وهو عبارة عن المسامحة بطريق الكناية أو الاستعارة يقال أغمض بصره اذا غضه. وقرئ على البناء للمفعول على معنى الا أن تحملوا على الاغماض وتدخلوا فيه أو توجدوا مغمضين .وقرئ تغمضوا وتغمضوا بضم الميم وكسرها وقيل تم الكلام عند قوله تعالى ولا تيمموا الخبيث ثم استؤنف فقيل على طريقة التوبيخ والتقريع منه تنفقون والحال أنكم لا تأخذونه الا إذا أغمضتم فيه ومآله الاستفهام الانكاري فكأنه قيل أمنه تنفقون الخ (واعلموا أن الله غني) عن انفاقكم وانما يأمركم به لمنفعتكم وفي الامر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به توبيخ لهم على مايصنعون من اعطاء الخبيث وايذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى فان اعطاء مثله انما يكون عادة عند اعتقاد المعطي ان الآخذ محتاج الى ما يعطيه بل مضطر اليه (حميد) مستحق للحمد على نعمه العظام .وقيل حامد بقبول الجيد والاثابة

عليه (الشيطان يعدكم الفقر) الوعد هو الاخبار بما سيكون من جهة المخبر مترتبا على شيء من زمان أو غيره يستعمل فى الشر استعماله فى الخير قال تعالى «النار وعدها الله الذين كفروا» أى يعدكم فى الانفاق الفقر ويقول أن عاقبة انفاقكم أن تفتقروا وانما عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يضف مجيء الفقر الى جهته للايذان بمبالغته فى الاخبار بتحقق مجيئه كأنه نزله فى تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب ارادته أو لوقوعه فى مقابلة وعده تعالى على طريقة المشاكلة. وقرئ بضم الفاء والسكون وبضمتين وبفتحتين (ويأمركم بالفحشاء) أى بالخصلة الفحشاء أى ويغريكم على البخل ومنع الصدقات اغراء الآمر للمأمور على فعل المأمور به والعرب تسمى البخيل فاحشا قال طرفة بن العبد:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى . عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقيل بالمعاصى والسيئآت (والله يعدكم) أى فى الانفاق (مغفرة) لذنوبكم والجار فى قوله تعالى (منه) متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لفخامتها التى أفادها تنكيرها أى مغفرة أى مغفرة كائنة منه عز وجل (وفضلا) صفته محذوفة لدلالة المذكور عليها كما فى قوله تعالى «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل» ونظائره أى وفضلا كائنا منه تعالى أى خلفا مما أنفقتم زائدا عليه فى الدنيا. وفيه تكذيب للشيطان وقيل ثوابا فى الآخرة (والله واسع) قدرة وفضلا فيحقق ما وعدكم به من المغفرة واخلاف ما تنفقونه (عليم) مبالغ فى العلم فيعلم انفاقكم فلا يكاد يضيع أجركم أو يعلم ما سيكون من المغفرة والفضل فلا احتمال للخلف فى الوعد والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله (يؤتى الحكمة) قال مجاهد الحكمة هى القرآن والعلم والفقه وروى عن ابن نجيح أنها الاصابة فى القول والعمل. وعن ابرهيم النخعى أنها معرفة معانى الاشياء وفهمها. وقيل هى معرفة حقائق الاشياء. وقيل هى الاقدام على الافعال الحسنة الصائبة وعن مقاتل أنها تفسر فى القرآن بأربعة أوجه فتارة بمواعظ القرآن وأخرى بما فيه من عجائب الاسرار ومرة بالعلم والفهم وأخرى بالنبوة ولعل الانسب بالمقام ما ينتظم الاحكام المبينة فى تضاعيف الآيات الكريمة من أحد الوجهين الاولين. ومعنى ايتائها تبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها أى يبينها ويوفق للعلم والعمل بها (من يشاء) من عباده أن يؤتيها اياه بموجب سعة فضله واحاطة علمه كما آتاكم ما بينه فى ضمن الآى من الحكم البالغة التى يدور عليها فلك منافعكم فاغتنموها وسارعوا الى العمل بها. والموصول مفعول أول ليؤتى قدم عليه الثانى للعناية به والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها (ومن يؤت الحكمة) على بناء

المفعول. وقريء على البناء للفاعل أى ومن يؤته الله الحكمة و الاظهار فى مقام الاضمار لاظهار الاعتناء بشأنها وللاشعار بعلة الحكم (فقد أوتى خيرا كثيرا) أى أى خير كثير فانه قد خير له خير الدارين (وما يذكر) أى وما يتعظ بما أوتى من الحكمة أو وما يتفكر فيها الا أولوا (الالباب) أي العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون الى متابعة الهوى. وفيه من الترغيب فى المحافظة على الاحكام الواردة فى شأن الانفاق مالا يخفى والجملة اما حال أو اعتراض تذييلى (ما أنفقتم من نفقة) بيان لحكم كلى شامل لجميع أفراد النفقات وما فى حكمهما أثر بيان حكم ما كان منها فى سبيل الله وما اما شرطية أو موصولة حذف عائدها من الصلة أي وما انفقتموه من نفقة أى أي نفقة كانت فى حق أو باطل فى سر أو علانية قليلة أو كثيرة (أو نذرتم) النذر عقد الضمير على شيء والتزامه و فعله كضرب ونصر (من نذر) أى نذر كان فى طاعة أو معصية بشرط أو بغير شرط متعلق بالمال أو بالافعال كالصيام والصلاة و نحوهما (فان الله يعلمه) الفاء على الأول داخلة على الجواب وعلى الثانى مزيدة فى الخبر. وتوحيد الضمير مع تعدد متعلق العلم لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بكلمة أو كما فى قولك زيد أو عمرو و أكرمته ولا يقال أكرمتهما ولهذا صير الى التأويل فى قوله تعالى « ان يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما » بل يعاد الضمير تارة الى المقدم رعاية للاولية كما فى قوله عز وعلا « واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها » وأخرى الى المؤخر رعاية للقرب كما فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى « ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا » وحمل النظم على تأويلهما بالمذكور ونظائره أو على حذف الاول ثقة بدلالة الثانى عليه كما فى قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله » وقوله:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

ونحوهما مما عطف فيه بالواو الجامعة تعسف مستغنى عنه نعم يجوز ارجاع الضمير الى ما على تقدير كونها موصولة. وتصدير الجملة بأن لتأكيد مضمونها افادة لتحقيق الجزاء أى فانه تعالى يجازيكم عليه البتة ان خيرا فخير وان شرا فشر فهو ترغيب وترهيب ووعد ووعيد (وما للظالمين) بالانفاق والنذر فى المعاصى أو بمنع الصدقات وعدم الوفاء بالنذر أو بالانفاق الخبيث أو بالرياء والمن والاذي وغير ذلك مما ينتظمه معنى الظلم الذى هو عبارة عن وضع الشيء فى غير موضعه الذي يحق أن يوضع فيه (من أنصار) أي أعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه لا شفاعة ولا مدافعة. وايراد صيغة الجمع لمقابلة الظالمين أي وما لظالم من الظالمين من نصير من الانصار. والجملة استئناف مقرر لما فيها قبله

من الوعيد مفيد لفظاعة حال من يفعل ما يفعل من الظالمين لتحصيل الاعوان ورعاية الخلان (ان تبدوا الصدقات فنعماهى) نوع تفصيل لبعض ما أجمل فى الشرطية وبيان له ولذلك ترك العطف بينهما أي ان تظهروا الصدقات فنعم شيئا ابداؤها بعد أن لم يكن رياء وسمعة.وقرىء بفتح النون وكسر العين على الاصل. و قرىء بكسر النون وسكون العين.و قرىء بكسر النون واخفاء حركة العين وهذا فى الصدقات المفروضة وأما فى صدقة التطوع فالاخفاء أفضل وهى التى أريدت بقوله تعالى (وان تخفوها) أى تعطوها خفية (وتؤتوها الفقراء) ولعل التصريح بايتائها الفقراء مع أنه واجب فى الابداء أيضا لما أن الاخفاء مظنة الالتباس و الاشتباه فان الغنى ربما يدعى الفقر و يقدم على قبول الصدقة سرا ولا يفعل ذلك عند الناس (فهو خير لكم) أى فالاخفاء خير لكم من الابداء وهذا فى التطوع ومن لم يعرف بالمال وأما فى الواجب فالامر بالعكس لدفع التهمة عن ابن عباس رضى الله عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا (ويكفر عنكم من سيآتكم) أى والله يكفر أو الاخفاء ومن تبعيضية أى شيئاً من سيآتكم كما سترتموها وقيل مزيدة على رأى الاخفش.وقرئ بالتاء مرفوعا ومجزوما على أن الفعل للصدقات وقرئ بالنون مرفوعا عطفا على محل مابعد الفاء أو على أنه خبر مبتدا محذوف أى ونحن نكفر أو على أنها جملة مبتدأة من فعل وفاعل. وقرىء مجزوما عطفا على محل الفاء وما بعده لانه جواب الشرط (والله بما تعملون) من الاسرار والاعلان (خبير) فهو ترغيب فى الاسرار (ليس عليك هداهم)أى لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين الى الاتيان بما أمروا به من المحاسن والانتهاء عما نهوا عنه من القبائح المعدودة وانما الواجب عليك الارشاد الى الخير والحث عليه والنهى عن الشر والردع عنه بما أوحى اليك من الآيات والذكر الحكيم (ولكن الله يهدى) هداية خاصة موصلة الى المطلوب حتما (من يشاء)هدايته الى ذلك ممن يتذكر بما ذكر ويتبع الحق ويختار الخير والجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب.وتوجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الالتفات الى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال فان الاخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبى صلى الله عليه وسلم مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق به ما بعده من الشرطية.وقيل لما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة على الدخول فى الاسلام فنزلت أى ليس عليك هدى من خالفك حتى

تمنعهم الصدقة لاجل دخولهم فى الاسلام فلا التفات حينئذ فى الكلام وضمير الغيبة للمعهودين من فقراء المشركين بل فيه تلوين فقط وقوله تعالى (وما تنفقوا من خير) على الاول التفات من الغيبة الى خطاب المكلفين لزيادة هزهم نحو الامتثال وعلى الثانى تلوين للخطاب بتوجيهه اليهم وصرفه عن النبى صلى الله عليه وسلم وماشرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لاسم الشرط مبينة ومخصصة أى أى شئ تنفقوا كائن من مال (فلأنفسكم) أى فهو لانفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا على من أعطيتموه ولا تؤذوه ولاتنفقوا من الخبيث أو فنفعه الدينى لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه ممن لا ينتفع به من حيث الدين من فقراء المشركين (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) استثناء من أعم العلل أو أعم الاحوال أى ليست نفقتكم لشئ من الاشياء الالابتغاء وجه الله أوليست فى حال من الاحوال الا حال ابتغاء وجه الله فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذى لا يوجه مثله الى الله تعالى وقيل هو نفى فى معنى النهى (وما تنفقوا من خير يوف اليكم) أى أجره وثوابه أضعافا مضاعفة حسبما فصل فيما قبل فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن انفاقه على أحسن الوجوه وأجملها فهو تأكيد وبيان للشرطية السابقة أو يوف اليكم مايخلفه وهو من نتائج دعائه عليه السلام بقوله اللهم اجعل للمنفق خلفا وللممسك تلفا. وقيل حجت أسماء بنت أبى بكر فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبت أن تعطيها وعن سعيد بن جبير أنهم كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين وروى أن ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود ورضاع كانوا ينفقون عليهم قبل الاسلام فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم فنزلت وهذا فى غير الواجب وأما الواجب فلا يجوز صرفه الى الكافر وان كان ذميا (وأنتم لا تظلمون) لاتنقصون شيئا مما وعدتم عن الثواب المضاعف أو من الخلف (للفقراء) متعلق بمحذوف ينساق اليه الكلام كما فى قوله عز وجل فى تسع آيات الى فرعون أى اعمدوا للفقراء أو اجعلوا ماتنفقونه للفقراء أو صدقاتكم للفقراء (الذين أحصروا فى سبيل الله) بالغزو والجهاد (لا يستطيعون) لاشتغالهم به (ضربا فى الارض) أى ذهابا فيها للكسب والتجارة. وقيل هم أهل الصفة كانوا رضى الله عنهم نحوا من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم (يحسبهم الجاهل) بحالهم (أغنياء من التعفف) أى من أجل تعففهم عن المسئلة (تعرفهم بسيماهم) أى تعرف فقرهم واضطرارهم بما تعاين منهم من الضعف ورثاثة الحال والخطاب للرسول عليه السلام

أو لكل أحد من له حظ من الخطاب مبالغة فى بيان وضوح فقرهم (لايسألون الناس الحافا) أي الحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه من قولهم لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ماعنده والمعني لايسألونهم شيئا وان سألوا لحاجة اضطرتهم اليهلم يلحوا . وقيل هو نفى لكلا الامرين جميعا على طريقة قوله :

على لاحب لايهتدى لمناره . أي لامنار ولا اهتداء (وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو ترغيب فى التصدق لاسيما على هؤلاء (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) أى يعمون الاوقات والاحوال بالخير والصدقة. وقيل نزلت فى شأن الصديق رضى الله عنه حيث تصدق باربعين ألف دينار عشرة آلاف منه بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرا وعشرة علانية. وقيل فى على رضى الله عنه حين لم يكن عنده الا أربعة دراهم فتصدق بكل واحد منها على وجه من الوجوه المذكورة . ولعل تقديم الليل على النهار والسر على العلانية للايذان بمزية الاخفاء على الاظهار . وقيل فى رباط الخيل والانفاق عليها (فلهم أجرهم عند ربهم) خبر الموصول والفاء للدلالة على سببية ماقبلها لمابعدها. وقيل للعطف والخبر محذوف أى ومنهم الذين الخ ولذلك جوز الوقف على علانية (ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون) تقدم تفسيره (الذين يأكلون الربوا) أي يأخذونه والتعبير عنه بالاكل لما أنه معظم ما قصد به ولشيوعه فى المطعومات مع ما فيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادة فى المقدار أو فى الاجل حسبما فصل فى كتب الفقه. وانما كتب بالواو كالصلواة على لغة من يفخم فى أمثالها وزيدت الالف تشبيها بواو الجمع (لايقومون) أى من قبورهم اذا بعثوا (الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان) أي لاقياما كقيام المصروع وهو وارد على مايزعمون أن الشيطان يخبط الانسان فيصرع والخبط الضرب بغير استواء كخبط العشواء (من المس) أى الجنون وهذا أيضاً من زعماتهم أى الجنى يمسه فيختلط عقله فلذلك يقال جن الرجل وهو متعلق بما قبله من الفعل المنفى أى لايقومون من المس الذى بهم بسبب أكلهم الربا أو بيقوم أو بيتخبطه فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لالاختلال عقولهم بل لان الله تعالى أربى فى بطونهم ماأكلوا من الربا فاثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف (ذلك) أشارة الى ماذكر من حالهم وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بفظاعة المشار اليه (بأنهم قالوا انما البيع مثل الربوا) أى ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لأفضائهما الى الربح فاستحلوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم

بدرهمين كما يجوز بيع ماقيمته درهم بدرهمين بل جعلوا الربا أصلا فى الحل وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما فان أحد الدرهمين فى الاول ضائع حتما وفى الثانى منجبر بمساس الحاجة الى السلعة أو بتوقع رواجها (وأحل الله البيع وحرم الربوا) انكار من جهة الله تعالى لتسويتهم وأبطال للقياس لوقوعه فى مقابلة النص مع ماأشير اليه من عدم الاشتراك فى المناط والجملة ابتدائية لامحل لها من الاعراب (فمن جاءه موعظة) أى فمن بلغه وعظ وزجر كالنهى عن الربا وقرئ جاءته (من ربه) متعلق بجاءه أو بمحذوف وقع صفة لموعظة والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة للاشعار بكون مجىء الموعظة للتربية (فانتهى) عطف على جاءه أى فاتعظ بلا تراخ وتبع النهى (فله ماسلف) أى ماتقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه وما مرتفع بالظرف ان جعلت من موصولة وبالابتداء ان جعلت شرطية على رأى سيبويه لعدم اعتماد الظرف على ماقبله (وأمره الى الله) يجازيه على انتهائه ان كان عن قبول الموعظة وصدق النية وقيل يحكم فى شأنه ولا اعتراض لكم عليه (ومن عاد) أى الى تحليل الربا (فأولئك) أشارة الى من عاد والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى عاد باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد (أصحاب النار) أى ملازموها (هم فيها خالدون) ماكثون فيها أبدا والجملة مقررة لما قبلها (يمحق الله الربوا) أى يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه (ويربى الصدقات) يضاعف ثوابها ويبارك فيها ويزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة روى عنه صلى الله عليه وسلم ان الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربى أحدكم مهره وعنه عليه الصلاة والسلام مانقصت زكاة من مال قط (والله لايحب) أى لايرضى لان الحب مختص بالتوابين (كل كفار) مصر على تحليل المحرمات (أثيم) منهمك فى ارتكابه (ان الذين آمنوا) بالله ورسوله وبما جاءهم به (وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) تخصيصهما بالذكر مع اندراجهما فى الصالحات لانافتهما على سائر الاعمال الصالحة على طريقة ذكر جبريل وميكال عقيب الملائكة عليهم السلام (لهم أجرهم) جملة من مبتدأ وخبر واقعة خبراً لان أى لهم أجرهم الموعود لهم وقوله تعالى (عند ربهم) حال من أجرهم وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم مزيد لطف وتشريف لهم (ولا خوف عليهم) من مكروه آت (ولاهم يحزنون) من محبوب فات (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى قوا أنفسكم عقابه (وذروا مابقى من الربوا) أى واتركوا بقايا ماشرطتم منه على الناس تركا كلياً (ان كنتم

مؤمنين) على الحقيقة فان ذلك مستلزم لامتثال ماأمرتم به البتة وهو شرط حذف جوابه ثقة بما قبله أي ان كنتم مؤمنين فاتقوه وذروا الخ روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش فطالبوهم عند المحل بالمال والربا فنزلت (فان لم تفعلوا) أي ما أمرتم به من الاتقاء وترك البقايا أما مع انكار حرمته وأما مع الاعتراف بها (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أي فاعلموا بها من أذن بالشيء اذا علم به أما على الاول فكحرب المرتدين واما على الثاني فكحرب البغاة. وقرىء فآذنوا أي فأعلموا غيركم قيل هو من الاذان وهو الاستماع فانه من طرق العلم. وقرىء فايقنوا وهو مؤيد لقراءة العامة. وتنكير حرب للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة لفخامتها أي بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره كائن من عند الله ورسوله روى انه لما نزلت قالت ثقيف لا يد لنا بحرب الله ورسوله (وان تبتم) من الارتباء مع الايمان بحرمتها بعد ما سمعتموه من الوعيد (فلكم رءوس أموالكم) تأخذونها كلا (لا تظلمون) غرماءكم بأخذ الزيادة والجملة اما مستأنفة لا محل لها من الاعراب أو حال من الضمير في لكم والعامل ما تضمنه الجار من الاستقرار (ولا تظلمون) عطف على ما قبله أي لا تظلمون أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ومن ضرورة تعليق هذا الحكم بتوبتهم عدم ثبوته عند عدمها الا ان عدمها ان كان مع انكار الحرمة فهم مرتدون ومالهم المكسوب في حال الردة فيء للمسلمين عند أبي حنيفة رضي الله عنه وكذا سائر أموالهم عند الشافعي. وعندنا هو لورثتهم ولا شيء لهم على كل حال وان كان مع الاعتراف بها فان كان لهم شوكة فهم على شرف القتل لم تسلم لهم رءوسهم فكيف برءوس أموالهم والا فكذلك عند ابن عباس رضي الله عنهما فانه يقول من عامل الربا يستتاب والا ضرب عنقه. وأما عند غيره فهم محبوسون الى أن تظهر توبتهم لا يمكنون من التصرفات أصلا فما لم يتوبوا لم يسلم لهم شيء من أموالهم بل انما يسلم بموتهم لورثتهم (وان كان ذو عسرة) أي ان وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة على أن كان تامة وقرىء ذا عسرة على أنها ناقصة (فنظرة) أي فالحكم نظرة أو فعليكم نظرة أو فلتكن نظرة وهي الانظار والامهال. وقرىء فناظره أي فالمستحق ناظره أي منتظره أو فصاحب نظرته على طريق النسب. وقرىء فناظره أمراً من المفاعلة أي فسامحه بالنظرة (الى ميسرة) أي الى يسار. وقرىء بضم السين وهما لغتان كمشرقة ومشرقة. وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الاضافة كما في قوله . وأخلفوك عدا الامر الذي وعدوا (وان تصدقوا) بحذف احدى التائين. وقرىء بتشديد الصاد أي وأن تتصدقوا على معسري غرمائكم بالابراء (خير لكم) أي أكثر ثوابا من الانظار أو خير مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ودوامه فهو ندب الى أن يتصدقوا برءوس أموالهم كلا أو

بعضا على غرمائهم المعسرين كقوله تعالى «وأن تعفوا أقرب للتقوى» وقيل المراد بالتصدق الانظار لقوله عليه السلام «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره الا كان له بكل يوم صدقة» (ان كنتم تعلمون) جوابه محذوف أى ان كنتم تعلمون انه خير لكم عملتموه (واتقوا يوما) هو يوم القيامة وتنكيره للتفخيم والتهويل وتعليق الاتقاء به للمبالغة فى التحذير عما فيه من الشدائد والاهوال (ترجعون فيه) على البناء للمفعول من الرجع . وقرىء على البناء للفاعل من الرجوع والاول أدخل فى التهويل . وقرىء بالياء على طريق الالتفات وقرىء تردون وكذا تصيرون (الى الله) لمحاسبة أعمالكم (ثم توفى كل نفس) من النفوس والتعميم للمبالغة فى تهويل اليوم أى تعطى كملا (ما كسبت) أى جزاء ما عملت من خير أو شر (وهم لا يظلمون) حال من كل نفس تفيد أن المعاقبين وان كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين فى ذلك لما أنه من قبل أنفسهم . وجمع الضمير لانه أنسب بحال الجزاء كما أن الافراد أوفق بحال الكسب عن ابن عباس رضى الله عنهما انها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها احدا وعشرين يوما وقيل احدا وثمانين وقيل سبعة أيام وقيل ثلاث ساعات (ياأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين) شروع فى بيان حال المداينة الواقعة فى تضاعيف المعاوضات الجارية فيما بينهم ببيع السلع بالنقود بعد بيان حال الربا أى اذا داين بعضكم بعضا وعامله نسيئة معطيا أو آخذا وفائدة ذكر الدين دفع توهم كون التداين بمعنى المجازاة والتنبيه على تنوعه الى الحال والمؤجل وأنه الباعث على الكتبة وتعيين المرجع للضمير المنصوب المتصل بالامر (الى أجل) متعلق بتداينتم أو بمحذوف وقع صفة لدين (مسمى) بالايام أو الاشهر ونظائرهما مما يفيد العلم ويرفع الجهالة لا بالحصاد والدياس ونحوهما مما لا يرفعها (فاكتبوه) أى الدين بأجله لانه أوثق وأرفع للنزاع والجمهور على استحبابه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح فى السلف (وليكتب بينكم كاتب) بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين لمن يتولاها اثر الامر بها اجمالا . وحذف المفعول اما لتعينه أو للقصد الى ايقاع نفس الفعل أي ليفعل الكتابة وقوله تعالى بينكم للايذان بأن الكاتب ينبغى أن يتوسط بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفى بكلام أحدهما وقوله تعالى (بالعدل) متعلق بمحذوف هو صفة لكاتب أى كاتب كائن بالعدل أى وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أي يكتب بالسوية من غير ميل الى أحد الجانبين لا يزيد ولا ينقص وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجيء كتابه موثوقا به معدلا بالشرع ويجوز أن

يكون حالا منه أى ملتبسا بالعدل وقيل متعلق بالفعل أى وليكتب بالحق (ولا يأب كاتب) أى ولا يمتنع أحد من الكتاب (أن يكتب) كتاب الدين (كما علمه الله) على طريقة ما علمه من كتبه الوثائق أو كما بينه بقوله تعالى بالعدل أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة كقوله تعالى «وأحسن كما أحسن الله اليك» (فليكتب) تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن ابائها تاكيدا لها ويجوز أن تتعلق الكاف بالامر على أن يكون النهى عن الامتناع منها مطلقة ثم الامر بها مقيدة (وليملل الذى عليه الحق) الاملال هو الاملاء أى وليكن المملى من عليه الحق لانه المشهود عليه فلا بد أن يكون هو المقر (وليتق الله ربه) جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة فى التحذير أى وليتق المملى دون الكاتب كما قيل لقوله تعالى (ولا يبخس منه) أي من الحق الذى يمليه على الكاتب (شيئا) فانه الذى يتوقع منه البخس خاصة وأما الكاتب فيتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص فلو أريد نهيه لنهى عن كليهما وقد فعل ذلك حيث أمر بالعدل وأنما شدد فى تكليف المملى حيث جمع فيه بين الامر بالاتقاء والنهى عن البخس لما فيه من الدواعى الي المنهى عنه فان الانسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف مافى ذمته بما أمكن (فان كان الذى عليه الحق) صرح بذلك فى موضع الاضمار لزيادة الكشف والبيان لالان الامر والنهى لغيره (سفيها) ناقص العقل مبذرا مجازفا (أو ضعيفا) صبيا أو شيخا مختلا (أو لا يستطيع أن يمل هو) أى غير مستطيع للاملاء بنفسه لخرس أو عى أو جهل أو غير ذلك من العوارض (فليملل وليه) أى الذى يلى أمره ويقوم مقامه من قيم أو وكيل أو مترجم (بالعدل) أى من غير نقص ولا زيادة لم يكلف بعين ما كلف به من عليه الحق لانه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه البخس (واستشهدوا شهيدين) أى اطلبوهما ليتحملا الشهادة على ما جرى بينكم من المداينة وتسميتهما شهيدين لتنزيل المشارف منزلة الكائن (من رجالكم) متعلق باستشهدوا ومن ابتدائية أو بمحذوف وقع صفة لشهيدين ومن تبعيضية أى شهيدين كائنين من رجال المسلمين الاحرار اذ الكلام فى معاملاتهم فان خطابات الشرع لا تنتظم العبيد بطريق العبارة كما بين فى موضعه وأما اذا كانت المداينة بين الكفرة أو كان من عليه الحق كافرا فيجوز استشهاد الكافر عندنا (فان لم يكونا) أي الشهيدان جميعا على طريقة نفى الشمول لا شمول النفى (رجلين) اما لاعوازهما أو لسبب آخر من الاسباب (فرجل وامرأتان) أى فليشهد رجل وامرأتان أو فرجل وامرأتان يكفون وهذا فيما عدا الحدود والقصاص عندنا وفى الاموال

خاصة عند الشافعي (ممن ترضون) متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل وامرأتان أي كائنون مرضيين عندكم وتخصيصهم بالوصف المذكور مع تحقق اعتباره في كل شهيد لقلة اتصاف النساء به وقيل نعت لشهيدين أي كائنين ممن ترضون ورد بانه يلزم الفصل بينهما بالاجنبي وقيل بدل من رجالكم بتكرير العامل ورد بما ذكر من الفصل. وقيل متعلق بقوله تعالى فاستشهدوا فيلزم الفصل بين اشتراط المرأتين و بين تعليله وقوله عز و جل (من الشهداء) متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المحذوف الراجع الى الموصول أي ممن ترضونهم كائنين من بعض الشهداء لعلمكم بعدالتهم وثقتكم بهم وادراج النساء في الشهداء بطريق التغليب (أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى) تعليل لاعتبار العدد في النساء . والعلة في الحقيقة هي التذكير ولكن الضلال لما كان سبباً له نزل منزلته كما في قولك أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه كأنه قيل لأجل أن تذكر احداهما الاخرى ان ضلت الشهادة بأن نسيتها . ولعل إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل احداهما فتذكرها الأخرى لتأكيد الابهام والمبالغة في الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال باحداهما بعينها والتذكير بالإخرى. وقرىء فتذكر من الاذكار . وقرىء فتذاكر . وقرىء ان تضل على الشرط فتذكر بالرفع كقوله تعالى «ومن عاد فينتقم الله منه» (ولا يأب الشهداء اذا مادعوا) لاداء الشهادة أو لتحملها و تسميتهم شهداء قبل التحمل لما مر من تنزيل المشارف منزلة الواقع وما مزيدة عن قتادة انه كان الرجل يطوف في الحواء العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد فنزلت (ولا تسأموا) أي لا تملوا من كثرة مدايناتكم (أن تكتبوه) أي الدين أو الحق أو الكتاب وقيل كني به عن الكسل الذي هو صفة المنافق كما ورد في قوله تعالى و اذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى و قد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول المؤمن كسلت (صغيراً أو كبيرا) حال من الضمير أي حال كونه صغيرا أو كبيرا أي قليلا أو كثيرا أو مجملا أو مفصلا (الى أجله) متعلق بمحذوف وقع حالا من الهاء في تكتبوه أي مستقراً في الذمة الي وقت حاوله الذى أقر به المديون (ذلكم) إشارة الي ما مر به من الكتب والخطاب للمؤمنين (أقسط) أى أعدل (عند الله) أي في حكمه تعالى (وأقوم للشهادة) أى أثبت لها وأعون على اقامتها وهما مبنيان من أقسط وأقام فانه قياسي عند سيبويه أو من قاسط بمعنى ذي قسط وقويم وانما صحت الواو في أقوم كما صحت في التعجب لجموده (وأدنى أن لا ترتابوا) وأقرب الى انتفاء ريبكم في جنس الدين وقدره وأجله وشهوده ونحو ذلك (إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم) استثناء منقطع من الامر

بالكتابة أي لكن وقت كون تداينكم أو تجارتكم تجارة حاضرة بحضور البدلين تديرونها بينكم يتعاطيهما يداً بيد (فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) أي فلا بأس بأن لا تكتبوها لبعده عن التنازع و النسيان. وقريء برفع تجارة على أنها اسم كان وحاضرة صفتها و تديرونها خبرها أو على أنها تامة (وأشهدوا اذا تبايعتم) أى هذا التبايع أو مطلقا لأنه أحوط والاوامر الواردة فى الآية الكريمة للندب عند الجمهور وقيل للوجوب ثم اختلف فى أحكامها ونسخها (ولا يضار كاتب ولا شهيد) نهى عن المضارة محتمل للبناءين كما ينبيء عنه قراءة من قرأ ولا يضارر بالكسر والفتح وهو نهيهما عن ترك الاجابة والتغيير و التحريف فى الكتبة والشهادة أو نهى الطالب عن الضرار بهما بأن يعجلهما عن مهمهما أو يكلفهما الخروج عما حد لهما أو لا يعطى الكاتب جعله. وقرئ بالرفع على انه نفى فى معنى النهى (وان تفعلوا) ما نهيتم عنه من الضرار (فانه) أي فعلكم ذلك (فسوق بكم) أى خروج عن الطاعة ملتبس بكم (واتقوا الله) فى مخالفة أوامره ونواهيه التى من جملتها نهيه عن المضارة (ويعلمكم الله) أحكامه المتضمنة لمصالحكم (والله بكل شيء عليم) فلا يكاد يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لادخال الروعة وتربية المهابة وللتنبيه على استقلال كل منها بمعنى على حياله فان الاولى حث على التقوي والثانية وعد بالانعام والثالثة تعظيم لشأنه تعالى (وان كنتم على سفر) أى مسافرين أو متوجهين اليه (ولم تجدوا كاتبا) فى المداينة . وقريء كتابا وكتبا وكتابا (فرهان مقبوضة) أو فالذى يستوثق به أو فعليكم أو فليؤخذ أو فالمشروع رهان مقبوضة وليس هذا التعليق لاشتراط السفر فى شرعية الارتهان كما حسبه مجاهد والضحاك لانه صلى الله عليه وسلم رهن درعه فى المدينة من يهودي بعشرين صاعا من شعير أخذه لاهله بل لاقامة التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتبة فى السفر الذى هو مظنة اعوازها وانما لم يتعرض لحال الشاهد لما انه فى حكم الكاتب توثقا واعوازا. والجمهور على وجوب القبض فى تمام الرهن غير مالك. وقريء فرهن كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى المرهون. وقرئ بسكون الهاء تخفيفا (فان أمن بعضكم بعضا) أي بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنه به واستغنى بأمانته عن الارتهان وقريء فان أومن بعضكم أى آمنه الناس ووصفوه بالامانة قبل فيكون انتصاب بعضا حينئذ على نزع الخافض أي على متاع بعض (فليؤدى الذى اؤتمن) وهو المديون وانما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقا للاعلام وحمله على الاداء (أمانته) أى دينه وانما سمى أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به. وقريء ايتمن بقلب الهمزة ياء وقريء

بادغام الياء فى التاء وهو خطأ لان المنقلبة من الهمزة لاتدغم لانها فى حكمها (وليتق الله ربه) فى رعاية حقوق الامانة وفى الجمع بين عنوان الالوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالا يخفى (ولا تكتموا الشهادة) أيها الشهود أو المديونون أى شهادتكم على أنفسكم عند المعاملة (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) آثم خبران وقلبه مرتفع به على الفاعلية كانه قيل يأثم قلبه أو مرتفع بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبران . واسناد الاثم الى القلب لان الكتمان مما اقترفه ونظيره نسبة الزنا الى العين والاذن أو للمبالغة لانه رئيس الاعضاء وأفعاله أعظم الافعال كانه قيل تمكن الاثم فى نفسه وملك أشرف مكان فيه وفاق سائر ذنوبه عن ابن عباس رضى الله عنهما ان أكبر الكبائر الاشراك بالله لقوله تعالى«فقدحرم الله عليه الجنة»وشهادة الزور وكتمان الشهادة.وقرئ قلبه بالنصب كما فى سفه نفسه. وقرئ أثم قلبه أي جعله آثما (والله بما تعملون عليم)فيجازيكم به ان خيرا فخير وان شرا فشر (لله ما فى السموات وما فى الارض) من الامور الداخلة فى حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكنة فيهما من أولى العلم وغيرهم أي كلها له تعالى خلقا وملكا وتصرفا لاشركة لغيره فى شئ منها بوجه من الوجوه (وان تبدوا ما فى أنفسكم)من السوء والعزم عليه بان تظهروه للناس بالقول أو بالفعل (أو تخفوه) بان تكتموه منهم ولا تظهروه بأحد الوجهين ولا يندرج فيه مالا يخلو عنه البشر من الوساوس وأحاديث النفس التى لاعقد ولاعزيمة فيها اذ التكليف بحسب الوسع (يحاسبكم به الله) يوم القيامة وهو حجة على منكري الحساب من المعتزلة والروافض. وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للاعتناء به وأما تقديم الابداء على الاخفاء على عكس ما فى قوله عز وجل« قل ان تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله»فلما أن المعلق بما فى أنفسهم ههنا هو المحاسبة والاصل فيها الاعمال البادية وأما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالاعمال الخافية كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته متعال عن أن يكون بطريق حصول الصور بل وجود كل شئ فى نفسه فى أى طور كان علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة خلا أن مرتبة الاخفاء متقدمة على مرتبة الابداء اذ ما من شئ يبدى الا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى النفس فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقد مر فى تفسير قوله تعالى «أو لا يعلمون أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون» (فيغفر) بالرفع على الاستئناف أي فهو يغفر بفضله (لمن يشاء) أى يغفر له (ويعذب) بعدله (من يشاء) أن يعذبه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح.وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم

رحمته على غضبه . وقرىء بجزم الفعلين عطفا على جواب الشرط . وقرىء بالجزم من غير فاء على أنهما بدل من الجواب بدل البعض أو الاشتمال ونظيره الجزم على البدلية من الشرط فى قوله :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا ٭ تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وادغام الراء فى اللام لحن (والله على كل شيء قدير) تذييل مقرر لمضمون ماقبله فان كمال قدرته تعالى على جميع الاشياء موجب لقدرته سبحانه على ما ذكر من المحاسبة وما فرع عليه من المغفرة والتعذيب (آمن الرسول) لما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة أن ما أنزل الى الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب العظيم الشأن هدى للمتصفين بما فصل هناك من الصفات الفاضلة التى من جملتها الايمان به وبما أنزل قبله من الكتب الالهية وانهم حائزون لاثرتى الهدى والفلاح من غير تعيين لهم بخصوصهم ولا تصريح بتحقق اتصافهم بها اذ ليس فيما يذكر فى حيز الصلة حكم بالفعل وعقب ذلك ببيان حال من كفر به من المجاهرين والمنافقين ثم شرح فى تضاعيفها من فنون الشرائع والاحكام والمواعظ والحكم وأخبار سوالف الامم وغير ذلك ما تقتضى الحكمة شرحه عين فى خاتمتها المتصفون بها وحكم باتصافهم بها على طريق الشهادة لهم من جهته عز وجل بكمال الايمان وحسن الطاعة . وذكر صلى الله عليه وسلم بطريق الغيبة مع ذكره هناك بطريق الخطاب لما أن حق الشهادة الباقية على مر الدهور أن لا يخاطب بها المشهود له ولم يتعرض ههنا لبيان فوزهم بمطالبهم التى من جملتها ما حكى عنهم من الدعوات الآتية ايذانا بانه أمر محقق غنى عن التصريح به لاسيما بعد مانص عليه فيما سلف وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة المنبئة عن كونه عليه السلام صاحب كتاب مجيد وشرع جديد تمهيد لما يعقبه من قوله تعالى (بما أنزل اليه) ومزيد توضيح لاندراجه فى الرسل المؤمن بهم عليهم السلام والمراد بما أنزل اليه ما يعم كله وكل جزء من أجزائه ففيه تحقيق لكيفية ايمانه صلى الله عليه وسلم وتعيين لعنوانه أى آمن عليه السلام بكل ما أنزل اليه (من ربه) ايمانا تفصيليا متعلقا بجميع مافيه من الشرائع والاحكام والقصص والمواعظ وأحوال الرسل والكتب وغير ذلك من حيث أنه منزل منه تعالى وأما الايمان بحقية أحكامه وصدق أخباره ونحو ذلك فمن فروع الايمان به من الحيثية المذكورة وفى هذا الاجمال اجلال لمحله عليه الصلاة والسلام واشعار بأن تعلق ايمانه بتفاصيل ما أنزل اليه واحاطته بجميع ما انطوى عليه من الظهور بحيث لاحاجة الى ذكره أصلا وكذا فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تشريف له وتنبيه على أن انزاله اليه تربية وتكميل له عليه السلام (والمؤمنون)

أي الفريق المعروفون بهذا الاسم فاللام عهدية لاموصولة لافضائها الى خلو الكلام عن الجدوى وهو مبتدأ وقوله عز وجل (كل) مبتدأ ثان وقوله تعالى (آمن) خبره والجملة خبر للمبتدأ الاول والرابط بينهما الضمير الذى ناب منابه التنوين . وتوحيد الضمير فى آمن مع رجوعه الى كل المؤمنين لما أن المراد بيان ايمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى «وكل أتوه داخرين» وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله لتأكيد الاشعار بما بين ايمانه عليه السلام المبني على المشاهدة والعيان وبين ايمانهم الناشئ عن الحجة والبرهان من التفاوت البين والاختلاف الجلى كانهما متخالفان من كل وجه حتى فى هيئة التركيب الدال عليهما . ومافيه من تكرير الاسناد لما فى الحكم بايمان كل واحد منهم على الوجه الآتى من نوع خفاء محوج الى التقوية والتأكيد أى كل واحد منهم آمن (بالله) وحده من غير شريك له فى الالوهية والمعبودية (وملائكته) أى من حيث أنهم عباد مكرمون له تعالى من شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل بانزال الكتب والقاء الوحى فان مدار الايمان بهم ليس من خصوصيات ذواتهم فى أنفسهم بل هو من اضافتهم اليه تعالى من الحيثية المذكورة كما يلوح به الترتيب فى النظم وكتبه ورسله أى من حيث مجيئها من عنده تعالى لارشاد الخلق الى ماشرع لهم من الدين بالاوامر والنواهى لكن لا على الاطلاق بل على أن كل واحد من تلك الكتب منزل منه تعالى الى رسول معين من أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام حسبما فصل فى قوله تعالى « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم» الآية ولا على أن مناط الايمان خصوصية ذلك الكتاب أو ذلك الرسول بل على أن الايمان بالكل مندرج فى الايمان بالكتاب المنزل الى الرسول صلى الله عليه وسلم ومستند اليه لما تلا من الآية الكريمة ولا على أن أحكام الكتب السالفة وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقى منها معتبر بالاضافة اليها بل على أن أحكام كل واحد منها كانت حقة ثابتة الى ورود كتاب آخر ناسخ له وأن مالم ينسخ منها الى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب المصون عن النسخ الى يوم القيامة وانما لم يذكرهنا الايمان باليوم الآخر كما ذكر فى قوله تعالى «ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين» لاندراجه فى الايمان بكتبه وقرىء وكتابه على أن المراد به القرآن أو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب»

والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع فى أفراد الجنس والجمع فى جموعه ولذلك قيل الكتاب أكثر من الكتب وهذا نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى «بما أنزل اليه من ربه» اقتصر عليه ايذانا بكفايته فى الايمان الاجمالى المتحقق فى كل فرد من أفراد المؤمنين من غير نفي لزيادة ضرورة اختلاف طبقاتهم وتفاوت ايمانهم بالامور المذكورة فى مراتب التفصيل تفاوتا فاحشا فان الاجمال فى الحكاية لا يوجب الاجمال فى المحكى كيف لا وقد أجمل فى حكاية ايمانه عليه السلام بما أنزل اليه من ربه مع بداهة كونه متعلقا بتفاصيل مافيه من الجلائل والدقائق ثم ان الامور المذكورة حيث كانت من الامور الغيبية التى لا يوقف عليها الا من جهة العليم الخبير كان الايمان بها مصداقا لما ذكر فى صدر السورة الكريمة من الايمان بالغيب. وأما الايمان بكتبه تعالى فاشارة الى مافى قوله تعالى «يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك» هذا هو اللائق بشأن التنزيل والحقيق بمقداره الجليل وقد جوز أن يكون قوله تعالى والمؤمنون معطوفا على الرسول فيوقف عليه والضمير الذي عوض عنه التنوين راجع الى المعطوفين معا كانه قيل آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل اليه من ربه ثم فصل ذلك. وقيل كل واحد من الرسول والمؤمنين آمن بالله الخ خلا أنه قدم المؤمن به على المعطوف اعتناء بشأنه وايذانا بأصالته عليه السلام فى الايمان به ولا يخفى أنه مع خلوه عما فى الوجه الاول من كمال اجلال شأنه عليه السلام وتفخيم ايمانه مخل بجزالة النظم الكريم لانه أن حمل كل من الايمانين على ما يليق بشأنه عليه السلام من حيث الذات ومن حيث التعلق بالتفاصيل استحال اسنادهما الى غيره عليه السلام وضاع التكرير وان حملا على ما يليق بشأن آحاد الامة كان ذلك حطا لرتبته العلية عليه السلام. وأما حملهما على ما يليق بكل واحد ممن نسبا اليه من الآحاد ذاتا وتعلقا بأن يحملا بالنسبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم على الايمان العيانى المتعلق بجميع التفاصيل وبالنسبة الى آحاد الامة على الايمان المكتسب من جهته عليه السلام اللائق بحالهم فى الاجمال والتفصيل فاعتساف بين ينبغي تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله وقوله تعالى (لانفرق بين أحد من رسله) فى حيز النصب بقول مقدر على صيغة الجمع رعاية لجانب المعنى منصوب على أنه حال من ضمير آمن أو مرفوع على انه خبر آخر لكل أي يقولون لانفرق بينهم بأن نؤمن ببعض منهم ونكفر بآخرين بل نؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم قيدوا به ايمانهم تحقيقا للحق وتخطئة لاهل الكتابين حيث أجمعوا على الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام أيضا على أن مقصودهم

الاصلى ابراز ايمانهم بما كفروا به من رسالته عليه السلام لاظهار موافقتهم لهم فيما آمنوا به وهذا كما ترى صريح فى أن القائلين آحاد المؤمنين خاصة اذ لايمكن أن يسند اليه عليه الصلام أن يقول لاأفرق بين أحد من رسله وهو يريد به اظهار ايمانه برسالة نفسه وتصديقه فى دعواها وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور اياه. وانما لم يعكس مع تحقق التلازم من الطرفين لما أن الاصل فى تفريق المفرقين هو الرسل وكفرهم بالكتب متفرع على كفرهم بهم. وقرىء بالتاء على اسناد الفعل الى كل وقرىء لايفرقوق حملا على المعنى كما فى قوله تعالى «وكل أتوه داخرين» فالجملة نفسها حال من الضمير المذكور وقيل خبر ثان لكل كما قيل فى القول المقدر فلابد من اعتبار الكلية بعد النفى دون العكس اذ المراد شمول النفى لانفى الشمول. والكلام فى همزة أحد وفى دخول بين عليه قد مر تفصيله عند قوله تعالى «لانفرق بين أحد منهم» وفيه من الدلالة صريحا على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ماليس فى أن يقال لانفرق بين رسله وايثار اظهار الرسل على الاضمار الواقع مثله فى قوله تعالى «وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم» اما للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة فى الحكم أو للاشعار بعلة عدم التفريق أو للايماء الى عنوانه لان المعتبر عدم التفريق من حيث الرسالة دون سائر الحيثيات الخاصة (وقالوا) عطف على آمن وصيغة الجمع باعتبار جانب المعنى وهو حكاية لامتثالهم بالاوامر اثر حكاية ايمانهم (سمعنا) أى فهمنا ما جاءنا من من الحق وتيقنا بصحته (وأطعنا) مافيه من الاوامر والنواهى وقيل سمعنا أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك (غفرانك ربنا) أى اغفر لنا غفرانك أو نسألك غفرانك ذنوبنا المتقدمة أو مالا يخلو عنه البشر من التقصير فى مراعاة حقوقك. وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى الى الاجابة والقبول والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليهم للمبالغة فى التضرع والجوار (واليك المصير) أى الرجوع بالموت والبعث لاالى غيرك وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة الى المغفرة لما أن الرجوع للحساب والجزاء وقوله تعالى (لايكلف الله نفسا الا وسعها) جملة مستقلة جيء بها اثر حكاية تلقيهم لتكاليفه تعالى بحسن الطاعة اظهاراً لماله تعالى عليهم فى ضمن التكليف من محاسن آثار الفضل والرحمة ابتداء لا بعد السؤال كما سيجيء هذا وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى «وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» الآية اشتد ذلك على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوه عليه السلام ثم بركوا على الركب فقالوا أى رسول الله كلفنا من الاعمال مانطيق الصلاة والصوم والحج والجهاد وقد أنزل اليك هذه الآية ولانطيقها فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا و عصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و اليك المصير» فقرأها القوم فأنزل الله عز وجل آمن الرسول بما انزل اليه من ربه الى قوله تعالى غفرانك ربنا واليك المصير فسئولهم الغفران المعلق بمشيئته عز وجل فى قوله فيغفر لمن يشاء ثم أنزل الله تعالى «لا يكلف الله نفساً الا وسعها» تهوينا للخطب عليهم ببيان أن المراد بما فى أنفسهم ماعزموا عليه من السوء خاصة لا مايعم الخواطر التى لا يستطاع الاحتراز عنها و التكليف الزام مافيه كلفة ومشقة و الوسع مايسع الانسان و لا يضيق عليه أي سنته تعالى أنه لا يكلف نفساً من النفوس الا مايتسع فيه طوقها و يتيسر عليها دون مدى الطاقة و المجهود فضلا منه تعالى و رحمة لهذه الأمة كقوله تعالى «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» وقرئ وسعها بالفتح وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال لا على امتناعه وبقوله تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) للترغيب فى المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الاخلال بها ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاة منفعة زائدة وانها تعود اليها لا الى غيرها و يستتبع الاخلال به مضرة تتحققها لا بغيرها فان اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعى الى تحصيله واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته أي لها ثواب ما كسبت من الخير الذى كلفت فعله لا لغيرها استقلالا أو اشتراكا ضرورة شمول كلمة ما لكل جزء من اجزاء مكسوبها وعليها لا على غيرها بأحد الطريقين المذكورين عقاب ما اكتسبت من الشر الذى كلفت تركه وايراد الاكتساب فى جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشىء من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها فى طلبه (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) شروع فى حكاية بقية دعواتهم اثر بيان سر التكليف أى لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية الي النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة ونحوهما مما يدخل تحت التكليف أو بانفسهما من حيث ترتبهما على ماذكر أو مطلقاً اذ لا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلا فان المعاصى كالسموم فكما أن تناولها ولو سهوا أو خطأ مؤد الي الهلاك فتعاطى المعاصى أيضاً لا يبعد أن يفضى الى العقاب وان لم يكن عن عزيمة و وعده تعالى بعدمه لا يوجب استحالة وقوعه فان ذلك من آثار فضله ورحمته كما ينبىء عنه الرفع فى قوله عليه السلام «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان» وقد روى أن اليهود كانوا اذا نسوا شيئاً عجلت لهم العقوبة فدعاؤهم بعد العلم بتحقق

الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة فى ذلك كما فى قوله تعالى «ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك» (ربنا ولا تحمل علينا اصرا) عطف على ماقبله وتوسيط النداء بينهما لابراز مزيد الضراعة. والاصر العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه أي يحبسه مكانه والمراد به التكاليف الشاقة. وقيل الاصر الذنب الذى لاتوبة له فالمعنى أعصمنا من اقترافه. وقرىء آصارا . وقرىء ولا تحمل بالتشديد للمبالغة (كما حملته على الذين من قبلنا) فى حيز النصب على انه صفة لمصدر محذف أى حملا مثل حملك اياه على من قبلنا أو على انه صفة لاصرا أى أصرا مثل الاصر الذى حملته على من قبلنا وهو ما كلفه بنو اسرائيل من نجع النفس فى التوبة وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة فى يوم وليلة وصرف ربع المال للزكاة وغير ذلك من التشديدات فانهم كانوا اذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالا لهم قال الله تعالى «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» وقد عصم الله عز وجل بفضله ورحمته هذه الامة عن أمثال ذلك وأنزل فى شأنهم ويضع عنهم أصرهم والاغلال التى كانت عليهم وقال عليه السلام «بعثت بالحنيفية السهلة السمحة» وعن العقوبات التى عوقب بها الاولون من المسخ والخسف وغير ذلك قال عليه السلام «رفع عن أمتى الخسف والمسخ والغرق» (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) عطف على ماقبله واستعفاء عن العقوبات التى لاتطاق بعد الاستعفاء عما يؤدى اليها التفريط فيه من التكاليف الشاقة التى لايكاد من كلفها يخلو عن التفريط فيها كأنه قيل لاتكلفنا تلك التكاليف ولا تعاقبنا بتفريطنا فى المحافظة عليها فيكون التعبير عن انزال العقوبات بالتحميل باعتبار مايؤدى اليها. وقيل هو تكرير للاول وتصوير للاصر بصورة مالايستطاع مبالغة. وقيل هو استعفاء عن التكليف بما لاتفى به الطاقة البشرية حقيقة فيكون دليلا على جوازه عقلا والا لما سئل التخلص عنه والتشديد ههنا لتعدية الفعل الى مفعول ثان (واعف عنا) أى آثار ذنوبنا (واغفر لنا) واستر عيوبنا ولا تفضحنا على رءوس الاشهاد (وارحمنا) وتعطف بنا وتفضل علينا وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما ان التخلية سابقة على التحلية (أنت مولانا) سيدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولي أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) فان من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولي أمره على الاعداء والمراد به عامة الكفرة وفيه اشارة الى أن اعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله تعالى حسبما أمر فى تضاعيف السورة الكريمة غاية مطالبهم . روى انه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة قد فعلت وعنه عليه السلام «أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن

بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي عام من قرأها بعد العشاء الاخيرة أجزأتاه عن قيام الليل» وعنه عليه السلام من قرأ آيتين من سورة البقرة كفتاه وهو حجة على من استكره أن يقول سورة البقرة وقال ينبغي أن يقال السورة التي يذكر فيها البقرة كما قال عليه السلام «السورة التي يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فان تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال عليه السلام السحرة»

سورة آل عمران مدنية مائتا آية

(بسم الله الرحمن الرحيم) (آلم الله لا إله إلا هو) قد سلف أن ما لا تكون من هذه الفواتح مفردة كصاد وقاف ونون ولا موازنة لمفرد كحميم وطس ويس الموازنة لقابيل وهابيل وكطسم الموازنة لدارابجرد حسبما ذكره سيبويه في الكتاب فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لما انه مغتفر في باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما فعله أبو بكر رضي الله عنه رواية عن عاصم. وأما ما فيها من الفتح على القراءة المشهورة فانما هي حركة همزة الجلالة ألقيت على الميم لتدل على ثبوتها اذ ليس اسقاطها للدرج بل للتخفيف فهي ببقاء حركتها في حكم الثابت المبتدأ به والميم بكون الحركة لغيرها في حكم الوقف على السكون دون الحركة كما توهم واعترض بانه غير معهود في الكلام. وقيل هي حركة لالتقاء السواكن التي هي الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط همزتها وأنت خبير بان سقوطها مبني على وقوعها في الدرج وقد عرفت أن سكون الميم وقفي موجب لانقطاعها عما بعدها مستدع لثبات الهمزة على حالها لا كما في الحروف والاسماء المبنية على السكون فان حقها الاتصال بما بعدها وضعا واستعمالا فتسقط بها همزة الوصل وتحرك أعجازها لالتقاء الساكنين ثم ان جعلت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها من الاعراب كسائر الفواتح وان جعلت اسما للسورة فمحلها اما الرفع على انها خبر مبتدأ محذوف واما النصب على اضمار فعل يليق بالمقام كما ذكر أو اقرأ. أو نحوهما. وأما الرفع بالابتداء أو النصب بتقدير فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه فلا مساغ لشيء منها لما أن ما بعدها غير صالح للخبرية ولا للاقسام عليه فان الاسم الجليل مبتدأ وما بعده خبره والجملة مستأنفة أي هو المستحق للمعبودية لا غير وقوله عز وجل (الحي القيوم) خبر آخر له أو لمبتدأ محذوف أي هو الحي القيوم لا غيره. وقيل هو صفة للمبتدأ أو

بدل منه أو من الخبر الاول أو هو الخبر وما قبله اعتراض بين المبتدا والخبر مقرر لما يفيده الاسم الجليل أوحال منه وأياما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق المعبودية به سبحانه وتعالى لما مر من أن معنى الحى الباقى الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ومعنى القيوم الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ومن ضرورة اختصاص ذينك الوصفين به تعالى اختصاص استحقاق المعبودية به تعالى لاستحالة تحققه بدونهما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اسم الله الاعظم فى ثلاث سور . فى سورة البقرة الله لااله الا هو الحى القيوم. وفى آل عمران آلم الله لااله الا هو الحى القيوم. وفى طه وعنت الوجوه للحى القيوم» وروى أن بنى اسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الاعظم قال الحى القيوم ويروى أن عيسى عليه السلام كان اذا أراد احياء الموتى يدعو ياحى ياقيوم ويقال ان آصف بن برخيا حين أتى بعرش بلقيس دعا بذلك وقرىء الحى القيام وهذا رد على من زعم أن عيسى عليه السلام كان ربا فانه روى ان وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ستين راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ثلاثة منهم أكابر اليهم يؤول أمرهم أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبد المسيح وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيد واسمه الايهم وثالثهم حبرهم وأسقفهم وصاحب مدراسهم أبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرفوه ومولوه وأكرموه لما شاهدوا من علمه واجتهاده فى دينهم وبنوا له كنائس فلما خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة الى جنبه فبينا بغلة أبى حارثة تسير اذ عثرت فقال كرز تعسا للابعد يريد به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبو حارثة بل تعست أمك فقال كرز ولم يا أخى قال انه والله النبى الذى كنا ننتظره فقال له كرز فما يمنعك عنه وأنت تعلم هذا قال لان هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمنا به لاخذوا منا كلها فوقع ذلك فى قلب كرز واضمره الى ان أسلم فكان يحدث بذلك فأتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فاخرة يقول بعض من رآهم من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلوا فى المسجد فقال عليه السلام دعوهم فصلوا الى المشرق ثم تكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تارة عيسى هو الله لأنه كان يحيى الموتى ويبرىء الاسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير وتارة أخرى هو ابن الله اذ لم يكن له أب يعلم وتارة أخري انه ثالث ثلاثة لقوله تعالى فعلنا وقلنا ولو كان واحدا

لقال فعلت وقلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم «أسلموا» قالوا أسلمنا قبلك قال عليه السلام «كذبتم يمنعكم من الاسلام دعاؤكم لله تعالى ولدا» قالوا ان لم يكن ولدا لله فمن أبوه فقال عليه السلام «ألستم تعلمون انه لا يكون ولد إلا و يشبه أباه» فقالوا بلى قال «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء» قالوا بلى قال عليه السلام «ألستم تعلمون أن ربنا قيوم على كل شيء يحفظه ويرزقه» قالوا بلى قال عليه السلام «فهل يملك عيسى من ذلك شيئا» قالوا لا فقال عليه السلام «ألستم تعلمون أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء» قالوا بلى قال عليه السلام «فهل يعلم عيسى من ذلك الا ما علم» قالوا بلى قال عليه السلام «ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وان ربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث» قالوا بلى قال عليه السلام «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذي الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب و يحدث الحدث» قالوا بلى قال عليه السلام «فكيف يكون هذا كما زعمتم» فسكتوا وأبوا الا جحودا فأنزل الله عز وجل من أول السورة الى نيف وثمانين آية تقريرا لما احتج به عليه السلام عليهم وأجاب به عن شبههم وتحقيقا للحق الذي فيه يمترون (نزل عليك الكتاب) أي القرآن عبر عنه باسم الجنس ايذانا بكمال تفوقه على بقية الافراد في حيازة كمالات الجنس كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمي التوراة والانجيل . وصيغة التفعيل للدلالة على التنجيم وتقديم الظرف على المفعول لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر الجملة اما مستأنفة أو خبر آخر عن الاسم الجليل أو هي الخبر وقوله تعالى لا اله الا هو اعتراض أو حال وقوله عز وجل الحي القيوم صفة أو بدل كما مر. وقرىء نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب فالظاهر حينئذ أن تكون مستأنفة. وقيل يجوز كونها خبرا بحذف العائد أي نزل الكتاب من عنده (بالحق) حال من الفاعل أو المفعول أي نزله محقا في تنزيله على ماهو عليه أو ملتبسا بالعدل في احكامه أو بالصدق في اخباره التي من جملتها خبر التوحيد ومايليه وفي وعده و وعيده أو بما يحقق أنه من عند الله تعالى من الحجج البينة (مصدقا) حال من الكتاب بالاتفاق على تقدير كون قوله تعالى بالحق حالا من فاعل نزل. وأما على تقدير حاليته من الكتاب فهو عند من يجوز تعدد الحال بلا عطف ولا بدلية حال منه بعد حال . وأما عند من يمنعه فقد قيل انه حال من محل الحال الاولى على البدلية وقيل من المستكن في الجار والمجرور لانه حينئذ يتحمل ضمير القيامة مقام عامله المتحمل

له فيكون حالا متداخلة وعلى كل حال فهي حال مؤكدة وفائدة تقييد التنزيل بها حث
أهل الكتابين على الايمان بالمنزل وتنبيهم على وجوبه فان الايمان بالمصدق موجب
للايمان بما يصدقه حتما (لما بين يديه) مفعول لمصدقا واللام دعامة لتقوية العمل
نحو فعال لما يريد أي مصدقا لما قبله من الكتب السالفة. وفيه ايماء الى حضورها وكمال
ظهور أمرها بين الناس وتصديقه اياها في الدعوة الى الايمان والتوحيد وتنزيه الله عز
وجل عما لا يليق بشأنه الجليل والأمر بالعدل والاحسان وكذا في انباء الانبياء والامم
الخالية وكذا في نزوله على النعت المذكور فيها وكذا في الشرائع التي لا تختلف باختلاف
الامم والاعصار ظاهر لا ريب فيه. واما في الشرائع المختلفة باختلافهما فمن حيث أن
أحكام كل واحد منها واردة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة الى خصوصيات
الامم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم (وأنزل التوراة والانجيل)
ين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله تأكيدا لما قبله وتمهيدا لما بعده اذ بذلك يترقى شأن
صدقه رفعة ونباهة ويزداد في القلوب قبولا ومهابة ويتفاحش حال من كفر بهما
الشناعة واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام أي أنزلهما جملة على موسى
عيسى عليهما السلام وانما لم يذكرا لان الكلام في الكتابين لا فيمن أنزلا عليه وهما
مان أعجميان الاول عبري والثاني سرياني ويعضده القراءة بفتح همزة الانجيل فان أفعيل
ن من ابنية العرب والتصدي لاشتقاقهما من الوري والنجل تعسف (من قبل)
علق بأنزل أي أنزلهما من قبل تنزيل الكتاب والتصريح به مع ظهور الامر للمبالغة في
يان (هدى للناس) في حيز النصب على انه علة للانزال أي أنزلهما لهداية الناس أو على
له حال منهما أي أنزلهما حال كونهما هدى لهم والافراد لما انه مصدر جعلا
س الهدى مبالغة أو حذف منه المضاف أي ذوي هدى. ثم ان أريد هدايتهما بجميع
فيهما من حيث هو جميع فالمراد بالناس الامم الماضية من حين نزولهما الى زمان نسخهما وان
يد هدايتهما على الاطلاق وهو الانسب بالمقام فالناس على عمومه لما أن هدايتهما
عدا الشرائع المنسوخة من الأمور التي يصدقهما القرآن فيها ومن جملتها البشارة
وله وبمبعث النبي صلى الله عليه وسلم تعم الناس قاطبة (وأنزل الفرقان) الفرقان
لأصل مصدر كالغفران أطلق على الفاعل مبالغة والمراد به ههنا اما جنس الكتب
لهية عبر عنها بوصف شامل لما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم
تخصيص بعض مشاهيرها بالذكر كما في قوله عز وجل «فأنبتنا فيها حبا وعنبا
الى قوله وفاكهة» وأما نفس الكتب المذكورة أعيد ذكرها بوصف خاص

لم يذكر فيما سبق على طريقة العطف بتكرير لفظ الانزال تنزيلا للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما في قوله سبحانه ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ .وأما الزبور فانه مشتمل عن المواعظ الفارقة بين الحق والباطل الداعية الى الخير والرشاد الزاجرة عن الشر والفساد وتقديم الانجيل عليه مع تأخره عنه نزولا لقوة مناسبته للتوراة فى الاشتمال على الاحكام والشرائع وشيوع اقترانهما فى الذكر .وأما القرآن نفسه ذكر بنعت مادح له بعد ماذكر باسم الجنس تعظيما لشأنه ورفعاً لمكانه وقد بين أولا تنزيله التدريجي الى الأرض وثانياً انزاله الدفعي الى السماء الدنيا أو أريد بالانزال القدر المشترك العاري عن قيد التدريج وعدمه .وأما المعجزات المقرونة بانزال الكتب المذكورة الفارقة بين المحق والمبطل (ان الذين كفروا بآيات الله) وضع موضع الضمير العائد الى ما فصل من الكتب المنزلة أو منها ومن المعجزات الآيات مضافة الى الاسم الجليل تعظيما لحيثية كفرهم وتهويلا لأمرهم وتأكيداً لاستحقاقهم العذاب الشديد وايذانا بان ذلك الاستحقاق لايشترط فيه الكفر بالكل بل يكفى فيه الكفر ببعض منها والمراد بالموصول اما أهل الكتابين وهو الانسب بمقام المحاجة معهم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أوليا أى أن الذين كفروا بما ذكر من آيات الله الناطقة بالحق لاسيما بتوحيده تعالى وتنزيهه عما لايليق بشأنه الجليل كلا أو بعضا مع ما فيها من النعوت الموجبة للايمان بها بان كذبوا بالقرآن أصالة وبسائر الكتب الالهية تبعا لما أن تكذيب المصدقة موجب لتكذيب مايصدقه حتما وأصالة أيضا بأن كذبوا بآياتها الناطقة بالتوحيد والتنزيه وآياتها المبشرة بنزول القرآن ومبعث النبى صلى الله عليه وسلم وغيرها (لهم) بسبب كفرهم بها (عذاب) مرتفع اما على الفاعلية من الجار والمجرور أو على الابتداء والجملة خبر ان والتنوين للتفخيم أى عذاب (شديد) لايقادر قدره وهو وعيد جيء به اثر تقرير أمر التوحيد الذاتى والوصفى . والاشارة الى ماينطق بذلك من الكتب الالهية حملا على القبول والاذعان وزجرا عن الكفر والعصيان (والله عزيز) لايغالب يفعل مايشاء ويحكم مايريد (ذو انتقام) عظيم خارج عن أفراد جنسه وهو افتعال من النقمة وهى السطوة والتسلط يقال انتقم منه اذا عاقبه بجنايته والجملة اعتراض تذييلى مقرر للوعيد ومؤكد له (ان الله لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء) استئناف كلام سيق لبيان سعة علمه تعالى واحاطته بجميع مافى العالم من الأشياء التى من جملتها ماصدر عنهم من الكفر

والفسوق سراً وجهرا اثر بيان كمال قدرته وعزته تربية لما قبله من الوعيد وتنبيها على أن الوقوف على بعض المغيبات كما كان فى عيسى عليه السلام بمعزل من بلوغ رتبة الصفات الالهية .وانما عبر عن علمه عزوجل بما ذكر بعدم خفائه عليه كما فى قوله سبحانه «وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء» ايذانا بان علمه تعالى بمعلوماته وان كانت فى أقصى الغايات الخفية ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارنه شائبة خفاء بوجه من الوجوه كما فى علوم المخلوقين بل هى فى غاية الوضوح والجلاء والجملة المنفية خبر لان. وتكرير الاسناد لتقوية الحكم وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء مؤكدة لعمومه المستفاد من وقوعه فى سياق النفى أى لايخفى عليه شيء ما كائن فى الأرض ولا فى السماء أعم من أن يكون ذلك بطريق الاستقرار فيهما أو الجزئية منهما. وقيل متعلقة بيخفى وانما عبر بهما عن كل العالم لانهما قطراه وتقديم الأرض على السماء لاظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفى بينهما للدلالة على الترقى من الادنى الي الاعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة الى علومنا وقوله عزوجل (هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء) جملة مستأنفة ناطقة ببعض أحكام قيوميته تعالى وجريان أحوال الخلق فى اطراد الوجود حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة مقررة لكمال علمه مع زيادة بيان لتعلقه بالاشياء قبل دخولها تحت الوجود ضرورة وجوب علمه تعالى بالصور المختلفة المترتبة على التصوير المترتب على المشيئة قبل تحققها بمراتب وكلمة فى متعلقة بيصوركم أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المفعول أى يصوركم وأنتم فى الارحام مضغ وكيف معمول ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية أما من فاعل يصوركم أى يصوركم كائنا على مشيئته تعالى أى مريداً أو من مفعوله أى يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها فى قبول الاحوال المتغايرة من كونكم نطفا ثم علقا مضغا غير مخلقة ثم مخلقة وفى الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والانوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات وفيه من الدلالة على بطلان زعم من زعم ربوبية عيسى عليه السلام وهو من جملة أبناء النواسيت المتقلبين فى هذه الاطوار على مشيئة البارى عز وجل وكمال ركاكة عقولهم مالايخفى. وقرىء تصوركم على صيغة الماضى من التفعل أى صوركم لنفسه وعبادته (لااله الاهو) اذلايتصف بشيء مما ذكر من الشئون العظيمة الخاصة بالالوهية أحد ليتوهم الوهيته (العزيز الحكيم) المتناهى فى القدرة والحكمة التى لذلك يخلقكم على ماذكر من النمط البديع (هو الذى انزل عليك الكتاب) شروع

فى ابطال شبههم الناشئة عما نطق به القرآن فى نعت عيسى عليه السلام بطريق الاستئناف أثر بيان اختصاص الربوبية ومناطها به سبحانه وتعالى تارة بعد أخرى وكون كل من عداه مقهورا تحت ملكوته تابعا لمشيئته . قيل أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تزعم يا محمد أن عيسى كلمة الله وروح منه قال عليه السلام بلى قالوا فحسبنا ذلك فنعى عليهم زيغهم وفتنتهم وبين أن الكتاب مؤسس على أصول رصينة وفروع مبنية عليها ناطقة بالحق قاضية ببطلان ما هم عليه من الضلال. والمراد بالانزال القدر المشترك المجرد عن الدلالة على قيد التدريج وعدمه ولام الكتاب للعهد. وتقديم الظرف عليه لما أشير اليه فيما قبل من الاعتناء بشأن بشارته عليه السلام بتشريف الانزال عليه ومن التشويق الى ما أنزل فان النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما بعد الاشعار برفعة شأنه أو بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن وليتصل به تقسيمه الى قسميه (منه آيات) الظرف خبر وآيات مبتدأ أو بالعكس بتأويل مر تحقيقه فى قوله تعالى ومن الناس من يقول الآية والاول أوفق بقواعد الصناعة والثانى أدخل فى جزالة المعنى اذ المقصود الاصلى انقسام الكتاب الى القسمين المعهودين لا كونهما من الكتاب فتذكر. والجملة مستأنفة أو فى حيز النصب على الحالية من الكتاب أى هو الذى أنزل الكتاب كائنا على هذه الحال أى منقسم الى محكم ومتشابه أو الظرف هو الحال وحده وآيات مرتفع به على الفاعلية (محكمات) صفة آيات أي قطعية الدلالة على المعنى المراد محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال والاشتباه هن أم الكتاب أى أصل فيه وعمدة يرد اليها غيرها فالمراد بالكتاب كله. والاضافة بمعنى فى كما فى واحد العشرة لا بمعنى اللام كان ذلك يؤدى الى كون الكتاب عبارة عما عدا المحكمات والجملة اما صفة لما قبلها أو مستأنفة وانما أفرد الام مع تعدد الآيات لما أن المراد بيان أصلية كل واحدة منها أو بيان أن الكل بمنزلة آية واحدة كما فى قوله تعالى وجعلناها وابنها آية للعالمين وقيل اكتفى بالمفرد عن الجمع كما فى قول الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها . فبيض وأما جلدها فصليب

أي وأما جلودها (وأخر) نعت لمحذوف معطوف على آيات أى وآيات أخر وهى جمع أخرى وانما لم ينصرف لانه وصف معدول عن الآخر أو عن آخر متشابهات صفة لاخر وفى الحقيقة صفة للمحذوف أي محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضها من بعض فى استحقاق الارادة بها ولا يتضح الامر الا بالنظر الدقيق والتأمل الانيق فالتشابه فى الحقيقة وصف لتلك المعانى وصف به بعض الآيات على طريقة وصف الدال بوصف

المدلول وقيل لما كان من شأن الامور المتشابهة أن يعجز العقل عن التمييز بينها سمى كل مالايهتدى اليه العقل متشابها وان لم يكن ذلك بسبب التشابه كما أن المشكل فى الاصل مادخل فى أشكاله وأمثاله ولم يعلم بعينه ثم أطلق على كل غامض وان لم يكن غموضه من تلك الجهة وانما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهادفى تدبرها وتحصيل العلوم التى نيط بها استنباط ماأريد بها من الاحكام الحقة فينالوا بها وباتعاب القرائح فى استخراج مقاصدها الرائقة ومعانيها اللائقة المدارج العالية ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان الى المعارج المتناسية وأما قوله عزوجل «آلر كتاب أحكمت آياته» فمعناه انها حفظت من اعتراء الخلل أو من النسخ أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على حقيتها أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها وقوله تعالى «كتابا متشابها مثانى» معناه متشابه الاجزاء أى يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة النظم وحقية المدلول (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) أى ميل عن الحق الى الاهواء الباطلة قال الراغب الزيغ الميل عن الاستقامة الى أحد الجانبين وفى جعل قلوبهم مقرا للزيغ مبالغة فى عدولهم عن سنن الرشاد واصرارهم على الشر والفساد (فيتبعون ما تشابه منه) معرضين عن المحكمات أى يتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب أو بتأويل باطل لا تحريا للحق بعد الايمان بكونه من عند الله تعالى بل (ابتغاء الفتنة) أى طلب أن يفتن الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه كما نقل عن الوفد (وابتغاء تأويله) أى وطلب أن يؤولوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة والحال أنهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله عز وجل (وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم) فانه حال من ضمير فيتبعون باعتبار العلة الاخيرة أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله والحال أنه مخصوص به تعالى وبمن وفقه له من عباده الراسخين فى العلم أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا فى مزال الاقدام وفى تعليل الاتباع بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقية ايذان بأنهم ليسوا من التأويل فى شىء وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لا أنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه ومن وقف على الا الله فسر المتشابه بما استأثر الله عز وعلا بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الاعداد كعدد الزبانية أو بما دل القاطع على عدم ارادة ظاهره ولم يدل على ماهو المراد به (يقولون آمنا به) أى المتشابه وعدم التعرض بايمانهم بالمحكم لظهوره أو بالكتاب والجملة على الاول استئناف موضح لحال الراسخين

أو حال منه وعلى الثاني خبر لقوله تعالى و الراسخون وقوله تعالى (كل من عند ربنا) من تمام المقول مقرر لما قبله ومؤكد له أي كل واحد منه ومن المحكم أو كل واحد من متشابهه ومحكمه منزل من عنده تعالى لا مخالفة بينهما أو آمنا به وبحقيقته على مراده تعالى (وما يذكر) حق التذكر (إلا أولوا الالباب) أى العقول الخالصة عن الركون الى الاهواء الزائغة وهو تذييل سيق من جهته تعالى مدحا للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة الى ما به استعدوا للاهتداء الى تأويله من تجرد العقل عن غواشي الحس وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث انها جواب عما تشبث به النصارى من نحو قوله تعالى « وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » على وجه الاجمال وسيجيء الجواب المفصل بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (ربنا لا تزغ قلوبنا) من تمام مقالة الراسخين أى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق الى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه قال صلى الله عليه وسلم « قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أقامه على الحق وان شاء أزاغه عنه » وقيل معناه لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا (بعد اذ هديتنا) أي الي الحق والتأويل الصحيح أو الي الايمان بالقسمين وبعد نصب بلا تزغ على الظرف واذ فى محل الجر باضافته اليه خارج من الظرفية أي بعد وقت هدايتك ايانا وقيل أنه بمعنى أن (وهب لنا من لدنك) كلا الجارين متعلق بهب وتقديم الأول لما مر مرارا ويجوز تعلق الثاني بمحذوف هو حال من المفعول أى كائنة من لدنك ومن لابتداء الغاية المجازية ولدن فى الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات نحو من لدن زيد وليست مرادفة لعند اذ قد تكون فضلة وكذا لدي وبعضهم يخصها بظرف المكان وتضاف الى صريح الزمان كما فى قوله :

تنتفض الرعدة فى ظهيري ❊ من لدن الظهر الى العصير

ولا تقطع عن الاضافة بحال وأكثر ما تضاف الى المفردات وقد تضاف الى أن وصلتها كما فى قوله :

ولم تقطع أصلاه من لدن أن وليتنا ❊ قرابة ذى رحم ولا حق مسلم

أي من لدن ولايتك ايانا وقد تضاف الى الجملة الاسمية كما فى قوله : ❊ تذكر نعماه لدن أنت يافع ❊
و الى الجملة الفعلية أيضاً كما فى قوله :

لزمنا لدن سالمتمونا وفاقكم ❊ فلا يك منكم للخلاف جنوح

و قلما تخلو عن من كما فى البيتين الاخيرين (رحمة) واسعة تزلفنا اليك ونفوز بها

عندك أو توفيقا للثبات على الحق. وتأخير المفعول الصريح عن الجارين لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده لا سيما عند الاشعار بكونه من المنافع باللام فاذا أورده يتمكن عندها فضل تمكن (انك أنت الوهاب) تعليل للسؤال أو لاعطاء المسئول وأنت اما مبتدأ أو فصل أو تأكيد لاسم ان واطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب. وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شيء (ربنا انك جامع الناس ليوم) أي لحساب يوم أو لجزاء يوم حذف المضاف وأقيم مقامه المضاف اليه تهويلا له وتفظيعاً لما يقع فيه (لا ريب فيه) أي في وقوعه ووقوع ما فيه من الحشر والحساب والجزاء ومقصودهم بهذا عرض كمال افتقارهم الى الرحمة وأنها المقصد الاسنى عندهم والتأكيد لاظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة (ان الله لا يخلف الميعاد) تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب والتأكيد لما مر. واظهار الاسم الجليل مع الالتفات لابراز كمال التعظيم والاجلال الناشيء من ذكر اليوم المهيب الهائل بخلاف ما في آخر السورة الكريمة فانه مقام طلب الانعام كما سيأتي وللاشعار بعلة الحكم فان الالوهية منافية للاخلاف وقد جوز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين. والميعاد مصدر كالميقات ، استدل به الوعيدية وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو بدلائل مفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقا (ان الذين كفروا) أثر ما بين الدين الحق والتوحيد وذكر أحوال الكتب الناطقة به وشرح شأن القرآن العظيم وكيفية ايمان العلماء الراسخين به شرع في بيان حال من كفر به. والمراد بالموصول جنس الكفرة الشامل لجميع الاصناف وقيل وفد نجران أو اليهود من قريظة والنضير أو مشركو العرب (لن تغني عنهم) أي لن تنفعهم وقرئ بالتذكير وبسكون الياء جدا في استثقال الحركة على حروف اللين (أموالهم) التي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضار (ولا أولادهم) الذين بهم يتناصرون في الامور المهمة وعليهم يعولون في الخطوب الملمة. وتأخير الاولاد عن الاموال مع توسيط حرف النفي بينهما اما لعراقة الاولاد في كشف الكروب أو لأن الأموال أول عدة يفزع اليها عند نزول الخطوب (من الله) من عذابه تعالى (شيئا) أي شيئا من الاغناء. وقيل كلمة من بمعنى البدل والمعنى بدل رحمة الله أو بدل طاعته كما في قوله تعالى «ان الظن لا يغني من الحق شيئا» أي بدل الحق منه قوله ولا ينفع الجد منك الجد أي لا ينفعه جده بذلك أي بدل رحمتك كما في قوله تعالى «وما أموالكم

ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى» وأنت خبير بأن احتمال سد أموالهم وأولادهم مسد رحمة الله تعالى أو طاعته مما لا يخطر ببال أحد حتى يتصدى نفيه والأول هو الأليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل أمرهم والأنسب بما بعده من قوله تعالى (وأولئك هم وقود النار) ومن قوله تعالى «فأخذهم الله» أى أولئك المتصفون بالكفر حطب النار وحصبها الذى تسعر به فان أريد بيان حالهم عند التسعير فايثار الجملة الاسمية للدلالة على تحقق الامر وتقرره والا فهو للايذان بأن حقيقة حالهم ذلك وأن أحوالهم الظاهرة بمنزلة العدم فهم حال كونهم فى الدنيا وقود النار بأعيانهم وفيه من الدلالة على كمال ملابستهم بالنار مالا يخفى وهم يحتمل الابتداء وأن يكون ضمير الفصل والجملة أما مستأنفة مقررة لعدم الاغناء أو معطوفة على خبر ان وأياما كان ففيها تعيين للعذاب الذى بين أن أموالهم وأولادهم لاتغنى عنهم منه شيئاً وقرىء وقود النار بضم الواو وهو مصدر أى أهل وقودها (كدأب آل فرعون) الدأب مصدر دأب فى العمل اذا كدح فيه وتعب غلب استعماله فى معنى الشأن والحال والعادة . ومحل الكاف الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف وقد جوز النصب بلن تغنى أو بالوقود أي لن تغنى عنهم كما لم تغن عن أولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم وأنت خبير بأن المذكور فى تفسير الدأب انما هو التكذيب والاخذ من غير تعرض لعدم الاغناء لا سيما على تقدير كون من بمعنى البدل كما هو رأى المجوز ولا لايقاد النار فيحمل على التعليل وهو خلاف الظاهر على انه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بالاجنبى على تقدير النصب بلن تغنى وهو قوله تعالى وأولئك هم وقود النار الا أن يجعل استئنافا لا معطوفا على خبر ان فالوجه هو الرفع على الخبرية أي دأب هؤلاء فى الكفر وعدم النجاة من أخذ الله تعالى وعذابه كدأب آل فرعون (والذين من قبلهم) أى من قبل آل فرعون من الامم الكافرة فالموصول فى محل الجر عطفا على ماقبله وقوله تعالى (كذبوا بآياتنا) بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبني على السؤال كأنه قيل كيف كان دأبهم فقيل كذبوا بآياتنا وقوله تعالى (فأخذهم الله) تفسير لدأبهم الذى فعل بهم أي فاخذهم الله وعاقبهم ولم يجدوا من بأس الله تعالى محيصا فدأب هؤلاء الكفرة أيضا كدأبهم وقيل كذبوا الخ حال من آل فرعون والذين من قبلهم على اضمار قد أى دأب هؤلاء كدأب أولئك وقد كذبوا الخ وأما كونه خبرا عن الموصول كما قيل فمما يذهب برونق النظم الكريم والالتفات الى التكلم أولا للجري على سنن الكبرياء والى الغيبة ثانيا باظهار الجلالة لتربية المهابة وادخال الروعة (بذنوبهم) ان أريد بها تكذيبهم بالآيات

فالباء للسببية جيء بها تأكيدا لما تفيده الفاء من سببية ماقبلها لما بعدها وان أريد بها سائر ذنوبهم فالباء للملابسة جيء بها للدلالة على أن لهم ذنوبا أخر أي فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها كما فى قوله تعالى «وتزهق أنفسهم وهم كافرون» والذنب فى الاصل التلو والتابع وسمى الجريمة ذنبا لانها تتلو أى تتبع عقابها فاعلها (والله شديد العقاب) تذييل مقرر لمضمون ماقبله من الاخذ وتكملة له (قل للذين كفروا) المراد بهم اليهود لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان يهود المدينة لما شاهدوا غلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين يوم بدر قالوا والله انه النبي الامى الذي بشرنا به موسى وفى التوراة نعته وهموا باتباعه فقال بعضهم لا تعجلوا حتى ننظر الى وقعة له أخرى فلما كان يوم أحد شكوا وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد الى مدة فنقضوه وانطلق كعب بن الاشرف فى ستين راكبا الى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم ان النبى صلى الله وسلم لما أصاب قريشا ببدر ورجع الى المدينة جمع اليهود فى سوق بني قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم مانزل بقريش فقالوا لايغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس فنزلت أي قل لهم (ستغلبون) البتة عن قريب فى الدنيا وقد صدق الله عز وجل وعده بقتل بنى قريظة واجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة. واما ماروي عن مقاتل من انها نزلت قبل بدر وان الموصول عبارة عن مشركى مكة وانك قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ان الله غالبكم وحاشركم الى جهنم وبئس المهاد فيؤدى الى انقطاع الآية الكريمة عما بعدها لنزوله بعد وقعة بدر (وتحشرون) أى فى الآخرة (الى جهنم) وقرئ الفعلان بالياء على انه عليه السلام امر بأن يحكى لهم ماأخبر الله تعالى به من وعيدهم بعبارته كانه قيل أد اليهم هذا القول (وبئس المهاد) اما من تمام ما يقال لهم أو استئناف لتهويل جهنم وتفظيع حال اهلها والمخصوص بالذم محذوف أي وبئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لانفسهم (قدكان لكم) جواب قسم محذوف وهو من تمام القول المأمور به جيء به لتقرير مضمون ماقبله وتحقيقه والخطاب لليهود ايضا والظرف خبر كان على انها ناقصة ولتوسطه بينها وبين اسمها ترك التأنيث كما فى قوله

ان امرأ غره منكن واحدة … بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

على أن التأنيث ههنا غير حقيقى أو هو متعلق بكان على انها تامة وانما قدم على فاعلها لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أي والله قد كان لكم أيها المغترون

بعددهم وعددهم (آية) عظيمة دالة على صدق ما اقول لكم انكم ستغلبون (فى فئتين) أى فرقتين أو جماعتين فان المغلوبة منهما كانت مدلة بكثرتها معجبة بعزتها وقد لقيها مالقيها فسيصيبكم مايصيبكم. ومحل الظرف الرفع على انه صفة لآية. وقيل النصب على خبرية كان والظرف الاول متعلق بمحذوف وقع حالا من آية (التقتا) فى حيز الجر على انه صفة فئتين أى تلاقتا بالقتال يوم بدر (فئة) بالرفع خبر مبتدا محذوف أي احداهما فئة كما فى قوله:

اذا مت كان الناس حزبين شامت ٭ وآخر مثن بالذى كنت أصنع

أي احدهما شامت والآخر مثن وقوله:

حتى اذا ما استقل النجم فى غلس ٭ وغودر البقل ملوى ومحصود

والجملة مع ماعطف عليها مستأنفة لتقرير مافى الفئتين من الآية وقوله تعالى (تقاتل فى سبيل الله) فى محل الرفع على انه صفة فئة كانه قيل فئة مؤمنة ولكن ذكر مكانه من أحكام الايمان مايليق بالمقام مدحا لهم واعتدادا بقتالهم وايذانا بانه المدار فى تحقق الآية وهى رؤية القليل كثيرا. وقرىء يقاتل على تأويل الفئة بالقوم أو الفريق (وأخرى) نعت لمبتدا محذوف معطوف على ماحذف من الجملة الاولى أي وفئة أخرى وانما نكرت والقياس تعريفها كقرينتها لوضوح أن التفريق لنفس المثنى المقدم ذكره وعدم الحاجة الي التعريف وقوله تعالي (كافرة) خبر المبتدا المحذوف. وانما لم توصف هذه الفئة بما يقابل صفة الفئة الاولى اسقاطا لقتالهم عن درجة الأعتبار وايذانا بانهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة. وقيل كل من المتعاطفين بدل من الضمير فى التقتا وما بعدهما صفة فلابد من ضمير محذوف عائد الي المبدل منه مسوغ لوصف البدل بالجملة العارية عن ضميره أى فئة منهما تقاتل الخ وفئة أخرى كافرة ويجوز أن يكون كل منهما مبتدأ وما بعدها خبرا أي فئة منهما تقاتل الخ وفئة أخرى كافرة وقيل كل منهما مبتدأ محذوف الخبر أي منهما فئة تقاتل الخ وقرىء فئة بالجر على البدلية من فئتين بدل بعض من كل وقد مر انه لابد من ضمير عائد الى المبدل منه ويسمى بدلا تفصيليا كما فى قول كثيرة عزة:

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ٭ ورجل رمى فيها الزمان فشلت

وقريء فئة الخ بالنصب على المدح أو الذم أو على الحاليه من ضمير التقتا كانه قيل التقتا مؤمنة وكافرة فيكون فئة وأخري توطئة لما هو الحال حقيقة اذ المقصود بالذكر وصفاهما كما فى قولك جاءنى زيد رجلا صالحا (يرونهم) أى يرى الفئة الاخيرة الفئة الاولى

وايثار صيغة الجمع للدلالة على شمول الرؤية لكل واحد واحد من آحاد الفئة والجملة في محل الرفع على أنها صفة للفئة الاخيرة أو مستأنفة مبينة لكيفية الآية (مثليهم) أى مثلى عدد الرائين قريبا من ألفين اذ كانوا قريبا من ألف كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وفيهم أبو سفيان وأبو جهل وكان فيهم من الخيل والابل مائة فرس وسبعمائة بعير ومن اصناف الاسلحة عدد لا يحصى عن محمد بن أبي الفرات عن سعد ابن أوس انه قال أسر المشركون رجلا من المسلمين فسألوه كم كنتم قال ثلثمائة وبضعة عشر قالوا ما كنا نراكم الا تضعفون علينا أو مثلى عدد المرئيين أى ستمائة ونيفا وعشرين حيث كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الانصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وكان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين على بن ابى طالب رضى الله عنه وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة الخزرجي وكان في العسكر تسعون بعيرا وفرسان أحدهما للمقداد بن عمرو والآخر لمرثد بن أبي مرثد وست اذرع وثمانية سيوف وجميع من استشهد يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أراهم الله عز وجل كذلك مع قلتهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم مدداً لهم منه سبحانه كما امدهم بالملائكة عليهم السلام وكان ذلك عند التقاء الفئتين بعد أن قللهم في اعينهم عند ترائيهما ليجترئوا عليهم ولا يهربوا من أول الامر حين ينجيهم الهرب. وقيل يرى الفئة الأولى الفئة الأخيرة مثلى انفسهم مع كونهم ثلاثة أمثالهم ليثبتوا ويطمئنوا بالنصر الموعود في قوله تعالى «ان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين» والاول هو الاولى لان رؤية المثلين غير متعينة من جانب المؤمنين بل قد وقعت رؤية المثل بل أقل منه أيضا فانه روي أن ابن مسعود رضى الله عنه قال قد نظرنا الى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا اليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا ثم قللهم الله تعالى أيضا في أعينهم حتى رأوهم عددا يسيرا أقل من أنفسهم قال ابن مسعود رضى الله عنه لقد قللوا في اعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل الى جنبي تراهم سبعين قال اراهم مائة فاسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا. فلو أريد رؤية المؤمنين المشركين أقل من عددهم في نفس الأمر كما في سورة الانفال لكانت رؤيتهم اياهم أقل من انفسهم أحق بالذكر في كونها آية من رؤيتهم مثليهم على أنه ابانة آثار قدرة الله تعالي وحكمته للكفرة بأراءتهم القليل كثيرا والضعيف قويا والقاء الرعب في قلوبهم بسبب ذلك أدخل في كونها آية لهم

وحجة عليهم وأقرب الى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة مخالطتهم الكفرة المشاهدين للحال وكذا تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه بالمفعول فجعل أقرب المذكورين السابقين فاعلا وأبعدهما مفعولا سواء جعل الجملة صفة أو مستأنفه أولى من العكس هذا ما تقتضيه جزالة التنزيل على قراءة الجمهور ولا ينبغى جعل الخطاب لمشركي مكة كما قيل . اما ان جعل الوعيد عبارة عن هزيمة بدر كما صرحوا ابه فظاهر لاسترة به وأما ان جعل عبارة عن هزيمة اخري فلان الفئة التى شاهدت تلك الآية الهائلة هم المخاطبون حينئذ فالتعبير عنهم بفئة مبهمة تارة وموصوفة أخري ثم اسناد المشاهدة اليها مع كون اسنادها الى المخاطبين أوقع فى الزام الحجة وأدخل فى التبكيت مما لاداعى اليه وبهذا يتبين حال جعل الخطاب الثانى للمؤمنين.وأما قراءة ترونهم بتاء الخطاب فظاهرها وان اقتضى توجيه الخطاب الثانى الى المشركين لكنه ليس بنص فى ذلك لانه وان اندفع به المحذور الاخير فالاول باق بحاله فلعل رؤية المشركين نزلت منزلة رؤية اليهود لما بينهم من الاتحاد فى الكفر والاتفاق فى الكلمة لاسيما بعدما وقع بينهم بواسطة كعب بن الاشرف من العهد والميثاق فاسندت الرؤية اليهم مبالغة فى البيان وتحقيقا لعروض مثل تلك الحالة لهم فتدبر . وقيل المراد جميع الكفرة ولاريب فى صحته وسداده . وقرىء يرونهم وترونهم على البناء للمفعول من الاراءة أى يريهم أو يريكم الله تعالى كذلك (رأى العين) مصدر مؤكد ليرونهم ان كانت الرؤية بصرية أو مصدر تشبيهى ان كانت قلبية أى رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مجرى رؤية العين (والله يؤيد) أي يقوي (بنصره من يشاء) أن يؤيده من غير توسيط الاسباب العادية كما أيد الفئة المقاتلة فى سبيله بما ذكر من النصر وهو من تمام القول المأمور به (ان فى ذلك) اشارة الى ما ذكر من رؤية القليل كثيرا المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكى السلاح وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه فى الفضل (لعبرة) العبرة فعلة من العبور كالركبة من الركوب والجلسة من الجلوس والمراد بها الاتعاظ فانه نوع من العبور أى لعبرة عظيمة كائنة (لاولى الابصار) لذوى العقول والبصائر وقيل لمن أبصرهم وهو اما من تمام الكلام الداخل تحت القول مقرر لما قبله بطريق التذييل واما وارد من جهته تعالى تصديقا لمقالته عليه الصلاة والسلام (زين للناس) كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية باصنافها وتزهيد للناس فيها وتوجيه رغباتهم الى ما عنده تعالى اثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس (حب الشهوات)

الشهوة نزوع النفس الى ما تريده. والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة فى كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات أو ايذانا بانهماكهم فى حبها بحيث أحبوا شهواتها كما فى قوله تعالى «انى أحببت حب الخير» أو استرذالا لها فان الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو البارى سبحانه وتعالى اذ هو الخالق لجميع الافعال والدواعى والحكمة فى ذلك ابتلاؤهم قال تعالى «انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم» الآية فانها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة وسيلة الى بقاء النوع. وايثار صيغة المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء. وقرىء على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما أن مساق الآية الكريمة على ذمها وفرق الجبائى بين المباحات فاسند تزيينها اليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها الى الشيطان (من النساء والبنين) فى محل النصب على أنه حال من الشهوات وهى مفسرة لها فى المعنى. وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهن فى معنى الشهوة فانهن حبائل الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد فى حبهن (والقناطير المقنطرة) جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة ألف دينار. وقيل ملء مسك ثور. وقيل سبعون ألفاً. وقيل أربعون ألف مثقال. وقيل ثمانون ألفاً. وقيل مائة رطل. وقيل ألف ومائتا مثقال. وقيل ألفا دينار وقيل مائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم. وقيل دية النفس واختلف فى أن وزنه فعلال أو فنعال ولفظ المقنطرة مأخوذ منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة وقيل المقنطرة المحكمة المحصنة. وقيل الكثيرة المنضدة بعضها على بعض أو المدفونة وقيل المضروبة المنقوشة (من الذهب والفضة) بيان للقناطير أو حال (والخيل) عطف على القناطير قيل هى جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والواحد فرس وقيل واحده خائل وهو مشتق من الخيلاء (المسومة) أى المعلمة من السومة وهى العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها اذا أرسلها وسيبها للرعى أو المطهمة التامة الخلق (والانعام) أى الابل والبقر والغنم (والحرث) أى الزرع مصدر بمعنى المفعول (ذلك) أى ماذكر من الأشياء المعهودة (متاع الحياة الدنيا) أى مايتمتع به فى الحياة الدنيا أياما قلائل فتفنى سريعا (والله عنده حسن المآب) حسن المرجع وفيه دلالة على أن ليس فيها عدد عاقبة حميدة. وفى تكرير الاسناد بجعل الجلالة مبتدأ واسناد الجملة الظرفية اليه زيادة تأكيد وتفخيم ومزيد اعتناء بالترغيب فيما عند الله عز وجل من النعيم المقيم والتزهيد فى ملاذ الدنيا وطيباتها الفانية (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) اثر مابين شأن مزخرفات الدنيا وذكر ماعنده تعالى

من حسن المآب اجمالا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب. والخطاب للجميع. والهمزة للتقرير أى أؤخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزينة لكم وابهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق اليه وقوله تعالى (للذين اتقوا عند ربهم جنات) استئناف مبين لذلك المبهم على أن جنات مبتدأ والجار والمجرور خبر. أو على أن جنات مرتفع به على الفاعلية عند من لا يشترط فى ذلك اعتماد الجار على مافصل فى محله. والمراد بالتقوى هو التبتل الى الله تعالى والاعراض عما سواه على ماتنبئ عنه النعوت الآتية. وتعليق حصول الجنات وما بعدها من فنون الخيرات به للترغيب فى تحصيله والثبات عليه. وعند نصب على الحالية من جنات أو متعلق بما تعلق به الجار من معنى الاستقرار مفيد لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها. والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المتقين لاظهار مزيد اللطف بهم. وقيل اللام متعلقة بخير وكذا الظرف وجنات خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبينة لخير ويؤيده قراءة جنات بالجر على البدلية من خير ولا يخفى ان تعليق الاخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربما يوهم أن هناك خيراً آخر لآخرين (تجرى) فى محل الرفع أو الجر صفة لجنات على حسب القراءتين (من تحتها الأنهار) متعلق بتجرى فان أريد بالجنات نفس الأشجار كما هو الظاهر فجريانها من تحتها ظاهر وان أريد بها مجموع الأرض والأشجار فهو باعتبار جزئها الظاهر كما مر تفصيله مراراً (خالدين فيها) حال مقدرة من المستكن فى الذين والعامل مافيه من معنى الاستقرار (وأزواج مطهرة) عطف على جنات أى مبرأة مما يستقذر من النساء من الأحوال البدنية والطبيعية (ورضوان) التنوين للتفخيم وقوله تعالى (من الله) متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة أى رضوان وأى رضوان لا يقادر قدره كائن من الله عز وجل. وقرئ بضم الراء (والله بصير بالعباد) وبأعمالهم فيثيب ويعاقب حسبما يليق بها أو بصير بأحوال الذين اتقوا ولذلك أعد لهم ماذكر وفيه أشعار بأنهم المستحقون للتسمية باسم العبد (الذين يقولون ربنا أننا آمنا) فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل من أولئك المتقون الفائزون بهذه الكرامات السنية فقيل هم الذين الخ أو النصب على المدح أو الجر على أنه تابع للمتقين نعتا أو بدلا أو للعباد كذلك والأول أظهر وقوله تعالى «والله بصير بالعباد» حينئذ معترضة. وتأكيد الجملة لاظهار أن ايمانهم ناشئ من وفور الرغبة وكمال النشاط وفى ترتيب الدعاء بقولهم (فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) على مجرد الايمان دلالة

على كفايته فى استحقاق المغفرة والوقاية من النار (الصابرين) هو على تقدير كون الموصول فى محل الرفع منصوب على المدح باضمار أعنى. وأما على تقدير كونه فى محل النصب أو الجر فهو نعت له والمراد بالصبر هو الصبر على مشاق الطاعات وعلى الباساء والضراء وحين البأس (والصادقين) فى أقوالهم ونياتهم وعزائمهم (والقانتين) المداومين على الطاعات المواظبين على العبادات (والمنفقين) أموالهم فى سبيل الله تعالى (والمستغفرين بالاسحار) قال مجاهد وقتادة والكلبي أي المصلين بالاسحار وعن زيد بن أسلم هم الذين يصلون الصبح فى جماعة وقال الحسن مدوا الصلاة الى السحر ثم استغفروا وقال نافع كان ابن عمر رضى الله عنه يحيي الليلة ثم يقول يانافع أسحرنا فاقول لا فيعاود الصلاة فاذا قلت نعم قعد يستغفر الله ويدعو حتى يصبح وعن الحسن كانوا يصلون فى أول الليل حتى اذا كان السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار. وتخصيص الاسحار بالاستغفار لان الدعاء فيها أقرب الى الأجابة اذ العبادة حيئئذ أشق والنفس أصفى والروح أجمع لاسيما للمتهجدين. وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها (شهد الله أنه) بفتح الهمزة أي بأنه أو على أنه (لا اله الا هو) أي بين وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية فى الآفاق والانفس وانزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك عبر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة ايذانا بقوته فى اثبات المطلوب واشعاراً بانكار المنكر. وقرىء انه بكسر الهمزة اما باجراء شهد مجرى قال واما بجعل الجملة اعتراضاً. وايقاع الفعل على قوله تعالى ان الدين الخ على قراءة أن بفتح الهمزة كما سيأتى. وقرئ شهداء لله بالنصب على أنه حال من المذكورين أو على المدح وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ومآله الرفع على المدح أى هم شهداء لله وهو اما جمع شهيد كظرفاء فى جمع ظريف أو جمع شاهد كشعراء فى جمع شاعر (والملائكة) عطف على الأسم الجليل بحمل الشهادة على معنى مجازى شامل للاقرار والايمان بطريق عموم المجاز أى أقروا بذلك (وأولو العلم) أى آمنوا به واحتجوا عليه بما ذكر من الادلة التكوينية والتشريعية قيل المراد بهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل المهاجرون والانصار وقيل علماء مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه وقيل جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة وارتفاعهما على القراءتين الاخيرتين قيل بالعطف على الضمير فى شهداء لوقوع الفصل بينهما وأنت خبير بأن ذلك على قراءة النصب على الحالية يؤدى الى تقييد حال المذكورين بشهادة الملائكة وأولى العلم وليس فيه كثير فائدة فالوجه

حينئذ كون ارتفاعهما بالابتداء والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه أى والملائكة وأولو العلم شهداء بذلك ولك أن تحمل القراءتين على المدح نصبا ورفعا فحينئذ يحسن العطف على المستتر على كل حال وقوله تعالى (قائما بالقسط) أى مقيما للعدل فى جميع أموره بيان لكماله تعالى فى أفعاله أثر بيان كماله فى ذاته وانتصابه على الحالية من الله كما فى قوله تعالى «وهو الحق مصدقا» وانما جاز افراده مع عدم جواز جاء زيد وعمرو راكبا لعدم اللبس كقوله تعالى «ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة» ولعل تأخيره عن المعطوفين للدلالة على علو رتبتهما وقرب منزلتهما والمسارعة الى اقامة شهود التوحيد اعتناء بشأنه ورفعا لمحله وهو السر فى تقديمه على المعطوفين مع مافيه من الايذان باصالته تعالى فى الشهادة به كما مر فى قوله تعالى «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه» أو من هو وهو الاوجه والعامل فيها معنى الجملة أى تفرد أو أحقه لانها حال مؤكدة أو على المدح وقيل على أنه صفة للمنفى أى لااله قائما الخ والفصل بينهما من قبيل توسعاتهم وهو مندرج فى المشهود به اذا جعل صفة أو حالا من الضمير أو نصبا على المدح منه. وقرئ القائم بالقسط على البدلية من هو فيلزم الفصل بينهما كما فى الصفة او على أنه خبر لمبتدا محذوف. وقرئ قيما بالقسط (لااله الاهو) تكرير للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد اقامة الحجة وليجرى عليه قوله تعالى (العزيز الحكيم) فيعلم أنه المنعوت بهما ووجه الترتيب تقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته تعالى ورفعهما على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد أو الخبرية لمبتدأ مضمر وقد روى فى فضلها أنه عليه السلام قال يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل أن لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله. روى عن سعيد بن جبير أنه كان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فلما نزلت هذه الآية الكريمة خررن سجدا. وقيل نزلت فى نصارى نجران وقال الكلبى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم حبران من أحبار الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما ماأشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذى يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا عليه عليه السلام عرفاه بالصفة فقالا له عليه السلام أنت محمد قال صلى الله عليه وسلم نعم قالا وأنت أحمد قال عليه السلام أنا محمد وأحمد قالا فانا نسألك عن شيء فان أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال عليه السلام سلا فقال أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل فانزل الله تعالى هذه الآية الكريمة فأسلم الرجلان (إن الدين عند الله الاسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للاولى أى لادين مرضيا لله تعالى سوى الاسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة وعن

قتادة أنه شهادة أن لا اله الا الله والاقرار بما جاء من عند الله تعالى وقرئ ان الدين عند الله للاسلام وقرئ أن الدين الخ على أنه بدل من أنه بدل الكل ان فسر الاسلام بالايمان أو بما يتضمنه وبدل الاشتمال أن فسر بالشريعة أو على أن شهد واقع عليه على تقدير قراءة أنه بالكسر كما أشير اليه (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) نزلت فى اليهود والنصارى حين تركوا الاسلام الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته والتعبير عنهم بالموصول وجعل ايتاء الكتاب صلة له لزيادة تقبيح حالهم فان الاختلاف ممن أوتى ما يزيله ويقطع شأفته فى غاية القبح والسماجة وقوله تعالى (الا من بعد ما جاءهم العلم) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أو أعم الاوقات أى وما اختلفوا فى حال من الاحوال أو فى وقت من الاوقات الا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه أو بعد أن علموا حقيقة الامر وتمكنوا من العلم بها بالحجج النيرة والآيات الباهرة وفيه من الدلالة على ترامى حالهم فى الضلالة ما لا مزيد عليه فان الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة مما لا يصدر عن العاقل وقوله تعالى (بغيا بينهم) أى حسدا كائنا بينهم وطلبا للرياسة لا لشبهة وخفاء فى الامر تشنيع أثر تشنيع (ومن يكفر بآيات الله) أى بآياته الناطقة بما ذكر من أن الدين عند الله تعالى هو الاسلام ولم يعمل بمقتضاها أو بأية آية كانت من آياته تعالى على أن يدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا (فان الله سريع الحساب) قائم مقام جواب الشرط علة له أى ومن يكفر بآياته تعالى فانه تعالى يجازيه ويعاقبه عن قريب فانه سريع الحساب أى يأتى حسابه عن قريب أو يتم ذلك بسرعة واظهار الجلالة لتربية المهابة وادخال الروعة فى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد ايتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبغى دلالة على كمال شدة عقابهم (فان حاجوك) أى فى كون الدين عند الله الاسلام أو جادلوك فيه بعد ما أقمت عليهم الحجج (فقل أسلمت وجهى) أى أخلصت نفسى وقلبى وجملتى وانما عبر عنها بالوجه لانه أشرف الاعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ومجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة وبه يحصل التوجه الى كل شئ لله لا أشرك به فيها غيره وهو الدين القويم الذى قامت عليه الحجج ودعت اليه الآيات والرسل عليهم السلام (ومن اتبعن) عطف على المتصل فى أسلمت وحسن ذلك لمكان الفصل الجارى مجرى التأكيد بالمنفصل أى وأسلم من اتبعنى أو مفعول معه (وقل للذين أوتوا الكتاب) أى من اليهود والنصارى وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصف المتعاطفين (والاميين) أى الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب (أأسلمتم) متبعين لى كما فعل المؤمنون فانه قد أتاكم من البينات ما يوجبه ويقتضيه لا محالة فهل أسلمتم وعملتم بقضيتها أو أنتم على كفركم بعد كما يقول من لخص لصاحبه المسئلة ولم

يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكا الا سلكه فهل فهمتها على منهاج قوله تعالى «فهل أنتم منتهون» أثر تفصيل الصوارف عن تعاطي الخمر والميسر وفيه من استقصارهم وتعييرهم بالمعاندة وقلة الانصاف وتوبيخهم بالبلادة وكلة القريحة ما لا يخفى (فان أسلموا) أي كما أسلمتم وانما لم يصرح به كما في قوله تعالى «فان آمنوا بمثل ما آمنتم به» حسما لباب اطلاق اسم الاسلام على شيء آخر بالكلية (فقد اهتدوا) أي فازوا بالحظ الاوفر ونجوا عن مهاوي الضلال (وان تولوا) أي أعرضوا عن الاتباع وقبول الاسلام (فانما عليك البلاغ) قائم مقام الجواب أي لم يضروك شيئا اذ ما عليك الا البلاغ وقد فعلت على أبلغ وجه روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا أسلمنا فقال عليه السلام لليهود «أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله» فقالوا معاذ الله وقال عليه السلام للنصارى «أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله» فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبدا وذلك قوله عز وجل وان تولوا (والله بصير بالعباد) عالم بجميع أحوالهم وهو تذييل فيه وعد ووعيد (ان الذين يكفرون بآيات الله) أي آية كانت فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقية الاسلام على الوجه الذي مر تفصيله دخولا أوليا (ويقتلون النبيين بغير حق) هم أهل الكتاب قتل أولوهم الانبياء عليهم السلام وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا وكانوا قاتلهم الله تعالى حائمين حول قتل النبي صلى الله عليه وسلم لولا أن عصم الله تعالى ساحته المنيعة وقد أشير اليه بصيغة الاستقبال. وقرئ بالتشديد للتكثير والتقييد بغير حق للايذان بأنه كان عندهم أيضا بغير حق (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) أي بالعدل ولعل تكرير الفعل للاشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما في الوقت عن أبي عبيدة بن الجراح قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذابا يوم القيامة قال «رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر ثم قرأها ثم قال يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بني اسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار». وقرئ ويقاتلون الذين (فبشرهم بعذاب أليم) خبر ان والفاء لتضمن اسمها معنى الشرط فانها بالنسخ لا تغير معنى الابتداء بل تزيده تأكيدا وكذا الحال في النسخ بأن المفتوحة كما في قوله تعالى «واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه» وكذا النسخ بلكن كما في قوله :

فوالله ما فارقتكم عن ملالة ... ولكن ما يقضى فسوف يكون

وانما يتغير معنى الابتداء فى النسخ بليت ولعل وقد ذهب سيبويه والاخفش الى منع دخول الفاء عند النسخ مطلقا فالخبر عندهما قوله تعالى (أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) كما فى قولك الشيطان فاحذر عدو مبين وعلى الأول هو استئناف واسم الاشارة مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى الضلال وبعد منزلتهم فى فظاعة الحال والموصول بما فى حيز صلته خبره أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة أو المبتلون باسوأ الحال الذين بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر فى الدارين بل بقى لهم اللعنة والخزى فى الدنيا وعذاب أليم فى الآخرة (وما لهم من ناصرين) ينصرونهم من بأس الله وعذابه فى احدى الدارين وصيغة الجمع لرعاية ما وقع فى مقابلته لالنفى تعدد الانصار من كل واحد منهم كما فى قوله تعالى « وما للظالمين من أنصار » (ألم تر) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل ما يتأتى منه الرؤية من حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم وتقرير لما سبق من أن اختلافهم فى الاسلام انما كان بعد ما جاءهم العلم بحقيته أى ألم تنظر (الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) أي التوراة على أن اللام للعهد وحمله على جنس الكتب الالهية تطويل المسافة اذ تمام التقريب حينئذ بكون التوراة من جملتها لأن مدار التشنيع والتعجيب انما هو اعراضهم عن المحاكمة الى ما دعوا اليه وهم لا يدعوا الا الي التوراة. والمراد بما أوتوه منها ما بين لهم فيها من العلوم والاحكام التى من جملتها ما علموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الاسلام. والتعبير عنه بالنصيب للاشعار بكمال اختصاصه بهم وكونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها والعمل بموجبها وما فيه من التنكير للتفخيم وحمله على التحقير لا يساعده مقام المبالغة فى تقبيح حالهم (يدعون الى كتاب الله) الذى أوتوا نصيبا منه وهو التوراة والاظهار فى مقام الاضمار لايجاب الاجابة واضافته الى الاسم الجليل للتشريف فهو تأكيد وجوب المراجعة اليه والجملة استئناف مبين لمحل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر اليهم فقيل يدعون الى كتاب الله تعالى وقيل حال من الموصول (ليحكم بينهم) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم الى الايمان فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد على أى دين أنت قال عليه الصلاة والسلام على ملة ابراهيم قالا ان ابراهيم كان يهوديا فقال صلى الله عليه وسلم لهما « ان بيننا وبينكم التوراة فهلموا اليها » فابيا. وقيل نزلت فى الرجم وقد اختلفوا فيه وقيل كتاب الله القرآن فانهم قد علموا أنه كتاب الله لم يشكوا فيه. وقرئ ليحكم على بناء المجهول فيكون الاختلاف بينهم بان

أسلم بعضهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخرون (ثم يتولى فريق منهم) استبعاد لتوليهم بعدعلمهم بوجوب الرجوع اليه (وهم معرضون) اما حال من فريق لتخصصه بالصفة اى يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم أو اعتراض أى وهم قوم ديدنهم الاعراض عن الحق والاصرار على الباطل (ذلك) اشارة الى ما مر من التولى والاعراض وهو مبتدأخبره قوله تعالى (بأنهم) أى حاصل بسبب أنهم (قالوا لن تمسنا النار) باقتراف الذنوب وركوب المعاصى (الا أياماً معدودات) وهى مقدار عبادتهم العجل ورسخ اعتقادهم على ذلك وهونوا عليهم الخطوب (وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) من قولهم ذلك وما أشبهه من قولهم ان آباءنا الانبياء يشفعون لنا أو ان الله تعالى وعديعقوب عليه السلام ان لا يعذب أولاده الا تحلة القسم ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح (فكيف) رد لقولهم المذكور وابطال لما غرهم باستعظام ماسيدهمهم وتهويل ماسيحيق بهم من الاهوال أى فكيف يكون حالهم (اذا جمعناهم ليوم) أى لجزاء يوم (لاريب فيه) أي فى وقوعه ووقوع ما فيه روى ان أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفر راية اليهود فيفضحهم الله عز وجل على رءوس الاشهاد ثم يأمر بهم الى النار (ووفيت كل نفس ما كسبت) أى جزاء ما كسبت من غير نقص أصلا كما يزعمون وانما وضع المكسوب موضع جزائه للايذان بكمال الاتصال والتلازم بينهما كانهما شيء واحد وفيه دلالة على أن العبادة لاتحبط وأن المؤمن لايخلد فى النار لان توفية جزاء ايمانه وعمله لاتكون فى النار ولا قبل دخولها فاذن هى بعد الخلاص منها (وهم) أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس لايظلمون بزيادة عذاب أو بنقص ثواب بل يصيب كلا منهم مقدار ما كسبه (قل اللهم) الميم عوض عن حرف النداء ولذلك لايجتمعان وهذا من خصائص الاسم الجليل كدخوله عليه مع حرف التعريف وقطع همزته ودخول تاء القسم عليه وقيل أصله يا ألله أمنا بخير أى أقصدنا به فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته (مالك الملك) أى مالك جنس الملك على الاطلاق ملكا حقيقيا بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة وتعذيبا واثابة من غير مشارك ولا ممانع وهو نداء ثان عند سيبويه فان الميم عنده تمنع الوصفية (تؤتى الملك) بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها به تعالى حقيقة وكون مالكية غيره بطريق المجاز كما ينبئ عنه ايثار الايتاء الذى هو مجرد الاعطاء على التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة (من تشاء) أى ايتاءه اياه (وتنزع الملك ممن تشاء)

أى نزعه منه فالملك الاول حقيقة عام ومملوكيته حقيقية والآخران مجازيان خاصان ونسبتهما الى صاحبهما مجازية وقيل الملك الاول عام والآخران بعضان منه فتأمل وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم الى آخرين (وتعز من تشاء) أن تعزه فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق (وتذل من تشاء) أى تذله فى احداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة (بيدك الخير) تعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أى بقدرتك الخير كله لابقدرة أحد من غيرك تتصرف فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك وتخصيص الخير بالذكر لما أنه مقضى بالذات وأما الشر فمقضى بالعرض اذ مامن شر جزئى الا وهو متضمن لخير كلى أولان فى حصول الشر دخلا لصاحبه فى الجملة لانه من أجزية أعماله وأما الخير ففضل محض أو لرعاية الادب أولان الكلام فيه فانه روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق عام الاحزاب وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء عليه السلام وأخذ منه المعول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كلها فأبشروا» فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم انه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم انما تحفرون الخندق من الفرق لاتستطيعون أن تبرزوا فنزلت (انك على كل شئ قدير) تعليل لما سبق وتحقيق له (تولج الليل فى النهار) أى تدخله فيه بتعقيبه اياه أو بنقص الاول وزيادة الثانى (وتولج النهار فى الليل) على أحد الوجهين (وتخرج الحى من الميت) أى تنشئ الحيوانات من موادها أو من النطفة وقيل تخرج المؤمن من الكافر (وتخرج الميت من الحى) أى تخرج النطفة من الحيوان وقيل تخرج الكافر من المؤمن (وترزق من تشاء بغير حساب) قال أبو العباس المقرى ورد لفظ الحساب فى القرآن على ثلاثة أوجه بمعنى التعب قال تعالى «وترزق من تشاء بغير حساب» وبمعنى العدد قال تعالى «انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» وبمعنى المطالبة قال تعالى «فامنن أو أمسك بغير حساب» والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل ترزق أو من مفعوله وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هاتيك الافاعيل العظام المحيرة للعقول والافهام

فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم أهون من كل هين عن على رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان فاتحة الكتاب وآية الكرسى وآيتين من آل عمران شهد الله انه لااله الا هو الى قوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقل اللهم مالك الملك الى قوله بغير حساب معلقات مابينهن وبين الله تعالى حجاب قلن يارب تهبطنا الى أرضك والى من يعصيك قال الله تعالى انى حلفت أنه لايقرؤكن أحد دبر كل صلاة الا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه واسكنته فى حظيرة القدس ونظرت اليه بعينى كل يوم سبعين مرة وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة وأعذته من كل عدو وحاسد ونصرته عليهم» وفى بعض الكتب «أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد اطاعونى جعلتهم لهم رحمة وان العباد عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الى أعطفهم عليكم» وهو معنى قوله عليه السلام «كما تكونوا يول عليكم» (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما من أسباب المصادقة والمعاشرة كما فى قوله سبحانه «ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء» وقوله تعالى «لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء» حتى لا يكون حبهم ولابغضهم الالله تعالى او عن الاستعانة بهم فى الغزو وسائر الامور الدينية (من دون المؤمنين) فى موضع الحال أى متجاوزين المؤمنين اليهم استقلالا او اشتراكا وفيه اشارة الى انهم الاحقاء بالموالاة وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة (ومن يفعل ذلك) أى اتخاذهم اولياء والتعبير عنه بالفعل للاختصار او لايهام الاستهجان بذكره (فليس من الله) اى من ولايته تعالى (فى شىء) يصح أن يطلق عليه اسم الولاية فان موالاة المتعاديين مما لايكاد يدخل تحت الوقوع قال:

تود عدوى ثم تزعم أننى ... صديقك ليس النوك عنك بعازب

والجملة اعتراضية وقوله تعالى (الا أن تتقوا) على صيغة الخطاب بطريق الالتفات استثناء مفرغ من أعم الاحوال والعامل فعل النهى معتبراً فيه الخطاب كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء ظاهراً أو باطنا فى حال من الاحوال إلا حال اتقائكم (منهم) أى من جهتهم (تقاة) أى اتقاء أو شيئاً يجب اتقاؤه على أن المصدر واقع موقع المفعول فانه يجوز إظهار الموالاة حينئذ مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار مافى الضمير كما قال عيسى عليه السلام كن وسطا وامش جانبا وأصل تقاة وقية ثم أبدلت الواو تاء كتخمة وتهمة وقلبت الياء ألفاً وقرىء تقية (ويحذركم الله نفسه) أى ذاته المقدسة فان جواز اطلاق لفظ النفس

مرادا به الذات عليه سبحانه بلا مشاكلة بما لا كلام فيه عند المتقدمين وقد صرح بعض محققي المتأخرين بعدم الجواز وان أريد به الذات إلا مشاكلة .وفيه من التهديد ما لا يخفى عظمه وذكر النفس للايذان بأن له عقابا هائلا لا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة (والى الله المصير) تذييل مقرر لمضمون ماقبله ومحقق لوقوعه حتما (قل ان تخفوا مافى صدوركم) من الضمائر التى من جملتها ولاية الكفرة (أو تبدوه) فيما بينكم (يعلمه الله) فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم اليه.وتقديم الاخفاء على الابداء قد مر سره فى تفسير قوله تعالى «وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه» وقوله تعالى «ويعلم ما يسرون وما يعلنون» (ويعلم مافى السموات وما فى الأرض) كلام مستأنف غير معطوف على جواب الشرط وهو من باب إيراد العام بعد الخاص تأكيداً له وتقريرا (والله على كل شيء قدير) فيقدر على عقوبتكم بما لا مزيد عليه ان لم تنتهوا عما نهيتم عنه وإظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وهو تذييل لما قبله مبين لقوله تعالى «ويحذركم الله نفسه» بأن ذاته المقدسة المتميزة عن سائر الذوات المتصفة بما لا يتصف به شيء منها من العلم الذاتى المتعلق بجميع المعلومات متصفة بالقدرة الذاتية الشاملة بجميع المقدورات بحيث لا يخرج من ملكوته شيء قط (يوم تجد كل نفس) أى من النفوس المكلفة (ما عملت من خير محضرا) عندها بأمر الله تعالى وفيه من التهويل ما ليس فى حاضرا (وما عملته من سوء) عطف على ماعملت والاحضار معتبر فيه أيضا إلا أنه خص بالذكر فى الخير للاشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية (تود) عامل الظرف والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر أو أجزيتها محضرة (لو أن بينها وبينه) أى بين ذلك اليوم (أمداً بعيداً) لغاية هوله وفى اسناد الودادة الى كل نفس سواء كان لها عمل سيء أو لا بل كانت متمحضة فى الخير من الدلالة على كمال فظاعة ذلك اليوم وهول مطلعه ما لا يخفى اللهم إنا نعوذ بك من ذلك ويجوز أن يكون انتصاب يوم على المفعولية باضمار اذكر وتود إما حال من كل نفس أو استئناف مبنى على السؤال أى اذكروا يوم تجد كل نفس ماعملت من خير وشر محضر اوادة أن بينها وبينه أمداً بعيداً أو كان سائلا قال حين أمروا بذكر ذلك اليوم فماذا يكون اذ ذاك فقيل تود لو أن بينها الخ أو تجد مقصور على ماعملت من خير وتود خبر ماعملت من سوء ولا تكون ماشرطية لارتفاع تود وقريء ودت فحينئذ يجوز كونها شرطية لكن الحمل على الخبر أوقع معنى لانها حكاية حال ماضية وأوفق للقراءة المشهورة (ويحذركم الله نفسه) تكرير لما سبق

واعادة له لكن لا للتأكيد فقط بل لافادة مايفيده قوله عز وجل (والله رءوف بالعباد) من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ورحمته الواسعة أو أن رأفته بهم لاتمنع تحقيق ماحذرهموه من عقابه وان تحذيره ليس مبنيا على تناسي صفة الرأفة بل هو متحقق مع تحققها أيضا كما في قوله تعالى «ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم» فالجملة على الاول اعتراض وعلى الثاني حال. وتكرير الاسم الجليل لتربية المهابة (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني) المحبة ميل النفس الى الشيء لكمال أدركته فيه بحيث يحملها على مايقربها اليه والعبد اذا علم ان الكمال الحقيقي ليس الا لله عز وجل وان كل مايراه كمالا من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله والى الله لم يكن حبه الا لله وفي الله وذلك مقتضى ارادة طاعته والرغبة فيما يقربه اليه فلذلك فسرت المحبة بارادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في عبادته والحرص على مطاوعته (يحببكم الله) أي يرضى عنكم (ويغفر لكم ذنوبكم) أي يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم في جوار قدسه عبر عنه بالمحبة بطريق الاستعارة أو المشاكلة (والله غفور رحيم أي لمن يتحبب اليه بطاعته ويتقرب اليه باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام فهو تذييل مقرر لما قبله مع زيادة وعد الرحمة ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للاشعار باستتباع وصف الالوهية المغفرة والرحمة روى انها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه. وقيل نزلت في وفد نجران لما قالوا انا نعبد المسيح حبا لله تعالى. وقيل في أقوام زعموا على عهده عليه الصلاة والسلام أنهم يحبون الله تعالى فامروا أن يجعلوا لقولهم مصداقا من العمل وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للاصنام وقد علقوا عليها بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يامعشر قريش لقد خالفتم ملة ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام» فقالت قريش انما نعبدها حبا لله تعالى ليقربونا الى الله زلفى فقال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام «قل ان كنتم تحبون الله تعالى وتعبدون الاصنام لتقربكم اليه فاتبعوني أي اتبعوا شريعتي وسنتي يحببكم الله فانا رسوله اليكم وحجته عليكم» (قل أطيعوا الله والرسول) أي في جميع الاوامر والنواهي فيدخل في ذلك الطاعة في اتباعه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا. وايثار الاظهار على الاضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الاطاعة والاشعار بعلتها فان الاطاعة المأمور بها اطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث انه رسول الله لامن حيث ذاته ولا ريب في أن عنوان الرسالة من موجبات الاطاعة ودواعيها (فان تولوا) اما من تمام مقول

القول فهي صيغة المضارع المخاطب بحذف احدى التاءين أي تتولوا وأما كلام متفرع عليه مسوق من جهته تعالى فهي صيغة الماضي الغائب وفي ترك ذكر احتمال الاطاعة كما في قوله تعالى فان أسلموا تلويح الى أنه غير محتمل منهم (فان الله لا يحب الكافرين) نفي المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم أي لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم وايثار الاظهار على الاضمار لتعميم الحكم لكل الكفرة والاشعار بعلته فان سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم والايذان بان التولي عن الطاعة كفر وبان محبته عز وجل مخصوصة بالمؤمنين (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) لما بين الله تعالي ان الدين المرضي عنده هو الاسلام والتوحيد وان اختلاف اهل الكتابين فيه انما هو للبغي والحسد وان الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته شرع في تحقيق رسالته وكونه من أهل بيت النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالة اقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة واتبعه ذكر مبدأ أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وامه وكيفية دعوته للناس الي التوحيد والأسلام تحقيقا للحق وابطالا لما عليه أهل الكتابين في شأنهما من الافراط والتفريط ثم بين بطلان محاجتهم في ابراهيم عليه الصلاة والسلام وادعائهم الانتماء الى ملته ونزه ساحته العلية عما هم عليه من اليهودية والنصرانية ثم نص على أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام دعاة الى عبادة الله عز وجل وحده وطاعته منزهون عن احتمال الدعوة الي عبادة أنفسهم أو غيرهم من الملائكة والنبيين وأن أممهم قاطبة مأمورون بالايمان بمن جاءهم من رسول مصدق لما معهم تحقيقاً لوجوب الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه المصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل وتحتم الطاعة له حسبما سيأتي تفصيله وتخصيص آدم عليه الصلاة والسلام بالذكر لأنه أبو البشر ومنشأ النبوة وكذا حال نوح عليه السلام فانه آدم الثاني. وأما ذكر آل ابراهيم فلترغيب المعترفين باصطفائهم في الايمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زمرتهم مع ما مر من التنبيه على كونه عليه الصلاة والسلام عريقا في النبوة من زمرة المصطفين الأخيار. وأما ذكر آل عمران مع اندراجهم في آل ابراهيم فلاظهار مزيد الاعتناء بتحقيق أمر عيسى عليه الصلاة والسلام لكمال رسوخ الخلاف في شأنه فان نسبة الاصفاء الي الاب الاقرب أدل على تحققه في الآل وهو الداعي الي اضافة الآل الى ابراهيم دون نوح وآدم عليهم الصلاة والسلام. والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء مثل به اختياره تعالى اياهم بالنفوس القدسية وما يليق بها من الملكات

الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة فى نفس المصطفى كما فى كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام أو فيمن يلابسه وينشأ منه كما فى مريم.وقيل اصطفى آدم عليه الصلاة والسلام بأن خلقه بيده فى أحسن تقويم وبتعليم الاسماء واسجاد الملائكة اياه واسكان الجنة واصطفى نوحا عليه الصلاة والسلام بكونه أول من نسخ الشرائع اذلم يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراما وباطالة عمره وجعل ذريته هم الباقين واستجابة دعوته فى حق الكفرة والمؤمنين وحمله على متن الماء والمراد بآل ابراهيم اسمعيل واسحق والانبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبى صلى الله عليه وسلم وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفائهم بطريق الاولوية وعدم التصريح به للايذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى الخلة وكونه امام الانبياء وقدوة الرسل عليهم الصلاة والسلام وكون اصطفاء آله بدعوته بقوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة أبى ابراهيم» وبآل عمران عيسى وأمه مريم ابنة عمران بن ماثان بن عازار بن أبى يور بن رب بابل بن ساليان بن يوحنا بن يوشيا بن أمون ابن منشا بن خزقيا بن أحز بن يوثم بن عزيا هو بن يهورام بن يهوشافاط بن أسا بن رحبعم ابن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام بن يبشا بن عوفيذ بن بوعز بن سلمون بن نحشون ابن عمينوذب بن رم بن حصرون بن بارص بن يهوذا بن يعقوب عليه الصلاة والسلام وقيل موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه الصلاة والسلام وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى عليه الصلاة والسلام حينئذ بالاندراج فى آل ابراهيم عليه السلام والاول هو الاظهر بدليل تعقيبه بقصة مريم واصطفاء موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام بالانتظام فى سلك آل ابراهيم عليه السلام انتظاما ظاهراً والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أي اصطفى كل واحد منهم على عالمى زمانه (ذرية) نصب على البدلية من الآلين أو على الحالية منهما وقد مر بيان اشتقاقها فى قوله تعالى ومن ذريتى وقوله تعالى (بعضها من بعض) فى محل النصب على أنه صفة لذرية أي اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض فى النسب كما ينبىء عنه التعرض لكونهم ذرية وقيل بعضها من بعض فى الدين فالاستمالة على الوجه الاول تقريبية وعلى الثانى برهانية (والله سميع) لاقوال العباد (عليم) باعمالهم البادية والخافية فيصطفى من بينهم لخدمته من تظهر استقامته قولا وفعلا على نهج قوله تعالى «الله أعلم حيث يجعل رسالته» والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها (اذ قالت امرأة عمران) فى حيز النصب على المفعولية بفعل مقدر على طريقة

الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران وبيان كيفيته أى اذكر لهم وقت قولها الخ وقد مر مرارا وجه توجيه التذكير الى الاوقات مع أن المقصود تذكير ماوقع فيهما من الحوادث وقيل هو منصوب على الظرفية لما قبله أي سميع لقولها المحكى عليم بضميرها المنوي وقيل هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كانه قيل واصطفى آل عمران اذ قالت الخ فكان من عطف الجمل على الجمل دون عطف المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل فى ذلك الوقت وامرأة عمران هى حنة بنت فاقوذا جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكان لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام فظن أن المراد زوجته وليس بذاك فان قضية كفالة زكريا عليه الصلاة والسلام قاضية بأنها زوجة عمران بن ماثان لأنه عليه الصلاة والسلام كان معاصرا له وقد تزوج ايشاع أخت حنة أم يحيى عليه الصلاة والسلام واما قوله عليه الصلاة والسلام فى شأن يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام «هما ابنا خالة» فقيل تأويله أن الأخت كثيرا ما تطلق على بنت الاخت وبهذا الاعتبار جعلهما عليهما الصلاة والسلام ابنى خالة. وقيل كانت ايشاع أخت حنة من الام واخت مريم من الاب على ان عمران نكح أولا أم حنة فولدت له ايشاع ثم نكح حنة بناء على حل نكاح الربائب فى شريعتهم فولدت مريم فكانت ايشاع أخت مريم من الاب وخالتها من الام لانها أخت حنة من الام. روي أنها كانت عجوزا عاقرا فبينا هى ذات يوم فى ظل شجرة اذ رأت طائرا يطعم فرخه فحنت الى الولد وتمنته وقالت اللهم ان لك على نذرا ان رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وكان هذا النذر مشروعا عندهم فى الغلمان ثم هلك عمران وهى حامل وحينئذ فقولها (رب انى نذرت لك مافى بطنى) لابد من حمله على التكرير لتأكيد نذرها واخراجه عن صورة التعليق الى هيئة التنجيز والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن افاضة التفكير مافيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميرها لتحريك سلسلة الاجابة ولذلك قيل اذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله بما يناسبه من اسمائه وصفاته. وتأكيد الجملة لابراز وفور الرغبة فى مضمونها. وتقديم الجار والمجرور لكمال الاعتناء به. وانما عبر عن الولد بما لابهام امره وقصوره عن درجة العقلاء (محررا) معتقا لخدمة بيت المقدس لايشغله بشأن آخر أو مخلصا للعبادة ونصبه على الحالية من الموصول والعامل فيه نذرت وقيل من ضميره فى الصلة والعامل معنى الاستقرار فانها فى قوة ما استقر فى بطنى ولايخفى ان المراد تقييد فعلها بالتحرير ليحصل به التقرب اليه تعالى لاتقييد مالا

دخل لها فيه من الاستقرار في بطنها (فتقبل مني) أي ما نذرته والتقبل اخذ الشيء على وجه الرضا وهذا في الحقيقة استدعاء الولد اذ لا يتصور القبول بدون تحقق المقبول بل للولد الذكر لعدم قبول الانثى (انك انت السميع) لجميع المسموعات التي من جملتها تضرعي ودعائي (العليم) بكل المعلومات التي من زمرتها ما في ضميري لا غير وهو تعليل لاستدعاء القبول لا من حيث ان كونه تعالي سميعا لدعائها عليما بما في ضميرها مصحح للتقبل في الجملة بل من حيث ان علمه تعالى بصحة نيتها واخلاصها مستدع لذلك تفضلا واحسانا. وتأكيد الجملة لعرض قوة يقينها بمضمونها وقصر صفتي السمع والعلم عليه تعالي لعرض اختصاص دعائها به تعالي وانقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهال (فلما وضعتها) أي ما في بطنها وتأنيث الضمير العائد اليه لما أن المقام يستدعي ظهور أنوثته واعتبارها في حيز الشرط اذ عليه يترتب جواب لما أعنى قوله تعالى (قالت ربي اني وضعتها أنثى) لا على وضع ولد ما كأنه قيل فلما وضعت بنتا قالت الخ وقيل تأنيثه لان ما في بطنها كان انثي في علم الله تعالي أو لانه مؤول بالحبلة أو النفس أو النسمة وأنت خبير بان اعتبار شيء مما ذكر في حيز الشرط لا يكون مدار الترتب الجواب عليه وقوله تعالى أنثى حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه وتأنيثه للمسارعة الى عرض مادهمها من خيبة الرجاء أو لما مر من التأويل بالحبلة أو النسمة فالحال حينئذ مبينة وانما قالته تحزنا وتحسرا على خيبة رجائها وعكس تقديرها لما كانت ترجو أن تلد ذكرا ولذلك نذرته محررا للسدانة. والتأكيد للرد على اعتقادها الباطل (والله أعلم بما وضعت) تعظيم من جهته تعالى لموضوعها وتفخيم لشأنه وتجهيل لها بقدره أي والله أعلم بالشيء الذي وضعته وما علق به من عظائم الامور وجعله وابنه آية للعالمين وهي غافلة عن ذلك. والجملة اعتراضية. وقريء وضعت على خطاب الله تعالى لها أي انك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما أودع الله فيه من علو الشأن وسمو المقدار وقريء وضعت على صيغة التكلم مع الالتفات من الخطاب الى الغيبة اظهارا لغاية الاجلال فيكون ذلك منها اعتذارا الى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته من السدانة أو تسلية لنفسها على معنى لعل لله تعالى فيه سرا وحكمة ولعل هذه الانثى خير من الذكر فوجه الالتفات حينئذ ظاهر وقوله تعالى (وليس الذكر كالانثى) اعتراض آخر مبين لما في الاول من تعظيم الموضوع ورفع منزلته . واللام في الذكر والانثى للعهد أي ليس الذكر الذي كانت تطلبه وتتخيل فيه كمالا قصاراه أن يكون كواحد من السدنة كالانثى التي وهبت لها فان دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الامور

هذا على القراءتين الاولين وأما على التفسير الأخير للقراءة الاخيرة فمعناه وليس الذكر كهذه الانثى فى الفضيلة بل ادنى منها. واما على التفسير الاول لها فمعناه تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالانثى فى الفضيلة والمزية وصلاحية خدمة المتعبدات فانهن بمعزل من ذلك فاللام للجنس وقوله تعالى (وانى سميتها مريم) عطف على انى وضعتها أنثى وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب اليه تعالى واستدعاء العصمة لها فان مريم فى لغتهم بمعنى العابدة قال القرطبى معناه خادم الرب واظهار انها غير راجعة عن نيتها وان كان ما وضعته أنثى وانها وان لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه (وانى أعيذها بك) عطف على انى سميتها وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أى أجيرها بحفظك. وقرىء بفتح ياء المتكلم فى المواضع التى بعدها همزة مضمومة الا فى موضعين بعهدى أوف آتونى أفرغ (وذريتها) عطف على الضمير وتقديم الجار والمجرور عليه لابراز كمال العناية به (من الشيطان الرجيم) أي المطرود وأصل الرجم الرمى بالحجارة عن النبى صلى الله عليه وسلم «ما من مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مسه الا مريم وابنها» ومعناه ان الشيطان يطمع فى اغواء كل مولود بحيث يتأثر منه الا مريم وابنها فان الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة (فتقبلها) أى أخذ مريم ورضى بها فى النذر مكان الذكر (ربها) مالكها ومبلغها الي كمالها اللائق وفيه من تشريفها مالا يخفى (بقبول حسن) قيل الباء زائدة والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد أى تقبلها قبولا حسنا. وانما عدل عن الظاهر للايذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فان صيغة التفعل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتكلف وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وان كان المراد بها فى حقه تعالى ما يترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته. وقيل القبول ما يقبل به الشيء كالسعوط واللدود لما يسعط به ويلد وهو اختصاصه تعالى اياها باقامتها مقام الذكر فى النذر ولم تقبل قبلها أنثى أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة روى أن حنة حين ولدتها لفتها فى خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها عند الاحبار أبناء هرون وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لانها كانت بنت امامهم وصاحب قربانهم فان بنى ماثان كانت رءوس بنى اسرائيل وملوكهم وقيل لانهم وجدوا أمرها وأمر عيسى عليه الصلاة والسلام فى الكتب الالهية فقال زكريا عليه الصلاة والسلام أنا أحق بها عندي خالتها فابوا الا القرعة وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا الى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها

وقيل هو مصدر وفيه مضاف مقدر أي فتقبلها بذي قبول أي بأمر ذي قبول حسن وقيل تقبل بمعنى استقبل كتقصى بمعنى استقصى وتعجل بمعنى استعجل أي استقبلها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن وأنبتها مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها (نباتا حسنا) مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد. وقيل بل لفعل مضمر موافق له تقديره فنبتت نباتا حسنا (وكفلها زكريا) أي جعله عليه الصلاة السلام كافلا لها وضامنا لمصالحها قائما بتدبير أمورها لا على طريقة الوحي بل على ما ذكر من التفصيل فان رغبته عليه الصلاة والسلام في كفالتها وطفو قلمه ورسوب أقلامهم وغير ذلك من الأمور الجارية بينهم كلها من آثار قدرته تعالى. وقرىء أكفلها. وقرىء زكرياء بالنصب والمد وقرىء بتخفيف الفاء وكسرها ورفع زكريا ممدودا. وقرىء وتقبلها ربها وأنبتها وكفلها على صيغة الامر في الكل ونصب ربها على الدعاء أي فاقبلها ياربها وربها تربية حسنة واجعل زكريا كافلا لها فهو تعيين لجهة التربية. قيل بنى عليه الصلاة والسلام لها محرابا في المسجد أي غرفة يصعد اليها بسلم وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس وقيل كانت مساجدهم تسمى المحاريب روى أنه كان لا يدخل عليها الا هو وحده واذا خرج غلق عليها سبعة أبواب (كلما دخل عليها زكريا المحراب) تقديم الظرف على الفاعل لاظهار كمال العناية بأمرها ونصب المحراب على التوسع وكلمة كلما ظرف على ان ما مصدرية والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف والعامل فيها جوابها أي كل زمان دخوله عليها أو كل وقت دخل عليها فيه (وجد عندها رزقا) أي نوعا منه غير معتاد اذ كان ينزل ذلك من الجنة وكان يجد عندها في الصيف فاكهة الشتاء وفي الشتاء فاكهة الصيف ولم ترضع ثديا قط (قال) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام عند مشاهدة هذه الآية فقيل قال (يامريم أنى لك هذا) أي من أين يجيء لك هذا الذي لا يشبه أرزاق الدنيا والابواب مغلقة دونك وهو دليل على جواز الكرامة للاولياء ومن أنكرها جعل هذا ارهاصا وتأسيسا لرسالة عيسى عليه الصلاة والسلام وأما جعله معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام فيأباه اشتباه الامر عليه عليه السلام وانما خاطبها عليه الصلاة والسلام بذلك مع كونها بمعزل من رتبة الخطاب لما علم بما شاهده أنها مؤيدة من عند الله تعالى بالعلم والقدرة (قالت) استئناف كما قبله كأنه قيل فماذا صنعت مريم وهي صغيرة لا قدرة لها على فهم السؤال ورد الجواب فقيل قالت (هو من عند الله) فلا تعجب ولا تستبعد (ان الله يرزق من يشاء) أي يرزقه (بغير حساب) أي بغير تقدير لكثرته أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى وهو تعليل لكونه من عند الله أما من تمام

كلامها فيكون فى محل النصب وأما من كلامه عز وجل فهو مستأنف روى أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها أهدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفين وبضعة لحم فرجع بها اليها فقال هلمى يابنية فكشفت عن الطبق فاذا هو مملوء خبزاً ولحما فقال لها أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة بنى اسرائيل ثم جمع عليا والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين فاكلوا وشبعوا وبقى الطعام كما هو فاوسعت على جيرانها «(هنالك) كلام مستأنف وقصة مستقلة سيقت فى تضاعيف حكاية مريم لما بينهما من قوة الارتباط وشدة الاشتباك مع مافى ايرادها من تقرير ماسيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران فان فضائل بعض الاقرباء أدلة على فضائل الآخرين وهنا ظرف مكان واللام للدلالة على البعد والكاف للخطاب أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت اذ يستعار هنا وثمة وحيث للزمان (دعا زكريا ربه) لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب فى أن يكون له من ايشاع ولد مثل ولد حنة فى النجابة والكرامة على الله تعالى وان كانت عاقراً عجوزا فقد كانت حنة كذلك وقيل لما رأى الفواكه فى غير ابانها تنبه لجواز ولادة العجوز العاقر من الشيخ الفانى فاقبل على الدعاء من غير تأخير كما ينبىء عنه تقديم الظرف على الفعل لا على معنى أن ذلك كان هو الموجب للاقبال على الدعاء فقط بل كان جزءاً أخيرا من العلة التامة التي من جملتها كبر سنه عليه الصلاة والسلام وضعف قواه وخوف مواليه حسبما فصل فى سورة مريم (قال) تفسير للدعاء وبيان لكيفيته لامحل له من الاعراب (رب هب لي من لدنك) كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجاز أى اعطنى من محض قدرتك من غير وسط معتاد (ذرية طيبة) كما وهبتها لحنة ويجوز أن يتعلق من بمحذوف وقع حالا من ذرية أي كائنة من لدنك والذرية النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والانثى والمراد هنا ولد واحد فالتأنيث فى الصفة لتأنيث لفظ الموصوف كما فى قول من قال :

أبوك خليفة ولدته أخرى ... وأنت خليفة ذاك الكمال

وهذا اذا لم يقصد به واحد معين أما اذا قصد به المعين امتنع اعتبار اللفظ نحو طلحة وحمزة فلا يجوز أن يقال جاءت طلحة وذهبت حمزة (انك سميع الدعاء) أي مجيبه وهو تعليل لما قبله وتحريك لسلسلة الاجابة (فنادته الملائكة) كان المنادى جبريل

عليه الصلاة والسلام كما تفصح عنه قراءة من قرأ فناداه جبريل والجمع كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وماله غير فرس وثوب قال الزجاج أي أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة وقيل لما كان جبرائيل عليه الصلاة والسلام رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيما له وقيل الرئيس لابد له من اتباع فاسند النداء الى الكل مع كونه صادراً عنه خاصة. وقرئ فناداه بالامالة (وهو قائم) جملة حالية من مفعول النداء مقررة لما أفادته الفاء من حصول البشارة عقيب الدعاء وقوله تعالى (يصلي) اما صفة لقائم أو خبر ثان عند من يري تعدده عند كون الثاني جملة كما في قوله تعالى «فاذا هي حية تسعى» أو حال أخرى منه على القول بتعددها بلا عطف ولا بدلية أو حال من المستكن في قائم وقوله تعالى (في المحراب) أي في المسجد أو في غرفة مريم متعلق بيصلي أو بقائم على تقدير كون يصلي حالا من ضمير قائم لان العامل فيه وفي الحال حينئذ شيء واحد فلا يلزم الفصل بالاجنبي كما يلزم على التقادير الباقية (ان الله يبشرك بيحيى) أي بأن الله. وقرئ بكسر الهمزة على تقدير القول أو اجراء النداء مجراه لكونه نوعا منه. وقرئ يبشرك من الابشار ويبشرك من الثلاثي وأياما كان ينبغي أن يكون هذا الكلام الي آخر محكيا بعبارته عن الله عز وجل على منهاج قوله تعالى «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله» الآية كما يلوح به مراجعته عليه الصلاة والسلام في الجواب اليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك والعدول عن اسناد التبشير الى نوع العظمة حسبما وقع في سورة مريم للجرى على سنن الكبرياء كما في قول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك بكذا وللايذان بأن ما حكي هناك من النداء والتبشير وما يترتب عليه من المحاورة كان كل ذلك بتوسط الملك بطريق الحكاية عنه سبحانه لا بالذات كما هو المتبادر وبهذا يتضح اتحاد المعنى في السورتين الكريمتين فتأمل. ويحيى اسم أعجمي وان جعل عربيا فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل روى عن ابن عباس رضي الله عنهما انما سمي يحيى لان الله تعالى أحيا به عقر أمه وقال قتادة لانه تعالى أحيا قلبه بالايمان قال القرطبي كان اسمه في الكتاب الاول حيا ولابد من تقدير مضاف يعود اليه الحال أي بولادة يحيى فان التبشير لا يتعلق بالاعيان (مصدقا) حال مقدرة من يحيى (بكلمة من الله) أي بعيسى عليه الصلاة والسلام. وانما سمي كلمة لانه وجد بكلمة كن من غير أب فشابه البديعيات التي هي عالم الامر ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أي بكلمة كائنة منه تعالى. قيل هو أول من آمن به وصدق بأنه كلمة الله وروح منه وقال السدي لقيت أم يحيى أم عيسى فقالت يا مريم أشعرت

يحبلى فقالت مريم وأنا أيضا حبلى قالت فانى وجدت ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة الخ وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر وقيل بثلاث سنين وقتل قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بمدة يسيرة وعلى كل تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمان مديد لما أن مريم ولدت وهى بنت ثلاث عشرة سنة أو بنت عشر سنين وقيل بكلمة من الله أى بكتاب الله سمى كلمة كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته (وسيدا) عطف على مصدقا أى رئيسا يسود قومه ويفوقهم فى الشرف وكان فائقا للناس قاطبة فانه لم يلم بخطيئة ولم يهم بمعصية فيالها من سيادة ما اسناها (وحصورا) عطف على ما قبله أى مبالغا فى حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة روي أنه مر فى صباه بصبيان فدعوه الي اللعب فقال ما للعب خلقت (ونبيا) عطف على ما قبله مترتب على ما عدد من الخصال الحميدة (من الصالحين) أى ناشئا منهم لانه كان من اصلاب الانبياء عليهم الصلاة والسلام أو كائنا من جملة المشهورين بالصلاح كما فى قوله تعالى «وانه فى الآخرة لمن الصالحين» والمراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذى لابد منه فى منصب النبوة البتة من أقاصى مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين (قال) استئناف مبني على السؤال كانه قيل فماذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال (رب) لم يخاطب الملك المنادي له بملابسة أنه المباشر للخطاب وان كان ذلك بطريق الحكاية عنه تعالى بل جري على نهج دعائه السابق مبالغة فى التضرع والمناجاة وجدا فى التبتل اليه تعالى واحترازا عما عسى يوهم خطاب الملك من توهم أن علمه سبحانه بما يصدر عنه يتوقف على توسطه كما يتوقف وقوف البشر على ما يصدر عنه سبحانه على توسطه فى عامة الاحوال وان لم يتوقف عليه فى بعضها (أنى يكون لى غلام) فيه دلالة على انه قد أخبر بكونه غلاما عند التبشير كما فى قوله تعالى «انا نبشرك بغلام اسمه يحيى» وأنى بمعنى كيف أو من أين وكان تامة وأنى واللام متعلقتان بها. وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أى كيف أو من أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تأخر لكان صفة له أو ناقصة واسمها ظاهر وخبرها اما أنى واللام متعلقة بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى منصوب على الظرفية (وقد بلغنى الكبر) حال من ياء المتكلم أى أدركنى كبر السن وأثر فى كقولهم أدركته السن وأخذته السن وفيه دلالة على أن كبر السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب للانسان لايكاد

يترك قيل كان له تسع و تسعون سنة و قيل اثنتان و تسعون و قيل مائة وعشرون وقيل ستون وقيل خمس وستون وقيل سبعون وقيل خمس وسبعون وقيل خمس وثمانون ولامرأته ثمان و تسعون (وامرأتى عاقر) أى ذات عقر وهو أيضا حال من ياء لي عند من يجوز تعدد الحال أو من ياء يلغنى أي كيف يكون لى ذلك والحال أنى وامرأتى على حالة منافية له كل المنافاة وانما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله تعالى عليه لاسيما بعد مشاهدته عليه الصلاة والسلام للشواهد السالفة استعظاما لقدرة الله سبحانه وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته عز وجل عليه فى ذلك لا استبعادا له وقيل بل كان ذلك للاستبعاد حيث كان بعد الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد وقيل كان ذلك استفهاماً عن كيفية حدوثه (قال) استئناف كما سلف (كذلك) إشارة الى مصدر يفعل فى قوله عز وجل (الله يفعل مايشاء) أى مايشاء أن يفعله من تعاجيب الافاعيل الخارقة للعادات فالله مبتدأ و يفعل خبره والكاف فى محل النصب على أنها فى الاصل نعت لمصدر محذوف أى الله يفعل مايشاء أن يفعله فعلا مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذي هو خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر فقدم على العامل لافادة القصر بالنسبة الي من هو أدنى من المشار اليه واعتبرت الكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» أو على أنها حال من ضمير المصدر المقدر معرفة أى يفعل الفعل كائنا مثل ذلك أو فى محل الرفع على أنها خبر والجلالة مبتدأ أى على نحو هذا الشأن البديع شأن الله تعالى ويفعل مايشاء بيان لذلك الشأن المبهم أو كذلك خبر لمبتدا محذوف أي الأمر كذلك وقوله تعالى الله يفعل مايشاء بيان له (قال رب اجعل لي آية) أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحبل وانما سألها لأن العلوق أمر خفى لايوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة من حين حصولها بالشكر ولايؤخره الى أن يظهر ظهوراً معتادا ولعل هذا السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد إذ به يظهر ماذكر من كون التفاوت بين سنى يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين لأن ظهور العلامة كان عقيب تعيينها لقوله تعالى فى سورة مريم «فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم» الآية اللهم إلا أن تكون المجاوبة بين زكريا ومريم فى حالة كبرها وقد عدت من جملة من تكلم فى الصغر بموجب قولها المحكى والجعل ابداعى واللام متعلقة به والتقديم لما مر مراراً من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أو بمحذوف وقع حالا من آية وقيل هو بمعنى التصيير

المستدعي لمفعولين أولهما آية و ثانيهما لي و التقديم لأنه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة الى مبتدا و خبر سوى تقديم الجار فلا يتغير حالها بعد دخول الناسخ (قال آيتك ألا تكلم الناس)أي أن لا تقدر على تكليمهم (ثلاثة أيام) أي متوالية لقوله تعالى فى سورة مريم «ثلاث ليال سويا» مع القدرة على الذكر و التسبيح و انما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله تعالى و شكره قضاء لحق النعمة كأنه قيل آية حصول المطلوب و وصول النعمة ان تحبس لسانك الا عن شكرها وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال (الا رمزا) أي اشارة بيد أو رأس أو نحوهما وأصله التحرك يقال ارتمز أي تحرك ومنه قيل للبحر الراموز وهو استثناء منقطع لان الاشارة ليست من قبيل الكلام أو متصل على أن المراد بالكلام ما فهم منه المرام ولا ريب فى كون الرمز من ذلك القبيل. وقرىء رمزا بفتحتين على أنه جمع رامز كخدم و بضمتين على أنه جمع رموز كرسل على أنه حال منه و من الناس معا بمعنى مترا مزين كقوله :

متى ما تلقني فردين ترجف ... روانف أليتيك وتستطارا

(واذكر ربك) أي فى أيام الحبسة شكراً لحصول التفضل و الانعام كما يؤذن به التعرض لعنوان الربوبية (كثيرا) أي ذكراً كثيراً أو زمانا كثيراً (وسبح) أي سبحه تعالى أو افعل التسبيح (بالعشى)أي من الزوال الى الغروب وقيل من العصر إلي ذهاب صدر الليل (والابكار) من طلوع الفجر الى الضحى .قيل المراد بالتسبيح الصلاة بدليل تقييده بالوقت كما فى قوله تعالي «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون» وقيل الذكر اللساني كما أن المراد بالذكر الذكر القلبي.وقرئ الابكار بفتح الهمزة على أنه جمع بكر كسحر وأسحار (واذ قالت الملائكة) شروع فى شرح بقية أحكام اصطفاء آل عمران أثر الاشارة الى نبذ من فضائل بعض أقاربهم أعني زكريا ويحي عليهما الصلاة والسلام لاستدعاء المقام اياها حسبما أشير اليه.وقرئ بتذكير الفعل والمراد بالملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام وقد مر ما فيه من الكلام.واذ منصوب بمضمر معطوف على المضمر السابق عطف القصة على القصة.وقيل معطوف على الظرف السابق أعنى قوله « اذ قالت امرأة عمران »منصوب بناصبه فتدبر أي و اذكر أيضاً من شواهد اصطفائهم وقت قول الملائكة عليهم الصلاة والسلام (يا مريم) وتكرير التذكير للاشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الاحكام السابقة فانها من أحكام التربية الجسمانية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها قيل كلموها

شفاها كرامة لها أو ارهاصا لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام لمكان الاجماع على أنه تعالى لم يستنبىء امرأة وقيل ألهموها (ان الله اصطفاك) أولا حيث تقبلك من أمك بقبول حسن ولم يتقبل غيرك أنثى ورباك فى حجر زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك بالكرامات السنية (وطهرك) أى مما يستقذر من الاحوال والافعال ومما قذفك به اليهود بأنطاق الطفل (واصطفاك) آخرا (على نساء العالمين) بأن وهب لك عيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب ولم يكن ذلك لاحد من النساء وجعلكما آية للعالمين فعلى هذا ينبغي أن يكون تقديم حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام لما مر مرارا من التنبيه على أن كلا منهما مستحق للاستقبال بالتذكير ولو روعى الترتيب الخارجي لتبادر كون الكل شيئا واحدا وقيل المراد بالاصطفاءين واحد والتكرير للتأكيد وتبيين من اصطفاها عليهن فحينئذ لا اشكال فى ترتيب النظم الكريم اذ يحمل حينئذ الاصطفاء على ماذكر أولا وتجعل هذه المقاولة قبل بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام ايذانا بكونها قبل ذلك متوفرة على الطاعات والعبادات حسبما امرت بها مجتهدة فيها مقبلة على الله تعالى متبتلة اليه تعالى منسلخة عن احكام البشرية مستعدة لفيضان الروح عليها (يامريم) تكرير النداء للايذان بان المقصود بالخطاب مايرد بعده وان ماقبله من تذكير النعم كان تمهيدا لذكره وترغيبا فى العمل بموجبه (اقنتى) لربك أي قومى فى الصلاة أو أطيلى القيام فيها له تعالى والتعرض لعنوان ربوبيته تعالى لها للاشعار بعلة وجوب الامتثال بالامر (واسجدي واركعى مع الراكعين) أمرت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها مبالغة فى ايجاب رعايتها وايذانا بفضيلة كل منها واصالته. وتقديم السجود على الركوع اما لكون الترتيب فى شريعتهم كذلك واما لكون السجود افضل أركان الصلاة واقصى مراتب الخضوع ولايقتضى ذلك كون الترتيب الخارجي كذلك بل اللائق به الترقى من الادنى الى الاعلى واما ليقترن اركعي بالراكعين للاشعار بأن من لاركوع فى صلاتهم ليسوا مصلين. واما ماقيل من أن الواو لاتوجب الترتيب فغايته التصحيح لاالترجيح وتجريد الامر بالركنين الاخيرين عما قيد به الاول لما أن المراد تقييد الامر بالصلاة بذلك وقد فعل حيث قيد به الركن الاول منها. وقيل المراد بالقنوت ادامة الطاعات كما فى قوله تعالى «أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما» وبالسجود الصلاة لما مر من أنه أفضل اركانها وبالركوع الخشوع والاخبات قيل لما أمرت بذلك قامت فى الصلاة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا (ذلك) اشارة الى ماسلف من الامور البديعة وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأن المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل

وهو مبتدأ خبره قوله تعـالي (من انباء الغيب)أى من الانباء المتعلقة بالغيب والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب وقوله تعالى (نوحيه اليك) جملة مستقلة مبينة للاولى وقيل الخبر هو الجملة الثانية ومن انباء الغيب أما متعلق بنوحيه أو حال من ضميره أي نوحي من انباء الغيب أو نوحيه حال كونه من جملة أنباء الغيب وصيغة الأستقبال للايذان بأن الوحي لم ينقطع بعد (وما كنت لديهم)أي عند الذين اختلفوا وتنازعوا فى تربية مريم وهو تقرير وتحقيق لكونه وحيا على طريقة التهكم بمنكريه كما فى قوله تعالى«وما كنت بجانب الغربى»الآية«وما كنت ثاويا فى أهل مدين»الآية فان طريق معرفة أمثال هاتيك الحوادث و الواقعات اما المشاهدة واما السماع وعدمه محقق عندها فبقى احتمال المعاينة المستحيلة ضرورة فنفيت تهكما بهم(اذ يلقون أقلامهم) ظرف للاستقرار العامل فى لديهم أقلامهم أقداحهم التى اقترعوا بها وقيل اقترعوا باقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة تبركا(أيهم يكفل مريم) متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أى يلقونها ينظرون أو ليعلموا أيهم يكفلها (وما كنت لديهم اذ يختصمون) أى فى شأنها تنافسا فى كفالتها حسبما ذكر فيما سبق .وتكرير ما كنت لديهم مع تحقق المقصود بعطف اذ يختصمون على اذ يلقون كما فى قوله عز وجل «نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك وأذهم نجوى »للدلالة على ان كل واحد من عـــدم حضوره عليه الصلاة والسلام عند القاء الاقلام وعدم حضوره عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته عليه الصلاة والسلام لاسيما اذا أريد باختصامهم تنازعهم قبل الاقتراع فان تغيير الترتيب فى الذكر مؤكد له (اذ قالت الملائكة) شروع فى قصة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو بدل من واذ قالت الملائكة منصوب بناصبه وما بينهما اعتراض جيء به تقريرا لما سبق و تنبيها على استقلاله وكونه حقيقا بأن يعد على حياله من شواهد النبوة وترك العطف بينهما بناء على اتحاد المخاطب والمخاطب وايذانا بتقارن الخطابين أو تقاربهما فى الزمان.وقيل منصوب بمضمر معطوف على ناصبه.وقيل بدل من اذ يختصمون كانه قيل وما كنت حاضرا فى ذلك الزمان المديد الذي وقع فى ظرف منه الاختصام وفى طرف آخر هذا الخطاب أشعارا باحاطته عليه الصلاة والسلام بتفاصيل أحوال مريم من أولها الى آخرها والقائل جبريل عليه الصلاة والسلام. وايراد صيغة الجمع لما مر (يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه) من لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أي بكلمة كائنة منه عز وجل (اسمه)ذكر الضمير الراجع الى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر وهو مبتدأ خبره(المسيح) وقوله تعالى (عيسى)بدل منه

أو عطف بيان وقيل خبر آخر وقيل خبر مبتدأ محذوف وقيل منصوب باضمار أعنى مدحا وقوله تعالى (ابن مريم) صفة لعيسى وقيل المراد بالاسم مابه يتميز المسمى عمن سواه فالخبر حينئذ مجموع الثلاثة اذ هو المميز له عليه الصلاة و السلام تمييزا عن جميع من عداه والمسيح لقبه عليه الصلاة و السلام وهو من الالقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه المبارك وعيسى معرب من ايشوع والتصدى لاشتقاقهما من المسح والعيس وتعليله بانه عليه الصلاة والسلام مسح بالبركة أو بما يطهره من الذنوب أو مسحه جبريل عليهما الصلاة والسلام أو مسح الارض ولم يقم فى موضع أو كان عليه السلام يمسح ذا العاهة فيبرأ وبأنه كان فى لونه عيس أى بياض يعلوه حمرة من قبيل الرقم على الماء. وانما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها تنبيها على انه يولد من غير أب فلا ينسب الا الي أمه وبذلك فضلت على نساء العالمين (وجيها فى الدنيا والآخرة) الوجيه ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف وهو حال مقدرة من كلمة فانها وان كانت نكرة لكنها صالحة لان ينتصب بها الحال وتذكيرها باعتبار المعنى والوجاهة فى الدنيا النبوة والتقدم على الناس وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة فى الجنة (ومن المقربين) أي من الله عز وجل وقيل هو اشارة الى رفعه الى السماء وصحبة الملائكة وهو عطف على الحال الاولى وقد عطف عليه قوله تعالى (ويكلم الناس فى المهد وكهلا) أي يكلمهم حال كونه طفلا وكهلا كلام الانبياء من غير تفاوت والمهد مصدر سمي به مايمهد للصبي أي يسوى من مضجعه وقيل انه رفع شابا والمراد وكهلا بعد نزوله وفى ذكر احواله المختلفة المتنافية أشارة الى أنه بمعزل من الالوهية (ومن الصالحين) حال أخرى من كلمة معطوفة على الاحوال السالفة أو من الضمير من الألوهية فى يكلم (قالت) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالت مريم حين قالت لها الملائكة ماقالت فقيل قالت متضرعة الي ربها (رب أنى يكون) أى كيف يكون أو من أين يكون (لى ولد) على وجه الاستبعاد العادي والتعجب واستعظام قدرة الله عز وجل وقيل على وجه الاستفهام والاستفسار بانه بالتزوج أو بغيره ويكون أما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتأخير الفاعل عن الجار والمجرور لمامر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من ولد اذ لو تأخر لكان صفة له واما ناقصة واسمها ولد وخبرها أما أنى واللام متعلقة بمضمر وقع حالا كمامر أو خبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالي (ولم يمسسني بشر) جملة حالية محققة للاستبعاد أى والحال أنى على حالة منافية للولادة (قال) استئناف كما سلف والقائل هو الله تعالى أو جبريل عليه الصلاة والسلام (كذلك الله يخلق مايشاء) الكلام فى اعرابه كمامر

في قصة زكريا بعينه خلا أن أيراد يخلق ههنا مكان يفعل هناك لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فان فكان الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل ولذلك عقب ببيان كيفيته فقيل (اذا قضى أمراً) من الأمور أي أراد شيئاً كما في قوله تعالى «انما أمره اذا أراد شيئاً» وأصل القضاء الاحكام أطلق على الارادة الالهية القطعية المتعلقة بوجود الشيء لايجابها اياه البتة وقيل الامر ومنه قوله تعالى وقضى ربك (فانما يقول له كن) لاغير (فيكون) من غير ريث وهو كما ترى تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولة تأتي المقدورات حسبما تقتضيه مشيئته وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المأمور المطيع للآمر القوي المطاع وبيان لانه تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مدرجا باسباب ومواد معتادة يقدر على خلقها دفعة من غير حاجة الى شيء من الأسباب والمواد (ويعلمه الكتاب) أى الكتابة أو جنس الكتب الالهية (والحكمة) أي العلوم وتهذيب الاخلاق (والتوراة والانجيل) افرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة لزيادة فضلهما وانافتهما على غيرها والجملة عطف على يبشرك أو على وجيها أو على يخلق أو هو كلام مبتدأ سيق تطييباً لقلبها وازاحة لما أهمها من خوف اللائمة لما علمت أنها تلد من غير زوج وقرئ ونعلمه بالنون (ورسولا الى بني اسرائيل) منصوب بمضمر يقود اليه المعني معطوف على يعلمه أى ويجعله رسولا الى بنى اسرائيل أى كلهم وقال بعض اليهود انه كان مبعوثا الى قوم مخصوصين ثم قيل قد كان رسولا حال الصبا وقيل بعد البلوغ وكان أول أنبياء بنى اسرائيل يوسف عليه الصلاة والسلام وآخرهم عيسى عليه الصلاة والسلام وقيل أولهم موسى وآخرهم عيسى عليهما الصلاة والسلام وقوله تعالي (انى قد جئتكم) معمول لرسولا لما فيه من معنى النطق أي رسولا ناطقا بانى الخ وقيل منصوب بمضمر معمول لقول مضمر معطوف على ما يعلمه أى ويقول أرسلت رسولا بانى قد جئتكم الخ وقيل معطوف على الاحوال السابقة ولا يقدح فيه كونها فى حكم الغيبة مع كون هذا فى حكم التكلم لما عرفت من أن فيه معنى النطق كأنه قيل حال كونه وجيها ورسولا ناطقابانى الخ. وقرىء ورسول بالجر عطفا على كلمة والباء فى قوله تعالى (بآية) متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل الفعل على انها للملابسة والتنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها وكثرتها وقرىء بآيات أو بجئتكم على انها للتعدية ومن فى قوله تعالى (من ربكم) لابتداء الغاية مجازا

متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية أي قد جئتكم ملتبسا بآية عظيمة كائنة من ربكم أو أتيتكم بآية عظيمة كائنة منه تعالى والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأكيد ايجاب الامتثال بما سيأتى من الاوامر وقوله تعالى (انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير) بدل من قوله تعالى أنى قد جئتكم ومحله النصب على نزع الجار عند سيبويه والفراء والجر على رأي الخليل والكسائى أو بدل من آية وقيل منصوب بفعل مقدر اي أعنى انى الخ وقيل مرفوع على انه خبر مبتدا محذوف أى هى أنى أخلق لكم . وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف أى أقدر لكم أى لاجل تحصيل ايمانكم ودفع تكذيبكم إياى من الطين شيئا مثل صورة الطير (فأنفخ فيه) الضمير للكاف أى فى ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير وقرىء فأنفخ فيها على أن الضمير للهيئة المقدرة أى أخلق لكم من الطين هيئة كهيئة الطير فأنفخ فيها (فيكون طيرا) حيا طيارا كسائر الطيور (باذن الله) بامره تعالى اشار عليه الصلاة والسلام بذلك الي أن أحياءه من الله تعالى لا منه قيل لم يخلق غير الخفاش روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق الخفاش فاخذ طينا وصوره ونفخ فيه فاذا هو يطير بين السماء والارض قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز من خلق الله تعالى. قيل انما طلبوا خلق الخفاش لانه اكمل الطير خلقا وأبلغ دلالة على القدرة لان له ثديا وأسنانا وهى تحيض وتطهر وتلد كسائر الحيوان وتضحك كما يضحك الانسان وتطير بغير ريش ولا تبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وانما ترى فى ساعتين ساعة بعد الغروب وساعة بعد طلوع الفجر وقيل خلق أنواعا من الطير (وأبرىء الاكمه) أى الذي ولد أعمى أو الممسوح العين (والابرص) المبتلى بالبرص لم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه ويقال له الوضح أيضا وتخصيص هذين الداءين لانهما مما أعيا الاطباء وكانوا فى غاية الحذاقة فى زمنه عليه الصلاة والسلام فاراهم الله تعالى المعجزة من ذلك الجنس روى انه عليه الصلاة والسلام ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداويه الا بالدعاء (وأحيي الموتى باذن الله) كرره مبالغة فى دفع وهم من توهم فيه اللاهوتية قال الكلبى كان عليه الصلاة والسلام يحيي الموتى بياحى ياقيوم أحيا عازر وكان صديقا له فعاش وولد له ومر على ابن عجوز ميت فدعا الله تعالى فنزل عن سريره حيا ورجع الى أهله وبقى وولد له وبنت العاشر أحياها وولدت بعد ذلك فقالوا أنك تحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم

يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحي لنا سام بن نوح فقال دلونى على قبره ففعلوا فقام على قبره فدعا الله عز وجل فقام من قبره وقد شاب رأسه فقال عليه السلام كيف شبت ولم يكن فى زمانكم شيب قال يا روح الله لما دعوتنى سمعت صوتاً يقول أجب روح الله فظننت أن الساعة قد قامت فمن هول ذلك شبت فسأله عن النزع قال يا روح الله أن مرارته لم تذهب من حنجرتى وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنة وقال للقوم صدقوه فانه نبى الله فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحر فأرنا آية فقال يافلان أكلت كذا ويافلان خبىء لك كذا وذلك قوله تعالى (وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم) أى بالمغيبات من أحوالكم التى لاتشكون فيها. وقرىء تذخرون بالذال والتخفيف (ان فى ذلك) اشارة الى ماذكر من الامور العظام (لآية) عظيمة. وقرىء لآيات (لكم) دالة على صحة رسالتى دلالة واضحة (ان كنتم مؤمنين) جواب الشرط محذوف لانصباب المعنى اليه أو دلالة المذكور عليه أى انتفعتم بها أو ان كنتم ممن يتأتى منهم الايمان دلتكم على صحة رسالتى والايمان بها (ومصدقا لما بين يدى من التوراة) عطف على المضمر الذى تعلق به قوله تعالى بآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية الخ ومصدقا لما بين يدى الخ أو على رسولا على الاوجه الثلاثة فان مصدقا فيه معنى النطق كما فى رسولا أى ويجعله مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ ومصدقا الخ أو حال كونه مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو منصوب باضمار فعل دل عليه قد جئتكم أى وجئتكم مصدقا الخ وقوله من التوراة اما حال من الموصول والعامل مصدقا واما من ضميره المستتر فى الظرف الواقع صلة والعامل الاستقرار المضمر فى الظرف أو نفس الظرف لقيامه مقام الفعل (ولاحل لكم) معمول لمضمر دل عليه ماقبله أى وجئتكم لاحل الخ وقيل عطف على معنى مصدقا كقولهم جئته معتذرا ولأجتلب رضاه كأنه قيل قد جئتكم لأصدق ولاحل الخ وقيل عطف على بآية أى قد جئتكم بآية من ربكم ولاحل لكم (بعض الذى حرم عليكم) أى فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام من الشحوم والثروب والسمك ولحوم الابل والعمل فى السبت قيل أحل لهم من السمك والطير مالاصيصة له واختلف فى احلال السبت. وقرىء حرم على تسمية الفاعل وهو مابين يدى أو الله عز وجل وقرىء حرم بوزن كرم وهذا يدل على أن شرعه كان ناسخا لبعض أحكام التوراة ولا يخل ذلك بكونه مصدقا لها لما أن النسخ فى الحقيقة بيان وتخصيص فى الازمان . وتأخير المفعول عن الجار والمجرور لما مر مرارا من المبادرة الى ذكر مايسر المخاطبين والتشويق الى ماأخر (وجئتكم بآية من ربكم) شاهدة على صحة رسالتى. وقرىء بآيات (فاتقوا الله) فى

عدم قبولها ومخالفة مدلولها (وأطيعون) فيما آمركم به وأنهاكم عنه بأمر الله تعالى وتلك الآية هي قولي (ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) فانه الحق الصريح الذي اجمع عليه الرسل قاطبة فيكون آية بينة على أنه عليه الصلاة والسلام من جملتهم. وقرىء أن الله بالفتح بدلا من آية أو قد جئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أي قد جئتكم بآية بعد آية مما ذكرت لكم من خلق الطير وابراء الاكمه والابرص والاحياء والانباء بالخفيات ومن غيره من ولادتي بغير أب ومن كلامي في المهد ومن غير ذلك والاول لتمهيد الحجة والثاني لتقريبها الى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله فاتقوا الله أي لما جئتكم بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعون فيما أدعوكم اليه ومعنى قراءة من فتح ولان الله ربي وربكم فاعبدوه كقوله تعالى «لايلاف قريش» الخ ثم شرع في الدعوة وأشار اليها بالقول المجمل فقال ان الله ربي وربكم اشارة الى أن استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد وقال فاعبدوه اشارة الى استكمال القوة العملية فانه يلازم الطاعة التي هي الاتيان بالاوامر والانتهاء عن المناهي ثم قرر ذلك بان بين أن الجمع بين الامرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «قل آمنت بالله ثم استقم» (فلما أحس عيسى منهم الكفر) شروع في بيان مآل أحواله عليه السلام اثر ما أشير الى طرف منها بطريق النقل عن الملائكة والفاء فصيحة تفصح عن تحقق جميع ماقالته الملائكة وخروجه من القوة الى الفعل حسبما شرحته كما في قوله تعالى «فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله تعالى أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك» كانه قيل فحملته فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت. وانما لم يذكر اكتفاء بحكاية الملائكة وايذانا بعدم الخلف وثقة بما فصل في المواضع الاخر. وأما عدم نظم بقية أحواله عليه الصلاة والسلام في سلك النقل فاما للاعتناء بأمرها أو لعدم مناسبتها لمقام البشارة لما فيها من ذكر مقاساته عليه الصلاة والسلام للشدائد ومعاناته للمكايد. والمراد بالاحساس الادراك القوي الجاري مجرى المشاهدة وبالكفر اصرارهم عليه وعتوهم ومكابرتهم فيه مع العزيمة على قتله عليه الصلاة والسلام كما ينبيء عنه الاحساس فانه انما يستعمل في أمثال هذه المواقع عند كون متعلقه أمرا محذورا مكروها كما في قوله عز وجل «فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون» وكلمة من متعلقة باحس والضمير المجرور لبني اسرائيل أي ابتدأ الاحساس من جهتهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم

والتشويق الى المؤخر وقيل متعلقة بمحذوف وقع حالا من الكفر (قال) أى لخلص أصحابه لا لجميع بنى اسرائيل لقوله تعالى «كما قال عيسى ابن مريم للحواريين» الآية وقوله تعالى «فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة» ليس بنص فى توجيه الخطاب الى الكل بل يكفى فيه بلوغ الدعوة اليهم (من انصارى) الانصار جمع نصير كاشراف جمع شريف (الى الله) متعلق بمحذوف وقع حالا من الياء أي من أنصاري متوجها الى الله ملتجئا اليه أو بانصاري متضمنا معنى الاضافة كانه قيل من الذين يضيفون أنفسهم الى الله عز وجل ينصرونني كما ينصرني وقيل الي معني في أي في سبيل الله وقيل بمعنى اللام وقيل بمعنى مع (قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قالوا فى جوابه عليه الصلاة والسلام فقيل قال (الحواريون) جمع حواري يقال فلان حوارى فلان أي صفوته وخالصته من الحور وهو البياض الخالص ومنه الحواريات للحضريات لخلوص الوانهن ونقائهن سمى به أصحاب عيسى عليه الصلاة و السلام لخلوص نياتهم ونقاء سرائرهم .وقيل لما عليهم من آثار العبادة وانوارها .وقيل كانو ملوكا يلبسون البيض وذلك أن واحدا من الملوك صنع طعاما وجمع الناس عليه وكان عيسى عليه الصلاة والسلام على قصعة لا يزال يأكل منها ولا تنقص فذكروا ذلك للملك فاستدعاه عليه الصلاة والسلام فقال له من أنت قال عيسى بن مريم فترك ملكه وتبعه مع أقاربه فاؤلئك هم الحواريون .وقيل انهم كانوا صيادين يصطادون السمك يلبسون الثياب البيض فيهم شمعون ويعقوب و يوحنا فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام فقال لهم أنتم تصيدون السمك فان اتبعتمونى صرتم بحيث تصيدون الناس بالحياة الابدية قالوا من أنت قال عيسى بن مريم عبد الله ورسوله فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئا فامره عيسى عليه الصلاة والسلام بالقائها فى الماء مرة اخرى ففعل فاجتمع فى الشبكة من السمك ما كادت تتمزق واستعانوا بأهل سفينة اخرى وملؤا السفينتين فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام وقيل كانوا اثنى عشر رجلا آمنوا به عليه الصلاة والسلام واتبعوه وكانوا اذا جاعوا قالوا جعنا يا روح الله فيضرب بيده الارض فيخرج منها لكل واحد رغيفان واذا عطشوا قالوا عطشنا فيضرب بيده الارض فيخرج منها الماء فيشربون فقالوا من أفضل منا قال عليه الصلاة والسلام أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فصاروا يغسلون الثياب بالاجرة فسموا حواريين وقيل أن أمه سلمته الى صباغ فاراد الصباغ يوما أن يشتغل ببعض مهماته فقال له عليه الصلاة والسلام ههنا ثياب مختلفة قد جعلت لكل واحد منها

علامة معينة فاصبغها بتلك الالوان فغاب فجعل عليه الصلاة والسلام كلها فى حب واحد وقال كونى باذن الله كما اريد فرجع الصباغ فسأله فاخبره بما صنع فقال أفسدت على الثياب قال قم فانظر فجعل يخرج ثوبا أحمر وثوبا أخضر وثوبا أصفر الى أن أخرج الجميع على أحسن ما يكون حسبما كان يريد فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به عليه الصلاة والسلام وهم الحواريون قال القفال ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثنى عشر من الملوك وبعضهم من صيادى السمك وبعضهم من القصارين وبعضهم من الصباغين والكل سموا بالحواريين لانهم كانوا أنصار عيسى عليه الصلاة والسلام وأعوانه والمخلصين فى طاعته ومحبته (نحن أنصار الله) أى أنصار دينه ورسوله (آمنا بالله) استئناف جار مجرى العلة لما قبله فان الايمان به تعالى موجب لنصرة دينه والذب عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه (واشهد بانا مسلمون) مخلصون فى الايمان منقادون لما تريد منا من نصرتك طلبوا منه عليه الصلاة والسلام الشهادة بذلك يوم القيامة يوم يشهد الرسل عليهم الصلاة والسلام لاممهم وعليهم ايذانا بأن مرمى غرضهم السعادة الاخروية (ربنا آمنا بما أنزلت) تضرع الى الله عز وجل وعرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضها على الرسول مبالغة فى اظهار أمرهم (واتبعنا الرسول) أى فى كل ما يأتى ويذر من أمور الدين فيدخل فيه الاتباع فى النصرة دخولا أوليا (فاكتبنا مع الشاهدين) أى مع الذين يشهدون بوحدانيتك أو مع الانبياء الذين يشهدون لاتباعهم أو مع أمة محمد عليه الصلاة والسلام فانهم شهداء على الناس قاطبة وهو حال من مفعول اكتبنا (ومكروا) أى الذين علم عيسى عليه الصلاة والسلام كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة (ومكر الله) بان رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث انه فى الاصل حيلة يجلب بها غيره الى مضرة لا يمكن اسناده اليه سبحانه الا بطريق المشاكلة روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ملك بنى اسرائيل لما قصد قتله عليه الصلاة والسلام أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة الى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم ادخل عليه فاقتله فدخل البيت فالقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه. وقيل انه عليه الصلاة والسلام جمع الحواريين ليلة وأوصاهم ثم قال ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فنافق أحدهم فقال لهم ما تجعلون لى ان دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فاخذها ودلهم عليه فالقى الله عز وجل عليه شبه عيسى عليه الصلاة

والسلام ورفعه الى السماء فاخذوا المنافق وهو يقول أنا دليلكم فلم يلتفتوا الى قوله وصلبوه ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى و بدنه يشبه بدن صاحبنا فان كان هذا عيسى فاين صاحبنا وان كان صاحبنا فاين عيسى فوقع بينهم قتال عظيم. وقيل لما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة ابرأها الله تعالى من الجنون بدعاء عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلتا تبكيان على المصلوب فانزل الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام فجاءهما فقال علام تبكيان فقالتا عليك فقال ان الله تعالى رفعني ولم يصبني الاخير وان هذا شيء شبه لهم قال محمد بن اسحق ان اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له ان رجلا من بني اسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وفعل وفعل فقال لو علمت ذلك ما خليت بينهم وبينه ثم بعث الى الحواريين فانتزعهم من أيديهم وسالهم عن عيسى عليه الصلاة والسلام فاخبروه فبايعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فاكرمها ثم غزا بنى اسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ، ومنه ظهر أصل النصرانية فى الروم ثم جاء بعده ملك آخر يقال له ططيوس وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام بنحو من أربعين سنة فقتل وسبي ولم يترك فى مدينة بيت المقدس حجراً على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير الى الحجاز . قال أهل التواريخ حملت مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض أوري شلم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل وأوحى الله تعالى اليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه اليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين (والله خير الماكرين) أقواهم مكراً وأنفذهم كيداً وأقدرهم على ايصال الضرر من حيث لا يحتسب واظهار الجلالة فى موقع الاضمار لتربية المهابة والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله (اذ قال الله) ظرف لمكر الله أو لمضمر نحو وقع ذلك (ياعيسى انى متوفيك) أى مستوفى أجلك ومؤخرك الى أجلك المسمى عاصما لك من قتلهم أو قابضك من الارض من توفيت مالي أو متوفيك نائماً اذ روى أنه رفع وهو نائم وقيل مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن أو مميتك من الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت وقيل أماته الله تعالى سبع ساعات ثم رفعه الى السماء واليه ذهبت النصارى قال القرطبى والصحيح أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو

اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما وأصل القصة أن اليهود لما عزموا على قتله عليه الصلاة والسلام اجتمع الحواريون وهم اثنا عشر رجلا فى غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر بهم ابليس جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين ايكم يخرج و يقتل و يكون معى فى الجنة فقال واحد منهم أنا يانبى الله فألقى عليه مدرعة من صوف و عمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه. وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فكساه الله الريش والنور وألبسه النور وقطع عنه شهوة المطعم والمشرب وذلك قوله تعالى «انى متوفيك» فطار مع الملائكة ثم ان أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق فقالت فرقة كان الله فينا ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية وقالت فرقة أخرى كان فينا ابن الله ماشاء الله ثم رفعه الله اليه وهم النسطورية وقالت فرقة أخرى منهم كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء الله ثم رفعه الله اليه وهؤلاء هم المسلمون فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم فلم يزل الاسلام منطمساً الى أن بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم (ورافعك الى) أي الى محل كرامتى ومقر ملائكتى (ومطهرك من الذين كفروا) أى من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ودنس معاشرتهم (وجاعل الذين اتبعوك) قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل والكلبي هم أهل الاسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من النصارى (فوق الذين كفروا) وهم الذين مكروا به عليه الصلاة والسلام ومن يسير بسيرتهم من اليهود فان أهل الاسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة. وقيل هم الحواريون فينبغى أن تحمل فوقيتهم على فوقية المسلمين بحكم الاتحاد فى الاسلام والتوحيد وقيل هم الروم. وقيل هم النصارى فالمراد بالاتباع مجرد الادعاء والمحبة والا فأولئك الكفرة بمعزل من اتباعه عليه الصلاة والسلام (الي يوم القيامة) غاية للجعل أو للاستقرار المقدر فى الظرف لا على معنى أن الجعل أو الفوقية تنتهى حينئذ ويتخلص الكفرة من الذلة بل على معنى أن المسلمين يعلونهم الى تلك الغاية فاما بعدها فيفعل الله تعالى بهم مايريد (ثم الي مرجعكم) أى رجوعكم بالبعث وثم للتراخى وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب فى ضمن الالتفات فانه أبلغ فى التبشير والانذار (فأحكم بينكم) يومئذ أثر رجوعكم الى (فيما

كنتم فيه تختلفون) من أمور الدين وفيه متعلق بتختلفون وتقديمه عليه لرعاية الفواصل (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديدا) تفسير للحكم الواقع بين الفريقين وتفصيل لكيفيته والبداية ببيان حال الكفرة لما أن مساق الكلام لتهديدهم وزجرهم عما هم عليه من الكفر والعناد وقوله تعالى (فى الدنيا والآخرة) متعلق بأعذبهم لا بمعنى إيقاع كل واحد من التعذيب فى الدنيا والتعذيب فى الآخرة واحداثهما يوم القيامة بل بمعنى اتمام مجموعهما يؤمئذ. وقيل أن المرجع أعم من الدنيوى والاخروى وقوله تعالى الى يوم القيامة غاية للفوقية لا للجعل والرجوع متراخ عن الجعل وهو غير محدود لا عن الفوقية المحدودة على نهج قولك سأعيرك سكنى هذا البيت شهراً ثم اخلع عليك خلعة فيلزم تأخر الخلع عن الاعارة لا عن الشهر (وما لهم من ناصرين) يخلصونهم من عذاب الله تعالى فى الدارين. وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أى ليس لواحد منهم ناصر واحد (وأما الذين آمنوا) بما أرسلت به (وعملوا الصالحات) كما هو ديدن المؤمنين (فيوفيهم أجورهم) أى يعطيهم اياها كاملة ولعل الالتفات الى الغيبة للايذان بما بين مصدرى التعذيب والأثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال. وقرئ فيوفيهم جريا على سنن العظمة والكبرياء (والله لا يحب الظالمين) أى يبغضهم فان هذه الكناية فاشية فى جميع اللغات جارية مجرى الحقيقة. وايراد الظلم للاشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزون عن الحدود واضعون للكفر مكان الشكر والايمان والجملة تذييل لما قبله مقرر لمضمونه (ذلك) اشارة الى ماسلف من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد للدلالة على شأن المشار اليه وبعد منزلته فى الشرف وعلى كونه فى ظهور الامر ونباهة الشأن بمنزلة المشاهد المعاين وهو مبتدأ وقوله عز وجل (نتلوه) خبره وقوله تعالى (عليك) متعلق بنتلوه وقوله تعالى (من الآيات) حال من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وما بينهما حال من اسم الاشارة أو ذلك خبر لمبتدأ مضمر أى الامر ذلك ونتلوه حال كما مر وصيغة الاستقبال أما لاستحضار الصورة أو على معناها إذ التلاوة لم تتم بعد (والذكر الحكيم) أى المشتمل على الحكم أو الحكم الممنوع من تطرق الخلل اليه والمراد به القرآن فمن تبعيضية أو بعض مخصوص منه فمن بيانية. وقيل هو اللوح المحفوظ فمن ابتدائيه (ان مثل عيسى) أى فى شأنه البديع المنتظم لغرابته فى سلك الامثال (عند الله) أى فى تقديره وحكمه (كمثل آدم) أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مرتاب ولا ينازع فيها منازع (خلقه من تراب) تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه

الشبه بينهما وحسم لمادة شبه الخصوم فان انكار خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه الصلاة والسلام بغير أب وأم مما لايكاد يصح والمعنى خلق قالبه من تراب (ثم قال له كن فيكون) أى أنشأه بشرا كما فى قوله تعالى «ثم أنشأناه خلقاً آخر» أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه ويجوز كون ثم لتراخى الاخبار لا لتراخى المخبر به (فيكون) حكاية حال ماضية . روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مالك تشتم صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول انه عبد قال «اجل هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها الي العذراء البتول» فغضبوا وقالوا هل رأيت انساناً من غير أب فحيث سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله فقال عليه الصلاة والسلام «ان آدم عليه الصلاة والسلام ما كان له أب ولا أم ولم يلزم من ذلك كونه ابنا لله سبحانه وتعالى فكذا حال عيسى عليه الصلاة والسلام » (الحق من ربك) خبر مبتدا محذوف أى هو الحق أى ماقصصنا عليك من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه والظرف أما حال أى كائنا من ربك أو خبر ثان أى كائن منه تعالى وقيل هما مبتدأ وخبر أي الحق المذكور من الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتشريفه عليه الصلاة والسلام والايذان بأن تنزيل هذه الآيات الحقة الناطقة بكنه الامر تربية له عليه الصلاة والسلام ولطف به (فلا تكن من الممترين) فى ذلك والخطاب إما للنبى صلى الله عليه وسلم على طريقة الالهاب والتهييج لزيادة التثبيت والاشعار بأن الامتراء فى المحذورية بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يكاد يمكن صدوره عنه فكيف بمن هو بصدد الامتراء وأما لكل من له صلاحية الخطاب (فمن حاجك) أى من النصارى إذ هم المتصدون للمحاجة (فيه) أى فى شأن عيسى عليه السلام وأمه زعماً منهم أنه ليس على الشأن المحكى (من بعد ماجاءك من العلم) أى مايوجبه إيجابا قطعياً من الآيات البينات وسمعوا ذلك منك فلم يرعوا عما هم عليه من الغى والضلال (فقل) لهم (تعالوا) أى هلموا بالرأى والعزيمة (ندع أبناءنا وأبناءكم) اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم أعز منهم وأما النساء فتعلقهن من جهة أخرى (ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه الى المباهلة ويحملهم عليها وتقديمهم على النفس فى أثناء المباهلة التى هى من باب المهالك ومظان التلف مع أن الرجل يخاطر لهم بنفسه ويحارب دونهم للايذان بكمال أمنه عليه السلام وتمام ثقته بأمره وقوة يقينه بأنه لن يصيبهم فى ذلك شائبة مكروه أصلا وهو السر فى تقديم جانبه عليه السلام على جانب المخاطبين فى كل من المقدم والمؤخر مع رعاية الأصل

فى الصيغة فان غير المتكلم تبع له فى الاسناد (ثم نبتهل) أى نتباهل بأن نلعن الكاذب منا والبهلة بالضم والفتح اللعنة وأصلها الترك من قولهم بهلت الناقة أى تركتها بلا صرار (فنجعل لعنت الله على الكاذبين) عطف على نبتهل مبين لمعناه . روى أنهم لما دعوا الى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ما ترى فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فان أبيتم الا الف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها رضى الله عنهم أجمعين وهو يقول «اذا أنا دعوت فأمنوا» فقال اسقف نجران يا معشر النصارى انى لارى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الارض نصرانى الى يوم القيامة فقالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وان نقرك على دينك ونثبت على ديننا قال صلى الله عليه وسلم «فاذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين فابوا قال عليه الصلاة والسلام فانى أناجزكم فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى اليك كل عام ألفى حلة ألفاً فى صفر وألفاً فى رجب وثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال والذى نفسى بيده أن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولولاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رءوس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا» (ان هذا) أي ما قص من نبأ عيسى وأمه عليهما السلام (لهو القصص الحق) دون ما عداه من أكاذيب النصاري فهو ضمير الفصل دخلته اللام لكونه أقرب الى المبتدأ من الخبر وأصلها أن تدخل المبتدأ وقريء لهو بسكون الهاء والقصص خبران والحق صفته أوهو مبتدأ والقصص خبره والجملة خبر لأن (وما من إله الا الله) صرح فيه بمن الاستغراقية تأكيدا للرد على النصارى فى تثليثهم (وان الله لهو العزيز) القادر على جميع المقدورات (الحكيم) المحيط بالمعلومات لا أحد يشاركه فى القدرة والحكمة ليشاركه فى الالوهية (فان تولوا) عن التوحيد وقبول الحق الذى قص عليك بعد ما عاينوا تلك الحجج النيرة والبراهين الساطعة (فان الله عليم بالمفسدين) أى بهم وانما وضع موضعه ما وضع للايذان بأن الاعراض عن التوحيد والحق الذى لا محيد عنه بعد ما قامت به

الحجج افساد للعالم وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى (قل يا أهل الكتاب) أمر بخطاب أهل الكتابين وقيل بخطاب وفد نجران وقيل بخطاب يهود المدينة (تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم) لا يختلف فيها الرسل والكتب وهي (أن لانعبد الا الله) أي نوحده بالعبادة ونخلص فيها (ولا نشرك به شيئاً) ولا نجعل غيره شريكا له في استحقاق العبادة ولا نراه اهلا لان يعبد ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) بأن نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله ولانطيع الاحبار فيما احدثوا من التحريم و التحليل لان كلا منهم بعضنا بشر مثلنا روى أنه لما نزلت «اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال عدي بن حاتم ما كنا نعبدهم يارسول الله فقال عليه السلام أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال عليه السلام هو ذاك» (فان تولوا) عما دعوتهم اليه من التوحيد وترك الاشراك (فقولوا) أي قل لهم أنت والمؤمنون (اشهدوا بانا مسلمون) أي لزمتكم الحجة فاعترفوا بانا مسلمون دونكم أو اعترفو بانكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم السلام (تنبيه) انظر الى ماروعي في هذه القصة من المبالغة في الارشاد وحسن التدرج في المحاجة حيث بين أولا أحوال عيسى عليه السلام وما توارد عليه من الاطوار المنافية الالهية ثم ذكر كيفية دعوته للناس الي التوحيد والاسلام فلما ظهر عنادهم دعوا الى المباهلة بنوع من الاعجاز ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد دعوا الى ما اتفق عليه عيسى عليه السلام و الانجيل وسائر الانبياء عليهم السلام والكتب ثم لما ظهر عدم اجدائه أيضا أمر بان يقال لهم اشهدوا بانا مسلمون (يا أهل الكتاب) من اليهود والنصارى (لم تحاجون في ابراهيم) أي في ملته وشريعته تنازعت اليهود والنصاري في ابراهيم عليه السلام وزعم كل منهم انه عليه السلام منهم وترافعوا الى رسول الله صلى عليه وسلم فنزلت و المعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم (وما أنزلت التوراة) على موسى عليه الصلاة والسلام (والانجيل) على عيسى عليه الصلاة و السلام (الا من بعده) حيث كان بينه وبين موسى عليهما السلام ألف سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة فكيف يمكن أن يتفوه به عاقل (أفلا تعقلون) أي ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه (ها أنتم هؤلاء) جملة من مبتدا وخبر صدرت بحرف التنبية ثم بينت بجملة مستأنفة اشعارا بكمال غفلتهم أي أنتم هؤلاء الاشخاص الحمقى حيث (حاججتم فيما لكم به علم) في الجملة حيث وجدتموه في التوراة والانجيل (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم)

أصلا اذ لا ذكر لدين ابراهيم في أحد الكتابين قطعا وقيل هؤلاء بمعنى الذى وحاججتم صلته وقيل ها أنتم أصله أأنتم على الاستفهام للتعجب قلبت الهمزة هاء (والله يعلم) ما حاججتم فيه أو كل شيء فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا (وأنتم لا تعلمون) أى محل النزاع أو شيئا من الاشياء التى من جملتها ذلك (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا) تصريح بما نطق به البرهان المقرر (ولكن كان حنيفا) أى مائلا عن العقائد الزائغة كلها (مسلما) أى منقادا لله تعالى وليس المراد أنه كان على ملة الاسلام والا لاشترك الالزام (وما كان من المشركين) تعريض بأنهم مشركون بقولهم عزيز ابن الله والمسيح ابن الله ورد لادعاء المشركين انهم على ملة ابراهيم عليه والسلام (ان أولي الناس بابراهيم) أي اقربهم اليه واخصهم به (للذين اتبعوه) أي فى زمانه (وهذا النبي والذين آمنوا) لموافقتهم له فى اكثر ماشرع لهم على الاصالة. وقرىء والنبى بالنصب عطفا على الضمير فى اتبعوه وبالجر عطفاً على ابراهيم (والله ولى المؤمنين) ينصرهم ويجازيهم الحسنى بايمانهم. وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبت الحكم فى النبي صلى الله عليه وسلم بدلالة النص (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) نزلت فى اليهود حين دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً الى اليهودية ولو بمعنى أن (وما يضلون الا أنفسهم) جملة حالية جيء بها للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ماهم عليه من الدين القويم أي وما يتخطاهم الأضلال ولا يعود وباله الا اليهم لما أنه يضاعف به عذابهم. وقيل وما يضلون الا أمثالهم ويأباه قوله تعالي (وما يشعرون) أي اختصاص وباله وضرره بهم (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) أي بما نطقت به التوراة والانجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تشهدون) أي والحال أنكم تشهدون أنها آيات الله أو بالقرآن وانتم تشهدون نعته فى الكتابين أو تعلمون بالمعجزات انه حق (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) بتحريفكم وابراز الباطل فى صورته أو بالتقصير فى التمييز بينهما وقريء تلبسون بالتشديد وتلبسون بفتح الباء أي تلبسون الحق مع الباطل كما فى قوله عليه السلام «كلابس ثوبى زور» (وتكتمون الحق) أي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته (وأنتم تعلمون) أي حقيته (وقالت طائفة من أهل الكتاب) وهم رؤساؤهم ومفسدوهم لاعقابهم (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا) أي أظهروا الايمان بالقرآن المنزل عليهم (وجه النهار) أي أوله (واكفروا) أي أظهروا ما أنتم عليه من الكفر به (آخره) مرائين لهم أنكم آمنتم به بادئ الرأى

من غير تأمل ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الاول فرجعتم عنه (لعلهم) أي المؤمنين (يرجعون) عما هم عليه من الايمان به كما رجعتم. والمراد بالطائفة كعب ابن الأشرف ومالك بن الصيف قالا لاصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة الى الكعبة وصلوا اليها أول النهار ثم صلوا الى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون وقيل هم اثنا عشر رجلا من أحبار خيبر تقاولوا بان يدخلوا فى الاسلام اول النهار ويقولوا آخره نظرنا فى كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا بالنعت الذى ورد فى التوراة لعل أصحابه يشكون فيه (ولا تؤمنوا) أي لا تقروا بتصديق قلبى (الا لمن تبع دينكم) أي لاهل دينكم أو لاتظهروا ايمانكم وجه النهار الا لمن كان على دينكم من قبل فان رجوعهم أرجى وأهم (قل ان الهدى هدى الله) يهدى به من يشاء الى الايمان ويثبته عليه (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) متعلق بمحذوف أي دبرتم ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو بلا تؤمنوا أى ولا تظهروا ايمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم الا لاشياعكم ولاتفشوه الي المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا الى المشركين لئلا يدعوهم الى الاسلام. وقوله تعالى «قل ان الهدى هدى الله» اعتراض مفيد لكون كيدهم غير مجد لطائل أو خبران على أن هدى الله بدل من الهدى وقرىء أأن يؤتى على الاستفهام التقريعى وهو مؤيد للوجه الاول أي لأن يؤتى أحد الخ دبرتم . وقرىء ان على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة أي ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم وقولوا لهم مايؤتى أحد مثل ما أوتيتم (أو يحاجوكم عند ربكم) عطف على أن يؤتى على الوجهين الاولين وعلى الثالث معناه حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم والواو ضمير أحد لانه فى معنى الجمع اذ المراد به غير اتباعهم (قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) رد لهم وابطال لما زعموه بالحجة الباهرة (يختص برحمته) أي يجعل رحمته مقصورة على (من يشاء والله ذو الفضل العظيم) كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه (ومن أهل الكتاب) شروع فى بيان خيانتهم فى المال بعد بيان خيانتهم فى الدين والجار والمجرور فى محل الرفع على الابتداء حسبما مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ خبره قوله تعالى (من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك) على أن المقصود بيان اتصافهم بمضمون الجملة الشرطية لا كونهم ذوات المذكورين كانه قيل بعض أهل الكتاب بحيث ان تأمنه بقنطار أي بمال كثير يؤده اليك كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية ذهبا فاداه اليه (ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك) كفنحاص بن عازوراء استودعه

قرشي آخر دينارا فجحده وقيل المأمونون على الكثير النصاري اذ الغالب فيهم الامانة والخائنون فى القليل اليهود اذ الغالب فيهم الخيانة (الا مادمت عليه قائما) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أو الاوقات أى لايؤده اليك فى حال من الاحوال أوفى وقت من الاوقات الا فى حال دوام قيامك أو فى وقت دوام قيامك على رأسه مبالغا فى مطالبته بالتقاضى واقامة البينة (ذلك) اشارة الى ترك الاداء المدلول عليه بقوله تعالى لايؤده وما فيه من معنى البعد للايذان بكمال غلوهم فى الشر والفساد (بأنهم) أى بسبب أنهم (قالوا ليس علينا فى الاميين) أي فى شأن من ليس من أهل الكتاب (سبيل) أى عتاب ومؤاخذة (ويقولون على الله الكذب) بادعائهم ذلك (وهم يعلمون) انهم كاذبون مفترون على الله تعالى وذلك لانهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا لم يجعل فى التوراة فى حقهم حرمة . وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك فى كتابهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله مامن شيء فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى الا الامانة فانها مؤداة الي البر والفاجر» (بلى) اثبات لما نفوه أى بلى له عليهم فيهم سبيل وقوله تعالى (من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين) استئناف مقرر للجملة التى سد بلى مسدها والضمير المجرور لمن أو لله تعالي وعموم المتقين نائب مناب الراجع من الجزاء الى من ومشعر بان التقوى ملاك الامر عام للوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهى (ان الذين يشترون) أى يستبدلون ويأخذون (بعهد الله) أى بدل ماعاهدوا عليه من الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم والوفاء بالامانات (وأيمانهم) وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه (ثمنا قليلا) هو حطام الدنيا (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات القبيحة (لاخلاق) لانصيب (لهم فى الآخرة) من نعيمها (ولايكلمهم الله) أى بما يسرهم أو بشيء أصلا وانما يقع مايقع من السؤال والتوبيخ والتقريع فى أثناء الحساب من الملائكة عليهم السلام أولا ينتفعون بكلمات الله تعالى وآياته والظاهر أنه كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك لقوله تعالى (ولا ينظر اليهم يوم القيامة) فانه مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم متفرع على الكناية فى حق من يجوز عليه النظر لان من اعتد بالانسان التفت اليه وأعاره نظر عينيه ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والاحسان وان لم يكن ثمة نظر ثم جاء فيمن لايجوز عليه النظر مجردا لمعنى الاحسان مجازا عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ويوم القيامة متعلق بالفعلين وفيه

تهويل للوعيد (ولا يزكيهم) أى لايثنى عليهم أو لايطهرهم من أوضار الاوزار (ولهم عذاب أليم) على مافعلوه من المعاصى قيل انها نزلت فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وحيي بن أخطب حرفوا التوراة و بدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا الرشوة على ذلك وقيل نزلت فى الاشعث بن قيس حيث كان بينه و بين رجل نزاع فى بئر فاختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « شاهداك أو يمينه فقال الاشعث اذن يحلف ولا يبالى فقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان» وقيل فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به (وان منهم) أى من اليهود المحرفين (لفريقا) ككعب بن الاشرف ومالك بن الصيف وأضرابهما (يلوون ألسنتهم بالكتاب) أى يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل الى المحرف أو يعطفونها بشبه الكتاب. وقرىء يلوون بالتشديد و يلون بقلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها والقاء حركتها على ما قبلها من الساكن (لتحسبوه) أي المحرف المدلول عليه بقوله تعالى يلوون الخ وقرىء بالياء والضمير للمسلمين (من الكتاب) أى من جملته وقوله تعالى (وما هو من الكتاب) حال من الضمير المنصوب أي والحال أنه ليس منه فى نفس الامر وفى اعتقادهم أيضا (ويقولون) مع ماذكر من اللى والتحريف على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض (هو) أى المحرف (من عند الله) أي منزل من عند الله (وما هو من عند الله) حال من ضمير المبتدأ فى الخبر أى والحال أنه ليس من عنده تعالى فى اعتقادهم أيضا وفيه من المبالغة فى تشنيعهم وتقبيح أمرهم وكمال جراءتهم مالا يخفى واظهار الاسم الجليل والكتاب فى محل الاضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أنهم كاذبون ومفترون على الله تعالى وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الاشرف وغيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب الذى عندهم (ما كان لبشر) بيان لافترائهم على الانبياء عليهم السلام حيث قال نصارى نجران ان عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذه ربا حاشاه عليه السلام وابطال له اثر بيان افترائهم على الله سبحانه و ابطاله أى ما صح وما استقام لاحد وانما قيل لبشر اشعارا بعلة الحكم فان البشرية منافية للامر الذى أسنده الكفرة اليهم (أن يؤتيه الله الكتاب) الناطق بالحق الآمر بالتوحيد الناهي عن الاشراك (والحكم) الفهم والعلم أو الحكمة وهى السنة

(والنبوة ثم يقول) ذلك البشر بعد ما شرفه الله عز وجل بما ذكر من التشريفات وعرفه الحق وأطلعه على شئونه العالية (للناس كونوا عباداً لى) الجار متعلق بمحذوف هو صفة عباد أى عبادا كائنين لى (من دون الله) متعلق بلفظ عباداً لما فيه من معنى الفعل أو صفة ثانية له ويحتمل الحالية لتخصص النكرة بالوصف أي متجاوزين الله تعالى سواء كان ذلك استقلالا أو اشتراكا فان التجاوز متحقق فيهما حتما. قيل ان أبا رافع القرظى والسيد النجرانى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال عليه السلام «معاذالله أن نعبد غيرالله تعالى وأن نأمر بعبادة غيره تعالى فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى فنزلت» وقيل قال رجل من المسلمين يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجدلك قال عليه السلام «لاينبغى أن يسجد لاحد من دون الله تعالى ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لاهله» (ولكن كونوا) أي ولكن يقول كونوا (ربانيين) الربانى منسوب الى الرب بزيادة الالف والنون كاللحيانى والرقبانى وهو الكامل فى العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل ودينه (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أى بسبب مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته أى قراءته فان جعل خبر كان مضارعا لافادة الاستمرار التجددي وتكرير بما كنتم للايذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها أولان الخطاب الاول لرؤسائهم والثانى لمن دونهم. وقرىء تعلمون بمعنى عالمين وتدرسون من التدريس وتدرسون من الادراس بمعنى التدريس كأكرم بمعنى كرم ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضا بهذا المعنى على تقدير بما تدرسونه على الناس (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) بالنصب عطفا على ثم يقول ولا مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله تعالى «ما كان لبشر» أى ما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا وتوسيط الاستدراك بين المعطوفين للمسارعة الى تحقيق الحق ببيان ما يليق بشأنه ويحق صدوره عنه اثر تنزيهه عما لا يليق بشأنه ويمتنع صدوره عنه. وأما ما قيل من انها غير مزيدة على معنى انه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ اكفائه أربابا بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة فيقضى بفساده ما ذكر من توسيط الاستدراك بين الجملتين المتعاطفتين ضرورة أنهما حينئذ فى حكم جملة واحدة وهذا قوله تعالى (أيأمركم بالكفر) فانه صريح فى أن المراد بيان انتفاء كلا الامرين قصدا لا بيان انتفاء الاول لانتفاء الثانى ويعضده قراءة الرفع على الاستئناف وتجويز الحالية بتقدير المبتدا أى وهو لا يأمركم الى آخره بين

الفساد لما عرفته آنفاً وقوله تعالى (بعد اذ أنتم مسلمون) يدل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون للسجود له عليه السلام (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) منصوب بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم أي اذكر وقت أخذه تعالى ميثاقهم (لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) قيل هو على ظاهره واذا كان هذا حكم الانبياء عليهم السلام كان الامم بذلك أولى وأحرى. وقيل معناه أخذ الميثاق من النبيين وأممهم واستغني بذكرهم عن ذكرهم وقيل اضافة الميثاق الى النبيين اضافة الى الفاعل والمعني واذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الانبياء على أممهم. وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو اسرائيل أو سماهم نبيين تهكما بهم لانهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لانا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا واللام فى لما موطئة للقسم لان أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف. وما تحتمل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية. وقرئ لما بالكسر على أن ما مصدرية أى لاجل ايتائى اياكم بعض الكتاب ثم لمجيء رسول مصدق أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه أو موصولة والمعني أخذه للذى آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له. وقرئ لما بمعني حين آتيتكم أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لما بالادغام فحذف إحدي الميمات الثلاث استثقالا (قال) أى الله تعالى بعد ما أخذ الميثاق (أأقررتم) بما ذكر (وأخذتم على ذلكم اصري) أي عهدى سمى به لانه يؤصر أى يشد. وقرئ بضم الهمزة وهى امالغة فيه كعبر وعبر أو جمع اصار وهو ما يشد به (قالوا) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا (أقررنا) وانما لم يذكر أخذهم الاصر اكتفاء بذلك (قال) تعالى (فاشهدوا) أي فليشهد بعضكم على بعض بالاقرار وقيل الخطاب فيه للملائكة (وأنا معكم من الشاهدين) أى وأنا أيضاً على اقراركم ذلك وتشاهدكم شاهد وادخال مع على المخاطبين لما أنهم المباشرون للشهادة حقيقة وفيه من التأكيد والتحذير ما لا يخفى (فمن تولى) أى أعرض عما ذكر (بعد ذلك) الميثاق والتوكيد بالاقرار والشهادة فمعني البعد فى اسم الاشارة لتفخيم الميثاق (فاولئك) إشارة الى من والجمع باعتبار المعني كما أن الافراد فى تولى باعتبار اللفظ وما فيه من معني البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى السوء وبعد منزلتهم فى الشر والفساد أى فاولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة (هم الفاسقون) المتمردون الخارجون عن الطاعة من الكفرة فان الفاسق من كل طائفة من كان متجاوزا عن الحد (أفغير دين الله يبغون) عطف على مقدر

أي أيتولون فيبغون غير دين الله. وتقديم المفعول لانه المقصود انكاره أو على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للانكار وقرئ بتاء الخطاب على تقدير وقل لهم (وله أسلم من في السموات والارض) جملة حالية مفيدة لوكادة الانكار (طوعا وكرها) أي طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجئ الي الاسلام كنتق الجبل وادراك الغرق والاشراف على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فانهم لا يقدرون على الامتناع عما قضى عليهم (واليه يرجعون) أى من فيهما والجمع باعتبار المعنى وقرئ بتاء الخطاب والجملة اما معطوفة على ما قبلها منصوبة على الحالية واما مستأنفة سيقت للتهديد والوعيد (قل آمنا بالله) أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه ومن معه من المؤمنين بالايمان بما ذكر وجمع الضمير فى قوله تعالي (وما أنزل علينا) وهو القرآن لما أنه منزل عليهم أيضا بتوسط تبليغه اليهم أو لان المنسوب الى واحد من الجماعة قد ينسب الى الكل أو عن نفسه فقط وهو الانسب بما بعده والجمع لاظهار جلالة قدره عليه السلام ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك ويجوز أن يكون الامر عاما والافراد لتشريفه عليه السلام والايذان بأنه عليه السلام أصل فى ذلك كما فى قوله تعالى « يا أيها النبي اذا طلقتم النساء » (وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) من الصحف والنزول كما يعدي بالى لانتهائه الى الرسل يعدى بعلى لانه من فوق ومن رام الفرق بأن على لكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والى لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسف ألا يرى الى قوله تعالى بما أنزل الخ وقوله آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا الخ وانما قدم المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أنزل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدمه عليه نزولا لانه المعروف له والعيار عليه والاسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وأبناؤه الاثنا عشر وزراريهم فانهم حفدة ابراهيم عليه السلام (وما أوتى موسى وعيسى) من التوراة والانجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما كما ينبئ عنه ايثار الايتاء على الانزال الخاص بالكتاب وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى (والنبيون) عطف على موسى وعيسى عليهما السلام أى وما أوتى النبيون من المذكورين وغيرهم (من ربهم) من الكتب والمعجزات (لانفرق بين أحد منهم) كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل نؤمن بصحة نبوة كل منهم وبحقيقة ما أنزل اليهم فى زمانهم وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور اياه وقد

مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى « لانفرق بين أحد من رسله » وهمزة أحدا ماأصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس وأما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وغيره كما قول فى النابغة:

فما كان بين الخير اذجاء سالما ... أبو حجر الاليال قلائل

أى بين الخير وبينى (ونحن له مسلمون) أى منقادون أومخلصون له تعالى أنفسنا لانجعل له شريكا فيها وفيه تعريض بايمان أهل الكتاب فانه بمعزل من ذلك (ومن يبتغ غير الاسلام) أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحا والمدعين للتوحيد مع اشراكهم كاهل الكتابين (دينا) ينتحل اليه وهو نصب على أنه مفعول ليبتغ وغير الاسلام حال منه لما أنه كان صفة له فلما قدمت عليه انتصبت حالا أوهو المفعول ودينا تمييز لما فيه من الابهام أو بدل من غير الاسلام (فلن يقبل) ذلك (منه) أبداً بل يرد أشد رد وأقبحه وقوله تعالى (وهو فى الآخرة من الخاسرين) أما حال من الضمير المجرور أواستئناف لامحل له من الاعراب أى من الواقعين فى الخسران والمعنى أن المعرض عن الاسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع فى الخسران بابطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الاسلام واطمأن بذلك أفظع وأقبح واستدل به على أن الايمان هو الاسلام اذلو كان غيره لم يقبل والجواب أنه ينفى قبول كل دين يغايره لاقبول كل مايغايره (كيف يهدى الله) الي الحق (قوما كفروا بعد ايمانهم) قيل هم عشرة رهط ارتدوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكة . وقيل هم يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد ان كانوا مؤمنين به قبل مبعثه (وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات) استبعاد لان يهديهم الله تعالى فان الحائد عن الحق بعد ماوضح له منهمك فى الضلال بعيد عن الرشاد . وقيل نفى وانكار له وذلك يقتضى أن لاتقبل توبة المرتد وقوله تعالى وشهدوا عطف على ايمانهم باعتبار انحلاله الى جملة فعلية كما فى قوله تعالى « ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله » الخ فانه فى قوة أن يقال بعد أن آمنوا أو حال من ضمير كفروا باضمار قد هو دليل على أن الاقرار باللسان خارج عن حقيقة الايمان (والله لايهدى القوم الظالمين) أى الذين ظلموا أنفسهم بالاختلال بالنظر ووضع الكفر موضع الايمان فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه

والجملة اعتراضية أوحالية (أولئك) أشارة الى الذين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة ومافيه من معنى البعد لما مر مراراً وهو مبتدأ وقوله تعالى (جزاؤهم) مبتدأ ثان وقوله تعالى (ان عليهم لعنت الله والملائكة والناس أجمعين) خبره والجملة خبر لأولئك وهذا يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه ينفي جواز لعن غيرهم ولعل الفرق بينهم وبين غيرهم أنهم مطبوع على قلوبهم ممنوعون عن الهدى آيسون من الرحمة رأسا بخلاف غيرهم. والمراد بالناس المؤمنون أو الكل فان الكافر أيضا يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه (خالدين فيها) في اللعنة أو العقوبة أو النار وان لم تذكر لدلالة الكلام عليها (لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) أي يمهلون (الا الذين تابوا من بعد ذلك) أي من بعد الارتداد (وأصلحوا) أي ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح (فان الله غفور رحيم) فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وهو تعليل لما دل عليه الاستثناء. وقيل نزلت في الحرث بن سويد حين ندم على ردته فأرسل الى قومه أن يسألوا هل لي من توبة فأرسل اليه أخوه الجلاس الآية فرجع الى المدينة فتاب (ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً) كاليهود كفروا بعيسى عليه السلام والانجيل بعد الايمان بموسى عليه السلام والتوراة ثم ازدادوا كفرا حيث كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن أو كفروا به عليه السلام بعدما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بالاصرار عليه والطعن فيه والصد عن الايمان ونقض الميثاق أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفراً بقولهم نتربص به ريب المنون أو نرجع اليه فننافقه باظهار الايمان (لن تقبل توبتهم) لانهم لا يتوبون الا عند اشرافهم على الهلاك فكني عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وابرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة أو لان توبتهم لا تكون الا نفاقا لارتدادهم وازديادهم كفرا ولذلك لم تدخل فيه الفاء (وأولئك هم الضالون) الثابتون على الضلال (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) لما كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية زيدت الفاء ههنا للاشعار به وملء الشيء مايملأ به وذهبا تمييز. وقرئ بالرفع على أنه بدل من ملء أو خبر لمحذوف ولو افتدى محمول على المعنى كأنه قيل فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الارض ذهبا أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا لو تصدق به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة. أو المراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى «ولو أن للذين ظلموا مافي الارض جميعا ومثله معه» والمثل يحذف

و يراد كثيرا لان المثلين فى حكم شيء واحد (أولئك) اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات الشنيعة المذكورة (لهم عذاب أليم) مؤلم اسم الاشارة مبتدأ والظرف خبره ولاعتماده على المبتدا ارتفع به عذاب أليم على الفاعلية (ومالهم من ناصرين) فى دفع العذاب عنهم أو فى تخفيفه ومن مزيدة للاستغراق وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أى ليس لواحد منهم ناصر واحد (لن تنالوا البر) من ناله نيلا اذا أصابه والخطاب للمؤمنين وهو كلام مستأنف سيق لبيان ماينفع المؤمنين ويقبل منهم أثر بيان مالاينفع الكفرة ولا يقبل منهم أى لن تبلغوا حقيقة البر الذى يتنافس فيه المتنافسون ولن تدركوا شأوه ولن تلحقوا بزمرة الابرار أو لن تنالوا بر الله تعالى وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته (حتى تنفقوا) أى فى سبيل الله عز وجل رغبة فيما عنده ومن فى قوله تعالى (مما تحبون) تبعيضية ويؤيده قراءة من قرأ بعض ما تحبون وقيل بيانية وما موصولة أو موصوفة أى مما تهوون ويعجبكم من كرائم أموالكم وأحبها اليكم كما فى قوله تعالى «أنفقوا من طيبات ما كسبتم» أو مما يعمها وغيرها من الاعمال والمهجة على أن المراد بالانفاق مطلق البذل وفيه من الايذان بعزة منال البر مالايخفى وكان السلف رضى الله عنهم اذا أحبوا شيأ جعلوه لله عز وجل . وروي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال يارسول الله ان أحب أموالى الى بيرحاء فضعها يارسول الله حيث أراك الله فقال عليه السلام « بخ بخ ذاك مال رائح أو رابح وانى أرى ان تجعلها فى الاقربين فقسمها فى اقاربه » وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه فى سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد فكان زيدا وجد فى نفسه وقال انما أردت أن أتصدق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أما ان الله تعالى قد قبلها منك قبل» وفيه دلالة على ان انفاق أحب الاموال على أقرب الاقارب أفضل وكتب عمر رضى الله عنه الى أبى موسى الاشعرى أن يشترى له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما جاءت اليه أعجبته فقال ان الله تعالى يقول «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» فأعتقها . وروى ان عمر بن عبد العزيز كانت لزوجته جارية بارعة فى الجمال وكان عمر راغبا فيها وكان قد طلبها منها مرارا فلم تعطها اياه ثم لما ولى الخلافة زينتها وأرسلتها اليه فقالت قد وهبتكها يا أمير المؤمنين فلتخدمك قال من أين ملكتها قالت جئت بها من بيت أبى عبد الملك ففتش عن كيفية تملكه اياها فقيل انه كان على فلان العامل ديون فلما توفى أخذت من تركته ففتش عن حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعا باعطاء المال ثم توجه الى الجارية وكان يهواها هوى شديدا فقال انت

حرة لوجه الله تعالى فقالت لم يا أمير المؤمنين وقد أزحت عن أمرها كل شبهة قال لست اذن ممن نهى النفس عن الهوي (وما تنفقوا من شيء) ماشرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرط أى أى شيء تنفقوا كائنا من الاشياء فان المفرد فى مثل هذا الموضع واقع موقع الجمع.وقيل محل الجار والمجرور النصب على التمييز أي أى شيء تنفقوا طيبا تحبونه أو خبيثا تكرهونه (فان الله به عليم) تعليل لجواب الشرط واقع موقعه اى فيجازيكم بحسبه جيدا كان أو رديئا فانه تعالى عليم بكل شيء تنفقونه علما كاملا بحيث لا يخفى عليه شيء من ذاته وصفاته.وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل.وفيه من الترغيب فى انفاق الجيد والتحذير عن انفاق الرديء مالا يخفى (كل الطعام) أى كل أفراد المطعوم أو كل أنواعه (كان حلا لبنى اسرائيل) اى حلالا لهم فان الحل مصدر نعت به ولذلك استوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى «لاهن حل لهم» (الا ما حرم اسرائيل على نفسه) استثناء متصل من اسم كان أى كان كل المطعومات حلالا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل أي يعقوب عليه السلام على نفسه وهو لحوم الابل وألبانها قيل كان به وجع النسا فنذر لئن شفى لا يأكل أحب الطعام اليه وكان ذلك أحبه اليه وقيل فعل ذلك التداوى باشارة الاطباء.واحتج به من جوز للنبي الاجتهاد وللمانع ان يقول كان ذلك باذن من الله تعالى فيه فهو كتحريمه ابتداء (من قبل أن تنزل التوراة) متعلق بقوله تعالى كان حلا ولا ضير فى توسيط الاستثناء بينهما.وقيل متعلق بحرم.وفيه أن تقييد تحريمه عليه السلام بقبلية تنزيل التوراة ليس فيه مزيد فائدة أى كان ماعدا المستثنى حلالا لهم قبل أن تنزل التوراة مشتملة على تحريم ماحرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة لهم وتشديدا وهو رد على اليهود فى دعواهم البراءة عما نعى عليهم قوله تعالى «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» وقوله تعالى «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر» الآيتين بان قالوا لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا وتبكيت لهم فى منع النسخ والطعن فى دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم موافقته لابراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الابل وألبانها (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها) أمر عليه السلام بان يحاجهم بكتابهم الناطق بان تحريم ماحرم عليهم تحريم حادث مترتب على ظلمهم وبغيهم كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم ويكلفهم اخراجه وتلاوته ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم.واظهار

اسم التوراة ليكون الجملة كلاما مع اليهود منقطعا عما قبله و قوله تعالى (ان كنتم صادقين) أى فى دعواكم أنه تحريم قديم وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه أى أن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة فاتلوها فان صدقكم مما يدعوكم الى ذلك ألبتة روى انهم لم يجسروا على اخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين وفى ذلك من الحجة النيرة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، جواز النسخ الذى يجحدونه مالا يخفى والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها (فمن افترى على الله الكذب) أى اختلقه عليه سبحانه بزعمه انه حرم ماذكر قبل نزول التوراة على بنى اسرائيل ومن تقدمهم من الامم (من بعد ذلك) من بعد ماذكر من امرهم باحضار التوراة وتلاوتها وما ترتب عليه من التبكيت والالزام والتقييد به للدلالة على كمال القبح (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة والجمع باعتبار معناه كما ان الافراد فى الصلة باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الضلال والطغيان أى فأولئك المصرون على الافتراء بعدما ظهرت حقيقة الحال وضاقت عليه حلبه المحاجة والجدال (هم الظالمون) المفرطون فى الظلم والعدوان المبعدون فيهما والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب مسوقة من جهته تعالى لبيان كمال عتوهم وقيل هى فى محل النصب داخلة تحت القول عطفا على قوله تعالى فأتوا بالتوراة (قل صدق الله) أى ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل فى شأن التحريم .وقيل فى قوله تعالى ما كان ابراهيم يهوديا الخ أو صدق فى كل شأن من الشئون وهو داخل فى ذلك دخولا أوليا و فيه تعريض بكذبهم الصريح (فاتبعوا ملة ابراهيم) أي ملة لاسلام التى هى فى الاصل ملة ابراهيم عليه السلام فانكم ما كنتم متبعين لملته كما تزعمون أو فاتبعوا مثل ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التى اضطرتكم الى التحريف والمكابرة وتلفيق الاكاذيب لتسوية الاغراض الدنيئة الدنيوية وألزمتكم تحريم طيبات محللة لابراهيم عليه السلام ومن تبعه والفاء للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه (حنيفا)أى مائلا عن الاديان الزائغة كلها (وما كان من المشركين) أى فى أمر من أمور دينه أصلا وفرعا وفيه تعريض باشراك اليهود وتصريح بأنه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعا والغرض بيان أن النبى صلى الله عليه وسلم على دين ابراهيم عليه السلام فى الاصول لأنه لايدعو إلا الى التوحيد والبراءة عن كل معبود سواه سبحانه وتعالى والجملة تذييل لما قبلها (ان أول بيت وضع للناس) شروع فى بيان كفرهم ببعض آخر من شعائر ملته عليه السلام أثر بيان كفرهم بكون كل المطعومات حلا له

عليه السلام روى أنهم قالوا بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الانبياء وفى الارض المقدسة وقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت أى ان أول بيت وضع للعبادة وجعل متعبداً لهم و الواضع هو الله تعالى ويؤيده القراءة على البناء للفاعل وقوله تعالى (للذى ببكة) خبر لان وانما أخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين الاضافة و الوصف بالجملة بعدها أى للبيت الذي ببكة أى فيها وفى ترك الموصوف من التفخيم مالايخفى و بكة لغة فى مكة فان العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم ضربة لازب ولازم و النميط و النبيط فى اسم موضع بالدهناء وقولهم أمر راتب و راتم وسبد رأسه وسمدها وأغبطت الحمى وأغمطت وهى علم للبلد الحرام من بكه اذا زحمه لازدحام الناس فيه وعن قتادة يبك الناس بعضهم بعضا أو لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها لم يقصدها جبار إلاقصمه اللهعز وجل و قيل بكة اسم لبطن مكة.و قيل لموضع البيت.و قيل للمسجدنفسه و مكة اسم للبلد كله و أيد هذا بأن التباك وهو الازدحام انما يقع عند الطواف.و قيل مكة اسم للمسجد والمطاف وبكة اسم للبلد لقوله تعالى للذى ببكة مباركا روى أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال «المسجدالحرام ثم بيت المقدس»و سئل كم بينهما «فقال أربعون سنة» و قيل أول من بناه ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقيل آدم عليه السلام وقد استوفينا مافيه من الاقاويل فى سورة البقرة وقيل أول بيت وضع بالشرف لابالزمان (مباركا) كثير الخير و النفع لما يحصل لمن حجه واعتمره و اعتكف دونه وطاف حوله من الثواب و تكفير الذنوب وهو حال من المستكن فى الظرف لأن التقدير للذى ببكة هو والعامل فيه ماقدر فى الظرف من فعل الاستقرار (وهدى للعالمين) لأنه قبلتهم و متعبدهم و لأن فيه آيات عجيبة دالة على عظيم قدرته تعالى و بالغ حكمته كما قال (فيه آيات بينات) واضحات كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الاعصار ومخالطة ضواري السباع الصيود فى الحرم من غير تعرض لها وقهر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كأصحاب الفيل والجملة مفسرة للهدي أو حال أخرى (مقام ابراهيم) أى أثر قدميه عليه السلام فى الصخرة التى كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ما روى أنه عليه السلام جاء زائرا من الشام الي مكة فقالت له امرأة اسمعيل عليه السلام أنزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الايمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته الي شقه الايسر حتى غسلت الشق الآخر فبقى أثر

قدميه عليه وهو اما مبتدأ حذف خبره أى منها مقام ابراهيم أو بدل من آ يات بدل البعض من الكل أو عطف بيان اما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى « ان ابراهيم كان أمة قانتا» أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة فان كل واحد من أثر قدميه فى صخرة صماء وغوصه فيها الى الكعبين والانة بعض الصخور دون بعض وابقائه دون سائر آ يات الانبياء عليهم السلام وحفظه مع كثرة الاعداء ألوف سنة آ ية مستقلة ويؤيده القراءة على التوحيد واما بما يفهم من قوله عز وجل (ومن دخله كان آمنا) فانه وان كان جملة مستأنفة ابتدائية أو شرطية لكنها فى قوة أن يقال وأمن من دخله فتكون بحسب المعنى والمآل معطوفة على مقام ابراهيم ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك أو يحمل على انه ذكر من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداهما دلالة على كثرتها ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما فى قوله تعالى «أولم يروا أنا جعلنا حرما آ منا ويتخطف الناس من حولهم» وذلك بدعوة ابراهيم عليه السلام رب اجعل هذا البلد آ منا وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ الى الحرم لم يطلب وعن عمر رضى الله عنه لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب مامسسته حتى يخرج منه ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى من لزمه القتل فى الحل بقصاص أو ردة أو زنا فالتجأ الى الحرم لم يتعرض له الا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر الى الخروج. وقيل أمنه من النار وعن النبى صلى الله عليه وسلم «من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا» وعنه عليه الصلاة والسلام «الحجون والبقيع يؤخذ باطرافهما وينثران فى الجنة» وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود رضى الله عنه وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال «يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر» وعن النبى صلى الله عليه وسلم «من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتى عام» (ولله على الناس حج البيت) جملة من مبتدأ هو حج البيت وخبره هو لله وقوله تعالى على الناس متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار أو بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى الجار والعامل فيه ذلك الاستقرار ويجوز أن يكون على الناس هو الخبر ولله متعلق بما تعلق به الخبر ولا سبيل الى ان يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى على الناس لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنوى

وذلك مما لا مساغ له عند الجمهور وقد جوزه ابن مالك اذا كانت هى ظرفا أو حرف جر وعاملها كذلك بخلاف الظرف وحرف الجر فانهما يتقدمان على عاملها المعنوى واللام فى البيت للعهد وحجه قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعهود وكسر الحاء لغة نجد وقيل هو اسم للمصدر .وقرئ بفتحها (من استطاع اليه سبيلا) فى محل الجر على أنه بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص لعمومه فالضمير العائد الى المبدل منه محذوف أي من استطاع منهم .وقيل بدل من الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع فلا حاجة الى الضمير .وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا مضمر أي هم من استطاع الخ وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى. وقيل كلمة من شرطية والجزاء محذوف لدلالة المذكور عليه وكذا العائد الى الناس أي من استطاع منهم اليه سبيلا فلله عليه حج البيت وقد رجح هذا بكون ما بعده شرطية والضمير المجرور فى اليه راجع الى البيت أو الى حج والجار متعلق بالسبيل قدم عليه اهتماماً بشأنه كما فى قوله عز وجل «فهل الى خروج من سبيل وهل الى مرد من سبيل» لما فيه من معنى الافضاء والايصال كيف لا وهو عبارة عن الوسيلة من مال أو غيره فانه قد روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السبيل الزاد والراحلة وروي ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا قال يا رسول الله ما السبيل قال الزاد والراحلة وهو المراد بما روى أنه عليه السلام فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة وهكذا روى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم وعليه أكثر العلماء خلا أن الشافعى أخذ بظاهره فأوجب الاستنابة على الزمن القادر على أجرة من ينوب عنه والظاهر أن عدم تعرضه عليه السلام لصحة البدن لظهور الامر كيف لا والمفسر فى الحقيقة هو السبيل الموصل لنفس المستطيع الى البيت وذا لا يتصور بدون الصحة وعن ابن الزبير أنه على قدر القوة .ومذهب مالك أن الرجل اذا وثق بقوته لزمه وعنه ذلك على قدر الطاقة وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر وقد يقدر عليه من لا راحلة له ولا زاد وعن الضحاك أنه اذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع (ومن كفر) وضع من كفر موضع من لم يحج تأكيدا لوجوبه وتشديدا على تاركه ولذلك قال عليه السلام «من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا أو نصرانيا» وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه عليه السلام قال فى خطبته «أيها الناس ان الله فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً» (فان الله غنى عن العالمين) وعن عبادتهم وحيث كان من كفر من جملتهم داخلا

فيهم دخولا أوليا اكتفى بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء» ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج و التشديد على تاركه مالا مزيد عليه حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق وأبرزت فى صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات و الاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه فى ذمم الناس لا انفكاك لهم عن أدائه و الخروج عن عهدته وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص والابهام ثم التبيين و الاجمال ثم التفصيل لما فى ذلك من مزيد تحقيق وتقرير .وعبر عن تركه بالكفر الذى لا قبيح وراءه وجعل جزاؤه استغناءه تعالى المؤذن بشدة المقت و عظم السخط لا عن تاركه فقط فانه قد ضرب عنه صفحا اسقاطا له عن درجة الاعتبار واستهجانا بذكره بل عن جميع العالمين ممن فعل و ترك ليدل على نهاية شدة الغضب هذا. وقال ابن عباس و الحسن وعطاء رضى الله تعالى عنهم ومن كفر أى جحد فرض الحج وزعم أنه ليس بواجب.وعن سعيد بن المسيب نزلت فى اليهود فانهم قالوا الحج الى مكة غير واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى ولله على الناس حج البيت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الاديان كلهم فخطبهم فقال ان الله كتب عليكم الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون و كفرت به خمس ملل قالوا لا نؤمن به ولا نصلى اليه ولا نحجه فنزل و من كفر وعن النبى صلى الله عليه وسلم «حجوا قبل أن لا تحجوا فانه قد هدم البيت مرتين و يرفع الى السماء فى الثالثة» وروى «حجوا قبل أن يمنع البر جانبه» وعن ابن مسعود حجوا هذا البيت قبل أن ينبت فى البادية شجرة لا تأكل منها دابة الا نفقت وعن عمر رضى الله عنه لو ترك الناس الحج عاما واحدا ما نوظروا (قل يا أهل الكتاب) هم اليهود والنصارى وانما خوطبوا بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للايمان به و بما يصدقه من القرآن العظيم مبالغة فى تقبيح حالهم فى كفرهم بها وقوله عز وجل (لم تكفرون بآيات الله)توبيخ وانكار لأن يكون لكفرهم بها سبب من الاسباب وتحقيق لما يوجب الاجتناب عنه بالكلية والمراد بآياته تعالى ما يعم الآيات القرآنية التى من جملتها ما تلى فى شأن الحج وغيره وما فى التوراة والانجيل من شواهد نبوته عليه السلام وقوله تعالى (والله شهيد على ما تعملون)حال من فاعل تكفرون مفيدة لتشديد التوبيخ وتأكيد الانكار واظهار الجلالة فى موقع الاضمار لتربية المهابة و تهويل الخطب وصيغة المبالغة فى شهيد للتشديد فى الوعيد وكلمة ما اما عبارة عن كفرهم أو هى على عمومها وهو داخل فيها دخولا أوليا و المعنى لأى سبب تكفرون بآياته عز وجل والحال أنه تعالى مبالغ

فى الاطلاع على جميع أعمالكم وفى مجازاتكم عليها ولا ريب فى أن ذلك يسد جميع أنحاء ما تأتونه ويقطع أسبابه بالكلية (قل يا أهل الكتاب) أمر بتوبيخهم بالاضلال أثر توبيخهم بالضلال والتكرير للمبالغة فى حمله عليه السلام على تقريعهم وتوبيخهم وترك عطفه على الأمر السابق للايذان باستقلالها كما أن قطع قوله تعالى (لم تصدون) عن قوله تعالى لم تكفرون للاشعار بأن كل واحد من كفرهم وصدهم شناعة على حيالها مستقلة فى استتباع اللائمة والتقريع وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب لتأكيد الاستقلال وتشديد التشنيع فان ذلك العنوان كما يستدعى الايمان بما هو مصدق لما معهم يستدعى ترغيب الناس فيه فصدهم عنه فى أقصى مراتب القباحة ولكون صدهم فى بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالآيات الدالة على نبوته عليه السلام وقرىء تصدون من أصده (عن سبيل الله) أي دينه الحق الموصل الى السعادة الابدية وهو التوحيد وملة الاسلام (من آمن) مفعول لتصدون قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم ويقولون ان صفته عليه السلام ليست فى كتابهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقيل أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا الى ما كانوا فيه (تبغونها) على اسقاط الجار وإيصال الفعل الى الضمير كما فى قوله :

فتولى غلامهم ثم نادى ... أظليما أصيدكم أم حمارا

بمعنى أصيد لكم أى تطلبون لسبيل الله التى هى أقوم السبل (عوجا) اعوجاجا بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه ميلا عن الحق بنفى النسخ وتغيير صفة الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك والجملة حال من فاعل تصدون وقيل من سبيل الله (وأنتم شهداء) حال من فاعل تصدون باعتبار تقييده بالحال الاولى أو من فاعل تبغونها أى والحال أنكم شهداء تشهدون بأنها سبيل الله لا يحوم حولها شائبة اعوجاج وان الصد عنها اضلال قال ابن عباس رضى الله عنهما أى شهداء ان فى التوراة أن دين الله الذى لا يقبل غيره هو الاسلام أو وأنتم عدول فيما بينكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم فى القضايا وعظائم الأمور (وما الله بغافل عما تعملون) اعتراض تذييلى فيه تهديد ووعيد شديد قيل لما كان صدهم للمؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم مادة حيلتهم من إحاطة علمه تعالى بأعمالهم كما أن كفرهم بآيات الله تعالى لما كان بطريق العلانية ختمت الآية السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون (يا أيها

الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين) تلوين للخطاب وتوجيه له الى المؤمنين تحذيراً لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم أثر توبيخهم بالاغواء والاضلال ردعا لهم عن ذلك وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة فى التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية فانه فى قوة أن يقال لا تطيعوا فريقا الخ كما أن تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة فى الزجر أو للمحافظة على سبب النزول فانه روى أن نفراً من الاوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فمر بهم شاس بن قيس اليهودي وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين فغاظه ما رأى منهم من تألف القلوب واتحاد الكلمة واجماع الرأي بعد ما كان بينهم ما كان من العداوة والشنآن فأمر شاباً يهوديا كان معه بأن يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر فيه للاوس وينشدهم ماقيل فيه من الاشعار ففعل فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواثبوا وقالوا السلاح السلاح فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالاسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم» فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فالقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الامام الواحدي اصطفوا للقتال فنزلت الآية الى قوله تعالى لعلكم تهتدون فجاء النبى صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون وقوله تعالى كافرين اما مفعول ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير كما فى قوله:

رمى الحدثان نسوة آل سعد ✽ بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ✽ ورد وجوههن البيض سودا

أو حال من مفعوله والاول أدخل فى تنزيه المؤمنين عن نسبتهم الى الكفر لما فيه من التصريح بكون الكفر المفروض بطريق القسر. وايراد الظرف مع عدم الحاجة اليه ضرورة سبق الخطاب بعنوان المؤمنين واستحالة تحقق الرد الى الكفر بدون سبق الايمان مع توسيطه بين المفعولين لاظهار كمال شناعة الكفر وغاية بعده من الوقوع اما لزيادة قبحه الصارف للعاقل عن مباشرته أو لممانعة الايمان له كأنه قيل بعد ايمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين مالايخفى (وكيف تكفرون) استفهام انكاري بمعنى انكار

الوقوع كما في قوله تعالى «كيف يكون للمشركين عهد» الخ لا بمعنى انكار الواقع كما في قوله تعالى «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا» الخ وفي توجيه الانكار والاستبعاد الى كيفية الكفر من المبالغة ما ليس في توجيهه الى نفسه بان يقال أتكفرون لان كل موجود لابد أن يكون وجوده على حال من الاحوال فاذا أنكر ونفي جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهاني وقوله تعالى (وأنتم تتلى عليكم آيات الله) جملة وقعت حالا من ضمير المخاطبين في تكفرون مؤكدة للانكار والاستبعاد بما فيها من الشؤن الداعية الى الثبات على الايمان الوازعة عن الكفر وقوله تعالى (وفيكم رسوله) معطوف عليها داخل في حكمها فان تلاوة آيات الله تعالى عليهم وكون رسوله عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بتحقيق الحق وازاحة الشبه من أقوى الزواجر عن الكفر .وعدم اسناد التلاوة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم للايذان باستقلال كل منهما في الباب (ومن يعتصم بالله) أي ومن يتمسك بدينه الحق الذي بينه بآياته على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام وهو الاسلام والتوحيد المعبر عنه فيما سبق بسبيل الله (فقد هدى) جواب للشرط وقد لافادة معنى التحقيق كان الهدي قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا ومعنى التوقع فيه ظاهر فان المعتصم به تعالى متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للندى (الى صراط مستقيم) موصل الى المطلوب والتنوين للتفخيم والوصف بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبغون له عوجا وهذا وان كان هو دينه الحق في الحقيقة والاهتداء اليه هو الاعتصام به بعينه لكن لما اختلف الاعتبار ان وكان العنوان الاخير مما يتنافس فيه المتنافسون أبرز في معرض الجواب للحث والترغيب على طريقة قوله تعالى «فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز» (ياأيها الذين آمنوا) تكرير الخطاب بعنوان الايمان تشريف اثر تشريف (اتقوا الله) الاتقاء افتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة (حق تقاته) أي حق تقواه وما يجب منها وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كما في قوله تعالى «فاتقوا الله ما استطعتم» وعن ابن مسعود رضي الله عنه هو أن يطاع ولا يعصى ويذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر وقد روي مرفوعا اليه عليه السلام .وقيل هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه. وقيل هو ان ينزه الطاعة عن الالتفات اليها وعن توقع المجازاة وقد مر تحقيق الحق في ذلك عند قوله عز وجل «هدى للمتقين» والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد وأصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما في تهمة وتخمة وياؤها المفتوحة ألفا (ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) أي مخلصون نفوسكم

لله تعالى لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا كما فى قوله تعالى «ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله» وهو استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لا تموتن على حال من الاحوال الا حال تحقق اسلامكم وثباتكم عليه كما تنبىء عنه الجملة الاسمية ولو قيل الا مسلمين لم يفد فائدتها والعامل فى الحال ما قبل الا بعد النقض وظاهر النظم الكريم وان كان نهيا عن الموت المقيد بقيد هو الكون على أى حال غير حال الاسلام لكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للامر بضده الذي هو الكون على حال الاسلام حينئذ وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد ايجاب الثبات على الاسلام الى الموت. وتوجيه النهى الى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور فان النهى عن المقيد فى أمثاله نهى عن القيد و رفع له من أصله بالكلية مفيد لما لا يفيده النهى عن نفس القيد فان قولك لا تصل الا وانت خاشع يفيد من المبالغة فى ايجاب الخشوع فى الصلاة ما لا يفيده قولك لا تترك الخشوع فى الصلاة لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط وذاك نهى عنه وعما يقارنه ومفيد لكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة وأن الصلاة بدونه حقها أن لا تفعل وفيه نوع تحذير عما وراء الموت وقوله عز وجل (واعتصموا بحبل الله) أى بدين الاسلام أو بكتابه لقوله عليه الصلاة والسلام « القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى الى صراط مستقيم» اما اما تمثيل للحالة الحاصلة من استظهارهم به ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلى من مكان رفيع بحبل وثيق مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجاز فى المفردات واما استعارة للحبل لما ذكر من الدين أو الكتاب الاعتصام ترشيح لها أو مستعار للوثوق به والاعتماد عليه (جميعا) حال من فاعل اعتصموا أى مجتمعين فى الاعتصام (ولا تفرقوا) أى لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية يحارب بعضكم بعضا أو لا تحدثوا ما يوجب التفرق و يزيل الالفة التى أنتم عليها (واذكروا نعمت الله) مصدر مضاف الى الفاعل وقوله تعالى (عليكم) متعلق به أو بمحذوف وقع حالا منه وقوله تعالى (اذ كنتم) ظرف له أو للاستقرار فى عليكم أى اذكروا انعامه عليكم أو اذكروا انعامه مستقرا عليكم وقت كونكم (أعداء) فى الجاهلية بينكم الاحن والعداوات والحروب المتواصلة وقيل هم الاوس والخزرج كانا أخوين لاب وأم فوقعت بين اولادهما العداوة والبغضاء وتطاولت الحروب فيما بينهم مائة وعشرين سنة (فألف بين قلوبكم) بتوفيقكم للاسلام (فأصبحتم) أى

فصرتم (بنعمته) التى هى ذلك التأليف (اخوانا) خبر اصبحتم أى اخوانا متحابين مجتمعين على الاخوة فى الله متراحمين متناصحين متفقين على كلمة الحق وقيل معنى فأصبحتم فدخلتم فى الصباح فالباء حينئذ متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل وكذا اخوانا أى فأصبحتم متلبسين بنعمته حال كونكم اخوانا (وكنتم على شفا حفرة من النار) شفا الحفرة وشفتها حرفها أى كنتم مشرفين على الوقوع فى نار جهنم لكفركم اذ لو ادرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها (فأنقذكم) بأن هداكم للاسلام (منها) الضمير للحفرة أو للنار أو للشفا والتأنيث للمضاف اليه كما فى قوله: كما شرقت صدر القناة من الدم أو لانه بمعنى الشفة فان شفا البئر وشفتها جانبها كالجانب والجانبة وأصله شفو قلبت الواو ألفا فى المذكر وحذفت فى المؤنث (كذلك) اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه به عما عداه وانتظامه بسببه فى سلك الامور المشاهدة والكاف مقحمة لتأكيد ماأفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها النصب على انها صفة لمصدر محذوف أى مثل ذلك التبيين الواضح (يبين الله لكم آياته) أي دلائله (لعلكم تهتدون) طلبا لثباتكم على الهدى وازديادكم فيه (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير) أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وارشاده أثر امرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الاوامر والنواهى تثبيتا للكل على مراعاة مافيها من الاحكام بان يقوم بعضهم بمواجبها ويحافظ على حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة ويردعهم عن الاخلال بها والجمهور على اسكان لام الامر وقد قرىء بكسرها على الاصل وهو من كان التامة ومن تبعيضية متعلقة بالامر أو بمحذوف وقع حالا من الفاعل وهو أمة ويدعون صفتها أى لتوجد منكم أمة داعية الى الخير والامة هى الجماعة التى يؤمها فرق الناس أي يقصدونها ويقتدون بها أو من الناقصة وأمة اسمها ويدعون خبرها أي لتكن منكم امة داعين الى الخير وايا ما كان فتوجيه الخطاب الى الكل مع اسناد الدعوة الى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث أن اقامها البعض سقطت عن الباقين ولو أخل بها الكل أثموا جميعا لا بحيث يتحتم على الكل اقامتها على ما ينبىء عنه قوله عز وجل وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية ولانها من عظائم الامور وعزائمها التى لا يتولاها الا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية اقامتها فان من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر وينهى

عن معروف و يغلظ فى مقام اللين و يلين فى مقام الغلظة و ينكر على من لا يزيده الانكار التمادى والاصرار. وقيل من بيانية كما فى قوله تعالى «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم» الآية والامر من كان الناقصة والمعنى كونوا أمة يدعون الآية كقوله تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس» الآية ولا يقتضى ذلك ون الدعوة فرض عين فان الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطابات العامة والدعاء الى الخير عبارة عن الدعاء الى ما فيه صلاح دينى أو دنيوى فعطف الامر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه بقوله تعالى (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام لاظهار فضلهما وانافتهما على سائر الخيرات كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وحذف المفعول الصريح من الافعال الثلاثة أما للايذان بظهوره أى يدعون الناس ويأمرونهم وينهونهم وأما للقصد الي إيجاد نفس الفعل كما فى قولك فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الدعاء الى الخير والامر بالمعروف والنهى عن المنكر (وأولئك) أشارة الى الامة المذكورة باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الفاضلة وكمال تميزهم بذلك عمن عداهم وانتظامهم بسببه فى سلك الامور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والافراد فى كاف الخطاب أما لان المخاطب كل من يصلح للخطاب وأما لان التعيين غير مقصود أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة (هم المفلحون) أى هم الاخصاء بكمال الفلاح وهم ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لاولئك. وتعريف المفلحون أما للعهد أو للاشارة الى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن خير الناس فقال «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم» وعنه عليه السلام «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه» وعنه عليه السلام «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم» وعن على رضى الله عنه أفضل الجهاد الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن شنأ الفاسقين وغضب لله غضب الله له. والامر بالمعروف فى الوجوب والندب تابع للمأمور به وأما النهى عن المنكر فواجب كله فان جميع ما أنكره الشرع حرام والعاصى يجب عليه النهى عما ارتكبه اذ يجب عليه تركه وانكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شيء منهما والتوبيخ فى قوله تعالى «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم» انما هو على نسيان

أنفسهم لا على أمرهم بالبر وعن السلف مروا بالخير وإن لم تعملوا (ولا تكونوا كالذين تفرقوا) هم أهل الكتابين حيث تفرقت اليهود فرقا والنصارى فرقا (واختلفوا) باستخراج التأويلات الزائغة وكتم الآيات الناطقة وتحريفها بما أخلدوا اليه من حطام الدنيا الدنيئة (من بعد ماجاءهم البينات) أى الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه واتحاد الكلمة فالنهى متوجه الى المتصدين الدعوة اصالة والى أعقابهم تبعا ويجوز تعميم الموصول للمختلفين من الامم السالفة المشار اليهم بقوله عز وجل «وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات» وقيل هم المبتدعة من هذه الامة وقيل هم الحرورية وعلى كل تقدير فالمنهى عنه انما هو الاختلاف فى الاصول دون الفروع الا ان يكون مخالفا للنصوص البينة أو الاجماع لقوله عليه الصلاة والسلام «اختلاف امتى رحمة» وقوله عليه السلام «من اجتهد فاصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد» (وأولئك) اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما فى حيز الصلة وهو مبتدا وقوله تعالى (لهم) خبره وقوله تعالى (عذاب عظيم) مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ الاول وفيه من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين والتشديد فى تهديد المشبهين بهم مالا يخفى (يوم تبيض وجوه) أى وجوه كثيرة وقرئ تبياض (وتسود وجوه) كثيرة وقرئ تسواد وعن عطاء تبيض وجوه المهاجرين والانصار وتسود وجوه بنى قريظة والنضير ويوم منصوب على انه ظرف للاستقرار فى لهم أى لثبوت العذاب العظيم لهم أو على أنه مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيرا لهم عن عاقبة التفرق بعد مجىء البينات وترغيبا فى الاتفاق على التمسك بالدين أى اذكروا يوم تبيض الخ وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة واشراق البشرة وسعى النور بين يديه وبيمينه وأهل الباطل باضداد ذلك (فاما الذين اسودت وجوههم) تفصيل لاحوال الفريقين بعد الاشارة اليها اجمالا وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الاجمال والتفصيل والافضاء الى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدىء بذلك عند الاجمال (أكفرتم بعد ايمانكم) على ارادة القول أى فيقال لهم ذلك والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم والظاهر أنهم أهل الكتابين وكفرهم بعد ايمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ايمان أسلافهم أو ايمان أنفسهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام أو جميع الكفرة حيث كفروا بعد ما

أقروا بالتوحيد يوم الميثاق أو بعد ما تمكنوا من الايمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة وقيل المرتدون وقيل أهل البدع والاهواء والفاء في قوله عز وعلا (فذوقوا العذاب) أى العذاب المعهود الموصوف بالعظم للدلالة على أن الامر بذوق العذاب على طريق الاهانة مترتب على كفرهم المذكور كما أن قوله تعالى (بما كنتم تكفرون) صريح في أن نفس الذوق معلل بذلك والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم أو على مضيه فى الدنيا (وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله) أعنى الجنة والنعيم المخلد عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وان استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فانه لا يدخل الجنة الا برحمته تعالى وقرىء أبياضت كما قرىء اسوادت (هم فيها خالدون) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من السباق كأنه قيل كيف يكونون فيها فقيل هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون وتقديم الظرف للمحافظة على رءوس الآى (تلك) أشارة الى الآيات المشتملة على تنعيم الابرار وتعذيب الكفار ومعنى البعد للايذان بعلو شأنها وسمو امكانها فى الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى (آيات الله) خبره وقوله تعالى (نتلوها) جملة حالية من الآيات والعامل فيها معنى الاشارة أو هى الخبر وآيات الله بدل من اسم الاشارة والالتفات الى التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة على لسان جبريل عليه السلام لابراز كمال العناية بالتلاوة وقرىء يتلوها على اسناد الفعل الى ضميره تعالى وقوله تعالى (عليك) متعلق بنتلوها وقوله تعالى (بالحق) حال مؤكدة من فاعل نتلوها أو من مفعوله أي ملتبسين أو ملتبسة بالحق والعدل ليس فى حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن أو بزيادة عقاب المسيء أو بالعقاب من غير جرم بل كل ذلك موفى لهم حسب استحقاقهم باعمالهم بموجب الوعد والوعيد وقوله تعالى (وما الله يريد ظلما للعالمين) تذييل مقرر لمضمون ماقبله على أبلغ وجه وآكده فان تنكير الظلم وتوجيه النفى الى ارادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم بآحاد الجمع المعرف والالتفات الى الاسم الجليل اشعارا بعلة الحكم بيان لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لامزيد عليه أى ما يريد فردا من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين فى وقت من الاوقات فضلا عن أن يظلمهم فان المضارع كما يفيد الاستمرار فى الاثبات يفيده فى النفى بحسب المقام كما أن الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت وعند دخول حرف النفى تدل على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام. وفى سبك الجملة نوع ايماء الى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما فى قوله تعالى ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم

يظلمون (والله مافى السموات ومافى الارض) أي له تعالى وحده من غير شركة أصلا ما فيهما من المخلوقات الفائتة للحصر ملكا وخلقا أحياء واماتة واثابة وتعذيبا. وايراد كلمة ما اما لتغليب غير العقلاء على العقلاء واما لتنزيلهم منزلة غيرهم أظهارا لحقارتهم فى مقام بيان عظمته تعالى (والى الله) أى الى حكمه وقضائه لا الى غيره شركة أو استقلالا (ترجع الامور) أى أمورهم فيجازى كلا منهم بما وعد له وأوعده من غير دخل فى ذلك لاحد قط فالجملة مقررة لمضمون ماورد فى جزاء الفريقين. وقيل هى معطوفة على ماقبلها مقررة لمضمونه فان كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعى ارادة الخير بهم (كنتم خير أمة) كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ماهم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة الى الخير وكنتم من كان الناقصة التى تدل على تحقق شيء بصفة فى الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق كما فى قوله تعالى «وكان الله غفورا رحيما» وقيل كنتم كذلك فى علم الله تعالى أو فى اللوح أو فيما بين الامم السالفة. وقيل معناه أنتم خير أمة (أخرجت للناس) صفة لامة واللام متعلقة بأخرجت أي أظهرت لهم وقيل بخير أمة أى كنتم خير الناس للناس فهو صريح فى ان الخيرية بمعنى النفع للناس وان فهم ذلك من الاخراج لهم أيضا أي أخرجت لاجلهم ومصلحتهم قال أبو هريرة رضى الله عنه معناه كنتم خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فتدخلونهم فى الاسلام وقال قتادة هم أمة محمد صلى الله عليه عليه وسلم لم يؤمر نبى قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم فى الاسلام فهم خير أمه للناس (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) استئناف مبين لكونهم خير أمة كما يقال زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم. وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار. وخطاب المشافهة وان كان خاصا بمن شاهد الوحى من المؤمنين لكن حكمه عام للكل قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج أصل هذا الخطاب لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعم سائر امته وروي الترمذى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس «انتم تتمون سبعين امة أنتم خيرها واكرمها على الله تعالى» وظاهر أن المراد بكل امة أوائلهم وأواخرهم لا أوائلهم فقط فلا بد ان تكون أعقاب هذه الامة أيضا داخلة فى الحكم وكذا الحال فيما روى أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين مرا بنفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولي حذيفة رضوان الله عليهم فقالا لهم نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا اليه وروى سعيد بن جبير عن

ابن عباس رضي الله عنهما كنتم خير أمة الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وروى عن الضحاك أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم (وتؤمنون بالله) أى ايمانا متعلقا بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وانما لم يصرح به تفصيلا لظهور انه الذى يؤمن به المؤمنين وللايذان بأنه هو الايمان بالله تعالى حقيقة وان ما خلا عن شيء من ذلك كايمان أهل الكتاب ليس من الايمان به تعالى فى شيء قال تعالى «ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا» وانما أخر ذلك عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة لان دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالته عليها وليقترن به قوله تعالى (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) أى لو آمنوا كايمانكم لكان ذلك خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادت رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية مع الفوز بما وعدوه على الايمان من ايتاء الاجر مرتين وقيل مما هم فيه من الكفر فالخيرية انما هى باعتبار زعمهم وفيه ضرب تهكم بهم وانما لم يتعرض للمؤمن به أصلا للاشعار بظهور انه الذى يطلق عليهم اسم الايمان لايذهب الوهم الى غيره ولو فصل المؤمن به ههنا اوفيما قبل لربما فهم أن لاهل الكتاب ايضا ايمانا فى الجملة لكن ايمان المؤمنين خير منه وهيهات ذلك (منهم المؤمنون) جملة مستأنفة سيقت جوابا عما نشأ من الشرطية الدالة على انتفاء الخيرية لانتفاء الايمان عنهم كانه قيل هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر فقيل منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارين كعبدالله بن سلام وأصحابه (وأكثرهم الفاسقون) المتمردون فى الكفر الخارجون عن الحدود (لن يضروكم الا أذى) استثناء مفرغ من المصدر العام أى لن يضروكم أبداً ضررا ما الا ضرر اذى لا يبالى به من طعن وتهديد لا أثر له (وان يقاتلوكم يولوكم الادبار) أى ينهزموا من غير أن ينالوا منكم شيئاً من قتل أو أسر (ثم لا ينصرون) عطف على الشرطية وثم للتراخى فى الرتبة أى لا ينصرون من جهة أحد ولا يمنعون منكم قتلا وأخذا وفيه تثبيت لمن آمن منهم فانهم كانوا يؤذونهم بالتلهى بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم وبشارة لهم بانهم لا يقدرون على أن يتجاوزوا الاذى بالقول الى ضرر يعبأ به مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل وانما لم يعطف نفى منصوريتهم على الجزاء لأن المقصود هو الوعد بنفى النصر مطلقا ولو عطف عليه لكان مقيداً بمقاتلتهم كتولية الادبار وكم بين الوعدين كأنه قيل ثم

شأنهم الذي أخبركم عنه وأبشركم به أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعد ذلك بجناح ولا يقومون على ساق ولا يستقيم لهم أمر وكان كذلك حيث لقى بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع ويهود خيبر مالقوا (ضربت عليهم الذلة) أى هدر النفس والمال والأهل أو ذل التمسك بالباطل (أينما ثقفوا) أي وجدوا (الا بحبل من الله وحبل من الناس) استثناء من أعم الاحوال أي ضربت عليهم الذلة ضرب القبة على من هى عليه فى جميع الاحوال الا حال كونهم معتصمين بذمة الله أو كتابه الذي أتاهم وذمة المسلمين أو بذمة الاسلام واتباع سبيل المؤمنين (وباءوا بغضب من الله) أى رجعوا به مستوجبين له. والتنكير للتفخيم والتهويل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة والهول أي كائن من الله عز وجل (وضربت عليهم المسكنة) فهى محيطة بهم من جميع جوانبهم واليهود كذلك فى غالب الحال مساكين تحت أيدى المسلمين والنصاري (ذلك) اشارة الى ماذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبوء بالغضب العظيم (بانهم كانوا يكفرون بآيات الله) أي ذلك الذى ذكر كائن بسبب كفرهم المستمر بآيات الله الناطقة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وتحريفهم لها وبسائر الآيات القرآنية (ويقتلون الانبياء بغير حق) أى فى اعتقادهم أيضا. واسناد القتل اليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب الى كل من يسير بسيرتهم (ذلك) اشارة الى ما ذكر من الكفر والقتل (بما عصوا وكانوا يعتدون) أى كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار فان الاصرار على الصغائر يفضى الي مباشرة الكبائر والاستمرار عليها يؤدى الى الكفر. وقيل معناه أن ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث أنهم مخاطبون بالفروع من حيث المؤاخذة (ليسوا سواء) جملة مستأنفة سيقت تمهيداً لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب وتذكيرا لقوله تعالي منهم المؤمنون والضمير فى ليسوا لأهل الكتاب جميعاً لا للفاسقين منهم خاصة وهو اسم ليس وخبره سواء وانما أفرد لأنه فى الاصل مصدر والمراد بنفى المساواة نفى المشاركة فى أصل الاتصاف بالقبائح المذكورة لا نفى المساواة فى مراتب الاتصاف بها مع تحقق المشاركة فى أصل الاتصاف بها أي ليس جميع أهل الكتاب متشاركين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح والابتلاء بما يترتب عليها من العقوبات وقوله تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة) استئناف مبين لكيفية عدم

تساويهم وهو يزيل لما فيه من الابهام كما أن ما سبق من قوله تعالى «تأمرون بالمعروف» الآية مبين لقوله تعالى «كنتم خير أمة» الخ ووضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد اليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين والايذان بأن تلك الامة ممن أوتى نصيباً وافرا من الكتاب لا من أرذالهم والقائمة المستقيمة العادلة من أقمت العود فقام بمعنى استقام وهم الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد وأضرابهم وقيل هم أربعون رجلا من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمداً عليه الصلاة والسلام وكان من الانصار فيهم عدة قبل قدوم النبى عليه السلام منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه وقوله تعالى (يتلون آيات الله) فى محل الرفع على أنه صفة أخرى لأمة وقيل فى محل النصب على أنه حال منها لتخصصها بالنعت والعامل فيه الاستقرار الذى يتضمنه الجار أو من ضميرها فى قائمة أو من المستكن فى الجار لوقوعه خبراً لامة والمراد بآيات الله القرآن وقوله تعالى (آناء الليل) ظرف ليتلون أى فى ساعاته جمع أنى بزنة عصا أو انى بزنة معى أو أنى بزنة ظبى او انى بزنة نحى أو أنو بزنة جرو (وهم يسجدون) أى يصلون اذ لا تلاوة فى السجود قال عليه الصلاة والسلام «ألا انى نهيت أن أقرأ راكعا وساجدا» وتخصيص السجود بالذكر من بين سائر أركان الصلاة لكونه أدل على كمال الخضوع. والتصريح بتلاوتهم آيات الله فى الصلاة مع أنها مشتملة عليها قطعا لزيادة تحقيق المخالفة وتوضيح عدم المساواة بينهم وبين الذين وصفوا آنفا بالكفر بها وهو السر فى تقديم هذا النعت على نعت الايمان. والمراد بصلاتهم التهجد اذ هو أدخل فى مدحهم وفيه يتسنى لهم التلاوة فانها فى المكتوبة وظيفة الامام واعتبار حالهم عند الصلاة على الانفراد يأباه مقام المدح وهو الانسب بالعدول عن ايرادها باسم الجنس المتبادر منه الصلاة المكتوبة وبالتعبير عن وقتها بالآناء المبهمة وقيل صلاة العشاء لان أهل الكتاب لا يصلونها لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرها ليلة ثم خرج فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال «أما انه ليس من أهل الاديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم وقرأ هذه الآية» وايرادا لجملة اسمية للدلالة على الاستمرار وتكرير الاسناد لتقوية الحكم وتأكيده وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والجملة حال من فاعل يتلون. وقيل هى مستأنفة والمعنى انهم يقومون تارة ويسجدون أخرى ويبتغون الفضل والرحمة بانواع ما يكون

فى الصلاة من الخضوع لله عز و جل كما فى قوله تعالى «و الذين يبيتون لربهم سجدا و قياما» وقيل المراد بالسجود هو الخضوع كما فى قوله تعالى «و لله يسجد ما فى السموات والارض» (يؤمنون بالله واليوم الآخر) صفة أخرى لامة مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى أى يؤمنون بهما على الوجه الذى نطق به الشرع. والاطلاق للايذان بالغنى عن التقييد لظهور أنه الذى يطلق عليه الايمان بهما لا يذهب الوهم الى غيره وللتعريض بان ايمان اليهود بهما مع قولهم عزيزا بن الله و كفرهم ببعض الكتب و الرسل و وصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الايمان بهما فى شيء أصلا ولو قيد بما ذكر لربما توهم أن المنتفى عنهم هو القيد المذكور مع جواز اطلاق الايمان على ايمانهم بالاصل وهيهات (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) صفتان أخريان لامة أجريتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود فى الفضائل المتعلقة بتكميل الغير أثر بيان مباينتهم لهم فى الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضا بمداهنتهم فى الاحتساب بل بتعكيسهم فى الامر باضلال الناس وصدهم عن سبيل الله فانه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف (ويسارعون فى الخيرات) صفة أخرى لامة جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارعة فى الخير فرط الرغبة فيه لان من رغب فى الامر سارع فى توليه والقيام به. وآثر الفور على التراخى أى يبادرون مع كمال الرغبة فى فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية. وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادرتهم الى الشرور. وايثار كلمة فى على ما وقع فى قوله تعالى «وسارعوا الى مغفرة» الخ للايذان بانهم مستقرون فى أصل الخير متقلبون فى فنونه المترتبة فى طبقات الفضل لا انهم خارجون عنها منتهون اليها (وأولئك) اشارة الى الامة باعتبار اتصافهم بما فصل من النعوت الجليلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل. وايثاره على الضمير للاشعار بعلة الحكم والمدح أى أولئك المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها (من الصالحين) أى من جملة من صلحت أحوالهم عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثناءه (وما يفعلوا من خير) كائنا ما كان مما ذكر أو لم يذكر (فلن يكفروه) أى لن يعدموا ثوابه ألبتة عبر عنه بذلك كما عبر عن توفية الثواب بالشكر اظهار الكمال تنزهه سبحانه وتعالى عن ترك اثابتهم بتصويره بصورة يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وتعديته الى مفعولين بتضمين معنى الحرمان. وايثار صيغة البناء للمفعول للجرى على سنن الكبرياء. وقرىء الفعلان على صيغة الخطاب (والله عليم بالمتقين) تذييل مقرر لمضمون ما قبله فان علمه تعالى بأحوالهم يستدعى توفية أجورهم

لا محالة والمراد بالمتقين اما الامة المعهودة وضع موضع الضمير العائد اليهم مدحا لهم وتعيينا لعنوان تعلق العلم بهم واشعارا بمناط اثابتهم وهو التقوى المنطوى على الخصائص السالفة واما جنس المتقين عموما وهم مندرجون تحت حكمه اندراجا أوليا (ان الذين كفروا) أي بما يجب أن يؤمن به قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بنو قريظة والنضير فان معاندتهم كانت لاجل المال. وقيل هم مشركو قريش فان أبا جهل كان كثير الافتخار بماله. وقيل أبو سفيان وأصحابه فانه أنفق مالا كثيرا على الكفار يوم بدر وأحد. وقيل هم الكفار كافة فانهم فاخروا بالاموال والاولاد حيث قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين فرد الله عز وجل عليهم وقال (لن تغنى عنهم) أى لن تدفع عنهم (أموالهم ولا أولادهم من الله) أى من عذابه تعالى (شيئا) أى شيئا يسيرا منه أو شيئا من الاغناء (وأولئك أصحاب النار) أي مصاحبوها على الدوام وملازموها (هم فيها خالدون) أبدا (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا) بيان لكيفية عدم اغناء أموالهم التى كانوا يعولون عليها فى جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطماعهم الفارغة وما موصولة اسمية حذف عائدها أي حال ما ينفقه الكفرة قربة أو مفاخرة وسمعة أو المنافقون رياء وخوفا وقصته العجيبة التى تجري مجرى المثل فى الغرابة (كمثل ريح فيها صر) أى برد شديد فانه فى الاصل مصدر وان شاع اطلاقه على الريح الباردة كالصرصر. وقيل كلمة فى تجريدية كما فى قوله تعالى «لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة» (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصى فباءوا بغضب من الله وانما وصفوا بذلك لان الاهلاك عن سخط أشد وأفظع (فاهلكته) عقوبة لهم ولم تدع منه أثرا ولا عثيرا والمراد تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود اليهم نفع ما بحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب الذى مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى «كمثل الذى استوقد نارا» ولذلك لم يبال بايلاء كلمة التشبية الريح دون الحرث ويجوز أن يراد مثل اهلاك ما ينفقون كمثل اهلاك ريح أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرىء تنفقون (وما ظلمهم الله) بما بين من ضياع ما أنفقوا من الاموال (ولكن أنفسهم يظلمون) لما أنهم أضاعوها بانفاقها لا على ما ينبغى. وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص اذ الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول أي ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم. وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقد جوز أن يكون المعنى وما ظلم الله تعالى أصحاب الحرث باهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم

بارتكاب ما استحقوا به العقوبة و يأباه أنه قد مر التعرض له تصريحا واشعارا وقرىء ولكن بالتشديد على أن أنفسهم اسمها ويظلمون خبرها والعائد محذوف للفاصلة أى ولكن أنفسهم يظلمونها .وأما تقدير ضمير الشأن فلا سبيل اليه لاختصاصه بالشعر ضرورة كما فى قوله : ولكن من يبصر جفونك يعشق

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) بطانة الرجل ووليجته من يعرفه أسراره ثقة به شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام «الانصار شعار والناس دثار» قال ابن عباس رضى الله عنهما كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين فنهوا عن ذلك ويؤيده قوله تعالى «واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ» وهى صفة المنافق وأياما كان فالحكم عام للكفرة كافة (من دونكم) أى من دون المسلمين وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف وقع صفة لبطانة أى كائنة من دونكم مجاوزة لكم (لا يألونكم خبالا) جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية الى الاجتناب عنهم أو صفة بطانة يقال ألا فى الامر اذا قصر فيه ثم استعمل معدي الى مفعولين فى قولهم لا آلوك نصحا ولا آلوك جهدا على تضمين معنى المنع والنقص والخبال الفساد أي لا يقصرون لكم فى الفساد (ودوا ما عنتم) أى تمنوا عنتكم أي مشقتكم وشدة ضرركم وهو أيضا استئناف مؤكد للنهى موجب لزيادة الاجتناب عن المنهى عنه (قد بدت البغضاء من أفواههم) استئناف آخر مفيد لمزيد الاجتناب عن المنهى عنه أى قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لما انهم لا يتمالكون مع مبالغتهم فى ضبط أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين .وقرىء قد بدا البغضاء .والافواه جمع فم وأصله فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على أفواه وتصغيره على فويه والنسبة اليه فوهى (وما تخفى صدورهم أكبر) مما بدا لان بدوه ليس عن روية واختيار (قد بينا لكم الآيات) الدالة على وجوب الاخلاص فى الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين (ان كنتم تعقلون) أى ان كنتم من أهل العقل أو ان كنتم تعقلون ما بين لكم من الآيات والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه (ها أنتم أولاء) جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه اظهاراً لكمال العناية بمضمونها أى أنتم أولاء الخاطئون فى موالاتهم وقوله تعالى (تحبونهم ولا يحبونكم) بيان لخطئهم فى ذلك وهو خبر ثان لانتم أو خبر لاولاء والجملة خبر لانتم كقولك أنت زيد تحبه أو صلة له أو حال والعامل معنى الاشارة ويجوز أن ينتصب

أولاء بفعل يفسره مابعده وتكون الجملة خبراً (وتؤمنون بالكتاب كله) أى بجنس الكتب جميعا وهو حال من ضمير المفعول فى لايحبونكم والمعنى لايحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فما بالكم تحبونهم وهم لايؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم (واذا لقوكم قالوا آمنا) نفاقا (واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ) أى من أجله تأسفا وتحسرا حيث لم يجدوا الى التشفى سبيلا (قل موتوا بغيظكم) دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الاسلام وأهله الى أن يهلكوا به أو باشتداده الى أن يهلكهم (ان الله عليم بذات الصدور) فيعلم مافى صدوركم من العداوة والبغضاء والحنق وهو يحتمل أن يكون من المقول أي وقل لهم ان الله تعالى عليم بما هوأخفى مماتخفونه من عض الانامل غيظا وأن يكون خارجا عنه بمعنى لاتتعجب من اطلاعى اياك على أسرارهم فانى عليم بذات الصدور . وقيل هو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظا باعزاز الاسلام واذلالهم به من غير أن يكون ثمة قول كانه قيل حدث نفسك بذلك (أن تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) بيان لتناهى عدواتهم الى حد حسدوا مانالهم من خير ومنفعة وشمتوا بما أصابهم من ضرر وشدة وذكر المس مع الحسنة والاصابة مع السيئة أما للايذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب اصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام اصابة السيئة وأما لان المس مستعار لمعنى الاصابة (وان تصبروا) أى على عداوتهم أوعلى مشاق التكاليف (وتتقوا) ماحرم الله تعالى عليكم ونهاكم عنه (لايضركم كيدهم) مكرهم وحيلتهم التى دبروها لاجلكم . وقرىء لايضركم بكسر الضاد وجزم الراء على جواب الشرط من ضاره يضيره بمعنى ضره يضره وضمة الراء فى القراءة المشهورة للاتباع كضمة مد (شيئا) نصب على المصدرية أي لايضركم شيئامن الضرر بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولان المجد فى الامر المتدرب بالاتقاء والصبر يكون جريئا على الخصم (ان الله بما يعملون) فى عداوتكم من الكيد (محيط) علما فيعاقبهم على ذلك . وقرىء بالتاء الفوقانية أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله (واذ غدوت) كلام مستأنف سيق للاستشهاد بمافيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر على أن وجودهما مستتبع لماوعد من النجاة عن مضرة كيد الاعداء واذنصب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم خاصة مع عموم الخطاب فيما قبله ومابعده له وللمؤمنين لاختصاص مضمون الكلام به عليه السلام أي واذكر لهم وقت غدوك ليتذكروا ماوقع فيه من الاحوال الناشئة عن عدم الصبر

فيعلموا أنهم أن لزموا الصبر والتقوى لايضرهم كيد الكفرة. وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها كما سلف بيانه فى تفسير قوله تعالى «واذقال ربك للملائكة» الخ والمراد به خروجه عليه السلام الى أحد وكان ذلك من منزل عائشة رضى الله عنها وهو المراد بقوله تعالى (من أهلك) أى من عند أهلك (تبوىء المؤمنين) أى تنزلهم أو تهيئ وتسوى لهم (مقاعد) ويؤيده قراءة من قرأ تبوئ للمؤمنين والجملة حال من فاعل غدوت لكن لاعلى أنها حال مقدرة أى ناويا وقاصدا للتبوئة كما قيل بل على أن المقصود تذكير الزمان الممتد المتسع لابتداء الخروج والتبوئة وما يترتب عليها اذ هو المذكر للقصة وانما عبر عنه بالغدو الذى هو الخروج غدوة مع كون خروجه عليه السلام بعد صلاة الجمعة كما ستعرفه اذ حينئذ وقعت التبوئة التى هى العمدة فى الباب اذ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لامر النبى صلى الله عليه وسلم وتزايلهم عن احيازهم المعينة لهم عند التبوئة وعدم صبرهم وبهذا يتبين خلل رأى من احتج به على جواز أداء صلاة الجمعة قبل الزوال واللام فى قوله تعالى (للقتال) أما متعلقة بتبوىء أى لاجل القتال وأما بمحذوف وقع صفة لمقاعد أى كائنة ومقاعد القتال أماكنه ومواقفه فان استعمال المقعد والمقام بمعنى المكان اتساعا شائع ذائع كما فى قوله تعالى «فى مقعد صدق وقوله تعالى قبل أن تقوم من مقامك» روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الاربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن ابى بن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الانصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ماخرجنا منها الى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فان أقاموا أقاموا بشر محبس وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة وان رجعوا رجعوا خائبين. وقال بعضهم يارسول الله اخرج بنا الى هؤلاء الأكلب لا يرون إنا قد جبنا عنهم فقال عليه الصلاة والسلام «انى قد رأيت فى منامى بقرا مذبحة حولى فأولتها خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولته هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة فتدعوهم» فقال رجال من المسلمين قد فاتهم بدر وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ اخرج بنا الى أعدائنا. وقال النعمان بن مالك الانصارى رضى الله عنه يارسول الله لا تحرمنى الجنة فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة ثم قال بقولى أشهد أن لا إله إلا الله وانى لا أفر من الزحف فلم يزالوا به عليه السلام حتى دخل فلبس لأمته فلما رأوه كذلك ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول

الله والوحي يأتيه وقالوا اصنع يارسول ما رأيت فقال «ماينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل» فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال لسنة ثلاث من الهجرة فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال فكأنما يقوم بهم القدح ان رأى صدراً خارجا قال تأخر وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره الى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا من مكانكم فلن نزال غالبين ماثبتم مكانكم» (والله سميع) لأقوالكم (عليم) بضمائركم والجملة اعتراض للايذان بأنه قد صدر عنهم هناك من الاقوال والافعال ما لا ينبغي صدوره عنهم (إذ همت) بدل من إذ غدوت مبين لما هو المقصود بالتذكير أو ظرف لسميع عليم على معنى انه تعالى جامع بين سماع الاقوال والعلم بالضمائر في ذلك الوقت إذ لا وجه لتقييد كونه تعالى سميعا عليما بذلك الوقت قال الفراء معنى قولك ضربت وأكرمت زيدا ان زيدا منصوب بهما وانهما تسلطا عليه معا (طائفتان منكم ان تفشلا) متعلق بهمت والباء محذوفة أي بأن تفشلا أي تجبنا وتضعفا وهما حيان من الانصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس وهما الجناحان من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ألف رجل وقيل تسعمائة وخمسين وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتح ان صبروا فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخزل عبد الله بن أبي بثلث الناس فقال ياقوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعهم عمرو بن حزم الانصاري فقال أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم فقال عبد الله لو نعلم قتالا لاتبعناكم فهم الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله تعالى فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضي الله عنهما أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا والظاهر أنها ما كانت الاهمة وحديث نفس قلما تخلو النفس عنه عند الشدائد (والله وليهما) أي عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة والجملة اعتراض ويجوز أن تكون حالا من فاعل همت أو من ضميره في تفشلا مفيدة لاستبعاد فشلهما أو همهما به مع كونهما في ولاية الله تعالى. وقرىء والله وليهم كما في قوله تعالى «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» (وعلى الله) وحده دون ما عداه مطلقا استقلالا أو اشتراكا (فليتوكل المؤمنون) في جميع امورهم فانه حسبهم. اظهار الاسم الجليل للتبرك والتعليل فان الالوهية من موجبات التوكل عليه تعالى واللام في المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليا. وفيه اشعار بان وصف الايمان من دواعي التوكل وموجباته

(ولقد نصركم الله ببدر) جملة مستأنفة سيقت لايجاب الصبر والتقوى بتذكير ماترتب عليهما من النصر اثر تذكير ما ترتب على عدمهما من الضرر .وقيل لايجاب التوكل على الله تعالى بتذكير مايوجبه .وبدر اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل اسمه بدر ابن كلدة فسمي باسمه وقيل سمي به لصفائه كالبدر واستدارته وقيل هو اسم الموضع أو الوادي وكانت وقعة بدر فى السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة (وانتم اذلة) حال من مفعول نصركم وأذلة جمع ذليل.وانما جمع جمع قلة للايذان باتصافهم حينئذ بوصفي القلة والذلة اذ كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان ضعف حالهم فى الغاية خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ولم يكن فى العسكر الا فرس واحد وقيل فرسان للمقداد ومرثد وتسعون بعيرا وست ادرع وثمانية سيوف وكان العدو زهاء ألف ومعهم مائة فرس وشكة وشوكة (فاتقوا الله) اقتصر على الامر بالتقوى مع كونه مشفوعا بالصبر فيما سبق وما لحق للاشعار باصالته وكون الصبر من مباديه اللازمة له ولذلك قدم عليه فى الذكر وفى ترتيب الأمر بالتقوى على الاخبار بالنصر ايذان بان نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم أي اذا كان الامر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ (لعلكم تشكرون)أي راجين أن تشكروا ماينعم به عليكم بتقوا كم من النصرة كما شكرتم فيما قبل أو لعلكم ينعم الله عليكم بالنصر كما فعل ذلك من قبل فوضع الشكر موضع سببه الذى هو الانعام (اذ تقول) تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه والايذان بان وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام واذ ظرف لنصركم قدم عليه الامر بالتقوى لاظهار كمال العناية به والمراد به الوقت الممتد الذى وقع فيه ماذكر بعده وماطوى ذكره تعويلا على شهادة الحال بما يتعلق به وجود النصر .وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أى نصركم وقت قولك (للمؤمنين) حين أظهروا العجز عن المقاتلة قال الشعبي بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفى يريد ان يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ثم حكى ههنا (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف) الكفاية سد الخلة والقيام بالامر والامداد فى الاصل اعطاء الشيء حالا بعد حال قال المفضل ما كان منه بطريق التقوية والاعانة يقال فيه أمده يمده امدادا وما كان بطريق الزيادة يقال فيه مده يمده مداومنه «والبحر يمده من بعده سبعة أبحر «وقيل المد فى الشر كما فى قوله تعالى «ويمدهم فى طغيانهم يعمهون وقوله ونمد له من العذاب مدا» والامداد فى الخير كما فى قوله تعالى «وأمددناكم بأموال وبنين» والتعرض لعنوان الربوبية

ههنا وفيما سيأتي مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار العناية بهم والاشعار بعلة الامداد والمعنى انكار عدم كفاية الامداد بذلك المقدار ونفيه وكلمة لن للاشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم (من الملائكة) بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف اليه أي كائنين من الملائكة (منزلين) صفة لثلاثة آلاف وقيل حال من الملائكة وقريء منزلين بالتشديد للتكثير أو للتدريج قيل أمدهم الله تعالى أولا بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف وقريء مبنيا للفاعل من الصيغتين أي منزلين النصر (بلى) ايجاب لما بعد لن وتحقيق له أي بلى يكفيكم ذلك ثم وعد لهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثالهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال (ان تصبروا) على لقاء العدو ومناهضتهم (وتتقوا) معصية الله ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام (ويأتوكم) أي المشركون (من فورهم هذا) أي من ساعتهم هذه وهو في الاصل مصدر فارت القدر أي اشتد غليانها ثم استعير للسرعة ثم أطلق على كل حالة لاريث فيها أصلا ووصفه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعينه وتقريبه ونظم اتيانهم بسرعة في سلك شرطى الامداد المستتبعين له وجودا وعدما أعنى الصبر والتقوى مع تحقق الامداد لامحالة سواء أسرعوا أو أبطؤا لتحقيق سرعة الامداد لالتحقيق أصله أو لبيان تحققه على أي حال فرض على أبلغ وجه وآكده بتعليقه بأبعد التقادير ليعلم تحققه على سائرها بالطريق الاولى فان هجوم الاعداء واتيانهم بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادة فعلق به تحقق الامداد ايذانا بأنه حيث تحقق مع ما ينافيه عادة فلأن يتحقق بدونه أولى وأحري كما اذا أردت وصف درع بغاية الحصانة تقول أن لبستها وبارزت بها الاعداء فضربوك بايد شداد وسيوف حداد لم تتأثر منها قطعا (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) من التسويم الذي هو اظهار سيما الشيء أي معلمين أنفسهم أو خيلهم فقد روى أنهم كانوا بعمائم بيض الاجبريل عليه السلام فانه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام وروى أنهم كانوا على خيل بلق قال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين اكتافهم وقال هشام بن عروة عمائم صفر وقال قتادة والضحاك كانوا قد أعلموا بالعهن في نواصي الخيل وأذنابها روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه تسوموا فان الملائكة قد تسومت وقريء مسومين على البناء للمفعول ومعناه معلمين من جهته سبحانه وقيل مرسلين من التسويم بمعنى الاسامة (وما جعله الله) كلام مبتدأ غير داخل في حيز القول مسوق من جنابه تعالى لبيان ان الاسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وأن حقيقة النصر

مختص به عز وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقد ان اسبابه وأماراته معطوف على فعل مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فان الاخبار بوقوع النصر على الاطلاق وتذكير وقته وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص هو الامداد بالملائكة مرة بعد أخرى وتعيين وقته فيما مضى يقضى بوقوعه حينئذ قضاء قطعيا لكن لم يصرح به تعويلا على تعاضد الدلائل وتآخذ الامارات والمخايل وايذانا بكمال الغنى عنه بل احترازعن شائبة التكرير أو عن ايهام احتمال الخلف فى الوعد المحتوم كانه قيل عقيب قوله تعالى «يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين» فامدكم بهم وماجعله الله الخ والجعل متعد الى واحد هو الضمير العائد الى مصدر ذلك الفعل المقدر واما عوده الى المصدر المذكور أعنى قوله تعالى أن يمدكم أوالى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى يمددكم كما قيل فغير حقيق بجزالة التنزيل لان الهيئة البسيطة متقدمة على المركبة فبيان العلة الغائية لوجود الامداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقه أن يكون بعد بيان وجوده فى نفسه ولاريب فى أن المصدرين المذكورين غير معتبرين من حيث الوجود والوقوع كمصدر الفعل المقدر حتى يتصدى لبيان أحكام وجودهما بل الاول معتبر من حيث الكفاية والثانى من حيث الوعد على أن الأول هو الامداد بثلاثة آلاف والواقع هو الامداد بخمسة آلاف وقوله تعالى (الا بشرى لكم) استثناء مفرغ من اعم العلل وتلوين الخطاب لتشريف المؤمنين وللايذان بأنهم المحتاجون الى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الاسباب الظاهرة وان رسول الله صلى الله عليه وسلم غنى عنه بماله من التأييد الروحانى أى وماجعل امدادكم بانزال الملائكة عيانا لشيء من الاشياء الا للبشرى لكم بانكم تنصرون (ولتطمئن قلوبكم به) أى بالامداد وتسكن اليه كما كانت السكينة لبنى اسرائيل كذلك فكلاهما علة غائية للجعل وقد نصب الاول لاجتماع شرائطه من اتحاد الفاعل والزمان وكونه مصدرا مسوقا للتعليل وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للاشارة أيضا الى اصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما فى قوله تعالى «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة» وفى قصر الامداد عليهما اشعار بأن الملائكة عليهم السلام لم يباشروا يومئذ القتال وانما كان امدادهم بتقوية قلوب المباشرين بتكثير السواد ونحوه كما هو رأي بعض السلف رضى الله عنه وقيل الجعل متعد الى اثنين وقوله عز وجل الا بشرى لكم استثناء من أعم المفاعيل أى وماجعله الله تعالى شيئا من الاشياء الا بشارة لكم فاللام فى قوله تعالى ولتطمئن متعلقة بمحذوف تقديره ولتطمئن قلوبكم به فعل ذلك (وما

النصر) أي حقيقة النصر على الاطلاق فيندرج في حكمه النصر المعهود اندراجا أوليا (الا من عند الله) أي إلا كائن من عنده تعالى من غير أن يكون فيه شركة من جهة الاسباب والعدد وانما هي مظاهر له بطريق جريان سنته تعالى أو وما النصر المعهود الا من عنده تعالي لا من عند الملائكة فانهم بمعزل من التأثير وانما قصارى أمرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب (العزيز) أي الذى لا يغالب في حكمه وأقضيته واجراء هذا الوصف عليه تعالي للاشعار بعلة اختصاص النصر به تعالى كما أن وصفه بقوله (الحكيم) الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة للايذان بعلة جعل النصر بانزال الملائكة فان ذلك من مقتضيات الحكم البالغة (ليقطع) متعلق بقوله تعالى ولقد نصركم وما بينهما تحقيق لحقيقته وبيان لكيفية وقوعه والمقصور على التعليل بما ذكر من البشرى والاطمئنان انما هو الامداد بالملائكة على الوجه المذكور فلا يقدح ذلك في تعليل أصل النصر بالقطع وما عطف عليه أو بما تعلق به الخبر في قوله عز وعلا وما النصر الا من عند الله على تقدير كونه عبارة عن النصر المعهود وقد أشير الى أن المعلل بالبشارة والاطمئنان انما هو الامداد الصورى لا ما في ضمنه من النصر المعنوى الذى هو ملاك الامر وأما تعلقه بنفس النصر كما قيل فمع ما فيه من الفصل بين المصدر ومعموله باجنبي هو الخبر مخل بسداد المعنى كيف لا ومعناه قصر النصر المخصوص المعلل بعلل معينة على الحصول من جهته تعالى وليس المراد الا قصر حقيقة النصر أو النصر المعهود على ذلك والمعنى لقد نصركم الله يومئذ أو وما النصر الظاهر عند امداد الملائكة الا ثابت من عند الله ليقطع أي يهلك وينقص (طرفا من الذين كفروا) أي طائفة منهم بقتل وأسر وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون وأسر سبعون (أو يكبتهم) أي يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فان الكبت شدة غيظ أو وهن يقع في القلب من كبته بمعنى كبده اذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة وقيل الكبت الاصابة بمكروه وقيل هو الصرع للوجه واليدين فالتاء حينئذ غير مبدلة وأو للتنويع (فينقلبوا خائبين) أي فينهزموا منقطعي الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشيء كما في قوله تعالى «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا» (ليس لك من الأمر شيء) اعتراض وسط بين المعطوف عليه المتعلق بالعاجل والمعطوف المتعلق بالآجل لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين أثر بيان أن لا تأثير للناصرين. وتخصيص النفي برسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء من غيره بالطريق الأولى. وانما خص الاعتراض بموقعه لأن ما قبله من القطع والكبت

من مظان أن يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشري القتال مدخل في الجملة (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) عطف على يكبتهم والمعنى أن مالك أمرهم على الاطلاق هو الله عز وجل نصركم عليهم ليهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم ان أسلموا أو يعذبهم ان أصروا وليس لك من أمرهم شيء انما أنت عبد مأمور بانذارهم وجهادهم والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الاخروي المخصوص بأشد الكفرة كفراً والا فمطلق التعذيب الاخروي متحقق في الفريقين الاولين أيضاً ونظم التوبة والتعذيب المذكور في سلك العلة الغائية للنصر المترتبة عليه في الوجود من حيث أن قبول توبتهم فرع تحققها الناشيء من علمه بحقية الاسلام بسبب غلبة أهله المترتبة على النصر وان تعذيبهم بالعذاب المذكور مترتب على اصرارهم على الكفر بعد تبيين الحق على الوجه المذكور هذا .وقيل أن عتبة بن أبي وقاص شج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر رباعيته فجعل عليه الصلاة والسلام يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم الى ربهم فنزلت « ليس لك من الامر شيء » الآية كأنه نوع معاتبة على انكاره عليه السلام لفلاحهم .وقيل أراد أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه بأن منهم من يؤمن فقوله تعالى أو يتوب عليهم حينئذ معطوف على الامر أو على شيء باضمار أن أي ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء أو ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم ونقل عن الفراء وابن الانباري أن أو بمعنى الا أن والمعنى ليس لك من أمرهم شيء الا أن يتوب الله عليهم فتفرح به أو يعذبهم فتتشفى منهم وأياما كان فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد أثر بيان بعض ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهر لأن كلا منهما مبنى على اختصاص الأمر كله بالله تعالى ومنبيء عن سلبه عمن سواه .واما تعلق كل القصة بغزوة أحد على أن قوله تعالى اذ تقول بدل ثان من اذ غدوت وأن ما حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع يوم أحد وأن الامداد الموعود كان مشروطا بالصبر والتقوى فلما لم يفعلوا لم يتحقق الموعود كما قيل فلا يساعده النظم الكريم. أما أولا فلان المشروط بالصبر والتقوى انما هو الامداد بخمسة آلاف لا بثلاثة آلاف مع أنه لم يقع الامداد يومئذ ولا بملك واحد وأما ثانيا فلانه كان ينبغي حينئذ أن ينعي عليهم جنايتهم وحرمانهم بسببها تلك النعمة الجليلة ودعوى ظهوره مع عدم دلالة السباق والسياق عليه بل مع دلالتهما على خلافه مما لا يكاد يسمع.وأما ثالثا فلانه لا سبيل الى

جعل الضمير فى قوله تعالى وما جعله الله الخ عائداً الى الامداد الموعود لانه لم يتحقق فكيف يبين علته الغائية ولا الى الوعد به على معنى أنه تعالى انما جعل ذلك الوعد لبشارتكم واطمئنان قلوبكم فلم تفعلوا ما شرط عليكم من الصبر والتقوى فلم يقع انجاز الموعود لما أن قوله تعالى «وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم» صريح فى أنه قد وقع الامداد الموعود لكن أثره انما هو مجرد البشارة والاطمئنان وقد حصلا وأما النصر الحقيقى فليس ذلك الا من عنده تعالى. وجعله استئنافا مقررا لعدم وقوع الامداد على معنى أن النصر الموعود مخصوص به تعالى فلا ينصر من خالف أمره بترك الصبر والتقوى اعتساف بين يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن قوله تعالى ليقطع طرفا الآية متعلق حينئذ بما تعلق به قوله تعالى من عند الله من الثبوت والاستقرار ضرورة أن تعلقه بقوله تعالى «ولقد نصركم الله ببدر» الآية مع كون ما بينهما من التفصيل متعلقا بوقعة أحد من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فلابد من اعتبار وجود النصر قطعا لان تفصيل الاحكام المترتبة على وجود شىء بصدد بيان انتفائه مما لم يعهد فى كلام الناس فضلا عن الكلام المجيد فالحق الذى لا محيد عنه أن قوله تعالى اذ تقول ظرف لنصركم وأن ما حكى فى أثنائه الى قوله تعالى خائبين متعلق يوم بدر قطعا وما بعده محتمل للوجهين المذكورين وقوله تعالى (فانهم ظالمون) تعليل على كل حال لقوله تعالى أو يعذبهم مبين لكون ذلك من جهتهم وجزاء لظلمهم (ولله ما فى السموات وما فى الارض) كلام مستأنف سيق لبيان اختصاص ملكوت كل الكائنات به عز وجل اثر بيان اختصاص طرف من ذلك به سبحانه تقريرا لما سبق وتكملة له .وتقديم الجار للقصر وكلمة ما شاملة للعقلاء أيضا تغليبا أى له ما فيهما من الموجودات خلقا وملكا لا مدخل فيه لاحد أصلا فله الامر كله (يغفر لمن يشاء) أى يغفر له مشيئة مبنية على الحكم والمصالح (ويعذب من يشاء) أن يعذبه بعمله مشيئة كذلك. وايثار كلمة من فى الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء وتقديم المغفرة على التعذيب للايذان بسبق رحمته تعالى غضبه وبانها من مقتضيات الذات دونه فانه من مقتضيات سيئآت العصاة وهذا صريح فى نفى وجوب التعذيب والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافى له (والله غفور رحيم) تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى يغفر لمن يشاء مع زيادة .وفى تخصيص التذييل به دون قرينه من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى (ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا) كلام مبتدأ مشتمل على ما هو ملاك الامر فى كل باب لاسيما فى باب الجهاد من التقوى والطاعة وما بعدهما من الامور المذكورة على نهج الترغيب والترهيب

جيء به في تضاعيف القصة مسارعة الى ارشاد المخاطبين الي ما فيه وايذانا بكمال وجوب المحافظة عليه فيما هم فيه من الجهاد فان الامور المذكورة فيه مع كونها مناطا للفوز في الدارين على الاطلاق عمدة في أمر الجهاد عليها يدور فلك النصرة والغلبة كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما لقوا ما لقوا ولعل ايراد النهي عن الربا في أثنائها لما أن الترغيب في الانفاق في السراء والضراء الذي عمدته الانفاق في سبيل الجهاد متضمن للترغيب في تحصيل المال فكان مظنة مبادرة الناس الى طرق الاكتساب ومن جملتها الربا فنهوا عن ذلك والمراد بأكله أخذه وانما عبر عنه بالاكل لما أنه معظم ما يقصد بالاخذ ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيع وقوله عز وجل (أضعافا مضاعفة) ليس لتقييد النهي به بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخا لهم بذلك اذ كان الرجل يربي الى أجل فاذا حل قال للمدين زدني في المال حتى أزيدك في الاجل فيفعل وهكذا عند محل كل أجل فيستغرق بالشيء الطفيف ماله بالكلية ومحله النصب على الحالية من الربا وقرىء مضعفة (واتقوا الله) فيما نهيتم عنه من الامور التي من جملتها الربا (لعلكم تفلحون) راجين للفلاح (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي ما يتعاطونه كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه في اجتناب محارمه (وأطيعوا الله) في كل ما أمركم به ونهاكم عنه (والرسول) الذي يبلغكم أوامره ونواهيه (لعلكم ترحمون) راجين لرحمته عقب الوعيد بالوعد ترهيبا عن المخالفة وترغيبا في الطاعة. وايراد لعل في الموضعين للاشعار بعزة منال الفلاح والرحمة قال محمد بن اسحق هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد (وسارعوا) عطف على أطيعوا. وقرىء بغير واو على وجه الاستئناف أي بادروا وأقبلوا. وقرىء وسابقوا (الى مغفرة من ربكم وجنة) أي الى ما يؤدي اليهما وقيل الى الاسلام وقيل الى التوبة وقيل الي الاخلاص وقيل الى الجهاد وقيل الى أداء جميع الواجبات وترك جميع المنهيات فيدخل فيها ما مر من الامور المأمور بها والمنهي عنها دخولا أوليا. وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية متقدمة على التحلية ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لمغفرة أي كائنة من ربكم. والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار مزيد اللطف بهم وقوله تعالي (عرضها السموات والارض) أي كعرضهما صفة لجنة. وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصفها بالسعة والبسطة على طريقة

التمثيل فان العرض في العادة أدنى من الطول وعن ابن عباس رضي الله عنهما كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض (أعدت للمتقين) في حيز الجر على أنه صفة أخرى لجنة أو في محل النصب على الحالية منها لتخصصها بالصفة أي هيئت لهم وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن وأنها خارجة عن هذا العالم (الذين ينفقون) في محل الجر على أنه نعت للمتقين مادح لهم أو بدل منه أو بيان أو في حيز النصب أو الرفع على المدح ومفعول ينفقون محذوف ليتناول كل ما يصلح للانفاق أو متروك بالكلية كما في قولك يعطي ويمنع (في السراء والضراء) في حالتي الرخاء والشدة واليسر والعسر أو في الاحوال كلها اذ الانسان لا يخلوا عن مسرة أو مضرة أي لا يخلون في حال ما بانفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير (والكاظمين الغيظ) عطف على الموصول والعدول الى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار وأما الانفاق فحيث كان أمرا متجددا عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد والكظم الحبس يقال كظم غيظه أي حبسه قال المبرد تأويله أنه كتمه على امتلائه منه يقال كظمت السقاء اذا ملأته وشددت عليه أي الممسكين عليه الكافين عن امضائه مع القدرة عليه وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من كظم غيظا وهو قادر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا» (والعافين عن الناس) أي التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته. روي أنه ينادي مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله تعالى فلا يقوم ألا من عفا وعن النبي صلى الله عليه وسلم ان هؤلاء في أمتي قليل الا من عصم الله وقد كانوا كثيرا في الامم التي مضت وفي هذين الوصفين أشعار بكمال حسن موقع عفوه عليه الصلاة والسلام عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره عليه السلام وندب له عليه السلام الى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوا بحمزة رضي الله عنه حيث قال حين رآه قد مثل به «لامثلن بسبعين مكانك» (والله يحب المحسنين) اللام اما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا واما للعهد عبر عنهم بالمحسنين ايذانا بان النعوت المعدودة من باب الاحسان الذي هو الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره عليه السلام بقوله «أن تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها (والذين) مرفوع على الابتداء وقيل مجرور معطوف على ما قبله من صفات المتقين وقوله تعالى «والله يحب المحسنين» اعتراض بينهما مشير الى ما بينهما من التفاوت فان درجة الاولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أوفى من حظهم أو على نفس المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر (اذا فعلوا

فاحشة) أى فعلة بالغة فى القبح كالزنا (أوظلموا أنفسهم) بأن أتوا ذنباً أى ذنب كان. وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة. أو الفاحشة مايتعدى الى الغير وظلم النفس ماليس كذلك. قيل قال المؤمنون يارسول الله كانت بنو اسرائيل أكرم على الله تعالى منا كان أحدهم اذا أذنب أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره افعل كذا فانزل الله تعالى هذه الآية وقيل أن نبهان التمار أتته امرأة حسناء تطلب منه تمرا فقال لها هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فذهب بها الى بيته فضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك وأتى النبى صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت. وقيل جرى مثل هذا بين أنصارى وامرأة رجل ثقفى كان بينهما مؤاخاة فندم الانصارى وحثا على رأسه التراب وهام على وجهه وجعل يسبح فى الجبال تائبا مستغفرا ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت وأياما كان فاطلاق اللفظ ينتظم مافعله الزناة انتظاما أوليا (ذكروا الله) تذكروا حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء أو وعيده أو حكمه وعقابه (فاستغفروا لذنوبهم) بالتوبة والندم والفاء للدلالة على أن ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لامحالة (ومن يغفر الذنوب) استفهام انكارى والمراد بالذنوب جنسها كما فى قولك فلان يلبس الثياب ويركب الخيل لاكلها حتى يخل بما هو المقصود من استحالة صدور مغفرة فرد منها عن غيره تعالى وقوله تعالى (الا الله) بدل من الضمير المستكن فى يغفر أى لايغفر جنس الذنوب أحد الا الله خلا أن دلالة الاستفهام على الانتفاء أقوى وأبلغ لايذانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء فيسارع الى الجواب به والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة والجملة معترضة بين المعطوفين أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه والاشعار بالوعد بالقبول (ولم يصروا) عطف على فاستغفروا. وتأخيره عنه مع تقدم عدم الاصرار على الاستغفار رتبة لاظهار الاعتناء بشأن الاستغفار واستحقاقه للمسارعة اليه عقيب ذكره تعالى أو حال من فاعله أى ولم يقيموا أو غير مقيمين (على مافعلوا) أى مافعلوه من الذنوب فاحشة كانت أو ظلما أو على مافعلهم روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ماأصر من استغفر وأن عاد فى اليوم سبعين مرة وانه لاكبيرة مع الاستغفار ولاصغيرة مع الاصرار » (وهم يعلمون) حال من فاعل يصروا أى لم يصروا على مافعلوا وهم عالمون بقبحه والنهى عنه والوعيد عليه والتقييد بذلك لما أنه قد يعذر من لايعلم ذلك اذا لم يكن عن تقصير فى تحصيل العلم به (أولئك) اشارة الى المذكورين آخرا باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الحميدة ومافيه من معنى البعد

للاشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (جزاؤهم) بدل اشتمال منه وقوله تعالى (مغفرة) خبر له أو جزاؤهم مبتدأ ثان ومغفرة خبره والجملة خبر لاولئك وهذه الجملة خبر لقوله تعالى والذين اذا فعلوا الخ على الوجه الاول وهو الاظهر الأنسب بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنب فى سلك الجزاء اذ على الوجهين الاخيرين يكون قوله تعالى أولئك الخ جملة مستأنفة مبينة لما قبلها كاشفة عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين ولم يذكر من أوصاف الاولين مافيه شائبة الذنب حتى يذكر فى مطلع الجزاء الشامل لهما المغفرة وتخصيص الاشارة بالآخرين مع اشتراكهما فى حكم اعداد الجنة لهما تعسف ظاهر (من ربهم) متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة من جهته تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم للاشعار بعلة الحكم والتشريف (وجنات تجرى من تحتها الانهار) عطف على مغفرة والتنكير المشعر بكونها أدنى من الجنة السابقة مما يؤيد رجحان الوجه الاول (خالدين فيها) حال مقدرة من الضمير فى جزاؤهم لانه مفعول به فى المعنى لانه فى قوة يجزيهم الله جنات خالدين فيها ولا مساغ لان يكون حالا من جنات فى اللفظ وهى لاصحابها فى المعنى اذ لو كان كذلك لبرز الضمير (ونعم أجر العاملين) المخصوص بالمدح محذوف أى ونعم أجر العاملين ذلك أى ماذكر من المغفرة والجنات والتعبير عنهما بالاجر المشعر بأنهما يستحقان بمقابلة العمل وأن كان بطريق التفضل لمزيد الترغيب فى الطاعات والزجر عن المعاصى والجملة تذييل مختص بالتائبين حسب اختصاص التذييل السابق بالاولين وناهيك مضمونهما دليلا على مابين الفريقين من التفاوت النير والتباين البين شتان بين المحسنين الفائزين بمحبة الله عز وجل وبين العاملين الحائزين لاجرتهم وعمالتهم (قد خلت من قبلكم سنن) رجوع الى تفصيل بقية القصة بعد تمهيده مبادى الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح . والخلو المضى. والسنن الوقائع .وقيل الامم والظرف أما متعلق بخلت أو بمحذوف وقع حالا من سنن أى قد مضت من قبل زمانكم أو كائنة من قبلكم وقائع سنها الله تعالى فى الامم المكذبة كما فى قوله تعالى «وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا» الخ والفاء فى قوله تعالى (فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) للدلالة على سببية خلوها للسير والنظر أو للامر بهما. وقيل المعنى على الشرط أى ان شككتم فسيروا الخ وكيف خبر مقدم لكان معلق لفعل النظر والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض لان الاصل استعماله بالجار (هذا) اشارة الى ماسلف من قوله تعالى

قد خلت الى آخره (بيان للناس) أى تبيين لهم على أن اللام متعلقة بالمصدر أو كائن لهم على انها متعلقة بمحذوف وقع صفة له وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون أى هذا ايضاح لسوء عاقبة ماهم عليه من التكذيب فان الامر بالسير والنظر وان كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضا على أن ينظروا فى عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا بما يعاينون من آثار دمارهم وان لم يكن الكلام مسوقا لهم (وهدى وموعظة) أى و زيادة بصيرة وموعظة لكم وانما قيل (للمتقين) للايذان بعلة الحكم فأن مدار كونه هدى وموعظة لهم انما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرون الى التقوى والهدى والموعظة على ظاهرهما أى هذا بيان لمآل أمر الناس وسوء مغبته وهداية لمن اتقى منهم وزجر لهم عما هم عليه من التكذيب وان يراد بها مايعمهم وغيرهم من المتقين بالفعل و يراد بالهدى والموعظة أيضا مايعم ابتداءهما والزيادة فيهما وانما قدم كونه بيانا للمكذبين مع انه غير مسوق له على كونه هدي وموعظة للمتقين مع انه المقصود بالسياق لان أول مايترتب على مشاهدة آثار هلاك اسلافهم ظهور حال اخلافهم واما زيادة الهدى أو أصله فأمر مترتب عليه وتخصيص البيان بالناس مع شموله للمتقين أيضا لما ان المراد به مجرد البيان العارى عن الهدى والعظة والاقتصار عليهما فى جانب المتقين مع ترتبهما على البيان لما انهما المقصد الاصلي ويجوز أن يكون تعريف الناس للجنس أى هذا بيان للناس كافة وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصة.وقيل كلمة هذا اشارة الى ما لخص من امر المتقين والتائبين والمصرين وقوله تعالى قد خلت الآية اعتراض للبعث على الايمان وما يستحق به ماذكر من أجر العاملين وانت خبير بان الاعتراض لابد أن يكون مقررا لمضمون ماوقع فى خلاله و معاينة آثار هلاك المكذبين مما لاتعلق له بحال أحد الاصناف الثلاثة للمؤمنين وان كان باعثا على الايمان زاجرا عن التكذيب.وقيل اشارة الي القرآن ولا يخفى بعده (ولا تهنوا ولا تحزنوا) تشجيع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسلية عما أصابهم يوم أحد من القتل والقرح وكان قد قتل يومئذ خمسة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبدالله بن جحش بن عمة النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان بن شماس وسعد مولى عتبة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن الانصار سبعون رجلا رضى الله عنهم أى لاتضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ولا تحزنوا على من قتل منكم (وانتم الاعلون) جملة حالية من فاعل الفعلين أى والحال انكم الاعلون الغالبون دون عدوكم فان مصير أمرهم الي الدمار حسبما

شاهدتم من أحوال اسلافهم فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الاشعار به فيما سبق أو وأنتم المعهودون بغاية علو الشأن لما انكم على الحق وقتالكم لله عزوجل وقتلاكم فى الجنة وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار وقيل وأنتم الاعلون حال منهم حيث أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم (ان كنتم مؤمنين) متعلق بالنهى أو بالاعلون وجوابه محذوف لدلالة ماتعلق به عليه أي ان كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا فان الايمان يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله تعالي وعدم المبالاة باعدائه أو ان كنتم مؤمنين فانتم الاعلون فان الايمان يقتضى العلو لامحالة أو ان كنتم مصدقين بوعد الله تعالى فانتم الاعلون واياما كان فالمقصود تحقيق المعلق بناء على تحقق المعلق به كما فى قول الاجيران كنت عملت لك فاعطنى أجرى ولذلك قيل معناه اذ كنتم مؤمنين وقيل معناه ان بقيتم على الايمان (أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) القرح بالفتح والضم لغتان كالضعف والضعف وقد قرىء بهما وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم المها وقرىء بفتحتين وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد والمعنى أن نالوا منكم يوم احد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتهم بالقتال فانتم أحق بان لاتضعفوا فانكم ترجون من الله مالا يرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فان المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفا وعشرين رجلا منهم صاحب لوائهم وجرحوا عددا كثيرا وعقروا عامة خيلهم بالنبل (وتلك الايام) اشارة الي تلك الايام الجارية فيما بين الامم الماضية والآتية كافة لا الى الايام المعهودة خاصة من يوم بدر ويوم أحد بل هى داخلة فيها دخولا أوليا والمراد بها أوقات الظفر والغلبة (نداولها بين الناس) نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء اخرى كقول من قال:

فيوما علينا ويوما لنا ✻ ويوما نساء ويوما نسر

والمداولة كالمعاورة يقال داولته بينهم فتداولوه أي عاورته فتعاوروه واسم الاشاره مبتدأ والايام أما صفة له أو بدل منه أو عطف بيان له فنداولها خبره أو خبر فنداولها حال من الايام والعامل معنى اسم الاشارة أو خبر بعد خبر . وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للايذان بان تلك المداولة سنة مساوكة فيما بين الامم قاطبة سابقتها ولاحقتها وفيه ضرب من التسلية وقوله عز وجل (وليعلم الله الذين آمنوا) أما من باب التمثيل أي ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الايمان من غيرهم أو العلم فيه مجاز عن التمييز بطريق اطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الايمان

من غيرهم كما فى قوله تعالى «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب» أو هو على حقيقته معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث انه موجود بالفعل اذهو الذى يدور عليه فلك الجزاء لا من حيث انه موجود بالقوة. واطلاق الايمان مع ان المراد هو الرسوخ والاخلاص فيه للايذان بان اسم الايمان لا ينطلق على غيره والالتفات الى الغيبة باسناده الى اسم الذات المستجمع للصفات لتربية المهابة والاشعار بان صدور كل واحد منهما ذكر بصدد التعليل من أفعاله تعالى باعتبار منشأ معين من صفاته تعالى مغاير لمنشأ الآخر والجملة علة لما هو فرد من أفراد مطلق المداولة التى نطق بها قوله تعالى نداولها بين الناس من المداولة المعهودة الجارية بين فريقى المؤمنين الكافرين. واللام متعلقة بما دل عليه المطلق من الفعل المقيد بالوقوع بين الفريقين المذكورين أو بنفس الفعل المطلق باعتبار وقوعه بينهما والجملة معطوفة على علة أخرى لها معتبرة اما على الخصوص والتعيين محذوفة لدلالة المذكورة عليها لكونها من مباديها كأنه قيل نداولها بينكم وبين عدوكم ليظهر أمركم وليعلم الخ فان ظهور أعمالهم وخروجها من القوة الى الفعل من مبادىء تمييزهم عن غيرهم ومواجب تعلق العلم الازلى بها من تلك الحيثية وكذا الحال فى باب التمثيل فتأمل وأما على العموم والابهام للتنبيه على ان العلل غير منحصرة فيما عدد من الامور وأن العبد يسوءه ما يجرى عليه من النوائب ولا يشعر بأن الله تعالى جعل له فى ذلك من الالطاف الخفية ما لا يخطر بالبال كأنه قيل نداولها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم الخ وفيه من تأكيد التسلية ومزيد التبصرة ما لا يخفى. وتخصيص البيان بعلة هذا الفرد من مطلق المداولة دون سائر أفرادها الجارية فيما بين بقية الامم تعيينا أو ابهاما لعدم تعلق الغرض العلمى ببيانها ولك أن تجعل المحذوف المبهم عبارة عن علل سائر أفرادها للاشارة اجمالا الى أن كل فرد من أفرادها له علة داعية اليه كأنه قيل نداولها بين الناس كافة ليكون كيت وكيت من الحكم الداعية الى تلك الافراد وليعلم الخ فاللام الاولى متعلقة بالفعل المطلق باعتبار تقيده بتلك الافراد والثانية باعتبار تقيده بالفرد المعهود. وقيل هى متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك (ويتخذ منكم شهداء) جمع شهيد أى ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم شهداء أحد فمن ابتدائية أو تبعيضية متعلقة بيتخذ أو بمحذوف وقع حالا من شهداء أو جمع شاهد أى ويتخذ منكم شهودا معدلين بما ظهر منهم من الثبات على الحق والصبر على الشدائد وغير ذلك من شواهد الصدق ليشهدوا على الامم يوم القيامة فمن بيانية لان تلك الشهادة وظيفة الكل دون المستشهدين فقط وأياما كان ففى لفظ

الاتخاذ المنبيء عن الاصطفاء والتقريب من تشريفهم وتفخيم شأنهم مالايخفى وقوله تعالى (والله لايحب الظالمين) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله ونفي المحبة كناية عن البغض وفى ايقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم والمراد بهم اما غير الثابتين على الايمان فالتقرير من حيث ان بغضه تعالى لهم من دواعي اخراج المخلصين المصطفين للشهادة من بينهم. وأما الكفرة الذين أديل لهم فالتقرير من حيث أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم فانها مختصة باوليائه تعالى بل لما ذكر من الفوائد العائدة الى المؤمنين وقوله تعالي (وليمحص الله الذين آمنوا) أي ليصفيهم ويطهرهم من الذنوب عطف على يتخذ. وتكرير اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما باعتراض واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لابراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص وهذه الامور الثلاثة علل للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين قدمت فى الذكر لانها المحتاجة الى البيان ولعل تأخير العلة الاخيرة عن الاعتراض لئلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين اوليقترن بقوله عز وجل (ويمحق الكافرين) فان التمحيص فيه محو الآثار وازالة الاوضار كما أن المحق عبارة عن النقص والاذهاب قال المفضل وأن يذهب الشيء بالكلية حتى لايرى منه شيء ومنه قوله تعالى «يمحق الله الربا» أي يستاصله وهذه علة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد واصروا على الكفر وقد محقهم الله عز وجل جميعا (أم حسبتم) كلام مستأنف سيق لبيان ماهي الغاية القصوي من المداولة والنتيجة لما ذكر من تمييز المخلصين وتمحيصهم واتخاذ الشهداء واظهار عزة منالها. والخطاب للذين انهزموا يوم أحد. وأم منقطعة وما فيها من كلمة بل للاضراب عن التسلية ببيان العلل فيما لقوا من الشدة الى تحقيق انها من مبادىء الفوز بالمطالب الاسنى والهمزة للانكار والاستبعاد أي بل أحسبتم (أن تدخلوا الجنة) وتفوزوا بنعيمها وقوله تعالى (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) حال من ضمير تدخلوا مؤكدة للانكار فان رجاء الاجر بغير عمل من يعلم انه منوط به مستبعد عند العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم لما بينهما من اللزوم المبنى على لزوم تحقيق الاول لتحقق الثانى ضرورة استحالة تحقق شيء بدون علمه تعالى به. وايثارها على التصريح للمبالغة فى تحقيق المعنى المراد فانها اثبات لعدم جهادهم بالبرهان وللايذان بان مدار ترتب الجزاء على الاعمال انما هو علم الله تعالى بها كانه قيل والحال أنه لم يوجد الذين جاهدوا منكم وانما وجه النفي الى الموصوفين مع أن المنفي هو الوصف فقط وكان يكفي أن يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية

عن معنى ولما تجاهدوا للمبالغة فى بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلا. وفى كلمة لما ايذان بأن الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل الا أنه غير معتبر فى تأكيد الانكار. وقرىء يعلم بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون أو على طريقة اتباع الميم لما قبلها فى الحركة لابقاء تفخيم اسم الله تعالى ومنكم حال من الذين (ويعلم الصابرين) منصوب باضمار أن على أن الواو للجمع كما فى قولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن أي لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أى الجمع بينهما. وايثار اسم الفاعل على الموصول للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة على الفواصل. وقيل مجزوم معطوف على المجزوم قبله قد حرك لالتقاء الساكنين بالفتح للخفة والاتباع كما مر ويؤيده القراءة بالكسر على ماهو الاصل فى تحريك الساكن. وقرىء يعلم بالرفع على أن الواو للحال وصاحبها الموصول والمبتدأ محذوف أى وهو يعلم الصابرين كأنه قيل ولما تجاهدوا وانتم صابرون (ولقد كنتم تمنون الموت) أي تتمنون الحرب فانها من مبادىء الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فالحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك (من قبل أن تلقوه) متعلق بتمنون مبين بسبب اقدامهم على التمنى اى من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته وقرىء تلاقوه (فقد رأيتموه) أى ما تتمنونه من أسباب الموت أو بمشاهدة أسبابه وقوله تعالى (وأنتم تنظرون) حال من ضمير المخاطبين. وفى ايثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة فى مشاهدتهم له والفاء فصيحة كأنه قيل ان كنتم صادقين فى تمنيكم ذلك فقد رأيتموه معاينين له حين قتل بين أيديكم من قتل من اخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا فلم فعلتم ما فعلتم وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمنى الشهادة بناء على تضمنها لغلبة الكفار لما أن مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر بباله شيء غير ذلك فلا يستحق العتاب من تلك الجهة (وما محمد الا رسول) مبتدأ وخبر ولا عمل لما بالاتفاق لانتقاض نفيه بالا وقوله تعالى (قد خلت من قبله الرسل) صفة لرسول منبئة عن كونه فى شرف الخلو فان خلو مشاركيه فى منصب الرسالة من شواهد خلوه عليه الصلاة والسلام لا محالة كأنه قيل قد خلت من قبله أمثاله فسيخلو كما خلوا والقصر قلبى فانهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا كسائر الرسل فى أنه يخلو كما خلوا ويجب التمسك بدينه

بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم فرد عليهم بانه ليس الا رسولا كسائر الرسل فسيخلو كما خلوا و يجب التمسك بدينه كما يجب التمسك بدينهم. وقيل هو قصر افراد فانهم لما استعظموا عدم بقائه عليه الصلاة والسلام لهم نزلوا منزلة المستبعدين لهلاكه كانهم يعتقدون فيه عليه الصلاة والسلام وصفين الرسالة والبعد عن الهلاك فرد عليهم بانه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها الى البعد عن الهلاك فلا بد حينئذ من جعل قوله تعالى قد خلت الخ كلاما مبتدأ مسوقا لتقرير عدم براءته عليه الصلاة والسلام من الهلاك وبيان كونه اسوة لمن قبله من الرسل عليهم السلام. وأياما كان فالكلام يخرج على خلاف مقتضى الظاهر (أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) انكار لارتدادهم وانقلابهم عن الدين بخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به وقيل الفاء للسببية والهمزة لانكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم بعد وفاته مع كونه سببا في الحقيقة لثباتهم على الدين . وايراد الموت بكلمة ان مع علمهم به البتة لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لما ذكر من استعظامهم اياه وهكذا الحال في سائر الموارد فان كلمة ان في كلام الله تعالى لا تجرى على ظاهرها قط ضرورة علمه تعالى بالوقوع أو اللاوقوع بل تحمل على اعتبار حال السامع أو أمر آخر يناسب المقام. وتقديم تقدير الموت مع ان تقدير القتل هو الذي ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما ان الموت في شرف الوقوع فزجر الناس عن الانقلاب عنده وحملهم على التثبت هنالك أهم ولان الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام هو الخلو بالموت دون القتل . روى أنه لما التقى الفئتان حمل أبو دجانة في نفر من المسلمين على المشركين فقاتل قتالا شديدا وقاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قتالا عظيما حتى التوى سيفه وكذا سعد بن أبي وقاص فقتلوا جماعة من المشركين وهزموهم فلما نظر الرماة عليهم ورأوا أنهم قد انهزموا أقبلوا على النهب ولم يلتفتوا الى نهي أميرهم عبد الله بن جبير فلم يبق منهم عنده الا ثمانية نفر فلما رآهم خالد بن الوليد قد اشتغلوا بالغنيمة حمل عليهم في مائتين وخمسين فارسا من المشركين من قبل الشعب وقتلوا من بقي من الرماة ودخلوا خلف أقفية المسلمين ففرقوهم وهزموهم وحملوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلوهم حتى أصيب هناك نحو ثلاثين رجلا كل منهم يجثو بين يديه ويقول وجهي لوجهك وقاء ونفسي لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع ورمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه الكريم فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب الراية

حتى قتله ابن قمئة وهو يزعم أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم فقال قتلت محمداً وصرخ صارخ قيل أنه إبليس: الا أن محمداً قد قتل فانكفأ الناس وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الى عباد الله قال كعب بن مالك كنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانحاز اليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون. وقال بعضهم ليت ابن أبي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان. وقال ناس من المنافقين لو كان نبيا لما قتل ارجعوا الى اخوانكم والى دينكم فقال أنس بن النضر وهو عم أنس بن مالك يا قوم: ان كان قتل محمد فان رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا كراما على ما مات عليه ثم قال اللهم اني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل. وتجويزهم لقتله عليه الصلاة والسلام مع قوله تعالى «والله يعصمك من الناس» لما أن كل آية ليس يسمعها كل أحد ولا كل من يسمعها يستحضرها في كل مقام لا سيما في مثل ذلك المقام الهائل وقد غفل عمر رضي الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته عليه الصلاة والسلام وقام في الناس فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي وان رسول الله مامات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا قطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يزل يكرر ذلك الى أن قام أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ثم تلا وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل الآية قال الراوي والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها أبو بكر وقال عمر رضي الله عنه والله ماهو الا أن سمعت أبا بكر رضي الله عنه يتلو فعقرت حتى ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات (ومن ينقلب على عقبيه) بادباره عما كان يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الجهاد وغيره وقيل بارتداده عن الاسلام وما ارتد يومئذ أحد من المسلمين الا ما كان من المنافقين (فلن يضر الله) بما فعل من الانقلاب (شيئاً) أي شيأ من الضرر وانما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب (وسيجزي الله الشاكرين) أي الثابتين على دين الاسلام الذي هو

أجل نعمة وأعز معروف سموا بذلك لان الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه وفيه ايماء الى كفران المنقلبين وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد بهم الطائعون لله تعالى من المهاجرين والانصار وعن على رضى الله عنه أبو بكر واصحابه رضى الله عنهم وعنه رضى الله عنه انه قال ابو بكر من الشاكرين ومن أحباء الله تعالى واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لابراز مزيد الاعتناء بشأن جزائهم (وما كان لنفس أن تموت) كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذرا من قتلهم وبناء على الارجاف بقتله عليه الصلاة والسلام ببيان أن موت كل نفس منوط بمشيئة الله عز وجل لا يكاد يقع بدون تعلقها به وان خاضت موارد الخوف واقتحمت مضايق كل هول مخوف وقد أشير بذلك الى أنها لم تكن متعلقة بموتهم فى الوقت الذى حذروه فيه ولذلك لم يقتلوا حينئذ لا لاحجامهم عن مباشرة القتال وكلمة كان ناقصة اسمها أن تموت وخبرها الظرف على انه متعلق بمحذوف وقوله تعالى (الا باذن الله) استثناء مفرغ من أعم الاسباب أى وما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس بسبب من الاسباب الا بمشيئته تعالى على أن الاذن مجاز عنها لكونها من لوازمه أو الا باذنه لملك الموت فى قبض روحها وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة الى النفوس بصورة الافعال الاختيارية التى لا يتسنى للفاعل ايقاعها والاقدام عليها بدون اذنه تعالى أو بتنزيل اقدامها على مباديه أعنى القتال منزلة الاقدام على نفسه للمبالغة فى تحقيق المرام فان موتها حيث استحال وقوعه عند أقدامها عليه أو على مباديه وسعيها فى ايقاعه فلان يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر. وفيه من التحريض على القتال مالا يخفى (كتابا) مصدر مؤكد لمضمون ماقبله أى كتبه الله كتابا (مؤجلا) مؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ولو ساعة. وقرىء مؤجلا بالواو بدل الهمزة على قياس التخفيف وبعد تحقيق أن مدار الموت والحياة محض مشيئة الله عز وجل من غير أن يكون فيه مدخل لاحد أصلا أشير الى أن توفية ثمرات الاعمال دائرة على اراداتهم ليصرفوها عن الاغراض الدنية الى المطالب السنية فقيل (ومن يرد) أى بعمله (ثواب الدنيا نؤته) بنون العظمة على طريق الالتفات (منها) أى من ثوابها مانشاء ان نؤتيه أياه كما فى قوله عز وجل «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد» وهو تعريض بمن شغلتهم الغنائم يومئذ وقد مر تفصيله (ومن يرد) أى بعمله (ثواب الآخرة نؤته منها) أى من ثوابها مانشاء من الاضعاف حسبما جرى به الوعد الكريم (وسنجزى الشاكرين) نعمة الاسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى والقدر الى ماخلقت هى لاجله من طاعة الله

تعالى لايلويهم عن ذلك صارف اصلا والمراد بهم اما المجاهدون المعهودون من الشهداء وغيرهم واما جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولا أوليا .والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبله ووعد بالمزيد عليه وفي تصديرها بالسين وابهام الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء وكونه بحيث يقصر عنه البيان مالا يخفى.وقرىء الافعال الثلاثة بالياء (وكاين)كلام مبتدأ ناع عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالية عليهم السلام.وكاين لفظة مركبة من كاف التشبيه وأى حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث فى كذا وكذا والنون تنوين أثبتت فى الخط على غير قياس وفيها خمس لغات أحداهن والثانية كائن مثل كاعن والثالثة كاين مثل كعين والرابعة كيئن بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهى قلب ما قبلها والخامسة كان مثل كعن وقد قرىء بكل منها ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى (من نبى) تمييز لها لانها مثل كم الخبرية وقد جاء تمييزها منصوبا كما فى قوله :

أطرد الياس بالرجاء فكائن ۞ آلما حم يسره بعد عسر

وقوله تعالى (قاتل معه ربيون كثير) خبر لها على أن الفعل مسند الى الظاهر والرابط هو الضمير المجرور فى معه.وقرىء قتل وقتل على صيغة المبنى للمفعول مخففة ومشددة والربى منسوب الى الرب كالربانى وكسر الراء من تغييرات النسب.وقرىء بضمها وبفتحها أيضا على الاصل وقيل هو منسوب الى الربة وهى الجماعة أى كثير من الانبياء قاتل معه لاعلاء كلمة الله واعزاز دينه علماء أتقياء أو عابدون أو جماعات كثيرة فالظرف متعلق بقاتل أو بمحذوف وقع حالا من فاعله كما فى القراءتين الاخيرتين اذ لا احتمال فيهما لتعلقه بالفعل أى قتلوا أو قتلوا كائنين معه فى القتال لا فى القتل قال سعيد بن جبير ماسمعنا بنبى قتل فى القتال وقال الحسن البصرى وجماعة من العظماء لم يقتل نبى فى حرب قط .وقيل الفعل مسند الى ضمير النبى والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا منه والرابط هو الضمير المجرور الراجع اليه وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا خلاف أى كم من نبى قاتل كائنا معه فى القتال ربيون كثيرا. واما على القراءتين الاخيرتين فغير ظاهر لاسيما على قراءة التشديد وقد جوزه بعضهم وأيده بان مدار التوبيخ انخزالهم للارجاف بقتله عليه السلام أى كم من نبى قتل كائنا معه فى القتل أو فى القتال ربيون الخ وقوله تعالى (فما وهنوا)عطف على قاتل على ان المراد به عدم الوهن المتوقع من القتال كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشيء بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه بحسب الظاهر لكنه بحسب الحقيقة

صنع جديد مصحح لدخول الفاء المرتبة له على ماقبله أي فما فتروا وما انكسرت همتهم (لما أصابهم) في اثناء القتال وهو علة للمنفى دون النفي نعم يشعر بعلته قوله تعالى (في سبيل الله) فان كون ذلك في سبيله عز وجل مما يقوى قلوبهم ويزيل وهنهم وما موصولة أو موصوفة فان جعل الضمير ان لجميع الربيين فهى عبارة عما عدا القتل من الجراح وسائر المكاره المعترية للكل وان جعلا للبعض الباقين بعد ماقتل الآخرون كما هو الانسب بمقام توبيخ المنخزلين بعد ما استشهد الشهداء فهى عبارة عما ذكر مع ما اعتراهم من قتل اخوانهم من الخوف والحزن وغير ذلك هذا على القراءة المشهورة وأما على القراءتين الاخيرتين فان أسند الفعل الى الربيين فالضميران للباقين منهم حتما وان أسند الى ضمير النبي كما هو الانسب بالتوبيخ على الانخزال بسبب الارجاف بقتله عليه الصلاة والسلام فهما الباقين أيضا ان اعتبر كون الربيين مع النبي في القتل وللجميع ان اعتبر كونهم معه في القتال (وما ضعفوا) عن العدو وقيل عن الجهاد وقيل في الدين (وما استكانوا) أي وما خضعوا للعدو وأصله استكن من السكون لان الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده والالف من اشباع الفتحة. أو استكون من الكون لانه يطلب أن يكون لمن يخضع له وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند استيلاء الكفرة عليهم والارجاف بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بابن ابى المنافق في طلب الامان من أبي سفيان (والله يحب الصابرين) أي على مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره في سبيل الله فينصرهم ويعظم قدرهم والمراد بالصابرين اما المعهودون والاظهار في موضع الاضمار للثناء عليهم بحسن الصبر والاشعار بعلة الحكم واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا والجملة تذييل لما قبلها (وما كان قولهم) كلام مبين لمحاسنهم القولية معطوف على ماقبله من الجمل المبينة لمحاسنهم الفعلية وقولهم بالنصب خبر لكان واسمها أن وما بعدها في قوله تعالى (الا أن قالوا) والاستثناء مفرغ من أعم الاشياء أي وما كان قولا لهم عند لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب واصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والاهوال شيء من الاشياء الا أن قالوا (ربنا اغفر لنا ذنوبنا) أي صغائرنا (واسرافنا في أمرنا) أي تجاوزنا الحد في ركوب الكبائر أضافوا الذنوب والاسراف الى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط في جنب الله تعالى هضما لها واستقصارا لهممهم واسنادا لما أصابهم الى أعمالهم وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الاهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم (وثبت أقدامنا) أي في مواطن الحرب بالتقوية

والتأييد من عندك أو ثبتنا على دينك الحق (وانصرنا على القوم الكافرين) تقريبا له الى حيز القبول فان الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب الى الاستجابة والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والخور والتزلزل فى مواقف الحرب ومراصد الدين. وفيه من التعريض بالمنهزمين مالا يخفى وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية عنهما برفع قولهم على أنه الاسم والخبر أن ومافى حيزها أى ما كان قولهم حينئذ شيئا من الاشياء الا هذا القول المنبيء عن أحاسن المحاسن وهذا كما ترى أقعد بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أن الاخبار بكون قولهم المطلق خصوصية قولهم المحكى عنهم مفصلا كما تفيده قراءتهما أكثر افادة للسامع من الاخبار بكون خصوصية قولهم المذكور قولهم لما أن مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل الخبرية هو الخبر فالاحق بالخبرية ما هو أكثر افادة وأظهر دلالة على الحدث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا يخفى أن ذلك ههنا فى أن مع مافى حيزها أتم وأكمل. وأما ما تفيده الاضافة من النسبة المطلقة الاجمالية فحيث كانت سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة اجمالية وتجعل عنوانا للموضوع لا مقصودا بالذات فى باب البيان. وانما اختار الجمهور ما اختاروه لقاعدة صناعية هى أنه اذا اجتمع معرفتان فالاعرف منهما أحق بالاسمية ولا ريب فى أعرفية ان قالوا لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ولانه يشبه المضمر من حيث انه لا يوصف ولا يوصف به وقولهم مضاف الى مضمر فهو بمنزلة العلم فتأمل (فآتاهم الله) بسبب دعائهم ذلك (ثواب الدنيا) أى النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل (وحسن ثواب الآخرة) أى وثواب الآخرة الحسن وهو الجنة والنعيم المخلد. وتخصيص وصف الحسن به للايذان بفضله ومزيته وأنه المعتد به عنده تعالى (والله يحب المحسنين) تذييل مقرر لمضمون ما قبله فان محبة الله تعالى للعبد عبارة عن رضاه عنه وارادة الخير به فهى مبدأ لكل سعادة. واللام اما للعهد وانما وضع المظهر موضع ضمير المعهودين للاشعار بان ما حكى عنهم من الافعال والاقوال من باب الاحسان واما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وهذا أنسب بمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيل ما حكى عنهم من المناقب الجليلة (يا أيها الذين آمنوا) شروع فى زجرهم عن متابعة الكفار ببيان استتباعها لخسران الدنيا والآخرة أثر ترغيبهم فى الاقتداء بانصار الانبياء عليهم السلام ببيان افضائه الى فوزهم بسعادة الدارين. وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لاظهار الاعتناء بما فى حيزه. ووصفهم بالايمان لتذكير حالهم

و تثبيتهم عليها باظهار مباينتها لحال أعدائهم كما أن وصف المنافقين بالكفر في قوله تعالى (ان تطيعوا الذين كفروا) لذلك قصدا الى مزيد التنفير عنهم و التحذير عن طاعتهم قال علي رضى الله عنه نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى اخوانكم و ادخلوا في دينهم فوقوع قوله تعالى (يردوكم على اعقابكم) جوابا للشرط مع كونه في قوة أن يقال أن تطيعوهم في قولهم ارجعوا الى اخوانكم و ادخلوا في دينهم يدخلوكم في دينهم باعتبار كونه تمهيدا لقوله تعالى (فتنقلبوا خاسرين) أى للدنيا والآخرة غير فائزين بشيء منهما واقعين في العذاب الخالد على أن الارتداد على العقب علم في انتكاس الامر و مثل في الحور بعد الكور. وقيل المراد بهم اليهود والنصارى حيث كانوا يستغوونهم و يوقعون لهم الشبه في الدين و يقولون لو كان نبيا حقا لما غلب و لما أصابه و أصحابه ما أصابهم و انما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما عليه و يوما له. وقيل أبو سفيان وأصحابه والمراد بطاعتهم استئمانهم والاستكانة لهم. و قيل الموصول على عمومه و المعنى نهى المؤمنين عن طاعتهم في أمر من الامور حتى لا يستجروهم الى الارتداد عن الدين فلا حاجة الي هذه التقادير الى مامر من البيان (بل الله مولاكم) اضراب عما يفهم من مضمون الشرطية كانه قيل فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم لاغيره فأطيعوه و استغنوا به عن موالاتهم. وقرىء بالنصب كانه قيل فلا تطيعوهم بل أطيعوا الله و مولاكم نصب على أنه صفة له (وهو خير الناصرين) فخصوه بالطاعة والاستعانة (سنلقى) بنون العظمة على طريقة الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة. وقرىء بالياء و السين لتأكيد الالقاء (في قلوب الذين كفروا الرعب) بسكون العين وقرىء بضمها على الاصل وهو ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب و لهم القوة و الغلبة. وقيل ذهبوا الى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم فعند ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب فأمسكوا فلا بد من كون نزول الآية في تضاعيف الحرب أو عقيب انقضائه و قيل هو ما ألقى في قلوبهم من الرعب يوم الاحزاب (بما أشركوا بالله) متعلق بنلقى دون الرعب وما مصدرية أى بسبب اشراكهم به تعالى فانه من موجبات خذلانهم و نصر المؤمنين عليهم وكلاهما من دواعي الرعب (مالم ينزل به) أى باشراكه (سلطانا) أى حجة سميت به لوضوحها و انارتها أو لقوتها أو لحدتها ونفوذها وذكر عدم تنزيلها مع استحالة تحققها في نفسها من قبيل قوله : ولا تري الضب بها ينجحر

أي لاضب ولا انجحار. وفيه ايذان بان المتبع في الباب هو البرهان السماوي دون الآراء والاهواء الباطلة (ومأواهم) بيان لاحوالهم في الآخرة اثر بيان أحوالهم في الدنيا وهي الرعب أي ما يأوون اليه في الآخرة (النار) لا ملجأ لهم غيرها (وبئس مثوى الظالمين) أي مثواهم. وانما وضع موضعه المظهر المذكور للتغليظ والتعليل والاشعار بانهم في اشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مثوى الظالمين النار وفي جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم نوع رمز الى خلودهم فيها فان المثوى مكان الاقامة المنبئة عن المكث وأما المأوى فهو المكان الذي يأوي اليه الانسان (ولقد صدقكم الله وعده) نصب على انه مفعول ثان لصدق صريحا. وقيل بنزع الجار أي في وعده نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم الى المدينة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى بالنصر وهو ما وعدهم على لسان نبيه عليه السلام من النصر حيث قال للرماة «لا تبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم» وفي رواية أخرى «لا تبرحوا عن هذا المكان فانا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان» وقد كان كذلك فان المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلا ذريعا وذلك قوله تعالى (اذ تحسونهم) أي تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا من حسه اذا أبطل حسه وهو ظرف لصدقكم وقوله تعالى (باذنه) أي بتيسيره وتوفيقه لتحقيق أن قتلهم بما وعدهم الله تعالى من النصر. وقيل هو ما وعدهم بقوله تعالى ان تصبروا وتتقوا الآية وقد مر تحقيق أن ذلك كان يوم بدر كيف لا والموعود بما ذكر امداده عز وجل بانزال الملائكة عليهم السلام. وتقييد صدق وعده تعالى بوقت قتلهم باذنه تعالى صريح في أن الموعود هو النصر المعنوي والتيسير لا الامداد بالملائكة. وقيل هو ما وعده تعالى بقوله سنلقي الخ وأنت خبير بان القاء الرعب كان عند تركهم القتال ورجوعهم من غير سبب أو بعد ذلك في الطريق على اختلاف الروايتين وأياما كان فلا سبيل الى كونه مغيا بقوله تعالى (حتى اذا فشلتم) أي جبنتم وضعف رأيكم أو ملتم الى الغنيمة فان الحرص من ضعف القلب (وتنازعتم في الامر) فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون وولوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلا وضربا فما موقفنا ههنا بعد هذا وقال أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه لا نخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فثبت مكانه في نفر دون العشرة من أصحابه ونفر الباقون للنهب وذلك قوله تعالى (وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) أي من الظفر والغنيمة وانهزام العدو فلما رأى المشركون ذلك

حملوا عليهم من قبل الشعب وقتلوا أمير الرماة ومن معه من أصحابه حسبما فصل فى تفسير قوله تعالى «أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» وجواب اذا محذوف وهو منعكم نصره وقيل هو امتحنكم ويرده جعل الابتلاء غاية للصرف المترتب على منع النصر وقيل هو انقسمتم الى قسمين كما ينبىء عنه قوله تعالى (منكم من يريد الدنيا) وهم الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب (ومنكم من يريد الآخرة) وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى نالوا شرف الشهادة هذا على تقدير كون اذا شرطية وحتى ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية. وقيل اذا اسم كما فى قولهم اذا يقوم زيد يقوم عمرو وحتى حرف جر بمعنى الى متعلقة بقوله تعالى صدقكم باعتبار تضمنه لمعنى النصر كانه قيل لقد نصركم الله الى وقت فشلكم وتنازعكم الخ وعلى هذا فقوله تعالى (ثم صرفكم عنهم) عطف على ذلك وعلى الاول عطف على الجواب المحذوف كما أشير اليه والجملتان الظرفيتان اعتراض بين المتعاطفين أى كفكم عنهم حتى حالت الحال ودالت الدولة وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى (ليبتليكم) أى يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب ليظهر ثباتكم على الايمان عندها (ولقد عفا عنكم) تفضلا ولما علم من ندمكم على المخالفة (والله ذو فضل على المؤمنين) تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤذن بأن ذلك العفو بطريق التفضل والاحسان لا بطريق الوجوب عليه أى شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم فى جميع الاحوال أديل لهم أو أديل عليهم اذ الابتلاء أيضا رحمة والتنكير للتفخيم والمراد بالمؤمنين اما المخاطبون والاظهار فى موقع الاضمار للتشريف والاشعار بعلة الحكم واما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا (اذ تصعدون) متعلق بصرفكم أو بقوله تعالى ليبتليكم أو بمقدر كما ذكروا والاصعاد الذهاب والابعاد فى الارض. وقرىء تصعدون من الثلاثى أى فى الجبل وقرىء تصعدون من التفعل بطرح احدى التاءين وقرىء يصعدون بالالتفات الى الغيبة (ولا تلوون على أحد) أي لا تلتفتون الي ماوراءكم ولايقف واحد منكم لواحد. وقرىء تلون بواو واحدة بقلب الواو المضمومة همزة وحذفها تخفيفا وقرىء يلوون كيصعدون (والرسول يدعوكم) كان عليه الصلاة والسلام يدعوهم الي عباد الله الى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة. وأيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للايذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته سبحانه اشباعا فى توبيخ المنهزمين (فى أخراكم) فى ساقتكم وجماعتكم الأخرى (فأثابكم) عطف على صرفكم أى فجازاكم الله تعالى بما صنعتم (غما) موصولا (بغم) من الاهتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين

والارجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وفوت الغنيمة فالتنكير للتكثير أو غما بمقابلة غم أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له (لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم) أى لتتمرنوا على الصبر فى الشدائد فلا تحزنوا على نفع فات أو ضر آت. وقيل لا زائدة والمعنى لتتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة عقوبة لكم . وقيل الضمير فى أثابكم للرسول صلى الله عليه وسلم أى وأساكم بالاغتمام فاغتم بما نزل عليكم كما اغتممتم بما نزل عليه ولم يثربكم على عصيانكم تسلية لكم وتنفيسا عنكم لئلا تحزنوا على مافاتكم من النصر وما أصابكم من الجراح وغير ذلك (والله خبير بما تعملون) أى عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها (ثم أنزل عليكم) عطف على قوله تعالى فأثابكم والخطاب للمؤمنين حقا (من بعد الغم) أى الغم المذكور والتصريح بتأخر الانزال عنه مع دلالة ثم عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان وتذكير عظم النعمة كما فى قوله تعالى «ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا» الآية (أمنة) أى أمنا نصب على المفعولية وقوله تعالى (نعاسا) بدل منها أو عطف بيان وقيل مفعول له أو هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة عليه أو مفعول له أو حال من المخاطبين على تقدير مضاف أو ذوى أمنة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة . وقرىء بسكون الميم كأنها مرة من الامن وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق الى المؤخر. وتخصيص الخوف من بين فنون الغم بالازالة لأنه المهم عندهم حينئذ لما أن المشركين لما انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين بالرجوع فلم يأمنوا كرتهم وكانوا تحت الحجف متأهبين للقتال فأنزل الله تعالى عليهم الامنة فأخذهم النعاس قال ابن عباس رضى الله عنهما أمنهم يومئذ بنعاس تغشاهم بعد خوف وانما ينعس من أمن والخائف لا ينام وقال الزبير رضى الله عنه كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأنزل الله علينا النوم والله انى لأسمع قول معتب ابن قشير والنعاس يغشانى ما أسمعه إلا كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا وقال أبو طلحة رضى عنه رفعت رأسى يوم أحد فجعلت لا أدرى أحداً من القوم إلا وهو يميد تحت حجفته من النعاس قال وكنت ممن ألقى عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدى فآخذه ثم يسقط السوط من يدي فآخذه وفيه دلالة على أن من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبىء عنه قوله عز وجل (يغشى طائفة منكم) قال ابن عباس هم المهاجرون وعامة الانصار ولا يقدح ذلك فى عموم الانزال للكل والجملة فى محل النصب على أنها صفة لنعاسا . وقرىء بالتاء على أنها صفة لامنة وفيه

أن الصفة حقها أن تتقدم على البدل وعطف البيان وأن لايفصل بينها وبين الموصوف بالمفعول له وأن المعهود أن يحدث عن البدل دون المبدل منه (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) أي أوقعتهم في الهموم والاحزان أوما بهم الاهم أنفسهم وقصد خلاصها من قولهم أهمني الشيء أى كان من همي وقصدي والقصر مستفاد بمعونة المقام وطائفة مبتدأ ومابعدها أماخبرها وانما جاز ذلك مع كونها نكرة لاعتمادها على واو الحال كما في قوله

سرينا ونجم قد أضاء فمذبدا ... محياك أخفى ضوءه كل شارق

أو لوقوعها في موقع التفصيل كما في قوله :

اذا مابكى من خلفها انصرفت له ... بشق وشق عندنا لم يحول

وأما صفتها والخبر محذوف أى ومعكم طائفة أو وهناك طائفة . وقيل تقديره ومنكم طائفة وفيه أنه يقتضى دخول المنافقين في الخطاب بانزال الامنة وأياما كان فالجملة أما حالية مبينة لفظاعة الهول مؤكدة لعظم النعمة في الخلاص عنه كما في قوله تعالى «أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » وأما مستأنفة مسوقة لبيان حال المنافقين وقوله عز وجل (يظنون بالله) حال من ضمير أهمتهم أومن طائفة لتخصصها بالصفة أو صفة أخري لها أوخبر بعد خبر أواستئناف مبين لماقبله وقوله تعالى (غير الحق) في حكم المصدر أى يظنون به تعالى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه وقوله تعالى (ظن الجاهلية) بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية والاضافة كما في حاتم الجود ورجل صدق وقوله تعالى (يقولون) بدل من يظنون لما أن مسئلتهم كانت صادرة عن الظن أى يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة الاسترشاد (هل لنا من الامر) أى من أمر الله تعالى ووعده من النصر والظفر (من شيء) أى من نصيب قط أو هل لنا من التدبير من شيء وقوله تعالى (قل ان الامر كله لله) أى الغلبة بالآخرة لله تعالى ولاوليائه فان حزب الله هم الغالبون أو أن التدبير كله لله فانه تعالى قد دبر الامر كما جرى في سابق قضائه فلا مرد له . وقرىء كله بالرفع على الابتداء وقوله تعالى (يخفون في أنفسهم) أى يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية (مالايبدون لك) استئناف أوحال من ضمير يقولون وقوله تعالى قل ان الامر الخ اعتراض بين الحال وصاحبها أى يقولون مايقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الانكار والتكذيب وقوله تعالى (يقولون) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مماقبله كأنه قيل أى شيء يخفون فقيل يحدثون أنفسهم أو يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية (لو كان لنا من الامر شيء) كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام

من أن الغلبة لله تعالى ولاوليائه وأن الامر كله لله أو لو كان لنا من التدبير والرأى شيء (ماقتلنا ههنا) أي ماغلبنا أوما قتل من قتل منا فى هذه المعركة على أن النفى راجع الى نفس القتل لا الى وقوعه فيها فقط ولما برحنا من منازلنا كما رآه ابن أبي ويؤيده تعيين مكان القتل وكذا قوله تعالى (قل لو كنتم فى بيوتكم) أى لو لم تخرجوا الى أحد وقعدتم بالمدينة كما تقولون (لبرز الذين كتب عليهم القتل) أى فى اللوح المحفوظ بسبب من الاسباب الداعية الى البروز (الى مضاجعهم) الى مصارعهم التي قدر الله تعالى قتلهم فيها وقتلوا هنالك ألبتة ولم تنفع العزيمة على الاقامة بالمدينة قطعا فان قضاء الله تعالى لا يرد وحكمه لا يعقب وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما فى قوله عز وجل أينما تكونوا يدرككم الموت بل عين مكانه أيضا ولا ريب فى تعين زمانه أيضا لقوله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون روى أن ملك الموت حضر مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام فنظر الى رجل من أهل المجلس نظرة هائلة فلما قام قال الرجل من هذا فقال سليمان عليه السلام ملك الموت قال أرسلني مع الريح الى عالم آخر فانى رأيت منه مرأى هائلا فأمرها عليه السلام فألقته فى قطر سحيق من أقطار العالم فمالبث أن عاد ملك الموت الى سليمان عليه السلام فقال كنت أمرت بقبض روح ذلك الرجل فى هذه الساعة فى أرض كذا فلما وجدته فى مجلسك قلت متى يصل اليها وقد أرسلته بالريح الى ذلك المكان فوجدته هناك فقضى أمر الله عز وجل فى زمانه ومكانه من غير اخلال بشيء من ذلك. وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القتل. وقرىء كتب عليهم القتال وقرىء لبرز بالتشديد على البناء للمفعول (وليبتلى الله مافى صدوركم) أى ليعاملكم معاملة من يبتلى مافى صدوركم من الاخلاص والنفاق ويظهر مافيها من السرائر وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للايذان بكثرتها كانه قيل فعل مافعل لمصالح جمة وليبتلى الخ وجعلها عللا لبرز يأباه الذوق السليم فان مقتضى المقام بيان حكمة ماوقع يومئذ من الشدة والهول لا بيان حكمة البروز المفروض أو لفعل مقدر بعدها أى وللابتلاء المذكور فعل مافعل لا لعدم العناية بأمر المؤمنين ونحو ذلك وتقدير الفعل مقدما خال عن هذه المزية (وليمحص مافى قلوبكم) من مخفيات الامور ويكشفها أو يخلصها من الوساوس (والله عليم بذات الصدور) أى السرائر والضمائر الخفية التي لا تكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها والجملة اما اعتراض للتنبيه على أن الله تعالى غني عن

الابتلاء وانما يبرز صورة الابتلاء لتمرين المؤمنين واظهار حال المنافقين أوحال من متعلق الفعلين أي فعل مافعل للابتلاء والتمحيص والحال أنه تعالى غني عنهما محيط بخفيات الامور وفيه وعد ووعيد (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) وهم الذين انهزموا يوم أحد حسبما مرت حكايتهم (انما استزلهم الشيطان) أى انما كان سبب انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل (ببعض ما كسبوا) من الذنوب والمعاصي التي هى مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وترك المركز والحرص على الغنيمة أو الحياة فحرموا التأييد وقوة القلب. وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بذنوب تقدمت لهم فان المعاصي يجر بعضها الى بعض كالطاعة. وقيل استزلهم بذنوب سبقت منهم وكرهوا القتل قبل اخلاص التوبة والخروج من المظلمة (ولقد عفا الله عنهم) لتوبتهم واعتذارهم (ان الله غفور) للذنوب (حليم) لايعاجل بعقوبة الذنب ليتوب والجملة تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق. وفى اظهار الجلالة تربية للمهابة وتأكيد للتعليل (يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا) وهم المنافقون القائلون لو كان لنا من الامر شيء ماقتلنا ههنا وانما ذكر فى صدر الصلة كفرهم تصريحا بمباينة حالهم لحال المؤمنين وتنفيرا عن مماثلتهم آثر ذى أثير وقوله تعالى (وقالوا لاخوانهم) تعيين لوجه الشبه والمماثلة التى نهوا عنها أى قالوا لاجلهم وفى حقهم ومعنى أخوتهم اتفاقهم نسبا أو مذهبا (اذا ضربوا فى الارض) أى سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها. وايثار اذا المفيدة لمعنى الاستقبال على اذ المفيدة لمعنى المضى لحكاية الحال الماضية اذ المراد بها الزمان المستمر المنتظم للحال الذي عليه يدور أمر استحضار الصورة قال الزجاج اذا ههنا تنوب عما مضى من الزمان وما يستقبل يعنى أنها لمجرد الوقت أو يقصد بها الاستمرار وظرفيتها لقولهم انما هى باعتبار ماوقع فيها بل التحقيق أنها ظرف له لالقولهم كانه قيل قالوا لاجل ماأصاب اخوانهم حين ضربوا الخ (أوكانوا) أى اخوانهم (غزا) جمع غاز كعفى جمع عاف قال:

ومغبرة الآفاق خاشعة الصوى ٭ لها قلب عفى الحياض أجون

وقرىء بتخفيف الزاى على حذف التاء من غزاة وافراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب فى الارض لانه المقصود بيانه فى المقام وذكر الضرب فى الارض توطئة له. وتقديمه لكثرة وقوعه على أنه قد يوجد بدون الضرب فى الارض اذ المراد به السفر البعيد وانما لم يقل أو غزوا للايذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة أو بانقضاء ذلك أى كانوا غزا فيما مضى وقوله تعالي (لو كانوا عندنا) أى مقيمين

(ماماتوا وما قتلوا) مفعول لقالوا ودليل على أن هناك مضمرا قد حذف ثقة به أى اذا ضربوا فى الارض فماتوا أو كانوا غزا فقتلوا وليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق بهذا القول بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه كما أنه المنكر على قائليه الا يرى الى قوله عز وجل (ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم) فانه الذى جعل حسرة فيها قطعا واليه أشير بذلك كما نقل عن الزجاج انه اشارة الى ظنهم أنهم لو لم يحضروا القتال لم يقتلوا وتعلقه بقالوا ليس باعتبار نطقهم بذلك القول بل باعتبار مافيه من الحكم والاعتقاد واللام لام العاقبة كما فى قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما على ذلك أصلا وقيل هو تعليل للنهى بمعنى لاتكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله تعالى حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم فذلك كما مر اشارة الى مادل عليه قولهم من الاعتقاد ويجوز أن يكون اشارة الى مادل عليه النهى أى لاتكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم فان مضادتكم لهم فى القول والاعتقاد مما يغمهم ويغيظهم (والله يحيي ويميت) رد لقولهم الباطل أثر بيان غائلته أى هو المؤثر فى الحياة والممات وحده من غير أن يكون للاقامة أو للسفر مدخل فى ذلك فانه تعالى قد يحيي المسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الحتوف ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لاسباب السلامة (والله بما تعملون بصير) تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم وقرئ بالياء على انه وعيد للذين كفروا وما يعملون عام متناول لقولهم المذكور ولمنشئه الذى هو اعتقادهم ولما ترتب على ذلك من الاعمال ولذلك تعرض لعنوان البصر لا لعنوان السمع واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة والقاء الروعة والمبالغة فى التهديد والتشديد فى الوعيد (ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم) شروع فى تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو والسفر من القتل والموت فى سبيل الله تعالى ليس مما ينبغى أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون أثر ابطال ترتبه عليهما واللام هى الموطئة للقسم وما فى قوله تعالى (لمغفرة من الله ورحمة) لام الابتداء والتنوين فى الموضعين للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة للمبتدأ وقد حذفت صفة رحمة لدلالة المذكور عليها والجملة جواب للقسم ساد مسد جواب الشرط والمعنى ان السفر والغزو ليسا مما يجلب الموت ويقدم الاجل أصلا ولئن وقع ذلك بامر الله تعالى لنفحة يسيرة من مغفرة ورحمة كائنتين من الله تعالى بمقابلة ذلك (خير مما يجمعون) أي الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما

خير من طلاع الارض ذهبة حمراء. و قرىء بالتاء أى بما تجمعونه أنتم لو لم تموتوا. والاقتصار على بيان خيريتهما من ذلك بلا تعرض للاخبار بحصولهما لهم للايذان بعدم الحاجة اليه بناء على استحالة التخييب منه تعالى بعد الاطماع و قد قيل لابد من حذف آخر أي لمغفرة لكم من الله الخ وحينئذ يكون أيضا اخراج المقدر مخرج الصفة دون الخبر لنحو ماذكر من ادعاء الظهور والغنى عن الاخبار به. و تغيير الترتيب الواقع فى قولهم ما ماتوا وما قتلوا المبنى على كثرة الوقوع وقلته المبالغة فى الترغيب فى الجهاد ببيان زيادة مزية القتل فى سبيل الله و انافته فى استجلاب المغفرة و الرحمة وفيه دلالة واضحة على ما مر من أن المقصود بالنهى انما هو عدم مماثلتهم فى الاعتقاد بمضمون القول المذكور و العمل بموجبه لا فى النطق به و اضلال الناس به (و لئن متم أو قتلتم) أى على أى وجه اتفق هلاككم حسب تعلق الارادة الالهية. وقرىء متم بكسر الميم من مات يمات (لالى الله) أى الى المعبود بالحق العظيم الشأن الواسع الرحمة الجزيل الاحسان (تحشرون) لا الي غيره فيوفيكم أجوركم و يجزل لكم عطاءكم والكلام فى لامى الجملة كما مر فى أختها (فبما رحمة من الله لنت لهم) تلوين للخطاب و توجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم و الفاء لترتيب مضمون الكلام على ما ينبىء عنه السياق من استحقاقهم اللائمة والتعنيف بموجب الجبلة البشرية أو من سعة ساحة مغفرته تعالى و رحمته والباء متعلقة بلنت قدمت عليه للقصر وما مزيدة للتوكيد أو نكرة و رحمة بدل منها مبين لابهامها و التنوين للتفخيم و من متعلقة بمحذوف وقع صفة لرحمة أى فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله تعالي وهى ربطه على جأشه و تخصيصه بمكارم الاخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق و التلطف بهم حيث اغتممت لهم بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة أمرك و اسلامك للعدو (ولو) لم تكن كذلك بل (كنت فظا) جافيا فى المعاشرة قولا وفعلا و قال الراغب الفظ هو الكريه الخلق و قال الواحدى هو الغليظ الجانب السيء الخلق (غليظ القلب) قاسيه و قال الكلبي فظا فى القول غليظ القلب فى الفعل (لا نفضوا من حولك) لتفرقوا من عندك و لم يسكنوا اليك و ترددوا فى مهاوى الردى. و الفاء فى قوله عز وجل (فاعف عنهم) لترتيب العفو أو الامر به على ما قبله أى اذا كان الامر كما ذكر فاعف عنهم فيما يتعلق بحقوقك كما عفا الله عنهم (و استغفر لهم) الله فيما يتعلق بحقوقه تعالي اتماما للشفقة عليهم واكمالا للبر بهم (وشاورهم فى الامر) أى فى أمر الحرب اذ هو المعهود أو فيه و فى أمثاله مما تجرى فيه المشاورة عادة استظهارا بآرائهم و تطييبا لقلوبهم و تمهيدا لسنة المشاورة للامة

وقرىء وشاورهم فى بعض الامر (فاذا عزمت) أى عقيب المشاورة على شيء واطمأنت به نفسك (فتوكل على الله) فى امضاء أمرك على ماهو أرشد لك و أصلح فان علمه مختص به سبحانه و تعالى وقرىء فاذا عزمت على صيغة التكلم أى عزمت لك على شيء وأرشدتك اليه فتوكل على ولا تشاور بعد ذلك أحدا. و الالتفات لتربية المهابة و تعليل التوكل أو الامر به فان عنوان الالوهية الجامعة لجميع صفات الكمال مستدع للتوكل عليه تعالى أو الامر به (ان الله يحب المتوكلين) عليه تعالى فينصرهم و يرشدهم الى مافيه خير لهم و صلاح و الجملة تعليل للتوكل عليه تعالى و قوله تعالى (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب تشريفا للمؤمنين لايجاب توكلهم عليه تعالى و حثهم على اللجأ اليه وتحذيرهم عما يفضى الى خذلانه أى ان ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم على طريق نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد الغالب ذاتا وصفة و لو قيل فلا يغلبكم أحد لدل على نفى الصفة فقط ثم المفهوم من ظاهر النظم الكريم وان كان نفى مغلوبيتهم من غير تعرض لنفى المساواة أيضا و هوالذى يقتضيه المقام لكن المفهوم عنه فيهما قطعيا هو نفى المساواة واثبات الغالبية للمخاطبين فاذا قلت لا أكرم من فلان أولا أفضل منه فالمفهوم منه حتما أنه أكرم من كل كريم و أفضل من كل فاضل وهذا أمر مطرد فى جميع اللغات ولا اختصاص له بالنفى الصريح بل هو مطرد فيما ورد على طريق الاستفهام الانكارى كما فى قوله تعالى «و من أظلم ممن افترى على الله كذبا» ونحوه مما وقع كثيرة من التنزيل وعماهو نص قاطع فيما ذكرنا ماوقع فى سورة هود حيث قيل بعد فى حقهم لاجرم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون فان كونهم أخسر من كل خاسر يستدعى قطعا كونهم أظلم من كل ظالم (وان يخذلكم) كما فعل يوم أحد وقرىء يخذلكم من أخذله اذا جعله مخذولا (فمن ذا الذى ينصركم) استفهام انكارى مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة (من بعده) أى من بعد خذلانه تعالى أو من بعد الله تعالى على معنى الله تعالى اذا جاوزتموه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) تقديم الجار والمجرور على الفعل لافادة قصره عليه تعالى و الفاء لترتيبه أو ترتيب الامر به على مامر من غلبة المخاطبين على تقدير نصرته تعالى لهم ومغلوبيتهم على تقدير خذلانه تعالى إياهم فان العلم بذلك مما يقتضى قصر التوكل عليه تعالى لامحالة. والمراد بالمؤمنين اما الجنس والمخاطبون داخلون فيه دخولا أوليا و إما هم خاصة بطريق الالتفات و أياما كان ففيه تشريف بعنوان الايمان اشتراكا أو استقلالا و تعليل لتحتم التوكل عليه تعالى فان وصف الايمان مما يوجبه قطعا (و ما كان لنبى) أي وماصح لنبى من الانبياء و لا استقام له (أن يغل) أي يخون فى المغنم فان النبوة تنافيه منافاة بينة يقال غل

شيئاً من المغنم يغل غلولا وأغل اغلالا اذا أخذه خفية والمراد إما تنزيه ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز وأفاضوا فى الغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم ألم أعهد اليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى فقالوا تركنا بقية اخواننا وقوفا فقال عليه السلام بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم بينكم . وأما المبالغة فى النهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روى انه بعث طلائع فغنم النبى صلى الله عليه وسلم بعدهم غنائم فقسمها بين الحاضر ولم يترك للطلائع شيئا فنزلت والمعنى ما كان لنبى أن يعطى قوما من العسكر ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بين الكل بالسوية وعبر عن حرمان بعض الغزاة بالغلول تغليظا. وأما ماقيل من أن المراد تنزيهه عليه السلام عما تفوه به بعض المنافقين إذ روى أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فبعيد جدا . وقرىء على البناء للمفعول والمعنى ما كان له أن يوجد غالا أو ينسب الى الغلول (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) يأت بالذى غله بعينه يحمله على عنقه كما ورد فى الحديث الشريف وروى أنه عليه السلام قال «ألا لا أعرفن أحدكم يأتى ببعير له رغاء وبقرة لها خوار وشاة لها ثغاء فينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك أو يأت بما احتمل من أثمه ووباله» (ثم توفى كل نفس ما كسبت) أى تعطى وافياً جزاء ما كسبت خيراً أو شراً كثيراً أو يسيرا ووضع المكسوب موضع جزائه تحقيقاً للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب كما وكيفا كأنهما شيء واحد وفى اسناد التوفية الي كل كاسب وتعليقها بكل مكسوب مع أن المقصود بيان حال الغال عند اتيانه بما غله يوم القيامة من الدلالة على فخامة شأن اليوم وهول مطلعه والمبالغة فى بيان فظاعته حال الغال ما لا يخفى فانه حيث وفى كل كاسب جزاء ما كسبه ولم ينقص منه شيء وان كان جرمه فى غاية القلة والحقارة فلأن لا ينقص من جزاء الغال شيء وجرمه من أعظم الجرائم أظهر وأجلى (وهم) أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس (لا يظلمون) بزيادة عقاب أو بنقص ثواب (أفمن اتبع رضوان الله) أى سعى فى تحصيله وانتحى نحوه حيثما كان بفعل الطاعات وترك المنكرات كالنبى ومن يسير بسيرته (كمن باء) أى رجع (بسخط) عظيم لا يقادر قدره كائن (من الله) تعالى بسبب معاصيه كالغال ومن يدين بدينه والمراد تأكيد نفى الغلول عن النبى عليه الصلاة والسلام وتقريره بتحقيق المباينة

الكلية بينه وبين الغال حيث وصف كل منهما بنقيض ما وصف به الآخر فقوبل رضوانه تعالى بسخطه والاتباع بالبوء والجمع بين الهمزة والفاء لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة بينهما والحكم بها على ماذكر من حال الغال كأنه قيل أبعد ظهور حاله يكون من ترقى الى أعلى عليين كمن تردى الى أسفل سافلين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لادخال الروعة وتربية المهابة (ومأواهم جهنم) اما كلام مستأنف مسوق لبيان مآل أمر من باء بسخطه تعالى واما معطوف على قوله تعالى باء بسخط عطف الصلة الاسمية على الفعلية وأياما كان فلا محل له من الاعراب (وبئس المصير) اعتراض تذييلى والمخصوص بالذم محذوف أي وبئس المصير جهنم والفرق بينه وبين المرجع ان الاول يعتبر فيه الرجوع على خلاف الحالة الاولى بخلاف الثانى (هم) راجع الى الموصولين باعتبار المعنى (درجات عند الله) أى طبقات متفاوتة فى علمه تعالى وحكمه شبهوا فى تفاوت الاحوال وتباينها بالدرجات مبالغة وايذانا بان بينهم تفاوتا ذاتيا كالدرجات أو ذوو درجات (والله بصير بما يعملون) من الاعمال ودرجاتها فيجازيهم بحسبها (لقد من الله) جواب قسم محذوف أي والله لقد من الله أى أنعم (على المؤمنين) أى من قومه عليه السلام (اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) أى من نسبهم أو من جنسهم عربيا مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله فى الصدق والامانة مفتخرين به وفى ذلك شرف لهم عظيم قال الله تعالى «وانه لذكر لك ولقومك» وقرىء من أنفسهم أى أشرفهم فانه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونها وقرىء لمن من الله على المؤمنين اذ بعث الخ على أنه خبر لمبتدا محذوف أى منه اذ بعث الخ أو على أن اذ فى محل الرفع على الابتداء بمعنى لمن من الله على المؤمنين وقت بعثه وتخصيصهم بالامتنان مع عموم نعمة البعثة للاسود والاحمر لما مر من مزيد انتفاعهم بها وقوله تعالى من أنفسهم متعلق بمحذوف وقع صفة لرسولا أي كائنا من أنفسهم وقوله تعالى (يتلو عليهم آياته) صفة أخرى أى يتلو عليهم القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحى (ويزكيهم) عطف على يتلو أى يطهرهم من دنس الطبائع وسوء العقائد وأوضار الاوزار (ويعلمهم الكتاب والحكمة) أى القرآن والسنة وهو صفة أخرى لرسولا مترتبة فى الوجود على التلاوة وانما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بان كل واحد من الامور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود

كما فى قوله تعالى «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» لتبادر الى الفهم عدا لجميع نعمة واحدة وهو السر فى التعبير عن القرآن بالآيات تارة وبالكتاب والحكمة أخرى رمزا الى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فى ذلك شمول الحكمة لما فى مطاوى الاحاديث الكريمة من الشرائع كما سلف فى سورة البقرة (وان كانوا من قبل) أى من قبل بعثته عليه السلام وتزكيته وتعليمه (لفى ضلال مبين) أى بين لا ريب فى كونه ضلالا. وان هى المخففة من المثقلة وضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية والظرف الاول لغو متعلق بكان والثانى خبرها وهى مع خبرها خبر لان المخففة التى حذف اسمها أعنى ضمير الشأن. وقيل هى نافية واللام بمعنى الا أى وما كانوا من قبل الا فى ضلال مبين وأياما كان فالجملة اما حال من الضمير المنصوب فى يعلمهم أو مستأنفة وعلى التقديرين فهى مبينة لكمال النعمة وتمامها (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) كلام مبتدأ مسوق لابطال بعض ما صدر عنهم من الظنون الفاسدة والاقاويل الباطلة الناشئة منها اثر ابطال بعض آخر منها والهمزة للتقريع والتقرير والواو عاطفة لمدخولها على محذوف قبلها ولما ظرف لقلتم مضاف الى ما بعده وقد أصبتم فى محل الرفع على أنه صفة لمصيبة. والمراد بها ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم. وبمثليها ما أصاب المشركين يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين. وأنى هذا مقول قلتم. وتوسيط الظرف وما يتعلق به بينه وبين الهمزة مع أنه المقصود انكاره والمعطوف بالواو حقيقة لتأكيد النكير وتشديد التقريع فان فعل القبيح فى غير وقته أقبح والانكار على فاعله أدخل والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم من أين أصابنا هذا وقد تقدم الوعد بالنصر على توجيه الانكار والتقريع الى صدور ذلك القول عنهم فى ذلك الوقت خاصة بناء على عدم كونه مظنة له داعيا اليه بل على كونه داعيا الى عدمه فان كون مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم مما يهون الخطب ويورث السلوة أو أفعلتم ما فعلتم ولما أصابتكم غائلته قلتم أنى هذا على توجيه الانكار الى استبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها وتذكير اسم الاشارة فى أنى هذا مع كونه اشارة الى المصيبة ليس لكونها عبارة عن القتل ونحوه بل لما أن اشارتهم ليست الا الى ما شاهدوه فى المعركة من حيث هو هو من غير أن يخطر ببالهم تسميته باسم ما فضلا عن تسميته باسم المصيبة وانما هى عند الحكاية وقوله عز وجل (قل هو من عند أنفسكم) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن سؤالهم الفاسد اثر تحقيق فساده بالانكار والتقريع

و يبكتهم ببيان أن ما نالهم انما نالهم من جهتهم بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة وقيل باختيارهم الخروج من المدينة ويأباه أن الوعد بالنصر كان بعد ذلك كما ذكر عند قوله تعالى « ولقد صدقكم الله وعده » الآية وأن عمل النبي صلى الله عليه وسلم بموجبه قد رفع الخطر عنه وخفف جنايتهم فيه على أن اختيار الخروج والاصرار عليه كان ممن أكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ وأين هم من التفوه بمثل هذه الكلمة . وقيل بأخذهم الفداء يوم بدر قبل أن يؤذن لهم والاول هو الاظهر الاقوى وانما يعضده توسيط خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بين الخطابين المتوجهين الى المؤمنين وتفويض التبكيت اليه عليه السلام فان توبيخ الفاعل على الفعل اذا كان ممن نهاه عنه كان أشد تأثيرا (ان الله على كل شيء قدير) ومن جملته النصر عند الطاعة والخذلان عند المخالفة وحيث خرجتم عن الطاعة أصابكم منه تعالى ما أصابكم والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها داخل تحت الامر (وما أصابكم) رجوع الى خطاب المؤمنين أثر خطابه عليه السلام لسر يقتضيه وارشاد لهم الى طريق الحق فيما سألوا عنه وبيان لبعض مافيه من الحكم والمصالح ودفع لما عسى أن يتوهم من قوله تعالى هو من عند أنفسكم من استقلالهم في وقوع الحادثة والعدول عن الاضمار الى ما ذكر للتهويل وزيادة التقرير ببيان وقته بقوله تعالى (يوم التقى الجمعان) أى جمعكم وجمع المشركين (فباذن الله) أى فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار سمى ذلك اذنا لكونها من لوازمه (وليعلم المؤمنين) عطف على قوله تعالى فباذن الله عطف المسبب على السبب والمراد بالعلم التمييز والاظهار فيما بين الناس (وليعلم الذين نافقوا) عطف على ماقبله من مثله واعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قرن المنافقين وللايذان باختلاف حال العلم بحسب التعلق بالفريقين فانه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه السابق وبالمنافقين على وجه جديد وهو السر في ايراد الاولين بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الاستمرار والآخرين بموصول صلته فعل دال على الحدوث والمعنى وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز الثابتين على الايمان والذين أظهروا النفاق (وقيل لهم) عطف على نافقوا داخل معه فى حيز الصلة أو كلام مبتدأ قال ابن عباس رضى الله عنهما هم عبدالله بن أبى واصحابه حيث انصرفوا يوم أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم عبدالله بن عمرو بن حرام أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم ودعاهم الى القتال وذلك قوله تعالى (تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا) قال السدى ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا ان لم تقاتلوا معنا . وقيل أو ادفعوا عن أهلكم وبلدكم وحريمكم ان

لم تقاتلوا فى سبيل الله تعالى وترك العطف بين تعالوا وقاتلوا لما ان المقصود بهما واحد وهو الثانى وذكر الاول توطئة له وترغيب فيه لما فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كانه قيل فماذا صنعوا حين خيروا بين الخصلتين المذكورتين فقيل قالوا (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) أي لو نحسن قتالا ونقدر عليه وانما قالوه دغلا واستهزاء وانما عبر عن نفى القدرة على القتال بنفى العلم به لما ان القدرة على الافعال الاختيارية مستلزمة للعلم بها أو لو نعلم مايصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم ولكن ماأنتم بصدده ليس بقتال اصلا وانما هو القاء النفس الى التهلكة . وفى جعلهم التالى مجرد الاتباع دون القتال الذى هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال حيث لا ترضى نفوسهم بجعله تاليا لمقدم مستحيل الوقوع (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) الضمير مبتدأ وأقرب خبره واللام فى للكفر وللايمان متعلقة به وكذا يومئذ ومنهم وعدم جواز تعلق حرفين متحدين لفظا ومعنى بعامل واحد بلا عطف أو بدلية انما هو فيما عدا أفعل التفضيل من العوامل لاتحاد حيثية عملها .واما أفعل التفضيل فحيث دل على أصل الفعل وزيادته جرى مجرى عاملين كانه قيل قربهم للكفر زائد على قربهم للايمان وقيل تعلق الجارين به لشبههما بالظرفين أي هم للكفر يومأذ قالوا ماقالوا أقرب منهم للايمان فانهم كانوا قبل ذلك يتظاهرون بالايمان وما ظهرت منهم أمارة مؤذنة بكفرهم فلما انخذلوا عن عسكر المسلمين وقالوا ماقالوا تباعدوا بذلك عن الايمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر .وقيل هم لاهل الكفر أقرب نصرة منهم لاهل الايمان لان تقليل سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين وقوله تعالى (يقولون بافواههم ماليس فى قلوبهم) جملة مستانفة مقررة لمضمون ماقبلها وذكر الافواه والقلوب تصوير لنفاقهم وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم. وماعبارة عن القول والمراد به أما نفس الكلام الظاهر فى اللسان تارة وفى القلب اخرى فالمثبت والمنفى متحدان ذاتا وان اختلفا مظهرا .واما القول الملفوظ فقط فالمنفى حينئذ منشؤه الذى لاينفك عنه القول اصلا وانما عبر عنه به ابانة لمابينهما من شدة الاتصال أي يتفوهون بقول لاوجود له أو لمنشئه فى قلوبهم أصلا من الاباطيل التي من جملتها ماحكى عنهم آنفا فانهم أظهروا فيه أمرين ليس فى قلوبهم شيء منهما أحدهما عدم العلم بالقتال والآخر الاتباع على تقدير العلم به وقد كذبوا فيهما كذبا بينا حيث كانوا عالمين به غير ناوين للاتباع بل كانوا مصرين مع ذلك على الانخزال عازمين على الارتداد وقوله عزوجل (والله أعلم بما يكتمون) زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما

يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد أثر بيان خلوها عما يوافقها. وصيغة التفضيل لما أن بعض ما يكتمونه من أحكام النفاق وذم المؤمنين وتخطئة آرائهم والشماتة بهم وغير ذلك يعلمه المؤمنون على وجه الاجمال وان تفاصيل ذلك وكيفياته مختصة بالعلم الالهي (الذين قالوا) مرفوع على أنه بدل من واو يكتمون أو خبر لمبتدأ محذوف وقيل مبتدأ خبره قل فادرؤا بحذف العائد تقديره قل لهم الخ أو منصوب على الذم أو على أنه نعت للذين نافقوا أو بدل منه وقيل مجرور على أنه بدل من ضمير أفواههم أو قلوبهم كما في قوله: « على جوده لضن بالماء حاتم »
والمراد بهم عبد الله بن أبي وأصحابه (لاخوانهم) أي لاجلهم وهم من قتل يوم أحد من جنسهم أو من أقاربهم فيندرج فيهم بعض الشهداء (وقعدوا) حال من ضمير قالوا بتقدير قد أي قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخزال (لو أطاعونا) أي فيما أمرناهم به ووافقونا في ذلك (ماقتلوا) كما لم نقتل وفيه ايذان بأنهم أمروهم بالانخزال حين انخزلوا وأغووهم كما غووا. وحمل القعود على ما استصوبه ابن أبي عند المشاورة من الاقامة بالمدينة ابتداء وجعل الاطاعة عبارة عن قبول رأيه والعمل به يرده كون الجملة حالية فانها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة مع أن ابن أبي ليس من القاعدين فيها بذلك المعنى على أن تخصيص عدم الطاعة باخوانهم ينادي باختصاص الامر أيضاً بهم فيستحيل أن يحمل على ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم عند المشاورة (قل) تبكيتاً لهم واظهارا لكذبهم (فادرؤا عن أنفسكم الموت) جواب لشرط قد حذف تعويلا على ما بعده من قوله تعالى (ان كنتم صادقين) كما أنه شرط حذف جوابه لدلالة الجواب المذكور عليه أي ان كنتم صادقين فيما ينبئ عنه قولكم من أنكم قادرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت الذي كتب عليكم معلقاً بسبب خاص مؤقتاً بوقت معين بدفع سببه فان أسباب الموت في امكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء وأنفسكم أعز عليكم من اخوانكم وأمرها أهم لديكم من أمرهم والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوبا عليكم لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود مع كتابته عليكم فان ذلك مما لا سبيل اليه بل قد يكون القتال سبباً للنجاة والقعود مؤديا الى الموت روي أنه مات يوم قالوا ما قالوا سبعون منافقا. وقيل أريد ان كنتم صادقين في مضمون الشرطية والمعنى انهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين فقوله تعالى فادرؤا عن أنفسكم الموت حينئذ استهزاء بهم أي ان كنتم رجالا دفاعين لاسباب الموت فادرؤا جميع أسبابه حتى لا يموتوا كما درأتم في زعمكم هذا السبب الخاص

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر بل هو من أجل المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون أثر بيان أن الحذر لا يجدى ولا يغنى.وقرئ ولا تحسبن بكسر السين والمراد بهم شهداء أحد وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين حمزة ابن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شهاب وعبد الله بن جحش وباقيهم من الانصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اولكل أحد ممن له حظ من الخطاب.وقرئ بالياء على الاسناد الى ضميره عليه السلام أو ضمير من يحسب وقيل الى الذين قتلوا والمفعول الأول محذوف لانه فى الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة والتقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتاً أى لا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً على أن المراد من توجيه النهى اليهم تنبيه السامعين على أنهم احقاء بأن يسلوا بذلك ويبشروا بالحياة الابدية والكرامة السنية والنعيم المقيم لكن لا فى جميع أوقاتهم بل عند ابتداء القتل اذ بعد تبين حالهم لهم لا يبقى لاعتبار تسليتهم وتبشيرهم فائدة ولا لتنبيه السامعين وتذكيرهم وجه وقرئ قتلوا بالتشديد لكثرة المقتولين (بل أحياء) أى بل هم أحياء وقرىء منصوبا أى بل أحسبهم أحياء على أن الحسبان بمعنى اليقين كما فى قوله :

حسبت التقى والجد خير تجارة ... رباحا اذا ما المرء أصبح ثاقلا

أوعلى أنه وارد على طريق المشاكلة (عند ربهم) فى محل الرفع على أنه خبر ثان للمبتدأ المقدر أوصفة لاحياء أوفى محل النصب على أنه حال من الضمير فى أحياء وقيل هوظرف لاحياء أو للفعل بعده والمراد بالعندية التقرب والزلفى وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميرهم مزيد تكرمة لهم (يرزقون) أى من الجنة وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم. قال الامام الواحدى الأصح فى حياة الشهداء ماروي عن النبى صلى الله عليه وسلم «من أن أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون وروى عنه عليه السلام أنه قال« لما أصيب أخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيور خضر تدور فى أنهار الجنة»وروى ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش »وفيه دلالة على أن روح الانسان جسم لطيف لايفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه ادراكه وتألمه والتذاذه ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيوراً خضرا أوتتعلق بها فتلتذ

بما ذكر .وقيل المراد أنها تتعلق بالافلاك والكواكب فتلتذ بذلك وتكتسب زيادة كمال (فرحين بما آتاهم الله من فضله)وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الابدية والزلفى من الله عز وجل والتمتع بالنعيم المخلد عاجلا (ويستبشرون)يسرون بالبشارة (بالذين لم يلحقوا بهم) أى باخوانهم الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله فيلحقوا بهم (من خلفهم) متعلق بيلحقوا والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم أو بمحذوف وقع حالا من فاعل يلحقوا أى لم يلحقوا بهم حال كونهم متخلفين عنهم باقين فى الدنيا (أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون)بدل من الذين بدل اشتمال مبين لكون استبشارهم بحال اخوانهم لا بذواتهم وان هى المخففة من أن واسمها ضمير الشأن المحذوف وخبرها الجملة المنفية أى يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال اخوانهم الذين تركوهم وهو أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية لايكدرها خوف وقوع محذور ولا حزن فوات مطلوب أو لا خوف عليهم فى الدنيا من القتل فانه عين الحياة التى يجب أن يرغب فيها فضلا عن ان تخاف وتحذر أي لايعتريهم مايوجب ذلك لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لايخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهم كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا فان النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام (يستبشرون بنعمة) كرر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عــــدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لايقادر قدرها وهى ثواب أعمالهم وقد جوز أن يكون الاول متعلقا بحال اخوانهم وهذا بحال أنفسهم بيانا لبعض ما اجمل فى قوله تعالى« فرحين بما آتاهم الله من فضله» (من الله)متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لمــا أفاده التنكير من الفخامة الذاتيــة بالفخامة الاضافيــة أى كائنــة منه تعــالى (وفضل)أى زيادة عظيمة كما فى قوله تعــالى« للذين أحسنوا بالحسنى وزيادة» (وأن الله لايضيع أجر المؤمنين) بفتح أن عطف على فضل منتظم معــه فى سلك المستبشر به والمراد بالمؤمنين اما الشهداء والتعبير عنهم بالمؤمنين للايذان بسمو رتبة الايمان وكونه مناطا لما نالوه من السعادة وإما كافة أهل الايمان من الشهداء وغيرهم ذكرت توفية أجورهم على ايمانهم وعدت من جملة مايستبشر به الشهداء بحكم الاخوة فى الدين.وقرىء بكسرها على انه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على ايمانهم مشعر بان من لا ايمان له أعماله محبطة لاأجر لها .وفيه من الحث على الجهــاد والترغيب فى الشهادة والبعث على ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح مالايخفى (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح) صفة مادحــة للمؤمنين لا

مخصصة أو نصب على المدح أو رفع على الابتداء و الخبر قوله تعالى (الذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) بجملته ومن للبيان. و المقصود من الجمع بين الوصفين المدح و التعليل لا التقييد لان المستجيبين كلهم محسنون ومتقون روى أن أبا سفيان و أصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهبهم و يريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج فى طلب ابى سفيان وقال لايخرجن معنا الا من حضر يومنا بالامس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الاسد وهى من المدينة على ثمانية أميال وكان باصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لايفوتهم الاجر والقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت (الذين قال لهم الناس) يعنى الركب الذين استقبلوهم من من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعى. و اطلاق الناس عليه لما أنه من جنسهم وكلامه كلامهم يقال فلان يركب الخيل و يلبس الثياب وماله سوى فرس فرد و غير ثوب و احد أو لانه انضم اليه ناس من المدينة و أزاعوا كلامه (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل ان شئت فقال عليه السلام «ان شاء الله تعالى» فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مر الظهران فألقى الله تعالى فى قلبه الرعب و بدا له أن يرجع فمر به ركب من بنى عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب ان ثبطوا المسلمين. وقيل لقى نعيم بن مسعود و قد قدم معتمرا فسأله ذلك و التزم له عشرا من الابل وضمنها منه سهيل بن عمرو فخرج نعيم ووجد المسلمين يتجهزون للخروج فقال لهم أتوكم فى دياركم فلم يفلت منكم أحد الا شريدا فترون أن تخرجوا و قد جمعوا لكم ففروا فقال عليه السلام «و الذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معى أحد» فخرج فى سبعين راكبا كلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل قيل هى الكلمة التى قالها ابراهيم عليه الصلاة و السلام حين القى فى النار (فزادهم ايمانا) الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله ان أريد به نعيم وحده و المعنى أنهم لم يلتفتوا الى ذلك بل ثبت به يقينهم بالله تعالى وازداد اطمئنانهم وأظهروا حمية الاسلام و أخلصوا النية عنده . وهو دليل على أن الايمان يتفاوت زيادة و نقصانا فان ازدياد اليقين بالالف وكثرة التأمل وتناصر الحجج مما لا ريب فيه و يعضده قول ابن عمر رضى الله تعالى عنه قلنا يارسول الله الايمان يزيد و ينقص قال «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار» (وقالوا حسبنا الله) أى محسبنا الله و كافينا من

أحسبه اذا كفاه والدليل على أنه بمعنى المحسب أنه لا يستفيد بالاضافة تعريفا فى قولك هذا رجل حسبك (ونعم الوكيل) أى نعم الموكول اليه و المخصوص بالمدح محذوف أى الله عز وجل (فانقلبوا) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى نخرجوا اليهم ووافوا الموعد روى أنه عليه الصلاة والسلام وافى بجيشه بدرا وأقام بها ثمان ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيرا كثيرا والباء فى قوله تعالى (بنعمة) متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير فى فانقلبوا والتنوين للتفخيم أى فرجعوا من مقصدهم ملتبسين بنعمة عظيمة لا يقادر قدرها وقوله عز وجل (من الله) متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لفخامتها الذاتية التى يفيدها التنكير بالفخامة الاضافية أى كائنة من الله تعالى وهى العافية والثبات على الايمان والزيادة فيه وحذر العدو منهم (وفضل) أي ربح فى التجارة وتنكيره أيضاً للتفخيم (لم يمسسهم سوء) حال أخري من الضمير فى فانقلبوا أو من المستكن فى الحال كأنه قيل منعمين حال كونهم سالمين عن السوء والحال اذا كان مضارعا منفيا بلم وفيه ضمير ذى الحال جاز فيه دخول الواو كما فى قوله تعالى «أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء» وعدمه كما فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا» (واتبعوا) فى كل ما أتوا من قول وفعل (رضوان الله) الذى هو مناط الفوز بخير الدارين (والله ذو فضل عظيم) حيث تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الايمان والتوفيق للمبادرة الى الجهاد والتصلب فى الدين واظهار الجراءة على العدو وحفظهم عن كل ما يسوءهم مع اصابة النفع الجليل. وفيه تحسير لمن تخلف عنهم واظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء وروي أنهم قالوا هل يكون هذا غزوا فأعطاهم الله تعالي ثواب الغزو ورضى عنهم (انما ذلكم) اشارة الي المثبط أو الي من حمله على التثبيط والخطاب للمؤمنين وهو مبتدأ وقوله تعالي (الشيطان) اما خبره وقوله تعالى (يخوف أولياءه) جملة مستأنفة مبينة لشيطنته أو حال كما فى قوله تعالى «فتلك بيوتهم خاوية» الى آخره وأما صفته والجملة خبره ويجوز أن تكون الاشارة الي قوله على تقدير مضاف أى انما ذلكم قول الشيطان أي ابليس والمستكن فى يخوف اما للمقدر واما للشيطان بحذف الراجع الى المقدر أى يخوف به. والمراد بأوليائه أما أبو سفيان وأصحابه فالمفعول الاول محذوف أى يخوفكم أولياءه كما هو قراءة ابن عباس وابن مسعود ويؤيده قوله تعالي (فلا تخافوهم) أى أولياءه (وخافون) فى مخالفة أمرى وأما القاعدون فالمفعول الثانى محذوف أي يخوفهم الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير البارز فى فلا تخافوهم

للناس الثانى أى فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجبنوا وخافون فجاهدوا مع رسولى وسارعوا الى ما يأمركم به والخطاب لفريقى الخارجين والقاعدين والفاء لترتيب النهى أو الانتهاء على ماقبلها فان كون المخوف شيطانا مما يوجب عدم الخوف والنهى عنه (ان كنتم مؤمنين) فان الايمان يقتضى ايثار خوف الله تعالى على خوف غيره ويستدعى الامن من شر الشيطان وأوليائه (ولا يحزنك) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه بتخصيصه بالتسلية والايذان باصالته فى تدبير أمور الدين والاهتمام بشئونه (الذين يسارعون فى الكفر) أى يقعون فيه سريعا لغاية حرصهم عليه وشدة رغبتهم فيه. وايثار كلمة فى على ما وقع فى قوله تعالى« وسارعوا الي مغفرة»الآية للاشعار باستقرارهم فى الكفر ودوام ملابستهم له فى مبدأ المسارعة ومنتهاها كما فى قوله تعالى«أولئك يسارعون فى الخيرات»فان ذلك مؤذن بملابستهم للخيرات وتقلبهم فى فنونها فى طرفى المسارعة وتضاعيفها. وأما ايثار كلمة الى فى قوله تعالى«وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة» الخ فلان المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها. والمراد بالموصول المنافقون من المتخلفين وطائفة من اليهود حسبما عين فى قوله تعالى«ياأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا»وقيل قوم ارتدوا عن الاسلام والتعبير عنهم بذلك للاشارة بما فى حيز الصلة الي مظنة وجود المنهى عنه واعترائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي لا يحزنوك بمسارعتهم فى الكفر ومبادرتهم الى تمشية أحكامه ومظاهرتهم لاهله وتوجيه النهى الى جهتهم مع أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر منهم للمبالغة فى ذلك لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى الي اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك: لا أرينك ههنا. وقرىء لا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاى والمعنى واحد. وقيل معنى حزنه جعل فيه حزنا كما فى دهنه أى جعل فيه دهنا ومعنى أحزنه جعله حزينا. وقيل معنى حزنه أحدث له الحزن ومعنى أحزنه عرضه للحزن (انهم لن يضروا الله) تعليل للنهى وتكميل للتسلية بتحقيق نفى ضررهم أبدا أي لن يضروا بذلك أولياء الله البتة. وتعليق نفى الضرر به تعالى لتشريفهم والايذان بان مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وفيه مزيد مبالغة فى التسلية وقوله تعالى (شيئا) فى حيز النصب على المصدرية أى شيئا من الضرر والتنكير لتأكيد ما فيه من القلة والحقارة وقيل على نزع الجار أى بشيء ما أصلا. وقيل المعنى لن ينقصوا بذلك من ملكه تعالى وسلطانه شيئا كما روى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال«يقول الله تعالى لو أن

أولكم وآخركم وجنكم وانسكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ولو ان أولكم وآخركم وجنكم وانسكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكى شيئا»والاول هو الانسب بمقام التسلية والتعليل (يريد الله ان لا يجعل لهم حظا فى الآخرة)استئناف مبين لسر ابتلائهم بما هم فيه من الانهماك فى الكفر وفى ذكر الارادة من الايذان بكمال خلوص الداعى الى حرمانهم وتعذيبهم حيث تعلقت بهما ارادة أرحم الراحمين ما لا يخفى.وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الارادة واستمرارها أى يريدالله بذلك أن لا يجعل لهم فى الآخرة حظاما من الثواب ولذلك تركهم فى طغيانهم يعمهون الى أن يهلكوا على الكفر (ولهم) مع ذلك الحرمان الكلى (عذاب عظيم)لا يقدر قدره وقيل لما دلت المسارعة فى الشيء على شأنه وجلالة قدره عند المسارع وصف عذابه بالعظم رعاية المناسبة وتنبيهاً على حقارة ماسارعوا فيه وخساسته فى نفسه والجملة إما مبتدأة مبينة لحظهم من العقاب أثر بيان أن لا شيء لهم من الثواب وإما حال من الضمير فى لهم أى يريد الله حرمانهم من الثواب معداً لهم عذاب عظيم (ان الذين اشتروا الكفر بالايمان) أى أخذوه بدلا منه رغبة فيما أخذوه واعراضا عما تركوه وقد مر تحقيق القول فى هذه الاستعارة فى تفسير قوله عز وجل«أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى»مستوفى (لن يضروا الله شيئا) تفسيره كما مر غير أن فيه تعريضاً ظاهرا باقتصار الضرر عليهم كأنه قيل وانما يضرون أنفسهم فان جعل الموصول عبارة عن المسارعين المعهودين بأن يراد باشتراء الكفر بالايمان إيثاره عليه إما بأخذه بدلا من الايمان الحاصل بالفعل كما هو حال المرتدين أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله فى التوراة كما هو شأن اليهود ومنافقيهم فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده بيان علته بتغيير عنوان الموضوع فان ماذكر فى حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح فى لحوق ضرره بأنفسهم وعدم تعديه الى غيرهم أصلا كيف لا وهو علم فى الخسران الكلى والحرمان الابدي دال على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ورزانة الرأى ورصانة التدبير من مضارة حزب الله تعالى وهى أعز من الابلق الفرد وأمنع من عقاب الجو .وان أجرى الموصول على عمومه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الايمان من الاستعداد القريب له الحاصل بمشاهدة الوحى الناطق وملاحظة الدلائل المنصوبة فى الآفاق والانفس كما هو دأب جميع الكفرة فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقرير القواعد الكلية لما اندرج تحتها من

جزئيات الاحكام هذا. وقد جوز كون الموصول الاول عاما للكفار والثانى خاصاً بالمعهودين وأنت خبير بأنه مع خلوه عن النكت المذكورة مما لايليق بفخامة شأن التنزيل لما أن صدور المسارعة فى الكفر بالمعنى المذكور وكونها مظنة لايراث الحزن لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفهم من النهى عنه انما يتصور بمن علم اتصافه بها وأما من لايعرف حاله من الكفرة الكائنين فى الاماكن البعيدة فاسناد المسارعة المذكورة اليهم باعتبار كونها من مباديء حزنه عليه السلام مما لاوجه له وقوله تعالى (ولهم عذاب أليم) جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم بذكر غاية ايلامه بعد ذكر نهاية عظمه قيل لما جرت العادة باغتباط المشترى بما اشتراه وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة وبتألمه عند كونها خاسرة وصف عذابهم بالايلام مراعاة لذلك (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لانفسهم) عطف على قوله تعالى « ولا يحزنك الذين » الآية والفعل مسند الى الموصول وأن بما فى حيزها سادة مسد مفعوليه عند سيبويه لتمام المقصود بها وهو تعلق الفعل القلبي بالنسبة بين المبتدا والخبر أو مسد أحدهما والآخر محذوف عند الأخفش وما مصدرية أو موصولة حذف عائدها ووصلها فى الكتابة لاتباع الامام أي لا يحسبن الكافرون أن املاءنا لهم أو ان ما نمليه لهم خير لانفسهم أو لا يحسبن الكافرون خيرية املائنا لهم أو خيرية ما نمليه لهم ثابتة أو واقعة ومآله نهيهم عن السرور بظاهر املائه تعالى لهم بناء على حسبان خيريته لهم وتحسيرهم ببيان أنه شر بحت وضرر محض كما أن مآل المعطوف عليه نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحزن بظاهر حال الكفرة بناء على توهم الضرر من قبلهم وتسليته عليه السلام ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية. والمراد بالموصول اما جنس الكفرة فيندرج تحت حكمه الكلى أحكام المعهودين اندراجا أوليا وأما المعهودون خاصة فايثار الاظهار على الاضمار لرعاية المقارنة الدائمة بين الصلة وبين الاملاء الذى هو عبارة عن امهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرا طويلا فان المقارن له دائما انما هو الكفر المستمر لا المسارعة المذكورة ولا الاشتراء المذكور فانهما من الاحوال المتجددة المنقضية فى تضاعيف الكفر المستمر. وقريء لا تحسبن بالتاء والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الانسب بمقام التسلية أو لكل من يتأتى منه الحسبان قصدا الى اشاعة فظاعة حالهم والموصول مفعول وأنما نملى لهم إما بدل منه وحيث كان التعويل على البدل وهو ساد مسد المفعولين كما فى قوله تعالى « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون » اقتصر على مفعول واحد كما فى قولك جعلت المتاع بعضه فوق

بعض. و أما مفعول ثان بتقدير مضاف اما فيه أي لا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الاملاء خير لانفسهم أو فى المفعول الاول أي لا تحسبن حال الذين كفروا أن الاملاء خير لانفسهم و معنى التفضيل باعتبار زعمهم (إنما نملى لهم ليزدادوا اثما) استئناف مبين لحكمة الاملاء وما كافة واللام لام الارادة وعند المعتزلة لام العاقبة. وقرئ بفتح الهمزة ههنا على ايقاع الفعل عليه و كسرها فيما سبق على أنه اعتراض بين الفعل ومعموله مفيد لمزيد الاعتناء بابطال الحسبان ورده على معنى لا يحسبن الكافرون أن أملاءنا لهم لازدياد الاثم حسبما هو شأنهم بل انما هو لتلافى ما فرط منهم بالتوبة والدخول فى الايمان (ولهم) فى الآخرة (عذاب مهين) لما تضمن الاملاء التمتيع بطيبات الدنيا و زينتها وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر وصف عذابهم بالاهانة ليكون جزاؤهم جزاء وفاقا. والجملة اما مبتدأة مبينة لحالهم فى الآخرة أثر بيان حالهم فى الدنيا وأما حال من الواو أى ليزدادوا اثما معدا لهم عذاب مهين وهذا متعين على القراءة الاخيرة (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) كلام مستأنف مسوق لوعد المؤمنين ووعيد المنافقين بالعقوبة الدنيوية التى هى الفضيحة والخزى أثر بيان عقوبتهم الاخروية والمراد بالمؤمنين المخلصون. وأما الخطاب فقد قيل أنه لجمهور المصدقين من أهل الاخلاص وأهل النفاق ففيه التفات فى ضمن التلوين والمراد بما هم عليه اختلاط بعضهم ببعض واستواؤهم فى اجراء أحكام الاسلام عليهم اذ هو القدر المشترك بين الفريقين. وقيل انه للكفار والمنافقين وهو قول ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبى وأكثر المفسرين ففيه تلوين فقط ولعل المنافقين عطف تفسيرى للكفار والا فلا شركة بين المؤمنين والمنافقين فى أمر من الامور. والمراد بما هم عليه ما مر من القدر المشترك فانه كما يجوز نسبته الى الفريقين معا يجوز نسبته الى كل منهما لا الكفر والنفاق كما قيل فان المؤمنين ما كانوا مشاركين لهم فى ذلك حتى لا يتركوا عليه وقيل انه للمؤمنين خاصة وهو قول أكثر أهل المعانى ففيه تلوين والتفات كما مر. والتعرض لايمانهم قبل الخطاب للاشعار بعلة الحكم والمراد بما هم عليه ما مر غير مرة والاول هو الاقرب واليه جنح المحققون من أهل التفسير لكونه صريحا فى كون المراد بما هم عليه ما ذكر من القدر المشترك بين الفريقين من حيث هو مشترك بينهما بخلاف القولين الاخيرين فانهما بمعزل من ذلك كيف لا والمفهوم مما عليه المنافقون هو الكفر والنفاق ومما عليه المؤمنون هو الايمان والاخلاص لا القدر المشترك بينهما ولئن فهم ذلك فانما يفهم من حيث الانتساب الى أحدهما لا من حيث الانتساب اليهما معا وعليه يدور أمر الاختلاط المحوج الى الافراز واللام فى ليذر اما

متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأي البصرية وانتصاب الفعل بعدها بان المقدرة أى ما كان الله مريدا أو متصديا لان يذر المؤمنين الخ ففى توجيه النفى الى ارادة الفعل تأكيد ومبالغة ليست فى توجيهه الى نفسه.واما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله عز وجل (حتي يميز الخبيث من الطيب) غاية لما يفيده النفى المذكور كانه قيل مايتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط بل يقدر الامور ويرتب الاسباب حتى يعزل المنافق من المؤمن. وفى التعبير عنهما بما ورد به النظم الكريم تسجيل على كل منهما بما يليق به واشعار بعلة الحكم.وأفراد الخبيث والطيب مع تعدد ماأريد بكل منهما وتكثره لاسيما بعد ذكر ماأريد باحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع للايذان بان مدار أفراد أحد الفريقين من الاخر هو اتصافهما بوصفهما لا لخصوصية ذاتهما وتعدد آحادهما كما فى مثل قوله تعالى «ذلك أدنى أن لاتعولوا» ونظيره قوله تعالى «تذهل كل مرضعة عما أرضعت» حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم .وتعليق الميز بالخبيث المعبر به عن المنافق مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقه بهم وافرازهم عن المنافقين لما أن الميز الواقع بين الفريقين انما هو بالتصرف فى المنافقين وتغيرهم من حال الى حال مغايرة للاولي مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من اصل لايمان وان ظهر مزيد اخلاصهم لابالتصرف فيهم وتغييرهم من حال الى حال أخرى مع بقاء المنافقين على ماهم عليه من الاستتار ولان فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير اليه فى قوله تعالى «والله يعلم المفسد من المصلح» وانما لم ينسب عدم الترك اليهم لما أنه مشعر بالاعتناء بشأن من نسب اليه فان المتبادر منه عدم الترك على حالة غير ملائمة كما يشهد به الذوق السليم وقرىء حتى يميز من التمييز وقوله تعالي (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) تمهيد لبيان الميز الموعود على طريق تجريد الخطاب للمخلصين تشريفا لهم وقوله عز وجل (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) أشارة الى كيفية وقوعه على سبيل الاجمال.واظهار الاسم الجليل فى الموضعين لتربية المهابة فالمعنى ما كان الله ليترك المخلصين على الاختلاط بالمنافقين بل يرتب المبادي حتى يخرج المنافقين من بينهم وما يفعل ذلك باطلاعكم على مافى قلوبهم من الكفر والنفاق ولكنه تعالى يوحى الى رسوله عليه السلام فيخبره بذلك وبما ظهر منهم من الاقوال والافعال حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف فيفضحهم على رءوس الاشهاد ويخلصكم من خسة الشركاء وسوء جوارهم. والتعرض للاجتباء للايذان بأن الوقوف على أمثال تلك الاسرار الغيبية

لايتأتى إلالمن رشحه الله تعالى لمنصب جليل تقاصرت عنه همم الامم واصطفاه على الجماهير لارشادهم .وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالةعلى أن شأنه عليه السلام فى هذا الباب أمر متين له أصل أصيل جار على سنةالله تعالى المسلوكة فما بين الرسل الخالية عليهم السلام.وتعميم الامر فى قوله تعالى (فآمنوا بالله ورسله) مع أن سوق النظم الكريم للايمان بالنبي عليه الصلاة والسلام لايجاب الايمان به بالطريق البرهانى والاشعار بأن ذلك مستلزم للايمان بالكل لانه مصدق لما بين يديه من الرسل وهم شهداء بصحة نبوته عليه الصلاة والسلام. والمأمور به الايمان بكل ماجاء به عليه الصلاة والسلام فيدخل فيه تصديقه عليه السلام فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولا أوليا هذا هو الذى يقتضيه جزالة النظم الكريم وقد جوز أن يكون المعنى لايترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التي لايصبر عليها الاالخلص الذين امتحن الله تعالى قلوبهم كبذل الارواح فى الجهاد وانفاق الاموال فى سبيل الله تعالى فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهداً بضمائركم حتى يعلم بعضكم بما فى قلب بعض بطريق الاستدلال لامن جهة الوقوف على ذات الصدور فان ذلك مما استأثر الله تعالى به. وأنت خبير بأن الاستدراك باجتباء الرسل المنبيء عن مزيد مزيتهم وفضل معرفتهم على الخلق أثر بيان قصور رتبتهم عن الوقوف على خفايا السرائر صريح فى أن المراد اظهار تلك السرائر بطريق الوحي لابطريق التكليف بما يؤدى الي خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء وأقرب من ذلك حمل الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة فى املائه تعالى للكفرة أثر بيان شريته لهم فالمعنى ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبداً كما تركهم كذلك الى الآن لسر يقتضيه بل يفرز عنهم المنافقين ولذلك فعله يومئذ حيث خلى الكفرة وشأنهم فأبرز لهم صورة الغلبة فأظهر من فى قلوبهم مرض مافيها من الخبائث وافتضحوا على رءوس الاشهاد وقيل قال الكافرون ان كان محمد صادقا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت (وان تؤمنوا) أى بما ذكر حق الايمان (وتتقوا) أى عدم مراعاة حقوقه أو النفاق (فلكم) بمقابلة ذلك الايمان والتقوى (أجر عظيم) لايبلغ كنهه (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) بيان لحال البخل وخامة عاقبته وتخطئة لاهله فى توهم خيريته حسب بيان حال الاملاء. وايراد ما بخلوا به بعنوان ايتاء الله تعالى اياه من فضله للمبالغة فى بيان سوء صنيعهم فان ذلك من موجبات بذله فى سبيله كما فى قوله تعالى «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» والفعل مسند الى الموصول والمفعول الاول

محذوف لدلالة الصلة عليه وضمير الفصل راجع اليه أى لايحسبن الباخلون بما آتاهم الله من فضله من غير أن يكون لهم مدخل فيه أو استحقاق له هو خيرا لهم من انفاقه وقيل الفعل مسند الى ضمير النبى صلى الله عليه وسلم أو الى ضمير من يحسب والمفعول الاول هو الموصول بتقدير مضاف والثانى ماذكر كما هو كذلك على قراءة الخطاب أى ولا يحسبن بخل الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيرا لهم (بل هو شر لهم) التنصيص على شريته لهم مع انفهامها من نفى خيريته للمبالغة فى ذلك والتنوين للتفخيم وقوله تعالى (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) بيان لكيفية شريته أى سيلزمون وبال ما بخلوا به الزام الطوق على أنه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه للايذان بكمال المناسبة بينهما . وروى عن النبى عليه الصلاه والسلام أنه قال «ما من رجل لايؤدى زكاة ماله الا جعل الله له شجاعا فى عنقه يوم القيامة» وقيل يجعل ما بخل به من الزكاة حية فى عنقه تنهشه من قرنه الى قدمه وتنقر رأسه وتقول أنا مالك (ولله) وحده لا لاحد غيره استقلالا أو اشتراكا (ميراث السموات والارض) أى ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره من الرسالات التى يتوارثها أهل السموات والارض فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه فى تعالى عند هلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والندامة (والله بما تعملون) من المنع والبخل (خبير) فيجازيكم على ذلك . واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة والالتفات للمبالغة فى الوعيد والاشعار باشتداد غضب الرحمن الناشىء من ذكر قبائحهم وقرىء بالياء على الظاهر (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) قالته اليهود لما سمعوا قوله تعالى «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا» وروى أنه عليه السلام كتب مع أبى بكر رضى الله عنه الى يهود بنى قينقاع يدعوهم الى الاسلام واقام الصلاة وايتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص ان الله فقير حتى سألنا القرض فلطمه أبو بكر رضى الله عنه فى وجهه قال لولا الذى بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله فنزلت والجمع حينئذ مع كون القائل واحدا لرضا الباقين بذلك والمعنى انه لم يخف عليه تعالى وأعد له من العقاب كفاءه . والتعبير عنه بالسماع للايذان بأنه من الشناعة والسماجة بحيث لا يرضى قائله بان يسمعه سامع والتوكيد القسمى للتشديد فى التهديد والمبالغة فى الوعيد (سنكتب ما قالوا) أى سنكتب ما قالوه من العظيمة الشنعاء فى صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته فى علمنا لاننساه ولا نهمله كما يثبت المكتوب والسين للتأكيد أى لن يفوتنا أبدا

تدوينه واثباته لكونه فى غاية العظم والهول كيف لا وهو كفر بالله تعالى واستهزاء بالقرآن العظيم والرسول الكريم ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وقتلهم الانبياء) ايذانا بانهما فى العظم أخوان وتنبيها على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها بل لهم فيه سوابق وان من اجترأ على قتل الانبياء لم يستبعد منه أمثال هذه العظائم. والمراد بقتلهم الانبياء رضاهم بفعل أسلافهم وقوله تعالى (بغير حق) متعلق بمحذوف وقع حالا من قتلهم أي كائنا بغير حق فى اعتقادهم أيضا كما هو فى نفس الامر. وقرىء سيكتب على البناء للفاعل وسيكتب على البناء للمفعول وقتلهم بالرفع (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) أي وننتقم منهم بعد الكتبة بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق كما اذقتم المسلمين الغصص. وفيه من المبالغات مالا يخفى. وقرىء ويقول بالياء ويقال على البناء للمفعول (ذلك) اشارة الي العذاب المذكور ومافيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأنه وبعد منزلته فى الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بما قدمت أيديكم) أي بسبب ما اقترفتموه من قتل الانبياء والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من المعاصى والتعبير عن الانفس بالايدي لما أن عامة أفاعيلها تزاول بهن ومحل أن فى قوله تعالى (وان الله ليس بظلام للعبيد) الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ماقبلها أى والامر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم كما يعبر عن ترك الاثابة على الاعمال باضاعتها مع أن الاعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها. وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بابراز ماذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم. وقيل هى لرعاية جمعية العبيد من قولهم: فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على أنها للمبالغة كما لا كيفا هذا وقد قيل محل أن الجر بالعطف على ما قدمت وسببيته للعذاب من حيث ان نفى الظلم مستلزم للعدل المقتضى لاثابة المحسن ومعاقبة المسيء وفساده ظاهر فان ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعا ولا عقلا حتى ينتهض نفى الظلم سببا للتعذيب حسبما ذكره القائل فى سورة الانفال. وقيل سببية ذنوبهم لعذابهم مقيدة بانضمام انتفاء ظلمه تعالى اليها اذلولاه لامكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم. وأنت خبير بأن امكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لاينافى كون تعذيب هؤلاء الكفرة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج الى اعتبار عدمه معه وانما يحتاج الى ذلك أن لو كان المدعى أن جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين (الذين قالوا)

نصب أو رفع على الذم وهم كعب بن الاشرف ومالك بن صيفي وحي بن أخطب وفنحاص بن عازوراء ووهب بن يهوذا (ان الله عهد الينا) أي أمرنا في التوراة وأوصانا (أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) كما كان عليه أمر أنبياء بني اسرائيل حيث كان يقرب بالقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله أي تحيله الى طبعها بالاحراق وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم فان أكل النار القربان لم يوجب الايمان الا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات سواء ولما كان محصل كلامهم الباطل أن عدم ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم لعدم اتيانه بما قالوا ولو تحقق الاتيان به لتحقق الايمان رد عليهم بقوله تعالى (قل) أي تبكيتا لهم واظهارا لكذبهم (قد جاءكم رسل) كثيرة العدد كبيرة المقدار (من قبلي بالبينات) أي المعجزات الواضحة (وبالذي قلتم) بعينه من القربان الذي تأكله النار (فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين) أي فيما يدل عليه كلامكم من أنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه فان زكرياء ويحيى وغيرهما من الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد جاءوكم بما قلتم في معجزات أخر فما لكم لم تؤمنوا لهم حتى اجترأتم على قتلهم (فان كذبوك) شروع في تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر ما أوحى اليه ما يحزنه عليه الصلاة والسلام من مقالات الكفرة من المشركين واليهود وقوله تعالى (فقد كذب رسل من قبلك) تعليل لجواب الشرط أي فتسل فقد كذب الخ ومن متعلقة بكذب أو بمحذوف هو صفة لرسل أي كائنة من قبلك (جاؤا بالبينات) أي المعجزات الواضحات صفة لرسل (والزبر) هو جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته اذا حسنته وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته اذا زجرته (والكتاب المنير) قيل أي التوراة والانجيل والزبور والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والاحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة المواقع. وقرىء وبالزبر باعادة الجار دلالة على انها مغايرة بالذات للبينات (كل نفس ذائقة الموت) وعد ووعيد للمصدق والمكذب. وقرىء ذائقة الموت بالتنوين وعدمه كما في قوله ولا ذاكر الله الاقليلا. (وانما توفون أجوركم) أي تعطون أجزية أعمالكم على التمام والكمال (يوم القيامة) أي يوم قيامكم من القبور. وفي لفظ التوفية اشارة الى أن بعض أجورهم يصل اليهم قبله كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران» (فمن زحزح عن النار) أي بعد عنها يومئذ ونحي والزحزحة في الاصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة (وأدخل الجنة فقد فاز) بالنجاة ونيل المراد

والفوز الظفر بالبغية وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه» (وما الحياة الدنيا) أى لذاتها وزخارفها (الا متاع الغرور) شبهت بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه وهذا لمن آثرها على الآخرة فاما من طلب بها الآخرة فهى له متاع بلاغ والغرور أما مصدر أو جمع غار (لتبلون) شروع فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عما سيلقونه من جهة الكفرة من المكاره أثر تسليتهم عما قد وقع منهم ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه ويستعدوا للقائه ويقابلوه بحسن الصبر والثبات فان هجوم الاوجال مما يزلزل أقدام الرجال والاستعداد للكروب مما يهون الخطوب وأصل الابتلاء الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لامر يشق عليه غالبا ملابسته أو مفارقته وذلك انما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الامور وأما من جهة العليم الخبير فلا يكون الا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار أحد الامرين أو الامور قبل أن يرتب عليه شيئا هو من مباديه العادية كما مر والجملة جواب قسم محذوف أى والله لتبلون أى لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق والاعمال الحسنة وفائدة التوكيد أما تحقيق معنى الابتلاء تهوينا للخطب وأما تحقيق وقوع المبتلى به مبالغة فى الحث على ما أريد منهم من التهيؤ والاستعداد (فى أموالكم) بما يقع فيها من ضروب الآفات المؤدية الى هلاكها وأما انفاقها فى سبيل الخير مطلقا فلا يليق نظمه فى سلك الابتلاء لما أنه من باب الاضعاف لا من قبيل الاتلاف (وانفسكم) بالقتل والاسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك وتقديم الاموال لكثرة وقوع الهلكة فيها (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى من قبل ايتائكم القرآن وهم اليهود والنصارى عبر عنهم بذلك للاشعار بمدار الشقاق والايذان بان بعض ما يسمعونه منهم مستند على زعمهم الى الكتاب كما فى قوله تعالى «ان الله عهد الينا» الخ والتصريح بالقبلية لتأكيد الاشعار وتقوية المدار فان قدم نزول كتابهم مما يؤيد تمسكهم به (ومن الذين اشركوا أذى كثيرا) من الطعن فى الدين الحنيف والقدح فى أحكام الشرع الشريف وصد من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن وما كان من كعب بن الاشرف وأضرابه من هجاء المؤمنين وتحريض المشركين على مضادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما لا خير فيه (وان تصبروا) أى على تلك الشدائد والبلاوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التجمل (وتتقوا) أى تتبتلوا

الى الله تعالى بالكلية معرضين عما سواه بالمرة بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه (فان ذلك) اشارة الى الصبر والتقوى ومافيه من معني البعد للايذان بعلو درجتهما وبعد منزلتهما.وتوحيد حرف الخطاب إما باعتبار كل واحد من المخاطبين واما لان المراد بالخطاب مجرد التنبيه من غير ملاحظة خصوصية أحوال المخاطبين (من عزم الامور)من معزوماتها التي يتنافس فيها المتنافسون أي مما يجب أن يعزم عليه كل احد لما فيه من كمال المزية والشرف أو مما عزم الله تعالى عليه وامر به وبالغ فيه يعنى أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالي لابد أن تصبروا وتتقوا والجملة تعليل لجواب الشرط واقع موقعه كأنه قيل وان تصبروا وتتقوا فهو خير لكم أو فافعلوا أو فقد أحسنتم أو فقد أصبتم فان ذلك الخ ويجوز أن يكون ذلك اشارة الى صبر المخاطبين وتقواهم فالجملة حينئذ جواب الشرط .وفى ابراز الامر بالصبر والتقوى فى صورة الشرطية من اظهار كمال اللطف بالعباد مالا يخفى (واذ أخذ الله) كلام مستأنف سيق لبيان بعض أذياتهم وهو كتمانهم مافى كتابهم من شواهد نبوته عليه الصلاة والسلام وغيرها .واذ منصوب على المفعولية بمضمر أمر به صلى الله عليه وسلم خاصة بطريق تجديد الخطاب أثر الخطاب الشامل له عليه الصلاة والسلام للمؤمنين لكون مضمونه من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها على مامر بيانه فى تفسير قوله تعالى« وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل» الخ أي اذكر وقت أخذه تعالي (ميثاق الذين أوتوا الكتاب)وهم علماء اليهود والنصاري ذكروا بعنوان ايتاء الكتاب مبالغة فى تقبيح حالهم (لتبيننه) حكاية لماخوطبوا به والضمير للكتاب وهو جواب لقسم ينبيء عنه أخذ الميثاق كانه قيل لهم بالله لتبيننه (للناس) وتظهرن جميع ما فيه من الاحكام والاخبار التي من جملتها أمر نبوته عليه الصلاة والسلام وهو المقصود بالحكاية.وقرىء بالياء لانهم غيب (ولا تكتمونه) عطف على الجواب وانما لم يؤكد بالنون لكونه منفيا كما فى قولك :والله لايقوم زيد وقيل اكتفى بالتأكيد فى الاول لانه تأكيد له وقيل هو حال من ضمير المخاطبين اما على اضمار مبتدا بعد الواو أى وأنتم لاتكتمونه واما على رأي من جوز دخول الواو على المضارع المنفى عند وقوعه حالا أى لتبيننه غير كاتمين والنهى عن الكتمان بعد الامر بالبيان اما للمبالغة فى ايجاب المأمور به واما لأن المراد بالبيان المأمور به ذكر الآيات الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وبالكتمان المنهى عنه القاء التأويلات الزائغة والشبهات

الباطلة وقرىء بالياء كما قبله (فنبذوه) النبذ الرمي والابعاد أي طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثق بفنون التأكيد و القوة (وراء ظهورهم) ولم يراعوه ولم يلتفتوا اليه أصلا فان نبذ الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به الاعراض عنه بالكلية كما أن جعله نصب العين علم في كمال العناية به. وفيه من الدلالة على تحتم بيان الحق على علماء الدين و اظهار ما منحوه من العلم للناس أجمعين وحرمة كتمانه لغرض من الاغراض الفاسدة أو لطمع في عرض من الاعراض الفانية الكاسدة مالا يخفى وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار» وعن طاوس أنه قال لوهب بن منبه اني أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب وقال والله لو كنت نبيا فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعذبك وعن محمد بن كعب لا يحل لاحد من العلماء أن يسكت على علمه ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل وعن علي رضى الله عنه ما أخذ الله على أهل الجهل بأن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا (واشتروا به) أي بالكتاب الذي أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه فان ذكر نبذ الميثاق يدل على ذلك دلائل واضحة. وايقاع الفعل على الكل مع أن المراد به كتم بعضه كدلالة نبوته عليه الصلاة والسلام ونحوها لما أن ذلك كتم للكل اذ به يتم الكتاب كما أن رفض بعض أركان الصلاة رفض لكلها أو بمنزلة كتم الكل من حيث انهما سيان في الشناعة واستجرار العقاب كما في قوله تعالى «وان لم تفعل فما بلغت رسالته» والاشتراء مستعار لاستبدال متاع الدنيا بما كتموه أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله (ثمنا قليلا) أي شيئا تافها حقيرا من حطام الدنيا وأعراضها. وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة في المأخوذ والاعراض عن المعطى والتعبير عن المشترى الذي هو العمدة في العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذي شأنه ان يكون وسيلة اليه وجعل الكتاب الذي حقه ان يتنافس فيه المتنافسون مصحوبا بالباء الداخلة على الآلات والوسائل من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بايثارهم الدنيء الحقير على الشريف الخطير وتعكيسهم بجعلهم المقصد الاصلي وسيلة و الوسيلة مقصدا مالا يخفى جلالة شأنه ورفعة مكانه (فبئس ما يشترون) ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ويشترون صفته والمخصوص بالذم محذوف أي بئس شيئا يشترونه ذلك الثمن (لا تحسبن) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد من يصلح له (الذين يفرحون بما أتوا) اي بما فعلوا كما في قوله تعالى «انه كان وعده مأتيا» ويدل عليه قراءة ابي يفرحون بما فعلوا. وقرىء بما آتوا بمعنى أعطوا وبما أوتوا اي

بماأوتوه من علم التوراة قال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود حرفوا التوراة وفرحوا بذلك واحبوا ان يوصفوا بالديانة والفضل روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء مما فى التوراة فكتموا الحق واخبروه بخلافه وأروه انهم قد صدقوه واستحمدوا اليه وفرحوا بما فعلوا وقيل فرحوا بكتمان النصوص الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وأحبوا أن يحمدوا بأنهم متبعون ملة ابراهيم عليه السلام فالموصول عبارة عن المذكورين أو عن مشاهيرهم وضع موضع ضميرهم والجملة مسوقة لبيان ما تستتبعه أعمالهم المحكية من العقاب الاخروى اثر بيان قباحتها وقد أدمج فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وهو اصرارهم على ما هم عليه من القبائح وفرحهم بذلك. ومحبتهم لان يوصفوا بما ليس فيهم من الاوصاف الجميلة وقد نظم ذلك فى سلك الصلة التى حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند المخاطب ايذانا بشهرة اتصافهم بذلك. وقيل هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بانهم رأوا المصلحة فى ذلك واستحمدوا به وقيل هم المنافقون كافة وهو الانسب بظاهر قوله تعالى (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) لشهرة أنهم كانوا يفرحون بما فعلوا من اظهار الايمان وقلوبهم مطمئنة بالكفر ويستحمدون إلى المسلمين بالايمان وهم عن فعله بألف منزل وكانوا يظهرون محبة المؤمنين وهم فى الغاية القاصية من العدواة فالموصول عبارة عن طائفة معهودة من المذكورين وغيرهم فان أكثر المنافقين كانوا من اليهود ولعل الاولى اجراء الموصول على عمومه شاملا لكل من يأتى بشيء من الحسنات فيفرح به فرح اعجاب ويود أن يمدحه الناس بما هو عار منه من الفضائل منتظما للمعهودين انتظاما أوليا وأياما كان فهو مفعول أول لتحسبن وقوله تعالى (فلا تحسبنهم) تأكيد له والفاء زائدة والمفعول الثانى قوله تعالى (بمفازة من العذاب) أي ملتبسين بنجاة منه على أن المفازة مصدر ميمى ولا يضر تأنيثها بالتاء لما أنها مبنية عليها وليست للدلالة على الوحدة كما فى قوله:

فلولا رجاء النصر منك ورهبة ... عقابك قد كانوا لنا بالموارد

ولا سبيل الى جعلها اسم مكان على أن الجار متعلق بمحذوف وقع صفة لها أى بمفازة كائنة من العذاب لانها ليست من العذاب وتقدير فعل خاص ليصح به المعنى أى بمفازة منجية من العذاب مع كونه خلاف الاصل تعسف مستغنى عنه. وقرىء بضم الباء فى الفعلين على أن الخطاب شامل للمؤمنين أيضاً. وقرىء بياء الغيبة وفتح الباء فيهما على أن الفعل له عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يتأتى منه الحسبان ومفعولاه كما ذكر وقرىء بضم الباء فى الثانى فقط على أن الفعل للموصول والمفعول الاول محذوف

لكونه عين الفاعل والثانى بمفازة أى لا يحسبن الذين يفرحون أنفسهم فائزين وقوله تعالى فلا يحسبنهم تأكيد للاول والفاء زائدة كما مر ويجوز أن يحمل الفعل الاول على حذف المفعولين معا اختصارا لدلالة مفعولى الثانى عليهما على عكس ما فى قوله:

بأى كتاب أو بأية سنة ترى حبهم عارا على وتحسب

حيث حذف فيه مفعولا الثانى لدلالة مفعولى الاول عليهما أو على أن الفعل الاول للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل حاسب ومفعوله الاول الموصول والثانى محذوف لدلالة مفعول الفعل الثانى عليه والفعل الثانى مسند الى ضمير الموصول والفاء للعطف لظهور تفرع عدم حسبانهم على عدم حسبانه عليه السلام ومفعولاه الضمير المنصوب وقوله تعالى بمفازة. وتصدير الوعيد بنهيهم عن الحسبان المذكور للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة وقطع أطماعهم الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية وعليه كان مبنى فرحهم. وأما نهيه عليه السلام فللتعريض بحسبانهم المذكور لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته عليه السلام (ولهم عذاب أليم) بعد ما أشير الى عدم نجاتهم من مطلق العذاب حقق أن لهم فردا منه لا غاية له فى المدة والشدة كما تلوح به الجملة الاسمية والتنكير التفخيمى والوصف (ولله) أى خاصة (ملك السموات والارض) أى السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء ويريد ايجاداً واعداما إحياء وإماتة تعذيبا واثابة من غير أن يكون لغيره شائبة دخل فى شيء من ذلك بوجه من الوجوه فالجملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى (والله على كل شيء قدير) تقرير لاختصاص ملك العالم الجسمانى المعبر عنه بقطريه به سبحانه وتعالى فان كونه تعالى قادراً على الكل بحيث لا يشذ من ملكوته شيء من الاشياء يستدعى كون ما سواه كائنا ما كان مقدوراً له ومن ضرورته اختصاص القدرة به تعالى واستحالة أن يشاركه شيء من الاشياء فى القدرة على شيء من الاشياء فضلا عن المشاركة فى ملك السموات والارض وفيه تقرير لما مر من ثبوت العذاب الاليم لهم وعدم نجاتهم منه اثر تقرير. واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة والاشعار بمناط الحكم فان شمول القدرة لجميع الاشياء من أحكام الالوهية مع ما فيه من الاشعار باستقلال كل من الجملتين بالتقرير (ان فى خلق السموات) جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما سبق من اختصاصه تعالى بالسلطان القاهر والقدرة التامة صدرت بكلمة التأكيد اعتناء بتحقيق مضمونها أى فى انشائها على ما هى عليه فى ذواتها وصفاتها من الامور التى تحار فى فهم اجلاها العقول (والارض) على ما هى عليه ذاتا وصفة (واختلاف الليل والنهار) أى

تفسير الآية وتحقيق مصداقها على التعيين وانما أرادوا به التبرك بنوع موافقة لها فى ضمن الاتيان بفرد من أفراد مدلولها. وأما حمل الذكر على الصلاة فى هذه الاحوال حسب الاستطاعة كما قال عليه السلام لعمران بن الحصين «صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب تؤمئ ايماء» فما لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه. والقيام والقعود جمع قائم وقاعد كنيام ورقود جمع نائم وراقد. وانتصابهما على الحالية من ضمير يذكرون أى يذكرنه قائمين وقاعدين وقوله تعالى وعلى جنوبهم متعلق بمحذوف معطوف على الحالين أي وكائنين على جنوبهم أي مطجعين والمراد تعميم الذكر للاوقات كما مر. وتخصيص الاحوال المذكورة بالذكر ليس لتخصيص الذكر بها بل لانها الاحوال المعهودة التى لا يخلوا عنها الانسان غالبا (ويتفكرون فى خلق السموات والارض) عطف على يذكرون منتظم معه فى حيز الصلة فلا محل له من الاعراب. وقيل محله النصب على انه معطوف على الاحوال السابقة وليس بظاهر وهو بيان لتفكرهم فى أفعاله سبحانه أثر بيان تفكرهم فى ذاته تعالى على الاطلاق واشارة الى نتيجته التى يؤدى اليها من معرفة أحوال المعاد حسبما نطقت به ألسنة الرسل وآيات الكتب فكما أنها آيات تشريعية هادية للخلق الى معرفته تعالى ووجوب طاعته كذلك المخلوقات آيات تكوينية مرشدة لهم الى ذلك فالاولى منبهات لهم على الثانية ودواع الى الاستشهاد بها كهذه الاية الكريمة ونحوها مما ورد فى مواضع غير محصورة من التنزيل والثانية مؤيدات للاولى وشواهد دالة على صحة مضمونها وحقيقة مكنونها فان من تأمل فى تضاعيف خلق العالم على هذا النمط البديع قضى باتصاف خالقه تعالى بجميع ما نطقت به الرسل والكتب من الوجوب الذاتى والوحدة الذاتية والملك القاهر والقدرة التامة والعلم الشامل والحكمة البالغة وغير ذلك من صفات الكمال وحكم بان من قدر على أنشائه بلا مثال يحتذيه أو قانون ينتحيه فهو على اعادته بالبعث أقدر وحكم بأن ذلك ليس الا لحكمة باهرة هى جزاء المكلفين بحسب استحقاقهم المنوط باعمالهم أى علومهم واعتقاداتهم التابعة لانظارهم فيما نصب لهم من الحجج والدلائل والامارات والمخايل وسائر أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح بل متناول للعمل القلبي بل هو أشرف أفراده لما أن لكل من القلب والقالب عملا خاصا به ومن قضية كون الاول أشرف من الثانى كون عمله أيضا أشرف من عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفته تعالى التى هى أول الواجبات على العباد والغاية القصوى من الخلق على ما نطق به عز وجل «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» أى ليعرفون كما أعرب عنه قوله

عليه الصلاة والسلام «يقول الله تعالى كنت كنزا مخفيا فاحببت أن أعرف فخلقت الخلق لاعرف» وأنما طريقها النظر والتفكير فيما ذكر من شئونه تعالى وقد روى عنه عليه السلام انه قال «لاتفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكير فى أمر الله تعالى ولذلك قال عليه السلام «لاعبادة مثل التفكر» وقد عرفت أنه مستتبع لتحقيق ماجاءت به الشريعة الحقة والالما فسر النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى «وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا بقوله عليه الصلاة والسلام أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله تعالى» فان التورع عن محارمه سبحانه موقوف على معرفة الحلال والحرام المنوطة بالكتاب والسنة فحينئذ تتصادق الآيات التكوينية وتتوافق الادلة السمعية والعقلية وهو السر فى نظم ماحكى عن المتفكرين من الامور المستدعية للايمان بالشريعة فى سلك نتيجة تفكرهم كما ستقف عليه. واظهار خلق السموات والارض مع كفاية الاضمار لابراز كمال العناية ببيان حالهم والايذان بكون تفكرهم على وجه التحقيق والتفصيل. وعدم التعرض لادراج اختلاف الملوين فى سلك التفكر مع ذكره فيما سلف أما للايذان بظهور اندراجه فيه لما أن ذلك من الاحوال التابعة لاحوال السموات والارض كما أشير اليه وأما للاشعار بمسارعتهم الى الحكم بالنتيجة بمجرد تفكرهم فى بعض الآيات من غير حاجة الى بعض آخر منها فى اثبات المطلوب والخلق مصدر على حاله أى يتفكرون فى انشائهما وابداعهما بمافيهما من عجائب المصنوعات. وقيل بمعنى المخلوق على أن الاضافة بمعنى فى أى يتفكرون فيما خلق فيهما أعم من أن يكون بطريق الجزئية منهما أو بطريق الحلول فيهما أو على أنها بيانية (ربنا ماخلقت هذا باطلا) كلمة هذا أشارة الى السموات والارض متضمنة لضرب من التعظيم كما فى قوله تعالى «أن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم» والتذكير لما أنهما باعتبار تعلق الخلق بهما فى معنى المخلوق أو الى الخلق على تقدير كونه بمعنى المخلوق وباطلا أما صفة لمصدر مؤكد محذوف أو حال من المفعول به أى ماخلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثا عاريا عن الحكمة خاليا عن المصلحة كما ينبىء عنه أوضاع الغافلين عن ذلك المعرضين عن التفكير فيه بل منتظما لحكم جليلة ومصالح عظيمة من جملتها أن يكون مدار المعايش العباد ومنارا يرشدهم الى معرفة أحوال المبدأ والمعاد حسبما أفصحت عنه الرسل والكتب الالهية كما تحققته مفصلا والجملة بتمامها فى حيز النصب بقول مقدر هو على تقدير كون الموصول نعتا لاولي الالباب استئناف مبين لنتيجة التفكر ومدلول الآيات

ناشىء مما سبق فان النفس عند سماع تخصيص الآيات المنصوبة فى خلق العالم بأولى الالباب ثم وصفهم بذكر الله تعالى و التفكر فى محل تلك الآيات تبقى مترقبة لما يظهر منهم من آثارها وأحكامها كأنه قيل فماذا يكون عند تفكرهم فى ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة فقيل يقولون كيت وكيت مما ينبىء عن وقوفهم على سر الخلق المؤدى الى معرفة صدق الرسل وحقية الكتب الناطقة بتفاصيل الاحكام الشرعية على التفصيل الذي وقفت عليه هذا وأما جعله حالا من المستكن فى الفعل كما أطبق عليه الجمهور فمما لا يساعده جزالة النظم الكريم لما أن مافى حيز الصلة وما هو قيد له حقه أن يكون من مبادى الحكم الذي أجرى على الموصول ودواعى ثبوته له كذكرهم الله عز وجل فى عامة أوقاتهم وتفكرهم في خلق السموات والارض فانهما مما يؤدى الى اجتلاء تلك الآيات والاستدلال بها على المطلوب ولا ريب فى أن قولهم ذلك ليس من مبادي الاستدلال المذكور بل من نتائجه المترتبة عليه فاعتباره قيدا لما فى حيز الصلة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل نعم هو حال من ذلك على تقدير كون الموصول مرفوعا أو منصوبا على المدح أو مرفوعا على أنه خبر لمبتدا محذوف اذلا اشتباه فى أن قولهم ذلك من مبادى مدحهم ومحاسن مناقبهم وفى ابراز هذا القول فى معرض الحال دون الخبر اشعار بمقارنته لتفكرهم من غير تلعثم وتردد فى ذلك وقوله تعالى (سبحانك) أى تنزيها لك عما لا يليق بك من الامور التى من جملتها خلق مالا حكمة فيه اعتراض مؤكد لمضمون ما قبله وممهد لما بعده من قوله تعالى (فقنا عذاب النار) فان معرفة سر خلق العالم وما فيه من الحكمة البالغة والغاية الحميدة والقيام بما تقتضيه من الاعمال الصالحة وتنزيه الصانع تعالي عن العبث من دواعى الاستعاذة مما يحيق بالمخلين بذلك من وجهين أحدهما الوقوف على تحقق العذاب فالفاء لترتيب الدعاء على ماذكر والثانى الاستعداد لقبول الدعاء فالفاء لترتيب المدعو أعنى الوقاية على ذلك كأنه قيل واذقد عرفنا سرك وأطعنا أمرك ونزهناك عما لا ينبغى فقنا عذاب النار الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك (ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته) مبالغة فى استدعاء الوقاية وبيان لسببه وتصديرا لجملة بالنداء للمبالغة فى التضرع والجوار وتأكيدها لاظهار كمال اليقين بمضمونها والايذان بشدة الخوف واظهار النار فى موضع الاضمار لتهويل أمرها وذكر الادخال فى مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين غاية فظاعته قال الواحدي للأخزاء معان متقاربة يقال أخزاه الله أى أبعده وقيل اهانه وقيل أهلكه وقيل فضحه قال ابن الانبارى الخزي لغة الهلاك

بتلف أو بانقطاع حجة أو بوقوع فى بلاء والمعنى فقد أخذيته خزيا لا غاية وراءه كقولهم: من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك أي المرعى الذى لا مرعى بعده وفيه من الاشعار بفظاعة العذاب الروحانى ما لا يخفى وقوله تعالى (وما للظالمين من أنصار) تذييل لاظهار نهاية فظاعة حالهم ببيان خلود عذابهم بفقدان من ينصرهم ويقوم بتخليصهم وغرضهم تأكيد الاستدعاء ووضع الظالمين موضع ضمير المدخلين لذمهم والاشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم ووضعهم الاشياء فى غير مواضعها وجمع الانصار بالنظر الى جمع الظالمين أى ما لظالم من الظالمين نصير من الانصار والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر فليس فى الآية دلالة على نفى الشفاعة على ان المراد بالظالمين هم الكفار (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان) حكاية لدعاء آخر لهم مبنى على تأملهم فى الدليل السمعى بعد حكاية دعائهم السابق المبنى على التفكر فى الادلة العقلية. وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لاظهار كمال الضراعة والابتهال. والتأكيد للايذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة وكمال النشاط والمراد بالنداء الدعاء وتعديتهما بالى لتضمنهما معنى الانهاء وباللام لاشتمالهما على معنى الاختصاص والمراد بالمنادى الرسول صلى الله عليه وسلم وتنوينه للتفخيم. وايثاره على الداعى للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها الى الدانى والقاصى لما فيه من الايذان برفع الصوت وينادى صفة لمناديا عند الجمهور كما فى قولك : سمعت رجلا يقول كيت وكيت ولو كان معرفة لكان حالا منه كما اذا قلت سمعت زيدا يقول الخ ومفعول ثان لسمعنا عند الفارسى وأتباعه وهذا أسلوب بديع يصار اليه للمبالغة فى تحقيق السماع والايذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم والتوسل الى تفصيله واستحضار صورته وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك حيث عبر عن المسموع منه بالمنادى ثم وصف بالنداء للايمان على طريقة قولك سمعت متكلما يتكلم بالحكمة لما أن التفسير بعد الابهام والتقييد بعد الاطلاق أوقع عند النفس وأجدر بالقبول وقيل المنادى القرآن العظيم (أن آمنوا) أى آمنوا على أن أن تفسيرية أو بأن آمنوا على أنها مصدرية (بربكم) بمالككم ومتولى أموركم ومبلغكم الى الكمال وفى اطلاق الايمان ثم تقييده تفخيم لشأنه (فآمنا) أى فامتثلنا بأمره وأجبنا نداءه (ربنا) تكرير للتضرع واظهار لكمال الخضوع وعرض للاعتراف بربوبيته مع الايمان به والفاء فى قوله تعالى (فاغفرلنا) لترتيب المغفرة أو الدعاء بها على الايمان به تعالى والاقرار بربوبيته فان ذلك من دواعى المغفرة والدعاء بها (ذنوبنا) أى كبائرنا فان الايمان يجب ما قبله (وكفر عنا سيئاتنا) أى صغائرنا فانها مكفرة عن

مجتنب الكبائر (وتوفنا مع الابرار) أى مخصوصين بصحبتهم مغتنمين لجوارهم معدودين من زمرتهم. وفيه اشعار بأنهم كانوا يحبون لقاءالله ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والابرار جمع بار أو بر كأصحاب وأرباب (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك) حكاية لدعاء آخر لهم مسبوق بما قبله معطوف عليه لتأخر التحلية عن التخلية. وتكرير النداء لما مر مكررا والمراد بالموعود الثواب وعلى اما متعلقة بالوعد كما فى قولك: وعدالله الجنة على الطاعة أي وعدتنا على تصديق رسلك أو بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف أي وعدتنا وعدا كائنا على ألسنة رسلك. وقيل التقدير منزلا على رسلك أو محمولا على رسلك ولا يخفى أن تقدير الافعال الخاصة فى مثل هذه المواقع تعسف وجمع الرسل مع أن المنادى هو الرسول صلى الله عليه وسلم وحده لما أن دعوته عليه السلام لاسيما فى باب التوحيد وما أجمع عليه الكل من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم عليهم السلام كيف لا وقد أخذ منهم الميثاق بالايمان به عليه السلام لقوله تعالى «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب» الآية وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعود على ألسنة الكل. وايثار الجمع لاظهار كمال الثقة بانجاز الموعود بناء على كثرة الشهود (ولا تخزنا يوم القيامة) قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله «يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه» مظهرين أنهم ممن آمن معه رجاء للانتظام فى سلكهم يومئذ وقوله تعالى (انك لا تخلف الميعاد) تعليل لتحقيق ما نظموا فى سلك الدعاء وهذه الدعوات وما فى تضاعيفها من كمال الضراعة والابتهال ليست لخوفهم من اخلاف الميعاد بل لخوفهم من أن لا يكونوا من جملة الموعودين بتغير الحال وسوء الخاتمة والمآل فمرجعها الى الدعاء بالتثبيت أو للمبالغة فى التعبد والخشوع. والميعاد الوعد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه البعث بعد الموت وفى الآثار عن جعفر الصادق: من حزبه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد. وقرأ هذه الآية (فاستجاب لهم ربهم) الاستجابة بمعنى الاجابة وقال تاج القراء الاجابة عامة والاستجابة خاصة باعطاء المسئول وتتعدى باللام وبنفسها كما فى قوله « فلم يستجبه عند ذاك مجيب » وهو عطف على الاستئناف المقدر فيما سلف مترتب على ما فى حيزه من الادعية كما أن قوله عز وجل «ثم قيل للذين ظلموا» الخ عطف على قيل المقدر قبل الآن أى قيل لهم آلآن آمنتم به ثم قيل الآية وكما أن قوله تعالى فى سورة الاعراف « ونطبع على قلوبهم» معطوف على ما دل عليه معنى «أو لم يهد لهم» الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ ولا ضير فى اختلافهما صيغة لما أن صيغة المستقبل هناك للدلالة على الاستمرار المناسب لمقام الدعاء وصيغة الماضى ههنا للايذان

بتحقق الاستجابة وتقررها كما لاضير فى الاختلاف بين قوله تعالى «اذ تستغيثون ربكم» وبين ما عطف عليه من قوله تعالى «فاستجاب لكم» كما سيأتى ويجوز أن يكون معطوفا على مضمر ينساق اليه الذهن أى دعوا بهذه الادعية فاستجاب الخ وأما على تقدير كون المقدر حالا فهو عطف على يتفكرون باعتبار مقارنته لما وقع حالا من فاعله أعنى قوله تعالى ربنا ربنا الخ فان الاستجابة مترتبة على دعواتهم لا على مجرد تفكرهم وحيث كانت هى من أوصافهم الجميلة المترتبة على أعمالهم بالآخرة استحقت الانتظام فى سلك محاسنهم المعدودة فى أثناء مدحهم. وأما على تقدير كون الموصول نعتا لأولى الالباب فلا مساغ لهذا العطف أصلا لما عرفت من أن حق ما فى حيز الصلة أن يكون من مبادى جريان الحكم على الموصول وقد عرفت أن دعواتهم السابقة ليست كذلك فأين الاستجابة المتأخرة عنها. وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميرهم من تشريفهم واظهار اللطف بهم مالا يخفى (أنى لا أضيع عمل عامل منكم) أى بأنى وهكذا قرأ أبى رضى الله عنه والباء السببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم أى سنته السنية مستمرة على ذلك. والالتفات الى التكلم والخطاب لاظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب والمراد تأكيدها ببيان سببها والاشعار بأن مدارها أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء وتعميم الوعد لسائر العاملين وان لم يبلغوا درجة أولى الاولباب لتأكيد استجابة الدعوات المذكورة. والتعبير عن ترك الاثابة بالاضاعة مع أنه ليس باضاعة حقيقة اذ الاعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح. وابراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه. وقرئ بكسر الهمزة على ارادة القول أى قائلا انى الخ فلا التفات حينئذ. وقرئ لا أضيع بالتشديد ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لعامل أي عامل كائن منكم وقوله تعالي (من ذكر أو أنثى) بيان لعامل وتأكيد لعمومه وقوله تعالى (بعضكم من بعض) جملة معترضة مبينة لسبب انتظام النساء فى سلك الرجال فى الوعد فان كون كل منهما من الآخر لتشعبهما من أصل واحد أو لفرط الاتصال بينهما أو لاتفاقهما فى الدين والعمل مما يستدعى الشركة والاتحاد فى ذلك. روي أن أم سلمة رضى الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى أسمع الله تعالى يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت وقوله تعالى (فالذين هاجروا) ضرب تفصيل لما أجمل فى العمل وتعداد لبعض أحاسن

أفراده على وجه المدح والتعظيم أي فالذين هاجروا الشرك أو الاوطان والعشائر للدين وقوله تعالى (وأخرجوا من ديارهم) على الاول عبارة عن نفس الهجرة وعلى الثانى عن كيفيتها وكونها بالقسر والاضطرار (وأوذوا فى سبيلى) أي بسبب إيمانهم بالله ومن أجله وهو متناول لكل أذية نالتهم من قبل المشركين (وقاتلوا) أي الكفار فى سبيل الله تعالى (وقتلوا) استشهدوا فى القتال. وقرىء بالعكس لما أن الواو لا تستدعى الترتيب أو لأن المراد قتل بعضهم وقتال آخرين اذ ليس المعنى على اتصاف كل فرد من أفراد الموصول المذكور بكل واحد مما ذكر فى حيز الصلة بل على اتصاف الكل فى الجملة سواء كان ذلك باتصاف كل فرد من الموصول بواحد من الاوصاف المذكورة أو باثنين منها أو بأكثر إما بطريق التوزيع أو بطريق حذف بعض الموصولات من البين كما هو رأى الكوفيين كيف لا ولو أدير الحكم على اتصاف كل فرد بالكل لكان قد أضيع عمل من اتصف بالبعض. وقرئ وقتلوا بالتشديد (لأكفرن عنهم سيآتهم) جواب قسم محذوف أى والله لأكفرن والجملة القسمية خبر للمبتدا الذى هو الموصول وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه بعد ما وعد ذلك عموماً وقوله تعالى (ولادخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار) اشارة الى ما عبر عنه الداعون فيما قبل بقولهم و آتنا ما وعدتنا على رسلك وتفسير له (ثوابا) مصدر مؤكد لما قبله فان تكفير السيئآت وادخال الجنة فى معني الاثابة وقوله تعالى (من عند الله) متعلق بمحذوف هو صفة له مبينة لشرفه أى لاثيبنهم إثابة كائنة أو تثويباً كائنا من عنده تعالى بالغا الى المرتبة القاصية من الشرف وقوله تعالى (والله عنده حسن الثواب) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله والاسم الجليل مبتدأ خبره عنده وحسن الثواب مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدا أو هو مبتدأ ثان والظرف خبره والجملة خبر للمبتدا الاول. والعندية عبارة عن الاختصاص به تعالى مثل كونه بقدرته تعالى وفضله بحيث لا يقدر عليه غيره بحال الشيء يكون بحضرة أحد لا يد عليه لغيره فالاختصاص مستفاد من التمثيل سواء جعل عنده خبرا مقدما لحسن الثواب أو لا. وفى تصدير الوعد الكريم بعدم اضاعة العمل ثم تعقيبه بمثل هذا الاحسان الذى لا يقادر قدره من لطف المسلك المنبيء عن عظم شأن المحسن مالا يخفى (لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد) بيان لقبح ما أوتى الكفرة من حظوظ الدنيا وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها اثر بيان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على أن المراد تثبيته على ماهو عليه كقوله تعالى «فلا تطع المكذبين» أو على أن المراد

نهى المؤمنين كما يوجه الخطاب الى مداره القوم ورؤسائهم والمراد افناؤهم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب من المؤمنين والنهى للمخاطب وانما جعل للتقلب مبالغة أى لاتنظر الى ماعليه الكفرة من السعة ووفور الحظ ولاتغتر بظاهر ما ترى منهم من التبسط فى المكاسب والمتاجر والمزارع. روى أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش فيقولون ان أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت. وقرىء لايغرنك بالنون الخفيفة (متاع قليل) خبر لمبتدا محذوف أى هو متاع قليل لاقدر له فى جنب ماذكر من ثواب الله تعالى قال عليه السلام «ماالدنيافى الآخرة الا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع فاذن لايجدى وجوده لواجديه ولايضر فقدانه لفاقديه» (ثم مأواهم) أى مصيرهم الذى يأوون اليه لايبرحونه (جهنم) التى لايوصف عذابها وقوله تعالى (وبئس المهاد) ذم لها وايذان بأن مصيرهم اليها مما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم والمخصوص بالذم محذوف أى بئس مامهدوا لانفسهم جهنم (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) بيان لكمال حسن حال المؤمنين غب بيان وتكرير له اثر تقرير مع زيادة خلودهم فى الجنان ليتم بذلك سرورهم ويزداد تبجحهم ويتكامل به سوء حال الكفرة. وايراد التقوى فى حيز الصلة للاشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الاتقاء من الشرك والمعاصى فالموصول مبتدأ والظرف خبره وجنات مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو الظرف خبر لجنات والجملة خبر للموصول وخالدين فيها أى فى الجنات حال مقدرة من الضمير أو من جنات لتخصصها بالوصف والعامل مافى الظرف من معنى الاستقرار (نزلا من عند الله) وقرىء بسكون الزاى وهو مايعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما قال أبو الشعر الضبى

وكنا اذا الجبار بالجيش ضافنا ... جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وانتصابه على الحالية من جنات لتخصصها بالوصف والعامل فيه مافى الظرف من معنى الاستقرار وقيل هو مصدر مؤكد كأنه قيل رزقا أو عطاء من عند الله (وما عند الله خير) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (للابرار) متعلق بمحذوف هو صفة لخير أى ماعنده تعالى من الامور المذكورة الدائمة خير كائن للابرار أى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل والتعبير عنهم بالابرار للاشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البر كما أنها من قبيل التقوى والجملة تذييل لما قبلها (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) جملة مستأنفة سيقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حكيت هناتهم

من نبذ الميثاق وتحريف الكتاب وغير ذلك بل منهم من له مناقب جليلة قيل هم عبدالله ابن سلام وأصحابه وقيل هم أربعون من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا. وقيل المراد به أصحمة النجاشى فانه لما مات نعاه جبريل الى النبى عليه السلام فقال عليه السلام« أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فخرج الى البقيع فنظر الى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه واستغفر له»فقال المنافقون أنظروا الى هذا يصلى على علج نصرانى لم يره قط وليس على دينه فنزلت .وانما دخلت لام الابتداء على اسم أن لفصل الظرف بينهما كما فى قوله تعالى«وان منكم لمن ليبطئن» (وما أنزل اليكم) من القرآن (وما أنزل اليهم) من الكتابين .وتأخير إيمانهم بهما عن ايمانهم بالقرآن فى الذكر مع الامر بالعكس فى الوجود لما أنه عيار ومهيمن عليهما فان ايمانهم بهما انما يعتبر بتبعية إيمانهم به اذلا عبرة بأحكامهما المنسوخة ومالم ينسخ منها انما يعتبر من حيث ثبوته بالقرآن والتعلق مابعده بهما .والمراد بايمانهم بهما ايمانهم بهما من غير تحريف ولا كتم كما هو ديدن المحرفين واتباعهم من العامة (خاشعين لله) حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار المعنى(لايشترون بآيات الله ثمناً قليلا) تصريح بمخالفتهم للمحرفين والجملة حال كما قبله ونظمها فى سلك محاسنهم ليس من حيث عدم الاشتراء فقط بل لتضمن ذلك لاظهار مافى الكتابين من شواهد نبوته عليه السلام (أولئك) أشارة اليهم من حيث اتصافهم بماعد من صفاتهم الحميدة ومافيه من معنى البعد للدلالة على علو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضيلة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (لهم) وقوله (أجرهم) أى المختص بهم الموعود لهم بقوله تعالى« أولئك يؤتون أجرهم مرتين» وقوله تعالى«يؤتكم كفلين من رحمته »مرتفع بالظرف على الفاعلية أوعلى الابتداء والظرف خبره والجملة خبر لأولئك وقوله تعالى (عند ربهم) نصب على الحالية من أجرهم والمراد به التشريف كالصفة (إن الله سريع الحساب) لنفوذ علمه بجميع الاشياء فهو عالم بما يستحقه كل عامل من الاجر من غير حاجة الى تأمل والمراد بيان سرعة وصول الاجر الموعود اليهم (ياأيها الذين آمنوا) أثر مابين فى تضاعيف السورة الكريمة فنون الحكم والاحكام ختمت بمايوجب المحافظة عليها فقيل (اصبروا) أى على مشاق الطاعات وغير ذلك من المكاره والشدائد(وصابروا) أى غالبوا أعداء الله تعالى بالصبر فى مواطن الحروب وأعدى عدوكم بالصبر على مخالفة الهوى.وتخصيص المصابرة بالامر بعد الامر بمطلق الصبر لكونها أشد منه وأشق (ورابطوا) أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها

مترصدين للغزو مستعدين له قال تعالى «ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من رابط يوماً وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه لايفطر ولاينفتل عن صلاته الالحاجة» (واتقوا الله) فى مخالفة أمره على الاطلاق فيندرج فيه ماذكر فى تضاعيف السورة الكريمة اندراجا أوليا (لعلكم تفلحون) كى تنتظموا فى زمرة المفلحين الفائزين بكل مطلوب الناجين من كل الكروب . عن النبي صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أمانا على جسر جهنم» . وعنه صلى الله عليه وسلم «من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس» والله أعلم

(سورة النساء مدنية وهى مائة وخمس وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم ياايها الناس) خطاب يعم حكمه جميع المكلفين عند النزول ومن سينتظم فى سلكهم من الموجودين حينئذ والحادثين بعد ذلك الى يوم القيامة عند انتظامهم فيه لكن لابطريق الحقيقة فان خطاب المشافهة لايتناول القاصرين عن درجة التكليف الا عند الحنابلة بل أما بطريق تغليب الفريق الاول على الاخيرين واما بطريق تعميم حكمه لهما بدليل خارجي فان الاجماع منعقد على أن آخر الامة مكلف بما كلف به أولها كما ينبىء عنه قوله عليه السلام «الحلال ما جرى على لسانى الى يوم القيامة والحرام ماجرى على لسانى الى يوم القيامة» وقد فصل فى موضعه. وأما الامم الدارجة قبل النزول فلاحظ لهم فى الخطاب لاختصاص الاوامر والنواهى بمن يتصور منه الامتثال وأما اندراجهم فى خطاب ماعداهما مماله دخل فى تأكيد التكليف وتقوية الايجاب فستعرف حاله ولفظ الناس ينتظم الذكور والاناث حقيقة. وأما صيغة جمع المذكر فى قوله تعالى (اتقوا ربكم) فواردة على طريقة التغليب لعدم تناولها حقيقة للاناث عند غير الحنابلة. وأما ادخالهن فى الامر بالتقوى بما ذكر من الدليل الخارجي وان كان فيه مراعاة جانب الصيغة لكنه يستدعى تخصيص لفظ الناس ببعض أفراده والمأمور به إما مطلق التقوي التى هى التجنب عن كل مايؤثم من فعل أو ترك وإما التقوى فيما يتعلق بحقوق ابناء الجنس أى اتقوه فى مخالفة أوامره ونواهيه على الاطلاق أو فى مخالفة تكاليفه الواردة ههنا وأياما كان فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأييد الامر وتأكيد ايجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب وكذا وصف الرب بقوله تعالى (الذي خلقكم من نفس واحدة) فان خلقه تعالى اياهم على هذا النمط البديع لانبائه عن قدرة شاملة لجميع

المقدورات التى من جملتها عقابهم على معاصيهم وعن نعمة كاملة لايقادر قدرها من أقوى الدواعي الي الاتقاء من موجبات نقمته وأتم الزواجر عن كفران نعمته وكذا جعله تعالى اياهم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة هى نفس آدم عليه السلام من موجبات الاحتراز عن الاخلال بمراعاة مابينهم من حقوق الاخوة وتعميم الخطاب فى ربكم وخلقكم للامم السالفة أيضا مع اختصاصه فيما قبل بالمأمورين بناء على أن تذكير شمول ربوبيته تعالى وخلقه للكل من مؤكدات الامر بالتقوى وموجبات الامتثال به تفكيك للنظم الكريم مع الاستغناء عنه لان خلقه تعالى للمأمورين من نفس آدم عليه السلام حيث كان بواسطة ما بينهم وبينه عليه السلام من الآباء والأمهات كان التعرض لخلقهم متضمناً للتعرض لخلق الوسايط جميعاً وكذا التعرض لربوبيته تعالي لهم متضمن للتعرض لربوبيته تعالى لاصولهم قاطبة لاسيما وقد نطق بذلك قوله عز وجل (وخلق منها زوجها) فانه مع ما عطف عليه صريح فى ذلك وهو معطوف أما على مقدر ينبىء عنه سوق الكلام لان تفريع الفروع من أصل واحد يستدعى انشاء ذلك الاصل لامحالة كانه قيل خلقكم من نفس واحدة خلقها أولا وخلق منها زوجها الخ وهو استئناف مسوق لتقرير وحدة المبدأ وبيان كيفية خلقهم منه وتفصيل ماأجمل أولا أو صفة لنفس مفيدة لذلك. واما على خلقكم داخل معه فى حيز الصلة مقرر ومبين لما ذكر. واعادة الفعل مع جواز عطف مفعوله على مفعول الفعل الأول كما فى قوله تعالى «ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم الخ» لاظهار مابين الخلقين من التفاوت فان الاول بطريق التفريع من الاصل والثانى بطريق الانشاء من المادة فانه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام. روى أنه عز وجل لما خلقه عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى فلما انتبه وجدها عنده. وتأخير ذكر خلقها عن ذكر خلقهم لما أن تذكير خلقهم ادخل فى تحقيق ماهو المقصود من حملهم على الامتثال بالامر بالتقوى من تذكير خلقها. وتقديم الجار والمجرور للاعتناء ببيان مبدئيته عليه السلام لها مع ما فيه من التشويق الى المؤخر كما مر مراراً. وايرادها بعنوان الزوجية تمهيد لما بعده من التناسل (وبث منهما) أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل (رجالا كثيراً) نعت لرجالا مؤكد لما أفاده التنكير من الكثرة. والافراد باعتبار معني الجمع أو العدد. وقيل هو نعت لمصدر مؤكد للفعل أى

بثاً كثيراً (ونساء) أى كثيرة وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور وايثارهما على ذكورا وإناثاً لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها بترشيح كل فرد من الافراد المبثوثة لمبدئية غيره. وقرىء وخالق وباث على حذف المبتدأ أي وهو خالق وباث (واتقوا الله الذى تساءلون به) تكرير للأمر وتذكير لبعض آخر من موجبات الامتثال به فان سؤال بعضهم بعضاً بالله تعالى بان يقولوا أسألك بالله و انشدك الله على سبيل الاستعطاف يقتضى الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه. وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بتربية المهابة وادخال الروعة ولوقوع التساؤل به لابغيره من أسمائه تعالى وصفاته. وتساءلون أصله تتساءلون فطرحت احدى التاءين تخفيفاً. وقرئ بادغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس وقرىء تسألون من الثلاثى أى تسألون به غيركم وقد فسر به القراءة الأولى والثانية وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع كما فى قولك رأيت الهلال وتراءيناه وبه فسر عم يتساءلون على وجه. وقرئ تسلون بنقل حركة الهمزة الى السين (والارحام) بالنصب عطفاً على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمراً وينصره قراءة تساءلون به وبالارحام فانهم كانوا يقرنونها فى السؤال والمناشدة بالله عزوجل ويقولون أسألك بالله وبالرحم أو عطفاً على الاسم الجليل أى اتقوا الله والارحام وصلوها ولا تقطعوها فان قطيعتها مما يجب أن يتقى وهو قول مجاهد وقتادة والسدي والضحاك والفراء والزجاج وقد جوز الواحدى نصبه على الاغراء أى والزموا الارحام وصلوها. وقرىء بالجر عطفاً على الضمير المجرور وبالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره والارحام كذلك أى مما يتقى أو يتساءل به ولقد نبه سبحانه وتعالى حيث قرنها باسمه الجليل على أن صلتها بمكان منه كما فى قوله تعالى «ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا» وعنه عليه السلام «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» (ان الله كان عليكم رقيبا) أى مراقبا وهى صيغة مبالغة من رقب يرقب رقباً ورقوبا ورقبانا اذا أحد النظر لأمر يريد تحقيقه أى حافظا مطلعا على جميع ما يصدر عنكم من الافعال والاقوال وعلى ما فى ضمائركم من النيات مريداً لمجازاتكم بذلك وهو تعليل للامر ووجوب الامتثال به. وإظهار الاسم الجليل لتأكيده. وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل (وآتوا اليتامى أموالهم) شروع فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف ما يقابلها أمراً ونهيا وعقيب الامر بنفسه مرة بعد أخرى. وتقديم ما يتعلق باليتامى لاظهار كمال العناية بأمرهم ولملابستهم بالارحام إذ الخطاب للاولياء والاوصياء وقلما

تفوض الوصاية الى الاجانب. واليتيم من مات أبوه من اليتم وهو الانفراد ومنه الدرة اليتيمة وجمعه على يتامى إما لأنه لما جرى مجرى الاسماء جمع على يتائم ثم قلب فقيل يتامى أو لأنه لما كان من وادى الآفات جمع على يتمى ثم جمع يتمى على يتامى والاشتقاق يقتضى صحة اطلاقه على الكبار أيضا . واختصاصه بالصغار مبنى على العرف وأما قوله عليه السلام «لايتم بعد الحلم» فتعليم للشريعة لا تعيين لمعنى اللفظ أى لايجري على اليتيم بعده حكم الايتام. والمراد بايتاء أموالهم قطع المخاطبين أطماعهم الفراغة عنها وكف أكفهم الخاطفة عن اختزالها وتركها على حالها غير متعرض لها بسوء حتى تأتيهم وتصل اليهم سالمة كما ينبىء عنه مابعده من النهى عن التبدل والأكل لا الاعطاء بالفعل فانه مشروط بالبلوغ وإيناس الرشد على ما ينطق به قوله تعالى «حتى اذا بلغوا» الآية وانما عبر عما ذكر بالايتاء مجازا للايذان بأنه ينبغى أن يكون مرادهم بذلك إيصالها اليهم لامجرد ترك التعرض لها فالمراد بهم اما الصغار على ما هو المتبادر والامر خاص بمن يتولى أمرهم من الاولياء والاوصياء. وشمول حكمه لأولياء من كان بالغاً عند نزول الآية بطريق الدلالة دون العبارة. وأما من جرى عليه اليتم فى الجملة مجازا أعم من أن يكون كذلك عند النزول أو بالغاً فالامر شامل لأولياء الفريقين صيغة موجب عليهم ما ذكر من حفظ أموالهم والتحفظ عن اضاعتها مطلقاً . وأما وجوب الدفع الى الكبار فمستفاد مما سيأتى من الامر به. وقيل المراد بهم الصغار وبالايتاء الاعطاء فى الزمان المستقبل وقيل أطلق اسمهم على الكبار بطريق الاتساع لقرب عهدهم باليتم حثاً للاولياء على المسارعة الي دفع أموالهم اليهم أول ما بلغوا قبل أن يزول عنهم اسمهم المعهود فالايتاء بمعنى الاعطاء بالفعل ويأباهما ما سيأتى من قوله تعالى «وابتلوا اليتامى» الخ فان مافيه من الامر بالدفع وارد على وجه التكليف الابتدائى لا على وجه تعيين وقته أو بيان شرطه فقط كما هو مقتضى القولين وأما تعميم الاسم للصغار والكبار مجازا بطريق التغليب مع تعميم الايتاء للايتاء حالا وللايتاء مآلا وتعميم الخطاب لاولياء كلا الفريقين على أن من بلغ منهم فوليه مأمور بالدفع اليه بالفعل وان من لم يبلغ بعد فوليه مأمور بالدفع اليه عند بلوغه رشيدا فمع ماسبق تكلف لايخفى. فالانسب ماتقدم من حمل ايتاء أموالهم اليهم على مايؤدى اليه من ترك التعرض لها بسوء كما يلوح به التعبير عن الاعطاء بالفعل بالدفع سواء أريد باليتامى الصغار أو مايعم الصغار والكبار حسبما ذكر آنفا . وأما ماروى أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له فلما بلغ طلب منه ماله فمنعه فنزلت . فلما سمعها قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فغير

قادح في ذلك لما أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب) نهي عن أخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص بعد النهي الضمني عنه حده على الاطلاق وتبدل الشيء بالشيء واستبداله به أخذ الاول بدل الثاني بعد ان كان حاصلا له أو في شرف الحصول يستعملان أبدا بانضائهما الى الحاصل بانفسهما والي الزائل بالباء كما في قوله تعالى «ومن يتبدل الكفر بالايمان» الخ وقوله تعالى «أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير» وأما التبديل فيستعمل تارة كذلك كما في قوله تعالى «وبدلناهم بجنتيهم جنتين» الخ وأخرى بالعكس كما في قولك: بدلت الحلقة بالخاتم اذا أذبتها وجعلتها خاتما نص عليه الازهري وتارة اخرى بانضائه الى مفعوليه بنفسه كما في قوله تعالى «يبدل الله سيآتهم حسنات» والمراد بالخبيث والطيب ان كان هو الحرام والحلال فالمنهي عنه استبدال مال اليتيم بمال أنفسهم مطلقا كما قاله الفراء والزجاج وقيل معناه لاتذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموالهم فالمنهي عنه أكل ماله مكان مالهم المحقق أو المقدر. وقيل هو اختزال ماله مكان حفظه وأياما كان فانما عبر عنهما بهما تنفيرا عما أخذوه وترغيبا فيما أعطوه وتصويرا لمعاملتهم بصورة مالا يصدر عن العاقل وان كان هو الرديء والجيد فمورد النهي ما كانوا عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم واعطاء الرديء من مال أنفسهم وبه قال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي. وتخصيص هذه المعاملة بالنهي لخروجها مخرج العادة لا لاباحة ماعداها. وأما التعبير عنها بتبديل الخبيث بالطيب مع انها تبديله به أو تبدل الطيب بالخبيث فللايذان بان الاولياء حقهم ان يكونوا في المعاوضات عاملين لليتيم لالانفسهم مراعين لجانبه قاصدين لجلب المجلوب اليه مشترى كان أو ثمنا لالسلب المسلوب عنه (ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم) نهي عن منكر آخر كانوا يتعاطونه أي لا تأكلوها مضمومة الى أموالكم ولاتسووا بينهما وهذا حلال وذاك حرام وقد خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولي فقيرا (انه) أي الاكل المفهوم من النهي (كان حوبا) أي ذنبا عظيما. وقرىء بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوبا وقرىء حابا وهو أيضا مصدر كقال قولا وقال (كبيرا) مبالغة في بيان عظم ذنب الاكل المذكور كأنه قيل من كبار الذنوب العظيمة لا من أفنائها (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى) الاقساط العدل. وقرئ بفتح التاء فقيل هو من قسط أي جار ولا مزيدة كما في قوله تعالى «لئلا يعلم» وقيل هو بمعنى أقسط فان الزجاج حكى أن قسط يستعمل استعمال أقسط. والمراد بالخوف العلم كما في قوله تعالى «فمن خاف من موص جنفا» عبر عنه بذلك ايذانا بكون المعلوم مخوفا محذورا لامعناه الحقيقي لأن الذي علق به الجواب

هو العلم بوقوع الجور المخوف لا الخوف منه وإلا لم يكن الأمر شاملا لمن يصر على الجور ولا يخافه وهذا شروع فى النهى عن منكر آخر كانوا يباشرونه متعلق بانفس اليتامى أصالة وبأموالهم تبعاً عقيب النهى عما يتعلق باموالهم خاصة وتأخيره عنه لقلة وقوع المنهى عنه بالنسبة إلى الأول ونزوله منه بمنزلة المركب من المفرد وذلك أنهم كانوا يتزوجون من يحل لهم من اليتامى اللاتى يلونهن لكن لا لرغبة فيهن بل فى مالهن ويسيئون فى الصحبة والمعاشرة ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن وهذا قول الحسن وقيل هى اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بادنى من سنة نسائها فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن فى اكمال الصداق وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء وهذا قول الزهرى رواية عن عروة عن عائشة رضى الله عنها. وأما اعتبار اجتماع عدد كثير منهن كما أطبق عليه أكثر أهل التفسير حيث قالوا كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال ويكون وليها فيتزوجها ضنا بها عن غيره فربما اجتمعت عنده عشر منهن الخ فلا يساعده الامر بنكاح غيرهن فان المحذور حينئذ يندفع بتقليل عددهن أى وإن خفتم أن لا تعدلوا فى حق اليتامى اذا تزوجتم بهن باساءة العشرة أو بنقص الصداق (فانكحوا ماطاب لكم) ما موصولة أو موصوفة ما بعدها صلتها أو صفتها أوثرت على من ذهابا الي الوصف وايذانا بأنه المقصود بالذات والغالب فى الاعتبار لابناء على أن الأناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء لاخلاله بمقام الترغيب فيهن وقرأ ابن أبى عبلة من طاب ومن فى قوله تعالى (من النساء) بيانية وقيل تبعيضية والمراد بهن غير اليتامى بشهادة قرينة المقام أي فانكحوا من استطابتها نفوسكم من الاجنبيات. وفى ايثار الامر بنكاحهن على النهى عن نكاح اليتامى مع أنه المقصود بالذات مزيد لطف فى استنزالهم عن ذلك فان النفس مجبولة على الحرص على ما منعت عنه كما أن وصف النساء بالطيب على الوجه الذى أشير اليه فيه مبالغة فى الاستمالة اليهن والترغيب فيهن وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى وهو السر فى توجيه النهى الضمنى الى النكاح المترقب مع أن سبب النزول هو النكاح المحقق لما فيه من المسارعة الي دفع الشر قبل وقوعه فرب واقع لا يرفع والمبالغة فى بيان حال النكاح المحقق فان محظورية المترقب حيث كانت للجور المترقب فيه فمحظورية المحقق مع تحقق الجور فيه أولى. وقيل المراد بالطيب الحل أى ما حل لكم شرعا لان ما استطابوه شامل للمحرمات ولا مخصص له بمن عداهن وفيه فرار من محذور ووقوع فيما هو أفظع منه لان ماحل لهم مجمل وقد تقرر أن النص اذا تردد بين الاجمال

والتخصيص يحمل على الثانى لان العام المخصوص حجة فى غير محل التخصيص والمجمل ليس بحجة قبل ورود البيان أصلا ولئن جعل قوله تعالى «حرمت عليكم الخ دالا على التفصيل بناء على ادعاء تقدمه فى التنزيل فليجعل دالا على التخصيص (مثنى وثلاث ورباع) معدولة عن أعداد مكررة غير منصرفة لما فيها من العدلين عدلها عن صيغها وعدلها عن تكررها. وقيل للعدل والصفة فانها بنيت صفات وان لم تكن أصولها كذلك وقرئ وثلث وربع على القصر من ثلاث ورباع ومحلهن النصب على انها حال من فاعل طاب مؤكدة لما أفاده وصف الطيب من الترغيب فيهن والاستمالة اليهن بتوسيع دائرة الاذن أى فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا حسبما تريدون على معنى أن لكل واحد منهم أن يختار أى عدد شاء من الاعداد المذكورة لا أن بعضها لبعض منهم و بعضها لبعض آخر كما فى قولك: اقتسموا هذه البدرة درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أفردت لفهم منه تجويز الجمع بين تلك الاعداد دون التوزيع ولو ذكرت بكلمة أو لفات تجويز الاختلاف فى العدد هذا . وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة لما نزلت الآية فى اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب الكبير أخذ الاولياء يتحرجون من ولايتهم خوفا من لحوق الحوب بترك الاقساط مع انهم كانوا لا يتحرجون من ترك العدل فى حقوق النساء حيث كان تحت الرجل منهم عشر منهن فقيل لهم ان خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات لان من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب عنه وقيل كانوا لا يتحرجون من الزنا وهم يتحرجون من ولاية اليتامى فقيل ان خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنا فانكحوا ما حل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات ولا يخفى أنه لا يساعدهما جزالة النظم الكريم لابتنائها على تقدم نزول الآية الاولى وشيوعها بين الناس مع ظهور توقف حكمها على ما بعدها من قوله تعالى «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الى قوله تعالى وكفى بالله حسيبا» (فان خفتم أن لا تعدلوا) أى فيما بينهن ولو فى أقل الاعداد المذكورة كما خفتموه فى حق اليتامى أوكما تعدلوا فى حقهن أوكما لم تعدلوا فيما فوق هذه الاعداد (فواحدة) أي فالزموا أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع بالكلية. وقرىء بالرفع أى فالمقنع واحدة أو فحسبكم واحدة (أوما ملكت أيمانكم) أى من السرارى بالغة ما بلغت من مراتب العدد وهو عطف على واحدة على أن اللزوم والاختيار فيه بطريق التسرى لا بطريق النكاح كما فيما عطف عليه لاستلزامه

ورود ملك النكاح على ملك اليمين بموجب اتحاد المخاطبين فى الموضعين بخلاف ما سيأتى من قوله تعالى «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم» فان المأمور بالنكاح هنا غير المخاطبين بملك اليمين وانما سوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين السرارى من غير حصر فى عدد لقلة تبعتهن وخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم فيهن وقرىء أو من ملكت أيمانكم وما فى القراءة المشهورة للايذان بقصور رتبهن عن رتبة العقلاء (ذلك) اشارة الى اختيار الواحدة والتسرى (أدنى أن لاتعولوا) العول الميل من قولهم عال الميزان عولا اذا مال وعال فى الحكم أى جار والمراد هنا الميل المحظور المقابل للعدل أى ماذكر من اختيار الواحدة والتسرى أقرب بالنسبة الى ماعداهما من أن لاتميلوا ميلا محظوراً لانتفائه رأساً بانتفاء محله فى الأول وانتفاء خطره فى الثانى بخلاف اختيار العدد فى المهائر فان الميل المحظور متوقع فيه لتحقق المحل والخطر ومن ههنا تبين أن مدار الامر هو عدم العول لا تحقق العدل كما قيل. وقد فسر بأن لايكثر عيالكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم أى مانهم فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤنة على طريقة الكناية ويؤيده قراءة أن لاتعيلوا من أعال الرجل اذا كثر عياله ووجه كون التسرى مظنة قلة العيال مع جواز الاستكثار من السرارى أنه يجوز العزل عنهن بغير رضاهن ولا كذلك المهائر والجملة مستأنفة جارية مما قبلها مجرى التعليل (وآتوا النساء) أى اللاتى أمر بنكاحهن (صدقاتهن) جمع صدقة كسمرة وهى المهر وقرىء بسكون الدال على التخفيف وبضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة كغرفة وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدقة وكظلمة فى ظلمة (نحلة) قال ابن عباس وقتادة وابن جريج وابن زيد فريضة من الله تعالى لانها مما فرضه الله فى النحلة أى الملة والشرعة والديانة فانتصابها على الحالية من الصدقات أى أعطوهن مهورهن حال كونها فريضة منه تعالى وقال الزجاج تدينا فانتصابها على أنها مفعول له أى أعطوهن ديانة وشرعة وقال الكلبى نحلة أى هبة وعطية من الله تعالى وتفضلا منه عليهن فانتصابه على الحالية منها أيضاً وقيل عطية من جهة الازواج من نحله كذا اذا أعطاه اياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلا. والتعبير عن ايتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الازواج لافادة معنى الايتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر وانتصابها على المصدرية لان الايتاء والنحلة بمعنى الاعطاء كأنه قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أى أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم أو على الحالية من ضمير آتوا

أي آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبي النفوس بالاعطاء أو من الصدقات أى منحولة معطاة عن طيبة الانفس فالخطاب للأزواج وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم وكانوا يقولون هنيئاً لك النافجة لمن يولد له بنت يعنون تأخذ مهرها فتنفج به مالك أي تعظمه (فان طبن لكم عن شيء منه) الضمير للصدقات وتذكيره لاجرائه مجرى ذلك فانه قد يشار به الى المتعدد كما فى قوله عز وجل «قل أؤنبئكم بخير من ذلكم» بعد ذكر الشهوات المعدودة وقد روى عن رؤبة انه حين قيل له فى قوله:

فيها خطوط من سواد وبلق ‍ ‍ كأنه فى الجلد توليع البهق

ان أردت الخطوط ينبغي أن تقول كأنها وان أردت السواد والبلق ينبغي أن تقول كأنهما قال لكني أردت كأن ذلك أو للصداق الواقع موقعه صدقاتهن كأنه قيل وآتوا النساء صداقهن كما فى قوله تعالى «فأصدق وأكن» حيث عطف أكن على مادل عليه المذكور ووقع موقعه كأنه قيل أن أخرتني أصدق وأكن. واللام متعلقة بالفعل وكذا عن لكن بتضمينه معنى التجافى والتجاوز ومن متعلقه بمحذوف وقع صفة لشيء أى كائن من الصداق وفيه بعث لهن على تقليل الموهوب (نفساً) تمييز والتوحيد لما أن المقصود بيان الجنس أي أن وهبن لكم شيئاً من الصداق متجافياً عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن الى البذل من شكاشة أخلاقكم وسوء معاشرتكم لكن عدل عن لفظ الهبة والسماحة الى ماعليه النظم الكريم إيذاناً بأن العمدة فى الامر انما هو طيب النفس وتجافيها عن الموهوب بالمرة (فكلوه) أى فخذوا ذلك الشيء الذى طابت به نفوسهن وتصرفوا فيه تملكا وتخصيص الاكل بالذكر لانه معظم وجوه التصرفات المالية (هنيئاً مريئاً) صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ اذا كان سائغاً لاتنغيص فيه وقيل الهيء الذى يلذه الآكل والمريء ماتحمد عاقبته وقيل ماينساغ فى مجراه الذى هو المريء وهو مابين الحلقوم الى فم المعدة سمى بذلك لمروء الطعام فيه أي انسياغه ونصبهما على أنهما صفتان للمصدر أى أكلا هنيئا مريئا أوعلى أنهما حالان من الضمير المنصوب أى كلوه وهو هنيء مريء وقد يوقف على كلوه ويبتدأ هنيئا مريئا على الدعاء وعلى انهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين كأنه قيل هنأ مرأ وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة فى الاباحة وازالة التبعة روى أن ناسا كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئا مماساقه اليها فنزلت (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) رجوع الى بيان بقية الاحكام المتعلقة بأموال اليتامى وتفصيل ما أجمل فيما سبق من شرط إيتائها ووقته وكيفيته أثر بيان بعض الاحكام المتعلقة بأنفسهن أعني نكاحهن وبيان بعض الحقوق المتعلقة بغيرهن من الاجنبيات من حيث

النفس ومن حيث المال استطرادا والخطاب للاولياء نهوا أن يؤتوا المبذرين من اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها. وانما أضيفت اليهم وهى لليتامى لانظرا الى كونها تحت ولايتهم كما قيل فانه غير مصحح لاتصافها بالوصف الآتى بل تنزيلا لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالاولياء فكأن أموالهم عين أموالهم لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجنسي والنسبي مبالغة فى حملهم على المحافظة عليها كما فى قوله تعالى «ولاتقتلوا أنفسكم» أى لايقتل بعضكم بعضاً حيث عبر عن بني نوعهم بأنفسهم مبالغة فى زجرهم عن قتلهم فكأن قتلهم قتل أنفسهم وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها مناطاً لمعاش أصحابها بجعلها مناطاً لمعاش الاولياء فقيل (التي جعل الله لكم قياما) أي جعلها الله شيئاً تقومون به وتنتعشون على حذف المفعول الاول فلو ضيعتموه لضعتم ثم زيد فى المبالغة حتى جعل ما به القيام قياما فكأنها فى أنفسهم قيامكم وانتعاشكم وقيل إنما أضيفت الى الاولياء لانها من جنس ما يقيم به الناس معايشهم حيث لم يقصد بها الخصوصية الشخصية بل الجنسية التى هى معنى ما يقام به المعاش وتميل اليه القلوب ويدخر لاوقات الاحتياج وهى بهذا الاعتبار لا تختص باليتامى وأنت خبير بان ذلك بمعزل من حمل الاولياء على المحافظة المذكورة كيف لا والوحدة الجنسية المالية ليست مختصة بما بين أموال اليتامى وأموال الاولياء بل هى متحققة بين أموالهم وأموال الاجانب فاذن لا وجه لاعتبارها أصلا. وقرىء اللاتى واللواتى وقرىء قيما بمعنى قياما كما جاء عوذا بمعنى عياذا وقرىء قواما بكسر القاف وهو ما يقام به الشيء أو مصدر قاوم وقرىء بفتحها (وارزقوهم فيها واكسوهم) أى واجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم بان تتجروا وتتربحوا حتى تكون نفقاتهم من الارباح لا من صلب المال وقيل الخطاب لكل أحد كائنا من كان والمراد نهيه عن أن يفوض أمر ماله الى من لا رشد له من نسائه وأولاده ووكلائه وغير ذلك ولا يخفى أن ذلك مخل بجزالة النظم الكريم (وقولوا لهم قولا معروفا) أى كلاما لينا تطيب به نفوسهم وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج عدوهم عدة جميلة بان تقولوا اذا صلحتم ورشدتم سلمنا اليكم أموالكم وكل ما سكنت اليه النفس لحسنه شرعا أو عقلا من قول أو عمل فهو معروف وما انكرته لقبحه شرعا أو عقلا فهو منكر (وابتلوا اليتامى) شروع فى تعيين وقت تسليم أموال اليتامى اليهم وبيان شرطه بعد الامر بايتائها على الاطلاق والنهى عنه عند كون أصحابها سفهاء أى واختبروا من ليس منهم بين السفه قبل البلوغ بتتبع أحوالهم فى صلاح الدين والاهتداء الى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بما يليق بحالهم فان كانوا من أهل التجارة فبأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعا وابتياعا

وان كانوا ممن له ضياع وأهل وخدم فبان تعطوهم منه ما يصرفونه الى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم وسائر مصارفهم حتى تتبين لكم كيفية أحوالهم (حتى اذا بلغوا النكاح) بان يحتلموا لانهم يصلحون عنده للنكاح (فان آنستم) أى شاهدتم وتبينتم وقرىء أحستم بمعنى أحسستم كما فى قول من قال:

خلا ان العتاق من المطايا ... أحس به وهن اليه شوس

(منهم رشدا) أى اهتداء الى وجوه التصرفات من غير عجز وتبذير. وتقديم الجار والمجرور على المفعول للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو للاعتداد بمبدئيته له والتنوين للدلالة على كفاية رشد فى الجملة. وقرىء بفتح الراء والشين وبضمها (فادفعوا اليهم أموالهم) من غير تأخير عن حد البلوغ وفى ايثار الدفع على الايتاء الوارد فى أول الامر ايذان بتفاوتهما بحسب المعنى كما أشير اليه فيما سلف ونظم الآية الكريمة أن حتى هى التى تقع بعدها الجمل كالتى فى قوله:

فما زالت القتلى تمج دماءها ... بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وما بعدها جملة شرطية جعلت غاية للابتلاء وفعل الشرط بلغوا وجوابه الشرطية الثانية كانه قيل وابتلوا اليتامى الى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم اليهم بشرط ايناس الرشد منهم. وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد إما بالتبذير أو بالعجز لا يدفع اليه ماله أبدا وبه أخذ أبو يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة ينتظر الى خمس وعشرين سنة لان البلوغ بالسن ثمانى عشرة سنة فاذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الانسان لما قاله عليه الصلاة والسلام «مروهم بالصلاة لسبع» دفع اليه ماله أو أنس منه رشد أو لم يؤنس (ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا) أي مسرفين ومبادرين كبرهم أو لاسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون فى انفاقها وتقولون ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا والجملة تأكيد للامر بالدفع وتقرير لها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى (ومن كان غنيا فليستعفف) الخ أى من كان من الاولياء والاوصياء غنيا فليتنزه عن أكلها وليقنع بما أتاه الله تعالى من الغنى والرزق اشفاقا على اليتيم وابقاء على ماله (ومن كان) من الاولياء والاوصياء (فقيرا فليأكل بالمعروف) بقدر حاجته الضرورية وأجرة سعيه وخدمته. وفى لفظ الاستعفاف والاكل بالمعروف ما يدل على أن للوصى حقا لقيامه عليها عن النبى عليه الصلاة والسلام ان رجلا قال له أن فى حجرى يتيما أفآكل من ماله قال «بالمعروف غير متأثل مالا ولا واق مالك بماله» وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ولى يتيم قال

له أفأشرب من لبن ابلهقال «ان كنت تبغي ضالتها و تلوط حرضها و تهنأ جرباها و تسقيها يوم و ردها فاشرب غير مضر بنسل و لا ناهك فى الحلب» وعن محمد بن كعب يتقرم كما تتقرم البهيمة و ينزل نفسه منزلة الاجير فيما لابد منه وعن الشعبى يأكل من ماله بقدر مايعين فيه و عنه كالميتة يتناول عند الضرورة و يقضى وعن مجاهد يستسلف فاذا أيسر أدى وعن سعيد بن جبيران شاء شرب فضل اللبن و ركب الظهر و لبس مايستره من الثياب و أخذ القوت ولايجاوزه فان أيسر قضاه و ان أعسر فهو فى حل و عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انى أنزلت نفسى من مال الله تعالى منزلة ولي اليتيم ان استغنيت استعففت و ان افتقرت أكلت بالمعروف و اذا أيسرت قضيته واستعف أبلغ من عف كانه يطلب زيادة العفة (فاذا دفعتم اليهم أموالهم) بعد ما ما راعيتم الشرائط المذكورة و تقديم الجار و المجرور على المفعول الصريح للاهتمام به (فأشهدوا عليهم) بأنهم تسلموها وقبضوها و برئت عنها ذمتكم لما أن ذلك أبعد من التهمة و أنفى للخصومة و أدخل فى الامانة و براءة الساحة و ان لم يكن ذلك واجبا عند أصحابنا فان الوصى مصدق فى الدفع مع اليمين خلافا لمالك و الشافعى رحمهما الله (وكفى بالله حسيبا) أى محاسبا فلا تخالفوا ماأمركم به ولاتجاوزوا ماحدلكم (للرجال نصيب مماترك الوالدان و الاقربون) شروع فى بيان أحكام المواريث بعد بيان أحكام أموال اليتامى المنتقلة اليهم بالارث والمراد بالاقربين المتوارثون منهم و من فى مما متعلقة بمحذوف وقع صفة لنصيب اى لهم نصيب كائن مما ترك و قد جوز تعلقها بنصيب (و للنساء نصيب مماترك الوالدان والاقربون) ايراد حكمهن على الاستقلال دون الدرج فى تضاعيف أحكامهم بان يقال للرجال والنساء الخ للاعتناء بأمرهن والايذان باصالتهن فى استحقاق الارث والاشارة من أول الامر الى تفاوت ما بين نصيبى الفريقين والمبالغة فى ابطال حكم الجاهلية فانهم ما كانوا يورثون النساء و الاطفال ويقولون انما يرث من يحارب و يذب عن الحوزة روى أن أوس بن ثابت الانصاري خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة أو قتادة و عرفجة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية فجاءت أم كحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت اليه فقال ارجعى حتى أنظر ما يحدثه الله تعالى فنزلت فأرسل اليهما «ان الله قد جعل لهن نصيبا ولم يبين فلاتفرقا من مال أوس شيئا حتي يبين فنزل يوصيكم الله الخ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى لابنى العم و هو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب و قوله تعالى (مما قل منه أو كثر)

بدل من ما الاخيرة باعادة الجار واليها يعود الضمير المجرور وهذا البدل مراد فى الجملة الاولى أيضا محذوف للتعويل على المذكور وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الاموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال وتحقيق أن لكل من الفريقين حقاً من كل ماجل ودق (نصيبا مفروضا) نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى «فريضة من الله» كأنه قيل قسمة مفروضة أو على الحالية اذ المعنى ثبت لهم نصيب كائن مما ترك الوالدان والاقربون حال كونه مفروضاً أو على الاختصاص أى أعنى نصيباً مقطوعا مفروضاً واجبا لهم وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه (واذا حضر القسمة) أي قسمة التركة وانما قدمت مع كونها مفعولا لانها المبحوث عنها ولان فى الفاعل تعددا فلو روعى الترتيب يفوت تجاوب أطراف الكلام (أولو القربى) ممن لا يرث (واليتامى والمساكين) من الاجانب (فارزقوهم منه) أى اعطوهم شيئا من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة. وقيل الضمير لما وهو أمر ندب كلف به البالغون من الورثة تطييبا لقلوب الطوائف المذكورة وتصدقا عليهم وقيل أمر وجوب ثم اختلف فى نسخه (وقولوا لهم قولا معروفا وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ويعتذروا من ذلك ولا يمنوا عليهم (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) أمر للاوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم أو لمن حضر المريض من العواد عند الايصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضر بهم بصرف المال عنهم أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الاقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافا مثلهم هل يجوزون حرمانهم. أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا فى الوصية ولو بما فى حيزها صلة الذين على معنى وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ورثة ضعافا خافوا عليهم الضياع. وفى ترتيب الامر عليه اشارة الي المقصود منه والعلة فيه وبعث على الترحم وأن يحب لاولاد غيره ما يحب لأولاد نفسه وتهديد للمخالف بحال أولاده وقرئ ضعفاء وضعافى وضعافى (فليتقوا الله) فى ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها (وليقولوا قولا سديدا) أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعدما أمرهم مراعاة للمبدأ والمنتهى اذ لانفع للاول بدون الثانى ثم أمرهم بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لاولادهم بالشفقة وحسن الادب أو للمريض ما يصده عن الاسراف فى الوصية وتضييع الورثة ويذكره التوبة وكلمة الشهادة

أو لحاضرى القسمة عذرا ووعدا حسنا أو يقولوا فى الوصية مالا يؤدى الى تجاوز الثلث وقوله تعالى (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) أى على وجه الظلم أو ظالمين استئناف جيء به لتقرير مضمون ما فصل من الاوامر والنواهى (انما يأكلون فى بطونهم) أي ملء بطونهم (نارا) أى ما يجر الى النار ويؤدي اليها وعن أبى بردة أنه صلى الله عليه وسلم قال «يبعث الله تعالى قوما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا فقيل من هم فقال عليه السلام ألم تر أن الله يقول أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا» (وسيصلون سعيرا) أى سيدخلون نارا هائلة مبهمة الوصف. وقريء بضم الياء مخففا ومشددا من الاصلاء والتصلية يقال: صلى النار قاسى حرها وصليته شويته وأصليته وصليته القيته فيها. والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار اذا ألهبته روى أن آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينه فيعرف الناس انه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا وروي انه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلية فصعب الامر على اليتامى فنزل قوله تعالى «وان تخالطوهم» الآية (يوصيكم الله) شروع فى تفصيل أحكام المواريث المجملة فى قوله تعالى «للرجال نصيب» الخ واقسام الورثة ثلاثة. قسم لا يسقط بحال وهم الآباء والاولاد والازواج فهؤلاء قسمان والثالث الكلالة أي يأمركم ويعهد أليكم (فى أولادكم) أولاد كل واحد منكم أى فى شأن ميراثهم بدىء بهم لانهم أقرب الورثة الى الميت وأكثرهم بقاء بعد الموت (للذكر مثل حظ الأنثيين) جملة مستأنفة جيء بها لتبيين الوصية وتفسيرها. وقيل محلها النصب بيوصيكم على أن المعنى يفرض عليكم ويشرع لكم هذا الحكم وهذا قريب مما رآه الفراء فانه يجرى ما كان بمعنى القول من الافعال مجراه فى حكاية الجملة بعده ونظيره قوله تعالى «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة» الاية وقوله تعالى للذكر لابد له من ضمير عائد الى الاولاد محذوف ثقة بظهوره كما فى قولهم: السمن منوان بدرهم أى للذكر منهم. وقيل الالف واللام قائم مقامه والاصل لذكرهم ومثل صفة لموصوف محذوف أي للذكر منهم حظ مثل حظ الانثيين والبداءة ببيان حكم الذكر لاظهار مزيته على الانثى كما انها المناط فى تضعيف حظه. وايثار اسمى الذكر والانثى على ماذكر أولا من الرجال والنساء للتنصيص على استواء الكبار والصغار من الفريقين فى الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر أصلا كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الاطفال كالنساء (فان كن) أى الاولاد والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى (نساء) أي خلصا ليس

معهن ذكر فوق اثنتين خبر ثان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين (فلهن ثلثا ماترك) أى المتوفى المدلول عليه بقرينة المقام (وان كانت) أي المولودة (واحدة) أى امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت وعدم التعرض للموصوف لظهوره مما سبق (فلها النصف) مما ترك. وقرئ واحدة على كان التامة واختلف فى الثنتين فقال ابن عباس حكمهما حكم الواحدة لانه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما. وقال الجمهور حكمهما حكم ما فوقهما لانه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الانثيين اذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى «فان كن نساء فوق اثنتين» ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها الاقوى منها فى الاستحقاق فلان تستحقه مع مثلها أولى وأحرى وأن البنتين أمس رحما من الاختين وقد فرض الله لها الثلثين حيث قال تعالى فلهما الثلثان مما ترك (ولأبويه) أى لابوى الميت. غير النظم الكريم لعدم اختصاص حكمه بما قبله من الصور (لكل واحد منهما) بدل منه بتكرير العامل وسط بين المبتدا الذى هو قوله تعالى (السدس) وبين خبره الذى هو لابويه ونقل الخبرية اليه تنصيصاً على استحقاق كل منهما السدس وتأكيداً له بالتفصيل بعد الاجمال وقرئ السدس بسكون الدال تخفيفاً وكذلك الثلث والربع والثمن (مما ترك) متعلق بمحذوف وقع حالا من السدس والعامل الاستقرار المعتبر فى الخبر أى كائنا مما ترك المتوفى (ان كان له ولد) أو ولد ابن ذكراً كان أو أنثى واحداً أو متعدداً غير أن الأب فى صورة الانوثة بعدما أخذ فرضه المذكور يأخذ ما بقى من ذوى الفروض بالعصوبة (فان لم يكن له ولد) ولا ولد ابن (وورثه أبواه) فحسب (فلامه الثلث) مما ترك والباقى للاب وانما لم يذكر لعدم الحاجة اليه لانه لما فرض انحصار الوارث فى أبويه وعين نصيب الام علم أن الباقى للاب وتخصيص جانب الام بالذكر واحالة جانب الاب على دلالة الحال مع حصول البيان بالعكس أيضا لما أن حظها أخصر واستحقاقه أتم وأوفر أو لأن استحقاقه بطريق العصوبة دون الفرض هذا اذا لم يكن معهما أحد الزوجين أما اذا كان معهما ذلك فللام ثلث ما بقى بعد فرض أحدهما لاثلث الكل كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما فانه يفضى الى تفضيل الام على الاب مع كونه أقوى منها فى الارث بدليل اضعافه عليها عند انفرادهما عن أحد الزوجين وكونه صاحب فرض وعصبة وذلك خلاف وضع الشرع (فان كان له أخوة) أى عدد ممن له اخوة من غير اعتبار التثليث سواء كانت من جهة الابوين أو من جهة أحدهما وسواء كانوا

ذكورا أو أناثا أو مختلطين وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالاب (فلامه السدس) وأما السدس الذى حجبوها عنه فهو للاب عند وجوده ولهم عند عدمه وعليه الجمهور وعند ابن عباس رضى الله عنهما أنه لهم على كل حال خلا أن هذا الحجب عنده لا يتحقق بمادون الثلاث، بالاخوات الخلص . وقرئ فلامه بكسر الهمزة اتباعا لما قبلها (من بعد وصية) خبر مبتدا محذوف والجملة متعلقة بما تقدم جميعا لا بما يليها وحده أى هذه الانصباء للورثة من بعد اخراج وصية (يوصى بها) أى الميت وقرئ مبنيا للمفعول مخففا ومبنيا للفاعل مشددا وفائدة الوصف الترغيب فى الوصية والندب اليها (أودين) عطف على وصية الا أنه غير مقيد بما قيدت به من الوصف بل هو مطلق يتناول ماثبت بالبينة أو الاقرار فى الصحة وايثار أو المفيدة للاباحة على الواو للدلالة على تساويهما فى الوجوب وتقدمهما على القسمة مجموعين أو منفردين وتقديم الوصية على الدين ذكرا مع تأخرها عنه حكما لاظهار كمال العناية بتنفيذها لكونها مظنة للتفريط فى أدائها ولاطرادها بخلاف الدين (آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا) الخطاب للورثة فآباؤكم مبتدا وأبناؤكم عطف عليه ولا تدرون خبره وأيهم مبتدا وأقرب خبره ونفعا نصب على التمييز منه وهو منقول من الفاعلية كأنه قيل أيهم أقرب لكم نفعه والجملة فى حيز النصب بلا تدرون. والجملة الكبيرة اعتراضية مؤكدة لوجوب تنفيذ الوصية أى أصولكم وفروعكم الذين يتوفون لاتدرون أيهم أنفع لكم أمن يوصى ببعض ماله فيعرضكم لثواب الآخرة بتنفيذ وصيته أم من لايوصى بشيء فيوفر عليكم عرض الدنيا . وليس المراد بنفى الدراية عنهم بيان اشتباه الامر عليهم وكون أنفعية كل من الاول والثانى فى حيز الاحتمال عندهم من غير رجحان أحدهما على الآخر كما فى قوله عليه الصلاة والسلام «مثل أمتى مثل المطر لايدرى أوله خير أم آخره» فان ذلك بمعزل من افادة التأكيد المذكور والترغيب فى تنفيذ الوصية بل تحقيق أنفعية الاول فى ضمن التعريض بان لهم اعتقادا بانفعية الثانى مبنيا على عدم الدراية وقد أشير الى ذلك حيث عبر عن الانفعية باقربية النفع تذكيرا لمناط زعمهم وتعيينا لمنشأ خطئهم ومبالغة فى الترغيب المذكور بتصوير الثواب الآجل بصورة العاجل لما أن الطباع مجبولة على حب الخير الحاضر كأنه قيل لا تدرون أيهم أنفع لكم فتحكمون نظرا الى ظاهر الحال وقرب المنال بأنفعية الثانى مع أن الامر بخلافه فان ثواب الآخرة لتحقق وصوله الى صاحبه ودوام تمتعه به مع غاية قصر مدة مابينهما من الحياة الدنيا أقرب وأحضر وعرض الدنيا لسرعة نفاده وفنائه أبعد وأقصر .وقيل الخطاب للمورثين والمعنى لاتعلمون

من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم عاجلا وآجلا فتحروا فى شأنهم ما أوصاكم الله تعالى به ولا تعمدوا الى تفضيل بعض وحرمان بعض . روى أن أحد المتوالدين اذا كان أرفع درجة من الآخر فى الجنة سأل الله تعالى أن يرفع اليه صاحبه فيرفع اليه بشفاعته قيل فالجملة الاعتراضية حينئذ مؤكدة لامر القسمة وأنت خبير بأنه مشعر بان مدار الارث ماذكر من أقربية النفع مع أنه العلاقة النسبية (فريضة من الله) نصبت نصب مصدر مؤكد لفعل محذوف أي فرض الله ذلك فرضا أو لقوله تعالى «يوصيكم الله» فانه فى معنى يأمركم ويفرض عليكم (ان الله كان عليما) أي بالمصالح والرتب (حكيما) فى كل ما قضى وقدر فيدخل فيه الاحكام المذكورة دخولا أوليا (ولكم نصف ما ترك أزواجكم) من المال شروع فى بيان أحكام القسم الثانى من الورثة ووجه تقديم حكم ميراث الرجال مما لا حاجة الى ذكره (ان لم يكن لهن ولد) أى ولد وارث من بطنها أو من صلب بنيها أو بنى بنيها وان سفل ذكرا كان أو أنثى واحدا كان أو متعددا لان لفظ الولد ينتظم الجميع منكم أو من غيركم والباقى لورثتهن من ذوى الفروض والعصبات أو غيرهم ولبيت المال ان لم يكن لهن وارث آخر أصلا (فان كان لهن ولد) على نحو ما فصل والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ذكر تقدير عدم الولد وبيان حكمه مستتبع لتقدير وجوده وبيان حكمه (فلكم الربع) مما تركن من المال والباقى لباقى الورثة (من بعد وصية) متعلق بكلتا الصورتين لا بما يليه وحده (يوصين بها) فى محل الجر على أنه صفة لوصية وفائدتها مامر من ترغيب الميت فى الوصية وحث الورثة على تنفيذها (أو دين) عطف على وصية سواء كان ثبوته بالبينة أو بالاقرار وايثار أو على الواو لما مر من الدلالة على تساويهما فى الوجوب والتقدم على القسمة وكذا تقديم الوصية على الدين ذكرا لما ذكر من ابراز كمال العناية بتنفيذها (ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد) على التفصيل المذكور آنفا والباقى لبقية ورثتكم من أصحاب الفروض والعصبات أو ذوى الارحام أو لبيت المال ان لم يكن لكم وارث آخر أصلا (فان كان لكم ولد)) على النحو الذى فصل (فلهن الثمن مما تركتم) من المال والباقى للباقين (من بعد وصية توصون بها أو دين) الكلام فيه كما فى فصل فى نظيريه فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما فرض للمرأة كما فى النسب لمزيته عليها وشرفه الظاهر ولذلك اختص بتشريف الخطاب وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا فى الجهة والقرب ولا يستثني منه الا أولاد الام والمعتق والمعتقة وتستوي الواحدة والعدد منهن فى الربع والثمن (وان كان رجل) شروع فى بيان

أحكام القسم الثالث من الورثة المحتمل للسقوط ووجه تأخيره عن الأولين بين والمراد بالرجل الميت وقوله تعالى (يورث) على البناء للمفعول من ورث لامن أورث خبر كان أى يورث منه (كلالة) الكلالة فى الاصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الاعياء استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد لضعفها بالاضافة الى قرابتهما وتطلق على من لم يخلف ولداً ولا والداً وعلى من ليس بوالد ولا ولد من المخلفين بمعنى ذي كلالة كما تطلق القرابة على ذوى القرابة وقد جوزكونها صفة كالهجاجة والفقاقة للاحمق فنصبها اما على أنها مفعول له أى يورث منه لاجل القرابة المذكورة أو على أنها حال من ضمير يورث أى حال كونه ذا كلالة أو على أنها خبر لكان يورث صفة لرجل أى ان كان رجل موروث ذا كلالة ليس له والدولا ولد. وقرئ يورث على البناء للفاعل مخففاً ومشدداً فانتصاب كلالة اما على أنها حال من ضمير الفعل والمفعول محذوف أى يورث وارثه حال كونه ذا كلالة واما على أنها مفعول به أى يورث ذا كلالة . واما على انه مفعول له أى يورث لاجل الكلالة (أو امرأة) عطف على رجل مقيد بما قيد به اى أو امرأة تورث كذلك ولعل فصل ذكرها عن ذكره للايذان بشرفه وأصالته فى الاحكام (وله) أى للرجل ففيه تأكيد للايذان المذكور حيث لم يتعرض لها بعد جريان ذكرها أيضا وقيل الضمير لكل منهما (أخ أو أخت) أى من الأم فحسب وقد قرئ كذلك فان أحكام بنى الأعيان والعلات هى التي ذكرت فى آخر السورة الكريمة والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير يورث أو من رجل على تقدير ون يورث صفة له ومساقها لتصوير المسئلة. وذكر الكلالة لتحقيق جريان الحكم المذكور وان كان مع من ذكر ورثة أخري بطريق الكلالة وأما جريانه فى صورة وجود الام أو الجدة مع أن قرابتهما ليست بطريق الكلالة فبالاجماع (فلكل واحد منهما) من الاخ والاخت (السدس) من غير تفضيل للذكر على الانثى لان الادلاء الى الميت بمحض الانوثة (فان كانوا أكثر من ذلك) أي أكثر من الاخ أو الاخت المنفردين بواحد أو بأكثر والفاء لما مر من أن ذكر احتمال الانفراد مستتبع لذكر احتمال التعدد (فهم شركاء فى الثلث) يقتسمونه بالسوية والباقى لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات هذا. وأما تجويز أن يكون يورث فى القراءة المشهورة مبنيا للمفعول من أورث على أن المراد به الوارث والمعنى وان كان رجل يجعل وارثا لأجل الكلالة أوذا كلالة أي غير والد أو ولد ولذلك الوارث أخ أو أخت فلكل واحد من ذلك الوارث وأخيه أو

أخته السدس فان كانوا أكثر من ذلك أى من الاثنين بأن كانوا ثلاثة أو أكثر فهم شركاء فى الثلث الموزع للاثنين لا يزاد عليه شيء فبمعزل من السداد . أما أولا فلان المعتبر على ذلك التقدير انما هى الاخوة بين الوارث وبين شريكه فى الارث من أخيه أو أخته لا ما بينه وبين مورثه من الأخوة التي عليها يترتب حكم الارث وبها يتم تصوير المسئلة وانما المعتبر بينهما الوراثة بطريق الكلالة وهى عامة لجميع صور القرابات التي لا تكون بالولادة فلا يكون نصيبه ولا نصيب شريكه مما ذكر بعينه ومن ادعى اختصاصها بالاخوة لام متمسكا بالاجماع على أن المراد بالكلالة ههنا أولاد الأم فقد اعترف ببطلان رأيه من حيث لا يحتسب كيف لا ومبناه انما هو الاجماع على أن المراد بالاخوة فى قوله تعالى وله أخ أو أخت هو الاخوة لأم خاصة حسبما شهدت به القراءة المحكية والآية الآتية فى آخر السورة الكريمة ولولا أن الرجل عبارة عن الميت والاخوة معتبرة بينه وبين ورثته لما أمكن كون الكل أولاد الام . ثم ان الكلالة كما نبهت عليه باقية على اطلاقها ليس فيها شائبة اختصاص بأولاد الام . فضلا عن الاجماع على ذلك والا لاقتصر البيان على حكم صورة انحصار الورثة فيهم وأنما الاجماع فيما ذكر من أن المراد بالاخ والاخت من كان لام خاصة وأنت خبير بأن ذلك فى قوة الاجماع على أن يورث من ورث لا من أورث فتدبر . وأما ثانيا فلانه يقتضى أن يكون المعتبر فى استحقاق الورثة فى الفرض المذكور اخوة بعضهم لبعض من جهة الام فقط لما ذكر من الاجماع مع ثبوت الاستحقاق على تقدير الاخوة من الجهتين . وأما ثالثا فلأن حكم صورة انفراد الوارث عن الاخ والاخت يبقى حينئذ غير مبين وليس من ضرورة كون حظ كل منهما السدس عند الاجماع كونه كذلك عند الانفراد ألا يرى أن حظ كل من الاختين الثلث عند الاجتماع والنصف عند الانفراد . واما رابعا فلان تخصيص أحد الورثة بالتوريث وجعل غيره تبعا له فيه مع اتحاد الكل فى الادلاء الى المورث مما لا عهد به (من بعد وصية يوصى بها أو دين) الكلام فيه كالذى مر فى نظائره خلا أن الدين ههنا موصوف بوصف الوصية جريا على قاعدة تقييد المعطوف بما قيد به المعطوف عليه لاتفاق الجمهور على اعتبار عدم المضارة فيه أيضا وذلك انما يتحقق فيما يكون ثبوته بالاقرار فى المرض كانه قيل أو دين يوصى به (غير مضار) حال من فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور وما حذف من المعطوف اعتمادا عليه كما أن رجال فى قوله تعالى «يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال» على قراءة المبنى للمفعول فاعل لفعل ينبىء عنه المذكور ومن فاعل الفعل المذكور والمحذوف اكتفاء به على قراءة البناء

للفاعل أي يوصى بما ذكر من الوصية والدين حال كونه غير مضار للورثة أى بأن يوصى بما زاد على الثلث أو تكون الوصية لقصد الاضرار بهم دون القربة وبأن يقر فى المرض بدين كاذبا وتخصيص هذا القيد بهذ المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم (وصية من الله) مصدر مؤكد لفعل محذوف وتنوينه للتفخيم ومن متعلقة بمضمر وقع صفة له مؤكدة لفخامته الذاتية بالفخامة الاضافية أى يوصيكم بذلك وصية كائنة من الله كقوله تعالى «فريضة من الله» ولعل السر فى تخصيص كل منهما بمحله الاشعار بما بين الاحكام المتعلقة بغيرهم من التفاوت حسب تفاوت الفريضة والوصية وان كانت كلتاهما واجبة المراعاة او منصوب بغير مضار على أنه مفعول به فانه اسم فاعل معتمد على ذي الحال أو منفى معنى فيعمل فى المفعول الصريح . ويعضده القراءة بالاضافة أى غير مضار لوصية الله وعهده لا فى شأن الاولاد فقط كما قيل اذ لا تعلق لهم بالمقام بل فى شأن الورثة المذكورة ههنا فان الاحكام المفصلة كلها مندرجة تحت قوله تعالى يوصيكم الله جارية مجرى تفسيره وبيانه ومضارتها الاخلال بحقوقهم ونقصها بما ذكر من الوصية بما زاد على الثلث والوصية لقصد الاضرار دون القربة والاقرار بالدين كاذبا وايقاعها على الوصية مع أنها واقعة على الورثة حقيقة كما فى قوله :

يا سارق الليلة أهل الدار ۞ للمبالغة فى الزجر عنها بأخراجها مخرج مضارة امر الله تعالى ومضادته وجعل الوصية عبارة عن الوصية بالثلث فما دونه يقتضى ان يكون غير مضار حالا من ضمير الفعل المتعلق بالوصية فقط وذلك يؤدي الى الفصل بين الحال وعاملها بأجنبي هو المعطوف على وصية مع انه لا تنحسم به مادة المضارة لبقاء الاقرار بالدين على اطلاقه (والله عليم) بالمضارة وغيره (حليم) لا يعاجل بالعقوبة فلا يغتر بامهال. وايراد الاسم الجليل مع كفاية الاضمار لادخال الروعة وتربية المهابة (تلك) اشارة الى الاحكام التي تقدمت فى شئون اليتامى والمواريث وغير ذلك (حدود الله) اى شرائعه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها (ومن يطع الله ورسوله) فى جميع الاوامر والنواهى التى من جملتها ما فصل ههنا واظهار الاسم الجليل لما ذكر آنفا (يدخله جنات) نصب على الظرفية عند الجمهور وعلى المفعولية عند الاخفش (تجرى من تحتها الانهار) صفة لجنات منصوبة حسب انتصابها (خالدين فيها) حال مقدرة من مفعول يدخله وصيغة الجمع بالنظر الى جمعية من بحسب المعنى كما أن افراد الضمير بالنظر الى افراده لفظا (وذلك) اشارة الى ما مر من دخول الجنات الموصوفة بما ذكر على وجه الخلود وما فيه من معنى البعد للايذان بكمال علو درجته (الفوز العظيم) الذى لا فوز وراءه وصف الفوز وهو الظفر بالخير بالعظم اما باعتبار متعلقه أو باعتبار

ذاته فان الفوز بالعظيم عظيم والجملة اعتراض (ومن يعص الله ورسوله) ولو فى بعض الاوامر والنواهى قال مجاهد فيما اقتص من المواريث وقال عكرمة عن ابن عباس من لم يرض بقسم الله تعالى ويتعدما قال الله تعالى. وقال الكلبى يعنى ومن يكفر بقسمة الله المواريث ويتعد حدوده استحلالا. والاظهار فى موقع الاضمار للمبالغة فى الزجر بتهويل الامر وتربية المهابة (ويتعد حدوده) شرائعه المحدودة فى جميع الاحكام فيدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا (يدخله) وقرىء بنون العظمة فى الموضعين (نارا) أى عظيمة هائلة لا يقادر قدرها (خالدا فيها) حال كما سبق ولعل ايثار الافراد ههنا نظرا الى ظاهر اللفظ واختيار الجمع هناك نظرا الى المعنى للايذان بان الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للانس كما أن الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد أشد فى استجلاب الوحشة (وله عذاب مهين) أي وله مع عذاب الحريق الجسمانى عذاب آخر مبهم لا يعرف كنهه وهو العذاب الروحانى كما يؤذن به وصفه. والجملة حالية (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم) شروع فى بيان بعض آخر من الاحكام المتعلقة بالنساء إثر بيان أحكام المواريث واللاتى جمع التى بحسب المعنى دون اللفظ وقيل جمع على غير قياس والفاحشة الفعلة القبيحة أريد بها الزنا لزيادة قبحه والاتيان الفعل والمباشرة يقال أتى الفاحشة أى فعلها وباشرها وكذا جاءها ورهقها وغشيها وقرىء بالفاحشة فالاتيان بمعناه المشهور. ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل يأتين أى اللاتى يفعلن الزنا كائنات من نسائكم أى من أزواجكم كما فى قوله تعالى «والذين يظاهرون من نسائهم» وقوله تعالى من نسائكم اللاتى دخلتم بهن» وبه قال السدى (فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما فى حيز الصلة للحكم أى فاطلبوا أن يشهد عليهن باتيانها أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم (فان شهدوا) عليهن بذلك (فأمسكوهن فى البيوت) أى فاحبسوهن فيها واجعلوها سجنا عليهم (حتى يتوفاهن) أى الى أن يستوفى أرواحهن (الموت) وفيه تهويل للموت وابرازله فى صورة من يتولى قبض الارواح وتوفيها أو يتوفاهن ملائكة الموت (أو يجعل الله لهن سبيلا) أي يشرع لهن حكما خاصا بهن ولعل التعبير عنه بالسبيل للايذان بكونه طريقا مسلوكا فليس فيه دلالة على كونه أخف من الحبس كما قاله أبو مسلم (واللذان يأتيانها منكم) هما الزانى والزانية بطريق التغليب قال السدى أريد بهما البكران منهما كما ينبىء عنه كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد. وبذلك يندفع التكرار خلا أنه يبقى حكم الزانى المحصن مبهما لاختصاص العقوبة الاولى بالمحصنات وعدم ظهور الحاقه باحد الحكمين

دلالة لخفاء الشركة فى المناط (فآذوهما) أى بالتوبيخ والتقريع وقيل بالضرب بالنعال أيضا وظاهر ان اجراء هذا الحكم أيضا انما يكون بعد الثبوت لكن ترك ذكره تعويلا على ماذكر آنفا (فان تابا) عما فعلا من الفاحشة بسبب ماألما من زواجر الاذية وقوارع التوبيخ كما تنبىء عنه الفاء (وأصلحا) أى اعمالهما (فاعرضوا عنهما) بقطع الاذية والتوبيخ فان التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب وقد جوز أن يكون الخطاب للشهود الواقفين على هناتهما ويراد بالايذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع الى الولاة. وبالاعراض عنهما ترك التعرض لهما بالرفع اليهم . قيل كانت عقوبة الفريقين المذكورين فى أوائل الاسلام على مامر من التفصيل ثم نسخ بالحد لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال «خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا الثيب ترجم والبكر تجلد» وقيل هذه الآية سابقة على الاولى نزولا وكانت عقوبة الزناة مطلقا الاذى ثم الحبس ثم الجلد ثم الرجم وقد جوز أن يكون الامر بالحبس غير منسوخ بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة ويوصى بامساكهن فى البيوت بعد اقامة الحد صيانة لهن عن مثل ماجرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال ولا يخفى أنه مما لايساعده النظم الكريم وقال ابو مسلم وقد عزاه الى مجاهد ان الاولى فى السحاقات وهذه فى اللواطين وما فى سورة النور فى الزناة والزوانى متمسكا بان المذكور فى الاول صيغة الاناث خاصة وفى الثانية صيغة الذكور ولا ضرورة الى المصير الى التغليب على انه لا إمكان له فى الاولى وياباه الامر باستشهاد الاربعة فانه غير معهود فى الشرع فيما عدا الزنا (إن الله كان توابا) مبالغة فى قبول التوبة (رحيما) واسع الرحمة وهو تعليل للامر بالاعراض (انما التوبة على الله) استئناف مسوق لبيان ان قبول التوبة من الله تعالى ليس على اطلاقه كما ينبىء عنه وصفه تعالى بكونه توابا رحيما بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم فقوله تعالى التوبة مبتدأ وقوله تعالى (للذين يعملون السوء) خبره وقوله تعالى على الله متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار فان تقديم الجار والمجرور على عامله المعنوى مما لانزاع فى جوازه وكذا الظرف أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المبتدأ المستكن فيما تعلق به الخبر على رأي من جوز تقديم الحال على عاملها المعنوي عند كونها ظرفا أو حرف جر كما سبق فى تفسير قوله تعالى «ولله على الناس حج البيت» وايا ما كان فمعنى كون التوبة عليه سبحانه صدور القبول عنه تعالى وكلمة على للدلالة على التحقق البتة بحكم جرى العادة وسبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه وهذا مراد من قال كلمة على بمعنى من وقيل هى بمعنى عند وعن الحسن يعنى التوبة التى يقبلها الله تعالى وقيل هى التوبة التى أوجب الله تعالى على نفسه بفضله قبولها وهذا

يشير الى ان قوله تعالى «على الله» صفة للتوبة بتقدير متعلقه معرفة على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أي انما التوبة الكائنة على الله والمراد بالسوء المعصية صغيرة كانت أو كبيرة وقيل الخبر على الله و قوله تعالى للذين متعلق بما تعلق به الخبر أو بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى متعلق الخبر وليس فيه مافى الوجه الاول من تقديم الحال على العامل المعنوي إلا أن الذى يقتضيه المقام و يستدعيه النظام هو الاول لما أن ماقبله من وصفه تعالى بكونه توابا رحيما انما يقتضى بيان اختصاص قبول التوبة منه تعالى بالمذكورين وذلك انما يكون بجعل قوله تعالى للذين الخ خبراً ألا يرى الى قوله عز وجل «وليست التوبة للذين يعملون السيئات» الخ فانه ناطق بما قلنا كأنه قيل انما التوبة لهؤلاء لا لهؤلاء (بجهالة) متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يعملون أي يعملون السوء ملتبسين بها أي جاهلين سفهاء أو يتعملون على أن الباء سببية أي يعملونه بسبب الجهالة [illegible] ارتكاب الذنب مما يدعو اليه الجهل وليس المراد به عدم العلم بكونه سوأ بل [illegible] أن [illegible] فى العاقبة كما يفعله الجاهل. قال قتادة اجتمع أصحاب الرسول صلى الله عليه [illegible] فرأوا أن كل شيء عصى به ربه فهو جهالة عمدا كان أو خطأ. وعن مجاهد من [illegible] الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. وقال الزجاج يعنى بقوله بجهالة [illegible] اللذة الفانية على اللذة الباقية (ثم يتوبون من قريب) أي من زمان قريب وهو [illegible] قبل حضور الموت كما ينبيء عنه ماسيأتى من قوله تعالى «حتى اذا حضر أحدهم [illegible]» الخ فانه صريح فى أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة فبقي [illegible] وراءه فى حيز القبول. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبل أن ينزل به [illegible] الموت. وعن الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب. وعن ابراهيم النخعي ما [illegible] بكظمه وهو مجرى النفس. وروى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم «[illegible] الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر». وعن عطاء ولو قبل موته بفواق ناقة. وعن [illegible] أن ابليس قال حين أهبط الى الارض وعزتك لا أفارق ابن آدم مادام روحه [illegible] جسده فقال تعالى «وعزتى لا أغلق عليه باب التوبة مالم يغرغر» ومن تبعيضية أى [illegible] بعض زمان قريب كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زمانا [illegible] ففى أى جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب (فأولئك) إشارة الى [illegible] من حيث اتصافهم بما ذكر وما فيه من معنى البعد باعتبار كونهم بانقضاء [illegible] فى حكم البعيد. و الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح [illegible] وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (يتوب الله عليهم) وما فيه من تكرير الاسناد

لتقوية الحكم وهذا وعد بقبول توبتهم أثر بيان أن التوبة لهم والفاء للدلالة على سببيتها للقبول (وكان الله عليما حكيما) مبالغا فى العلم والحكمة فيبنى أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة والجملة اعتراضية مقررة لمضمون ما قبلها. واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الألوهية منشأ لاتصافه تعالى بصفات الكمال (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) تصريح بما فهم من قصر القبول على توبة من تاب من قريب وزيادة تعيين له ببيان أن توبة من عداهم بمنزلة العدم وجمع السيآت باعتبار تكرر وقوعها فى الزمان المديد لا لان المراد ... اريقين أنواعها وبما مر من السوء نوع منها (حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت ... ن النبي عليه حتى حرف ابتداء والجملة الشرطية بعدها غاية لما قبلها أى ليس ... م والبكر تجلد» للذين يعملون السيآت الى حضور موتهم وقولهم حينئذ انى تبت الآن ... ثم الحبس ثم لمزيد تعيين الوقت. وايثار قال على تاب لاسقاط ذلك عن درجة الاعتبار ... ك ذكر الحد عن تسميته توبة (ولا الذين يموتون وهم كفار) عطف على الموصول ... الحد صيانة لهن ليس قبول التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء. وانما ذكر هؤلاء مع أنه لا توبة لهم رأسا ... انه مما فى بيان عدم قبول توبة المسوفين وايذانا بأن وجودها كعدمها بل فى تكرير حرف ... السحاقات فى المعطوف اشعار خفى بكون حال المسوفين فى عدم استتباع الجدوى أقوى ... الاول صيغة حال الذين يموتون على الكفر. والمراد بالموصولين اما الكفار خاصة واما ... إمكان له فى وحدهم وتسميتهم فى الجملة الحالية كفارا للتغليظ كما فى قوله تعالى «ومن كفر فان إن الله كان عن العالمين» وأما مايعم الفريقين جميعا فالتسمية حينئذ للتغليب ويجوز أن يراد ... ض (انما الفسقة وبالثانى الكفرة ففيه مبالغة أخرى (أولئك) اشارة الى الفريقين وما ... اطلاقه كما معنى البعد للايذان بترامى حالهم فى الفظاعة وبعد منزلتهم فى السوء وهو مبتدأ ... ثم فقوله (أعتدنا لهم) أى هيأنا لهم (عذابا اليما) تكرير الاسناد لما مر من تقوية ... الله متعلق وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بكون العذاب معدا ... لا نزاع وتنكير العذاب ووصفه للتفخيم الذاتى والوصفى (ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم ... تعلق به ترثوا النساء كرها) كان الرجل اذا مات قريبه يلقى ثوبه على امرأته أو على خبائها ويقول ... حرف جر ارث امرأته كما أرث ماله فيصير بذلك أحق بها من كل أحد ثم ان شاء تزوجها ... سبحانه صداق غير الصداق الاول وان شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئا و ... حتى كأنه شاء عضلها لتفتدى بما ورثت من زوجها وان ذهبت المرأة الى أهلها قبل القاء الثوب ... الحسن فهى أحق بنفسها فنهوا عن ذلك وقيل لهم لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الارث ... لها وهذا

على زعمكم كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه . وقيل كانوا يمسكونهن حتى يمتن ويرثوا منهن فقيل لهم لا يحل لكم ذلك وهن غير راضيات بامساككم . وقرئ لاتحل بالتاء الفوقانية على أن ترثوا بمعنى الوراثة وقرئ كرها بضم الكاف وهي لغة كالضعف والضعف وكان الرجل اذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر وضيق عليها لتفتدي منه بما لها وتختلع فقيل لهم (ولا تعضلوهن) عطفا على ترثوا ولا لتأكيد النفي والخطاب للازواج والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت المرأة بولدها اذا اختنقت رحمها فخرج بعضه وبقي بعضه أي ولا أن تضيقوا عليهن (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) أي من الصداق بأن يدفعن اليكم بعضه اضطرارا فتأخذوه منهن. وانما لم يتعرض لفعلهن ايذانا بكونه بمنزلة العدم لصدوره عنهن اضطرارا . وانما عبر عن ذلك بالذهاب به لا بالاخذ ولا بالاذهاب للمبالغة في تقبيحه ببيان تضمنه لامرين كل منهما محظور شنيع الاخذ والاذهاب منهن لانه عبارة عن الذهاب مستصحبا له (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) على صيغة الفاعل من بين بمعنى تبين وقرئ على صيغة المفعول وعلى صيغة الفاعل من أبان بمعنى تبين أي بينة القبح مما يستلزمه النهي ويستوجبه من الخلق وايذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة في النساء فانه موجب للعقاب الا ما قد سلف منهن اليكم وقيل الفاحشة الزنا وهو استثناء من اسكن ما قد سلف لا مؤاخذة عليه لانه مقرر تتقلب في وهي ولا يحل لكم عضلهن في حال من الاحوال تعليل للنهي وبيان لكون المنهي عنه ... ويستدعي الا في حال اتيانهن بفاحشة أو الاثالي وعليه موضعه ... بالفعل كما روى عن علي فيكون من جهتهن وأنتم معذورون في ... جمهور العلماء ماذكر أولا بخلاف ما في ... العشرة معهن . والمعروف ما لا ...)فانه لتقييدها به قطعا فان كلمة من ... والاجمال في المقال ونحو ذلك ... ضميرها المستكن في الظرف لانه ... للفعل أن يكون من قبلهن ماتها ... في حجوركم كائنات من ... النفس واصبروا على ... أضيفت هي اليه خاصة ... الله» وفي موضع كثيرا) علة للجزاء ... من ربائبكم أو من ضمير ...) فالفاء ... النبي عليه الصلاة فاصبروا عليهن في من نسائكم تستدعي ... في التوصية بين حفظ النفس وعسى تامة ... الموصول موصولة ... تحصيل كمالاتها واستيفاء وجعل الله ... مع أنه ... النفقة. روى ... الله كان بكم رحيما) تعليل عاقبة وأذى ذكر في ... عليه امرأته حبيبة بنت ... لكم على كالمسيخ ... بصريين ... صلى الله عليه وسلم وشكا فقال ترغب ... فنزلت

مفعوله ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصا بمكروه دون مكروه بل هو سنة أ لهية جارية على الاطلاق حسب اقتضاء الحكمة و أن ما نحن فيه مادة من موادها وفيه من المبالغة فى الحمل على ترك المفارقة و تعميم الارشاد مالا يخفى وقرئ و يجعل مرفوعا على أنه خبر لمبتدا محذوف والجملة حالية تقديره و هو أى ذلك الشيء يجعل الله فيه خيرا كثيرا . وقيل تقديره و الله يجعل الله بوضع المظهر موضع المضمر وتنوين خيرا لتفخيمه الذاتى و وصفه بالكثرة لبيان فخامته الوصفية و المراد به ههنا الولد الصالح و قيل الالفة والمحبة (وان أردتم استبدال زوج) أى تزوج امرأة ترغبون فيها (مكان زوج) ترغبون عنها بان تطلقوها (وآتيتم احداهن) أى احدى الزوجات فان المراد بالزوج هو الجنس و الجملة حالية باضمار قد لا معطوفة على الشرط أى وقد آتيتم التى تريدون أن تطلقوها (قنطارا) أى مالا كثيرا (فلا تأخذوا منه) أى من ذلك القنطار (شيئا) يسيرا فضلا عن الكثير (أتأخذونه [illegible] نا) استئناف مسوق لتقرير النهى والتنفير عن المنهى عنه أى أتأخذونه باهتين وآثمين أو للبهتان والاثم فان احدهم

[illegible] فاحشة حتى يلجئها الى الافتداء منه بما أعطاها

[illegible] تان الكذب الذى يبهت المكذوب عليه

[illegible] فسر ههنا بالظلم وقوله عز وجل

[illegible] نبر عنه غب تنفير وقد بولغ فيه

[illegible] سبيل له الى التحقق والوقوع

[illegible] ال من الاحوال فاذا لم يكن

[illegible] له عز و جل (وقد أفضى

[illegible] نكير و تقرير الاستبعاد

[illegible] نكم وبينهن أحوال

ذلك (وأخذن

[illegible] م عهدا وثيقا

الى فامساك

[illegible] خذتموهن

[illegible] شرو ع

ينظم في سلك نكاح المحرمات الآية مبالغة في الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه قال ابن عباس وجمهور المفسرين كان أهل الجاهلية يتزوجون بأزواج آبائهم فنهوا عن ذلك واسم الآباء ينتظم الاجداد مجازاً فتثبت حرمة مانكحوها نصا واجماعا ويستقل في اثبات هذه الحرمة نفس النكاح اذا كان صحيحا وأما اذا كان فاسداً فلا بد من اثباتهما من الوطء أو ما يجري مجراه من التقبيل والمس بشهوة ونحوهما بل هو المثبت لها في الحقيقة حتى لو وقع شيء من ذلك بحكم ملك اليمين أو بالوجه المحرم تثبت به الحرمه عندنا خلافا للشافعي في المحرم أي لاتنكحوا التي نكحها آباؤكم. وايثار ما على من للذهاب الى الوصف وقيل مامصدرية على ارادة المفعول من المصدر (من النساء) بيان لما نكح على الوجهين (الا ماقد سلف) استثناء مما نكح مفيد للمبالغة في التحريم باخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال على طريقة قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ⁂ بهن فلول من قراع الكتائب

والمعنى لا تنكحوا حلائل آبائكم الا من ماتت منهن والمقصود سد طريق الاباحة بالكلية ونظيره قوله تعالى «حتى يلج الجمل في سم الخياط» وقيل هو استثناء مما يستلزمه النهي ويستوجبه مباشرة المنهي عنه كانه قيل لاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء فانه موجب للعقاب الا ماقد سلف فانه معفو عنه وقيل هو استثناء منقطع معناه لكن ماقد سلف لامؤاخذة عليه لانه مقرر [illegible] تقلب في قوله تعالى (انه كان فاحشة ومقتا) فانه تعليل للنهي وبيان لكون المنهي [illegible] اولادهم ويستدعي أشد البغض وانه لم يزل في حكم الله تعالى وعلمه موصوفا [illegible] بالفعل كما روى عن علي ان يوسط بينهما ما يهون أمره من ترك [illegible] جمهور العلماء ماذكر أولا بخلاف ما في [illegible] أحدها انها جارية مجرى بئس في النهي) فانه لتقييدها به قطعا فان كلمة من متعلقة [illegible] محذوف تقديره وساء سبيلا سبيلا ضميرها المستكن في الظرف لانه لما وقع [illegible] الفعل أنها كسائر الأفعال وفيها [illegible] في حجوركم كائنات من [illegible] لاذهب وأن مستأنفة لامحل لها [illegible] أضيفت هي اليه خاصة [illegible] الله» وفي موضع [illegible] المعطوف في الحق من ربائبكم أو من ضمير [illegible] فالفا [illegible] النبي عليه الصلاة ناطقة بذلك في من نسائكم تستدعي [illegible] في التوصية بين حفظ النفس العقلي والقد جعل الموصول موصولة [illegible] تحصيل كمالاتها واستيفاء مرتبة [illegible] مع أنه [illegible] النفقة [illegible] الله كان بكم رحيما) تعليل مرتبة تذكر في [illegible] عليه امرأته حبيبة بنت [illegible] على [illegible] بصريين [illegible] صلى الله عليه وسلم وشكا فقال ترغب [illegible] فنزلت

ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن وما يقصد به من التمتع بهن وبيان امتناع ورود ملك النكاح عليهن وانتفاء محليتهن له رأساً وأما حرمة التمتع بهن بملك اليمين فى المواد التى يتصور فيها قرار الملك كما فى بعض المعطوفات على تقدير رقهن فثابتة بدلالة النص لاتحاد المدار الذى هو عدم محلية أبضاعهن للملك لا بعبارته بشهادة سباق النظم الكريم وسياقه وانما لم يوجب المدار المذكور امتناع ورود ملك اليمين عليهن رأسا ولا حرمة سببه الذي هو العقد أو ما يجرى مجراه كما أوجب حرمة عقد النكاح وامتناع ورود حكمه عليهن لان مورد ملك اليمين ليس هو البضع الذى هو مورد ملك النكاح حتى يفوت بفوات محليته له كملك النكاح فانه حيث كان مورده ذلك فات بفوات محليته له قطعا وانما مورده الرقبة الموجودة فى كل رقيق فيتحقق بتحقق محله حتما ثم يزول بوقوع العتق فى المواد التى سبب حرمتها محض القرابة النسبية كالمذكورات ويبقى فى البواقى على حاله مستتبعا لجميع أحكامه المقصودة منه شرعا وأما حل الوطء فليس من تلك الاحكام فلا ضير فى تخلفه عنه كما فى المجوسية

الامهات تعم الجدات وان علون . والبنات تتناول بناتهن وان سفلن . والاخوات
ن الاخوات من الجهات الثلاث وكذا الباقيات . والعمة كل أنثى ولدها من
و الخالة كل أنثى ولدها من ولد والدتك قريبا أو بعيداً وبنات الاخ وبنات
البعدى (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم واخواتكم من
نزلة النسب حتى سمى المرضعة أما للرضيع
واه جداه وأخته عمته وكل ولد
بته وأخواته لأبيه وأم المرضعة
اخوته وأخواته لأبيه وأمه
له عليه السلام يحرم من
أم أخيه لاب وأخت
جهة النسب حتى
ألا يرى أن
طوءة جده
المحرمات
د بالنساء

الصلاة والسلام أنه قال فى رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها «انه لا بأس بأن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها» وعن عمر وعمران بن الحصين رضى الله عنهما أن الام تحرم بنفس العقد وعن مسروق هى مرسلة فأرسلوا ماأرسل الله وعن ابن عباس أبهموا ماأبهم الله خلا أنه روى عنه وعن على وزيد وابن عمر وابن الزبير رضى الله عنهم أنهم قرءوا وأمهات نسائكم اللاتى دخلتم بهن وعن جابر روايتان وعن سعيد بن المسيب عن زيد أنه اذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها واذا طلقها قبل أن يدخل بها فان شاء فعل أقام الموت فى ذلك مقام الدخول كما قام مقامه فى باب المهر والعدة ويلحق بهن الموطوءات بوجه من الوجوه المعدودة فيما سبق والممسوسات ونظائرهن والامهات تعم المرضعات كما تعم الجدات حسبما ذكر (وربائبكم اللاتى فى حجوركم) الربائب جمع ربيبة فعيل بمعنى مفعول والتاء للنقل الى الاسمية . والربيب ولد المرأة من آخر سمى به لانه يربه غالبا كما يرب ولده وان لم يكن ذلك أمراً مطرداً وهو المعنى بكونهن فى الحجور فأن شأنهن الغالب المعتاد ان يكن فى حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن لا كونهن كذلك بالفعل وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكميلها كما أنها النكتة فى إيرادهن باسم الربائب دون بنات النساء فان كونهن بصدد احتضانهم لهن وفى شرف التقلب فى حجورهم وتحت حمايتهم وتربيتهم مما يقوى الملابسة والشبه بينهن وبين أولادهم ويستدعى إجراءهن مجرى بناتهم لاتقييد الحرمة بكونهن فى حجورهم بالفعل كما روى عن على رضى الله عنه وبه أخذ داود . ومذهب جمهور العلماء ماذكر أولا بخلاف مافى [illegible] تعالى (من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) فانه لتقييدها به قطعا فان كلمة من متعلقة [illegible] وقع حالا من ربائبكم أو من ضميرها المستكن فى الظرف لانه لما وقع [illegible] للفعل أى وربائبكم اللاتى استقررن فى حجوركم كائنات من [illegible] لا ذهب وأن خالا من أمهات أو مما أضيفت هى اليه خاصة وهى [illegible] كافر الله» وفى مو[illegible] روى ضرورة أن حاليته من ربائبكم أو من ضمير [illegible]) فالفا [illegible] عليه النبى عليه الصلاة من أمهات أو من نسائكم تستدعى [illegible] العائد الى [illegible] فى التوصية بين حفظ النفس والبيان أو جعل الموصول موصولة و[illegible] تحصيل كمالاتها واستيفاء عن أمثاله مع أنه [illegible] و[illegible] والنفقة [illegible] الله كان بكم رحيما) تعليل حسبما ذكر فى [illegible] عليه امرأته حبيبة بنت [illegible] على النسخ [illegible] بصريين [illegible] صلى الله عليه وسلم وشكا فقال ترغب [illegible] فنزلت

بنى عليها وضرب عليها الحجاب وفى حكمه اللمس ونظائره كما مر (فان لم تكونوا) أي فيما قبل (دخلتم بهن) أصلا (فلاجناح عليكم) أى فى نكاح الربائب وهو تصريح بما أشعر به ماقبله والفاء الاولى لترتيب مابعدها على ماقبلها فان بيان حكم الدخول مستتبع لبيان حكم عدمه (وحلائل أبنائكم) أى زوجاتهم سميت الزوجة حليلة لحلها للزوج أو لحلولها فى محله وقيل لحل كل منهما أزار صاحبه وفى حكمهن من نياتهم ومن يجرين مجراهن من الممسوسات ونظائرهن وقوله تعالى (الذين من أصلابكم) لاخراج الادعياء دون أبناء الاولاد والابناء من الرضاع فانهن وان سفلوا فى حكم الابناء الصلبية (وأن تجمعوا بين الاختين) فى حيز الرفع عطفا على ماقبله من المحرمات والمراد به جمعهما فى النكاح لافى ملك اليمين وأما جمعهما فى الوطء بملك اليمين فملحق به بطريق الدلالة لاتحادهما فى المدار ولقوله عليه الصلاة و السلام «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلايجمعن ماءه فى رحم أختين» بخلاف نفس ملك اليمين فانه ليس فى معنى النكاح فى الافضاء الى الوطء ولامستلزما له ولذلك يصح شراء المجوسية دون نكاحها حتى لو وطئهما لايحل له وطء إحداهما حتى يحرم عليه وطء الاخرى بسبب من الاسباب وكذا لم تزوج أخت أمته الموطوءة لايحل له وطء إحداهما حتى يحرم عليه الاخرى لان المنكوحة موطوءة حكما فكأنه جمعهما وطأ. واسناد الحرمة الى جمعهما لا الى الثانية منهما بأن يقال وأخوات نسائكم للاحتراز عن افادة الحرمة المؤبدة كما فى المحرمات السابقة ولكونه بمعزل من الدلالة على حرمة الجمع بينهما على سبيل المعية ويشترك فى ... كم الجمع بين المرأة وعمتها ونظائرها فان مدار حرمة الجمع بين الاختين افضاؤه
الله بوصله وذلك متحقق فى الجمع بين هؤلاء بل أولى فان العمة والخالة
السلام «لاتنكح المرأة على عمتها ولاعلى خالتها ولاعلى ابنة أخيها
... ن التفسير لابيان التغيير وقيل هو مشهور ويجوز به الزيادة
... تثناء منقطع أى لكن ماقد مضى لاتؤاخذون به
... الغة كما مر فيما سلف لان قوله تعالى (إن
... الانقطاع وقال عطاء والسدى
... بين راحيل أم يوسف
السلام كان حلالا
... رم الله تعالى
الحسن أنه

قال كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات إلا اثنتين نكاح امرأة الاب و الجمع بين الاختين ألا يرى أنه قد عقب النهي عن كل منهما بقوله تعالى الاما قد سلف وهذا يشير الى كون الاستثناء فيهما على سنن واحد ويأباه اختلاف التعليلين (والمحصنات) بفتح الصاد وهن ذوات الازواج أحصنهن التزوج او الازواج او الاولياء أي أعفهن عن الوقوع فى الحرام وقرئ على صيغة اسم الفاعل فانهن احصن فروجهن عن غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن وقيل الصيغة للفاعل على القراءة الاولى أيضا وفتح الصاد محمول على الشذوذ كما فى نظيريه ملقح ومسهب من ألقح وأسهب قيل قد ورد الاحصان فى القرآن بازاء أربعة معان الاول التزوج كما فى هذه الآية الكريمة الثانى العفة كما فى قوله تعالى «محصنين غير مسافحين» الثالث الحرية كما فى قوله تعالى «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات» والرابع الاسلام كما فى قوله تعالى «فاذا أحصن» قيل فى تفسيره أى أسلمن وهى معطوفة على المحرمات السابقة وقوله تعالى (من النساء) متعلق بمحذوف وقع حالا منها أى كائنات من النساء وفائدته تأكيد عمومها لا دفع توهم شمولها للرجال بناء على كونها صفة للانفس كما توهم (الاما ملكت أيمانكم) استثناء من المحصنات استثناء النوع من الجنس أى ملكتموه واسناد الملك الى الايمان لما أن سببه الغالب هو الصفة الواقعة بها وقد اشتهر ذلك فى الارقاء لاسيما فى اناثهم وهن المرادات ههنا رعاية للمقابلة بينه وبين ملك النكاح الوارد على الحرائر والتعبير عنهن بما لاسقاطهن بمافيهن من قصور الرق عن رتبة العقلاء وهى اما عامة حسب عموم صلتها فالاستثناء حينئذ ليس لاخراج جميع افرادها من حكم التحريم بطريق شمول النفى بل بطريق نفى الشمول المستلزم لاخراج بعضها أى حرمت عليكم المحصنات على الاطلاق الا المحصنات اللاتى ملكتموهن فانهن لسن من المحرمات على الاطلاق بل فيهن من لا يحرم نكاحهن فى الجملة وهن المسبيات [illegible] مطلقا حسب اختلاف الرأيين واما خاصة بالمذكورات فالمعنى [illegible] لا ذهب وأن الا اللاتى سبين فان نكاحهن مشروع فى الجملة أى لغير [illegible] «كتاب الله» وفى [illegible] ملك اليمين فمفهوم بدلالة النص لاتحاد المناط [illegible] فالما [illegible] النبى عليه الصلاة الكريم لبيان حرمة التمتع بالمحرمات [illegible] فى التوصية بين حفظ النفس التمتع بهن بحكم ملك اليمين موصولة [illegible] تحصيل كمالاتها واستيفاء وأما عدهن من ذوات [illegible] النفقة [illegible] الله كان بكم رحيما) تعليل أو بالسبى على [illegible] عليه امرأته حبيبة بنت [illegible] الفرقة ألا [illegible] بصريين [illegible] الله عليه وسلم وشكا فقال ترغب [illegible] فنزلت

أوطاس سبايا لهن أزواج فكرهنا ان نقع عليهن فسألنا النبي عليه السلام وفي رواية عنه قلنا يارسول الله كيف نقع على نساء قد عرفنا انسابهن وأزواجهن فنزلت والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم فاستحللناهن وفي رواية أخرى عنه ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض» فأباح وطأهن بعد الاستبراء وليس في ترتيب هذا الحكم على نزول الآية الكريمة ما يدل على كونها مسوقة له فان ذلك انما يتوقف على افادتها له بوجه من وجوه الدلالة لا على افادتها بطريق العبارة أو نحوها هذا وقد روى عن أبي سعيد رضي الله عنه انه قال انها نزلت في نساء كن يهاجرن الى الرسول صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فيتزوجهن بعض المسلمين ثم يقدم أزواجهن مهاجرين فنهى عن نكاحهن فالمحصنات حينئذ عبارة عن مهاجرات يتحقق أو يتوقع من أزواجهن الاسلام والمهاجرة ولذلك لم يزل عنهن اسم الاحصان والنهي لتحريم المحقق وتعرف حال المتوقع والا فما عداهن بمعزل من الحرمة واستحقاق اطلاق الاسم عليهن كيف لا وحين انقطعت العلاقة بين المسبية وزوجها مع اتحادهما في الدين فلأن تنقطع ما بين المهاجرة وزوجها أحق وأولي كما يفصح عنه قوله عز وجل «فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن الي الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن» الآية (كتاب الله) مصدر مؤكد أي كتب الله (عليكم) تحريم هؤلاء كتابا وفرضه فرضا وقيل منصوب على الاغراء بفعل مضمر أي الزموا كتاب الله وعليكم متعلق اما بالمصدر واما بمحذوف وقع حالا منه وقيل هو اغراء آخر مؤكد لما قبله قد حذف مفعوله لدلالة المذكور عليه أو بنفس عليكم على رأى من جوز تقديم ب في باب الاغراء كما في قوله:

يا أيها المائح دلوي دونكا ❊ انى رأيت الناس يحمدونكا

الجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم وقريء كتب الله بلفظ ان على حرمت عليكم الخ وتوسيط قوله تعالى كتاب المحافظة على الحرمات المذكورة وقرىء على التقدر وقيل بل على حرمت الخ فانهما تعالى ولاضير في اختلاف أن المحرم هو الله تعالى لكم نكاح ما اليه وعنوانه

على الضمير المتعرض للذات فقط لتذكير مافى كل واحدة منهن من العنوان الذى عليه
يدور حكم الحرمة فيفهم مشاركة من فى معناهن لهن فيها بطريق الدلالة فان حرمة
الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها ليست بطريق العبارة بل بطريق الدلالة كما
سلف وقيل ليس المراد بالاحلال الاحلال مطلقا أي على جميع الاحوال حتى يرد انه
يلزم منه حل الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها بل انما هو احلالهن فى الجملة أى
على بعض الاحوال ولا ريب فى حل نكاحهن بطريق الانفراد ولا يقدح فى ذلك حرمته
بطريق الجمع ألا يرى أن حرمة نكاح المعتدة والمطلقة ثلاثا والخامسة ونكاح الامة على
الحرة ونكاح الملاعنة لا تقدح فى حل نكاحهن بعد العدة وبعد التحليل وبعد تطليق
الرابعة وانقضاء العدة وبعد تطليق الحرة وبعد اكذاب الملاعن نفسه وأنت خبير بأن
الحل يجب أن يتعلق ههنا بما تعلقت به الحرمة فيما سلف وقد تعلق هناك بالجمع فلابد أن يتعلق الحل
ههنا به أيضا (أن تبتغوا) متعلق بالفعلين المذكورين على أنه مفعول له لكن لا باعتبار ذاتهما بل
باعتبار بيانهما واظهارهما أى بين لكم تحريم المحرمات المعدودة واحلال ماسواهن ارادة أن
تبتغوا بأموالكم والمفعول محذوف أي تبتغوا النساء أو متروك أي تفعلوا الابتغاء
(بأموالكم) بصرفها الى مهورهن أو بدل اشتمال مما وراء ذلكم بتقدير ضمير المفعول
(محصنين) حال من فاعل تبتغوا والاحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما
يوجب اللوم والعقاب (غير مسافحين) حال ثانية منه أو حال من الضمير فى محصنين
والسفاح الزنا والفجور من السفح الذى هو صب المنى سمى به لأنه الغرض منه
ومفعول الفعلين محذوف أى محصنين فروجكم غير مسافحين الزوانى وهى فى الحقيقة
حال مؤكدة لأن المحصن غير مسافح ألبتة وما فى قوله تعالى (فما استمتعتم به منهن)
اما عبارة عن النساء أو عما يتعلق بهن من الافعال وعلى التقديرين فهى ا[illegible] للفعل
ما بعدها شرطها واما موصولة ما بعدها صلتها وأياما كان فهى مبتدأ [illegible] لاذهب وأن
كونها شرطية اما فعل الشرط أو جوابه أو كلاهما على الخلا[illegible] [illegible]فر الله» وفى موضـ[illegible]
كونها موصولة قوله تعالى (فآتوهن أجورهن) فالفا[illegible] [illegible] [illegible] روى
ثم على تقدير كونها عبارة عن النساء فالعائد الى [illegible]ليه النبي عليه الصلاة
سواء كانت شرطية أو موصولة ومن [illegible] فى التوصية بين حفظ النفس
الضمير المجرور فى به وا[illegible] تحصيل كمالاتها واستيفاء
كونه من جنس النـ[illegible] [illegible] حق النفقة. ر[illegible] الله كان بكم رحيما) تعليل
فأفرد الضمير [illegible] بصريين [illegible] عليه امرأته حبيبة بنت [illegible]كم عما [illegible] فان [illegible]
[illegible] لى الله عليه وسلم وشكا فقال ترغبت [illegible] الا [illegible] الله» فنزلت

عما يتعلق بهن فمن ابتدائية متعلقة بالاستمتاع والعائد الى المبتدا محذوف والمعنى أى فعل استمتعتم به من جهتهن من نكاح أو خلوة أو نحوهما أو فالفعل الذى استمتعتم به من قبلهن من الافعال المذكورة فآتوهن أجورهن لاجله أو بمقابلته والمراد بالاجور المهور فانها أجور أبضاعهن (فريضة) حال من الاجور بمعنى مفروضة أو نعت لمصدر محذوف أى ايتاء مفروضا أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة أى لهن عليكم (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به) أي لا اثم عليكم فيما تراضيتم به من الحط عن المهر أو الابراء منه على طريقة قوله تعالى «فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه» أثر قوله تعالى «وآتوا النساء صدقاتهن» وقوله تعالى «الا أن يعفون» وتعميمه للزيادة على المسمى لا يساعده رفع الجناح عن الرجال لانها ليست مظنة الجناح الا أن يجعل الخطاب للازواج تغليبا فان أخذ الزيادة على المسمى مظنة الجناح على الزوجة. وقيل فيما تراضيتم به من نفقة ونحوها وقيل من مقام أو فراق ولا يساعده قوله تعالى (من بعد الفريضة) اذ لا تعلق لهما بالفريضة الا أن يكون الفراق بطريق المخالعة وقيل نزلت فى المتعة التى هى النكاح الى وقت معلوم من يوم أو أكثر سميت بذلك لأن الغرض منها مجرد الاستمتاع بالمرأة أو استمتاعها بما يعطى وقد أبيحت ثلاثة أيام حين فتحت مكة شرفها الله تعالى ثم نسخت لما روي أنه عليه السلام أباحها ثم أصبح يقول «يا أيها الناس انى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء الا ان الله حرم ذلك الى يوم القيامة». وقيل أبيح مرتين وحرم مرتين وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه رجع عن القول بجوازه عند موته وقال اللهم انى أتوب اليك من قولى بالمتعة وقولى فى الصرف (ان الله كان عليما) بمصالح العباد
[illegible]كيما) فيما شرع لهم من الاحكام ولذلك شرع لكم هذه الاحكام اللائقة بحالكم
[illegible] يستطع منكم) من اما شرطية ما بعدها شرطها أو موصولة ما بعدها صلتها
[illegible] محذوف وقع حالا من فاعل يستطع أى حال كونه منكم وقوله
[illegible]عة أو اعتلاء ونيلا وأصله الزيادة والفضل مفعول ليستطع
[illegible] المحصنات المؤمنات) اما معمول صريح لطولا فان أعمال
[illegible]تعالى «أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة»
[illegible]كحهن واما بتقدير حرف الجر أى ومن
[illegible] محل النصب صفة لطولا
[illegible] طول بمعنى القدرة فى
[illegible] أن بعد حذف

الجار نصب عند سيبويه والفراء وجر عند الكسائى والاخفش و اما بدل من طولا
لان الطول فضل و النكاح قدرة واما مفعول ليستطع وطولا مصدر مؤكد لانه بمعناه
اذ الاستطاعة هى الطول .أو تمييز أى ومن لم يستطع منكم نكاحهن استطاعة أو من
جهة الطول و الغنى أى لا من جهة الطبيعة و المزاج فان عدم الاستطاعة من تلك الجهة
لا تعلق له بالمقام والمراد بالمحصنات الحرائر بدليل مقابلتهن بالمملوكات فان حريتهن
أحصنتهن عن ذل الرق و الابتذال و غيرهما من صفات القصور و النقصان وقوله عز
وجل (فمما ملكت أيمانكم) اما جواب للشرط أو خبر للموصول والفاء لتضمنه معنى
الشرط و الجار متعلق بفعل مقدر حذف مفعوله و ما موصولة أى فلينكح امرأة أو
أمة من النوع الذى ملكته أيمانكم و هو فى الحقيقة متعلق بمحذوف وقع صفة لذلك
المفعول المحذوف ومن تبعيضية أي فلينكح امرأة كائنة من ذلك النوع .وقيل من
زائدة والموصول مفعول للفعل المقدر أى فلينكح ما ملكته أيمانكم و قوله تعالى
(من فتياتكم المؤمنات) فى محل النصب على الحالية من الضمير المقدر فى ملكت
الراجع الي ما .و قيل هو المفعول للفعل المقدر على زيادة من و مما ملكت متعلق بنفس
الفعل ومن لابتداء الغاية أو بمحذوف وقع حالا من فتياتكم ومن للتبعيض أى
فلينكح فتياتكم كائنات بعض ما ملكت أيمانكم و المؤمنات صفة لفتياتكم على كل تقادير
وقيل هو المفعول للفعل المقدر ومما ملكت على ما تقدم آنفا ومن فتياتكم حال من العائد المحذوف
وظاهر النظم الكريم يفيد عدم جواز نكاح الأمة للمستطيع كما ذهب اليه الشافعى رحمه الله
تعالى وعدم جواز نكاح الأمة الكتابية أصلا كما هو رأى أهل الحجاز و قد جوزهما أبو حنيفة
رحمه الله تعالى متمسكا بالعمومات فمحل الشرط و الوصف هو الافضلية ولا نزاع فيها لاحد
روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الفعل
واليهودية والنصرانية وان كان موسرا وقوله تعالى (والله أعلم بايمانكم لاذهب وأن
جيئ بها لتأنيسهم بنكاح الاماء واستنزالهم من رتبة الاستنكاف الله» وفى موضع ... روى
التفاضل و مدار التفاخر هو الايمان دون الاحساب و الانساب ... عليه النبى عليه الصلاة
عز قائلا « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ... فى التوصية بين حفظ النفس
إن أكرمكم عند الله أتقاكم» والمعنى أنه تمايز ... تحصيل كمالاتها واستيفاء
تنتظم أحوال العباد وعليه يدور ... النفقة. رو ... الله كان بكم رحيما) تعليل
الحرية و الرق قرب أمة و ... عليه امرأته حبيبة بنت
ان أريد الاتصال بصريين ... الى الله عليه وسلم و شكا فقال ترغبين ... فنزلت

فى ذلك وان أريد به الاتصال من حيث النسب فهو اعتراض آخر مؤكد للتأنيس من جهة أخرى والخطاب فى الموضعين إما لمن كما فى الخطاب الذى يعقبه قد روعى فيماسبق جانب اللفظ وههنا جانب المعنى والالتفات للاهتمام بالترغيب والتأنيس وإما لغيرهم من المسلمين كالخطابات السابقة لحصول الترغيب بخطابهم أيضا وأياما كان فاعادة الامر بالنكاح على وجه الخطاب فى قوله تعالى (فانكحوهن) مع انفهامه من قوله تعالى «فمما ملكت أيمانكم» حسبما ذكر لزيادة الترغيب فى نكاحهن وتقييده بقوله تعالى (باذن أهلهن) وتصديره بالفاء للايذان بترتبه على ما قبله أى وإذ قد وقفتم على جلية الامر فانكحوهن باذن مواليهن ولا تترفعوا عنهن وفى اشتراط إذن الموالى دون مباشرتهم للعقد اشعار بجواز مباشرتهن له (وآتوهن أجورهن) أى مهورهن (بالمعروف) متعلق بآتوهن أى أدوا اليهن مهورهن بغير مطل وضرار وإلجاء الى الاقتضاء واللز حسبما يقتضيه الشرع والعادة ومن ضرورته أن يكون الاداء اليهن باذن الموالي فيكون ذكر إيتائهن لبيان جواز الاداء اليهن لا لكون المهور لهن وقيل أصله آتوا مواليهن فحذف المضاف وأوصل الفعل الى المضاف اليه (محصنات) حال من مفعول فانكحوهن أى حال كونهن عفائف عن الزنا (غير مسافحات) حال مؤكدة أى غير مجاهرات به (ولا متخذات أخدان) عطف على مسافحات ولا لتأكيد ما فى غير من معنى النفى والخدن الصاحب قال أبو زيد الاخدان الاصدقاء على الفاحشة والواحد خدن وخدين والجمع للمقابلة بالانقسام على معنى أن لا يكون لواحدة منهن خدن لا على معنى أن لا يكون لها أخدان أى غير مجاهرات بالزنا ولا

ات له وكان الزنا فى الجاهلية منقسما الى هذين القسمين (فاذا أحصن) أي بالتزويج
على البناء للفاعل أى أحصن فروجهن أو أزواجهن (فان أتين بفاحشة) أى
هي الزنا (فعليهن) فثابت عليهن شرعا (نصف ما على المحصنات)
من العذاب) من الحد الذى هو جلد مائة فنصفه خمسون
فالمراد بيان عدم تفاوت حدهن بالاحصان كتفاوت
اذا والثانية جواب ان والشرط الثانى مع جوابه
أتتنى فان لم أكرمك فعبدي حر (ذلك)
خاف وقوعه فى الاثم الذي تؤدى
لكل مشقة وضرر
تكاب أفحش

القبائح وقيل أريد به الحد لانه اذا هويها يخشى أن يواقعها فيحد والاول هو اللائق
بحال المؤمن دون الثانى لايهامه أن المحذور عنده الحد لا مايوجبه (وأن تصبروا) أى
عن نكاحهن متعففين كافين أنفسكم عما تشتهيه من المعاصى (خير لكم) من نكاحهن
وان سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرق قال عمر رضى الله عنه
أيما حر تزوج بأمة فقد أرق نصفه وقال سعيد ابن جبير مانكاح الامة من الزنا
الا قريب ولان حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولان المولى
يقدر على استخدامها كيفما يريد فى السفر والحضر وعلى بيعها للحاضر والبادى وفيه من
اختلال حال الزوج وأولاده مالامزيد عليه ولانها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك
كله ذل ومهانة سارية إلى الناكح والعزة هى اللائقة بالمؤمنين ولأن مهرها لمولاها
فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج فلا ينتظم أمر المنزل وقد قال عليه السلام
«الحرائر صلاح البيت والاماء هلاك البيت» (والله غفور) مبالغ فى المغفرة فيغفر لمن
لم يصبر على نكاحهن مافى ذلك من الامور المنافية لحال المؤمنين (رحيم) مبالغ فى
الرحمة ولذلك رخص لكم فى نكاحهن (يريد الله ليبين لكم) استئناف مسوق
لتقرير ماسبق من الاحكام وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الانبياء والصالحين
قيل أصل النظم الكريم يريد الله أن يبين لكم فزيدت اللام لتأكيد معنى الاستقبال
اللازم للارادة ومفعول يبين محذوف ثقة بشهادة السباق والسياق أي يريد الله أن
يبين لكم ماهو خفى عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم أو ما تعبدكم به من
الحلال والحرام . وقيل مفعول يريد محذوف تقديره يريد الله تشريع ما شرع من
التحريم والتحليل لاجل التبيين لكم وهذا مذهب البصريين ويعزى الى سيبويه
وقيل ان اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير اضمار أن وهى وما بعدها مفعول للفعل
المتقدم فان اللام قد تقام مقام أن فى فعل الارادة والامر فيقال: أردت لاذهب وأن
أذهب وأمرتك لتقوم وأن تقوم قال تعالى «يريدون ليطفئوا نور الله» وفى موضع
«يريدون أن يطفئوا» وقال تعالى «وأمرنا لنسلم» وفى موضع وأمرت أن ... روى
لأعدل بينكم». أي أن أعدل بينكم وهذا مذهب الكوفيين ... يه النبى عليه الصلاة
وظيفة اللام هى الجر والنصب فيما قالوا باضمار ان ... فى التوصية بين حفظ النفس
ماير يدون ليطفئوا وقيل يؤول الفعل ... النفقة. ر... تحصيل كمالاتها واستيفاء
ويجعل مابعده خبرا له كما ف... عليه امرأته حبيبة بنت ... الله كان بكم رحيما) تعليل
الرأى الى بعض البصريين ... إلى الله عليه وسلم وشكا فقال ترغبين الا ... فنزلت ... كم عما ...

بهم (و يتوب عليكم) إذا تبتم اليه تعالى عما يقع منكم من التقصير والتفريط فى مراعاة ما كلفتموه من الشرائع فان المكلف قلما يخلوا من تقصير يستدعى تلافيه بالتوبة ويغفر لكم ذنوبكم أو يرشدكم الى ما يردعكم عن المعاصى ويحثكم على التوبة أو الى ما يكون كفارة لسيئاتكم وليس الخطاب لجميع المكلفين حتى يتخلف مراده تعالى عن ارادته فيمن لم يتب منهم بل لطائفة معينة حصلت لهم هذه التوبة (والله عليم) مبالغ فى العلم بالاشياء التى من جملتها ماشرع لكم من الاحكام (حكيم) مراع فى جميع أفعاله الحكمة والمصلحة (والله يريد أن يتوب عليكم) جملة مبتدأة مسوقة لبيان كمال منفعة ما أراده الله تعالى وكمال مضرة ما يريد الفجرة لا لبيان ارادته تعالى لتوبته عليهم حتى يكون من باب التكرير للتقرير ولذلك غير الاسلوب الى الجملة الاسمية دلالة على دوام الارادة ولم يفعل ذلك فى قوله تعالى (ويريد الذين يتبعون الشهوات) للاشارة الى الحدوث وللايماء الى كمال المباينة بين مضمونى الجملتين كما مر فى قوله تعالى «الله ولى الذين آمنوا» الآية والمراد بمتبعى الشهوات الفجرة فان اتباعها الائتمار بها واما المتعاطى لما سوغه الشرع من المشتهيات دون غيره فهو متبع له لا لها وقيل هم اليهود والنصارى وقيل هم المجوس حيث كانوا يحلون الاخوات من الاب وبنات الاخ وبنات الاخت فلما حرمهن الله تعالى قالوا فانكم تحلون بنت الخالة وبنت العمة مع أن العمة والخالة عليكم حرام فانكحوا بنات الاخ والاخت فنزلت (أن تميلوا) عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات وتكونوا زناة مثلهم . وقرىء بالياء التحتانية والضمير للذين يتبعون الشهوات (ميلا عظيما) أى بالنسبة الى ميل من اقترف خطيئة على ندرة بلا استحلال (يريد الله أن يخفف عنكم) بما مر من الرخص ما فى عهدتكم من مشاق التكاليف والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (وخلق الانسان ضعيفا) عاجزا عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه وقواه حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه فى مشاق الطاعات وعن الحسن ان المراد ضعف الخلقة فان الجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقرير ما قبله من التخفيف بالرخصة
...ضعف البنية مدخل فى ذلك وانما الذى يتعلق به التخفيف فى
...ضعفه فى أمر النساء خاصة حيث لا يصبر عنهن وعن
...م قط الا أتاهم من قبل النساء فقد أتى على
... أخوف ما أخاف على فتنة
على والضمير لله عز وجل وعنه

رضى الله عنه ثمانى آيات فى سورة النساء هن خير لهذه الامة مما طلعت عليه الشمس وغربت « يريد الله ليبين لكم . والله يريد أن يتوب عليكم . يريد الله ان يخفف عنكم . ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها . ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه . ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم » (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) شروع فى بيان بعض المحرمات المتعلقة بالاموال والانفس اثر بيان المحرمات المتعلقة بالابضاع . وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لاظهار كمال العناية بمضمونه والمراد بالباطل ما يخالف الشرع كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وغير ذلك مما لم يبحه الشرع أى لا يأكل بعضكم أموال بعض بغير طريق شرعى (الا أن تكون تجارة عن تراض منكم) استثناء منقطع وعن متعلقة بمحذوف وقع صفة لتجارة أى الا أن تكون التجارة تجارة صادرة عن تراض كما فى قوله « اذا كان يوما ذا كواكب أشنعا » أى اذا كان اليوم يوما الخ أو الا أن تكون الاموال أموال تجارة . وقرىء تجارة بالرفع على أن كان تامة أى ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض أى وقوعها أو ولكن وجود تجارة عن تراض غير منهى عنه . وتخصيصها بالذكر من بين سائر أسباب الملك لكونها معظمها وأغلبها وقوعا وأوفقها لذوى المروءات . والمراد بالتراضى مراضاة المتبايعين فيما تعاقدا عليه فى حال المبايعة وقت الايجاب والقبول عندنا وعند الشافعى رحمه الله حالة الافتراق عن مجلس العقد (ولا تقتلوا أنفسكم) أى من كان من جنسكم من المؤمنين فان كلهم كنفس واحدة وعن الحسن لا تقتلوا اخوانكم . والتعبير عنهم بالانفس للمبالغة فى الزجر عن قتلهم بتصويره بصورة ما لا يكاد يفعله عاقل أو لا تهلكوا أنفسكم بتعريضها للعقاب باقتراف ما يفضى اليه فانه القتل الحقيقى لها كما يشعر به ايراده عقيب النهى عن أكل الحرام فيكون مقررا للنهى السابق . وقيل لا تقتلوا أنفسكم بالبخع كما يفعله بعض الجهلة أو بارتكاب ما يؤدي الي القتل من الجنايات وقيل بالقائها فى التهلكة وأيد بما روى عن عمرو بن العاص أنه تأوله بالتيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبى عليه الصلاة والسلام . وقرىء ولا تقتلوا بالتشديد للتكثير وقد جمع فى التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لما انه شقيقها من حيث انه سبب [illegible] تحصيل كمالاتها واستيفاء فضائلها . وتقديم النهى عن التعرض له [illegible] [illegible] النفقة . رو[illegible] [illegible] عليه امرأته حبيبة بنت [illegible] الله كان بكم رحيما) تعليل للنهى بطريق الاستئناف أى [illegible] [illegible] كم عما نهى [illegible] فان [illegible] [illegible] صلى الله عليه وسلم وشكا فقال ترغب فى الا [illegible] ان الله « فنزلت رحمة عظيمة لكم بالزجر .

وأنفسهم وقيل معناه أنه كان بكم يا أمة محمد رحيما حيث أمر بنى اسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكن توبة لهم وتمحيصا لخطاياهم ولم يكلفكم تلك التكاليف الشاقة (ومن يفعل ذلك) اشارة الى القتل خاصة أو لما قبله من أكل الاموال او ما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهما فى الفساد (عدوانا وظلما) أى افراطا فى التجاوز عن الحد واتيانا بما لا يستحقه . وقيل اريد بالعدوان التعدى على الغير وبالظلم الظلم على النفس بتعريضها للعقاب ومحلهما النصب على الحالية أو على العلية أى متعديا وظالما أو للعدوان والظلم . وقرىء عدوانا بكسر العين (فسوف نصليه) جوابا للشرط أى ندخله وقرىء بالتشديد من صلي وبفتح النون من صلاه يصليه ومنه شاة مصلية و يصليه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث انه سبب للصلى (نارا) أى نارا مخصوصة هائلة شديدة العذاب (وكان ذلك) أى أصلاؤه النار (على الله يسيرا) لتحقق الداعى وعدم الصارف. واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى (أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) أى كبائر الذنوب التي نهاكم الشرع عنه مما ذكر ههنا وما لم يذكر . وقرىء كبير على ارادة الجنس (نكفر عنكم) بنون العظمة على طريقة الالتفات. وقرىء بالياء بالاسناد اليه تعالى. والتكفير أماطة المستحق من العقاب بثواب أزيد او بتوبة نغفر أى لكم (سيئآتكم) صغائركم و نمحها عنكم قال المفسرون الصلاة الى الصلاة والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن من الصغائر اذا اجتنبت الكبائر . واختلف فى الكبائر والاقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه. وقيل ما علم حرمته بقاطع وعن النبى صلى الله عليه وسلم «انها سبع الاشراك بالله تعالى وقتل النفس التى حرمها الله تعالى. وقذف المحصنات. وأكل مال اليتيم. والربا. والفرار من الزحف. وعقوق الوالدين» . وعن على رضى الله عنه التعقب بعد الهجرة مكان عقوق الوالدين وزاد ابن عمر رضى الله عنهما السحر واستحلال البيت الحرام. وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان رجلا قال له الكبائر سبع قال هى الى سبعماية أقرب منها الى سبع .و روى عنه الى سبعين اذ لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقيل أريد به أنواع الشرك لقوله تعالى « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر [illegible] شاء » وقيل صغر الذنوب وكبرها بالاضافة الى ما فوقها وما تحتها وبحسـ[illegible] قات والاماكن أيضا فاكبر [illegible]

وسايط يصدق عليه الامران

كفها عن أكبرهما كفر

عنه ما ارتكبه لما ستحق على اجتناب الا ابر من الثواب (وندخلكم مدخلا) بضم الميم اسم مكان هو الجنة (كريما) أى حسنا مرضيا أو مصدر ميمى أى ادخالا مع كرامة. وقرىء بفتح الميم وهو أيضا يحتمل المكان والمصدر ونصبه على الثانى بفعل مقدر مطاوع للمذكور أى ندخلكم فتدخلون مدخلا أو دخولا كريما كما فى قوله:

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع ۔ من المال الا مسحت أو مجلف

أي لم تدع فلم يبق الا مسحت الخ (ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض) أى عليكم. ولعل ايثار الابهام عليه للتفادى عن المواجهة بما يشق عليهم قال القفال لما نهاهم الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل الانفس عقبه بالنهى عما يؤدى اليه من الطمع فى أموالهم وتمنيها وقيل نهاهم أولا عن التعرض لاموالهم بالجوارح ثم عن التعرض لها بالقلب على سبيل الحسد لتطهير أعمالهم الظاهرة والباطنة فالمعنى لا تتمنوا ماأعطاه الله تعالى بعضكم من الامور الدنيوية كالجاه والمال وغير ذلك مما يجرى فيه التنافس دونكم فان ذلك قسمة الله تعالى صادرة عن تدبير لائق باحوال العباد مترتب على الاحاطة بجلائل شؤونهم ودقائقها فعلى كل أحد من المفضل عليهم أن يرضى بما قسم الله له ولا يتمنى حظ المفضل ولا يحسده عليه لما أنه معارضة لحكم القدر المؤسس على الحكم البالغة لالان عدمه خير له ولا لانه لو كان خلافه لكان مفسدة له كما قيل اذ لايساعده ما سيأتى من الامر بالسؤال من فضله تعالى فانه ناطق بأن المنهي عنه تمنى نصيب الغير لاتمنى ما زاد على نصيبه مطلقا هذا وقد قيل لما جعل الله تعالى فى الميراث للذكر مثل حظ الانثيين قالت النساء نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد لانا ضعفاء وهم أقوياء وأقدر على طلب المعاش منا فنزلت. وهذا هو الانسب بتعليل النهى بقوله عز وجل (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) فانه صريح فى جريان التمنى بين فريقى الرجال والنساء ولعل صيغة المذكر فى النهى لما عبر عنهن بالبعض والمعنى لكل من الفريقين فى الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعداده وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه اياه تأكيدا لاستحقاق كل منهما لنصيبه وتقوية لاختصاصه به بحيث لايتخطاه الى غيره فان ذلك مما يوجب الانتهاء عن التمنى المذكور. روى أن امرأته حبيبة بنت زيد ... (واسألوا الله من فضله) عطف على النهى. وتوسيط التعليل بينهما ... صلى الله عليه وسلم وشكا فقال ترغيب فى الامتثال بالامر ... فنزلت قيل لا تتمنوا ما يختص ...

نعمه التي لا نفاد لها . وحذف المفعول الثاني للتعميم أي واسألوه ما تريدون فانه تعالى يعطيكموه أو لكونه معلوما من السياق أي واسألوه مثله. وقيل من زائدة والتقدير واسألوه فضله وقد جاء في الحديث «لا يتمنين أحدكم مال أخيه ولكن ليقل له اللهم ارزقني اللهم أعطني مثله» وعن ابن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «سلوا الله من فضله فانه يحب أن يسأل وأفضل العباد انتظار الفرج وحمل النصيب على الاجر الاخروى وابقاء الاكتساب على حقيقته بجعل سبب النزول ما روى ان أم سلمة رضى الله عنها قالت ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الاجر مثل مالهم على أن المعنى لكل من الفريقين نصيب خاص به من الاجر مترتب على عمله فللرجال أجر بمقابلة مايليق بهم من الاعمال كالجهاد ونحوه وللنساء أجر بمقابلة ما يليق بهن من الاعمال كحفظ حقوق الازواج ونحوه فلا تتمن النساء خصوصية أجر الرجال وليسألن من خزائن رحمته تعالى ما يليق بحالهن من الاجر لا يساعده سياق النظم الكريم المتعلق بالمواريث وفضائل الرجال (ان الله كان بكل شيء عليما) ولذلك جعل الناس على طبقات رفع بعضهم على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الابية (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والاقربون) جملة مبتدأة مقررة لمضمون ماقبلها ولكل مفعول ثان لجعلنا قدم عليه لتأكيد الشمول ودفع توهم تعلق الجعل بالبعض دون البعض كما في قوله تعالى «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا» أى ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة في الدرجة يلونها ويحرزون منها أنصباءهم بحسب استحقاقهم المنوط بما بينهم وبين المورث من العلاقة ومما ترك بيان لكل قد فصل بينهما بما عمل فيه كما فصل في قوله تعالى «قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض» بين لفظ الجلالة وبين صفته بالعامل فيما أضيف اليه أعنى غير أو ولكل قوم جعلناهم موالى أى وراثا نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين مما ترك الوالدان والاقربون على أن جعلنا موالى صفة لكل والضمير الراجع اليه محذوف والكلام مبتدأ وخبر على طريقة قولك لكل من خلقه الله انسانا من رزق الله أى حظ منه. وأما ما قيل من أن المعنى لكل أحد جعلنا موالى مما ترك أى وراثا منه على أن من صلة موالى لانه في معنى الوراث وفي ترك ضمير مستكن عائد الى كل وقوله تعالى الوالدان والاقربون [illegible] الموالى كانه قيل من هم فقيل الوالدان الخ ففيه تفكيك للنظم الكريم [illegible] ت الابهام المصحح لاعتبار الوجهين الاولين مع ما فيه

من خروج الاولاد من الموالى اذ لا يتناولهم الاقربون كالا يتناول الوالدين (والذين عقدت أيمانكم) هم موالى الموالاة كان الحليف يورث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى «وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض» وعند أبى حنيفة رحمه الله اذا أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح وعليه عقله وله ارثه ان لم يكن له وارث أصلا. واسناد العقد الى الايمان لان المعتاد هو المماسحة بها عند العقد والمعنى عقدت أيمانكم عهودهم فحذف العهود وأقيم المضاف اليه مقامه ثم حذف وقرىء عقدت بالتشديد وعاقدت بمعنى عاقدتهم أيمانكم وماسحتموهم وهو مبتدأ متضمن لمعنى الشرط ولذلك صدر الخبر أعنى قوله تعالى (فآتوهم نصيبهم) بالفاء أو منصوب بمضمر يفسره ما بعده كقولك: زيدا فاضربه أو مرفوع معطوف على الوالدان والاقربون وقوله تعالى فآتوهم الخ جملة مبينة للجملة قبلها ومؤكدة لها والضمير للموالى (ان الله كان على كل شيء) من الاشياء التى من جملتها الايتاء والمنع (شهيدا) ففيه وعد ووعيد (الرجال قوامون على النساء) كلام مستأنف ومسوق لبيان سبب استحقاق الرجال الزيادة فى الميراث تفصيلا اثر بيان تفاوت استحقاقهم اجمالا. وايراد الجملة اسمية والخبر على صيغة المبالغة للايذان بعراقتهم فى الاتصاف بما أسند اليهم ورسوخهم فيه أي شأنهم القيام عليهن بالامر والنهى قيام الولاة على الرعية وعلل ذلك بامرين وهبى وكسبى فقيل (بما فضل الله بعضهم على بعض) الباء سببية متعلقة بقوامون أو بمحذوف وقع حالا من ضميره وما مصدرية والضمير البارز لكلا الفريقين تغليبا أى قوامون عليهن بسبب تفضيل الله تعالى اياهم عليهن أو متلبسين بتفضيله تعالى الخ ووضع البعض موضع الضميرين للاشعار بغاية ظهور الامر وعدم الحاجة الى التصريح بالمفضل والمفضل عليه أصلا ولمثل ذلك لم يصرح بما به التفضيل من صفات كماله التى هى كمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأى ومزيد القسوة فى الاعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والامامة والولاية واقامة الشعائر والشهادة فى جميع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك (وبما أنفقوا من أموالهم) الباء متعلقة بما تعلقت به الأولى وما مصدرية أو موصولة حذف عائدها من الصلة ومن تبعيضية أو ابتدائية متعلقة بأنفقوا أو بمحذوف وقع حالا من العائد المحذوف أى وبسبب انفاقهم من أموالهم أو بسبب ما أنفقوه من أموالهم أو كائنا من أموالهم وهو ما أنفقوه من المهر والنفقة. روى أن سعد بن الربيع أحد نقباء الانصار رضى الله عنهم نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فانطلق بها أبوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا فقال عليه السلام «لتقتص منه» فنزلت

فقال عليه السلام اردنا أمراً وأراد الله أمراً والذى أراده الله خير (فالصالحات) شروع فى تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن أى فالصالحات منهن (قانتات) أي مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الازواج (حافظات للغيب) أى لمواجب الغيب أى لما يجب عليهن حفظه فى حال غيبة الازواج من الفروج والاموال.عن النبي صلى الله عليه وسلم « خير النساء امرأة ان نظرت اليها سرتك وان أمرتها أطاعتك واذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها و تلا الآية» . وقيل لاسرارهم واضافة المال اليها للاشعار بأن ماله فى حق التصرف فى حكم مالها كما فى قوله تعالى «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم »الآية (بما حفظ الله) ما مصدرية أى بحفظه تعالى اياهن بالامر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له أو موصولة أى بالذى حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن وقرئ بما حفظ الله بالنصب على حذف المضاف أي بالامر الذى حفظ حق الله تعالى و طاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال (واللاتى تخافون نشوزهن) خطاب للازواج وارشاد لهم الى طريق القيام عليهن.والخوف حالة تحصل فى القلب عند حدوث أمر مكروه أو عند الظن أو العلم بحدوثه وقد يراد به أحدهما أى تظنون عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم من النشز وهو المرتفع من الأرض (فعظوهن) فانصحوهن بالترغيب والترهيب (واهجروهن) بعد ذلك ان لم ينفع الوعظ والنصيحة (فى المضاجع) أى فى المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع .وقيل المضاجع المبايت أى لا تبايتوهن وقرئ فى المضجع وفى المضطجع (واضربوهن) ان لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران ضربا غير مبرح ولا شائن (فان أطعنكم) بذلك كما هو الظاهر لانه منتهى ما يعد زاجرا (فلا تبغوا عليهن سبيلا) بالتوبيخ والاذية أى فازيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له (ان الله كان عليا كبيرا)فاحذروه فانه تعالى أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم أو انه تعالى على علو شأنه يتجاوز عن سيئآتكم ويتوب عليكم عند توبتكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند اطاعتهن لكم أو أنه يتعالى ويكبر أن يظلم أحدا أو ينقص حقه . وعدم التعرض لعدم اطاعتهن لهم للايذان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يتحقق أو يفرض تحققه وان الذى يتوقع منهن ويليق بشأنهن لا سيما بعد ما كان من الزواجر هو الاطاعة ولذلك صدرت الشرطية بالفاء المنبئة عن سببية ما قبلها لما بعدها (وان خفتم شقاق بينهما) تلوين للخطاب

وتوجيهه الى الحكام وارد على بناء الامر على التقدير المسكوت عنه أعني عدم الاطاعة المؤدي الى المخاصمة والمرافعة اليهم. والشقاق المخالفة اما لأن كلا منهما يريد ما يشق على الآخر واما لأن كلا منهما في شق أي جانب غير شق الآخر. والخوف ههنا بمعنى العلم قاله ابن عباس والجزم بوجود الشقاق لا ينافي بعث الحكمين لانه لرجاء ازالته لا لتعرف وجوده بالفعل ، وقيل بمعنى الظن وضمير التثنية للزوجين وان لم يجر لهما ذكر لجرى ما يدل عليهما. واضافة الشقاق الى الظرف اما على اجرائه مجرى المفعول به كما في قوله: يا سارق الليلة أو مجرى الفاعل كما في قولك: نهاره صائم أي ان علمتم أو ظننتم تأكد المخالفة بحيث لا يقدر الزوج على ازالتها (فابعثوا) أي الى الزوجين لاصلاح ذات البين (حكما) رجلا وسطا صالحا للحكومة والاصلاح (من أهله) من أهل الزوج (وحكما) آخر على صفة الأول (من أهلها) فان الاقارب أعرف ببواطن الاحوال وأطلب للصلاح وهذا على وجه الاستحباب فلو نصبا من الاجانب جاز. واختلف في أنهما هل يليان الجمع والتفريق ان رأيا ذلك فقيل لهما ذلك وهو المروي عن علي رضي الله عنه وبه قال الشعبي وعن الحسن يجمعان ولا يفرقان. وقال مالك لهما أن يتخالعا ان كان الصلاح فيه (ان يريدا) أي الحكمان (اصلاحا) أي ان قصدا اصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى (يوفق الله بينهما) يوقع بين الزوجين الموافقة والالفة وألقى في نفوسهما المودة والرأفة. وعدم التعرض لذكر عدم ارادتهما الاصلاح لما ذكر من الايذان بان ذلك ليس مما ينبغي أن يفرض صدوره عنهما وأن الذي يليق بشأنهما ويتوقع صدوره عنهما هو ارادة الاصلاح وفيه مزيد ترغيب للحكمين في الاصلاح وتحذير عن المساهلة كيلا ينسب اختلال الامر الى عدم ارادتهما فان الشرطية الناطقة بدوران وجود التوفيق على وجود الارادة منبئة عن دوران عدمه على عدمها. وقيل كلا الضميرين للحكمين أي ان قصدا الاصلاح يوفق الله بينهما فتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما. وقيل كلاهما للزوجين أي ان أراد اصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله تعالى بينهما الالفة والوفاق وفيه تنبيه على ان من أصلح نيته فيما يتوخاه وفقه الله تعالى لمبتغاه (ان الله كان عليما خبيرا) بالظواهر والبواطن فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) كلام مبتدأ مسوق لبيان الاحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والاقارب ونحوهم أثر بيان الاحكام المتعلقة بحقوق الازواج صدر بما يتعلق بحقوق الله عز وجل التي هي آكد الحقوق وأعظمها تنبيها على جلالة شأن حقوق الوالدين بنظمها في سلكها كما في سائر المواقع

وشيئا نصب على أنه مفعول أي لا تشركوا به شيئاً من الاشياء صنما أو غيره أو على أنه مصدر أى لا تشركوا به شيئاً من الاشراك جليا أو خفيا (وبالوالدين احسانا) أي أحسنوا بهما احسانا (وبذى القربى) أى بصاحب القرابة من أخ أو عم أو خال أو نحو ذلك (واليتامى والمساكين) من الاجانب (والجار ذى القربى) أى الذى قرب جواره وقيل الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين. وقرىء بالنصب على الاختصاص تعظيما لحق الجار ذى القربى (والجار الجنب) أى البعيد أو الذى لاقرابة له وعنه عليه الصلاة والسلام الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق. حق الجوار وحق القرابة وحق الاسلام. وجار له حقان حق الجوار وحق الاسلام. وجار له حق واحد وهو حق الجوار وهو الجار من أهل الكتاب. وقرىء والجار الجنب (والصاحب بالجنب) أى الرفيق فى أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فانه صحبك وحصل بجانبك ومنهم من قعد بجنبك فى مسجد أو مجلس أو غير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه وقيل هى المرأة (وابن السبيل) هو المسافر المنقطع به أو الضيف (وما ملكت أيمانكم) من العبيد والاماء (ان الله لا يحب من كان مختالا) أي متكبرا يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت اليهم (فخورا) يتفاخر عليهم والجملة تعليل للامر السابق (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) بضم الباء وسكون الخاء. وقرئ بفتح الاول وبفتحهما وبضمهما والموصول بدل من قوله تعالى: من كان أو نصب على الذم أو رفع عليه أى هم الذين أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) أى من المال والغنى أو من نعوته عليه السلام التى بينها لهم فى التوراة وهو أنسب بأمرهم للناس بالبخل فان احبارهم كانوا يكتمونها ويأمرون أعقابهم بكتمها (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) وضع الظاهر موضع المضمر اشعارا بان من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى ومن كان كافرا بنعمة الله تعالى فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والاخفاء والآية نزلت فى طائفة من اليهود كانوا يقولون للانصار بطريق النصيحة لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر وقيل فى الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبلها (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس) أى للفخار وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا لابتغاء وجه الله تعالى وهو عطف على الذين يبخلون أو على الكافرين وانما شاركوهم فى الذم والوعيد لان البخل والسرف الذى هو الانفاق فيما لا ينبغى من حيث انهما طرفا تفريط وافراط سواء فى القبح واستتباع اللائمة والذم. ويجوز أن يكون العطف

بناء على اجراء التغاير الوصفي مجرى التغاير الذاتى كما فى قوله:

الى الملك القرم وابن الهمام ⁂ وليث الكتائب فى المزدحم

أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله تعالي ومن يكن الخ كأنه قيل والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) ليتحروا بالانفاق مراضيه تعالى وثوابه وهم مشركوا مكة المنفقون أموالهم فى عداوة رسول‌الله صلى الله عليه وسلم وقيل المنافقون (ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا) أى فقرينهم الشيطان وانما حذف للايذان بظهوره واستغنائه عن‌التصريح به والمراد به ابليس وأعوانه حيث حملوهم على تلك القبائح وزينوها لهم كما فى قوله تعالى«ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين»ويجوز أن يكون وعيداً لهم بان الشيطان يقرن بهم فى النار (وماذاعليهم) أى على من ذكر من الطوائف (لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) أى ابتغاء لوجه الله تعالى وانما لم يصرح به تعويلا على التفصيل السابق واكتفاء بذكر الايمان بالله‌واليوم الآخر فانه يقتضى‌أن يكون الانفاق لابتغاء وجهه تعالى وطلب ثوابه ألبتة أى وما الذى عليهم أو وأي تبعة ووبال عليهم فى الايمان بالله والانفاق فى سبيله وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد فى الشيء بخلاف ماهو عليه وتحريض على التفكر لطلب الجواب لعله يؤدى بهم الى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة وتنبيه على أن المدعو الى أمر لاضرر فيه ينبغى أن يجيب اليه احتياطاً فكيف إذا كان فيه منافع لاتحصى وتقديم‌الايمان بهما لأهميته فى نفسه ولعدم الاعتداد بالانفاق بدونه.وأما تقديم انفاقهم رئاء الناس على عدم ايمانهم بهما مع كون المؤخر أقبح من المقدم فلرعاية المناسبة بين انفاقهم ذلك وبين ماقبله من بخلهم وأمرهم للناس به (وكان الله بهم) وبأحوالهم المحققة (عليما) فهو وعيد لهم بالعقاب أو باعمالهم المفروضة فهو بيان لاثابته تعالي اياهم لو كانوا قد آمنوا وانفقوا كما ينبئ عنه قوله تعالى (ان الله لايظلم مثقال ذرة) المثقال مفعال من الثقة كالمقدار من القدر وانتصابه على أنه نعت للمفعول قائم مقامه سواء كان الظلم بمعنى النقص أو بمعني وضع الشيء فى غير موضعه أى لاينقص من الأجر ولا يزيد فى العقاب شيئاً مقدار ذرة أوعلى أنه نعت للمصدر المحذوف نائب منابه أى لايظلم ظلماً مقدار ذرة وهى النملة الصغيرة أوكل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة وهو الانسب بمقام المبالغة فان قلته فى الثقل أظهر من قلة النملة فيه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة

(وان تك حسنة) أي وان تك مثقال ذرة حسنة أنث لتأنيث الخبر أو لاضافته الى الذرة وحذف النون من غير قياس تشبيها بحروف العلة وتخفيفا لكثرة الاستعمال وقرىء حسنة بالرفع على أن كان تامة (يضاعفها) اى يضاعف ثوابها جعل ذلك مضاعفة لنفس الحسنة تنبيها على كمال الاتصال بينهما كأنهما شيء واحد وقرىء يضعفها وكلاهما بمعنى واحد وقرئ نضاعفها بنون العظمة على طريق الالتفات عن عثمان النهدى أنه قال لأبي هريرة رضى الله عنه بلغني عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول ان الله تعالى يعطي عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة لا بل سمعته صلى الله عليه وسلم يقول «يعطيه ألفي ألف حسنة» ثم تلا هذه الآية الكريمة والمراد الكثرة لا التحديد (ويؤت من لدنه) و يعط صاحبها من عنده على نهج التفضل زائداً على ما وعده في مقابلة العمل (أجراً عظيما) عطاء جزيلا وانما سماه أجرا لكونه تابعا للأجر مزيداً عليه (فكيف) محلها أما الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف وأما النصب بفعل محذوف على التشبيه بالحال كما هو رأي سيبويه أو على التشبيه بالظرف كما هو رأي الاخفش أى فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم أو كيف يصنعون (اذا جئنا) يوم القيامة (من كل أمة) من الأمم (بشهيد) يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد و قبائح الأعمال وهو نبيهم كما في قوله تعالى «وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم» و العامل في الظرف مضمون المبتدأ و الخبر من هول الأمر وعظم الشأن أو الفعل المقدر ومن متعلقة بجئنا (وجئنا بك) يا محمد (على هؤلاء) اشارة الى الشهداء المدلول عليهم بما ذكر (شهيداً) تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم لاستجماع شرعك لمجامع قواعدهم وقيل الى المكذبين المستفهم عن حالهم تشهد عليهم بالكفر والعصيان كما يشهد سائر الانبياء على أممهم. وقيل الى المؤمنين كما في قوله تعالى «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول) استئناف لبيان حالهم التي أشير الى شدتها وفظاعتها بقوله تعالى فكيف فان أريد بهم المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتعبير عنهم بالموصول لا سيما بعد الاشارة اليهم بهؤلاء لذمهم بما في حيز الصلة والاشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل. وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه فان حق الرسول أن يؤمن به ويطاع لا أن يكفر به ويعصى وأن أريد بهم جنس الكفرة فهم داخلون في زمرتهم دخولا أوليا والمراد بالرسول حينئذ الجنس المنتظم للنبي عليه السلام انتظاما أوليا وأياما كان ففيه

من تهويل الامر وتفظيع الحال مالايقادر قدره وقوله تعالى وعصوا عطف على كفروا داخل معه فى الصلة والمراد معاصيهم المغايرة لكفرهم ففيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع فى حق المؤاخذة وقيل حال من ضمير كفروا وقيل صلة لموصول آخر أى يود فى ذلك اليوم الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول أو الذين كفروا وقد عصوا الرسول أو الذين كفروا والذين عصوا الرسول ولو فى قوله تعالى (لو تسوى بهم الارض) ان جعلت مصدرية فالجملة مفعول ليود أى يودون أن يدفنوا فتسوى بهم الارض كالموتى وقيل يودون أنهم لم يبعثوا أولم يخلقوا وكانهم والارض سواء. وقيل تصير البهائم ترابا فيودون حالها. وان جعلت جارية على بابها فالمفعول محذوف لدلالة الجملة عليه أي يودون تسوية الارض بهم وجواب لو أيضاً محذوف إيذانا بغاية ظهوره أى لسروا بذلك وقوله تعالى (ولا يكتمون الله حديثا) عطف على يود أي ولا يقدرون على كتمانه لان جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال أى يودون أن يدفنوا فى الارض وهم لا يكتمون منه تعالى حديثا ولا يكذبونه بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين اذ روى أنهم اذ قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم فيشتد الامر عليهم فيتمنون أن تسوى على أن أصله تتسوى فأدغم التاء فى السين. وقرئ تسوى بحذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى (ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) لما نهوا فيما سلف عن الاشراك به تعالى نهوا ههنا عما يؤدى اليه من حيث لايحتسبون فانه روى أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه صنع طعاما وشرابا حين كانت الخمر مباحة فدعا نفراً من الصحابة رضى الله عنهم فاكلوا وشربوا حتى ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلى بهم فقرأ أعبد ماتعبدون فنزلت. وتصدير الكلام بحرفى النداء والتنبيه للمبالغة فى حملهم على العمل بموجب النهى وتوجيه النهى الى قربان الصلاة مع ان المراد هو النهى عن إقامتها للمبالغة فى ذلك. وقيل المراد النهى عن قربان المساجد لقوله عليه السلام جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ويأباه قوله تعالى «حتى تعلموا ماتقولون» فالمعنى لاتقيموها فى حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ماتقولونه اذ بتلك التجربة يظهر أنهم يعلمون ماسيقرءونه فى الصلاة. وحمل ماتقولون على ما فى الصلاة يستدعى تقدم الشروع فيها على غاية النهى وحمل العلم على ما بالقوة على معنى حتى تكونوا بحيث تعلمون ماستقرءونه فى الصلاة تطويل بلاطائل لان تلك الحيثية انما تظهر بما ذكر من التجربة على أن إيثار ماتقولون على ماتقرءون حينئذ يكون عاريا عن الداعى. وقيل المراد بالسكر سكر النعاس

وغلبه النوم وأياما كان فليس مرجع النهى هو المقيد مع بقاء القيد مرخصا بحاله بل انما هو القيد مع بقاء المقيد على حاله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا كانه قيل يا أيها الذين آمنوا لاتسكروا فى أوقات الصلاة. وقد روى أنهم كانوا بعد مانزلت الآية لايشربون الخمر فى اوقات الصلاة فاذا صلوا العشاء شربوها فلايصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا مايقولون (ولاجنبا) عطف على قوله تعالى وانتم سكارى فانه فى حيز النصب كأنه قيل لاتقربوا الصلاة سكارى ولاجنبا. والجنب من اصابه الجنابة يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع لجريانه مجرى المصدر (إلاعابرى سبيل) استثناء مفرغ من اعم الاحوال محله النصب على انه حال من ضمير لاتقربوا باعتبار تقييده بالحال الثانية دون الاولى والعامل فيه فعل النهى أى لاتقربوا الصلاة جنبا فى حال من الاحوال الاحال كونكم مسافرين على معنى أن فى حالة السفر ينتهى حكم النهى لكن لابطريق شمول النفى لجميع صورها بل بطريق نفى الشمول فى الجملة من غير دلالة على انتفاء خصوصية البعض المنتفى ولاعلى بقاء خصوصية البعض الباقى ولاعلى ثبوت نقيضه لاكليا ولاجزئيا فان الاستثناء لايدل على ذلك عبارة. نعم يشير الى مخالفة حكم مابعده لما قبله إشارة اجمالية يكتفى بها فى المقامات الخطابية لافى اثبات الاحكام الشرعية فان ملاك الامر فى ذلك انما هو الدليل وقد ورد عقيبه على طريقة البيان. وقيل هو صفة لجنبا على أن الا بمعنى غير أى ولا جنبا غير عابرى سبيل ومن حمل الصلاة على مواضعها فسر العبور بالاجتياز بها وجوز للجنب عبور المسجد وبه قال الشافعى رحمه الله وعندنا لايجوز ذلك إلا أن يكون الماء أو الطريق فيه. وقيل ان رجالا من الانصار كانت أبوابهم فى المسجد وكان يصيبهم الجنابة ولايجدون ممرا إلا فى المسجد فرخص لهم ذلك (حتى تغتسلوا) غاية النهى عن قربان الصلاة حالة الجنابة ولعل تقديم الاستثناء عليه للايذان من أول الأمر فان حكم النهى فى هذه الصورة ليس على الاطلاق كما فى صورة السكر تشويقاً الى البيان وروما لزيادة تقرره فى الاذهان. وفى الآية الكريمة إشارة الى أن المصلى حقه أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه وأن يزكى نفسه عما يدنسها ولا يكتفى بأدنى مراتب التزكية عند امكان أعاليها (وان كنتم مرضى) شروع فى تفصيل ما أجمل فى الاستثناء وبيان ما هو فى حكم المستثنى من الاعذار والاقتصار فيما قبل على استثناء السفر مع مشاركة الباقى له فى حكم الترخيص للاشعار بأنه العذر الغالب المنبىء عن الضرورة التى عليها يدور أمر الرخصة كأنه قيل ولا جنبا إلا مضطرين واليه مرجع ما قيل من أنه جعل عابرى سبيل كناية

عن مطلق المعذورين والمراد بالمرض ما يمنع من استعمال الماء مطلقا سواء كان ذلك بتعذر الوصول اليه أو بتعذر استعماله (أو على سفر) عطف على مرضى أى أو كنتم على سفر ماطال أو قصر . و إيراده صريحاً مع سبق ذكره بطريق الاستثناء لبناء الحكم الشرعى عليه و بيان كيفيته فان الاستثناء كما أشير اليه بمعزل من الدلالة على ثبوته فضلا عن الدلالة على كيفيته. وتقديم المرض عليه للايذان باصالته و استقلاله بأحكام لا توجد فى غيره كالاشتداد فى استعمال الماء ونحوه (أو جاء أحد منكم من الغائط) هو المكان الغائر المطمئن والمجيء منه كناية عن الحدث لان المعتاد أن من يريده يذهب اليه ليوارى شخصه عن أعين الناس. و إسناد المجيء منه الى واحد مبهم من المخاطبين دونهم للتفادى عن التصريح بنسبتهم الى ما يستحيا منه أو يستهجن التصريح به وكذلك إيثار الكناية فيما عطف عليه من قوله عز وجل (أو لامستم النساء) على التصريح بالجماع ونظمهما فى سلك سببى سقوط الطهارة و المصير الى التيمم مع كونهما سببى وجوبها ليس باعتبار أنفسهما بل باعتبار قيدهما المستفاد من قوله تعالى (فلم تجدوا ماء) بل هو السبب فى الحقيقة و انما ذكر تمهيداً له وتنبيهاً على أنه سبب للرخصة بعد انعقاد سبب الطهارة الصغرى و الكبرى كأنه قيل أو لم تكونوا مرضى أو مسافرين بل كنتم فاقدين للماء بسبب من الاسباب مع تحقيق مايوجب استعماله. و تخصيص ذكره بهذه الصورة مع أنه معتبر فى صورة المرض والسفر أيضا لندرة وقوعه فيهما. واستغنائهما عن ذكره إما لأن الجنابة معتبرة فيهما قطعاً فيعلم من حكمهما حكم الحدث الاصغر بدلالة النص لأن تقدير النظم لا تقربوا الصلاة فى حال الجنابة إلا حال كونكم مسافرين فان كنتم كذلك أو كنتم مرضى الخ و إما لما قيل من أن عموم أعواز الماء فى حق المسافر غالب و العجز عن استعمال الماء القائم مقام عدمه فى حق المريض مغن عن ذكره لفظا وما قيل من أن هذا القيد راجع الى الكل و أن قيد وجوب التطهر المكنى عنه بالمجيء من الغائط والملامسة معتبر فى الكل مما لا يساعده النظم الكريم (فتيمموا صعيدا طيبا) فتعمدوا شيئا من وجه الارض طاهرا قال الزجاج الصعيد وجه الارض ترابا أو غيره و ان كان صخرا لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده عليه و مسح لكان ذلك طهوره و هو مذهب أبى حنيفة رحمه الله وعند الشافعى رحمه الله لابد أن يعلق باليد شيء من التراب (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) أى الى المرفقين لما روى أنه عليه السلام تيمم ومسح يديه الى مرفقيه ولانه بدل من الوضوء فيتقدر بقدره (ان الله كان عفوا غفورا) تعليل للترخيص والتيسير و تقرير لهما فان من عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين و يغفر للمذنبين

لابد أن يكون ميسرا لا معسرا و قيل هو كناية عنهما فان الترفية و المسامحة من روادف العفو و توابع الغفران (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حالهم و التحذير عن موالاتهم و الخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين و توجيهه اليه ههنا مع توجيهه فيما بعد الى الكل معا للايذان بكمال شهرة شناعة حالهم و انها بلغت من الظهور الى حيث يتعجب منها كل من يراها. و الرؤية بصرية أي ألم تنظر اليهم فانهم احقاء بان تشاهدهم و تتعجب من أحوالهم وتجويز كونها قلبية على أن الى لتضمنها معنى الانتهاء لا فعلوه يأباه مقام تشهير شنائعهم و نظمها فى سلك الامور المشاهدة و المراد بهم أحبار اليهود روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى حبرين من أحبار اليهود كانا يأتيان رأس المنافقين عبد الله بن أبى و رهطه يثبطانهم عن الاسلام و عنه رضى الله عنه أيضا أنها نزلت فى رفاعة بن زيد و مالك بن دخشم كانا اذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لويا بالسانهما و عاباه و المراد بالكتاب هو التوراة و حمله على جنس الكتاب المنتظم لها انتظاما أوليا تطويل للمسافة و بالذى أوتوه ما بين لهم فيها من الاحكام و العلوم التي من جملتها ما علموه من نعوت النبي صلى الله عليه وسلم و حقية الاسلام و التعبير عنه بالنصيب المنبىء عن كونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها و المحافظة عليها للايذان بكمال ركاكة آرائهم حيث ضيعوه تضييعا. و تنوينه تفخيمى مؤيد للتشنيع عليهم و التعجيب من حالهم فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما فى حيز الصلة على كمال شناعتهم و الاشعار بمكان ما طوى ذكره فى المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذى هو أحد العوضين. و كلمة من متعلقة اما بأوتوا أو بمحذوف وقع صفة لنصيبا مبينة لفخامته الاضافية أثر بيان فخامته الذاتية أى نصيبا كائنا من الكتاب و قوله تعالى (يشترون الضلالة) قيل هو حال مقدرة من واو أوتوا ولا ريب فى أن اعتبار تقدير اشترائهم المذكور فى الايتاء مما لا يليق بالمقام. و قيل هو حال من الموصول أى ألم تنظر اليهم حال اشترائهم وأنت خبير بأنه خال عن افادة أن مادة التشنيع و التعجيب هو الاشتراء المذكور وما عطف عليه والذي تقتضيه جزالة النظم الكريم انه استئناف مبين لمناط التشنيع و مدار التعجيب المفهومين من صدر الكلام على وجه الاجمال و الابهام مبنى على سؤال نشأ منه كانه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر اليهم فقيل يأخذون الضلالة و يتركون ما أوتوه من الهداية. وانما طوى ذكر المتروك لغاية ظهور الامر لاسيما بعد الاشعار المذكور. و التعبير عن ذلك بالاشتراء الذى هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه أخذا ناشئا عن الرغبة

فيها والاعراض عنه للايذان بكمال رغبتهم فى الضلالة التى حقها ان يعرض عنها كل الاعراض واعراضهم عن الهداية التى يتنافس فيها المتنافسون. وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغاية ركاكة آرائهم مالا يخفى حيث صورت حالهم بصورة مالا يكاد يتعاطاه أحد ممن له أدنى تمييز وليس المراد بالضلالة جنسها الحاصل لهم من قبل حتى يخل بمعنى الاشتراء المنبئ عن تأخرها عنه بل هو فردها الكامل وهو عنادهم وتماديهم فى الكفر بعد ما علموا بشأن النبى عليه السلام وتيقنوا بحقية دينه وأنه هو النبى العربى المبشر به فى التوراة ولا ريب فى ان هذه الرتبة لم تكن حاصلة لهم قبل ذلك وقد مر فى أوائل سورة البقرة (ويريدون) عطف على يشترون شريك له فى بيان محل التشنيع والتعجيب. وصيغة المضارع فيهما للدلالة على الاستمرار التجددى فان تجدد حكم اشترائهم المذكور وتكرر العمل بموجبه فى قوة تجدد نفسه وتكرره أى لا يكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون بما فعلوا من كتمان نعوته عليه السلام (أن تضلوا) أنتم أيضا أيها المؤمنون (السبيل) المستقيم الموصل الى الحق (والله أعلم) أى منكم (باعدائكم) جميعا ومن جملتهم هؤلاء وقد أخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون بكم لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم أو هو أعلم بحالهم ومآل أمرهم. والجملة معترضة لتقرير اراداتهم المذكورة (وكفى بالله وليا) فى جميع أموركم ومصالحكم (وكفى بالله نصيرا) فى كل المواطن فثقوا به واكتفوا بولايته ونصرته ولا تتولوا غيره أو لا تبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء فانه تعالى يكفيكم مكرهم وشرهم ففيه وعد ووعيد والباء مزيدة فى فاعل كفى لتأكيد الاتصال الاسنادي بالاتصال الاضافى. وتكرير الفعل فى الجملتين مع اظهار الجلالة فى مقام الاضمار لا سيما فى الثانى لتقوية استقلالهما المناسب للاعتراض وتأكيد كفايته عز وجل فى كل من الولاية والنصرة والاشعار بعليتهما فان الالوهية من موجباتهما لامحالة (من الذين هادوا) قيل هو بيان لاعدائكم وما بينهما اعتراض وفيه أنه لاوجه لتخصيص علمه سبحانه بطائفة من أعدائهم لا سيما فى معرض الاعتراض الذى حقه العموم والاطلاق وانتظام ما هو المقصود فى المقام انتظاما أوليا كما أشير اليه. وقيل هو صلة لنصيرا أى ينصركم من الذين هادوا كما فى قوله تعالى «فمن ينصرنى من الله» وفيه مافيه من تحجير واسع نصرته عز وجل مع أنه لاداعى الى وضع الموصول موضع ضمير الاعداء لان مافى حيز الصلة ليس بوصف ملائم للنصر. وقيل هو خبر مبتدا محذوف وقع قوله تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه) صفة له

أى من الذين هادوا قوم أو فريق يحرفون الخ وفيه انه يقتضى كون الفريق السابق بمعزل من التحريف الذى هو المصداق لاشترائهم فى الحقيقة فالذي يليق بشأن التنزيل الجليل أنه بيان للموصول الاول المتناول بحسب المفهوم لاهل الكتابين قد وسط بينهما ماوسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارعة الى تنفير المؤمنين منهم وتحذيرهم عن مخالطتهم والاهتمام بحملهم على الثقة بالله عز وجل والاكتفاء بولايته ونصرته وأن قوله تعالى يحرفون وما عطف عليه بيان لاشترائهم المذكور وتفصيل لفنون ضلالتهم وقد روعيت فى النظم الكريم طريقة التفسير بعد الابهام والتفصيل اثر الاجمال روما لزيادة تقرير يقتضيه الحال والكلم اسم جنس واحده كلمة كتمر وتمرة . وتذكير ضميره باعتبار افراده لفظا وجمعية مواضعه باعتبار تعدده معنى.وقرىء بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف كلمة وقريء يحرفون الكلام والمراد به ههنا اما مافى التوراة خاصة واما ماهو أعم منه ومماسيحكى عنهم من الكلمات المعهودة الصادرة عنهم فى اثناء المحاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مساغ لارادة تلك الكلمات خاصة بأن يجعل عطف قوله تعالى (ويقولون سمعنا وعصينا) الخ على ماقبله عطفا تفسيريا لما ستقف على سره فان أريد به الاول كما هو رأى الجمهور فتحريفه ازالته عن مواضعه التى وضعه الله تعالى فيها من التوراة كتحريفهم فى نعت النبى عليه السلام اسمر ربعة عن موضعه فى التوراة بأن وضعوا مكانه آدم طوال وكتحريفهم الرجم بوضعهم بدله الحد أو صرفه عن المعنى الذى أنزله الله تعالى فيه الى مالا صحة له بالتأويلات الزائغة الملائمة لشهواتهم الباطلة.وان أريد به الثانى فلابد من أن يراد بمواضعه مايليق به مطلقا سواء كان ذلك بتعيينه تعالى صريحا كمواضع مافى التوراة أو بتعيين العقل أو الدين كمواضع غيره وأياما كان فقولهم سمعنا وعصينا ينبغى أن يجري على اطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة بل وأن يحمل على ماهو أعم من القول الحقيقى ومما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم ليندرج فيه مانطقت به ألسنة حالهم عند تحريف التوراة فان من لايتفوه بتلك العظيمة لايكاد يتجاسر على مثل هذه الجناية والا لحمله على ماقالوه فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم من القبائح خاصة يستدعى اختصاص حكم الشرطية الآتية وما بعدها بهن من غير تعرض لتحريفهم التوراة مع أنه معظم جناياتهم المعدودة ومن ههنا انكشف لك السر الموعود فتأمل أى يقولون فى كل أمر مخالف لاهوائهم الفاسدة سواء كان بمحضر النبى صلى الله عليه وسلم أولا

بلسان المقال أو الحال سمعنا وعصينا عنادا وتحقيقا للمخالفة وقوله تعالى (واسمع غير مسمع)عطف على سمعنا وعصينا داخل تحت القول أي ويقولون ذلك في أثناء مخاطبته عليه السلام خاصة وهو كلام ذو وجهين محتمل للشر بأن يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاما أصلا بصمم أو موت أي مدعوا عليك بلا سمعت أو غير مسمع كلاما ترضاه فحينئذ يجوز أن يكون نصبه على المفعولية وللخير بأن يحمل على اسمع منا غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين له عليه السلام ارادة المعنى الاخير وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الاول مطمئنون به (وراعنا)عطف على اسمع غير مسمع أي ويقولون في أثناء خطابهم له عليه السلام هذا أيضا يوردون كلا من العظائم الثلاث في مواقعها وهي أيضا كلمة ذات وجهين محتملة للخير بحملها على معنى أرقبنا وانظرنا نكلمك وللشر بحملها على السب بالرعونة أي الحمق أو باجرائها مجرى مايشبهها من كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهي راعينا كانوا يخاطبونه عليه السلام بذلك ينوون الشتيمة والاهانة ويظهرون التوقير والاحترام ومصيرهم الى مسلك النفاق في القولين الاخيرين مع تصريحهم بالعصيان في الاول لما قالوا من أن جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء وقيل كانوا يقولون الاول فيما بينهم وقيل يجوز أن لا ينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا به جعلوا كأنهم نطقوا به (ليا بألسنتهم) أي فتلا بها وصرفا للكلام عن نهجه الى نسبة السب حيث وضعوا غير مسمع موضع لا أسمعت مكروها وأجروا راعنا المشابهة لراعينا مجرى انظرنا أو فتلا بها وضما لما يظهرونه من الدعاء والتوقير الى ما يضمرونه من السب والتحقير (وطعنا في الدين) أي قدحا فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصابهما على العلية ليقولون باعتبار تعلقه بالقولين الأخيرين أي يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه الى السب والطعن في الدين أو على الحالية أي لاوين وطاعنين في الدين (ولو أنهم)عند ماسمعوا شيئا من أوامر الله تعالى ونواهيه (قالوا) بلسان المقال أو بلسان الحال مكان قولهم سمعنا وعصينا (سمعنا وأطعنا) انما أعيد سمعنا مع أنه متحقق في كلامهم وانما الحاجة الى وضع أطعنا مكان عصينا الا للتنبيه على عدم اعتباره بل على اعتبار عدمه كيف لا وسماعهم سماع الرد ومرادهم بحكايته اعلام أن عصيانهم الامر بعد سماعه والوقوف عليه فلابد من ازالته واقامة سماع القبول مقامه (واسمع) أي لو قالوا عند مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام بدل قولهم اسمع غير مسمع اسمع (وانظرنا) أي ولو قالوا ذلك بدل قولهم راعنا ولم يدسوا تحت كلامهم شرا وفسادا أي لو ثبت أنهم قالوا هذا مكان ماقالوا من الاقوال (لكان) قولهم ذلك (خيرا لهم) مما قالوا (وأقوم) أي أعدل وأسد في

نفسه . وصيغة التفضيل اما على بابها واعتبار أصل الفضل فى المفضل عليه بناء على اعتقادهم أو بطريق التهكم واما بمعنى اسم الفاعل وانما قدم فى البيان حاله بالنسبة اليهم على حاله فى نفسه لان همهم مقصورة على ماينفعهم (ولكن لعنهم الله بكفرهم) أى ولكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فخذلهم الله تعالى وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم بذلك (فلا يؤمنون) بعد ذلك (الا قليلا) قيل أي الا ايمانا قليلا لا يعبأ به وهو الايمان ببعض الكتب والرسل أو الا زمانا قليلا هو زمان الاحتضار فانهم يؤمنون حين لاينفعهم الايمان قال تعالى « وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته » وكلاهما ليس بايمان قطعا وقد جوز أن يراد بالقلة العدم بالكلية على طريقة قوله تعالى « لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى » أى ان كان الايمان المعدوم ايمانا فهم يحدثون شيئاً من الايمان فهو فى المعنى تعليق بالمحال وأنت خبير بأن الكل يأباه مايعقبه من الأمر بالايمان بالقرآن الناطق بهذا لأفضائه الى التكليف بالمحال الذى هو ايمانهم بعدم ايمانهم المستمر أما على الوجه الأخير فظاهر وأما على الأولين فلان أمرهم بالايمان المنجز بجميع الكتب والرسل تكليف لهم بايمانهم بعدم ايمانهم ببعض الكتب والرسل وبعدم ايمانهم إلى وقت الاحتضار فالوجه أن يحمل القليل على من يؤمن بعد ذلك لكن لايجعل المستثنى منه ضمير الفاعل فى لايؤمنون لافضائه إلى وقوع ايمان من لعنه الله تعالى وخذله مع مافيه من نسبة القراء إلى الاتفاق على غير المختار بل يجعله ضمير المفعول فى لعنهم أي ولكن لعنهم الله الا فريقاً قليلا فانه تعالى لم يلعنهم فلم ينسد عليهم باب الايمان وقد آمن بعد ذلك فريق من الاحبار كعبد الله بن سلام وكعب واضرابهما كما سيأتى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) تلوين للخطاب وتوجيه له أما إلى من حكيت أحوالهم وأقوالهم خاصة بطريق الالتفات ووصفهم تارة بايتاء الكتاب أى التوراة وأخرى بايتاء نصيب منها لتوفية كل من المقامين حقه فان المقصود فيما سبق بيان أخذهم الضلالة وازالة ماأوتوه بمقابلتها بالتحريف وليس ماأزالوه بذلك كلها حتى يوصفوا بايتائه بل هو بعضها فوصفوا بايتائه وأما ههنا فالمقصود تأكيد ايجاب الامتثال بالامر الذى يعقبه والتحذير عن مخالفته من حيث ان الايمان بالمصدق موجب للايمان بما يصدقه والكفر بالثانى مقتض للكفر بالاول قطعا ولا ريب فى أن المحذور عندهم انما هو لزوم الكفر بالتوراة نفسها لابعضها وذلك انما يتحقق بجعل القرآن مصدقا لكلها وان كان مناط التصديق بعضا منها ضرورة أن مصدق البعض مصدق للكل متضمن له حتما أو

وإما اليهم وإلى غيرهم قاطبة وهو الاظهر وأياما كان فتفصيل ما فصل لما كان من مظان اقلاع كل من الفريقين عما كانوا عليه من الضلالة عقب ذلك الامر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهداية مشفوعا بالوعيد الشديد على المخالفة فقيل (آمنوا بما نزلنا) من القرآن عبر عنه بالموصول تشريفا له بما فى حيز الصلة وتحقيقا لكونه من عنده عز وجل (مصدقا لما معكم) من التوراة عبر عنها بذلك للايذان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال فان المعية المستدعية لدوام تلاوتها وتكرر المراجعة اليها من موجبات العثور على مافى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكون القرآن مصدقا لها ومعنى تصديقه اياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أو كونه موافقا لها فى القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وأما مايتراءي من مخالفته لها فى جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأمم والأعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى عين الموافقة من حيث ان كلا منها حق بالاضافة إلى عصره متضمن للحكمة التى عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعى» (من قبل أن نطمس وجوها) متعلق بالأمر مفيد للمسارعة إلى الامتثال به والجد فى الانتهاء عن مخالفته بما فيه من الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وآكده حيث لم يعلق وقوع المتوعد به بالمخالفة ولم يصرح بوقوعه عندها تنبيها على أن ذلك أمر محقق غنى عن الاخبار به وأنه على شرف الوقوع متوجه نحو المخاطبين وفى تنكير الوجوه المفيد للتكثير تهويل للخطب وفى ابهامها لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الايمان وأصل الطمس محو الآثار وازالة الأعلام أى آمنوا من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونزيل آثارها قال ابن عباس رضى الله عنهما نجعلها كخف البعير أو كحافر الدابة وقال قتادة والضحاك نعميها كقوله تعالى «فطمسنا أعينهم» وقيل نجعلها منابت الشعر كوجوه القردة (فنردها على أدبارها) فنجعلها على هيئة أدبارها واقفائها مطموسة مثلها فالفاء للتسبيب أو ننكسها بعد الطمس فنردها إلى موضع الاقفاء والأقفاء الى موضعها وقد اكتفى بذكر أشدهما فالفاء للتعقيب. وقيل المراد بالوجوه الوجهاء على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير أى من قبل ان نغير أحوال وجهائهم فنسلب اقبالهم ووجاهتهم ونكسوهم صغاراً وأدبارا أو نردهم من حيث جاءوا منه وهى أذرعات الشأم فالمراد بذلك اجلاء بنى النضير ولا يخفى أنه لايساعده مقام تشديد الوعيد وتعميم التهديد للجميع

فالوجه ماسبق من الوجوه وقد اختلف فى أن الوعيد هل كان بوقوعه فى الدنيا أو فى الآخرة فقيل كان بوقوعه فى الدنيا ويؤيده ماروى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه لما قدم من الشام وقد سمع هذه الآية أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله فاسلم وقال يارسول الله ما كنت أرى أن أصل اليك حتى يتحول وجهى إلى قفاى وفى رواية جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويده على وجهه وأسلم وقال ماقال وكذا ماروى أن عمر رضى الله عنه قرأ هذه الآية على كعب الاحبار فقال كعب يارب آمنت يارب أسلمت مخافة أن يصيبه وعيدها ثم اختلفوا فقيل إنه منتظر بعد ولا بد من طمس فى اليهود ومسخ وهو قول المبرد وفيه أن انصراف العذاب الموعود عن أوائلهم وهم الذين باشروا أسباب نزوله وموجبات حلوله حيث شاهدوا شواهد النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبوها وفى التوراة فحرفوها وأصروا على الكفر والضلالة وتعلق بهم خطاب المشافهة بالوعيد ثم نزوله على من وجد بعد مئات من السنين من أعقابهم الضالين باضلالهم العاملين بما مهدوا من قوانين الغواية بعيد من حكمة الله تعالى العزيز الحكيم. وقيل ان وقوعه كان مشروطا بعدم الايمان وقد آمن من أحبارهم المذكوران واضرابهما فلم يقع . وفيه أن إسلام بعضهم ان لم يكن سبباً لتأكد نزول العذاب على الباقين لتشديدهم النكير والعناد بعد ازدياد الحق وضوحا وقيام الحجة عليهم بشهادة أماثلهم العدول فلا أقل من أن لا يكون سببا لرفعه عنهم. وقيل كان الوعيد بوقوع أحد الامرين كما ينطق به قوله تعالى (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) فان لم يقع الامر الاول فلا نزاع فى وقوع الثانى كيف لا وهم ملعونون بكل لسان فى كل زمان وتفسير اللعن بالمسخ ليس بمقرر ألبتة وأنت خبير بان المتبادر من اللعن المشبه بلعن أصحاب السبت هو المسخ وليس فى عطفه على الطمس والرد على الادبار شائبة دلالة على عدم ارادة المسخ ضرورة أنه تغيير مغاير لما عطف عليه على أن المتوعد به لابد أن يكون أمرا حادثا مترتبا على الوعيد محذورا عندهم ليكون مزجرة عن مخالفة الامر ولم يعهد أنه وقع عليهم لعن بهذا الوصف انما الواقع عليهم ما تداولته الالسنة من اللعن المستمر الذى ألفوه وهو بمعزل من صلاحية أن يكون حكما لهذا الوعيد أو مزجرة للعنيد . وقيل انما كان الوعيد بوقوع ما ذكر فى الآخرة عند الحشر وسيقع فيها لامحالة أحد الامرين أو كلاهما على سبيل التوزيع وأما ماروى عن عبدالله بن سلام وكعب فمبنى على الاحتياط اللائق بشأنهما والحق أن النظم الكريم ليس بنص فى أحد الوجهين بل المتبادر منه بحسب المقام هو الاول

لانه أدخل فى الزجر وعليه مبنى ماروي عن الحبرين لكن لما لم يتضح وقوعه علم أن المراد هو الثانى والله تعالى أعلم وأياما كان فلعل السر فى تخصيصهم بهذه العقوبة من بين العقوبات مراعاة المشاكلة بينها وبين ما أوجبها من جنايتهم التى هى التحريف والتغيير والله هو العليم الخبير (وكان أمر الله) أى ما أمر به كائناما كان أو امره بايقاع شيء مامن الاشياء (مفعولا) نافذا كائنالامحالة فيدخل فيه ماأوعدتم به دخولا أوليا فالجملة اعتراض تذييلى مقرر لماسبق . ووضع الاسم الجليل موضع الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية مافى الاعتراض من الاستقلال (ان الله لايغفر أن يشرك به) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من الوعيد وتأكيد وجوب الامتثال بالامر بالايمان ببيان استحالة المغفرة بدونهم فانهم كانوا يفعلون مايفعلون من التحريف ويطمعون فى المغفرة كما فى قوله تعالى « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى» أى على التحريف ويقولون سيغفر لنا . والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاما أوليا فان الشرع قد نص على اشراك أهل الكتاب قاطبة وقضى بخلود أصناف الكفرة فى النار ونزوله فى حق اليهود كما قال مقاتل وهو الانسب بسياق النظم الكريم وسياقه لايقتضى اختصاصه بكفرهم بل يكفى اندراجه فيه قطعا بل لاوجه له أصلا لاقتضائه جواز مغفرة مادون كفرهم فى الشدة من أنواع الكفر أي لايغفر الكفر لمن اتصف به بلا توبة وايمان لان الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر وجواز مغفرته بلا ايمان مما يؤدى الى فتحه ولان ظلمات الكفر والمعاصى انما يسترها نور الايمان فمن لم يكن له ايمان لم يغفر له شيء من الكفر والمعاصى (ويغفر مادون ذلك) عطف على خبر ان وذلك اشارة الى الشرك وما فيه من معنى البعد مع قربه فى الذكر للايذان ببعد درجته وكونه فى أقصى مراتب القبح أي ويغفر مادونه فى القبح من المعاصى صغيرة كانت أو كبيرة تفضلا من لدنه واحسانا من غير توبة عنها لكن لا لكل أحد بل (لمن يشاء) أى لمن يشاء أن يغفرله ممن اتصف به فقط لا بما فوقه فان مغفرتهما لمن اتصف بهما سواء فى استحالته الدخول تحت المشيئة المبنية على الحكمة التشريعية فان اختصاص مغفرة المعاصى من غير توبة باهل الايمان من متممات الترغيب فيه والزجر عن الكفر ومن علق المشيئة بكلا الفعلين وجعل الوصول الاول عبارة عمن لم يتب والثانى عمن تاب فقد ضل سواء الصواب كيف لاوان مساق النظم الكريم لاظهار كمال عظم جريمة الكفر وامتيازه عن سائر المعاصى ببيان استحالة مغفرته وجواز مغفرتها

فلو كان الجواز على تقدير التوبة لم يظهر بينهمافرق للاجماع على مغفرتهما بالتوبة ولم يحصل ما هو المقصود من الزجر البليغ عن الكفر والطغيان والحمل على التوبة والايمان (ومن يشرك بالله) اظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لزيادة تقبيح الاشراك وتفظيع حال من يتصف به (فقد افترى اثما عظيما) أى افتري واختلق مرتكبا اثما لايقادر قدره ويستحقر دونه جميع الآثام فلا تتعلق به المغفرة قطعا (ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم) تعجيب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان والمراد بهم اليهود الذين يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل ناس من اليهود جاؤا باطفالهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هل على هؤلاء ذنب فقال عليه الصلاة والسلام لا. قالوا ما نحن الا كهيئتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار أى انظر اليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكياء عند الله تعالى مع ماهم عليه من الكفر والاثم العظيم أو من ادعائهم التكفير مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره أو معاصيه وفيه تحذير من اعجاب المرء بنفسه وبعمله (بل الله يزكى من يشاء) عطف على مقدر ينساق اليه الكلام كانه قيل هم لايزكونها فى الحقيقة لكذبهم وبطلان اعتقادهم بل الله يزكى من يشاء تزكيته ممن يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين اذ هو العليم الخبير بما ينطوى عليه البشر من المحاسن والمساوى وقد وصفهم الله بما هم متصفون به من القبائح وأصل التزكية نفى مايستقبح بالفعل أو بالقول (ولا يظلمون) عطف على جملة قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها وايذانا بانها غنية عن الذكر أى يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون فى ذلك العقاب (فتيلا) أى أدنى ظلم وأصغره وهو الخيط الذى فى شق النواة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقيل التقدير يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلا ولا يساعده مقام الوعيد (انظر كيف يفترون على الله الكذب) كيف نصب اما على التشبيه بالظرف أو بالحال على الخلاف المشهور بين سيبويه والاخفش والعامل يفترون وبه تتعلق على أي فى أي حال أو على أى حال يفترون عليه تعالى الكذب والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض والنظر متعلق بهما وهو تعجيب أثر تعجيب وتنبيه على ان ما ارتكبوه متضمن لامرين عظيمين موجبين للتعجيب ادعاءهم الاتصاف بماهم متصفون بنقيضه وافتراؤهم على الله سبحانه. فان ادعاءهم الزكاء عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاءه اياهم تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولكون هذا اشنع من الاول جرما وأعظم قبحا لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى الى ما يستحيل

عليه بالكلية من قبول الكفر و ارتضائه لعباده و مغفرة كفر الكافر و سائر معاصيه وجه النظر الى كيفيته تشديدا للتشنيع و تأكيدا للتعجيب والتصريح بالكذب مع أن الافتراء لا يكون الا كذبا للمبالغة فى تقبيح حالهم (وكفى به) أى بافترائهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العظام (اثما مبينا) ظاهرا بينا كونه اثما و المعنى كفى ذلك وحده فى كونهم أشد اثما من كل كفار أثيم أوفى استحقاقهم لأشد العقوبات لما مر سره وجعل الضمير لزعمهم مما لا مساغ له لاخلاله بتهويل أمر الافتراء فتدبر (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) تعجيب من حال أخرى لهم و وصفهم بما ذكر من ايتاء النصيب لما مر من منافاته لما صدر عنهم من القبائح وقوله عز وجل (يؤمنون بالجبت والطاغوت) استئناف مبين لمادة التعجب مبنى على سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون حين ينظر اليهم فقيل يؤمنون الخ والجبت الأصنام و كل ما عبد من دون الله تعالى فقيل أصله الجبس وهو الذي لا خير عنده فابدل السين تاء وقيل الجبت الساحر بلغة الحبشة والطاغوت الشيطان قيل هو فى الاصل كل ما يطغى الانسان. روى أن حيى بن أخطب وكعب بن الاشرف اليهوديين خرجا الى مكة فى سبعين راكبا من اليهود ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم و ينقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه عليه السلام فقالوا أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب الى محمد منكم الينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا فهذا ايمانهم بالجبت الطاغوت لانهم سجدوا للاصنام و أطاعوا ابليس فيما فعلوا وقال أبو سفيان لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم و نحن أميون لا نعلم فأينا أهدي طريقا نحن أم محمد فقال ماذا يقول محمد قال يأمر بعبادة الله وحده و ينهى عن الشرك قال وما دينكم قالوا نحن ولاة البيت نسقى الحاج ونقري الضيف ونفك العاني وذكروا أفعالهم فقال أنتم أهدي سبيلا وذلك قوله تعالي (ويقولون للذين كفروا) أي لاجلهم وفى حقهم (هؤلاء) يعنونهم (أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أي أقوم دينا و أرشد طريقة . وايرادهم بعنوان الايمان ليس من قبل القائلين بل من جهة الله تعالي تعريفا لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح (أولئك) اشارة الى القائلين وما فيه من معنى البعد مع قربهم فى الذكر للاشعار ببعد منزلتهم فى الضلال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الذين لعنهم الله) أي أبعدهم عن رحمته وطردهم والجملة مستأنفة لبيان حالهم و اظهار مصيرهم ومآلهم (ومن يلعن الله) أي يبعده عن رحمته (فلن تجد له نصيرا) يدفع عنه العذاب

دنيويا كان أو أخرويا لا بشفاعة ولا بغيرها وفيه تنصيص على حرمانهم مما طلبوا من قريش .وفى كلمة ان و توجيه الخطاب الى كل أحد ممن يتسنى له الخطاب وتوحيد النصير منكرا والتعبير عن عدمه بعدم الوجدان المنبيء عن سبق الطلب مسندا الى المخاطب العام من الدلالة على حرمانهم الابدى بالكلية ما لا يخفى (أم لهم نصيب من الملك) شروع فى تفصيل بعض آخر من قبائحهم و أم منقطعة و ما فيها من بل للاضراب والانتقال من ذمهم بتزكيتهم أنفسهم و غيرها مما حكى عنهم الى ذمهم بادعائهم نصيبا من الملك و بخلهم المفرط وشحهم البالغ والهمزة لانكار أن يكون لهم مايدعونه وابطال ما زعموا أن الملك سيصير اليهم وقوله تعالى (فاذن لا يؤتون الناس نقيرا) بيان لعدم استحقاقهم له بل لاستحقاقهم الحرمان منه بسبب أنهم من البخل والدناءة بحيث لو أوتوا شيئاً عن ذلك لما أعطوا الناس منه أقل قليل .ومن حق من أوتى الملك أن يؤثر الغير بشيء منه فالفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أى ان جعل لهم نصيب منه فاذن لا يؤتون الناس مقدار نقير وهو مافى ظهر النواة من النقرة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم واذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متفاقرون ويجوز أن لا تكون الهمزة لانكار الوقوع بل لانكار الواقع و التوبيخ عليه أى لعده منكرا غير لائق بالوقوع على أن الفاء للعطف و الانكار متوجه الي مجموع المعطوفين على معني ألهم نصيب وافر من الملك حيث كانوا أصحاب أموال و بساتين وقصور مشيدة كالملوك فلا يؤتون الناس مع ذلك نقيرا كما تقول لغنى لا يراعى أباه ألك هذا القدر من المال فلا تنفق على أبيك شيئاً وفائدة اذن تأكيد الانكار والتوبيخ حيث يجعلون ثبوت النصيب سببا للمنع مع كونه سببا للاعطاء وهى ملغاة عن العمل كأنه قيل فلا يؤتون الناس اذن وقرئ فاذن لا يؤتوا بالنصب على أعمالها (أم يحسدون الناس) منقطعة أيضا مفيدة للانتقال من توبيخهم بماسبق الى توبيخهم بالحسد الذى هو شر الرذائل و أقبحها لا سيما على ماهم بمعزل من استحقاقه واللام فى الناس للعهد و الاشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم و المؤمنين وحمله على الجنس ايذانا بحيازتهم للكمالات البشرية قاطبة فكأنهم هم الناس لا غير لا يلائمه ذكر حديث آل ابراهيم فان ذلك لتذكير ما بين الفريقين من العلاقة الموجبة لاشتراكهما فى استحقاق الفضل والهمزة لانكار الواقع واستقباحه فانهم كانوا يطمعون أن يكون النبي الموعود منهم فلما خص الله تعالي بتلك الكرامة غيرهم حسدوهم أي بل أيحسدونهم (على ما آتاهم الله من فضله) يعني النبوة والكتاب وازدياد العز والنصر يوما فيوما

و قوله تعالى (فقد آتينا) تعليل للانكار و الاستقباح والزام لهم بما هو مسلم عندهم وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتى من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرا عن كابر واجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لاظهار كمال العناية بالامر. والمعنى أن حسدهم المذكور فى غاية القبح والبطلان فانا قد آتينا من قبل هذا (آل ابراهيم) الذين هم أسلاف محمد عليه الصلاة و السلام وأبناء أعمامه (الكتاب و الحكمة) أى النبوة (وآتيناهم) مع ذلك (ملكا عظيما) لا يقادر قدره فكيف يستبعدون نبوته عليه الصلاة والسلام و يحسدونه على ايتائها. وتكرير الايتاء لما يقتضيه مقام التفضيل مع الاشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة فان أريد به الايتاء بالذات فالمراد بآل ابراهيم أنبياؤهم خاصة والضمير المنصوب فى الفعل الثانى لبعضهم اما بحذف المضاف أو بطريق الاستخدام لما ان الملك لم يؤت كلهم قال ابن عباس رضى الله عنهما الملك فى آل ابراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ان أريد به ما يعمه وغيره من الايتاء بالواسطة وهو اللائق بالمقام والاوفق لما قبله من نسبة ايتاء الفضل الى الناس فالمراد بآل ابراهيم كلهم فان تشريف البعض بما ذكر من ايتاء النبوة و الملك تشريف للكل لاعتنائهم بآثاره واقتباسهم من أنواره وفى تفصيل ما أوتوه وتكرير الفعل و وصف الملك بالعظم وتنكيره التفخيمى من تأكيد الالزام وتشديد الانكار ما لا يخفى هذا هو المتبادر من النظم الكريم واليه جنح جمهور أئمة التفسير لكن الظاهر حينئذ ان يكون قوله تعالى (فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) حكاية لما صدر عن أسلافهم عقيب وقوع المحكى من غير أن يكون له دخل فى الالزام الذي سبق له الكلام أى فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن بما أوتى آل ابراهيم ومنهم من أعرض عنه وأما جعل الضميرين لما ذكر من حديث آل ابراهيم فيستدعى تراخى الآية الكريمة عما قبلها نزولا كيف لا وحكاية ايمانهم بالحديث المذكور واعراضهم عنه بصيغة الماضى انما يتصور بعد وقوع الايمان والاعراض المتأخرين عن سماع الحديث المتأخر عن نزوله وكذا جعلهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذ الظاهر بيان حالهم بعد هذا الالزام وحمله على حكاية حالهم السابقة لا تساعده الفاء المرتبة لما بعدها على ما قبلها ولا يبعد كل البعد أن تكون الهمزة لتقرير حسدهم وتوبيخهم بذلك ويكون قوله تعالى فقد آتينا الآية تعليلا له بدلالته على اعراضهم عما أوتى آل ابراهيم وان لم يذكر كونه بطريق الحسد كانه قيل بل أيحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يؤمنون به وذلك ديدنهم المستمر فانا قد آتينا آل ابراهيم ما آتينا فمنهم أي من

جنسهم من آمن بما آتيناهم ومنهم من أعرض عنه ولم يؤمن به والله سبحانه اعلم وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (وكفى بجهنم سعيرا) نارا مسعرة يعذبون بها والجملة تذييل لما قبلها (ان الذين كفروا بآياتنا) ان أريد بهم الذين كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد بالآيات اما القرآن أو مايعم كله وبعضه أو ما يعم سائر معجزاته أيضا وان أريد بهم الجنس المتناول لهم تناولا أوليا فالمراد بالآيات ما يعم المذكورات وسائر الشواهد التي أوتيها الانبياء عليهم السلام (سوف نصليهم نارا) قال سيبويه سوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد وينوب عنها السين وقد يذكران فى الوعد فيفيدان التأكيد أى ندخلهم نارا عظيمة هائلة (كلما نضجت جلودهم) أى احترقت وكلما ظرف زمان والعامل فيه (بدلناهم جلودا غيرها) من قبيل بدله بخوفه أمنا لامن قبيل يبدل الله سيئآتهم حسنات أى أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلدا جديدا مغايرا للمحترق صورة وان كان عينه مادة بان يزال عنه الاحتراق ليعود احساسه للعذاب والجملة فى محل النصب على انها حال من ضمير نصليهم وقد جوز كونها صفة لنارا على حذف العائد أى كلما نضجت فيها جلودهم فمعنى قوله تعالى (ليذوقوا العذاب) ليدوم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز أعزك الله وقيل يخلق مكانه جلدا آخر والعذاب للنفس العاصية لا لآلة ادراكها قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يبدلون جلودا بيضاء كامثال القراطيس وروى أن هذه الآية قرئت عند عمر رضى الله تعالى عنه فقال للقارىء أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندى تفسيرها يبدل فى ساعة مائة مرة فقال عمر رضى الله عنه هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم «ان بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع» وعن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة ايام» والتعبير عن ادراك العذاب بالذوق ليس لبيان قلته بل لبيان أن احساسهم بالعذاب فى كل مرة كاحساس الذائق بالمذوق من حيث انه لا يدخله نقصان بدوام الملابسة أو للاشعار بمرارة العذاب مع ايلامه أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث ان القوة الذائقة أشد الحواس تأثرا أو على سرايته للباطن ولعل السر فى تبديل الجلود مع قدرته تعالى على ابقاء ادراك العذاب وذوقه بحاله مع الاحتراق أو مع ابقاء أبدانهم على حالها مصونة عن الاحتراق أن النفس ربما تتوهم زوال الادراك بالاحتراق ولا تستبعد كل الاستبعاد

أن تكون مصونة عن التألم والعذاب صيانة بدنها عن الاحتراق (ان الله كان عزيزا) لا يمتنع عليه ما يريده ولا يمانعه أحد (حكيما) يعاقب من يعاقبه على وفق حكمته والجملة تعليل لما قبلها من الاصلاء والتبديل واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتهويل الامر وتربية المهابة وتعليل الحكم فان عنوان الالوهية مناط لجميع صفات كماله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) عقب بيان سوء حال الكفرة ببيان حسن حال المؤمنين تكميلا لمساءة الاولين ومسرة الآخرين أى الذين آمنوا بآياتنا وعملوا بمقتضياتها وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (سندخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار) وقرىء سيدخلهم بالياء ردا على الاسم الجليل وفى السين تأكيد للوعد (خالدين فيها أبدا) حال مقدرة من الضمير المنصوب فى سندخلهم وقوله عز وعلا (لهم فيها أزوج مطهرة) أى مما فى نساء الدنيا من الاحوال المستقذرة البدنية والادناس الطبيعية فى محل النصب على أنه حال من جنات أو حال ثانية من الضمير المنصوب أو على أنه صفة لجنات بعد صفة أو فى محل الرفع على أنه خبر للموصول بعد خبر (وندخلهم ظلا ظليلا) أي فينانا لاجوب فيه دائما لا تنسخه شمس اللهم ارزقنا ذلك بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل للتأكيد كما فى ليل أليل ويوم أيوم . وقرىء يدخلهم بالياء وهو عطف على سيدخلهم لا على أنه غير الادخال الأول بالذات بل بالعنوان كما فى قوله تعالى «ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ» (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) فى تصدير الكلام بكلمة التحقيق واظهار الاسم الجليل وايراد الامر على صورة الاخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه مالامزيد عليه وهو خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة كما أن الامانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذممهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية وان ورد فى شأن عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة وذلك أن رسول الله صلي الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان رضي الله عنه باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح اليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوي على بن أبي طالب يده وأخذه منه وفتح ودخل النبي صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فنزلت فأمر عليا أن يرده الى عثمان ويعتذر اليه فقال عثمان لعلي أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق فقال لقد أنزل الله تعالى فى شأنك قرآنا فقرأ عليه الآية فقال عثمان أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فهبط جبريل

عليه الصلاة والسلام وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة فى أولاد عثمان أبدا وقرىء الامانة على التوحيد والمراد الجنس لا المعهود وقيل هو أمر للولاة بأداء الحقوق المتعلقة بذممهم من المناصب وغيرها الى مستحقيها كما أن قوله تعالى (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أمر لهم بايصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير الى أصحابها وحيث كان المأمور به ههنا مختصا بوقت المرافعة قيد به بخلاف المأمور به أولا فانه لما لم يتعلق بوقت دون وقت أطلق اطلاقا فقوله تعالى أن تحكموا عطف على أن تؤدوا قد فصل بين العاطف والمعطوف بالظرف المعمول له عند الكوفيين والمقدر يدل هو عليه عند البصريين لان مابعد أن لا يعمل فيما قبلها عندهم أى وأن تحكموا اذا حكمتم الخ وقوله تعالى بالعدل متعلق بتحكموا أو بمقدر وقع حالا من فاعله أى ملتبسين بالعدل والانصاف (ان الله نعما يعظكم به) ما إما منصوبة موصوفة بيعظكم به أو مرفوعة موصولة به كأنه قيل نعم شيئا يعظكم به أو نعم الشيء الذى يعظكم به والمخصوص بالمدح محذوف أى نعما يعظكم به ذلك وهو المأمور به من أداء الامانات والعدل فى الحكومات وقرىء نعما بفتح النون والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة لمزيد لطف المخاطبين وحسن استدعاء لهم الى الامتثال بالامر واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة (ان الله كان سميعا) لاقوالكم (بصيراً) بأفعالكم فهو وعد ووعيد . واظهار الجلالة لما ذكر آنفا فان فيه تأكيد الكل من الوعد والوعيد (ياأيها الذين آمنوا) بعد ماأمر الولاة بطريق العموم أو بطريق الخصوص بأداء الامانات والعدل فى الحكومات أمر سائر الناس بطاعتهم لكن لا مطلقا بل فى ضمن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قيل (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) وهم أمراء الحق وولاة العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدى بهم من المهتدين وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام فى وجوب الطاعة لهم وقيل هم علماء الشرع لقوله تعالى «ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» ويأباه قوله تعالى (فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله) اذ ليس للمقلد ان ينازع المجتهد فى حكمه إلا أن يجعل الخطاب لاولي الامر بطريق الالتفات وفيه بعد. وتصدير الشرطية بالفاء لترتبها على ماقبلها فان بيان حكم طاعة أولى الامر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة الرسول عليه السلام يستدعى بيان حكمها عند المخالفة أى أن اختلفتم أنتم وأولو الامر منكم فى امر من أمور الدين فراجعوا فيه الى كتاب الله (والرسول) أى الى سنته وقد استدل به منكر والقياس وهو فى الحقيقة دليل على حجيته كيف لا ورد المختلف

فيه الى المنصوص عليه انما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو المعنى بالقياس ويؤيده الامر به بعد الامر بطاعة الله تعالى وبطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام فانه يدل على أن الاحكام ثلاثة ثابت بالكتاب وثابت بالسنة وثابت بالرد اليهما بالقياس (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) متعلق بالامر الاخير الوارد فى محل النزاع اذ هو المحتاج الى التحذير من المخالفة وجواب الشرط محذوف عند جمهور البصريين ثقة بدلالة المذكور عليه اي ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوه الخ فان الايمان بهما يوجب ذلك أما الايمان بالله تعالى فظاهر وأما الايمان باليوم الآخر فلما فيه من العقاب على المخالفة (ذلك) اي الرد المأمور به (خير) لكم واصلح (واحسن) فى نفسه (تأويلا) اى عاقبة ومآلا وتقديم خيريته لهم على احسنيته فى نفسه لما مر من تعلق انظارهم بما ينفعهم والمراد بيان اتصافه فى نفسه بالخيرية الكاملة والحسن الكامل فى حد ذاته من غير اعتبار فضله على شيء يشاركه فى اصل الخيرية والحسن كما ينبىء عنه التحذير السابق (الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجيبا له من حال الذين يخالفون ما مر من الأمر المحتوم ولا يطيعون الله ولا رسوله ووصفهم بادعاء الايمان بالقرآن وبما أنزل من قبله أعنى التوراة لتأكيد التعجيب وتشديد التوبيخ والاستقباح ببيان كمال المباينة بين دعواهم وبين ماصدر عنهم . وقرىء الفعلان على البناء للفاعل وقوله عز وجل (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) استئناف سيق لبيان محل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كانه قيل ماذا يفعلون فقيل يريدون الخ . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهودى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الاشرف ثم انهما احتكما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى لليهودى فلم يرض به المنافق فدعاه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال اليهودى قضى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق أهكذا قال نعم فقال عمر مكانكما حتى أخرج اليكما فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وقال ان عمر فرق بين الحق والباطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنت الفاروق» فالطاغوت كعب بن الاشرف سمى به لافراطه فى الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه أو جعل اختيار التحاكم الي غير النبى صلى الله عليه وسلم

على التحاكم اليه تحاكما الى الشيطان. وقال الضحاك المراد بالطاغوت كهنة اليهود وسحرتهم وعن الشعبي أن المنافق دعا خصمه الى كاهن فى جهينة فتحاكما اليه. وعن السدى أن الحادثة وقعت فى قتيل بين بنى قريظة والنضير فتحاكم المسلمون من الفريقين الى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى المنافقون منهما الا التحاكم الى أبى بردة الكاهن الاسلمى فتحاكموا اليه فيكون الاقتصار حينئذ فى معرض التعجيب والاستقباح على ذكر ارادة التحاكم دون نفسه مع وقوعه أيضا للتنبيه على أن ارادته مما يقضى منه العجب ولا ينبغى أن يدخل تحت الوقوع فما ظنك بنفسه وهذا أنسب بوصف المنافقين بادعاء الايمان بالتوراة فانه كما يقتضى كونهم من منافقى اليهود يقتضى كون ماصدر عنهم من التحاكم ظاهر المنافاة لادعاء الايمان بالتوراة وليس التحاكم الى كعب بن الاشرف بهذه المثابة من الظهور وأيضا فالمتبادر من قوله تعالى (وقد أمروا أن يكفروا به) كونهم مأمورين بكفره فى الكتابين وما ذاك الا الشيطان وأولياؤه المشهورون بولايته كالكهنة ونظائرهم لا من عداهم ممن لم يشتهر بذلك وقرىء أن يكفروا بها على ان الطاغوت جمع كما فى قوله تعالى «أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم» والجملة حال من ضمير يريدون مفيدة لتأكيد التعجيب وتشديد الاستقباح كالوصف السابق وقوله عز وعلا (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) عطف على يريدون داخل فى حكم التعجيب فان اتباعهم لمن يريد اضلالهم واعراضهم عمن يريد هدايتهم أعجب من كل عجيب وضلالا أما مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد كما فى قوله تعالى «وأنبتها نباتا حسنا» أى اضلالا بعيدا وأما مصدر مؤكد لفعله المدلول عليه بالفعل المذكور أى فيضلوا ضلالا وأياما كان فوصفه بالبعد الذى هو نعت موصوفه للمبالغة وقوله تعالى (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول) تكملة لمادة التعجيب ببيان اعراضهم صريحا عن التحاكم الى كتاب الله تعالى ورسوله أثر بيان اعراضهم عن ذلك فى ضمن التحاكم الى الطاغوت وقرىء تعالوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل تخفيفا كما فى قولهم: ماباليت بالة أصلها بالية كعافية وكما قالوا فى آية أن أصلها آيية فحذفت اللام ووقعت واو الجمع بعد اللام فى تعالى فضمت فصار تعالوا ومنه قول أهل مكة للمرأة تعالى بكسر اللام وعليه قول أبى فراس الحمدانى:

أيا جارتى ما أنصف الدهر بيننا ... تعالى أقاسمك الهموم تعالى

(رأيت المنافقين) اظهار المنافقين فى مقام الاضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به والاشعار بعلة الحكم والرؤية بصرية وقوله تعالى (يصدون عنك) حال من المنافقين

وقيل الرؤية قلبية والجملة مفعول ثان لها والاول هو الانسب بظهور حالهم وقوله تعالى (صدودا) مصدر مؤكد لفعله أي يعرضون عنك اعراضا وأى اعراض وقيل هو اسم للمصدر الذى هو الصد والاظهر انه مصدر لصد اللازم والصد مصدر للمتعدى يقال صد عنه صدودا أي أعرض عنه وصده عنه صدا أى منعه منه وقوله تعالى (فكيف) شروع فى بيان غائلة جناياتهم المحكية ووخامة عاقبتها أى كيف يكون حالهم (اذا أصابتهم مصيبة) أى وقت اصابة المصيبة اياهم باقتضاحهم بظهور نفاقهم (بما قدمت أيديهم) بسبب ماعملوا من الجنايات التى من جملتها التحاكم الى الطاغوت والاعراض عن حكمك (ثم جاءوك) للاعتذار عما صنعوا من القبائح وهو عطف على اصابتهم والمراد تفظيع حالهم وتهويل مادهمهم من الخطب واعترائهم من شدة الامر عند إصابة المصيبة وعند المجيء للاعتذار (يحلفون بالله) حال من فاعل جاءوك (ان أردنا الا احسانا وتوفيقا) أى ما أردنا بتحاكمنا الي غيرك الا الفصل بالوجه الحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا لحكمك فلا تؤاخذنا بما فعلنا وهذا وعيد لهم على مافعلوا وانهم سيندمون عليه حين لاينفعهم الندم ولا يغنى عنهم الاعتذار وقيل جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد اهدره الله تعالى فقالوا ما أردنا أى ما أراد صاحبنا المقتول بالتحاكم الي عمر رضى الله تعالى عنه الا أن يحسن اليه ويوفق بينه وبين خصمه (أولئك) اشارة الي المنافقين وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والنفاق وهو مبتدأ خبره (الذين يعلم الله مافى قلوبهم) أى من فنون الشرور والفسادات المنافية لما أظهروا لك من الاكاذيب (فأعرض عنهم) جواب شرط محذوف أى اذا كان حالهم كذلك فأعرض عن قبول معذرتهم وقيل عن عقابهم لمصلحة فى استبقائهم ولا تظهر لهم علمك بما فى بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر (وعظهم) أى ازجرهم عن النفاق والكيد (وقل لهم فى انفسهم) فى حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية على الشرور التي يعلمها الله تعالى أو فى انفسهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم مسارا بالنصيحة لانها فى السر أنجع (قولا بليغا) مؤثرا واصلا الي كنه المراد مطابقا لما سبق له من المقصود فالظرف على التقديرين متعلق بالامر وقيل متعلق ببليغا على رأى من يجيز تقديم معمول الصفة على الموصوف أي قل لهم قولا بليغا فى انفسهم مؤثرا فى قلوبهم يغتمون به اغتماما ويستشعرون منه الخوف استشعارا وهو التوعد بالقتل والاستئصال والايذان بان مافى قلوبهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على الله تعالى وان ذلك مستوجب لاشد العقوبات وانما هذه المكافآت والتأخير لاظهارهم الايمان

و الطاعة واضمارهم الكفر واشن أظهروا الشقاق وبرزوا بأشخاصهم من نفق النفاق ليمسنهم العذاب ان الله شديد العقاب (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) كلام مبتدأ جيء به تمهيدا لبيان خطئهم فى الاشتغال بستر جناياتهم بالاعتذار بالاباطيل وعدم تلافيها بالتوبة أى وما أرسلنا رسولا من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى فى طاعته وأمره المرسل اليهم بأن يطيعوه و يتبعوه لأنه مؤد عنه تعالى فطاعته طاعة الله تعالى و معصيته معصيته تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه فى طاعته (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) وعرضوها لعذاب على عذاب النفاق بترك طاعته و التحاكم الى غيرك (جاؤك) من غير تأخير كما يفصح عنه تقديم الظرف متوسلين بك فى التنصل عن جناياتهم القديمة و الحادثة ولم يزدادوا جناية على جناية بالقصد الى سترها بالاعتذار الباطل والايمان الفاجرة (فاستغفروا الله) بالتوبة والاخلاص و بالغو افى التضرع اليك حتى انتصبت شفيعا لهم الى الله تعالى واستغفرت لهم وانما قيل (واستغفر لهم الرسول) على طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه و سلم و تعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعته فى حيز القبول (لوجدوا الله توابا رحيما) لعلموه مبالغا فى قبول توبتهم و التفضل عليهم بالرحمة و ان فسرا لوجد ان بالمصادفة كان قوله تعالى توابا حالا و رحيما بدلا منه أو حالا من الضمير فيه وأياما كان ففيه فضل ترغيب للسامعين فى المسارعة الى التوبة و الاستغفار ومزيد تنديم لأولئك المنافقين على ماصنعوا لما أن ظهور تباشير قبول التوبة وحصول الرحمة لهم ومشاهدتهم لآثارها نعمة زائدة عليهما موجبة لكمال الرغبة فى تحصيلها وتمام الحسرة على فواتها (فلا وربك) أى فوربك ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد النفى فى جوابه أعني قوله (لايؤمنون) لانها تزاد فى الاثبات أيضا كما فى قوله تعالى «فلا أقسم بمواقع النجوم» و نظائره (حتى يحكموك) أي يتحاكموا اليك و يترافعوا اليك وانما جيء بصيغة التحكيم مع أنه عليه الصلاة و السلام حاكم بأمر الله سبحانه إيذانا بأن حقهم أن يجعلوه حكما فيما بينهم و يرضوا بحكمه وان قطع النظر عن كونه حاكما على الاطلاق (فيما شجر بينهم) أى فيما اختلف بينهم من الامور واختلط و منه الشجر لتداخل أغصانه (ثم لا يجدوا) عطف على مقدر ينساق اليه الكلام أى فتقضى بينهم ثم لايجدوا (فى أنفسهم حرجا) ضيقا (مما قضيت) أى مماقضيت به أو من قضائك وقيل شكا من أجله إذ الشاك فى ضيق من أمره (ويسلموا) أى ينقادوا لأمرك و يذعنوا له (تسليما) تأكيد للفعل بمنزلة تكريره أى تسليما تاما

بظاهرهم وباطنهم يقال سلم الامر لله وأسلم له بمعنى وحقيقته سلم نفسه له وأسلمها اذا جعلها سالمة له خالصة أي ينقادوا لحكمك انقياد الاشبهة فيه بظاهرهم وباطنهم. قيل نزلت فى شأن المنافق واليهودى وقيل فى شأن الزبير ورجل من الانصار حين اختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل فقال عليه الصلاة والسلام «اسق يا زبير ثم ارسل الماء الى جارك» فغضب الانصارى وقال لأن كان ابن عمتك فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال «اسق جارك يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقك ثم أرسله الى جارك» كان قد أشار على الزبير برأى فيه سعة له ولخصمه فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعب للزبير حقه فى صريح الحكم ثم خرجا فمرا على المقداد بن الاسود فقال لمن القضاء فقال الانصارى قضى لابن عمته ولوى شدقه ففطن يهودى كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فى قضاء يقضى بينهم وايم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة فى حياة موسى فدعانا الي التوبة منه وقال اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا فى طاعة ربنا حتى رضى عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس أما والله ان الله ليعلم منى الصدق لو أمرنى محمد أن أقتل نفسى لقتلتها. وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر رضى الله عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده ان من أمتى رجالا الايمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى» فنزلت فى شأن هؤلاء (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم) أى لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى اسرائيل من قتلهم أنفسهم أو خروجهم من ديارهم حين استتابهم من عبادة العجل وأن مصدرية أو مفسرة لان كتبنا فى معنى أمرنا (مافعلوه) أى المكتوب المدلول عليه بكتبنا أو أحد مصدرى الفعلين (الاقليل منهم) أى ألا أناس قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين وروى عن عمر رضى الله عنه انه قال والله لو أمرنا ربنا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك وقيل معنى اقتلوا أنفسكم تعرضوا بها للقتل بالجهاد وهو بعيد وقرىء الا قليلا بالنصب على الاستثناء أو الا فعلا قليلا (ولو أنهم فعلوا مايوعظون به) من متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهرا وباطنا وسميت أوامر الله ونواهيه مواعظ لاقترانها بالوعد والوعيد (لكان) أى فعلهم ذلك (خيرا لهم) عاجلا وآجلا (وأشد تثبيتا) لهم على الايمان وابعد من الاضطراب فيه وأشد تثبيتا لثواب أعمالهم (واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما) جواب لسؤال مقدر كانه قيل وماذا يكون لهم بعد التثبيت فقيل واذن لو ثبتوا لآتيناهم فان اذن جواب وجزاء (ولهديناهم صراطا مستقيما) يصلون بسلوكه الى عالم القدس ويفتح لهم أبواب الغيب

قال عليه الصلاة و السلام «من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم مالم يعلم» (ومن يطع الله والرسول) كلام مستأنف فيه فضل ترغيب فى الطاعة ومزيد تشويق اليها ببيان أن نتيجتها أقصى ماينتهى اليه همم الامم وأرفع مايمتد اليه أعناق عزائمهم من مجاورة اعظم الخلائق مقدارا وأرفعهم منارا متضمن لتفسير ماأبهم فى جواب الشرطية السابقة وتفصيل ماأجمل فيه والمراد بالطاعة هو الانقياد التام والامتثال الكامل لجميع الاوامر والنواهى (فأولئك) اشارة الى المطيعين والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فى فعل الشرط باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع القرب فى الذكر للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف وهو مبتدأ خبره (مع الذين أنعم الله عليهم) والجملة جواب الشرط وترك ذكر المنعم به للاشعار بقصور العبارة عن تفصيله وبيانه (من النبيين) بيان للمنعم عليهم والتعرض لمعية سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع أن الكلام فى بيان حكم طاعة نبينا عليه الصلاة والسلام لجريان ذكرهم فى سبب النزول مع مافيه من الاشارة الى أن طاعته عليه الصلاة والسلام متضمنة لطاعتهم لاشتمال شريعته على شرائعهم التى لاتتغير بتغير الاعصار روى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يانبى الله ان صرنا الى الجنة تفضلنا بدرجات النبوة فلانراك وقال الشعبى «جاء رجل من الانصار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال مايبكيك يافلان فقال يارسول الله بالله الذى لااله الاهو لانت أحب الي من نفسى وأهلي ومالي وولدي وانى لأذكرك وأنا فى أهلى فيأخذنى مثل الجنون حتى أراك وذكرت موتى وأنك ترفع مع النبيين وانى إن أدخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك فلم يرد النبى عليه الصلاة والسلام فنزلت» وروى أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له عليه الصلاة والسلام قليل الصبر عنه فأتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن فى وجهه فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله فقال يارسول الله مابى من وجع غير أنى اذا لم أرك اشتقت اليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك فذكرت الآخرة فخفت أن لاأراك هناك لانى عرفت أنك ترفع مع النبيين وأن أدخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك وان لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام «والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب اليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين» وحكى ذلك عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم وروى أن أنسا قال يارسول الله لرجل يحب قوما ولما يلحق بهم قال عليه الصلاة والسلام «المرء مع من أحب» (والصديقين)

أى المتقدمين فى تصديقهم المبالغين فى الصدق والاخلاص فى الاقوال والافعال وهم أفاضل أصحاب الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأماثل خواصهم المقربين كأبى بكر الصديق رضى الله عنه (والشهداء) الذين بذلوا أرواحهم فى طاعة الله تعالى واعلاء كلمته (والصالحين) الصارفين أعمارهم فى طاعته وأموالهم فى مرضاته وليس المراد بالمعية الاتحاد فى الدرجة ولا مطلق الاشتراك فى دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر وزيارته متى أراد وأن بعد ما بينهما من المسافة (وحسن أولئك رفيقا) الرفيق الصاحب مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب واللطافة فى المعاشرة قولا وفعلا فان جعل أولئك اشارة الى النبيين ومن بعدهم على أن ما فيه من معنى البعد لما مر مرارا فرفيقا اما تمييز أو حال على معنى أنهم وصفوا بالحسن من جهة كونهم رفقاء للمطيعين أو حال كونهم رفقاء لهم وافراده لما أنه كالصديق والخليط والرسول يستوى فيه الواحد والمتعدد أو لانه اريد حسن كل واحد منهم رفيقا وأن جعل اشارة الى المطيعين فهو تمييز على معنى أنهم وصفوا بحسن الرفيق من النبيين ومن بعدهم لا بنفس الحسن فلا يجوز دخول من عليه كما يجوز فى الوجه الاول والجملة تذييل مقرر لما قبله مؤكد للترغيب والتشويق قيل فيه معنى التعجب كانه قيل وما أحسن أولئك رفيقا ولاستقلاله بمعنى التعجب . قرئ وحسن بسكون السين (ذلك) اشارة الى ما للمطيعين من عظيم الاجر ومزيد الهداية ومرافقة هؤلاء المنعم عليهم أو الى فضلهم ومزيتهم وما فيه من معنى البعد للاشعار بغلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى (الفضل) صفته وقوله تعالى (من الله) خبره أى ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره أو الفضل خبره ومن الله متعلق بمحذوف وقع حالا منه والعامل فيه معنى الاشارة أى ذلك الذى ذكر فضل كائنا من الله تعالى لا أن أعمال المكلفين توجبه (وكفى بالله عليما) بجزاء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) الحذر والحذر واحد كالاثر والاثر والشبه والشبه أى تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم يقال أخذ حذره اذا تيقظ واحترز من المخوف كانه جعل الحذر آلته التى يقى بها نفسه وقيل ما يحذر به من السلاح والحزم أى استعدوا للعدو (فانفروا) بكسر الفاء وقرئ بضمها أى اخرجوا الى الجهاد عند خروجكم (ثبات) جمع ثبة وهى الجماعة من الرجال فوق العشرة ووزنها فى الاصل فعلة كحطمة حذفت لامها وعوض عنها تاء التأنيث وهل هى واو أو ياء فيه قولان قيل انها مشتقة من ثبا يثبو كحلا يحلو أى اجتمع وقيل من ثبيت على الرجل اذا أثنيت عليه كانك جمعت محاسنه

و يجمع أيضا على ثبين جبرا لما حذف من عجزه ومحلها النصب على الحالية أى انفروا جماعات متفرقة سرية بعد سرية (أو انفروا جميعا) أي مجتمعين كوكبة واحدة ولا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم الى التهلكة (وان منكم لمن ليبطئن) أي ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد من بطأ بمعنى أبطأ كعتم بمعنى أعتم والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم المؤمنين منهم والمنافقين والمبطئون منافقوهم الذين تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد أو ليبطئن غيره و يثبطنه من بطأ منقولا من بطؤ كثقل من ثقل كما بطأ ابن أبى ناسا يوم أحد والاول أنسب لما بعده واللام الاولى للابتداء دخلت على اسم ان للفصل بالخبر والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع اليه ما استكن فى ليبطئن والتقدير وان منكم لمن أقسم بالله ليبطئن (فان أصابتكم مصيبة) كقتل وهزيمة (قال) أي المبطىء فرحا بصنعه وحامدا لرأيه (قد أنعم الله على) أى بالقعود (اذ لم أكن معهم شهيدا) أى حاضرا فى المعركة فيصيبنى ما أصابهم والفاء فى الشرطية لترتيب مضمونها على ما قبلها فان ذكر التبطئة مستتبع لذكر ما يترتب عليها كما أن نفس التبطئة مستدعية لشىء ينتظر المبطىء وقوعه (ولئن أصابكم فضل) كفتح وغنيمة (من الله) متعلق بأصابكم أو بمحذوف وقع صفة لفضل أى فضل كائن من الله تعالى ونسبة اصابة الفضل الى جناب الله تعالى دون اصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية كما فى قوله سبحانه «واذا مرضت فهو يشفين» وتقديم الشرطية الاولى لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق وأثر نفاقهم فيها أظهر (ليقولن) ندامة على تثبطه وقعوده وتهالكا على حطام الدنيا وتحسرا على فواته وقرىء ليقولن بضم اللام اعادة للضمير الى معنى من وقوله تعالى (كأن لم تكن بينكم و بينه مودة) اعتراض وسط بين الفعل و مفعوله الذى هو (ياليتنى كنت معهم فافوز فوزا عظيما) لئلا يفهم من مطلع كلامه أن تمنيه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظاهرتهم حسبما يقتضيه ما فى البين من المودة بل هو للحرص على المال كما ينطق به آخره و ليس اثبات المودة فى البين بطريق التحقيق بل بطريق التهكم .وقيل الجملة التشبيهية حال من ضمير ليقولن أى ليقولن مشبها بمن لا مودة بينكم و بينه .وقيل هى داخلة فى المقول أى ليقولن المثبط لمن يثبطه من المنافقين وضعفة المؤمنين كأن لم تكن بينكم و بين محمد مودة حيث لم يستصحبكم فى الغزو حتى تفوزوا بما فاز ياليتنى كنت معهم وغرضه القاء العداوة بينهم و بينه عليه الصلاة والسلام و تأكيدها وكان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن و هو محذوف و قرىء و لم يكن بالياء والمنادى فى ياليتنى محذوف أي ياقوم وقيل ياأطلق للتنبيه على الاتساع وقوله تعالى فافوز نصب

على جواب التمنى وقرىء بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف أى فانا أفوز فى ذلك الوقت أو على انه معطوف على كنت داخل معه تحت التمنى (فليقاتل فى سبيل الله) قدم الظرف على الفاعل للاهتمام به (الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أى يبيعونها بها وهم المؤمنون فالفاء جواب شرط مقدر أى أن أبطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم فى طلب الاخرة أو الذين يشترونها و يختارونها على الآخرة وهم المبطئون فالفاء للتعقيب أى ليتركوا ما كانوا عليه من التثبط والنفاق وليعقبوه بالقتال فى سبيل الله (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه) بنون العظمة التفاتا (أجرا عظيما) لايقادر قدره و تعقيب القتال بأحد الأمرين للاشعار بان المجاهد حقه أن يوطن نفسه باحدى الحسنيين ولا يخطر بباله القسم الثالث أصلا . وتقديم القتل للايذان بتقدمه فى استتباع الاجر روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله تعالى لمن جاهد فى سبيله لايخرجه الا جهاد فى سبيله و تصديق كلمته أو يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة (وما لكم) خطاب المأمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة فى التحريض عليه و تأكيدا لوجوبه وهو مبتدأ وخبر وقوله عز وجل (لاتقاتلون فى سبيل الله) حال عاملها مافى الظرف من معنى الفعل والاستفهام للانكار والنفى أى أى شيء لكم غير مقاتلين أى لاعذر لكم فى ترك المقاتلة (والمستضعفين) عطف على اسم الله أى فى سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الاسر وصونهم على العدو أو على السبيل بحذف المضاف أى فى خلاص المستضعفين و يجوز نصبه على الاختصاص فان سبيل الله يعم أبواب الخير و تخليص ضعفة المؤمنين من أيدى الكفرة أعظمها وأخصها (من الرجال والنساء والولدان) بيان للمستضعفين أو حال منهم وهم المسلمون الذين بقوا فى مكة لصد المشركين أو لضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتهنين. وانما ذكر الولدان معهم تكميلا للاستعطاف و استجلاب المرحمة و تنبيها على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان لارغام آبائهم وأمهاتهم و ايذانا باجابة الدعاء الآتى واقتراب زمان الخلاص ببيان شركتهم فى التضرع الى الله تعالى كل ذلك للمبالغة فى الحث على القتال وقيل المراد بالولدان العبيد و الاماء اذ يقال لهما الوليد و الوليدة وقد غلب الذكور على الاناث فاطلق الولدان على الولائد أيضا (الذين) محله الجر على انه صفة للمستضعفين أو لما فى حيز البيان أو النصب على الاختصاص (يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) بالشرك الذى هو ظلم عظيم وبأذية المسلمين وهى مكة

و الظالم صفتها و تذكيره لتذكير ماأسند اليه فان اسم الفاعل و المفعول اذا أجرى على من هو له كان كالفعل فى التذكير و التأنيث بحسب ماعمل فيه (واجعل لنا من لدنك وليا) كلا الجارين متعلق باجعل لاختلاف معنيهما . و تقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما و ابراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله فان تأخير ماحقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبىء عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لامحالة و تقديم اللام على من للمسارعة الى ابراز كون المسئول نافعا لهم مرغوبا فيه لديهم و يجوز أن تتعلق كلمة من بمحذوف وقع حالا من وليا قدمت عليه لكونه نكرة وكذا الكلام فى قوله تعالى (واجعل لنا من لدنك نصيرا) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى ول علينا واليا من المؤمنين يوالينا ويقوم بمصالحنا و يحفظ علينا ديننا و شرعنا و ينصرنا على أعدائنا و لقد استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسر لبعضهم الخروج الى المدينة وجعل لمن بقى منهم خير ولى و أعز ناصر ففتح مكة على يدى نبيه عليه الصلاة و السلام فتولاهم أى تول و نصرهم أية نصرة ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها و قيل المراد واجعل لنا من لدنك ولاية و نصرة أى لكن أنت ولينا و ناصرنا . و تكرير الفعل و متعلقيه للمبالغة فى التضرع و الابتهال (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله) كلام مبتدأ سيق لترغيب المؤمنين فى القتال و تشجيعهم ببيان كمال قوتهم بامداد الله تعالى ونصرته وغاية ضعف أعدائهم أى المؤمنين انما يقاتلون فى دين الله الحق الموصل لهم الى الله عز وجل وفى اعلاء كلمته فهو وليهم و ناصرهم لامحالة (والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى فيما يوصلهم الى الشيطان فلا ناصر لهم سواه والفاء فى قوله تعالى (فقاتلوا أولياء الشيطان) لبيان استتباع ما قبلها لما بعدها وذكرهم بهذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم فى سبيل الشيطان و الاشعار بان المؤمنين أولياء الله تعالى لما أن قتالهم فى سبيله وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين فى القتال و تقوية عزائمهم عليه فان ولاية الله تعالى علم فى العزة و القوة كما أن ولاية الشيطان مثل فى الذلة و الضعف كانه قيل اذا كان الامر كذلك فقاتلوا أولياء الله أولياء الشيطان ثم صرح فى التعليل فقيل (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) أى فى حد ذاته فكيف بالقياس الى قدرة الله تعالى و لم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى ايذانا بظهورها قالوا فائدة ادخال كان فى أمثال هذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان كان كذلك فالمعنى ان كيد الشيطان منذ كان كان موصوفا بالضعف (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من احجامهم

عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حراصا عليه بحيث كادوا يباشرونه كما
ينبئ عنه الامر بكف الايدى فان ذلك مشعر بكونهم بصدد بسطها الى العدو بحيث
يكادون يسطون بهم قال الكلبي ان جماعة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام منهم
عبد الرحمن بن عوف الزهرى والمقداد بن الاسود الكندى وقدامة بن مظعون
الجمحى وسعد بن أبي وقاص الزهرى رضى الله تعالى عنه وعنهم كانوا يلقون من مشركى
مكة قبل الهجرة أذى شديدا فيشكون ذلك الى النبي عليه الصلاة والسلام ويقولون
ائذن لنا فى قتالهم ويقول لهم النبي عليه الصلاة والسلام كفوا أيديكم (وأقيموا
الصلاة وآتوا الزكاة) فانى لم أومر بقتالهم وبناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبي
عليه الصلاة والسلام للايذان بكون ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى ولان المقصود بالذات
والمعتبر فى التعجيب انما هو كمال رغبتهم فى القتال وكونهم بحيث احتاجوا الى النهى عنه
وانما ذكر فى حيز الصلة الامر بكف الايدى لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية
فلا يتعلق ببيان خصوصية الآمر غرض . وكانوا فى مدة اقامتهم بمكة مستمرين على تلك
الحالة فلما هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وأمروا بالقتال فى وقعة
بدر كرهه بعضهم وشق ذلك عليه لكن لا شكا فى الدين ولا رغبة عنه بل نفورا عن الاخطار
بالارواح وخوفا من الموت بموجب الجبلة البشرية وذلك قوله تعالى (فلما كتب عليهم
القتال) الخ وهو عطف على قيل لهم كفوا أيديكم باعتبار مدلوله الكنائى اذ حينئذ
يتحقق التباين بين مدلولى المعطوفين وعليه يدور أمر التعجيب كأنه قيل ألم تر الى
الذين كانوا حراصا على القتال فلما كتب عليهم كرهه بعضهم وقوله تعالى (اذا فريق
منهم يخشون الناس) جواب لما على أن فريق مبتدأ ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة
له ويخشون خبره وتصديره باذا للمفاجأة لبيان مسارعتهم الى الخشية آثر ذى أثير من
غير تلعثم وتردد أى فاجأ فريق منهم أن يخشوا الكفار أن يقتلوهم ولعل توجيه
التعجيب الى الكل مع صدور الخشية عن بعضهم للايذان بانه ما كان ينبغى أن يصدر
عن أحدهم ما ينافى حالتهم الاولى وقوله تعالى (كخشية الله) مصدر مضاف الى المفعول
محله النصب على أنه حال من فاعل يخشون أى يخشونهم مشبهين لاهل خشية الله تعالى
وقوله تعالى (أو أشد خشية) عطف عليه بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله أو على أنه مصدر
مؤكد على جعل الخشية ذات خشية مبالغة كما فى جد جده أى يخشونهم خشية مثل
خشية الله أو خشية أشد خشية من خشية الله وأياما كان فكلمة أو اما للتنويع على
معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها واما للابهام على السامع

وهو قريب مما في قوله تعالى «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» يعني أن من يبصرهم يقول انهم مائة ألف أو يزيدون (وقالوا) عطف على جواب لما أي فلما كتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشية الناس وقالوا (ربنا لم كتبت علينا القتال) في هذا الوقت لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى والانكار لايجابه بل على طريق تمني التخفيف (لولا أخرتنا إلى أجل قريب) استزادة في مدة الكف واستمهال إلى وقت آخر حذراً من الموت وقد جوز أن يكون هذا مما نطقت به ألسنة حالهم من غير أن يتفوهوا به صريحاً (قل) أي تزهيداً لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفاني وترغيبا فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقي (متاع الدنيا) أي مايتمتع وينتفع به في الدنيا (قليل) سريع التقضي وشيك الانصرام وان أخرتم إلى ذلك الاجل (والآخرة) أي ثوابها الذي من جملته الثواب المنوط بالقتال (خير) أي لكم من ذلك المتاع القليل لكثرته وعدم انقطاعه وصفائه عن الكدورات وانما قيل (لمن اتقى) حثا لهم على اتقاء العصيان والاخلال بموجب التكليف (ولا تظلمون فتيلا) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي تجزون فيها ولا تنقصون أدنى شيء من أجور أعمالكم التي من جملتها مسعاكم في شأن القتال فلا ترغبوا عنه والفتيل مافي شق النواة من الخيط يضرب به المثل في القلة والحقارة. وقرئ يظلمون بالياء اعادة للضمير الى ظاهر من (أينما تكونوا يدرككم الموت) كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين اعتناء بالزامهم اثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته عليه الصلاة والسلام فلا محل له من الأعراب أو في محل النصب داخل تحت القول المأمور به أي أينما تكونوا في الحضر والسفر يدرككم الموت الذي لاجله تكرهون القتال زعما منكم أنه من مظانه وتحبون القعود عنه على زعم أنه منجاة منه وفي لفظ الادراك اشعار بانهم في الهرب من الموت وهو مجد في طلبهم وقرئ بالرفع على حذف الفاء كما في قوله:

من يفعل الحسنات الله يشكرها ... أو على اعتبار وقوع أينما كنتم في موقع أينما تكونوا أو على أنه كلام مبتدأ أو أينما تكونوا متصل بلا تظلمون أي لا تنقصون شيئاً مما كتب من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم الحروب ومعارك الخطوب (ولو كنتم في بروج مشيدة) في حصون رفيعة أو قصور محصنة وقال السدي وقتادة بروج السماء يقال شاد البناء وأشاده وشيده رفعه. وقرئ مشيدة بكسر الياء وصفا لها بفعل

فاعلها مجازاً. كما فى قصيدة شاعرة و مشيدة من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجص و جواب لو محذوف اعتماداً على دلالة ماقبله عليه أى ولو كنتم فى بروج مشيدة يدرككم الموت والجملة معطوفة على أخرى مثلها أى لو لم تكونوا فى بروج مشيدة و لو كنتم الخ وقد اطرد حذفها لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة فان الشيء اذا تحقق عند وجود المانع فلان يتحقق عند عدمه أولى و على هذه النكتة يدور مافى لو الوصلية من التأكيد و المبالغة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى « أو لوكان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون» (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله) كلام مبتدأ جيء به عقيب ماحكى عن المسلمين لما بينهما من المناسبة فى اشتمالها على اسناد مايكرهونه الى بعض الأمور وكراهتهم له بسبب ذلك . و الضمير لليهود والمنافقين روى أنه كان قد بسط عليهم الرزق فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فدعاهم إلى الايمان فكفروا أمسك عنهم بعض الامساك فقالوا ماز لنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه وذلك قوله تعالى (وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) أى وان تصبهم نعمة و رخاء نسبوها الى الله تعالى وان تصبهم بلية من جدب و غلاء أضافوها اليك كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى و ان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه فأمر النبى عليه الصلاة و السلام بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق و يلقمهم الحجر ببيان اسناد الكل اليه تعالى على الاجمال اذ لايجترؤن على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل (قل كل من عند الله) أى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقا وايجاداً من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شيء منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون بل وقوع الاولى منه تعالى بالذات تفضلا ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة كما سيأتى بيانه فهذا الجواب المجمل فى معنى ماقيل رداً على أسلافهم من قوله تعالى « ألا انما طائرهم عند الله » أى انما سبب خيرهم وشرهم أو سبب اصابة السيئة التى هى ذنوبهم عند الله تعالى لاعند غيره حتى يسندوها اليه و يطيروا به وقوله تعالى (فمال هؤلاء القوم) الخ كلام معترض بين المبين وبيانه مسوق من جهته تعالى لتعييرهم بالجهل و تقبيح حالهم و التعجيب من كمال غباوتهم والفاء لترتيبه على ماقبله وقوله تعالى (لايكادون يفقهون حديثاً) حال من هؤلاء والعامل فيها مافى الظرف من معنى الاستقرار أى وحيث كان الامر كذلك فاى شيء حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثا أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاستفهام كأنه قيل مابالهم و ماذا

يصنعون حتى يتعجب منه أو يسأل عن سببه فقيل لا يكادون يفقهون حديثا من الاحاديث أصلا فيقولون مايقولون اذ لو فقهوا شيئا من ذلك لفهموا هذا النص وما فى معناه وما هو أوضح منه من النصوص القرآنية الناطقة بأن الكل فائض من عند الله تعالى وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والاحسان والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد لاسيما النص الوارد عليهم فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ولم يسندوا جناية أنفسهم الى غيرهم وقوله تعالى (ما أصابك من حسنة) الخ بيان للجواب المجمل المأمور به واجراؤه على لسان النبى عليه الصلاة والسلام ثم سوق للبيان من جهته عز وجل بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى كل واحد من الناس والالتفات لمزيد الاعتناء به والاهتمام برد مقالتهم الباطلة والايذان بأن مضمونه مبني على حكمة دقيقة حقيقة بأن يتولى بيانها علام الغيوب. وتوجيه الخطاب الى كل واحد منهم دون كلهم كما فى قوله تعالى« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم »للمبالغة فى التحقيق بقطع احتمال سببية معصية بعضهم لعقوبة الآخرين أى ما أصابك من نعمة من النعم (فمن الله) أى فهى منه تعالى بالذات تفضلا واحسانا من غير استيجاب لها من قبلك كيف لا وأن كل مايفعله المرء من الطاعات التى يفرض كونها ذريعة الى اصابة نعمة ما فهى بحيث لا تكاد تكافىء نعمة حياته المقارنة لادائها ولا نعمة اقداره تعالى اياه على أدائها فضلا عن استيجابها لنعمة أخرى ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يارسول الله قال« ولا أنا» (وما أصابك من سيئة) أى بلية من البلايا (فمن نفسك) أي فهى منها بسبب اقترافها المعاصى الموجبة لها وان كانت من حيث الايجاد منتسبة اليه تعالى نازلة من عنده عقوبة كقوله تعالى« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »وعن عائشة رضي الله عنها« مامن مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفوا الله عنه أكثر » وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبله ومابعده لكن لا لبيان حاله عليه الصلاة والسلام بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير ولعل ذلك لاظهار كمال السخط والغضب عليهم والاشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلادتهم بمعزل من استحقاق الخطاب لاسيما بمثل هذه الحكمة الانيقة (وأرسلناك للناس رسولا) بيان لجلالة منصبه عليه الصلاة والسلام ومكانته عند الله عز وجل بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد فى حقه عليه الصلاة والسلام بناء على جهلهم بشأنه الجليل. وتعريف الناس للاستغراق والجار إما متعلق برسولا قدم عليه للاختصاص الناظر الى قيد العموم أى

مرسلا لكل الناس لا لبعضهم فقط كما فى قوله تعالى «وما أرسلناك الا كافة للناس» وأما بالفعل فرسولا حال مؤكدة وقد جوز أن يكون مصدرا مؤكدا كما فى قوله :

لقد كذب الواشون مافهت عندهم ۞ بسر ولا أرسلتهم برسول

أي بارسال بمعنى رسالة (وكفى بالله شهيدا) أى على رسالتك بنصب المعجزات التي من جملتها هذا النص الناطق والوحى الصادق والالتفات لتربية المهابة وتقوية الشهادة والجملة اعتراض تذييلى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) بيان لاحكام رسالته عليه الصلاة والسلام أثر بيان تحققها وثبوتها. وانما كان كذلك لان الآمر والناهى فى الحقيقة هو الله تعالى وانما هو عليه الصلاة والسلام مبلغ لامره ونهيه فمرجع الطاعة وعدمها هو الله سبحانه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال «من أحبنى فقد أحب الله ومن أطاعنى فقد اطاع الله» فقال المنافقون ألا تسمعون الى ما يقول هذا الرجل لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله ما يريد الا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى فنزلت. والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالرسول دون الخطاب للايذان بان مناط كون طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة له تعالى ليس خصوصية ذاته عليه الصلاة والسلام بل من حيثية رسالته واظهار الجلالة لتربية المهابة وتأكيد وجوب الطاعة بذكر عنوان الالوهية وحمل الرسول على الجنس المنتظم له عليه الصلاة والسلام انتظاما أوليا يأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام فى قوله تعالى (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) وجواب الشرط محذوف والمذكور تعليل له أى ومن أعرض عن الطاعة فأعرض عنه انما أرسلناك رسولا مبلغا لا حفيظا مهيمنا تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها وحفيظا حال من الكاف وعليهم متعلق به قدم عليه رعاية للفاصلة وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الافراد فى تولى باعتبار لفظه (ويقولون) شروع فى بيان معاملتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بيان وجوب طاعته أى يقولون اذا أمرتهم بشئ (طاعة) أى أمرنا وشأننا طاعة أو منا طاعة والأصل النصب على المصدر والرفع للدلالة على الثبات كسلام (فاذا برزوا من عندك) أى خرجوا من مجلسك (بيت طائفة منهم) أى من القائلين المذكورين وهم رؤساؤهم (غير الذى تقول) أى زورت طائفة منهم وسوت خلاف ما قالت لك من القبول وضمان الطاعة لانهم مصرون على الرد والعصيان وانما يظهرون ما يظهرون على وجه النفاق أو خلاف ما قلت لها. والتبييت اما من البيتوتة لانه قضاء الامر وتدبيره بالليل يقال: هذا أمر بيت بليل واما من بيت الشعر لأن الشاعر يدبره ويسويه. وتذكير الفعل لان تأنيث الطائفة غير حقيقى. وقرئ

بادغام التاء فى الطاء لقرب المخرج . واسناده الى طائفة منهم لبيان أنهم المتصدون له بالذات والباقون اتباع لهم فى ذلك لا لأن الباقين ثابتون على الطاعة (والله يكتب ما يبيتون) أى يكتبه فى جملة ما يوحى اليك فيطلعك على أسرارهم فلا يحسبوا أن مكرهم يخفى عليكم فيجدون بذلك إلى الاضرار بكم سبيلا أو يثبته فى صحائفهم فيجازيهم عليه وأياما كان فالجملة اعتراضية (فأعرض عنهم) أى لاتبال بهم و بما صنعوا أو تجاف عنهم ولا تتصد للانتقام منهم والفاء لسببية ما قبلها لما بعدها (وتوكل على الله) فى كل ما تأتى وما تذر لا سيما فى شأنهم واظهار الجلالة فى مقام الاضمار للاشعار بعلة الحكم (وكفى بالله وكيلا) فيكفيك معرفتهم و ينتقم لك منهم والاظهار ههنا أيضا لما مر وللتنبيه على استقلال الجملة واستغنائها عما عداها من كل وجه (أفلا يتدبرون القرآن) انكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن واعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الايمان. و تدبر الشيء تأمله والنظر فى أدباره وما يؤل اليه فى عاقبته ومنتهاه ثم استعمل فى كل تفكر ونظر والفاء للعطف على مقدر أى أيعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه ليعلموا كونه من عند الله تعالى بمشاهدة ما فيه من الشواهد التى من جملتها هذا الوحى الصادق والنص الناطق بنفاقهم المحكى على ما هو عليه (ولو كان) أى القرآن (من عند غير الله) كما يزعمون (لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع اذلا علم بالأمور الغيبية ماضية كانت أو مستقبلة لغيره سبحانه وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تعين كونه من عنده تعالى قال الزجاج ولو أنه من عند الله تعالى لكان ما فيه من الاخبار بالغيب بما يسره المنافقون وما يبيتونه مختلفا بعضه حق وبعضه باطل لان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى وقال أبو بكر الاصم ان هؤلاء المنافقون كانوا يتواطؤن فى السر على أنواع كثيرة من الكيد والمكر وكان الله تعالى يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك و يخبره بها مفصلة فقيل لهم ان ذلك لو لم يحصل باخبار الله تعالى لما اطرد الصدق فيه ولوقع فيه الاختلاف فلما لم يقع ذلك قط علم أنه باعلامه تعالى هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم. وأما حمل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم فى البلاغة بان كان بعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعانى وبعضه على معنى فاسد غير ملتئم وبعضه بالغا حد الاعجاز وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته كما جنح اليه الجمهور فمما لا يساعده السباق ولا السياق ومن رام التقريب وقال لعل ذكره ههنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الاحكام ليس لتناقض فى الحكم بل لاختلاف فى الحكم والمصالح المقتضية لذلك فقد أبعد عن الحق بمراحل

(واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف اذاعوا به) يقال أذاع السر وأذاع به أى أشاعه وأفشاه وقيل معنى أذاعوا به فعلوا به الاذاعة وهو أبلغ من أذاعوه وهو كلام مسوق لدفع ما عسى يتوهم فى بعض المواد من شائبة الاختلاف بناء على عدم فهم المراد ببيان أن ذلك لعدم وقوفهم على معنى الكلام لا لتخلف مدلوله عنه وذلك أن ناسا من ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالاحوال كانوا اذا أخبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بما أوحى اليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة يذيعونه من غير فهم معناه ولا ضبط لفحواه على حسب ما كانوا يفهمونه ويحملونه عليه من المحامل وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطا بأمور تفوت بالاذاعة فلا يظهر أثره المتوقع فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف فنعى عليهم ذلك وقيل (ولو ردوه) أى ذلك الامر الذى جاءهم (الى الرسول) أي عرضوه على رأيه عليه الصلاة والسلام مستكشفين لمعناه وما ينبغى له من التدبير والالتفات لما أن عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة الى رأيه عليه الصلاة والسلام (والى أولى الامر منهم) وهم كبراء الصحابة البصراء فى الامور رضى الله تعالى عنهم (لعلمه) لعلم الرادون معناه وتدبيره وانما وضع موضع ضميرهم الموصول فقيل (الذين يستنبطونه منهم) للايذان بأنه ينبغى أن يكون قصدهم برده اليهم استكشاف معناه واستيضاح فحواه أى لعلمه أولئك الرادون الذين استنبطونه أى يتلقونه ويستخرجون علمه وتدبيره منهم أى من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام وأولى الامر من صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ولما فعلوا فى حقه ما فعلوا فلم يقع فيه ماوقع من الاشتباه وتوهم الاختلاف. وقيل لعلمه الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها فكلمة من فى منهم بيانية. وقيل انهم كانوا اذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به وكانت اذاعتهم مفسدة ولو ردوا ذلك الخبر الى رسول الله عليه الصلاة والسلام والى أولى الامر لعلم تدبير ما أخبروا به الذين يستنبطونه أى يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بامور الحرب ومكايدها وقيل كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الامر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الاعداء أو على خوف فيذيعونه فينتشر فيبلغ الاعداء فتعود اذاعتهم مفسدة ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر وفوضوه اليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون وما يذرون فيه وقيل كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئاً من الخبر عن السرايا مظنونا غير معلوم الصحة فيذيعونه

فيعود ذلك وبالا على المؤمنين ولو ردوه الى الرسول عليه الصلاة والسلام والى أولى الامر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع اولا يذاع لعلم صحته وهل هو مما يذاع أولا يذاع هؤلاء المذيعون وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الامر أى يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم فساق النظم الكريم حينئذ لبيان جناية تلك الطائفة وسوء تدبيرهم اثر بيان جناية المنافقون ومكرهم والخطاب فى قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) للطائفة المذكورة على طريقة الالتفات أى لولافضله تعالى عليكم ورحمته بارشادكم الى طريق الحق الذى هو المراجعة فى مظان الاشتباه الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأولى الامر (لاتبعتم الشيطان) وعملتم بآراء المنافقين فيما تأتون وما تذرون ولم تهتدوا الى سنن الصواب (الا قليلا) وهم أولو الامر الواقفون على أسرار الكتاب الراسخون فى معرفة أحكامه فالاستثناء منقطع وقيل ولولا فضله تعالى عليكم ورحمته بارسال الرسول وانزال الكتاب لاتبعتم الشيطان وبقيتم على الكفر والضلالة الا قليلا منكم قد تفضل عليه بعقل راجح اهتدى به الى طريق الحق والصواب وعصمه من متابعة الشيطان كقس بن ساعدة الايادى وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وأضرابهم فالخطاب للكل والاستثناء متصل وقيل المراد بالفضل والرحمة النصرة والظفر بالاعداء أى ولولا حصول النصر والظفر على التواتر والتتابع لاتبعتم الشيطان وتركتم الدين الا قليلا منكم وهم أولو البصائر النافذة والنيات القوية والعزائم الماضية من أفاضل المؤمنين الواقفين على حقية الدين البالغين الى درجة حق اليقين المستغنين عن مشاهدة آثار حقيته من الفتح والظفر وقيل الا أتباعا قليلا (فقاتل فى سبيل الله) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الالتفات وهو جواب شرط محذوف ينساق اليه النظم الكريم أى اذا كان الامر كما حكى من عدم طاعة المنافقين وكيدهم وتقصير الآخرين فى مراعاة أحكام الاسلام فقاتل أنت وحدك غير مكترث بما فعلوا وقوله تعالى (لاتكلف الا نفسك) أى الا فعل نفسك استئناف مقرر لما قبله فان اختصاص تكليفه عليه الصلاة والسلام بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده وفيه دلالة على أن مافعلوا من التثبط لايضره عليه الصلاة والسلام ولايؤاخذبه وقيل هو حال من فاعل قاتل أى فقاتل غير مكلف الانفسك وقرىء لا تكلف بالجزم على النهى وقيل على جواب الامر وقرىء بنون العظمة أى لانكلفك الا فعل نفسك لا على معنى لانكلف أحدا الا نفسك (وحرض المؤمنين) عطف على الأمر السابق داخل فى حكمه فان كون حال الطائفتين كما حكى سبب للامر

بالقتال وحده وبتحريض خلص المؤمنين والتحريض على الشيء الحث عليه والترغيب فيه قال الراغب كأنه فى الاصل إزالة الحرض وهو مالا خير فيه ولا يعتد به أى رغبهم فى القتال ولا تعنف بهم وانما لم يذكر المحرض عليه لغاية ظهوره وقوله تعالى (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) عدة منه سبحانه وتعالى محققة الانجاز بكف شدة الكفرة ومكرهم فان ما صدر بلعل وعسى مقرر الوقوع من جهته عز وجل وقد كان كذلك حيث روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس الى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين راكباً ووافوا الموعد وألقى الله تعالى فى قلوب الذين كفروا الرعب فرجعوا من مر الظهران ويروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وافى بجيشه بدراً وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيرا كثيرا وقد مر فى سورة آل عمران (والله أشد بأسا) أى من قريش (وأشد تنكيلا) أى تعذيبا وعقوبة تنكل من يشاهدها عن مباشرة ما يؤدى اليها والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبلها وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة وتكرير الخبر لتأكيد التشديد وقوله تعالى (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) أى من ثوابها جملة مستأنفة سيقت لبيان أن له عليه الصلاة والسلام فيما أمر به من تحريض المؤمنين حظا موفورا فان الشفاعة هى التوسط بالقول فى وصول شخص الى منفعة من المنافع الدنيوية أو الأخروية أو خلاصه من مضرة ما كذلك من الشفع كأن المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والحسنة منها ما كانت فى أمر مشروع روعى بها حق مسلم ابتغاء لوجه الله تعالى من غير أن يتضمن غرضا من الاغراض الدنيوية وأى منفعة أجل مما قد حصل للمؤمنين بتحريضه عليه الصلاة والسلام على الجهاد من المنافع الدنيوية والاخروية وأى مضرة أعظم مما تخلصوا منه بذلك من التثبط عنه ويندرج فيها الدعاء للمسلم فانه شفاعة الى الله سبحانه وعليه مساق آية التحية الآتية روى أنه صلى الله عليه وسلم قال «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك» وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود (ومن يشفع شفاعة سيئة) وهى ما كانت بخلاف الحسنة (يكن له كفل منها) أى نصيب من وزرها مساو لها فى المقدار من غير أن ينقص منه شيء (وكان الله على كل شيء مقيتا) أى مقتدرا من أقات على الشيء اذا اقتدر عليه أو شهيدا حفيظا واشتقاقه من القوت فانه يقوي البدن ويحفظه والجملة تذييل مقرر لما قبلها على كلا المعنيين

(واذا حييتم بتحية) ترغيب فى فرد شائع من أفراد الشفاعة الحسنة أثر ما رغب فيها على الاطلاق وحذر عما يقابلها من الشفاعة السيئة وإرشاد الى توفية حق الشفيع وكيفية أدائه فان تحية الاسلام من المسلم شفاعة منه لاخيه الى الله تعالى والتحية مصدر حيا أصلها تحيية كتسمية من سمى وأصل الاصل تحيي بثلاث ياآت فحذفت الاخيرة وعوض عنها تاء التأنيث وأدغمت الاولى فى الثانية بعد نقل حركتها الى الحاء قال الراغب أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ثم استعملت فى كل دعاء وكانت العرب اذا لقى بعضهم بعضا يقول حياك الله. ثم استعملها الشرع فى السلام وهي تحية الاسلام قال تعالى «تحيتهم فيها سلام» وقال تحيتهم يوم يلقونه سلام. وقال «فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله» قالوا فى السلام مزية على التحية لما أنه دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية وهي مستلزمة لطول الحياة وليس فى الدعاء بطول الحياة ذلك ولان السلام من اسمائه تعالى فالبداءة بذكره مما لا ريب فى فضله ومزيته أى اذا سلم عليكم من جهة المؤمنين (فحيوا بأحسن منها) أى بتحية أحسن منها بأن تقولوا وعليكم السلام ورحمة الله ان اقتصر المسلم على الاول وبان تزيدوا وبركاته ان جمعهما المسلم وهى النهاية لانتظامها لجميع فنون المطالب التى هي السلامة عن المضار ونيل المنافع ودوامها ونماؤها (أو ردوها) أي أجيبوها بمثلها روى أن رجالا قال أحدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك فقال الرجل نقصتنى فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية فقال عليه الصلاة والسلام «انك لم تترك لى فضلا فرددت عليك مثله» وجواب التسليم واجب وانما التخيير بين الزيادة وتركها وعن النخعى أن السلام سنة والرد فريضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الرد واجب وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه الا نزع الله منهم روح القدس وردت عليه الملائكة ولا يرد فى الخطبة وتلاوة القرآن جهرا ورواية الحديث وعند دراسة العلم والاذان والاقامة ولا يسلم على لاعب النرد والشطرنج والمغنى والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعارى فى الحمام وغيره قالوا ويسلم الرجل على امرأته لا على الاجنبية والسنة أن يسلم الماشى على القاعد والراكب على الماشى وراكب الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والقليل على الكثير واذا التقيا ابتدرا وعن أبى حنيفة رضى الله عنه لا يجهر بالرد يعنى الجهر الكثير وعن النبى عليه الصلاة والسلام «اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم» أى وعليكم ما قلتم حيث كان يقول بعضهم السام عليكم

وروى «لا تبدأ اليهودى بالسلام واذا بدأك فقل وعليك» وعن الحسن أنه يجوز أن يقول للكافر وعليك السلام دون الزيادة . وقيل التحية بالاحسن عند كون المسلم مسلما ورد مثلها عند كونه كافرا (ان الله كان على كل شيء حسيبا) فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم التى من جملتها ما أمرتم به من التحية فحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به (الله لا آله الا هو) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (ليجمعنكم الى يوم القيامة) جواب قسم محذوف أى والله ليحشرنكم من قبوركم الى حساب يوم القيامة وقيل الى بمعنى فى والجملة القسمية اما مستأنفة لا محل لها من الاعراب أو خبر ثان للمبتدأ أو هى الخبر ولا اله الا هو اعتراض وقوله تعالى (لا ريب فيه) أى فى يوم القيامة أو فى الجمع حال من اليوم أو صفة للمصدر أى جمعا لا ريب فيه (ومن أصدق من الله حديثا) انكار لان يكون أحد أصدق منه تعالى فى وعده وسائر أخباره وبيان لاستحالته كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره (فمالكم) مبتدأ وخبر والاستفهام للانكار والنفي والخطاب لجميع المؤمنين لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه الى بعضهم وقوله تعالى (فى المنافقين) متعلق اما بما تعلق به الخبر أى أى شيء كائن لكم فيهم أى فى أمرهم وشأنهم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه واما بما يدل عليه قوله تعالى (فئتين) من معنى الافتراق أى فما لكم تفترقون فى المنافقين واما بمحذوف وقع حالا من فئتين أى كائنتين فى المنافقين لانه فى الاصل صفة فلما قدمت انتصبت حالا كما هو شأن صفات النكرات على الاطلاق أو من الضمير فى تفترقون وانتصاب فئتين عند البصريين على الحالية من المخاطبين والعامل ما فى لكم من معنى الفعل كما فى قوله تعالى «فما لهم عن التذكرة معرضين» وعند الكوفيين على خبرية كان مضمرة أى فمالكم فى المنافقين كنتم فئتين والمراد انكار أن يكون للمخاطبين شيء مصحح لاختلافهم فى أمر المنافقين وبيان وجوب بت القول بكفرهم واجرائهم مجرى المجاهرين بالكفر فى جميع الاحكام وذكرهم بعنوان النفاق باعتبار وصفهم السابق روى أنهم قوم من المنافقين استأذنوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فى الخروج الى البدو معتلين باجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فرحلة حتى لحقوا بالمشركين فاختلف المسلمون فى أمرهم وقيل هم قوم هاجروا من مكة الى المدينة ثم بدالهم فرجعوا وكتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انا على دينك وماأخرجنا الا اجتواء المدينة والاشتياق الى بلدنا وقيل هم أناس أظهروا الاسلام وقعدوا عن الهجرة وقيل هم قوم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم رجعوا ويأباه ما سيأتى من جعل هجرتهم غاية للنهى عن توليهم . وقيل هم العرنيون الذين أغاروا

على السرح وقتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرده ماسيأتي من الآيات
الناطقة بكيفية المعاملة معهم من السلم والحرب وهؤلاء قد أخذوا وفعل بهم مافعل من
المثلة والقتل ولم ينقل فى أمرهم اختلاف المؤمنين (والله أركسهم) حال من المنافقين مفيدة
لتأكيد الانكار السابق واستبعاد وقوع المنكر ببيان وجود النافى بعد بيان عدم الداعى
وقيل من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو أى أي شيء يدعوكم الى الاختلاف فى كفرهم
مع تحقق ما يوجب اتفاقكم على كفرهم وهو أن الله تعالى قد ردهم فى الكفر كما كانوا (بما
كسبوا) بسبب ما كسبوه من الارتداد واللحوق بالمشركين والاحتيال على رسول
الله صلى الله عليه وسلم والعائد الى الموصول محذوف وقيل ما مصدرية أى بكسبهم وقيل معنى
أركسهم نكسهم بأن صيرهم للنار وأصل الركس رد الشيء مقلوبا وقرىء ركسهم مشددا وركسهم
أيضا مخففا (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) تجريد للخطاب وتخصيص له
بالقائلين بايمانهم من الفئتين وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك واشعار بأنه يؤدى الي محاولة
المحال الذى هو هداية من أضله الله تعالى وذلك لان الحكم بايمانهم وادعاء اهتدائهم
وهم بمعزل من ذلك سعى فى هدايتهم وارادة لها ووضع الموصول موضع ضمير
المنافقين لتشديد الانكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر فى حيز الصلة وتوجيه الانكار
الى الارادة لا الى متعلقها بان يقال أتهدون الخ للمبالغة فى انكاره ببيان أنه مما لا يمكن
ارادته فضلا عن امكان نفسه وحمل الهداية والاضلال على الحكم بهما يأباه قوله تعالى
(ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) أى ومن يخلق فيه الضلال كائنا من كان فلن تجدله
سبيلا من السبل فضلا عن أن تهديه اليه وفيه من الافصاح عن كمال الاستحالة ما ليس
فى قوله تعالى «ومن يضلل الله فماله من هاد» ونظائره وحمل اضلاله تعالى على حكمه
وقضائه بالضلال مخل بحسن المقابلة بين الشرط والجزاء . وتوجيه الخطاب الى كل
واحد من المخاطبين للاشعار بشمول عدم الوجدان للكل على طريق التفصيل والجملة اما
حال من فاعل تريدون أو تهدوا والرابط هو الواو أو اعتراض تذييلى مقرر للانكار
السابق ومؤكد لاستحالة الهداية فحينئذ يجوز أن يكون الخطاب لكل أحد ممن يصلح له
من المخاطبين أولا ومن غيرهم (ودوا لو تكفرون) كلام مستأنف مسوق لبيان غلوهم
وتماديهم فى الكفر وتصديهم لاضلال غيرهم اثر بيان كفرهم وضلالهم فى أنفسهم وكلمة
لو مصدرية غنية عن الجواب وهى مع مابعدها نصب على المفعولية أي ودوا أن تكفروا
وقوله تعالى (كما كفروا) نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى كفرا مثل كفرهم أو
حال من ضمير ذلك المصدر كما هو رأى سيبويه وقوله تعالى (فتكونون سواء) عطف

على تكفرون داخل فى حكمه أى ودوا أن تكفروا فتكونوا سواء مستوين فى الكفر والضلال. وقيل كلمة لو على بابها وجوابها محذوف كمفعول ودوا التقدير ودوا كفركم لو تكفرون كما كفروا لسروا بذلك (فلا تتخذوا منهم أولياء) الفاء جواب شرط محذوف وجمع أولياء لمراعاة جمع المخاطبين فان المراد نهى أن يتخذ واحد من المخاطبين وليا واحدا منهم أى اذا كان حالهم ماذكر من ودادة كفركم فلا توالوهم (حتى يهاجروا فى سبيل الله) أى حتى يؤمنوا ويحققوا ايمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام لا لغرض من أغراض الدنيا (فان تولوا) أي عن الايمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة (فخذوهم) أى اذا قدرتم عليهم (واقتلوهم) حيث وجدتموهم من الحل والحرم فان حكمهم حكم سائر المشركين أسرا وقتلا (ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) أى جانبوهم مجانبة كلية ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبدا (الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) استثنا من قوله تعالى فخذوهم واقتلوهم أى الا الذين يتصلون وينتهون الى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم وهم الاسلميون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت خروجه من مكة قد وادع هلال بن عويمر الاسلمى على انه لا يعينه ولا يعين عليه وعلى أن من وصل الى هلال ولجأ اليه فله من الجوار مثل الذى لهلال وقيل هم بنو بكر بن زيد مناة وقيل هم خزاعة (أو جاءوكم) عطف على الصلة أى أو الذين جاءوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان أحدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين والآخر من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين أو على صفة قوم كأنه قيل الا الذين يصلون الى قوم معاهدين أو الى قوم كافين عن القتال لكم والقتال عليكم والاول هو الاظهر لما سيأتى من قوله تعالى فان اعتزلوكم الخ فانه صريح فى أن كفهم عن القتال أحد سببى استحقاقهم لنفى التعرض لهم. وقرىء جاءوكم بغير عاطف على أنه صفة بعد صفة أو بيان ليصلون أو استئناف (حصرت صدورهم) حال باضمار قد بدليل أنه قرىء حصرة صدرهم وحصرات صدورهم وحاصرات صدورهم وقيل صفة لموصوف محذوف فهو حال من فاعل جاءوا أى أو جاءوكم قوما حصرت صدورهم وقيل هو بيان لجاءوكم وهم بنو مدلج جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين والحصر الضيق والانقباض (أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) أى من أن يقاتلوكم أو لان يقاتلوكم أو كراهة أن يقاتلوكم الخ (ولو شاء الله لسلطهم عليكم) جملة مبتدأة جارية مجرى التعليل لاستثناء الطائفة الاخيرة من حكم الاخذ والقتل ونظمهم فى سلك الطائفة الاولى الجارية مجرى المعاهدين مع عدم تعلقهم بنا ولا بمن عاهدونا

كالطائفة الاولى أى ولوشاء الله لسلطهم عليكم ببسط صدورهم وتقوية قلوبهم وازالة الرعب عنها (فلقاتلوكم) عقيب ذلك ولم يكفوا عنكم واللام جواب لو على التكرير أو الابدال من الاولى. وقرئ فلقتلوكم بالتخفيف والتشديد (فان اعتزلوكم) ولم يتعرضوا لكم (فلم يقاتلوكم) مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله عز وجل (والقوا اليكم السلم) أي الانقياد والاستسلام. وقرئ بسكون اللام (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) طريقا بالاسر أو بالقتل فان مكافتهم عن قتالكم وأن يقاتلوا قومهم أيضا و القاءهم اليكم السلم وان لم يعاهدكم كافية فى استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) هم قوم من أسد وغطفان كانوا اذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين فاذا رجعوا الى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم وقيل هم بنوا عبدالدار وكان ديدنهم ماذكر (كلما ردوا الى الفتنة) أى دعوا الى الكفر وقتال المسلمين (أركسوا فيها) قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه وكانوا فيها شرا من كل عدو شرير (فان لم يعتزلوكم) بالكف عن التعرض لكم بوجه ما (و يلقوا اليكم السلم) أي لم يلقوا اليكم الصلح والعهد بل نبذوه اليكم (ويكفوا أيديهم) أى لم يكفوها عن قتالكم (فخذوهم و اقتلوهم حيث ثقفتموهم) أي تمكنتم منهم (وأولئكم) الموصوفون بما عدد من الصفات القبيحة (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) حجة واضحة فى الايقاع بهم قتلا وسبيا لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر واضرارهم باهل الاسلام أو تسلطا ظاهرا حيث أذنا لكم فى أخذهم وقتلهم (وما كان لمؤمن) أى وماصح له ولا لاق بحاله (أن يقتل مؤمنا) بغير حق فان الايمان زاجر عن ذلك (الا خطأ) فانه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية وانتصابه اما على أنه حال أى وما كان له أن يقتل مؤمنا فى حال من الاحوال الا فى حال الخطأ وعلى أنه مفعول له أى وما كان له أن يقتله لعلة من العلل الا للخطأ أو على أنه صفة للمصدر أى الا قتلا خطأ و قيل الا بمعنى ولا والتقدير وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا عمدا ولا خطأ. وقيل ما كان نفى فى معنى النهى والاستثناء منقطع أى لكن أن قتله خطأ فجزاؤه ماذكر والخطأ ما لا يقارنه القصد الى الفعل أو الى الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالبا أو لا يقصد به محظور كرمى مسلم فى صف الكفار مع الجهل باسلامه وقرئ خطاء بالمد وخطا كعصا بتخفيف الهمزة .. روى أن عياش بن أبى ربعة وكان أخا أبى جهل لامه أسلم وهاجر الي المدينة خوفا من أهله وذلك قبل هجرة النبى عليه الصلاة والسلام

فاقسمت أمه لاتأكل ولاتشرب ولا يأويها سقف حتى يرجع فخرج أبوجهل ومعه الحرث بن زيد بن أبي أنيسة فاتياه وهو في أطم ففتل منه أبوجهل في الذروة والغارب وقال أليس محمد يحثك على صلة الرحم انصرف وبر أمك وأنت على دينك حتى نزل وذهب معهما فلما فسحا من المدينة كتفاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة فقال للحرث هذا أخي فمن أنت ياحرث لله على ان وجدتك خاليا أن أقتلك وقدما به على أمه فحلفت لايحل كتافه أو يرتد ففعل بلسانه ثم هاجر بعدذلك وأسلم الحرث وهاجر فلقيه عياش بظهر قباء ولم يشعر باسلامه فأنحى عليه فقتله ثم أخبر باسلامه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلته ولم أشعر باسلامه فنزلت (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة) أي فعليه أو فموجبه تحرير رقبة أي اعتاق نسمة عبر عنها بها كما يعبر عنها بالرأس (مؤمنة) أي محكوم باسلامها وان كانت صغيرة (ودية مسلمة الى أهله) مؤداة الى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث لقول ضحاك بن سفيان الكلابي كتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني أن أورث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها (الاأن يصدقوا) أي إلا أن يتصدق أهله عليه سمي العفو عنها صدقة حثا عليه وتنبيها على فضله وعن النبي عليه الصلاة والسلام كل معروف صدقة. وقرىء إلاأن يتصدقوا وهو متعلق بعليه أو بمسلمة أي تجب الدية أو يسلمها الى أهله الا وقت تصدقهم عليه فهو في محل النصب على الظرفية أو الا حال كونهم متصدقين عليه فهو حال من الاهل أو القاتل (فان كان) أي المقتول (من قوم عدو لكم) كفار محاربين (وهو مؤمن) ولم يعلم به القاتل لكونه بين أظهر قومه بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم أو بأن أتاهم بعد مافارقهم لمهم من المهمات (فتحرير رقبة مؤمنة) أي فعلى قاتله الكفارة دون الدية اذ لاوراثة بينه وبين أهله لانهم محاربون (وان كان) اى المقتول المؤمن (من قوم) كفرة (بينكم وبينهم ميثاق) أي عهد مؤقت أو مؤبد (فدية) أي فعلى قاتله دية (مسلمة الى أهله) من أهل الاسلام ان وجدوا ولعل تقديم هذا الحكم ههنا مع تأخيره فيما سلف للاشعار بالمسارعة الى تسليم الدية تحاشيا عن توهم نقض الميثاق (وتحرير رقبة مؤمنة) كما هو حكم سائر المسلمين ولعل أفراده بالذكر مع اندراجه في حكم ماسبق من قوله تعالى ومن قتل مؤمناخطأ الخ لبيان أن كونه فيمابين المعاهدين لايمنع وجوب الدية كما منعه قوله فيما بين المحاربين. وقيل المراد بالمقتول الذمي أو المعاهد لئلا يلزم التكرار بلا فائدة ولا التوريث بين المسلم والكافر وقدعرفت عدم لزومهما (فمن لم يجد) أي رقبة ليحررها بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به اليها من

الثمن (فصيام) أى فعليه صيام (شهرين متتابعين) لم يتخلل بين يومين من أيامهما إفطار (توبة) نصب على انه مفعول له أى شرع لكم ذلك توبة أى قبولا لها من تاب الله عليه اذا قبل توبته أو مصدر مؤكد لفعل محذوف أى تاب عليكم توبة وقيل على انه حال من الضمير المجرور فى عليه بحذف المضاف أى فعليه صيام شهرين ذا توبة وقوله تعالى (من الله) متعلق بمحذوف وقع صفة لتوبة أي كائنة منه تعالى (وكان الله عليما) بجميع الاشياء التى من جملتها حاله (حكيما) فى كل ماشرع وقضى من الشرائع والاحكام التى من جملتها ماشرعه فى شأنه (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) لما بين حكم القتل خطأ وفصل أقسامه الثلاثة عقب ذلك ببيان القتل عمدا خلا أن حكمه الدنيوى لما بين فى سورة البقرة اقتصر ههنا على حكمه الأخروى . روى أن مقيس بن ضبابة الكنانى وكان قد أسلم هو وأخوه هشام وجد أخاه قتيلا فى بنى النجار فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له القصة فارسل عليه السلام معه زبير بن عياض الفهرى وكان من أصحاب بدر الى بنى النجار يأمرهم بتسليم القاتل الى مقيس ليقتص منه ان علموه وبأداء الدية ان لم يعلموه فقالوا سمعا وطاعة لله تعالى ولرسوله عليه السلام مانعلم له قاتلا ولكنا نؤدى ديته فآتوه بمائة من الابل فانصرفا راجعين الى المدينة حتى اذا كان ببعض الطريق أتى الشيطان مقيسا فوسوس اليه فقال أتقبل دية أخيك فيكون مسبة عليك أقتل الذى معك فيكون نفسا بنفس وفضل الدية فتغفل الفهري فرماه بصخرة فشدخه ثم ركب بعيرا من الابل واستاق بقيتها راجعا الى مكة كافرا وهو يقول:

قتلت به فهرا وحملت عقله ... سراة بنى النجار أصحاب فارع

وأدركت ثارى واضطجعت موسدا ... وكنت الى الاوثان أول راجع

فنزلت . وهو الذى استثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ممن أمنه فقتل وهو متعلق باستار الكعبة وقوله تعالى متعمدا حال من فاعل يقتل وروى عن الكسائى سكون التاء كأنه فر من توالى الحركات (فجزاؤه) الذى يستحقه بجنايته (جهنم) وقوله تعالى (خالدا فيها) حال مقدرة من فاعل فعل مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل فجزاؤه أن يدخل جهنم خالدا فيها. وقيل هو حال من ضمير يجزاها . وقيل من مفعول جازاه وايد ذلك بانه أنسب بعطف مابعده عليه لموافقته له صيغة ولا يخفى ان مايقدر للحال أو للعطف عليه حقه أن يكون مما يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا ويدل عليه الكلام دلالة بينة وظاهر أن كون جزائه ما ذكر لايقتضى وقوع الجزاء ألبتة كما ستقف عليه حتى يقدر يجزاها أو جازاه بطريق الأخبار عن وقوعه واما قوله تعالى (وغضب الله عليه)

فعطف على مقدر يدل عليه الشرطية دلالة واضحة كانه قيل بطريق الاستئناف تقريرا وتأكيدا لمضمونها حكم الله بأن جزاءه ذلك وغضب عليه اى انتقم منه (ولعنه) أى أبعده عن الرحمة بجعل جزائه ماذكر وقيل هو وما بعده معطوف على الخبر بتقدير أن وحمل الماضى على معنى المستقبل كما فى قوله تعالى «ونفخ فى الصور» ونظائره أى فجزاؤه جهنم وان يغضب الله عليه الخ (وأعدله) فى جهنم (عذابا عظيما) لايقادر قدره ولما ترى فى الآية الكريمة من التهديد الشديد والوعيد الأكيد وفنون الابراق والارعاد وقد تأيدت بما روى من الاخبار الشداد كقوله عليه الصلاة والسلام « والذى نفسى بيده لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مؤمن » وقوله عليه الصلاة والسلام «لوان رجلا قتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب لأشرك فى دمه» وقوله عليه الصلاة والسلام «من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى» وبنحو ذلك من القوارع تمسكت الخوارج والمعتزلة بها فى خلود من قتل المؤمن عمدا فى النار ولا متمسك لهم فيها إلا لما قيل من أنها فى حق المستحل كما هو رأى عكرمة واضرابه بدليل انها نزلت فى مقيس بن ضبابة الكنانى المرتد حسبما مرت حكايته فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بل لان المراد بالخلود هو المكث الطويل لا الدوام لتظاهر النصوص الناطقة بان عصاة المؤمنين لايدوم عذابهم وما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه لاتوبة لقاتل المؤمن عمدا وكذا ماروى عن سفيان أن أهل العلم كانوا اذا سئلوا قالوا لا توبة له محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى فى التشديد والتغليظ وعليه يحمل ماروى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال «أبى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة» كيف لا وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا سأله ألقاتل المؤمن توبة قال لا وسأله آخر ألقاتل المؤمن توبة فقال نعم فقيل له فقلت لذلك كذا ولهذا كذا قال كان الاول لم يقتل بعد فقلت ماقلت كى لا يقتل وكان هذا قد قتل فقلت له ماقلت لئلا ييأس وقد روى عنه جواز المغفرة بلا توبة أيضا حيث قال فى قوله تعالى فجزاؤه جهنم الآية هى جزاؤه فان شاء عذبه وان شاء غفر له وروى مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال «هو جزاؤه ان جازاه» وبه قال عون بن عبدالله وبكر بن عبدالله وابو صالح قالوا قد يقول الانسان لمن يزجره عن أمر ان فعلته فجزاؤك القتل والضرب ثم ان لم يجازه بذلك لم يكن ذلك منه كذبا قال الواحدى والاصل فى ذلك ان الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد وان امتنع أن يخلف الوعد بهذا وردت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أنس رضى الله عنه أنه

عليه الصلاة والسلام قال « من وعده الله على عمله ثوابا فهو منجزه له ومن أوعده على عمله عقابا فهو بالخيار » والتحقيق انه لا ضرورة الى تفريع ما نحن فيه على الاصل المذكور لانه اخبار منه تعالى بان جزاءه ذلك لا بأنه يجزيه بذلك كيف لا وقد قال الله تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» ولو كان هذا اخبارا بانه تعالى يجزى كل سيئة بمثلها لعارضه قوله تعالى «ويعفو عن كثير» (يا أيها الذين آمنوا) اثر ما بين حكم القتل بقسميه وأن ما يتصور صدوره عن المؤمن انما هو القتل خطأ شرع فى التحذير عما يؤدى اليه من قلة المبالاة فى الامور (اذا ضربتم فى سبيل الله) أى سافرتم فى الغزو ولما فى اذا من معنى الشرط صدر قوله تعالى (فتبينوا) بالفاء أى فاطلبوا بيان الامر فى كل ما تأتون وما تذرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية وقرىء فتثبتوا أى اطلبوا إثباته وقوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام) نهى عما هو نتيجة لترك المأمور به وتعيين لمادة مهمة من المواد التى يجب فيها التبيين وقرىء السلم بغير ألف وبكسر السين وسكون اللام أى لا تقولوا بغير تأمل لمن حياكم بتحية الاسلام أو لمن ألقى اليكم مقاليد الاستسلام والانقياد (لست مؤمنا) وانما أظهرت ما أظهرت متعوذا بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه وقرىء مؤمنا بالفتح أى مبذولا لك الامان وهذا أنسب بالقراءتين الاخيرتين والاقتصار على ذكر تحية الاسلام فى القراءة الاولى مع كونها مقرونة بكلمتى الشهادة كما سيأتى فى سبب النزول للمبالغة فى النهى والزجر والتنبيه على كمال ظهور خطئهم ببيان أن تحية الاسلام كانت كافية فى المكافة والانزجار عن التعرض لصاحبها فكيف وهى مقرونة بهما وقوله تعالى (تبتغون عرض الحياة الدنيا) حال من فاعل لا تقولوا منبىء عما يحملهم على العجلة وترك التأنى لكن لا على أن يكون النهى راجعا الى القيد فقط كما فى قولك: لا تطلب العلم تبتغى به الجاه بل اليهما جميعا أى لا تقولوا له ذلك حال كونكم طالبين لماله الذى هو حطام سريع النفاد وقوله تعالى (فعند الله مغانم كثيرة) تعليل للنهى عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمنى كانه قيل لا تبتغوا ماله فعند الله مغانم كثيرة يغنمكموها فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه وقوله تعالى (كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم) تعليل للنهى عن القول المذكور ولعل تأخيره لما فيه من نوع تفصيل ربما يخل تقديمه بتجارب أطراف النظم الكريم مع ما فيه من مراعاة المقارنة بين التعليل السابق وبين ما علل به كما فى قوله تعالى «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم» الخ وتقديم خبر كان للقصر المفيد لتأكيد المشابهة بين طرفى التشبيه وذلك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة

والفاء فى فمن للعطف على كنتم أى مثل ذلك الذى ألقى اليكم السلام كنتم أنتم أيضا فى مبادى اسلامكم لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الاسلام ونحوها فمن الله عليكم بان قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم والفاء فى قوله تعالى (فتبينوا) فصيحة أى اذا كان الامر كذلك فاطلبوا بيان هذا الامر البين وقيسوا حاله بحالكم وافعلوا به ما فعل بكم فى أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وتستدعيه فخامة شأنه الجليل ومن حسب أن المعنى أول ما دخلتم فى الاسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم فمن الله عليكم بالاستقامة والاشتهار بالايمان والتقدم فيه وان صرتم أعلاما فيه فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الاسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الاسلام فى المكافة ولا تقولوا الخ فقد أبعد عن الحق لان المراد كما عرفت بيان أن تحصين الدماء والاموال حكم مترتب على ما فيه المماثلة بينه وبينهم من مجرد التفوه بكلمة الشهادة واظهارا أن ترتبه عليه فى حقهم يقتضى ترتبه عليه فى حقه أيضا الزاما لهم واظهارا لخطئهم ولا يخفى أن ذلك انما يتأتى بتفسير منه تعالى عليهم المترتب على كونهم مثله بتحصين دمائهم وأموالهم حسبما ذكر حتى يظهر عندهم وجوب تحصين دمه وماله أيضا بحكم المشاركة فيما يوجبه وحيث لم يفعل ذلك بل فسره بما فسره به لم يبق فى النظم الكريم ما يدل على ترتب تحصين دمائهم وأموالهم على ما ذكر فمن أين له أن يقول فحصنت دماءكم وأموالكم حتى يتأتى البيان وارتكاب تقديره بناء على اقتضاء ما ذكر فى تفسير المن اياه بناء على أساس واه كيف لا وانما ذكره بصدد التفسير وان كان أمرا متفرعا على ما فيه المماثلة مبنيا عليه فى حقهم لكنه ليس بحكم أريد اثباته فى حقه بناء على ثبوته فى حقهم كالتحصين المذكور حتى يستحق أن يتعرض له ولا بأمر له دخل فى وجوب اعتبار ظاهر الاسلام من الداخلين فيه حتى يصح نظمه فى سلك ما فرع عليه قوله فعليكم أن تفعلوا الخ وحمل الكلام على معنى انكم فى أول الامر كنتم مثله فى قصور الرتبة فى الاسلام فمن الله عليكم وبلغتم هذه الرتبة العالية منه فلا تستقصروا حالته نظرا الى حالتكم هذه بل اعتدوا بها نظرا الى حالتكم السابقة يرده أن قتله لم يكن لاستقصار اسلامه بل لتوهم عدم مطابقة قلبه للسانه فان الآية الكريمة نزلت فى شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك وكان قد أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم غالب بن فضالة الليثى فهربوا وبقى

مرداس لثقته باسلامه فلما رأي الخيل ألجأغنمه الى عاقول من الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا كبر وقال لا اله الا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه فاخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجدا شديدا وقال «قتلتموه ارادة ما معه» فقال اسامة انه قال بلسانه دون قلبه وفى رواية انما قالها خوفا من السلاح فقال عليه الصلاة والسلام «هلا شققت عن قلبه» وفى رواية أفلا شققت عن قلبه ثم قرأ الآية على أسامة فقال يارسول الله استغفر لى فقال كيف بلا اله الا الله قال أسامة فما زال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت الا يومئذ ثم استغفر لى وقال أعتق رقبة » وقيل نزلت فى رجل قال يارسول الله كنا نطلب القوم وقد هزمهم الله تعالى فقصدت رجلا فلما أحس بالسيف قال انى مسلم فقتلته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أقتلت مسلما قال انه كان متعوذا فقال عليه الصلاة والسلام أفلا شققت عن قلبه» (إن الله كان بما تعملون) من الاعمال الظاهرة والخفية وبكيفياتها (خبيرا) فيجازيكم بحسبها ان خيرا فخير وان شرا فشر فلا تتهاونوا فى القتل واحتاطوا فيه والجملة تعليل لما قبلها بطريق الاستئناف وقرئ بفتح أن على أنها معمولة لتبينوا أو على حذف لام التعليل (لا يستوى القاعدون) بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم فى الجهاد بعد ما مر من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ليأنف القاعد عنه ويترفع بنفسه عن انحطاط رتبته فيهتز له رغبة فى ارتفاع طبقته والمراد بهم الذين أذن لهم فى القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم القاعدون عن بدر والخارجون اليها وهو الظاهر الموافق لتاريخ النزول لا على ما روى عن مقاتل من أنهم الخارجون الى تبوك فانه مما لا يوافقه التاريخ ولا يساعده الحال اذ لم يكن للمتخلفين يومئذ هذه الرخصة وقوله تعالى (من المؤمنين) متعلق بمحذوف وقع حالا من القاعدين أى كائنين من المؤمنين وفائدتها الايذان من أول الامر بعدم اخلال وصف القعود بايمانهم والاشعار بعلة استحقاقهم لما سيأتى من الحسنى (غير أولى الضرر) بالرفع صفة للقاعدون لجريانه مجرى النكرة حيث لم يقصد به قوم بأعيانهم أو بدل منه . وقرئ بالنصب على أنه حال منه أو استثناء وبالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه والضرر المرض أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها وفى معناه العجز عن الاهبة . عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه أنه قال كنت الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيته السكينة فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن ترضها ثم سرى عنه فقال « اكتب فكتبت لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فقال

ابن أم مكتوم وكان أعمى يا رسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين فغشيته السكينة كذلك ثم سرى عنه فقال اكتب لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر (والمجاهدون) ايراد هم بهذا العنوان دون الخروج المقابل لوصف المعطوف عليه كما وقع فى عبارة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكذا تقييد المجاهدة بكونها (فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) لمدحهم بذلك والاشعار بعلة استحقاقهم لعلو المرتبة مع ما فيه من حسن موقع السبيل فى مقابلة القعود. وتقديم القاعدين فى الذكر للايذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبئ عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وان جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر وعليه قوله تعالى «هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور» الى غير ذلك وأما قوله تعالى «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» فلعل تقديم الفاضل فيه لان صلته ملكة لصلة المفضول وقوله عز وجل (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) استئناف مسوق لتفصيل ما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم استوائهما اجمالا ببيان كيفيته وكميته مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل كيف وقع ذلك فقيل فضل الله الخ وأما تقدير ما لهم لا يستوون فانما يليق بجعل الاستئناف تعليلا لعدم الاستواء مسوقا لاثباته وفيه تعكيس ظاهر فان الذى يحق أن يكون مقصودا بالذات انما هو بيان تفاضل الفريقين على درجات متفاوتة وأما عدم استوائهما فقصارى أمره أن يكون توطئة لذكره ولام المجاهدين والقاعدين للعهد فقيد كون الجهاد فى سبيل الله معتبر فى الاول كما أن قيد عدم الضرر معتبر فى الثانى ودرجة نصب على المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل أي فضل الله تفضيلة أو على نزع الخافض أى بدرجة وقيل على التميز وقيل على الحالية من المجاهدين أى ذوى درجة وتنوينها للتفخيم وقوله تعالى (وكلا) مفعول أول لما يعقبه قدم عليه لافادة القصر تأكيدا للوعد أى كل واحد من المجاهدين والقاعدين (وعد الله الحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة لا أحدهما فقط كما فى قوله تعالى «وأرسلناك للناس رسولا» على أن اللام متعلقة برسولا والجملة اعتراض جيء به تداركا لما عسى يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول وقوله عز وجل (وفضل الله المجاهدين على القاعدين) عطف على قوله تعالى فضل الله الخ واللام فى الفريقين مغنية لها عن ذكر القيود التى تركت على سبيل التدريج وقوله تعالى (أجرا عظيما) مصدر مؤكد لفضل

على أنه بمعنى أجر . وايثاره على ماهو مصدر من فعله للاشعار بكون ذلك التفضيل أجرا لاعمالهم أو مفعول ثان له بتضمينه معنى الاعطاء أى أعطاهم زيادة على القاعدين أجرا عظيما . وقيل هو منصوب بنزع الخافض أى فضلهم بأجر عظيم وقوله تعالى (درجات) بدل من أجرا بدل الكل مبين لكمية التفضيل وقوله تعالى (منه) متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات دالة على فخامتها وجلالة قدرها أى درجات كائنة منه تعالى قال ابن محيريزهى سبعون درجة مابين كل درجتين عدوا لفرس الجواد المضمر سبعين خريفا وقال السدى هى سبعمائة درجة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان فى الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين فى سبيله مابين الدرجتين كما بين السماء والارض» ويجوز أن يكون انتصاب درجات على المصدرية كما فى قولك: ضربه أسواطا أى ضربات كأنه قيل فضلهم تفضيلات وقوله تعالى (ومغفرة) بدل من أجرا بدل البعض لان بعض الاجر ليس من باب المغفرة أى مغفرة لمايفرط منهم من الذنوب التى لايكفرها سائر الحسنات التى يأتى بها القاعدون أيضا حتى تعد من خصائصهم وقوله تعالى (ورحمة) بدل الكل من أجرا مثل درجات ويجوز أن يكون انتصابهما باضمار فعلهما أى غفرلهم مغفرة ورحمهم رحمة هذا ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبىء عن المغايرة وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن النظام أما لتنزيل الاختلاف العنوانى بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتى تمهيدا لسلوك طريق الابهام ثم التفسير روما لمزيد التحقيق والتقرير كما فى قوله تعالى «فلما جاء أمرنا نجيناهودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ » كأنه قيل فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لايقادر قدرها ولا يبلغ كنهها وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهما لحرمان القاعدين قيل وكلا وعد الله الحسنى ثم أريد تفسير ماأفاده التنكير بطريق الابهام بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة فقيل ماقيل ولله درشأن التنزيل وأما للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات على أن المراد بالتفضيل الاول ماخولهم الله تعالى عاجلا فى الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة وبالتفضيل الثانى ماأنعم به فى الآخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر كما ينبىء عنه تقديم الاول وتأخير الثانى وتوسيط الوعد بالجنة بينهما كأنه قيل وفضلهم عليهم فى الدنيا درجة واحدة وفى الآخرة درجات لاتحصى وقد وسط بينهما فى الذكر ماهو متوسط بينهما فى الوجود أعنى الوعد بالجنة توضيحاً

لحالهما ومسارعة إلى تسلية المفضول والله سبحانه أعلم . هذا مابين المجاهدين وبين القاعدين غير أولى الضرر وأما أولو الضرر فهم مساوون للمجاهدين عند القائلين بمفهوم الصفة وبأن الاستثناء من النفي اثبات وأما عند من لايقول بذلك فلا دلالة لعبارة النص عليه وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد خلفتم فى المدينة أقواماً ماسرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم» وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد وبهم مايمنعهم من المسير من ضرر أو غيره وبعبارة أخرى «ان فى المدينة لأقواماً ماسرتم من مسير ولا قطعتم من واد الا كانوا معكم فيه قالوا يارسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر» قالوا هذه المساواة مشروطة بشريطة أخرى سوى الضرر قد ذكرت فى قوله تعالى «ليس على الضعفاء ولا على المرضى» الي قوله اذ انصحوا لله ورسوله وقيل القاعدون الأول هم الاضراء والثانى غيرهم وفيه من تفكيك النظم الكريم مالا يخفى ولا ريب فى أن الاضراء أفضل من غيرهم درجة كما لاريب فى أنهم دون المجاهدين بحسب الدرجة الدنيوية (وكان الله غفوراً رحيما) تذييل مقرر لما وعد من المغفرة والرحمة (ان الذين توفاهم الملائكة) بيان لحال القاعدين عن الهجرة أثر بيان حال القاعدين عن الجهاد وتوفاهم يحتمل أن يكون ماضياً ويؤيده قراءة من قرأ توفتهم وان يكون مضارعا قد حذف منه احدى التاءين وأصله تتوفاهم على حكاية الحال الماضية والقصد الى استحضار صورتها ويعضده قراءة من قرأ توفاهم على مضارع وفيت بمعنى أن الله تعالى يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها أى يمكنهم من استيفائها فيستوفونها (ظالمى أنفسهم) حال من ضمير توفاهم فانه وان كان مضافا إلى المعرفة الا أنه نكرة فى الحقيقة لان المعنى على الانفصال وان كان موصولا فى اللفظ كما فى قوله تعالى « غير محلى الصيد وهديا بالغ الكعبة وثانى عطفه» أى محلين الصيد وبالغا الكعبة وثانيا عطفه كأنه قيل ظالمين أنفسهم وذلك بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفرة الموجبة للاخلال بأمور الدين فانها نزلت فى ناس من مكة قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة (قالوا) أى الملائكة للمتوفين تقريراً لهم بتقصيرهم فى اظهار اسلامهم واقامة أحكامه من الصلاة ونحوها وتوبيخاً لهم بذلك (فيم كنتم) أى فى أي شيء كنتم من أمور دينكم (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا متجانفين عن الاقرار الصريح بماهم فيه من التقصير متعللين بما يوجبه على زعمهم (كنا مستضعفين فى الأرض) أي فى أرض

مكة عاجزين عن القيام بمواجب الدين فيما بين أهلها (قالوا) أبطالا لتعللهم وتبكيتا لهم (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) إلى قطر آخر منها تقدرون فيه على إقامة أمور الدين كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة وأما حمل تعللهم على اظهار العجز عن الهجرة وجعل جواب الملائكة تكذيبا لهم فى ذلك فيرده أن سبب العجز عنها لاينحصر فى فقدان دار الهجرة بل قد يكون لعدم الاستطاعة للخروج بسبب الفقر أو لعدم تمكين الكفرة منه فلا يكون بيان سعة الارض تكذيبا لهم وردا عليهم بل لابد من بيان استطاعتهم أيضا حتى يتم التبكيت وقيل كانت الطائفة المذكورة قد خرجوا مع المشركين الى بدر منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد ابن المغيرة واشباههما فقتلوا فيها فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقالوا لهم ماقالوا فيكون ذلك منهم تقريعا وتوبيخا لهم بما كانوا فيه من مساعدة الكفرة وانتظامهم فى عسكرهم ويكون جوابهم بالاستضعاف تعللا بانهم كانوا مقهورين تحت أيديهم وأنهم أخرجوهم كارهين فرد عليهم بانهم كانوا بسبيل من الخلاص عن قهرهم متمكنين من المهاجرة (فأولئك) الذين حكيت أحوالهم الفظيعة (مأواهم) أى فى الآخرة (جهنم) كما أن مأواهم فى الدنيا دار الكفر لتركهم الفريضة المحتومة فمأواهم مبتدأ وجهنم خبره والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر ان والفاء فيه لتضمن اسمها معنى الشرط وقوله تعالى قالوا فيم كنتم حال من الملائكة باضمار قد عند من يشترطه أو هو الخبر والعائد منه محذوف أى قالوا لهم والجملة المصدرة بالفاء معطوفة عليه مستنتجة منه ومما فى حيزه (وساءت مصيراً) أى مصيرهم أى جهنم وفى الآية الكريمة ارشاد الى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكن الرجل من اقامة أمور دينه بأى سبب كان وعن النبى صلى الله عليه وسلم «من فر بدينه من أرض إلى أرض وان كان شبرا من الارض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام» (الا المستضعفين) استثناء منقطع لعدم دخولهم فى الموصول وضميره والاشارة اليه ومن فى قوله تعالى (من الرجال والنساء والولدان) متعلقة بمحذوف وقع حالا من المستضعفين أي كائنين منهم وذكر الولدان إن أريد بهم المماليك أو المراهقون ظاهر وأما أن أريد بهم الاطفال فللمبالغة فى أمر الهجرة وايهام أنها بحيث لو استطاعها غير المكلفين لوجبت عليهم والاشعار بأنهم لامحيص لهم عنها البتة تجب عليهم كما بلغوا حتى كأنها واجبة عليهم قبل البلوغ لو استطاعوا وأن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا

بهم متى أمكنت وقوله تعالى (لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) صفة للمستضعفين فان ما فيه من اللام ليس للتعريف أو حال منه أو من الضمير المستكن فيه . وقيل تفسير لنفس المستضعفين لكثرة وجوه الاستضعاف واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة ومباديها واهتداء السبيل معرفة طريق الموضع المهاجر اليه بنفسه أو بدليل (فاولئك) اشارة الى المستضعفين الموصوفين بما ذكر من صفات العجز (عسى الله أن يعفو عنهم) جيء بكلمة الاطماع ولفظ العفو ايذانا بأن الهجرة من تأكد الوجوب بحيث ينبغى أن يعد تركها ممن تحقق عدم وجوبها عليه ذنبا يجب طلب العفو عنه رجاء وطمعا لا جزما وقطعا (وكان الله عفوا غفورا) تذييل مقرر لما قبله (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا) ترغيب فى المهاجرة وتأنيس لها أي يجد فيها متحولا ومهاجرا وانما عبر عنه بذلك تأكيدا للترغيب لما فيه من الاشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة الى ما يكون سببا لرغم أنف قومه الذين هاجرهم والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الانف بالرغام وهو التراب وقيل يجد فيها طريقا يراغم بسلوكه قومه أي يفارقهم على رغم أنوفهم (وسعة) أي من الرزق (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت) أي قبل أن يصل الى المقصد وان كان ذلك خارج بابه كما ينبئ عنه ايثار الخروج من بيته على المهاجرة وهو عطف على فعل الشرط وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقيل هو حركة الهاء نقلت الى الكاف على نية الوقف كما فى قوله:

عجبت والدهر كثير عجبه ⁂ من عنزى سبنى لم أضربه

وقرىء بالنصب على اضمار أن كما فى قوله ⁂ وألحق بالحجاز فأستريحا (فقد وقع أجره على الله) أى ثبت ذلك عنده تعالى ثبوت الامر الواجب ⁂ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث بالآيات المتقدمة الى مسلمى مكة قال جندب بن ضمرة لبنيه وكان شيخا كبيرا احملونى فانى لست من المستضعفين وانى لأهتدي الطريق والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير متوجها الى المدينة فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك رسولك فمات حميدا فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو توفى بالمدينة لكان أتم أجرا فنزلت قالوا كل هجرة فى غرض دينى من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهى هجرة الى الله عز وجل والى رسوله عليه الصلاة والسلام (وكان الله غفورا) مبالغا فى المغفرة فيغفر له ما فرط منه من الذنوب التى من جملتها القعود

عن الهجرة الى وقت الخروج (رحيما) مبالغا فى الرحمة فيرحمه با كمال ثواب هجرته (وإذا ضربتم فى الارض) شروع فى بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ولقاء العدو والمرض والمطر وفيه تأكيد لعزيمة المهاجر على المهاجرة وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤنة أى اذا سافرتم أى مسافرة كانت ولذلك لم يقيد بما قيد به المهاجرة (فليس عليكم جناح) أى حرج ومأثم (أن تقصروا) أى فى أن تقصروا والقصر خلاف المد يقال قصرت الشيء أى جعلته قصيراً بحذف بعض أجزائه أو أوصافه فمتعلق القصر حقيقة انما هو ذلك الشيء لا بعضه فانه متعلق الحذف دون القصر وعلى هذا فقوله تعالى (من الصلاة) ينبغى أن يكون مفعولا لتقصروا على زيادة من حسبما رآه الاخفش وأما على تقدير أن تكون تبعيضية ويكون المفعول محذوفا كما هو رأى سيبويه أى شيئاً من الصلاة فينبغى أن يصار الى وصف الجزء بصفة الكل أو يراد بالقصر معنى الحبس يقال قصرت الشيء اذا حبسته أو يراد بالصلاة الجنس ليكون المقصور بعضا منها وهى الرباعيات فليس عليكم جناح فى أن تقصروا بعض الصلاة بتنصيفها. وقرىء تقصروا من الاقصار وتقصروا من التقصير والكل بمعنى. وأدنى مدة السفر الذى يتعلق به القصر عند أبى حنيفة مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الابل ومشى الاقدام بالاقتصاد وعند الشافعى مسيرة يومين وظاهر الآية الكريمة التخيير وأفضلية الاتمام وبه تعلق الشافعى وبما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه أتم فى السفر وعن عائشة رضى الله عنها أنها أتمت تارة وقصرت أخرى وعن عثمان رضى الله عنه أنه كان يتم ويقصر وعندنا يجب القصر لامحالة خلا أن بعض مشايخنا سماه عزيمة وبعضهم رخصة اسقاط بحيث لامساغ للاتمام لا رخصة ترفيه إذ لا معنى للتخيير بين الاخف والاثقل وهو قول عمر وعلى وابن عباس وابن عمر وجابر رضوان الله عليهم وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك وقد روى عن عمر رضى الله عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم عليه السلام. وعن أنس رضى الله عنه خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة الى مكة فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا الى المدينة وعن عمران بن حصين رضى الله عنه ما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى السفر إلا ركعتين وصلى بمكة ركعتين ثم قال «أتموا فانا قوم سفر» وحين سمع ابن مسعود أن عثمان رضى الله عنه صلى بمنى أربع ركعات استرجع ثم قال صليت مع رسول الله عليه الصلاة والسلام بمنى ركعتين وصليت مع أبى بكر رضى الله عنه بمنى ركعتين وصليت مع عمر رضى الله بمنى ركعتين فليت حظى من أربع

ركعات ركعتان متقبلتان وقد اعتذر عثمان رضى الله عنه عن اتمامه بأنه تأهل بمكة وعن الزهرى أنه انما أتم لأنه أزمع الاقامة بمكة وعن عائشة رضى الله عنها «أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت فى السفر وزيدت فى الحضر» وفى صحيح البخارى أنها قالت «فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر» وأما ماروى عنها من الاتمام فقد اعتذرت عنه وقالت أنا أم المؤمنين فحيث حللت فهى دارى. وانما ورد ذلك بنفى الجناح لما أنهم ألفوا الاتمام فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا فى القصر فصرح بنفى الجناح عنهم لتطيب به نفوسهم ويطمئنوا اليه كما فى قوله تعالى «فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما» مع أن ذلك الطواف واجب عندنا ركن عند الشافعى وقوله تعالى (ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) جوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه أى ان خفتم أن يتعرضوا لكم بما تكرهونه من القتال وغيره فليس عليكم جناح الخ وهو شرط معتبر فى شرعية ما يذكر بعده من صلاة الخوف المؤداة بالجماعة وأما فى حق مطلق القصر فلا اعتبار له اتفاقا لتظاهر السنن على مشروعيته حسبما وقفت على تفاصيلها. وقد ذكر الطحاوى فى شرح الآثار مسنداً الى يعلى بن أمية أنه قال قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه انما قال الله «فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» وقد أمن الناس فقال عمر رضى الله عنه عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» وفيه دليل على عدم جواز الاكمال لان التصدق بما لا يحتمل التمليك اسقاط محض لا يحتمل الرد كما حقق فى موضعه ولا يتوهمن أنه مخالف للكتاب لان التقييد بالشرط عندنا انما يدل على ثبوت الحكم عند وجود الشرط وأما عدمه عند عدمه فساكت عنه فان وجد له دليل ثبت عنده أيضاً والا يبقى على حاله لعدم تحقق دليله لالتحقق دليل عدمه وناهيك بما سمعت من الادلة الواضحة وأما عند القائلين بالمفهوم فلأنه انما يدل على نفى الحكم عند عدم الشرط اذا لم يكن له فائدة أخرى وقد خرج الشرط ههنا مخرج الاغلب كما فى قوله تعالى «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا» بل نقول ان الآية الكريمة مجملة فى حق مقدار القصر وكيفيته وفى حق ما يتعلق به من الصلوات وفى مقدار مدة الضرب الذى نيط به القصر فكل ماورد عنه صلى الله عليه وسلم من القصر فى حال الامن وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف وبالضرب فى المدة المعينة بيان لاجمال الكتاب وقد قيل إن قوله تعالى ان خفتم الخ

متعلق بمابعده من صلاة الخوف منفصل عما قبله فانه روى عن أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه أنه قال نزل قوله تعالى «واذا ضربتم فى الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد حول فنزل ان خفتم الخ» أى أن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فليس عليكم جناح الخ وقد قرئ من الصلاة أن يفتنكم بغيران خفتم على أنه مفعول له لمادل عليه الكلام كأنه قيل شرع لكم ذلك كراهة أن يفتنكم الخ فان استمرار الاشتغال بالصلاة مظنة لاقتدارهم على إيقاع الفتنة وقوله تعالى (ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) تعليل لذلك باعتبار تعلله بما ذكر أو لما يفهم من الكلام من كون فتنتهم متوقعة فان كمال عداوتهم للمؤمنين من موجبات التعرض لهم بسوء وقوله تعالى (واذا كنت فيهم) بيان لما قبله من النص المجمل الوارد فى مشروعية القصر بطريق التفريع وتصوير لكيفيته عند الضرورة التامة وتخصيص البيان بهذه الصورة مع الاكتفاء فيما عداها بالبيان بطريق السنة لمزيد حاجتها اليه لما فيها من كثرة التغيير عن الهيئة الاصلية ومن ههنا ظهر لك أن مورد النص الشريف على المقصورة وحكم ماعداها مستفاد من حكمها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التجريد وبظاهره يتعلق من لايرى صلاة الخوف بعده عليه السلام ولايخفى أن الائمة بعده نوابه عليه السلام قوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه السلام كما فى قوله تعالى «خذ من أموالهم صدقة» وقد روى أن سعيد بن العاص لما أراد أن يصلى بطبرستان صلاة الخوف قال من شهد منكم صلاة الخوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فوصف له ذلك فصلى بهم كما وصف وكان ذلك بحضرة الصحابة رضى الله عنهم فلم ينكره أحد فحل محل الاجماع . وروى فى السنن أنهم غزوا مع عبدالرحمن بن سمرة بابل فصلى بهم صلاة الخوف (فأقمت لهم الصلاة) أى أردت أن تقيم بهم الصلاة (فلتقم طائفة منهم معك) بعد أن جعلتهم طائفتين ولتقف الطائفة الاخرى بأزاء العدو ليحرسوكم منهم وانما لم يصرح به لظهوره (وليأخذوا) أى الطائفة القائمة معك (أسلحتهم) أى لايضعوها ولا يلقوها وانما عبر عن ذلك بالاخذ للايذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء (فاذاسجدوا) أى القائمون معك وأتموا الركعة (فليكونوا من ورائكم) أى فلينصرفوا الى مقابلة العدو للحراسة (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا) بعد وهى الطائفة الواقفة تجاه العدو للحراسة وانما لم تعرف لما أنها لم تذكر فيما قبل (فليصلوا معك) الركعة الباقية و لم يبين فى الآية الكريمة حال الركعة الباقية لكل من الطائفتين

وقد بين ذلك بالسنة حيث روى عن ابن عمر وابن مسعود رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الاولى ركعة وبالطائفة الاخرى ركعة كما فى الآية الكريمة ثم جاءت الطائفة الاولى وذهبت هذه الى مقابلة العدو حتى قضت الاولى الركعة الاخيرة بلا قراءة وسلموا ثم جاءت الطائفة الاخرى وقضوا الركعة الاولى بقراءة حتى صار لكل طائفة ركعتان (وليأخذوا) أى هذه الطائفة (حذرهم وأسلحتهم) لعل زيادة الامر بالحذر فى هذه المرة لكونها مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي صلى الله عليه وسلم فى شغل شاغل وأما قبلها فربما يظنونهم قائمين للحرب وتكليف كل من الطائفتين بما ذكر لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لالقاء السلاح والاعراض عن غيرها ومئنة لهجوم العدو كما ينطق به قوله تعالى (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) فانه استئناف مسوق لتعليل الامر المذكور والخطاب للفريقين بطريق الالتفات أي تمنوا أن ينالوا منكم غرة وينتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة والمراد بالأمتعة مايتمتع به فى الحرب لامطلقا وهذا الامر للوجوب لقوله تعالى (ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) حيث رخص لهم فى وضعها اذا ثقل عليهم استصحابها بسبب مطر أو مرض وأمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقيل (وخذوا حذركم) لئلا يهجم العدو عليكم غيلة روى الكلبى عن أبي صالح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا محاربا وبنى أنمار فنزلوا ولا يرون من العدو أحدا فوضع الناس أسلحتهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادى والسماء ترش فحال الوادي بينه عليه السلام وبين أصحابه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصر به غورث بن الحرث المحاربى فقال قتلنى الله ان لم اقتلك ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهو قائم على رأسه وقد سل سيفه من غمده فقال يامحمد من يعصمك منى الآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله عز وجل ثم قال اللهم اكفنى غورث ابن الحرث بما شئت» ثم أهوى بالسيف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب لوجهه من زلخة زلخها بين كتفيه فبدر سيفه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه ثم قال ياغورث « من يمنعك منى الآن قال لأحد قال عليه الصلاة والسلام تشهد ان لااله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك قال لا ولكن أشهد أن لاأقاتلك أبدا ولاأعين عليك عدوا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث والله لأنت خير منى

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحق بذلك منك » فرجع غورث الى أصحابه فقص عليهم قصته فآمن بعضهم قال وسكن الوادى فقطع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أصحابه وأخبرهم بالخبر وقوله تعالى (ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا) تعليل للامر باخذ الحذر أى أعد لهم عذابا مهينا بان يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا باموركم ولا تهملوا فى مباشرة الاسباب كى يحل بهم عذابه بايديكم وقيل لما كان الامر بالحذر من العدو موهما لتوقع غلبته واعتزازه نفى ذلك الايهام بان الله تعالى ينصرهم ويهين عدوهم لتقوى قلوبهم (فاذا قضيتم الصلاة) أي صلاة الخوف أى أديتموها على الوجه المبين وفرغتم منها (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أي فداوموا على ذكر الله تعالى وحافظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه فى جميع الاحوال حتى فى حال المسابقة والقتال كما فى قوله تعالى «اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون» (فاذا اطمأننتم) سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتم بعد ماوضعت الحرب أوزارها (فأقيموا الصلاة) أي الصلاة التى دخل وقتها حينئذ أى أدوها بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها وقيل المراد بالذكر فى الاحوال الثلاثة الصلاة فيها أى فاذا أردتم أداء الصلاة فصلوا قياما عند المسابقة وقعودا جاثين على الركب عند المراماة وعلى جنوبكم مثخنين بالجراح فاذا اطمأننتم فى الجملة فاقضوا ما صليتم فى تلك الاحوال التى هى أحوال القلق والانزعاج وهو رأى الشافعى رحمه الله وفيه من البعد مالا يخفى (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) أى فرضا مؤقتا قال مجاهد وقته الله عليهم فلا بد من أقامتها فى حالة الخوف أيضا على الوجه المشروح وقيل مفروضا مقدرا فى الحضر أربع ركعات وفى السفر ركعتين فلا بد أن تؤدى فى كل وقت حسبما قدر فيه (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) أى لا تضعفوا ولا تتوانوا فى طلب الكفار بالقتال والتعرض لهم بالحراب وقوله تعالى (ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) تعليل للنهى وتشجيع لهم أى ليس ما تقاسونه من الآلام مختصا بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم انهم يصبرون على ذلك فمالكم لا تصبرون مع انكم أولى به منهم حيث ترجون من الله من أظهار دينكم على سائر الاديان ومن الثواب فى الآخرة مالا يخطر ببالهم وقرئ أن تكونوا بفتح الهمزة أى لا تهنوا لأن تكونوا تألمون وقوله تعالى فانهم تعليل للنهى عن الوهن لاجله والآية نزلت فى بدر الصغرى (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم فيعلم أعمالكم وضمائركم (حكيما) فيما يأمر وينهى فجدوا فى الامتثال بذلك فان فيه عواقب حميدة (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق) روى أن رجلا من الانصار يقال له طعمة بن

أبيرق من بني ظفر سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان في جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن السمين اليهودي فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى الى منزل اليهودي فاخذوها فقال دفعها الى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل فنزلت. وروي أن طعمة هرب الى مكة وارتد ونقب حائطا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله وقيل نزل على رجل من بني سليم من أهل مكة يقال له الحجاج بن علاط فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع الدخول ولا الخروج فأخذ ليقتل فقيل دعه فانه قد لجأ اليك فتركه وأخرجوه من مكة فالتحق بتجار من قضاعة نحو الشام فنزلوا منزلا فسرق بعض متاعهم وهرب فاخذوه ورجموه بالحجارة حتى قتلوه وقيل انه ركب سفينة الى جدة فسرق فيها كيسا فيه دنانير فاخذ وألقي في البحر (لتحكم بين الناس بما أراك الله) أي بما عرفك وأوحى به اليك (ولا تكن للخائنين) أي لاجلهم والذب عنهم وهم طعمة ومن يعينه من قومه أوهو ومن يسير بسيرته (خصيما) مخاصما للبرآء أي لا تخاصم اليهود لاجلهم والنهي معطوف على أمر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فاحكم به ولا تكن الخ (واستغفر الله) مما هممت به تعويلا على شهادتهم (ان الله كان غفورا رحيما) مبالغا في المغفرة والرحمة لمن يستغفره (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) أي يخونونها بالمعصية كقوله تعالى علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم جعلت معصية العصاة خيانة منهم لانفسهم كما جعلت ظلما لها لرجوع ضررها اليهم والمراد بالموصول اما طعمة وأمثاله واما هو ومن عاونه وشهد ببراءته من قومه فانهم شركاء في الاثم والخيانة (ان الله لا يحب من كان خوانا) مفرطا في الخيانة مصرا عليها (أثيما) منهمكا فيه وتعليق عدم المحبة الذي هو كناية عن البغض والسخط بالمبالغ في الخيانة والاثم ليس لتخصيصه به بل لبيان افراط طعمة وقومه فيهما (يستخفون من الناس) يستترون منهم حياء وخوفا من ضررهم (ولا يستخفون من الله) أي لا يستحيون منه سبحانه وتعالى وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه (وهو معهم) عالم بهم وباحوالهم فلا طريق الى الاستخفاء منه سوى ترك ما يستقبحه ويؤاخذ به (اذ يبيتون) يدبرون ويزورون (ما لا يرضى من القول) من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور (وكان الله بما يعملون) من الاعمال الظاهرة والخافية (محيطا) لا يعزب عنه شيء منها ولا

يفوت (هاأنتم هؤلاء) تلوين للخطاب وتوجيه له اليهم بطريق الالتفات إيذانا بأن تعديد جناياتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع والجملة مبتدأ وخبر وقوله تعالى (جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا) جملة مبنية لوقوع أولاء خبرا ويجوز أن يكون أولاء اسما موصولا بمعنى الذين وجادلتم الخ صلة له والمجادلة أشد المخاصمة والمعنى هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وأمثاله فى الدنيا (فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) فمن يخاصم عنهم يومئذ عند تعذيبهم وعقابهم (أم من يكون عليهم وكيلا) حافظا ومحاميا من بأس الله تعالى وانتقامه (ومن يعمل سوأ) قبيحا يسوء به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهودي أو يظلم (نفسه) بما يختص به كالحلف الكاذب وقيل السوء مادون الشرك والظلم الشرك وقيل هما الصغيرة والكبيرة (ثم يستغفر الله) بالتوبة الصادقة (يجد الله غفورا) لذنوبه كائنة ما كانت (رحيما) متفضلا عليه وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة كما مر (ومن يكسب إثما) من الآثام (فانما يكسبه على نفسه) حيث لا يتعدى ضرره ووباله الى غيره فليحترز عن تعريضها للعقاب والعذاب عاجلا وآجلا (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم (حكيما) مراعيا للحكمة فى كل ما قدر وقضى ولذلك لايحمل وازرة وزر أخرى (ومن يكسب خطيئة) صغيرة أو مالا عمد فيه من الذنوب وقرئ ومن يكسب بكسر الكاف وتشديد السين وأصله يكتسب (أو إثما) كبيرة أو ماكان عن عمد ثم (يرم به) أى يقذف به ويسنده وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لمكان أو وتذكيره لتغليب الاثم على الخطيئة كأنه قيل ثم يرم بأحدهما وقرئ يرم بهما وقيل الضمير للكسب المدلول عليه بقوله تعالى يكسب وثم للتراخى فى الرتبة (بريئا) أى مما رماه به ليحمله عقوبته العاجلة كما فعل طعمة بزيد (فقد احتمل) أى بما فعل من تحميل جريرته على البرئ (بهتانا) وهو الكذب على الغير بما يبهت منه ويتحير عند سماعه لفظاعته وهوله وقيل هو الكذب الذى يتحير فى عظمه (وإثما مبينا) أى بينا فاحشا وهو صفة لاثما وقد اكتفى فى بيان عظم البهتان بالتنكير التفخيمى كأنه قيل بهتانا لايقادر قدره واثما مبينا على أن وصف الاثم بما ذكر بمنزلة وصف البهتان به لانهما عبارة عن أمر واحد هو رمى البرىء بجناية نفسه قد عبر عنه بهما تهويلا لامره وتفظيعا لحاله فمدار العظم والفخامة كون المرمى به للرامى فان رمى البرىء بجناية ما خطيئة كانت أو اثما بهتان واثم فى نفسه أما كونه بهتانا فظاهر وأما كونه اثما فلان كون الذنب بالنسبة الى من فعله خطيئة لايلزم منه كونه بالنسبة الى من نسبه الى البرىء

منه أيضا كذلك بل لا يجوز ذلك قطعا كيف لا وهو كذب محرم فى جميع الأديان فهو فى نفسه بهتان وإثم لامحالة ويكون تلك الجناية للرامى يتضاعف ذلك شدة ويزداد قبحا لكن لا لانضمام جنايته المكسوبة الى رمى البرىء والا لكان الرمى بغير جناية مثله فى العظم ولا لمجرد اشتماله على تبرئة نفسه الخاطئة والا لكان الرمى بغير جناية مع تبرئة نفسه كذلك فى العظم بل لاشتماله على قصد تحميل جنايته على البرىء واجراء عقوبتها عليه كما ينبىء عنه ايثار الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الايذان بانعكاس تقديره مع مافيه من الاشعار بثقل الوزر وصعوبة الامر نعم بما ذكر من انضمام كسبه وتبرئة نفسه الى رمى البرىء تزداد الجناية قبحا لكن تلك الزيادة وصف للمجموع لا للاثم (ولولا فضل الله عليك ورحمته) باعلامك ماهم عليه بالوحى وتنبيهك على الحق وقيل بالنبوة والعصمة (لهمت طائفة منهم) أى من بنى ظفر وهم الذابون عن طعمة وقد جوز أن يكون المراد بالطائفة كلهم ويكون الضمير راجعا الى الناس وقيل هم وفد بنى ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا جئناك لنبايعك على ان لا تكسر أصنامنا ولا تعشرنا فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن يضلوك) أى بأن يضلوك عن القضاء بالحق مع علمهم بكنه الامر والجملة جواب لولا وانما نفى همهم مع ان المنفى انما هو تأثيره فقط ايذانا بانتفاء تأثيره بالكلية وقيل المراد هو الهم المؤثر ولا ريب فى انتفائه حقيقة وقيل الجواب محذوف أي لأضلوك وقوله تعالى لهمت جملة مستأنفة أى لقد همت طائفة الخ (وما يضلون الا أنفسهم) لاقتصار وبال مكرهم عليهم من غير أن يصيبك منه شيء والجملة اعتراض وقوله تعالى (وما يضرونك من شيء) عطف عليه ومحل الجار والمجرور النصب على المصدرية أى وما يضرونك شيئا من الضرر لما أنه تعالى عاصمك واما ماخطر ببالك فكان عملا منك بظاهر الحال ثقة باقوال القائلين من غير أن يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) أى القرآن الجامع بين العنوانين وقيل المراد بالحكمة السنة (وعلمك) بالوحى من خفيات الامور التى من جملتها وجوه أبطال كيد المنافقين أو من أمور الدين وأحكام الشرع (مالم تكن تعلم) ذلك الى وقت التعليم (وكان فضل الله عليك عظيما) اذ لا فضل أعظم من النبوة العامة والرياسة التامة (لا خير فى كثير من نجواهم) أى فى كثير من تناجى الناس (الا من أمر) أى الا فى نجوى من أمر (بصدقة أو معروف) وقيل المراد بالنجوى المتناجون بطريق المجاز وقيل النجوى جمع نجى نقله الكرمانى وأياما كان فالاستثناء متصل ويجوز الانقطاع أيضا

على معنى لكن من أمر بصدقة الخ ففى نجواه الخير . و المعروف كل ما يستحسنه الشرع و لا ينكره العقل فينتظم أصناف الجميل و فنون أعمال البر و قد فسر ههنا بالقرض و اغاثة الملهوف و صدقة التطوع على أن المراد بالصدقة الصدقة الواجبة (أو اصلاح بين الناس) عند وقوع المشاقة و المعاداة بينهم من غير أن يجاوز فى ذلك حدود الشرع الشريف و بين اما متعلق بنفس اصلاح يقال أصلحت بين القوم أو بمحذوف هو صفة له أى كائن بين الناس « عن أبى أيوب الانصارى رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم فقال بلى يارسول الله قال تصلح بين الناس اذا تفاسدوا و تقرب بينهم اذا تباعدوا قالوا ولعل السر فى افراد هذه الاقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدى الى الناس اما لايصال المنفعة أو لدفع المضرة . و المنفعة اما جسمانية كاعطاء المال و اليه الاشارة بقوله تعالى «إلا من أمر بصدقة» واما روحانية و اليه الاشارة بالامر بالمعروف و اما دفع الضرر فقد أشير اليه بقوله تعالى «أو اصلاح بين الناس» (و من يفعل ذلك) اشارة الى الامور المذكورة أعني الصدقة والمعروف و الاصلاح فانه يشار به الى متعدد وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بها للايذان ببعد منزلتها و رفعة شأنها . و ترتيب الوعد على فعلها أثر بيان خيرية الامر بها لما أن المقصود الاصلى هو الترغيب فى الفعل و بيان خيرية الامر به للدلالة على خيريته بالطريق الاولى لما أن مدار حسن الامر و قبحه حسن المأمور به و قبحه فحيث ثبت خيرية الامر بالامور المذكورة فخيرية فعلها أثبت و فيه تحريض للآمر بها على فعلها أو اشارة الى الامر بها كأنه قيل ومن يأمر بها و الكلام فى ترتيب الوعد على فعلها كالذى مر فى الخيرية فان استتباع الامر بها للاجر العظيم انما هو لكونه ذريعة الى فعلها فاستتباعه له أولى وأحق (ابتغاء مرضاة الله) علة للفعل و التقييد به لان الاعمال بالنيات و أن من فعل خيرا لغير ذلك لم يستحق به غير الحرمان (فسوف نؤتيه) بنون العظمة على الالتفات و قرىء بالياء (أجرا عظيما) يقصر عنه الوصف (و من يشاقق الرسول) التعرض لعنوان الرسالة لاظهار كمال شناعة ما اجترءوا عليه من المشاقة و المخالفة و تعليل الحكم الآتى بذلك (من بعد ما تبين له الهدى) ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات الدالة على نبوته (و يتبع غير سبيل المؤمنين) أى غير ماهم مستمرون عليه من عقد و عمل و هو الدين القيم (نوله ماتولى) أى نجعله واليا لما تولاه من الضلال و نجعله بأن نخلى بينه و بين ما اختاره (و نصله جهنم) أى ندخله اياها و قرىء بفتح النون من صلاه (و ساءت مصيرا) أى جهنم و فيها دلالة

على حجية الاجماع و حرمة مخالفته (ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء) قد مر تفسيره فيما سبق و هو تكرير للتأكيد و التشديد أو لقصة طعمة و قد مر موته كافرا و روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن شيخا من العرب جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى شيخ منهمك فى الذنوب الا أنى لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته و آمنت به و لم أتخذ من دونه وليا و لم أواقع المعاصى جراءة على الله تعالى و ما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا وأنى لنادم تائب مستغفر فما ترى حالى عند الله تعالى فنزلت (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الحق فان الشرك أعظم أنواع الضلالة و أبعدها عن الصواب و الاستقامة كما أنه افتراء و اثم عظيم ولذلك جعل الجزاء فى هذه الشرطية فقد ضل الخ وفيما سبق فقد افترى اثما عظيما حسبما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه (ان يدعون من دونه) أى ما يعبدون من دونه عز وجل (الا اناثا) يعنى اللات والعزى ومناة ونحوها عن الحسن انه لم يكن من أحياء العرب حى الا كان لهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بنى فلان قيل لانهم كانوا يقولون فى أصنامهم هن بنات الله وقيل لانهم كانوا يلبسونها أنواع الحلى و يزينونها على هيئات النسوان. وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله وقيل تسميتها اناثا لتأنيث أسمائها أو لانها فى الاصل جماد والجمادات تؤنث من حيث انها ضاهت الأناث لانفعالها و ايرادها بهذا الاسم للتنبيه على فرط حماقة عبدتها و تناهى جهلهم و الاناث جمع أنثى كرباب و ربى. وقرىء على التوحيد و أنثا أيضا على أنه جمع أنيث كقليب وقلب أو جمع اناث كثمار و ثمر وقرىء وثنا واثنا بالتخفيف و التثقيل جمع وثن كقولك: أسد وأسد وأسد على الاصل و قلب الواو ألفا نحو أجوه فى وجوه (وان يدعون) وما يعبدون بعبادتها (الا شيطانا مريدا) اذ هو الذى أمرهم بعبادتها و اغراهم عليها فكانت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو الذى لا يعلق بخير و أصل التركيب للملابسة ومنه صرح ممرد وشجرة مرداء للتى تناثر ورقها (لعنه الله) صفة ثانية لشيطانا (وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) عطف على الجملة المتقدمة أى شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله و هذا القول الشنيع الصادر عنه عند اللعن ولقد برهن على أن عبادة الاصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأن ما يعبدونها ينفعل ولا يفعل فعلا اختياريا و ذلك ينافى الالوهية غاية المنافاة ثم استدل عليه بأن ذلك عبادة للشيطان و هو أفظع الضلال من وجوه ثلاثة الاول أنه منهمك فى الغى لا يكاد يعلق بشىء من الخير والهدى فتكون طاعته ضلالا بعيدا عن الحق والثانى أنه ملعون لضلاله فلا تستتبع مطاوعته سوى اللعن و الضلال و الثالث أنه فى غاية السعى فى اهلاكهم و اضلالهم فموالاة من هذا شأنه

غاية الضلال فضلا عن عبادته والمفروض المقطوع أى نصيبا قدر لى وفرض من قولهم فرض له فى العطاء (ولاضلنهم ولأمنينهم) الامانى الباطلة كطول الحياة وأن لا بعث ولا عقاب ونحو ذلك (ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام) أى فليقطعنها بموجب أمرى ويشقنها من غير تلعثم فى ذلك ولا تأخير وذلك ما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب (ولآمرنهم فليغيرن) ممتثلين به (خلق الله) عن نهجه صورة أو صفة وينتظم فيه ما قيل من فقء عين الحامى وخصاء العبيد والوشم والوشر ونحو ذلك وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقا لكن الفقهاء رخصوا فى البهائم لمكان الحاجة وهذه الجمل المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالا أو حالا وما فيها من اللامات كلها للقسم والمأمور به فى الموضعين محذوف ثقة بدلالة النظم عليه (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله) بايثار ما يدعو اليه على ما أمر الله تعالى به ومجاوزته عن طاعة الله تعالى الى طاعته (فقد خسر خسرانا مبينا) لانه ضيع رأس ماله بالكلية واستبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار (يعدهم) أى ما لا يكاد ينجزه (ويمنيهم)أى الامانى الفارغة أو يفعل لهم الوعد والتمنية على طريقة فلان يعطى ويمنع والضميران لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى يتخذ وخسر باعتبار لفظها (وما يعدهم الشيطان الا غرورا)وهو اظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد اما بالقاء الخواطر الفاسدة أو بألسنة أوليائه وغرورا اما مفعول ثان للوعد أو مفعول لاجله أو نعت لمصدر محذوف أى وعدا ذا غرور أو مصدر على غير لفظ المصدر لان يعدهم فى قوة يغرهم بوعده والجملة اعتراض وعدم التعرض للتمنية لانها باب من الوعد (أولئك) اشارة الى أولياء الشيطان وما فيه من من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الخسران وهو مبتدأ وقوله تعالى (مأواهم) مبتدأ ثان وقوله تعالى (جهنم) خبر للثانى والجملة خبر للاول (ولا يجدون عنها محيصا) أى معدلا ومهربا من حاص الحمار اذا عدل وقيل من خلص ونجا وقيل الحيص هو الروغان بنفور وعنها متعلق بمحذوف وقع حالا من محيصا أى كائنا عنها ولا مساغ لتعلقه بمحيصا أما إذا كان اسم مكان فظاهر وأما اذا كان مصدرا فلانه لا يعمل فيما قبله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات)مبتدأ خبره قوله تعالى(سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا)قرن وعيد الكفرة بوعد المؤمنين زيادة لمسرة هؤلاء ومساءة أولئك(وعد الله حقا) أى وعده وعدا وحق ذلك حقا فالاول مؤكد لنفسه لان مضمون الجملة الاسمية وعد والثانى مؤكد لغيره ويجوز أن ينتصب الموصول بمضمر يفسره مابعده وينتصب وعدا لله بقوله تعالى سندخلهم لانه فى معنى نعدهم ادخال جنات الخ وحقا على أنه حال من المصدر (ومن

أصدق من الله قيلا) جملة مؤكدة بليغة والمقصود من الآية معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه والمبالغة في تأكيده ترغيباً للعباد في تحصيله والقيل مصدر كالقول والقال وقال ابن السكيت القيل والقال اسمان لا مصدران ونصبه على التمييز وقرئ بإشمام الصاد وكذا كل صاد ساكنة بعدها دال (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب) أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالايمان والعمل الصالح ولعل نظم أماني أهل الكتاب في سلك أماني المسلمين مع ظهور حالها للايذان بعدم اجداء أماني المسلمين أصلا كما في قوله تعالى «ولا الذين يموتون وهم كفار» كما سلف وعن الحسن ليس الايمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ان قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل وقيل إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله تعالى منكم فقال المسلمون نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب المتقدمة فنزلت وقيل الخطاب للمشركين ويؤيده تقدم ذكرهم أي ليس الامر بأماني المشركين وهو قولهم لا جنة ولا نار وقولهم ان كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالا وقولهم لأوتين مالا وولدا ولا أماني أهل الكتاب وهو قولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصاري وقولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة ثم قرر ذلك بقوله تعالى (من يعمل سوءاً يجز به) عاجلا أو آجلا لما روى أنه لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه فمن ينجو مع هذا يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أما تحزن أو تمرض أو يصيبك البلاء قال بلى يارسول الله قال هو ذاك» (ولا يجد له من دون الله) أي مجاوزا لموالاة الله ونصرته (وليآ) يواليه (ولا نصيرا) ينصره في دفع العذاب عنه (ومن يعمل من الصالحات) أي بعضها أو شيئاً منها فان كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها (من ذكر أو أنثى) في موضع الحال من المستكن في يعمل ومن للبيان أو من الصالحات فمن للابتداء أي كائنة من ذكر الخ (وهو مؤمن) حال شرط اقتران العمل بها في استدعاء الثواب المذكور تنبيها على أنه لا اعتداد به دونه (فأولئك) اشارة إلى من بعنوان اتصافه بالايمان والعمل الصالح والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فيما سبق باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد لما مر غيرة مرة من الأشعار بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته في الشرف (يدخلون

الجنة) وقرئ يدخلون مبنياً للمفعول من الادخال (ولا يظلمون نقيرا) أى لا ينقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم فان النقير علم فى القلة والحقارة واذا لم ينقص ثواب المطيع فلان لا يزاد عقاب العاصى أولى وأحرى كيف لا والمجازى أرحم الراحمين وهو السر فى الاقتصار على ذكره عقيب الثواب (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله) أى أخلص نفسه له تعالى لا يعرف له ربا سواه وقيل بذل وجهه له فى السجود وقيل أخلص عمله له عز وجل وقيل فوض أمره اليه تعالى وهذا انكار واستبعاد لان يكون أحد أحسن ديناً ممن فعل ذلك أو مساوياً له وان لم يكن سبك التركيب متعرضاً لانكار المساواة ونفيها يرشدك اليه العرف المطرد والاستعمال الفاشى فانه اذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وعليه مساق قوله تعالى «ومن أظلم ممن افترى» ونظائره وديناً نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن دينه أحسن من دين من أسلم الخ فالتفضيل فى الحقيقة جار بين الدينين لا بين صاحبيهما ففيه تنبيه على أن ذلك أقصى ما تنتهى اليه القوة البشرية (وهو محسن) أي آت بالحسنات تارك للسيآت أو آت بالاعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله «أن تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» والجملة حال من فاعل أسلم (واتبع ملة ابراهيم) الموافقة لدين الاسلام المتفق على صحتها وقبولها (حنيفاً) مائلا عن الاديان الزائغة وهو حال من فاعل اتبع أو من ابراهيم (واتخذ الله ابراهيم خليلا) اصطفاه وخصه بكرامات تشبه كرامات الخليل عند خليله واظهاره عليه الصلاة والسلام فى موضع الاضمار لتفخيم شأنه والتنصيص على أنه الممدوح وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية والخلة من الخلال فانه ود تخلل النفس وخالطها وقيل من الخلل فان كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر أو من الخل وهو الطريق فى الرمل فانهما يتوافقان فى الطريقة أو من الخلة بمعنى الخصلة فانهما يتوافقان فى الخصال وفائدة الاعتراض جمة من جملتها الترغيب فى اتباع ملته عليه السلام فان من يبلغ من الزلفى عند الله تعالى مبلغاً مصححا لتسميته خليلا حقيق بأن يكون اتباع طريقته أهم ما يمتد اليه أعناق الهمم وأشرف ما يرمق نحوه أحداق الامم قيل أنه عليه الصلاة والسلام بعث الى خليل له بمصر فى أزمة أصابت الناس يمتار منه فقال خليله لو كان ابراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت ولكنه يريدها للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة فرجع غلمانه عليه الصلاة والسلام فاجتازوا ببطحاء لينة فملؤوا منها الغرائر حياء من

الناس وجاءوا بها الى منزل ابراهيم عليه الصلاة و السلام والقوها فيه و تفرقوا وجاء أحدهم فأخبر ابراهيم بالقصة فاغتم لذلك غما شديدا لاسيما لاجتماع الناس ببابه وجاء الطعام فغلبه عيناه وعمدت سارة الى الغرائر فاذا فيها أجود ما يكون من الحوارى فاختبزت وفى رواية فأطعمت الناس وانتبه ابراهيم عليه السلام فاشتم رائحة الخبز فقال من أين لكم قالت سارة من خليلك المصري فقال بل من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله تعالى خليلا (ولله ما فى السموات وما فى الارض) جملة مبتدأة سيقت لتقرير وجوب طاعة الله تعالى على أهل السموات والارض ببيان أن جميع مافيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا لايخرج عن ملكوته شيء منها فيجازي كلا بموجب أعماله خيراً وشرا وقيل لبيان أن اتخاذه عز وجل لابراهيم عليه السلام خليلا ليس لاحتياجه سبحانه الى ذلك فى شأن من شئونه كما هو دأب الآدميين فان مدار خلتهم افتقار بعضهم الى بعض فى مصالحهم بل لمجرد تكرمته وتشريفه عليه السلام وقيل لبيان أن الخلة لاتخرجه عن رتبة العبودية وقيل لبيان أن اصطفاءه عليه السلام للخلة بمحض مشيئته تعالى أي له تعالى مافيهما جميعا يختار منهما مايشاء لمن يشاء وقوله عز وجل (وكان الله بكل شيء محيطا) تذييل مقرر لمضمون ماقبله على الوجوه المذكورة فان احاطته تعالى علما وقدرة بجميع الاشياء التى من جملتها مافيهما من المكلفين وأعمالهم مما يقرر ذلك أكمل تقرير (و يستفتونك فى النساء) أى فى حقهن على الاطلاق كما ينبيء عنه الاحكام الآتية لافى حق ميراثهن خاصة فانه صلى الله عليه وسلم قد سئل عن أحوال كثيرة مما يتعلق بهن فما بين حكمه فيما سلف أحيل بيانه على ماورد فى ذلك من الكتاب ومالم يبين حكمه بعد بين ههنا وذلك قوله تعالى (قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب) باسناد الافتاء الذى هو تبيين المبهم و توضيح المشكل اليه تعالى والي مايتلى من الكتاب فيما سبق باعتبارين على طريقة قولك أغنانى زيد وعطاؤه بعطف ماعلى المبتدأ أو ضميره فى الخبر لمكان الفصل بالمفعول والجار والمجرور . و إيثار صيغة المضارع للايذان باستمرار التلاوة ودوامها وفى الكتاب إما متعلق بيتلى أو بمحذوف وقع حالا من المستكن فيه أى يتلى كائنا فيه و يجوز أن يكون مايتلى عليكم مبتدأ وفى الكتاب خبره على أن المراد به اللوح المحفوظ والجملة معترضة مسوقة لبيان عظم شأن المتلو عليهم و أن العدل فى الحقوق المبينة فيه من عظائم الامور التى تجب مراعاتها والمحافظة عليها فمايتلى حينئذ متناول لما تلى وماسيتلى ويجوز أن يكون مجرورا على القسم المنبيء عن تعظيم المقسم به و تفخيمه كأنه قيل قل الله يفتيكم فيهن وأقسم بمايتلى عليكم فى الكتاب فالمراد بقوله تعالى يفتيكم بيانه السابق

واللاحق ولا مساغ لعطفه على المجرور من فيهن لاختلاله لفظا ومعنى وقوله تعالى (فى يتامى النساء) على الوجه الاول وهو الاظهر متعلق بيتلى أى مايتلى عليكم فى شأنهن وعلى الاخيرين بدل من فيهن وهذه الاضافة بمعنى من لانها اضافة الشيء الى جنسه وقرىء ييامى على قلب همزة أيامى ياء (اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن) أى مافرض لهن من الميراث وغيره (وترغبون) عطف على الصلة عطف جملة مثبتة على جملة منفية وقيل حال من فاعل تؤتونهن بتأويل وأنتم ترغبون ولاريب فى أنه لايظهر لتقييد عدم الايتاء بذلك فائدة الا اذا أريد بما كتب لهن صداقهن (أن تنكحوهن) أى فى أن تنكحوهن لالاجل التمتع بهن بل لأ كل مالهن أو فى أن تنكحوهن بغير اكمال الصداق وذلك ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها من أنها اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن فى اكمال الصداق أو عن أن تنكحوهن وذلك ماروى عنها رضى الله عنها أنها يتيمة يرغب وليها عن نكاحها ولا ينكحها فيعضلها طمعا فى ميراثها وفى رواية عنها رضى الله عنها هو الرجل يكون عنده يتيمة هو وليها ووارثها وشريكها فى المال حتى فى العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فالمراد بما كتب لهن على الوجه الاول والاخير ميراثهن وبما يتلى فى حقهن قوله تعالى « وآتوا اليتامى أموالهم وقوله تعالى ولا تأكلوها » ونحوهما من النصوص الدالة على عدم التعرض لاموالهم وعلى الوجه الثانى صداقهن وبما يتلى فيهن قوله تعالى « وان خفتم أن لاتقسطوا فى اليتامى » الآية (والمستضعفين من الولدان) عطف على يتامى النساء وما يتلى فى حقهم قوله تعالى يوصيكم الله الخ وقد كانوا فى الجاهلية لايورثونهم كما لايورثون النساء وانما يورثون الرجال القوام بالامور روى ان عيينة بن حصن الفزارى جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنا بانك تعطى الابنة النصف والأخت النصف وانما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال عليه الصلاة والسلام كذلك أمرت (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) بالجر عطف على ماقبله وما يتلى فى حقهم قوله تعالى ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ونحو ذلك مما لايكاد يحصر هذا على تقدير كون فى يتامى النساء متعلقا بيتلى وأما على تقدير كونه بدلا من فيهن فالوجه نصبه عطفا على موضع فيهن يفتيكم أن تقوموا ويجوز نصبه باضمار

والاوصياء (وما تفعلوا) فى حقوق

من خير على الاطلاق فيندرج فيه مايتعلق بهم اندراجا أوليا (فان الله كان به عليما) فيجازيكم بحسبه (وان امرأة خافت) شروع فى بيان مالم يبين فيما سلف من الاحكام أى ان توقعت امرأة (من بعلها نشوزا) أي تجافيا عنها وترفعا عن صحبتها كراهة لها ومنعا لحقوقها (أواعراضا) بان يقل محادثتها ومؤانستها لما يقتضى ذلك من الدواعى والاسباب (فلا جناح عليهما) حينئذ (ان يصلحا بينهما صلحا) أى فى أن يصلحا بينهما بان تحط له المهر أو بعضه أو القسم كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبت يومها لعائشة رضى الله عنها أو بان تهب له شيئاً تستميله وقرىء يصالحا من تصالحا ويصلحا من يصطلحا ويصالحا من المفاعلة وصلحا أما منصوب بالفعل المذكور على كل تقدير على أنه مصدر منه بحذف الزوائد وقد يعبر عنه باسم المصدر كأنه قيل اصلاحا أو تصالحا أو اصطلاحا حسبما قرىء الفعل أو بفعل مترتب على المذكور أى فيصلح حالها صلحا وبينهما ظرف للفعل أو حال من صلحا والتعرض لنفى الجناح عنهما مع أنه ليس من جانبها الاخذ الذى هو المظنة للجناح لبيان ان هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطى والآخذ (والصلح خير) أى من الفرقة أو من سوء العشرة أو من الخصومة فاللام للعهد أو هو خير من الخيور فاللام للجنس والجملة اعتراض مقرر لما قبله وكذا قوله تعالى (وأحضرت الانفس الشح) أى جعلت حاضرة له مطبوعة لاتنفك عنه أبدا فلا المرأة تسمح بحقوقها من الرجل ولا الرجل يجود بحسن المعاشرة مع دمامتها فان فيه تحقيقا للصلح وتقريرا له بحث كل منهما عليه لكن لا بالنظر الى حال نفسه فان ذلك يستدعى التمادى فى المماكسة والشقاق بل بالنظر الى حال صاحبه فان شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبلية بغير استمالة مما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها اليه لاستمالته وكذا شح نفسها بحقوقها مما يحمل الرجل على ان يقتنع من قبلها بشيء يسير ولا يكلفها بذل الكثير فيتحقق بذلك الصلح (وإن تحسنوا) فى العشرة (وتتقوا) النشوز والاعراض وان تعاضدت الأسباب الداعية اليهما وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة ولم تضطروهن الى بذل شيء من حقوقهن (فان الله كان بما تعملون) أى من الاحسان والتقوى أو بما تعملون جميعا فيدخل ذلك فيه دخولا أوليا (خبيرا) فيجازيكم ويثيبكم على ذلك البتة لاستحالة أن الأمؤاجر المحسنين وفى خطاب الازواج بطريق الالتفات والتعبير عن رعاية حقوقهن أن يكون مجرورا على الاسم المنبىء عن تعظيمهن والاعراض مما يتوقى منه وترتيب يفتيكم فيهن وأقسم بمايتلى عليكم فى الكتاب فالمراد فى حسن المعاملة مالا يخفى روى

أنها نزلت فى عمرة بنت محمد بن مسلمة وزوجها سعد بن الربيع تزوجها وهى شابة فلما علاها الكبر تزوج شابة وآثرها عليها وجفاها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكت اليه ذلك وقيل نزلت فى أبى السائب كانت له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فاراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقنى ودعنى على أولادى فاقسم لى من كل شهرين ان شئت وإن شئت فلا تقسم لى فقال ان كان يصلح ذلك فهو أحب الى فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت (وان تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) أى محال أن تقدروا على أن تعدلوا بينهن بحيث لا يقع ميل ما الى جانب احداهن فى شأن من الشئون ألبتة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك» وفى رواية وأنت أعلم بما لا أملك يعنى فرط محبته لعائشة رضى الله عنها (ولو حرصتم) أى على اقامة العدل وبالغتم فى ذلك (فلا تميلوا كل الميل) أى فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور واعدلوا ما استطعتم فان عجزكم عن حقيقة العدل انما يصحح عدم تكليفكم بها لا بما دونها من المراتب الداخلة تحت استطاعتكم (فتذروها) أي التى ملتم عنها (كالمعلقة) التي ليست ذات بعل أو مطلقة وقرئ كالمسجونة وفى الحديث «من كانت له امرأتان يميل مع احداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل» (وان تصلحوا) ما كنتم تفسدون من أموزهن (وتتقوا) الميل فيما يستقبل (فان الله كان غفورا) يغفر لكم ما فرط منكم من الميل (رحيما) يتفضل عليكم برحمته (وان يتفرقا) وقرئ يتفارقا أى يفارق كل منهما صاحبه بأن لم يتفق بينهما وفاق بوجه ما من الصلح وغيره (يغن الله كلا) منهما أى يجعله مستغنيا عن الآخر ويكفه مهماته (من سعته) من غناه وقدرته وفيه زجر لهما عن المفارقة رغما لصاحبه (وكان الله واسعا حكيما) مقتدرا متقنا فى أفعاله وأحكامه وقوله تعالى (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) أى من الموجودات كائنا ما كان من الخلائق وارزاقهم وغير ذلك جملة مستأنفة منبهة على كمال سعته وعظم قدرته (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى أمرناهم فى كتابهم وهم اليهود والنصارى ومن قبلهم من الأمم واللام فى الكتاب للجنس ومن متعلقة بوصينا أو بأوتوا (واياكم) عطف على الموصول (أن اتقوا الله) أى وصينا كلا منكم ومنهم بأن اتقوا الله على أن أن مصدرية حذف عنها الجار ويجوز أن تكون مفسرة لأن التوصية فى معنى القول فقوله تعالى (وان تكفروا فان لله ما فى السموات وما فى الأرض) حينئذ من تتمة القول المحكى أى ولقد قلنا لهم ولكم اتقوا الله وان تكفروا الى آخر الآية وعلى

تقدير كون أن مصدرية مبنى الكلام ارادة القول أى أمرناهم وإياكم بالتقوي وقلنا لهم ولكم أن تكفروا الآية وقيل هى جملة مستأنفة خوطب بها هذه الأمة وأياما كان فالمترتب على كفرهم ليس مضمون قوله تعالى فان لله الآية بل هو الأمر بعلمه كأنه قيل وان تكفروا فاعلموا أن لله ما فى السموات وما فى الارض من الخلائق قاطبة مفتقرون اليه فى الوجود وسائر النعم المتفرعة عليه لا يستغنون عن فيضه طرفة عين فحقه أن يطاع ولا يعصى ويتقى عقابه ويرجى ثوابه وقد قرر ذلك بقوله تعالى (وكان الله غنيا) أى عن الخلق وعبادتهم (حميدا) محمودا فى ذاته حمدوه أو لم يحمدوه فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم وانما وصاهم بالتقوى لرحمته لا لحاجته (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) كلام مبتدأ مسوق للمخاطبين توطئة لما بعده من الشرطية غير داخل تحت القول المحكى أى له سبحانه ما فيهما من الخلائق خلقا وملكا يتصرف فيهم كيفما يشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة (وكفى بالله وكيلا) فى تدبير أمور الكل وكل الامور فلا بد من أن يتوكل عليه لا على أحد سواه (ان يشأ يذهبكم) أيها الناس أي يفنكم ويستأصلكم بالمرة (ويأت بآخرين) أى ويوجد دفعة مكانكم قوما آخرين من البشر أو خلقا آخرين مكان الأنس ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أى ان يشأ إفناءكم وايجاد آخرين يذهبكم الخ يعنى أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان انما هو لكمال غناه عن طاعتكم ولعدم تعلق مشيئته المبنية على الحكم البالغة بافنائكم لا لعجزه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا (وكان الله على ذلك) أى على افنائكم بالمرة وايجاد آخرين دفعة مكانكم (قديرا) بليغ القدرة وفيه لا سيما فى توسيط الخطاب بين الجزاء وما عطف عليه من تشديد التهديد ما لا يخفى. وقيل هو خطاب لمن عادي رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب أى ان يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه فمعناه هو معنى قوله تعالى «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على ظهر سلمان وقال انهم قوم هذا يريد أبناء فارس (من كان يريد ثواب الدنيا) كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) أى فعنده تعالى ثوابهما له ان أراده فماله يطلب أخسهما فليطلبهما كمن يقول: ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة أو ليطلب أشرفهما فان من جاهد خالصا لوجه الله تعالى لم تخطئه الغنيمة وله فى الآخرة ما هى فى جنبه كلا شىء أى فعند الله ثواب الدارين فيعطى كلا ما يريده كقوله تعالى «من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه»

الآية (وكان الله سميعا بصيرا) عالما بجميع المسموعات والمبصرات فيندرج فيها ماصدر عنهم من الأقوال والاعمال المتعلقة بمراداتهم اندراجا أوليا (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) مبالغين فى العدل واقامة القسط فى جميع الامور مجتهدين فى ذلك حق الاجتهاد (شهداء الله) بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله تعالى وهو خبر ثان وقيل حال (ولو على أنفسكم) أى ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقروا عليها على ان الشهادة عبارة عن الاخبار بحق الغير سواء كان ذلك عليه أو على ثالث بان تكون شهادة مستتبعة لضرر ينالكم من جهة المشهود عليه (أوالوالدين والاقربين) أى ولو كانت على والديكم وأقاربكم (ان يكن) أى المشهود عليه (غنيا) يبتغى فى العادة رضاه ويتقى سخطه (أو فقيرا) يترحم عليه غالبا وقرىء أن يكن غنى أو فقير على أن كان تامة وجواب الشرط محذوف لدلالة قوله تعالى (فالله أولى بهما) عليه أى فلا تمتنعوا عنها طلبا لرضا الغنى أو ترحما على الفقير فان الله تعالى أولى بجنسى الغني والفقير المدلول عليهما بما ذكر ولولا ان الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها . وقرىء أولى بهم (فلا تتبعوا الهوي أن تعدلوا) أي مخافة أن تعدلوا عن الحق فان اتباع الهوي من مظان الجور الذى حقه أن يخاف ويحذر وقيل كراهة أن تعدلوا بين الناس أو ارادة أن تعدلوا عن الحق (وان تلووا) أى ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل بان تأتوا بها لا على وجهها . وقرىء وان تلوا من الولاية والتصدى أى وإن وليتم أقامة الشهادة (أو تعرضوا) أي عن اقامتها رأسا (فان الله كان بما تعملون) من لي الالسنة والاعراض بالكلية أو من جميع الاعمال التى من جملتها ماذكر (خبيرا) فيجازيكم لامحالة على ذلك فهو على القراءة المشهورة وعيد محض وعلى القراءة الاخيرة متضمن للوعيد (ياأيها الذين آمنوا) خطاب لكافة المسلمين فمعنى قوله تعالى (آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى أنزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) اثبتوا على الايمان بذلك ودوموا عليه وازدادوا فيه طمأنينة ويقينا أو آمنوا بما ذكر مفصلا بناء على أن ايمان بعضهم اجمالى والمراد بالكتاب الثانى الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية لقوله تعالى وكتبه وبالايمان به الايمان بأن كل كتاب من تلك الكتب منزل منه تعالى على رسول معين لارشاد أمته الى ماشرع لهم من الدين بالاوامر والنواهى لكن لاعلى أن مدار الايمان بكل واحد من تلك الكتب خصوصية ذلك الكتاب ولاعلى أن أحكام تلك الكتب وشرائعها باقية بالكلية ولاعلى أن الباقى منها معتبر بالاضافة اليها بل على أن الايمان بالكل مندرج تحت الايمان بالكتاب المنزل على رسوله وأن أحكام كل منها

كانت حقة ثابتة الى ورود ما نسخها وأن ما لم ينسخ منها الى الآن من الشرائع والاحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب الجليل المصون عن النسخ والتبديل كما مر فى تفسير خاتمة سورة البقرة. وقرئ نزل وأنزل على البناء للمفعول وقيل هو خطاب لمؤمنى أهل الكتاب لما أن عبد الله بن سلام وابن أخته سلامة وابن أخيه سلمة وأسدا وأسيد بنى كعب وثعلبة بن قيس ويامين بن يامين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله انا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فقال عليه السلام بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله فقالوا لا نفعل فنزلت فآمنوا كلهم فأمرهم بالايمان بالكتاب المتناول للتوراة مع أنهم مؤمنون بها من قبل ليس لكون المراد بالايمان ما يعم انشاءه والثبات عليه ولا لأن متعلق الأمر حقيقة هو الايمان بما عداها كأنه قيل آمنوا بالكل ولا تخصوه بالبعض بل لأن المأمور به انما هو الايمان بها فى ضمن الايمان بالقرآن على الوجه الذى أشير اليه آنفا لا ايمانهم السابق ولان فيه حملا لهم على التسوية بينها وبين سائر الكتب فى التصديق لاشتراك الكل فيما يوجبه وهو النزول من عندالله تعالى. وقيل خطاب لأهل الكتابين فالمعنى آمنوا بالكل لا ببعض دون بعض وأمر كل طائفة بالايمان بكتابه فى ضمن الأمر بالايمان بجنس الكتاب المذكور وقيل هو للمنافقين فالمعنى آمنوا بقلوبكم لا بألسنتكم فقط (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أى بشيء من ذلك (فقد ضل ضلالا بعيدا) عن المقصد بحيث لا يكاد يعود الى طريقه وزيادة الملائكة واليوم الآخر فى جانب الكفر لما أن بالكفر بأحدهما لا يتحقق الايمان أصلا وجمع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل. وتقديم الرسول فيما سبق لذكر الكتاب بعنوان كونه منزلا عليه وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لانهم وسايط بين الله عز وجل وبين الرسل فى انزال الكتب (ان الذين آمنوا) قال قتادة هم اليهود آمنوا بموسى (ثم كفروا) بعبادتهم العجل (ثم آمنوا) عند عوده اليهم (ثم كفروا) بعيسى والانجيل (ثم ازدادوا كفرا) بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل هم قوم تكرر منهم الارتداد وأصروا على الكفر وازدادوا تماديا فى الغى (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) لما أنه يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الايمان فان قلوبهم قد ضربت بالكفر وتمرنت على الردة وكان الايمان عندهم أهون شيء وأدونه لا أنهم لو أخلصوا الايمان لم يقبل منهم ولو يغفر لهم وخبر كان محذوف أى مريدا ليغفر

لهم وقوله عز وجل (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) يدل على أن المراد بالمذكورين الذين آمنوا فى الظاهر نفاقا وكفروا فى السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا كفرا ونفاقا ووضع بشر موضع أنذر تهكما بهم (الذين يتخذون الكافرين أولياء) فى محل النصب أو الرفع على الذم بمعنى أريد بهم الذين أوهم الذين وقيل نصب على أنه صفة المنافقين وقوله تعالى (من دون المؤمنين) حال من فاعل يتخذون أى يتخذون الكفرة أنصارا متجاوزين ولاية المؤمنين وكانوا يوالونهم ويقول بعضهم لبعض لايتم أمر محمد عليه الصلاة والسلام فتولوا اليهود (أيبتغون عندهم العزة) انكار لرأيهم وابطال له وبيان لخيبة رجائهم وقطع لأطماعهم الفارغة والجملة معترضة مقررة لما قبلها أى أيطلبون بموالاة الكفرة القوة والغلبة قال الواحدى أصل العزة الشدة ومنه قيل للارض الشديدة الصلبة عزاز وقوله تعالى (فان العزة لله جميعا) تعليل لما يفيده الاستفهام الانكاري من بطلان رأيهم وخيبة رجائهم فان انحصار جميع أفراد العزة فى جنابه عز وعلا بحيث لاينالها الا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة قال تعالى «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» يقضى ببطلان التعزز بغيره سبحانه وتعالى واستحالة الانتفاع به وقيل هو جواب شرط محذوف كانه قيل ان يبتغوا عندهم عزة فان العزة لله وجميعا حال من المستكن فى قوله تعالى لله لاعتماده على المبتدأ (وقد نزل عليكم) خطاب للمنافقين بطريق الالتفات مفيد لتشديد التوبيخ الذى يستدعيه تعداد جناياتهم وقرىء مبنيا للمفعول من التنزيل والانزال ونزل أيضا مخففا والجملة حال من ضمير يتخذون أيضا مفيدة لكمال قباحة حالهم ونهاية استعصائهم عليه سبحانه ببيان أنهم فعلوا مافعلوا من موالاة الكفرة مع تحقق مايمنعهم من ذلك وهو ورود النهى الصريح عن مجالستهم المستلزم للنهى عن موالاتهم على أبلغ وجه وآكده أثر بيان انتفاء مايدعوهم اليه بالجملة المعترضة كانه قيل تتخذونهم أولياء والحال انه تعالى قد نزل عليكم قبل هذه بمكة (فى الكتاب) أى القرآن الكريم (أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) وذلك قوله تعالى «واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم» الآية وهذا يقتضى الانزجار عن مجالستهم فى تلك الحالة القبيحة فكيف بموالاتهم والاعتزاز بهم وان هى المخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف والجملة الشرطية خبرها وقوله تعالى يكفر بها حال من آيات الله وقوله تعالى ويستهزأ بها عطف عليه داخل فى حكم الحالية واضافة الآيات الى الاسم الجليل لتشريفها وابانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها أى نزل عليكم

فى الكتاب انه اذا سمعتم آيات الله مكفورا بها و مستهزأ بها وفيه دلالة على أن المنزل على النبي عليه السلام وان خوطب به خاصة منزل على الامة وان مدار الاعراض عنهم هو العلم بخوضهم فى الآيات ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية و أخرى بالسماع وأن المراد بالاعراض اظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الاعراض بالقلب أو بالوجه فقط والضمير فى معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله تعالى يكفر بها ويستهزأ بها (انكم اذن مثلهم) جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهى غير داخلة تحت التنزيل واذن ملغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدأ والخبر أى لاتقعدوا معهم فى ذلك الوقت انكم ان فعلتموه كنتم مثلهم فى الكفر واستتباع العذاب وأفراد المثل لانه كالمصدر أو للاستغناء بالاضافة الى الجمع. وقريء شاذا مثلهم بالفتح لاضافته الى غير متمكن كما فى قوله تعالى «مثل ماأنكم تنطقون» وقيل هو منصوب على الظرفية أي فى مثل حالهم وقوله تعالى (ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) تعليل لكونهم مثلهم فى الكفر ببيان مايستلزمه من شركتهم لهم فى العذاب والمراد بالمنافقين إما المخاطبون وقد وضع موضع ضميرهم المظهر تسجيلا بنفاقهم وتعليلا للحكم بمأخذ الاشتقاق وأما الجنس وهم داخلون تحته دخولا أوليا وتقديم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين ونصب جميعا مثل ماقبله (الذين يتربصون بكم) تلوين للخطاب وتوجيه له الى المؤمنين بتعديد بعض آخر من جنايات المنافقين وقبائحهم وهو أما بدل من الذين يتخذون أو صفة للمنافقين فقط اذ هم المتربصون دون الكافرين أو مرفوع أو منصوب على الذم أى ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من ظفر أو اخفاق. والفاء فى قوله تعالى (فان كان لكم فتح من الله) لترتيب مضمونه على ماقبلها فان حكاية تربصهم مستتبعة لحكاية مايقع بعد ذلك كما ان نفس التربص يستدعى شيئاً ينتظر المتربص وقوعه (قالوا) أى لكم (ألم نكن معكم) أى مظاهرين لكم فأسهموا لنا فى الغنيمة (وان كان للكافرين نصيب) من الحرب فانها سجال (قالوا) أى للكفرة (ألم نستحوذ عليكم) أى ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فابقينا عليكم (ونمنعكم من المؤمنين)بان ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ماضعفت به قلوبهم ومرضوا فى قتالكم وتوانينا فى مظاهرتهم والا لكنتم نهبة للنوائب فهاتوا نصيبا لنا مما أصبتم. وتسمية ظفر المسلمين فتحا وما للكافرين نصيبا لتعظيم شأن المسلمين وتخصيص حظ الكافرين. وقرىء ونمنعكم باضمار أن (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) حكما يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب واما فى الدنيا فقد أجرى على من تفوه بكلمة الاسلام حكمه ولم يضع السيف على من

تكلم بها نفاقا (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) حينئذ كما قد يجعل ذلك فى
فى الدنيا بطريق الابتلاء والاستدراج أو فى الدنيا على أن المراد بالسبيل الحجة (ان
المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) كلام مبتدأ سيق لبيان طرف آخر من قبائح أعمالهم
أى يفعلون مايفعل المخادع من اظهار الايمان وابطال نقيضه والله فاعل بهم مايفعل
الغالب فى الخداع حيث تركهم فى الدنيا معصومى الدماء والاموال وأعد لهم فى الآخرة
الدرك الأسفل من النار وقد مر التحقيق فى صدر سورة البقرة وقيل يعطون على
الصراط نورا كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين
فينادون أنظرونا نقتبس من نوركم (واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى) متثاقلين
كالمكره على الفعل . وقرىء بفتح الكاف وهما جمعا كسلان (يراءون الناس)
ليحسبوهم مؤمنين والمراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعم وناعم أو للمقابلة فان المرائى
يرى غيره عمله وهو يريه استحسانه والجملة أما استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام
كأنه قيل فماذا يريدون بقيامهم اليها كسالى فقيل يراءون الخ أو حال من
ضمير قاموا (ولا يذكرون الله الا قليلا) عطف على يراءون أى لا يذكرونه سبحانه الا
ذكرا قليلا وهو ذكرهم باللسان فانه بالاضافة الى الذكر بالقلب قليل أو الا زمانا قليلا أو
لا يصلون الا قليلا لأنهم لا يصلون الا بمرأى من الناس وذلك قليل وقيل لا يذكرونه
تعالى فى الصلاة إلا قليلا عند التكبير والتسليم (مذبذبين بين ذلك) حال من فاعل
يراءون أو منصوب على الذم وذلك اشارة إلى الايمان والكفر المدلول عليهما بمعونة
المقام أى مرددين بينهما متحيرين قد ذبذبهم الشيطان وحقيقة المذبذب مايذب ويدفع
عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى وقرىء بكسر الذال أى مذبذبين قلوبهم أو رأيهم أو
دينهم أو هو بمعنى متذبذبين كما جاء صلصل بمعنى تصلصل وفى مصحف ابن مسعود
رضى الله عنه متذبذبين وقرىء مدبدبين بالدال غير المعجمة وكان المعنى أخذ بهم تارة
فى دبة أى طريقة وأخرى فى أخرى (لاالى هؤلاء ولاالى هؤلاء) أى لامنسوبين
إلى المؤمنين ولا منسوبين إلى الكافرين أو لا صائرين إلى الأولين ولا الى الآخرين
فمحله النصب على أنه حال من ضمير مذبذبين أو على أنه بدل منه أو بيان وتفسير له
(ومن يضلل الله) لعدم استعداده للهداية والتوفيق (فلن تجد له سبيلا) موصلا
إلى الحق والصواب فضلا عن أن تهديه اليه والخطاب لكل من يصلح له كائنا
من كان (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) نهوا عن
موالاة الكفرة صريحا وان كان فى بيان حال المنافقين مزجرة عن ذلك مبالغة فى

الزجر والتحذير (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً) أى أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على انكم منافقون فان موالاتهم أوضح أدلة النفاق أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه وتوجيه الانكار إلى الارادة دون متعلقها بان يقال أتجعلون ألخ للمبالغة فى انكار وتهويل أمره ببيان أنه مما لايصدر عن العاقل ارادته فضلا عن صدوره نفسه كما فى قوله عز وجل «أم تريدون أن تسألوا رسولكم» (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) وهو الطبقة التى فى قعر جهنم وانما كان كذلك لانهم أخبث الكفرة حيث ضموا الى الكفر الاستهزاء بالاسلام وأهله وخداعهم وأما قوله عليه السلام «ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى وزعم انه مسلم من إذا حدث كذب. وإذا وعد أخلف. وإذا ائتمن خان» ونحوه فمن باب التشديد والتهديد والتغليظ مبالغة فى الزجر وتسمية طبقاتها السبع دركات لكونها متداركة متتابعة بعضها تحت بعض. وقرىء بفتح الراء وهو لغة كالسطر والسطر ويعضده أن جمعه أدراك (ولن تجدلهم نصيرا) يخلصهم منه والخطاب كما سبق (الاالذين تابوا) أى عن النفاق وهو استثناء من المنافقين بل من ضميرهم فى الخبر (وأصلحوا) ماأفسدوا من أحوالهم فى حال النفاق (واعتصموا بالله) أى وثقوا به وتمسكوا بدينه (وأخلصوا دينهم) أى جعلوه خالصاً (لله) لايبتغون بطاعتهم الاوجهه (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد المنزلة وعلو الطبقة (مع المؤمنين) أى المؤمنين المعهودين الذين لم يصدرعنهم نفاق أصلا منذ آمنوا والافهم أيضاً مؤمنون أي معهم فى الدرجات العالية من الجنة وقد بين ذلك بقوله تعالى (وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما) لايقادر قدره فيساهمونهم فيه (مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم) استئناف مسوق لبيان ان مدار تعذيبهم وجوداً وعدما انما هو كفرهم لاشيء آخر فيكون مقرراً لما قبله من اثابتهم عند توبتهم وما استفهامية مفيدة للنفى على أبلغ وجه وآكده أى أى شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم أيتشفى به من الغيظ أم يدرك بهالثار أم يستجلب بهنفعاً أم يستدفع به ضرارا كما هو شأن الملوك وهو الغنى المتعالى عن أمثال ذلك وانما هوأمر يقتضيه كفركم فاذا زال ذلك بالايمان والشكر انتفى التعذيب لامحالة. وتقديم الشكر على الايمان لما أنه طريق موصل اليه فان الناظر يدرك أولا ماعليه من النعم الانفسية والآفاقية فيشكر شكراً مبهما ثم يترقى إلى معرفة المنعم فيؤمن به وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه (وكان الله شاكراً) الشكر من الله سبحانه هو الرضا باليسير من

طاعة عباده وأضعاف الثواب بمقابلته (عليما) مبالغا فى العلم بجميع المعلومات التى
من جملتها شكركم وايمانكم فيستحيل أن لا يوفيكم أجوركم (لا يحب الله الجهر
بالسوء من القول) عدم محبته تعالى لشيء كناية عن سخطه والباء متعلقة بالجهر ومن
بمحذوف وقع حالا من السوء أى لا يحب الله تعالى أن يجهر أحد بالسوء كائنا من
القول (إلا من ظلم) أى الاجهر من ظلم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ويذكره
بما فيه من السوء فان ذلك غير مسخوط عنده سبحانه وقيل هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد
على الشاتم ولمن انتصر بعد ظلمه الآية وقيل ضاف رجل قوما فلم يطعموه فاشتكاهم
فعوتب على الشكاية فنزلت.وقرئ الا من ظلم على البناء للفاعل فالاستثناء منقطع
أى ولكن الظالم يرتكب مالايحبه الله تعالى فيجهر بالسوء (وكان الله سميعا) لجميع
المسموعات فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم (عليما) بجميع المعلومات التى من
جملتها حال المظلوم والظالم فالجملة تذييل مقرر لما يفيده الاستثناء (ان تبدوا خيراً)
أى خير كان من الأقوال والأفعال (أو تخفوه أو تعفوا عن سوء) مع ماسوغ لكم
من مؤاخذة المسيء والتنصيص عليه مع اندراجه فى ابداء الخير واخفائه لما أنه الحقيق
بالبيان وانما ذكر ابداء الخير واخفاؤه بطريق التسبيب له كما ينبئ عنه قوله عز وجل
(فان الله كان عفواً قديرا) فان ايراده فى معرض جواب الشرط يدل على أن العمدة
هو العفو مع القدرة أى كان مبالغا فى العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة وقال الحسن
يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى
وقال الكلبي هو أقدر على عفو ذنوبكم منكم على عفو ذنوب من ظلمكم وقيل
عفواً عمن عفا قديراً على ايصال الثواب اليه (ان الذين يكفرون بالله ورسله) أي
يؤدى اليه مذهبهم ويقتضيه رأيهم لأنهم يصرحون بذلك كما ينبئ عنه قوله تعالى
(ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله) أى بأن يؤمنوا به تعالي ويكفروا بهم لكن
بان لا يصرحوا بالايمان به تعالى وبالكفر بهم قاطبة بل بطريق الاستلزام كما يحكيه
قوله تعالى (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) أى نؤمن ببعض الأنبياء
ونكفر ببعضهم كما قالت اليهود نؤمن بموسى والتوراة وعزير ونكفر بما وراء ذلك
وماذاك إلا كفر بالله تعالى ورسله وتفريق بين الله تعالى ورسله فى الايمان لانه تعالى
قد أمرهم بالايمان بجميع الانبياء عليهم السلام ومامن نبى من الانبياء إلا وقد أخبر
قومه بحقية دين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين فمن كفر بواحد منهم فقد
كفر بالكل وبالله تعالى أيضا من حيث لا يحتسب (ويريدون) بقولهم ذلك (أن

يتخذوا بين ذلك) أي بين الايمان والكفر (سبيلا) يسلكونه مع أنه لا واسطة بينهما قطعا اذا لحق لايختلف وماذا بعد الحق إلا الضلال (أولئك) الموصوفون بالصفات القبيحة (هم الكافرون) الكاملون فى الكفر لاعبرة بما يدعونه ويسمونه إيمانا أصلا (حقا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى حق ذلك أى كونهم كاملين فى الكفر حقا أو صفة لمصدر الكافرين أى هم الذين كفروا كفرا حقا أى ثابتا يقينا لاريب فيه (وأعتدنا للكافرين) أى لهم وانما وضع المظهر مكان المضمر ذمالهم وتذكيرا لوصفهم أو لجميع الكافرين وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا (عذابا مهينا) سيذوقونه عند حلوله (والذين آمنوا بالله ورسله) أي على الوجه الذى بين فى تفسير قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسله الآية (ولم يفرقوا بين أحد منهم) بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخرين كما فعله الكفرة ودخول بين على أحد قدمر تحقيقه فى سورة البقرة بما لامزيد عليه (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة (سوف يؤتيهم أجورهم) الموعودة لهم وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لامحالة وأن تراخى وقرىء نؤتيهم بنون العظمة (وكان الله غفوراً) لما فرط منهم (رحيما) مبالغا فى الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) نزلت فى أحبار اليهود حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كتابا محررا بخط سماوى على اللوح كما نزلت التوراة أو كتابا نعاينه حين ينزل أو كتابا الينا بأعياننا بأنك رسول الله وما كان مقصدهم بهذه العظيمة إلا التحكم والتعنت قال الحسن ولو سألوه لكى يتبينوا الحق لأعطاهم وفيما آتاهم كفاية (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) جواب شرط مقدر أى أن استكبرت ماسألوه منك فقد سألوا موسى شيئا أكبر منه وقيل تعليل للجواب أى فلا تبال بسؤالهم فقد سألوا موسى أكبر منه وهذه المسئلة وأن صدرت عن أسلافهم لكنه لما كانوا مقتدين بهم فى كل ما يأتون وما يذرون اسندت اليهم والمعنى أن لهم فى ذلك عرقا راسخا وأن ما اقترحوا عليك ليس أول جهالاتهم (فقالوا أرنا الله جهرة) أى أرناه نره جهرة أى عيانا أو مجاهرين معاينين له والفاء تفسيرية (فأخذتهم الصاعقة) أى النار التي جاءت من السماء فاهلكتهم وقرىء الصعقة (بظلمهم) أى بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل فى تلك الحالة التى كانوا عليها وذلك لايقتضى امتناع الرؤية مطلقا (ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات) أى المعجزات التى أظهرها لفرعون من العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها لا التوراة

لانها لم تنزل عليهم بعد (فعفونا عن ذلك) ولم نستأصلهم وكانوا أحقاء به قيل هذا استدعاء لهم الى التوبة كانه قيل ان أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم فتوبوا أنتم أيضا حتى نعفوا عنكم (وآتينا موسى سلطانا مبينا)سلطانا ظاهرا عليهم حيث أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن معصيتهم (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) أي بسبب ميثاقهم ليعطوه على ماروى أنهم امتنعوا عن قبول شريعة التوراة فرفع الله تعالى عليهم الطور فقبلوها أو ليخافوا فلا ينقضوه على ماروى أنهم هموا بنقضه فرفع الله تعالى عليهم الجبل فخافوا و أقلعوا عن النقض وهو الانسب بماسيأتى من قوله عزوجل وأخذنا منهم ميثاقا غليظا (وقلنا لهم) على لسان موسى عليه السلام والطور مظل عليهم (ادخلوا الباب) قال قتادة كنا نحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس وقيل هو ايليا وقيل هو أريحا وقيل هو اسم قرية وقيل باب القبة التى كانوا يصلون اليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام (سجدا) أى متطامنين خاضعين (وقلنا لهم لاتعدوا) أى لاتظلموا باصطياد الحيتان (فى السبت) وقرىء لاتعتدوا ولاتعدوا بفتح العين وتشديد الدال على أن أصله تعتدوا فادغمت التاء فى الدال لتقاربهما فى المخرج بعد نقل حركتها الى العين (وأخذنا منهم) على الامتثال بما كلفوه (ميثاقا غليظا) مؤكدا وهو العهد الذى أخذه الله عليهم فى التوراة قيل انهم أعطوا الميثاق على أنهم ان هموا بالرجوع عن الدين فالله تعالى يعذبهم بأى انواع العذاب اراد (فبما نقضهم ميثاقهم) مامزيدة للتأكيد اونكرة تامة ونقضهم بدل منها والباء متعلقة بفعل محذوف اى فبسبب نقضهم ميثاقهم ذلك فعلنا بهم مافعلنا من اللعن والمسخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم اوعلى اعقابهم روى انهم اعتدوا فى السبت فى عهد داود عليه السلام فلعنوا ومسخوا قردة وقيل متعلقة بحرمنا على ان قوله تعالى فبظلم بدل من قوله تعالى فبما وما عطف عليه فيكون التحريم معللا بالكل ولايخفى ان قولهم إنا قتلنا المسيح وقولهم على مريم البهتان متأخر عن التحريم ولامساغ لتعلقها بما دل عليه قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم لانه رد لقولهم قلوبنا غلف فيكون من صلة قوله تعالى وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل فى جاره (وكفرهم بآيات الله) أى بالقرآن أو بما فى كتابهم (وقتلهم الانبياء بغير حق) كزكريا ويحيى عليهما السلام (وقولهم قلوبنا غلف) جمع اغلف أى هى مغشاة باغشية جبلية لايكاد يصل اليها ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم او هو تخفيف غلف جمع غلاف اى هى اوعية للعلوم فنحن مستغنون بماعندنا من غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبى يعنون ان قلوبنا بحيث لا يصل

اليها حديث الا وعته ولو كان في حديثك خير لوعته ايضا (بل طبع الله عليها بكفرهم) كلام معترض بين المعطوفين جيء به على وجه الاستطراد مسارعة الى رد زعمهم الفاسد اى ليس كفرهم وعدم وصول الحق الى قلوبهم لكونها غلفا بحسب الجبلة بل الامر بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم أو ليست قلوبهم كما زعموا بل هي مطبوع عليها بسبب كفرهم (فلا يؤمنون الا قليلا) منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه أو الا ايمانا قليلا لا يعبأ به (وبكفرهم) أى بعيسى عليه السلام وهو عطف على قولهم واعادة الجار لطول ما بينهما بالاستطراد وقد يجوز عطفه على بكفرهم فيكون هو وما عطف عليه من أسباب الطبع وقيل هذا المجموع معطوف على مجموع ماقبله وتكرير الكفر للايذان بتكرر كفرهم حيث كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام (وقولهم على مريم بهتانا عظيما) لايقادر قدره حيث نسبوها الى ماهي عنه بالف منزل (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) نظم قولهم هذا في سلك سائر جناياتهم التي نعيت عليهم ليس لمجرد كونه كذبا بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبي عليه السلام والاستهزاء به فان وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة انما هو بطريق التهكم به عليه السلام كما في قوله تعالى «يا أيها الذى نزل عليه الذكر» الخ ولانبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح على ماقيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى مكان ذكرهم القبيح وقيل هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى مدحا له ورفعا لمحله عليه السلام واظهار الغاية جراءتهم في تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم في افتخارهم بذلك (وما قتلوه وما صلبوه) حال أو اعتراض (ولكن شبه لهم) روى أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير فأجمعت اليهود على قتله فاخبره الله تعالى بأنه يرفعه الى السماء فقال لاصحابه أيكم يرضى بأن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فألقى الله تعالى عليه شبهه فقتل وصلب. وقيل كان رجل ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى عليه السلام فرفع عيسى عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام وقيل ان ططيانوس اليهودى دخل بيتا كان هو فيه فلم يجده وألقى الله تعالى عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى عليه السلام فأخذ وقتل وأمثال هذه الخوارق لاتستبعد في عصر النبوة. وقيل ان اليهود لما هموا بقتله عليه السلام فرفعه الله تعالى الى السماء خاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة بين عوامهم فأخذوا انسانا وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس وأظهروا لهم

أنه هو هو المسيح وما كانوا يعرفونه الا بالاسم لعدم مخالطته عليه السلام لهم الا قليلا وشبه مسند الى الجار والمجرور كانه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام والمقتول أو فى الامر على قول من قال لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس أو الى ضمير المقتول لدلالة انا قتلنا على أن ثم مقتولا (وان الذين اختلفوا فيه) أي فى شأن عيسى عليه السلام فانه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود انه كان كاذبا فقتلناه حتما وتردد آخرون فقال بعضهم ان كان هذا عيسي فأين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا وقال من سمع منه عليه السلام ان الله يرفعنى الي السماء انه رفع الى السماء و قال قوم صلب الناسوت وصعد اللاهوت (لفى شك منه) لفي تردد والشك كما يطلق على مالم يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى مايقابل العلم ولذلك أكد بقوله تعالى (مالهم به من علم الا اتباع الظن) استثناء منقطع أى لكنهم يتبعون الظن و يجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن اليه النفس جزما كان أو غيره فالاستثناء حينئذ متصل (وما قتلوه يقينا) أى قتلا يقينا كما زعموا بقولهم انا قتلنا المسيح وقيل معناه وما علموه يقينا كما فى قول من قال:

كذاك تخبر عنها العالمات بها ✻ وقد قتلت بعلمى ذلكم يقنا

من قولهم قتلت الشيء علما ونحرته علما اذا تبالغ علمك فيه وفيه تهكم بهم لاشعاره بعلمهم فى الجملة وقد نفي ذلك عنهم بالكلية (بل رفعه الله اليه) رد وانكار لقتله واثبات لرفعه (وكان الله عزيزا) لايغالب فيما يريده (حكيما) فى جميع أفعاله فيدخل فيها تدبيراته تعالى فى أمر عيسى عليه السلام دخولا أوليا (وان من أهل الكتاب) أى من اليهود والنصارى وقوله تعالى (الا ليؤمنن به قبل موته) جملة قسمية وقعت صفة لموصوف محذوف اليه يرجع الضمير الثانى والاول لعيسى عليه السلام أى وما من أهل الكتاب أحد الا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهق روحه بأنه عبدالله ورسوله ولات حين ايمان لانقطاع وقت التكليف ويعضده أنه قرىء ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون لما ان احدا فى معنى الجمع وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه فسره كذلك فقال له عكرمة فان اتاه رجل فضرب عنقه قال لاتخرج نفسه حتى يحرك به شفتيه قال فان خر من فوق بيت او احترق او اكله سبع قال يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به وعن شهر بن حوشب قال للحجاج آية ماقرأتها الا تخالج فى نفسى شيء منها يعنى هذه الآية وقال إنى أوتى بالاسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا

اسمع منه ذلك فقلت ان اليهودى اذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا
ياعدو الله أتاك عيسى عليه السلام نبيا فكذبت به فيقول آمنت انه عبد نبي وتقول
للنصرانى أتاك عيسى عليه السلام نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله فيؤمن انه عبد الله ورسوله حيث
لا ينفعه ايمانه قال وكان متكئا فاستوى جالسا فنظر الى وقال ممن سمعت هذا قلت حدثنى محمد بن على بن
الحنفية فاخذ ينكث الأرض بقضيبه ثم قال لقد أخذتها من عين صافية والاخبار بحالهم
هذه وعيد لهم وتحريض على المسارعة الى الايمان به قبل ان يضطروا اليه مع انتفاء
جدواه وقيل كلا الضميرين لعيسى والمعني وما من اهل الكتاب الموجودين عند نزول
عيسى عليه السلام احد الا ليؤمنن به قبل موته روى انه عليه السلام أنه ينزل من
السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب الا يؤمن به حتى
تكون الملة واحدة وهى ملة الاسلام ويهلك الله فى زمانه الدجال وتقع الأمنة
حتى ترتع الأسود مع الابل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات
ويلبث فى الارض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه وقيل الضمير
الأول يرجع الى الله تعالى وقيل الى محمد صلى الله عليه وسلم (ويوم القيامة يكون)
أى عيسى عليه السلام (عليهم) على أهل الكتاب (شهيدا) فيشهد على اليهود بالتكذيب
وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (فبظلم من الذين
هادوا) لعل ذكرهم بهذا العنوان للايذان بكمال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعدما هادوا
أى تابوا من عبادة العجل مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخع النفوس أثر بيان
عظمه فى حد ذاته بالتنوين التفخيمى أى بسبب ظلم عظيم خارج عن حدود الاشباه
والاشكال صادر عنهم (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) ولمن قبلهم لا بشيء غيره
كما زعموا فانهم كانوا كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها يحرم عليهم
نوع من الطيبات التي كانت محللة لهم ولمن تقدمهم من أسلافهم عقوبة لهم وكانوا مع
ذلك يفترون على الله سبحانه ويقولون لسنا بأول من حرمت عليه وانما كانت محرمة
على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا فكذبهم الله عز وجل فى مواقع
كثيرة وبكتهم بقوله تعالى «كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل
على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فائتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين» أى فى
ادعائكم أنه تحريم قديم روي أنه عليه السلام لما كلفهم اخراج التوراة لم يجسر أحد
على اخراجها لما أن كون التحريم بظلمهم كان مسطورا فيها فبهتوا وانقلبوا صاغرين
(وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) أى ناسا كثيرا أو صدا كثيرا (وأخذهم الربوا وقد

نهوا عنه) فان الربا كان محرما عليهم كما هو محرم علينا وفيه دليل على ان النهي يدل على حرمة المنهي عنه (وأكلهم أموال الناس بالباطل) بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة (وأعتدنا للكافرين منهم) أي للمصرين على الكفر لا لمن تاب وآمن من بينهم (عذابا أليما) سيذوقونه في الآخرة كما ذاقوا في الدنيا عقوبة التحريم (لكن الراسخون في العلم منهم) استدراك من قوله تعالى وأعتدنا الخ وبيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلا وآجلا أي لكن الثابتون في العلم منهم المتقنون المستبصرون فيه غير التابعين للظن كأولئك الجهلة والمراد بهم عبد الله بن سلام وأصحابه (والمؤمنون) أي منهم وصفوا بالايمان بعد ما وصفوا بما يوجبه من الرسوخ في العلم بطريق العطف المنبئ عن المغايرة بين المعطوفين تنزيلا للاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي وقوله تعالى (يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) حال من المؤمنون مبينة لكيفية ايمانهم وقيل اعتراض مؤكد لما قبله وقوله عز وجل (والمقيمين الصلاة) قيل نصب باضمار فعل تقديره وأعني المقيمين الصلاة على أن الجملة معترضة بين المبتدا والخبر وقيل هو عطف على ما أنزل اليك على أن المراد بهم الانبياء عليهم السلام أي يؤمنون بالكتب وبالانبياء أو الملائكة قال مكي أي ويؤمنون بالملائكة الذين صفتهم اقامة الصلاة لقوله تعالى «يسبحون الليل والنهار لا يفترون» وقيل عطف على الكاف في اليك أي يؤمنون بما أنزل اليك والى المقيمين الصلاة وهم الانبياء وقيل على الضمير المجرور في منهم أي لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة وقرئ بالرفع على أنه معطوف على المؤمنون بناء على ما مر من تنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي وكذا الحال فيما سيأتي من المعطوفين فان قوله تعالى (والمؤتون الزكاة) عطف على المؤمنون مع اتحاد الكل ذاتا وكذا الكلام في قوله تعالى (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) فان المراد بالكل مؤمنو أهل الكتاب قد وصفوا أولا بكونهم راسخين في علم الكتاب ايذانا بان ذلك موجب للايمان حتما وأن من عداهم انما بقوا مصرين على الكفر لعدم رسوخهم فيه ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الانبياء ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع والاحكام واكتفى من بينها بذكر إقامة الصلاة وايتاء الزكاة المستتبعين لسائر العبادات البدنية والمالية ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد تحقيقا لحيازتهم الايمان بقطريه واحاطتهم به من طرفيه وتعريضا بان من عداهم من أهل الكتاب ليسوا بمؤمنين بواحد منهما حقيقة فانهم بقولهم عزير ابن الله مشركون بالله سبحانه وبقولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة كافرون باليوم الآخر وقوله تعالى

(أولئك) اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بما عدد من الصفات الجميلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (سنؤتيهم أجرا عظيما) خبره والجملة خبر للمبتدا الذى هو الراسخون وما عطف عليه والسين لتأكيد الوعد وتنكير الاجر للتفخيم وهذا أنسب بتجاوب طرفى الاستدراك حيث أوعد الاولون بالعذاب الاليم ووعد الآخرون بالاجر العظيم كأنه قيل اثر قوله تعالى « وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما» لكن المؤمنون منهم سنؤتيهم أجرا عظيما وأما ماجنح اليه الجهور من جعل قوله تعالى يؤمنون بما أنزل اليك الخ خبرا للمبتدا ففى كمال السداد خلا أنه غير متعرض لتقابل الطرفين وقرىء سيؤتيهم بالياء مراعاة لظاهر قوله تعالى والمؤمنون بالله (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) جواب لاهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بأنه ليس بدعا من الرسل وانما شأنه فى حقيقة الارسال وأصل الوحى كشأن سائر مشاهير الانبياء الذين لاريب لاحد فى نبوتهم والكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى ايحاء مثل ايحائنا الى نوح أوعلى أنه حال من ذلك المصدر المقدر معرفا كما هو رأى سيبويه أى أوحينا الايحاء حال كونه مشبها بايحائنا الخ ومن بعده متعلق باوحينا وانما بدىء بذكر نوح لانه أبو البشر وأول نبى شرع الله تعالى على لسانه الشرائع والاحكام وأول نبى عذبت أمته لردهم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الارض (وأوحينا الى ابراهيم) عطف على أوحينا الى نوح داخل معه فى حكم التشبيه أى وكما أوحينا الى ابراهيم (واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط) وهم أولاد يعقوب عليهم السلام (وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان) خصوا بالذكر مع ظهور انتظامهم فى سلك النبيين تشريفا لهم واظهارا لفضلهم كما فى قوله تعالى « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال وتصريحا بمن ينتمى اليهم اليهود من الانبياء وتكرير الفعل لمزيد تقرير الايحاء والتنبيه على أنهم طائفة خاصة مستقلة بنوع مخصوص من الوحي (وآتينا داود زبورا) قال القرطبى كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الاحكام وانما هى حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله تعالى وقرىء بضم الزاء وهو جمع زبر بمعنى مزبور والجملة عطف على أوحينا داخل فى حكمه لان ايتاء الزبور من باب الايحاء أى وكما آتينا داود زبورا وايثاره على وأوحينا الى داود لتحقيق المماثلة فى أمر خاص هو ايتاء الكتاب بعد تحقيقها فى مطلق الايحاء ثم أشير الى تحقيقها فى أمر لازم لهما لزوما

كليا وهو الارسال فان قوله تعالى (ورسلا) نصب بمضمر يدل عليه أوحينا معطوف عليه داخل معه فى حكم التشبيه كما قبله أى وكما أرسلنا رسلا لا بما يفسره قوله تعالى (قد قصصناهم عليك) أى وقصصنا رسلا كما قالوا وفرعوا عليه أن قوله تعالى قد قصصناهم على الوجه الاول منصوب على أنه صفة لرسلا وعلى الوجه الثانى لامحل له من الاعراب فانه مالاسبيل اليه كما ستقف عليه. وقرىء برفع رسل وقوله تعالى (من قبل) متعلق بقصصنا أى قصصنا من قبل هذه السورة أو اليوم (ورسلا لم نقصصهم عليك) عطف على رسلا منصوب بناصبه وقيل كلاهما منصوب بنزع الخافض والتقدير كما أوحينا الى نوح والى رسل الخ والحق أن يكون انتصابهما بارسلنا فان فيه تحقيقا للماثلة بين شأنه عليه الصلاة والسلام وبين شئون من يعترفون بنبوته من الانبياء عليهم السلام فى مطلق الايحاء ثم فى ايتاء الكتاب ثم فى الارسال فان قوله تعالى انا أوحينا اليك منتظم لمعنى آتيناك وأرسلناك حتما كانه قيل انا أوحينا اليك ايحاء مثل ماأوحينا الى نوح ومثل ماأوحينا الى ابراهيم ومن بعده وآتيناك الفرقان ايتاء مثل ما آتينا داود زبورا وأرسلناك ارسالا مثل ما أرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا آخرين لم نقصصهم عليك من غير تفاوت بينك وبينهم فى حقيقة الايحاء وأصل الارسال فما للكفرة يسألونك شيأ لم يعطه أحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام ومن ههنا اتضح أن رسلا لايمكن نصبه بقصصنا فان ناصبه يجب أن يكون معطوفا على أوحينا داخلا معه فى حكم التشبيه الذى عليه يدور فلك الاحتجاج على الكفرة ولاريب فى أن قصصنا لاتعلق له بشىء من الايحاء والايتاء حتى يمكن اعتباره فى ضمن قوله تعالى انا أوحينا اليك ثم يعتبر بينه وبين المذكور مماثلة مصححة للتشبيه على أن تقديره فى رسلا الاول يقتضى تقدير نفيه فى الثانى وذلك أشد استحالة وأظهر بطلانا (وكلم الله موسى) برفع الجلالة ونصب موسى. وقرىء على القلب وقوله تعالى (تكليما) مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز قال الفراء العرب تسمى ماوصل الى الانسان كلاما بأى طريق وصل مالم يؤكد بالمصدر فاذا أكد به لم يكن الا حقيقة الكلام والجملة أما معطوفة على قوله تعالى انا أوحينا اليك عطف القصة على القصة لا على آتينا وما عطف عليه واما حال بتقدير قد كما ينبىء عنه تغيير الاسلوب بالالتفات والمعنى أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحى خص به موسى من بينهم فلم يكن ذلك قادحا فى نبوة سائر الانبياء عليهم السلام فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه عليه السلام جملة قادحا فى صحة نبوة من أنزل عليه الكتاب

مفصلا مع ظهور أن نزولها كذلك لحكم مقتضية لذلك من جملتها أن بنى اسرائيل كانوا فى العناد وشدة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها ومع ذلك ما آمنوا بها الا بعد اللتيا والتى . وقد فضل الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بان أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا (رسلا مبشرين ومنذرين) نصب على المدح أو باضمار أرسلنا أو على الحال بأن يكون رسلا موطئا لما بعده أو على البدلية من رسلا الاول أى مبشرين لاهل الطاعة بالجنة ومنذرين للعصاة بالنار (لئلا يكون للناس على الله حجة) أى معذرة يعتذرون بها قائلين لولا أرسلت الينا رسولا فيبين لنا شرائعك ويعلمنا مالم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوة البشرية عن ادراك جزئيات المصالح وعجز أكثر الناس عن ادراك كلياتها كما فى قوله عز وجل « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك » الآية وانما سميت حجة مع استحالة أن يكون لاحد عليه سبحانه حجة فى فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء للتنبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة التى لا مرد لها ولذلك قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما أحد أغير من الله تعالى ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أحد أحب اليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه وما احد أحب اليه العذر من الله تعالى ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب » فاللام متعلقة بارسلنا وقيل بقوله تعالى مبشرين ومنذرين وحجة اسم كان وللناس خبرها وعلى الله متعلق بمحذوف وقع حالا من حجة أى كائنة على الله أو هو الخبر وللناس حال على الوجه المذكور ويجوز أن يتعلق كل منهما بما تعلق به الآخر الذى هو الخبر ولا يجوز التعلق بحجة لان معمول المصدر لا يتقدم عليه وقوله تعالى (بعد الرسل) أى بعد ارسالهم وتبليغ الشرائع الى الامم على ألسنتهم متعلق بحجة أو بمحذوف وقع صفة لها لان الظروف يوصف بها الاحداث كما يخبر بها عنها نحو القتال يوم الجمعة وكان الله عزيزا لا يغالب فى أمر من أموره ومن قضيته الامتناع عن الاجابة الى مسألة المتعنتين (حكيما) فى جميع أفعاله التى من جملتها ارسال الرسل وانزال الكتب فان تعدد الرسل والكتب واختلافها فى كيفية النزول وتغايرها فى بعض الشرائع والاحكام انما هو لتفاوت طبقات الامم فى الاحوال التى عليها يدور فلك التكليف فكما أنه سبحانه وتعالى برأهم على أنحاء شتى وأطوار متباينة حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية كذلك تعبدهم بما يليق بشأنهم وتقتضيه أحوالهم المتخالفة واستعداداتهم

المتغايرة من الشرائع والاحكام حسبما تستدعيه الحكمة التشريعية وراعى فى ارسال الرسل وانزال الكتب وغير ذلك من الامور المتعلقة بمعاشهم ومعادهم مافيه مصلحتهم فسؤال تنزيل الكتاب جملة اقتراح فاسد اذ حينئذ تتعاقم التكاليف فيثقل على المكلف قبولها والخروج عن عهدتها وأما التنزيل المنجم الواقع حسب الامور الداعية اليه فهو أيسر قبولا وأسهل امتثالا (لكن الله يشهد) بتخفيف النون ورفع الجلالة . وقرىء بتشديد النون ونصب الجلالة وهو استدراك عما يفهم مما قبله كأنهم لما تعنتوا عليه بما سبق من السؤال واحتج عليهم بقوله تعالى انا أوحينا اليك كما أوحينا الخ قيل انهم لا يشهدون بذلك لكن الله يشهد (بما أنزل اليك) على البناء للفاعل وقرىء على البناء المفعول والباء صلة للشهادة أى يشهد بحقية ما أنزل اليك من القرآن المعجز الناطق بنبوتك وقيل لما نزل قوله تعالى انا أوحينا اليك قالوا ما نشهد لك بهذا فنزل لكن الله يشهد (أنزله بعلمه) أى ملتبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره وهو تأليفه على نمط بديع يعجز عنه كل بليغ أو يعلمه بحال من أنزله عليه واستعداده لاقتباس الانوار القدسية أو بعلمه الذى يحتاج اليه الناس فى معاشهم ومعادهم فالجار والمجرور على الاولين حال من الفاعل وعلى الثالث من المفعول والجملة فى موقع التفسير لما قبلها وقرىء نزله وقوله تعالى (والملائكة يشهدون) أى بذلك مبتدأ وخبر والجملة عطف على ما قبلها وقيل حال من مفعول أنزله أى أنزله والملائكة يشهدون بصدقه وحقيته (وكفى بالله شهيدا) على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة وحججا ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها (ان الذين كفروا) أى بما أنزل الله تعالى وشهد به أو بكل مايجب الايمان به وهو داخل فيه دخولا أوليا والمراد بهم اليهود حيث كفروا به (وصدوا عن سبيل الله) وهو دين الاسلام من أراد سلوكه بقولهم ما نعرف صفة محمد فى كتابنا وقرىء صدوا مبنيا للمفعول (قد ضلوا) بما فعلوا من الكفر والصد عن طريق الحق (ضلالا بعيدا) لانهم جمعوا بين الضلال والاضلال ولان المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الاقلاع عنه (ان الذين كفروا) أى بما ذكر آنفا (وظلموا) أي محمد صلى الله عليه وسلم بانكار نبوته وكتمان نعوته الجليلة ووضع غيرها مكانها أوالناس بصدهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد (لم يكن الله ليغفر لهم) لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر (ولا ليهديهم طريقا الا طريق جهنم)لعدم استعدادهم للهداية الى الحق والاعمال الصالحة التى هى طريق الجنة والمراد بالهداية المفهومة من الاستثناء بطريق الاشارة خلقه تعالى لاعمالهم السيئة المؤدية بهم الى جهنم عند صرف قدرتهم واختيارهم الى اكتسابها

أو سوقهم اليها يوم القيامة بواسطة الملائكة والطريق على عمومه والاستثناء متصل وقيل خاص بطريق الحق والاستثناء منقطع (خالدين فيها) حال مقدرة من الضمير المنصوب والعامل فيه مادل عليه الاستثناء دلالة واضحة كأنه قيل يدخلهم جهنم خالدين فيها الخ وقوله تعالى (أبدا) نصب على الظرفية رافع لاحتمال حمل الخلود على المكث الطويل (وكان ذلك) أى جعلهم خالدين فى جهنم (على الله يسيرا)لاستحالة أن يتعذر عليه شيء من مراداته تعالى (ياأيها الناس) بعد ما حكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعلل اليهود بالاباطيل واقتراحهم الباطل تعنتا ورد عليهم ذلك بتحقيق نبوته عليه الصلاة والسلام وتقرير رسالته ببيان أن شأنه عليه الصلاة والسلام فى أمر الوحى والارسال كشؤن من يعترفون بنبوته من مشاهير الانبياء عليهم السلام وأكد ذلك بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة أمر المكلفون كافة على طريق تلوين الخطاب بالايمان بذلك أمرا مشفوعا بالوعد بالاجابة والوعيد على الرد تنبيها على أن الحجة قد لزمت ولم يبق بعد ذلك لاحد عذر فى عدم القبول وقوله عز وجل (قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) تكرير للشهادة وتقرير لحقية المشهود به وتمهيد لما يعقبه من الامر بالايمان . وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته والمراد بالحق هو القرآن الكريم والباء متعلقة بجاءكم فهى للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من الرسول أى ملتبسا بالحق ومن أيضا متعلقة اما بالفعل واما بمحذوف هو حال من الحق أى جاءكم به من عنده تعالى أوجاءكم بالحق كائنا من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الي ضمير المخاطبين للايذان بان ذلك لتربيتهم وتبليغهم الى كمالهم اللائق بهم ترغيبا لهم فى الامتثال بما بعده من الامر والفاء فى قوله عز وجل (فآمنوا) للدلالة على ايجاب ما قبلها لما بعدها أى فآمنوا به وبما جاء به من الحق وقوله تعالى (خيرا لكم) منصوب على أنه مفعول الفعل واجب الاضمار كما هو رأى الخليل وسيبويه أي اقصدوا أو ائتوا أمرا خيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر أو على أنه نعت لمصدر محذوف كما هو رأى الفراء أى آمنوا ايمانا خيرا لكم أو على انه خبر كان المضمرة الواقعة جوابا للامر لاجزاء للشرط الصناعى وهو رأى الكسائى وأبى عبيدة أى يكن الايمان خيرا لكم (وان تكفروا) أى ان تصروا وتستمروا على الكفر به (فان لله ما فى السموات والارض) من الموجودات سواء كانت داخلة فى حقيقتهما وبذلك يعلم حال أنفسهما على أبلغ وجه وآكده أو خارجة عنهما مستقرة فيهما من العقلاء وغيرهم فيدخل فى جملتهم المخاطبون دخولا أوليا أى كلها له عز وجل خلقا وملكا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهره

شيء منها فمن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لا محالة أو فمن كان كذلك فهو غنى عنكم وعن غيركم لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بايمانكم وقيل فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لامره (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم فهو عالم باحوال الكل فيدخل فى ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولا أوليا (حكيما) مراعيا للحكمة فى جميع أفعاله التى من جملتها تعذيبه تعالى اياهم بكفرهم (يا أهل الكتاب) تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى زجرا لهم عما هم عليه من الكفر والضلال (لا تغلوا فى دينكم) بالافراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام وادعاء الوهيته وأما غلو اليهود فى حط رتبته عليه السلام ورميهم بانه ولد لغير رشدة فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق (ولا تقولوا على الله الا الحق) أى لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد بل نزهوه عن جميع ذلك (انما المسيح) قد مر تفسيره فى سورة آل عمران وقرئ بكسر الميم وتشديد السين كالسكيت على صيغة المبالغة وهو مبتدأ وقوله تعالى (عيسى) بدل منه أو عطف بيان له وقوله تعالى (ابن مريم) صفة له مفيدة لبطلان ما وصفوه عليه السلام به من بنوته لله تعالى وقوله تعالى (رسول الله) خبر للمبتدا والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى عن القول الباطل المستلزم للامر بضده أعنى الحق أى انه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها (وكلمته) عطف على رسول الله أي مكون بكلمته وأمره الذى هو كن من غير واسطة أب ولا نطفة (ألقاها الى مريم) أى أوصلها اليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام وقيل أعلمها اياها وأخبرها بها بطريق البشارة وذلك قوله تعالى ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم . وقيل الجملة حال من ضميره عليه السلام المستكن فيما دل عليه وكلمته من معنى المشتق الذى هو العامل فيها وقد مقدرة معها (وروح منه) قيل هو نفخ جبريل عليه السلام فى درع مريم فحملت باذن الله تعالى سمى النفخ روحا لانه ريح تخرج من الروح ومن لابتداء الغاية مجازا لا تبعيضية كما زعمت النصارى. يحكى أن طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيد ناظر على بن حسين الواقدي المروزى ذات يوم فقال له ان فى كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية فقرأ الواقدى «وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه» فقال اذن يلزم أن يكون جميع تلك الاشياء جزأ منه تعالى علوا كبيرا فانقطع النصرانى فأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا ووصل الواقدى بصلة فاخرة وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح أى كائنة من جهته تعالى جعلت منه تعالى وان كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بامره سبحانه. وقيل سمى روحا لاحيائه الاموات وقيل

لاحيائه القلوب كما سمى به القرآن لذلك فى قوله تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » وقيل أريد بالروح الوحى الذي أوحى الى مريم بالبشارة وقيل جرت العادة بأنهم اذا أرادوا وصف شئ بغاية الطهارة والنظافة قالوا انه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونا من النفخ لا من النطفة وصف بالروح . وتقديم كونه عليه السلام رسول الله فى الذكر مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحا منه فى الوجود لتحقيق الحق من أول الامر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل وتعيين مآل ما يحتمله وسد باب التأويل الزائغ (فآمنوا بالله) وخصوه بالالوهية (ورسله) أجمعين وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالالوهية (ولا تقولوا ثلاثة) أي الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم كما ينبئ عنه قوله تعالي «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله» أو الله ثلاثة ان صح أنهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الاب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بالاول الذات وقيل الوجود وبالثانى العلم وبالثالث الحياة (انتهوا) أى عن التثليث (خيرا لكم) قد مر وجوه انتصابه (انما الله إله واحد) أي بالذات منزه عن التعدد بوجه من الوجوه فالله مبتدأ وإله خبره وواحد نعت أى منفرد فى الوهيته (سبحانه أن يكون له ولد) أى أسبحه تسبيحا من أن يكون له ولد أو سبحوه تسبيحا من ذلك فانه أنما يتصور فيمن يماثله شيء ويتطرق اليه فناء والله سبحانه منزه عن أمثاله وقرىء أن يكون أى سبحانه ما يكون له ولد وقوله تعالى (له مافى السموات ومافى الارض) جملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه وتقريره أى له مافيهما من الموجودات خلقا وملكا وتصرفا لايخرج عن ملكوته شيء من الاشياء التى من جملتها عيسى عليه السلام فكيف يتوهم كونه ولدا له تعالى (وكفى بالله وكيلا) اليه يكل كل الخلق أمورهم وهو غنى عن العالمين فانى يتصور فى حقه اتخاذ الولد الذى هو شأن العجزة المحتاجين فى تدبير أمورهم الى من يخلفهم ويقوم مقامهم (لن يستنكف المسيح) استئناف مقرر لما سبق من التنزيه والاستنكاف الأنفة والترفع من نكفت الدمع اذا نحيته عن وجهك بالاصبع أى لن يأنف ولن يترفع (أن يكون عبدا لله) أى عن أن يكون عبدا له تعالى مستمرا على عبادته وطاعته حسبما هو وظيفة العبودية كيف وأن ذلك أقصى مراتب الشرف . والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عنه مع أن شأنه عليه السلام المباهاة به كما يدل عليه أحواله ويفصح عنه أقواله أولا يرى أن أول مقالة قالها للناس قوله: انى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا: لوقوعه فى موقع الجواب عما قاله الكفرة

روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا قال«ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأى شيء أقول قالوا تقول انه عبد الله قال انه ليس بعار أن يكون عبد الله قالوا بلى فنزلت»وهو السر فى جعل المستنكف عنه كونه عليه السلام عبدا له تعالى دون أن يقال عن عبادة الله و نحو ذلك مع افادة فائدة جليلة هى كمال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالكلية فان كونه عبدا له تعالى حالة مستمرة مستتبعة لدوام العبادة قطعا فعدم الاستنكاف عنه مستلزم لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى كما أشير اليه بخلاف عبادته تعالى فانها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام يكفى فى اتصاف موصوفها بها تحققها مرة فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عدم الاستنكاف عن دوامها (ولا الملائكة المقربون) عطف على المسيح أى ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدالله تعالى . وقيل أن أريد بالملائكة كل واحد منهم لم يحتج الى التقدير واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الانبياء عليهم السلام وقال مساقة لرد النصارى فى رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضى أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم مستلزما لعدم استنكافه عليه السلام وأجيب بأن مناط كفر النصارى ورفعهم له عليه السلام عن رتبة العبودية لما كان اختصاصه عليه السلام وامتيازه عن سائر أفراد البشر بالولادة من غير أب وبالعلم بالمغيبات وبالرفع الى السماء عطف على عدم استنكافه عن عبوديته تعالى عدم استنكاف من هو اعلى درجة منه فيما ذكر فان الملائكة مخلوقون من غير أب ولا أم وعالمون بما لا يعلمه البشر من المغيبات ومقارهم السموات العلا ولا نزاع لاحد فى علو درجتهم من هذه الحيثية وانما النزاع فى علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات وبأن الآية ليست للرد على النصارى فقط بل على عبدة الملائكة أيضا فلا اتجاه لما قالوا حينئذ وان سلم اختصاصها بالرد على النصارى فلعله أريد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير والتفصيل لا باعتبار التكبير والتفضيل كما فى قوله :
أصبح الامير لا يخالفه رئيس ولا مرءوس ولئن سلم ارادة التفضيل فغاية الامر الدلالة على أفضلية المقربين منهم وهم الكروبيون الذين حول العرش أو من هو أعلى منهم رتبة من الملائكة عليهم السلام على المسيح من الانبياء عليهم السلام وليس يلزم من ذلك فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقا وهل التشاجر الا فيه (ومن يستنكف عن عبادته) أى عن طاعته فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى وانما جعل المستنكف عنه ههنا عبادته تعالى لا ماسبق لتعليق الوعيد بوصف ظاهر الثبوت

للكفرة فان عدم طاعتهم له تعالى مما لاسبيل لهم الى انكار اتصافهم به ان قيل لم عبر عن عدم طاعتهم له تعالى بالاستنكاف عنها مع أن ذلك منهم كان بطريق انكار كون الامر من جهته تعالى لابطريق الاستنكاف قلنا لانهم كانوا يستنكفون عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل هو الا استنكاف عن طاعة الله تعالى اذ لا أمر له عليه الصلاة والسلام سوى أمره تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» (ويستكبر) الاستكبار الأنفة عما لاينبغي أن يؤنف عنه وأصله طلب الكبر لنفسه بغير استحقاق له لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله فيه بل بمعنى عد نفسه كبيرا واعتقاده كذلك وانما عبر عنه بما يدل على الطلب للايذان بان مآله محض الطلب بدون حصول المطلوب وقد عبر عن مثل ذلك بنفس الطلب فى قوله تعالى «يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا» فانهم ما كانوا يطلبون ثبوت العوج لسبيل الله مع اعتقادهم لاستقامتها بل كانوا يعدونها ويعتقدونها معوجة ويحكمون بذلك ولكن عبر عن ذلك بالطلب لما ذكر من الاشعار بأن ليس هناك شيء سوى الطلب والاستكبار دون الاستنكاف المنبيء عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه (فسيحشرهم اليه جميعا) أى المستنكفين ومقابليهم المدلول عليهم بذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام وقد ترك ذكر أحد الفريقين فى المفصل تعويلا على أنباء التفصيل عنه وثقة بظهور اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد الفريقين فى التفصيل عند قوله تعالى «فاما الذين آمنوا بالله الآية مع عموم الخطاب لهما اعتمادا على ظهور اقتضاء اثابة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمول الجزاء للكل وقيل الضمير للمستنكفين وهناك مقدر معطوف عليه والتقدير فسيحشرهم وغيرهم وقيل المعنى فسيحشرهم اليه يوم يحشر العباد لمجازاتهم وفيه ان الانسب بالتفصيل الآتى اعتبار حشر الكل فى الاجمال على نهج واحد . وقرىء فسيحشرهم بكسر الشين وهى لغة وقرىء فسنحشرهم بنون العظمة بطريقة الالتفات (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال الفريق المطوى ذكره فى الاجمال قدم على بيان حال مايقابله ابانة لفضله ومسارعة إلى بيان كون حشره أيضاً معتبرا فى الاجمال. وايراده بعنوان الايمان والعمل الصالح لا بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات (فيوفيهم أجورهم) من غير أن ينقص منها شيئاً أصلا (ويزيدهم من فضله) بتضعيفها اضعافا مضاعفة وبأعطاء مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وأما الذين

استنكفوا) أي عن عبادته عز وجل (واستكبروا فيعذبهم) بسبب استنكافهم واستكبارهم (عذاباً أليماً) لا يحيط به الوصف (ولا يجدون لهم من دون الله ولياً) يلي أمورهم ويدبر مصالحهم (ولا نصيرا) ينصرهم من بأسه تعالى وينجيهم من عذابه (ياأيها الناس) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافة المكلفين اثر بيان بطلان ماعليه الكفرة من فنون الكفر والضلال والزامهم بالبراهين القاطعة التي تخر لها صم الجبال وازاحة شبههم الواهية بالبينات الواضحة وتنبيه لهم على ان الحجة قد تمت فلم يبق بعد ذلك علة لمتعال ولا عذر لمعتذر (قد جاءكم) أي وصل اليكم وتقرر في قلوبكم بحيث لاسبيل لكم إلي الانكار (برهان) البرهان مايبرهن به على المطلوب والمراد به القرآن الدال على صحة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام المثبت لما فيه من الأحكام التي من جملتها ماأشير اليه مما أثبتته الآيات الكريمة من حقية الحق وبطلان الباطل وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام عبر عنه به لما معه من المعجزات التي تشهد بصدقه وقيل هو المعجزات التي أظهرها وقيل هو دين الحق الذي أتى به وقوله تعالى (من ربكم) اما متعلق بجاءكم أو بمحذوف وقع صفة مشرفة لبرهان مؤكدة لماأفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أي كائن منه تعالى على أن من لابتداء الغاية مجازا وقد جوز على الثاني كونها تبعيضية بحذف المضاف أي كائن من براهين ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضمير المخاطبين لاظهار اللطف بهم والايذان بأن مجيئه اليهم لتربيتهم وتكميلهم (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) أريد به أيضا القرآن الكريم عبر عنه تارة بالبرهان لما أشير اليه آنفا وأخرى بالنور النير بنفسه المنور لغيره ايذانا بأنه بين بنفسه مستغن في ثبوت حقيته وكونه من عند الله تعالى باعجازه غير محتاج إلى غيره مبين لغيره من الامور المذكورة واشعارا بهدايته للخلق واخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان وقد سلك به مسلك العطف المبني على تغاير الطرفين تنزيلا للمغايرة العنوانية منزلة المغايرة الذاتية وعبر عن ملابسته للمخاطبين تارة بالمجيء المسند اليه المنبيء عن كمال قوته في البرهانية كأنه يجيء بنفسه فيثبت أحكامه من غير أن يجيء به أحد ويجيء على شبه الكفرة بالأبطال وأخرى بالانزال الموقع عليه الملائم لحيثية كونه نورا توفيراله باعتبار كل واحد من عنوانيه حظه اللائق به واسناد انزاله اليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه هذا على تقدير كون البرهان عبارة عن القرآن العظيم وأما على تقدير كونه عبارة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن المعجزات الظاهرة على يده أو عن

الدين الحق فالامر هين وقوله تعالى اليكم متعلق بأنزلنا فان انزاله بالذات وان كان الى النبي صلى الله عليه وسلم لكنه منزل اليهم أيضا بواسطته عليه الصلاة والسلام وانما اعتبر حاله بالواسطة دون حاله بالذات كما فى قوله تعالى «إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس» ونظائره لاظهار كمال اللطف بهم والتصريح بوصوله اليهم مبالغة فى الاعذار وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لما مر غير مرة من الاهتمام بماقدم والتشويق الى ماأخر وللمحافظة على فواصل الآى الكريمة (فاما الذين آمنوا بالله) حسبما يوجبه البرهان الذى أتاهم (واعتصموا به) أى عصموا به أنفسهم مما يرديها من زيغ الشيطان وغيره (فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل) قال ابن عباس رضى تعالى عنهما هى الجنة وما يتفضل عليهم مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر وعبر عن افاضة الفضل بالادخال على طريقة قوله علفتها تبنا وماء باردا وتنوين رحمة وفضل تفخيمي ومنه متعلق بمحذوف وقع صفة مشرفة لرحمة (ويهديهم اليه) أى الى الله عز وجل وقيل الى الموعود وقيل الي عبادته (صراطا مستقيما) هو الاسلام والطاعة فى الدنيا وطريق الجنة فى الآخرة وتقديم ذكر الوعد بادخال الجنة على الوعد بالهداية اليها على خلاف الترتيب فى الوجود بين الموعودين للمسارعة الى التبشير بما هو المقصد الاصلى. قيل انتصاب صراطا على أنه مفعول لفعل محذوف ينبيء عنه يهديهم أى يعرفهم صراطا مستقيما (يستفتونك) أى فى الكلالة استغنى عن ذكره بوروده فى قوله تعالى (قل الله يفتيكم فى الكلالة) وقد مر تفسيرها فى مطلع السورة الكريمة والمستفتي جابر بن عبدالله رضى الله تعالى عنه يروى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق مكة عام حجة الوداع فقال أن لي أختا فكم آخذ من ميراثها ان ماتت وقيل كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى كلالة فكيف أصنع فى مالي وروى عنه رضى الله عنه انه قال عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لاأعقل فتوضأ وصب من وضوئه على فعقلت فقلت يارسول الله لمن الميراث وانما يرثنى كلالة فنزلت وقوله تعالى (ان امرؤ هلك) استئناف مبين للفتيا وارتفع امرؤ بفعل يفسره المذكور وقوله تعالى (ليس له ولد) صفة له وقيل حال من الضمير فى هلك ورد بأنه مفسر للمحذوف غير مقصود فى الكلام أى ان هلك امرؤ غير ذى ولد ذكرا كان أو أنثى واقتصر على ذكر عدم الولد مع أن عدم الوالد أيضا معتبر فى الكلالة ثقة بظهور الامر ودلالة تفصيل الورثة عليه وقوله تعالى (وله أخت) عطف على قوله تعالى ليس له ولد أو حال والمراد بالاخت من ليست لأم فقط فان فرضها السدس

وقد مر بيانه فى صدر السورة الكريمة (فلها نصف ماترك) أي بالفرض والباقى للعصبة أولها بالرد ان لم يكن له عصبة (وهو) أي المرء المفروض (يرثها) أى أخته المفروضة أن فرض هلاكها مع بقائه (ان لم يكن لها ولد) ذكرا كان أو أنثى فالمراد بأرثه لها أحراز جميع مالها اذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلية لا أرثه لها فى الجملة فانه يتحقق مع وجود بنتها وليس فى الآية مايدل على سقوط الاخوة بغير الولد ولا على عدم سقوطها وانما دلت على سقوطهم مع الاب السنة الشريفة (فان كانتا اثنتين) عطف على الشرطية الاولى أى اثنتين فصاعدا (فلهما الثلثان مما ترك) الضمير لمن يرث بالاخوة والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى قيل وفائدة الاخبار عنها باثنتين مع دلالة ألف التثنية على الاثنينية التنبيه على أن المعتبر فى اختلاف الحكم هو العدد دون الصغر والكبر وغيرهما (وان كانوا)أى من يرث بطريق الاخوة (اخوة)أى مختلطة رجالا ونساء بدل من اخوة والاصل وان كانوا أخوة واخوات فغلب المذكر على المؤنث (فللذكر) أى فللذكر منهم (مثل حظ الانثيين) يقتسمون التركة على طريقة التعصيب وهذا آخر ماأنزل من كتاب الله تعالى فى الاحكام . روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال فى خطبته ألا أن الآية التي أنزلها الله تعالى فى سورة النساء فى الفرائض فاولها فى الولد والوالد وثانيها فى الزوج والزوجة والاخوة من الام والآية التى ختم بها السورة فى الاخوة والاخوات لابوين أو لاب والآية التى ختم بها سورة الانفال أنزلها فى أولى الارحام (يبين الله لكم) أى حكم الكلالة أو أحكامه وشرائعه التى من جملتها حكمها (أن تضلوا) أى كراهة أن تضلوا فى ذلك وهذا رأى البصريين صرح به المبرد وذهب الكسائى والفراء وغيرهما من الكوفيين الى تقدير اللام ولا فى طرفى أن أى لئلا تضلوا وقال الزجاج هو مثل قوله تعالى «ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا» أى لئلا تزولا وقال أبو عبيد رويت للكسائى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وهو « لايدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله أجابة» أى لئلا يوافق فاستحسنه وليس ما ذكر من الآية والحديث نصا فيما ذهب اليه الكسائى واضرابه فان التقدير فيهما عند البصريين كراهة أن تزولا وكراهة أن يوافق الخ وقيل ليس هناك حذف ولا تقدير وانما هو مفعول يبين أى يبين لكم ضلالكم الذى من هو شأنكم اذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه وأنت خبير بأن ذلك انما يليق بما اذا كان بيانه تعالى على طريقة تعيين موقع الخطأ والضلال من غير تصريح بما هو الحق والصواب وليس كذلك (والله بكل شيء) من الاشياء التى من جملتها أحوالكم

المتعلقة بمحياكم ومماتكم (عليم) مبالغ فى العلم فيبين لكم مافيه مصلحتكم ومنفعتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثا وأعطى من الاجر كمن اشترى محررا وبرىء من الشرك وكان فى مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم» والله أعلم

نحمد الله العظيم على تمام الجزء الأول من تفسير العلامة أبى السعود مفتى الثقلين ويليه الجزء الثانى أوله سورة المائدة



الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله على آلائه التى لا تحصى، والصلاة والسلام على حبيبه وصفيه المصطفى وعلى سائر الانبياء والمرسلين والصحابة والتابعين (أما بعد) فأنا لا نبالغ إذا قلنا أن هذا التفسير أول كتاب يقتنى للمعلم والمتعلم جميعاً بل نعد أنفسنا فى طاعة الله العظيم حينما قمنا بهذا العمل الجليل وسهرنا فى تصحيحه الليالى واتخذنا لمراجعته الكتب اللآلى فاليكم يا أولى العرفان فاغتنموه واقتبسوا من معلومات هذا الحبر المحنك الأديب ماهو أحلى من رشف السلسبيل. وألذ من نسيم الصبا للعليل. واعلموا أيها الاخوان أن الكمال لله وحده فانا مع بذل كل همة قد وجدنا فى هذا المجلد الحاوى لاربعين ملزمة بعض سقطات مطبعية تعد على الأصابع قلما يخلو عنها كتاب فى الدنيا قد تداركناها فى كتابة الفهرس منعا اللوم وخدمة للعلم الحق ولو قيس بغير مطبوعاتنا لكان هو اللب وهى القشور وسنعنى أكثر من هذه العناية فى الاجزاء الآتية وفقنا الله واياكم لما فيه السداد وألهمنا طريق الرشاد ؟

عبد الوصيف محمد
أحد علماء الشافعية بالأزهر الشريف

تم فى ٢ من شهر رجب الفرد من سنة ١٣٤٧ هجرية على صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليم

ص	
٢	خير ما يفتتح به القارىء الكريم وخطبة الكتاب
٦	تفسير سورة الفاتحة الشريفة
٨	الأقوال فى البسملة و معناها
٢٣	الأقوال فى فواتح السور من المقطعات
٢٦	أوجه الاعراب فى فواتح السور
٢٧	معنى قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه)
٢٨	معنى الهدى فى قوله تعالى (هدى للمتقين)
٣٠	هل يعتبر الوصول وعدمه فى مفهوم الهدى و الضلال
٣١	هل يعتبر الهدى فى مفهوم الهداية كالتعلم فى التعليم
٣٢	إيضاح للعلامة المفسر يتضح به طريق الهداية
٣٣	الأقوال فى معنى التقوى وفى مراتبها
٣٥	بيان وصف المتقين بقوله تعالى (يؤمنون بالغيب)
٣٧	الأقوال فى معنى إقامة الصلاة وما هو الرزق
٣٨	الفرق بين الانفاق والانفاد
٣٩	بيان كمال الايمان الغيبى و كيفية إنزال الله كتبه السماوية
٤٠	تتميم وصف المتقين بالهدى و الفلاح بالنظم البليغ والنسق البديع
٤١	مباحث العلامة البلاغية فى قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون)
٤٢	لآلىء بحثه البديع فى قوله تعالى (ان الذين كفروا) مع بيان معنى الكفر
٤٣	احتجاج المعتزلة على حدوث القرآن (بزيفه العلامة)

ص	
٤٤	الاستدلال على جواز التكليف بما لا يطاق من الآية الشريفة
٤٥	المباحث البيانية فى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم)
٤٦	تفضيل السمع على البصر وكيفية الختم والغشاوة
٤٧	لم سمى الانسان انسانا والجن جنا .
٤٨	بيان المراد بالناس وابتداء اليوم الآخر
٤٩	معنى قول الله فى المنافقين (يخادعون الله والذين آمنوا)
٥٠	معنى النفس وما يراد بها فى (وما يخدعون الا أنفسهم)
٥١	بيان أن الكذب مرتعه وخيم وسبيل إلى العذاب الأليم
٥٢	بيان أن المنافقين لا ينتهون ثم يقولون إنما نحن مصلحون
٥٣	آية الرد عليهم (ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)
٥٤	جهلهم المركب بآية (ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)
٥٥	آية الحكاية لذبذبة المنافقين (واذا لقوا الذين آمنوا) الخ
٥٦	الاستنتاج من حالهم تتعرف من الماسون صنوف الخداع و الذبذبة .
٥٧	أقوى حجة على خلق الله لكل الأفعال آية (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون)
٥٨	الاشارة إلى بلادتهم من قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) الآية
٦٠	معنى المثل وبداعة التمثيل وحسن تأثيره الجليل .

ص	
٦١	التمثيل لخيبة المنافقين بآية (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا)
٦٢	التمثيل البليغ فى (صم بكم عمى) الآية
٦٥	تفسير قول الجليل (من الصواعق الى يكاد البرق يخطف أبصارهم)
٦٧	البحث الشريف فيما تردله لومن المعانى
٧٠	جزالة التمثيل الثانى مع تفسير (يا أيها الناس اعبدوا ربكم)
٧٢	معنى لعل فى جانب الرب الجليل كقوله تعالى (لعلكم تتقون)
٧٤	تفسير آية المنة (الذى جعل لكم الأرض فراشا) الخ
٧٥	الرد على الطبيعيين بقوله تعالى (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم)
٧٧	تفسير آية التحدى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة)
٨٠	اختلاف المعنى لاختلاف الاعراب فى آية (وادعوا شهداء كم من دون الله)
٨٢	المعجزة الباهرة فى (ولن تفعلوا) لنفي المعارضة أبدا
٨٣	دليل وجود نار الآخرة الآن بآية (أعدت للكافرين)
٨٤	بيان أن الايمان غير العمل بآية (آمنوا وعملوا الصالحات)
٨٥	تفسير قوله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا) الآية
٨٧	عذوبة بيان المراد بأى مثل مطابق بآية (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما) الآية
٨٨	بيان معنى ضرب الامثال البيانية فى الكلام البليغ
٩١	القول الحق فى بيان معنى إرادة الله
٩٢	بيان معنى الفسق لغة وشرعا ومراتبه
٩٣	الابداع البيانى فى آية (ينقضون عهد الله) الخ
٩٥	التعجيب من الكفران مع عظيم الاحسان
٩٦	توسط خلق السموات بين إيجاد الارض ودحوها
٩٧	امتنان الله على جميع البشر بخلق سيدنا آدم عليه السلام ومنه تكون
٩٨	اختلاف الآراء فى حقيقة الملائكة
١٠٢	تشريف سيدنا آدم بآية (وعلم آدم الاسماء كلها) الخ
١٠٦	الدليل على أن اللغات توقيفية
١٠٧	تفسير (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) الآية
١٠٨	بيان أن الامر بالسجود تنجيزى أم تعليقى
١١٠	بيان امتناع إبليس عن السجود بآية (إلا إبليس أبى واستكبر)
١١١	بيان المراد بالجنة فى آية (اسكن أنت وزوجك الجنة)
١١٢	كيف أخرج إبليس اللعين سيدنا آدم والسيدة حواء من الجنة
١١٣	تفسير قول الجليل (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه)
١١٤	الايمان لا يتوقف على البعثة بآية (فأما يأتينكم منى هدى)
١١٥	معنى الآية واشتقاقها

ص

١١٦ دقة بيان العلامة فى آية (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم)
١١٧ نسخ القرآن لسابق الشرائع بآية (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم)
١١٨ تحذير العالم بالحق عن الكتمان بآية ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا)
١١٩ تفسير قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وفيها عظة العالم وتربية لنفسه
١٢٠ الدليل على جواز الوسيلة بآية (واستعينوا بالصبر والصلاة)
١٢١ تمسك المعتزلة بآية (ولا يقبل منها شفاعة والرد عليهم)
١٢٢ ألقاب الملوك بمناسبة قوله تعالى (وإذ نجيناكم من آل فرعون)
١٢٣ تفسير قوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم)
١٢٤ تفسير قوله الجليل (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة)
١٢٥ توبة بنى إسرائيل فى قوله تعالى فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم)
١٢٦ تعنت بنى اسرائيل مع أنبياء الحق
١٢٧ منة الله على بنى اسرائيل بآية (كلوا من طيبات ما رزقناكم) الآيات
١٣٠ ذلة اليهود الابدية بآية (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) الخ
١٣١ بحث العلامة فى معنى اليهود والنصارى
١٣٢ يتصف بالايمان من نطق بالشهادتين وان لم يؤمن بقلبه .
١٣٤ تفسير آيات البقرة ومحاورة بني اسرائيل .

ص

١٣٧ مغزى حكاية الجليل عن محاورة بنى إسرائيل (أن من شدد شدد عليه)
١٣٨ التمثيل لقدرة الجليل على بعث الموتى بآية (كذلك يحيى الله الموتى)
١٣٩ قسوة قلوب اليهود المتوارثة ونفاقهم بآية (ثم قست قلوبكم) الآيات
١٤٢ حرص اليهود على إخفاء الحق بقولهم لاخوانهم أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) الآية
١٤٣ افتضاح أمر كل خوان أثيم
١٤٤ حسن التعبير والابداع فى آية (ومنهم أميون إلى فويل لهم)
١٤٥ عذاب الله الاليم لمن غير فى كتابه
١٤٦ افتراء اليهود على الله فى قولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة)
١٤٧ بيان أن الخلود فى النار مختص بالكافر
١٥٠ بيان أن اليهود يتناقضون فى أقوالهم وأفعالهم .
١٥٢ تفسير (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل)
١٥٤ فضيحة اليهود بقوله تعالى (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به)
١٥٥ توبيخهم على سوء صنيعهم بآية (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا)
١٥٩ حرص اليهود على الحياة وجبنهم الطبيعى
١٦٠ تفسير (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك) الآية
١٦١ بيان غضب المنعم على من يجحده
١٦٢ تفسير قول الجليل (ولما جاءهم

ص

رسول مصدق لما معهم الآية

١٦٣ تفسير قول الجليل (واتبعوا ما تتلوا الشياطين) الآية

١٦٤ بيان السحر وأنواعه والمراد منه

١٦٥ « ما قيل فى قول الجليل (ببابل هاروت وماروت) الآية

١٦٦ آيات أماتتهما (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة)

١٦٧ آية اختصاصه تعالى بالتصرف

١٦٩ آية النهى عن محاكاة الكفار

١٧٠ تكريم نبينا رغم أنف اليهود

١٧١ بيان معنى النسخ وما يراد به هنا

١٧٦ الاسلام من أكبر نعم الله على خلقه

١٧٩ آية تنزيه الرب الجليل عن الولد

١٨٠ التمثيل لسرعة التكوين الالهى

١٨٢ تفسير قوله تعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى الخ

١٨٤ معنى الابتلاء من العليم الخبير وبيان الآراء فى كلمات سيدنا ابراهيم

١٨٧ بيان تشريف البيت الحرام

١٨٨ آية دعاء الخليل المبارك

١٨٩ بيان أن مكة المشرفة وأهلها فى بحبوحة دعاء الخليل الى الأبد

١٩٠ ما قيل فى بناء البيت الحرام

١٩١ بيان كم نبى ودعاء سيدنا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام

١٩٥ توبيخ اليهود على ما يفترون

١٩٧ تفسير قوله تعالى (وقالوا كونوا هودا أو نصارى الخ

١٩٨ تصديق المؤمنين لجميع الانبياء

١٩٩ نصرة الله لنبيه ضد المعاندين

ص

٢٠٠ حسن المشاكلة التقديرية فى قوله (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة)

٢٠٢ توبيخ الخائنين على ما يكتمون

٢٠٣ (تفسير سيقول السفهاء من الناس)

٢٠٦ الكلام فى القبلة وتحويلها للحكمة الصمدانية

٢١٢ بيان أن الرسول من البشر نعمة

٢١٣ « الحياة البرزخية فى قوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله) الخ

٢١٤ آية فضيلة الصبر والتسليم الى الله عز وجل

٢١٥ تفسير قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله)

٢١٦ تفضل الله بقبول من أناب اليه

٢١٨ آية وحدة الصانع الحكيم (إن فى خلق السموات والأرض الآية

٢١٩ توبيخ سفهاء الأحلام

٢٢٠ اظهار شرف المؤمنين بقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله الخ

٢٢٣ آية ذم التقليد وتوبيخ المقلدين

٢٢٧ تفسير قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم الخ

٢٢٨ الايمان هو البر من قوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله الخ

٢٣٠ بيان شرعية القصاص بآية (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص الخ

٢٣٤ آية شرع الصيام (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) الخ

٢٤٠ مكارم الاخلاق من قول الحكيم (فان انتهوا فان الله غفور رحيم)

ص

٢٤٢ دقة العلامة فى التكلم على العمرة

٢٤٣ بيان الخلاف فى وقت الحج فى قوله تعالى(الحج أشهر معلومات)

٢٤٥ بيان لم سمى الموقف فى الحج عرفة والافاضة منه بآية (ثم أفيضوا

٢٤٨ الكبر يمنع من قبول العظة بآية (واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم)

٢٥١ فائدة بعثة الرسل بقوله تعالى (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)

٢٥٤ ذم الفتنة وتقبيح فاعلها

٢٥٥ تحريم الخمر والميسر بقول الجليل (يسألونك عن الخمر والميسر)

٢٥٦ ما قيل فى الخمر والميسر والأنصاب والازلام فى الجاهلية والاسلام

٢٥٧ مشروعية كفالة اليتيم بقوله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم

٢٥٩ المنع من نكاح الكافر للمسلمة

٢٦٠ حكمة النهى عن وطء الحيض بقوله تعالى (قل هو أذى)

٢٦٢ المذاهب فى لغو اليمين

٢٦٣ عدة المطلقات بقوله تعالى(والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء)

٢٦٥ آية الخلع والتحلل من الطلاق الثلاث وحكمها فى الشريعة

٢٦٧ النهي عن منع المطلقة بعد وفاء عدتها أن ترجع الى زوجها المطلق

٢٦٨ بيان مدة الرضاع بآية (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين)

٢٦٩ بيان من تلزمه نفقة الرضاع بقوله تعالى (وعلى المولود له رزقهن)

٢٧٠ بيان عدة المتوفى عنها زوجها بآية

ص

(والذين يتوفون منكم الآية)

٢٧١ الفرق بين التعريض والكناية بقوله تعالى (فيما عرضتم به الخ

٢٧٢ بطلان النكاح قبل وفاء العدة بآية (ولا تعزموا عقدة النكاح الخ

٢٧٣ بيان حكم المتعة من قوله تعالى (ومتعوهن على الموسع قدره) الآية

٢٧٤ بيان الأقوال فى الصلاة الوسطى فى قول الجليل (والصلاة الوسطى)

٢٧٥ الصلاة لا تسقط مع الخوف والقتال بآية (فان خفتم فرجالا أو ركبانا)

٢٧٦ ما قيل من نسخ المدة والنفقة فى قوله تعالى (متاعا الى الحول غير اخراج

٢٧٧ مثل تعجيل العمل الصالح طلبا للثواب فى آية (من ذا الذى يقرض الله) الآية

٢٧٨ ما ورد فى قوله تعالى (ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل)

٢٧٩ جبن بنى أسرائيل من عهد قديم بقول الحكيم (فلما كتب عليهم القتال الخ

٢٨٠ ما قيل فى التابوت فى قوله تعالى (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت)

٢٨١ بيان تمام العبرة بقول تعالى(فلما فصل طالوت بالجنود) الآية

٢٨٢ تمام جبنهم بقول الله عنهم (قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده

٢٨٣ بيان ثبات قلب المؤمن بقول مؤمنيهم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة

٢٨٤ بيان نصر الله للمؤمنين بقوله تعالى (فهزموهم بأذن الله)

٢٨٥ تفسير قوله تعالى(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)

ص		ص	
٢٨٩	ما ورد من شريف الأخبار ومحاسن الآثار فى فضل آية الكرسى		الرجل (فان لم يكونا رجلين فرجل و امرأتان) الآية
٢٩٠	شرف دين الأسلام فى قول الجليل (لا إكراه فى الدين) الآية	٣١٣	آية الارشاد الى الوفاء (ولا يأبى الشهداء اذا ما دعوا) الآية
٢٩٢	مناظرة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام لخصمه المعاند	٣١٤	آية حسن المعاملة (وأشهدوا اذا تبايعتم) الآية
٢٩٥	ما قيل فى إحياء الله للعزير وأرجاع حماره وحفظ طعامه	٣١٥	آية الرد على منكرى الحساب(وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه) الآية
٢٩٦	زيادة أيقان الخليل عليه السلام بقدرة الرب الجليل	٣١٦	تفسير قوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه) الآية
٢٩٨	المثل الجليل مع سيدنا أبراهيم الخليل فى أحياء الله الموتى	٣١٨	اعتدال المؤمنين بقول الله عنهم (لا نفرق بين أحد من رسله)
٢٩٩	بيان قوله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) الآية	٣١٩	بيان قول الله عن المؤمنين(وقالوا سمعنا وأطعنا)الخ
٣٠٠	مكارم الأخلاق فى قول الجليل (قول معروف ومغفرة خير من صدقة الخ	٣٢٠	تفسير قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت) الآية
٣٠١	المثل من الآية الكريمة لافادة أن الرياء يحبط ثواب الأعمال	٣٢١	تفسير أول سورة آل عمران
٣٠٥	آية الحث على الأنفاق فى البر (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر) الآية	٣٢٣	شهادة الاحياء بصدق الرسول على الحقيقة
٣٠٦	مكارم الاخلاق فى قول الجليل (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء) الآية	٣٢٤	تصديق النبى الكريم بقوله تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق) الآية
٣٠٧	آية الحث على التصدق على الفقير المتعفف	٣٢٥	ذكر التوراة والانجيل والفرقان وتفضل العليم بهدى العالمين
٣٠٨	بيان ذم المرابين وتقبيحهم بآية الذين يأكلون الربا) الآية	٣٢٧	بيان عزة الجليل فى آية (هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء)
٣٠٩	تفسير قول الجليل (وأحل الله البيع وحرم الربا) الآية	٣٢٨	بيان المحكم والمتشابه فى قوله تعالى (منه آيات محكمات) الآية
٣١٠	بيان أن لا قيمة للربا بآية (وان تبتم فلكم رءوس أموالكم)	٣٣٢	تفسير قول الجليل (وأولئك هم وقود النار) وفيها المثل العجيب
٣١٢	آية أن المرأة على النصف من	٣٣٤	المعجزة الباهرة فى واقعة بدر بآية (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا)

ص

٣٣٥ ماورد في واقعة بدر من نصر الله لمن يعرفه

٣٣٦ آية نصر الله لجيش المؤمنين (يرونهم مثليهم رأى العين) الآية

٣٣٧ تفسير قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين) الآية

٣٣٩ ذكر صفات المؤمنين حقا .

٣٤٠ الاسلام هو الدين الحق بآية (ان الدين عند الله الاسلام)

٣٤٢ أقبح أفعال اليهود سفهاء الاحلام .

٣٤٥ آية تصريف الله في الافلاك

٣٤٦ آية تكوين حسن الرابطة وتقوية الوحدة .

٣٤٧ عزة الله الجليل وإنذاره للجاحدين بآية (ويحذركم الله نفسه)

٣٥٢ بداعة المجاز المركب في قوله تعالى (قالت رب إني وضعتها أنثى)

٣٥٣ حسن قبول الله لمن أقبل عليه بآية (فتقبلها ربها بقبول حسن)

٣٥٨ بيان أن أفعال الله الحكيم أكبر من أن تقف عند مدارك العقول

٣٥٩ تشريف السيدة مريم بآية (إن الله اصطفاك)

٣٦٠ بيان المراد من قوله تعالى (يامريم اقنتي لربك) الآية

٣٦١ آية اختصاص النبي بالشرف العظيم

٣٦٢ آية وسام الشرف لسيدنا عيسى

٣٦٣ آية سرعة تكوين العزيز المقتدر

٣٦٤ معجزات سيدنا عيسى عليه السلام

٣٦٧ بيان الأقوال في معنى الحواريين

٣٦٨ حسن المشاكلة في آية (ومكروا ومكر الله) الآية

ص

٣٦٩ بيان مؤسس النصرانية بعد صلب شبيه عيسى عليه السلام

٣٧٠ قصة صلب الشبيه ورفع سيدنا عيسى

٣٧١ تفسير آية الحق المبين (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) الآية

٣٧٢ دعوة النبي عليه السلام وفد نجران للمباهلة واعتراف حبرهم بنبوته .

٣٧٤ آية الهدى والدعاية إلى الاسلام

٣٧٥ آية تبرئة الانبياء صلوات الله عليهم من الجحود

٣٧٧ آية توبيخ من اتبع هواه وباع دينه بدنياه .

٣٨٠ النص الصريح على تفضيل نبينا على سائر الانبياء عليهم السلام

٣٨٤ مكارم الاخلاق في قول الجليل لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)

٣٨٧ المباحث اللغوية الشريفة في قوله تعالى (للذى ببكة مباركا)

٣٨٩ تفسير قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا)

٣٩٠ الاسرار المنيفة والتطبيقات البلاغية العجيبة في آية الحج الشريفة

٣٩١ بيان توبيخ اليهود بقوله تعالى (قل يا أهل الكتاب) الآية

٣٩٣ التعجيب من الكفران مع وجود منزله بآية (وكيف تكفرون) الخ

٣٩٤ محاسن التمثيل والاستعارة في قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً)

٣٩٦ بيان فضيلة الناصحين المرشدين بآية (وأولئك هم المفلحون)

ص		ص	
٤٠٣	بيان أن الله الكريم لا يضيع عمل عامل	٤٣٧	آية الحث على الجهاد (ولئن قتلتم في سبيل الله) الخ
٤٠٤	بيان أن الاموال لا تغني عند الله مع الكفر بآية (إن الذين كفروا لن تغنى) الخ	٤٣٩	آية الحث على امضاء العزيمة (فاذا عزمت فتوكل على الله)
٤٠٧	بيان ما جاء في غزوة أحد واستشارة النبي عليه السلام الخ	٤٤٠	آية التفرقة بين الطائع والعاصى (أفمن اتبع رضوان الله) الخ
٤١٢	حسن الابداع في تلوين الخطاب من قول الحكيم (ليس لك من الأمر شيء)	٤٤١	الفائدة العظمى في بعث الرسول منا في قول الحكيم (ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)
٤١٤	بيان النهى عن التعامل بالربا وما قيل في قوله تعالى أضعافا مضاعفة الخ	٤٤٢	الآية على تأخر الامم قبل مبعث رسل الله (وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)
٤١٥	بيان أخوف آية في القرآن بقول النعمان (واتقوا النار التي أعدت للكافرين)	٤٤٦	آية شرف الشهداء وحياتهم (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا)
٤١٧	تفسير قول الرحيم (والذين اذا فعلوا فاحشة) الخ	٤٤٨	الايمان يزيد وينقص بآية (فزادهم إيمانا) الخ
٤٢٥	بيان ما قاساه الرسول الأكرم من شدة الأهوال في نصرة دينه القويم	٤٥٤	الغيب مما استأثر الله بعلمه بآية (وما كان الله ليطلعكم على الغيب)
٤٢٩	بيان أن المؤمنين إذا التجأوا الى ربهم آتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة	٤٥٧	بيان قوله تعالى (ذلك بما قدمت أيديكم) الخ
٤٣٠	الارشاد الى الكياسة بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا) الخ	٤٥٩	بيان سر التكليف في قول الجليل (لتبلون في أموالكم وأنفسكم) الآية
٤٣٢	بيان أن ترك قتال المشركين موجب للخيبة والحسرة والندامة	٤٦١	ما ورد في كتم العلم في بيان قوله تعالى (ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم)
٤٣٤	آية التوبيخ على حب النفس (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) الخ	٤٦٤	تكلم العلامة في فنى الفلك والجغرافيا في قوله تعالى واختلاف الليل والنهار)
٤٣٥	آية أن ما قدر لا بد كائن (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل)	٤٦٥	ما ورد في هيئة الذكر الشرعى في آية الذين يذكرون الله قياما وقعودا)
		٤٦٧	الحكمة البالغة في خلق الخلق أجمعين ومن أبدعها خلق السموات والارض
		٤٧٠	حسن النظر في العواقب بقول الطائعين

ص

(ولا تخزنا يوم القيامة)

٤٧١ بيان انعام الله على العاملين بآية (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل) الخ

٤٧٤ بيان جواز الصلاة على الميت الغائب من فعل النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته

٤٧٥ تفسير أول سورة النساء

٤٧٦ بيان أصل خلق الانسان بقوله تعالى (وخلق منها زوجها) الخ

٤٧٨ البحث عن معنى اليتيم ومعنى ايتاء المال اليه فى آية (وآتوا اليتامى أموالهم)

٤٨٠ تفسير قوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء)

٤٨٣ بيان ما أحل للأزواج من صداق نسائهم فى آية (فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً)

٤٨٧ آية الارشاد الى ستر الذرية الى الأبد وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية الخ

٤٨٩ تفسير آية المواريث تقسيم الله الحكيم العادل (للذكر مثل حظ الانثيين)

٤٩٣ بيان المراد بالكلالة فى قوله تعالى (وان كان رجل يورث كلالة) الآية

٤٩٤ الاشارة الى أحكام قسمة المواريث بقول العليم الخبير (تلك حدود الله)

٤٩٥ التشديد على الزانيات العاهرات بآية فأمسكوهن فى البيوت الخ

٤٩٧ قبول توبة العاصى المنيب بآية (ثم يتوبون من قريب)

٤٩٩ آية انصاف الزوجات (ولا تعضلوهن لتذهبوا) الآية

ص

٥٠١ التنفير من مراتب القبح الثلاثة

٥٠٢ آية التحريم بالرضاعة (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم) الخ

٥٠٣ مباحث العلامة فى (وربائبكم اللاتى فى حجوركم الخ)

٥٠٥ تفسير أول الجزء الخامس من القرآن الكريم وما يتعلق بحقوق الزوجات

٥٠٩ بيان الرخصة فى نكاح الأماء

٥١٠ بيان ما يؤخذ من قوله تعالى (فانكحوهن باذن أهلهن)

٥١٣ غاية الأبداع فى النهى عن قتل الانسان

٥١٤ الأقوال فى معنى الكبيرة

٥١٧ آية تفضيل الرجال على النساء

٥١٨ آية تأديب الزوجات (فعظوهن واهجروهن) الخ

٥١٩ آية أحكام العشرة (وأن خفتم شقاق بينهما) الآية

٥٢٠ آية أحكام الرابطة (وبالوالدين احسانا) الخ

٥٢١ آية التقديس الحق وكمال العدالة (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) الخ

٥٢٢ النص الصريح على سيادة النبى على الخلق أجمعين

٥٢٤ آية النهى عن الدخول فى الصلاة بلا وعى

٥٢٥ آية الرخصة الجليلة فى الطهارة

٥٢٨ سحر البيان ولطائف الكناية فى آية من الذين هادوا يحرفون الكلم الخ

٥٢٩ آية خبث اليهود قولا وفعلا

٥٣٤ آية التعجيب من لا يستحى ويجترىء على الباطل

ص

٥٣٦ آية العام المراد به الخصوص مجازا (أم يحسدون الناس) الخ

٥٤٠ آية الحث على العدل فى القضاء

٥٤٤ تفسير قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله)

٥٤٥ جلالة النبي عند من يعرف فضله

٥٤٧ آية التشجيع مع أخذ الحذر (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم)

٥٤٨ آية المنافقين دعاة الهزيمة وخبثهم فى كل أمة

٥٥٠ مقاصد المجاهدين حقا (فى آية الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله)

٥٥٢ آية سلطان الرب الجليل على جميع خلقه

٥٥٣ آية نهاية الابداع فى التوبيخ (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)

٥٥٤ آية الافعال ايجادا وكسبا

٥٥٥ آية رأفة الله برسوله وتوبيخ المعرض عنه

٥٥٦ آية التبصرة والعبرة (أفلا يتدبرون القرآن) الخ

٥٥٧ آية الحث على الاحتكام الى الحكام

٥٦٠ آية غاية الكمال فى المجاملة (واذا حييتم بتحية الآية)

٥٦١ آية من طبعه النفاق لا ينجح ولا يمدح

٥٦٢ آية الارشاد الى مقاصد الكفار من المسلمين

٥٦٣ تفسير آية أخذ الحذر منهم

٥٦٤ ماقيل فى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ)

ص

٥٦٥ بيان كفارة القتل الخطأ

٥٦٦ بيان جزاء القتل العمد

٥٦٧ تمسك المعتزلة بالآية لخلود القاتل عمدا فى النار والرد عليهم

٥٦٨ آية النظر فى العواقب .

٥٦٩ بيان الحث على إمعان النظر

٥٧٠ آية تفاوت درجات المجاهدين

٥٧١ بيان رضاء الله عمن جاهد فى سبيله

٥٧٢ ماأعد للمجاهدين من النعيم المقيم

٥٧٣ تفسير قوله تعالى (أن الذين توفاهم الملائكة) الخ

٥٧٥ آية الحث على طلب السعة بالهجرة

٥٧٦ آية شرعية صلاة القصر

٥٧٨ بيان مشروعية صلاة الخوف

٥٧٩ آية أن اتخاذ العدة للعدو عبادة فاضلة

٥٨٠ آية أن الصلاة لاتسقط بحال

٥٨١ بيان أن الظالم لايعان ولا يقر بآية (ولا تكن للخائنين خصيما)

٥٨٣ آية حفظ النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ فى الاحكام

٥٨٦ آية إن الامانى الكاذبة مهواة العثور

٥٨٧ آية التفرقة بين وعد الخالق والمخلوق

٥٨٨ آية حسن تطهير القلب من الشواغل الباطلة

٥٩٠ آية توبيخ أولياء اليتامى الطامعين فيهم

٥٩١ إرشاد الحكيم الى دوام العشرة بين الزوجين

٥٩٢ صنوف الحكمة فى قول الحكيم (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم

٥٩٣ آية المقدرة الكاملة ونهاية التهديد

ص		ص	
	(أن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد		السماوية
٥٩٦	آية أن المنافق والجاسوس لعدو البلاد في نهاية الانحطاط	٦١٠	تفسير قوله تعالى (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله)
٥٩٧	آية أن المنافق والكافر سواء	٦١١	تفسير قوله تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) الآية
٥٩٩	تفسير قوله تعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم الخ	٦١٢	آية الارشاد الى الحق المبين
٦٠٠	تفسير أول الجزء السادس من التنزيل	٦١٣	آية بطلان الاشراك والتثليث
٦٠٣	ما أبدع به العلامة في تفسير قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم	٦١٦	إطلاق البرهان على القرآن الكريم
		٦١٧	تفسير آية الكلالة
٦٠٨	نهاية تشريف سيدنا موسى عليه السلام بآية (وكلم الله موسى تكليما	٦١٩	ما ورد في فضل سورة النساء وخاتمة الجزء الأول
٦٠٩	حكمة إرسال الله رسله بالشرائع	٦٢٠	فهرس الجزء الأول الى النهاية

بعض ما ورد في ترجمة العلامة المفسر

قال في كشف الظنون نمرة ٦٧ ج أول

أرشاد العقل السليم ألى مزايا القرآن الكريم في تفسير القرآن العظيم على مذهب النعمان لشيخ الأسلام ومفتي الأنام مولانا أبو السعود العمادي المتوفى سنة ٩٨٢ هجرية ولما بلغ تسويده ألى صورة «ص» وطال العهد بيضه في شعبان سنة ٩٧٣ وأرسله ألى السلطان سليمان خان مع ابنه المعلول فاستقبل ألى الباب وزاد في وظيفته وتشريفاته ؟

تفسير العلامة أبي السعود

إلى جمهور العالم الاسلامي عامة — وأفاضل المتعلمين خاصة

[ليع]لن الجمعية العلمية الازهرية المصرية الملايوية بأنها قدمت للعالم الحي كتاب تفسير [الع]لامة أبي السعود . وهو ذلك السفر الجليل الذي لم يسبق اليه ولن يسمح الدهر بمثله [م]ن تطبيقات بلاغية تسحر قلوب العارفين إلى أخلاق ومناسبات تاريخية بهجة للناظرين [و]أحكام أصولية وأخرى فرعية . تنم عن مكانة ذلك الامام مفتي الثقلين . كأن تفسيره [لذ]كر الحكيم . الجواهر اللؤلئية . وسبك عباراته السلاسل الذهبية .
[لا ي]ضاري القول وحاداه . أنه التفسير الوحيد في بابه . الكافي لطلابه . فاليكم تزف [ال]جمعية هذه البشرى . فلقد خرج منه الجزء الأول . يحكي قلائد العقيان في جيد [ال]حسان . فهلموا أيها المشتركون الى استلامه . وتمتعوا بتصحيحه الدقيق . ووضعه [و]منظره الانيق . فقد طبع بدار العصور . وما أدراك ما دار العصور . حروفها ألمانية [لا] كسر فيها ولا تفاوت بينها . صناعها أحسن العمال . وصاحبها عند قول الشاعر المجيد :

فان تفق الأنام وأنت منهم ... فان المسك بعض دم الغزال

هلا . هلموا . ياعشاق العلوم والمعارف . فاشتركوا في هذا الكتاب . فانه أثناء الطبع [سه]ل المنال . وتسهيلا للمنفعة قد جعلت الجمعية الاشتراك فيه كما يأتي :
[...]ء الاول من الورق الابيض الناعم الجيد : ٨ قروش صاغا
« « السنتيه الاسمر « ٧ « «
وهو يقع في أربع مجلدات من حازها حق له أن يفتخر بها . يكون ثمنها بعد الطبع ٦٠ قرشاً صاغاً من الورق الجيد و ٤٠ قرشاً صاغا من الثاني عدا أجرة البريد . وفقنا الله وإياكم لاقتناء العلم الصحيح . والى تعضيد أهله العاملين على رفع مناره ؟

مدير الجمعية

عبد الوصيف محمد

أحد علماء الأزهر الشريف